



جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الإمام الكاظم عليه السلام

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١/١٩٨١ م) رحمه الله

من غريب ما نسا النوري الجزء الأول
من غريب ما نسا النوري الجزء الثاني
نسا النوري في العبادات والعقائد

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

المجلد السابع

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -





الإمام الكاملين
لفضيلة الشيخ
عبدالله النوري
المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله





جَمْعِيَّةُ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ النَّوْرِيِّ خَيْرَاتٍ
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

تأسست عام (١٤٠١هـ / ١٩٨١م)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

(١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بمكتبة الكويت الوطنية

ISBN: 978-9921-9721-8-4

البريد الإلكتروني (الإيميل)

Info@alnouri.org

هاتف: (٢٢٥٤٠٢٨٠)، (٢٢٥٤٠٢٧٠)، فاكس: (٢٢٥٤٠٢٦٠)

جَمْعِيَّةُ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ النَّوْرِيِّ خَيْرَاتٍ

جمعيّة كويتيّة خيريّة تُساهم في بناء المجتمعات وتنميتها

وتُكمل المسيرة الخيريّة للمغفور له بإذن الله الشيخ عبد الله النوري رحمه الله



جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله

من غريب ما نبأ النوري الجزء الأول

من غريب ما نبأ النوري الجزء الثاني

نبأ النوري في العبادات والعقيدة

اعتق به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

المجلد السابع

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ٢٠١٩م) رحمه الله

من غريب ما سألوني الجزء الأول

اعتقني به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى معلّمي الأوّل والدي وأستاذي وشيخي محمّد النُّوريّ الَّذِي غَدَّاني
بالمعرفة وأنا رضيعٌ، وأقرّاني كتاب الله حتّى ختمته، ثمّ فقّهني في ديني،
واختار لي طريقي فأحسن الاختيار، وأضاه لي فأحسن الإضاءة، ونصح
لي فصدق النصيحة.

وإلى روح شيخي وأستاذي المرحوم الشيخ عبد الله بن خلف بن
دحيان الَّذِي كان لي كالأب بعد والدي، فقّهني في ديني وأخلص في
التّعليم حتّى عرفت في نفسي العلم، وأكّد هذا بقوله: قد تعلّمت. ثمّ دعا
لي بالبركة.

وإلى روح شيخي وأستاذي المرحوم جمعة بن جودر الَّذِي علّمني
قواعد اللّغة العربيّة وأصول نحوها حتّى استطعت الكتابة والقراءة.

أهدي كتابي هذا عرفاناً بالجميل، راجياً من كلّ من قرأ هذا الكتاب
أن يترحم عليهم.

رحمهم الله ورضي عنهم وأنزلهم منازل الأبرار في مقعد صدقٍ عند
ملكٍ مُّقْتدر.

عبد الله محمّد النُّوريّ





تصدير

الدكتور عبد العزيز محمّد المنصور

تعتزُّ «ذات السّلاسل» للطّباعة والنّشر بأن تقدّم لقراءها هذه الطّبعة من كتاب «من غريب ما سألوني» لفضيلة الشّيخ المغفور له عبد الله النّوريّ.

وليس لنا أن نقول في الكتاب كلمة تقريظٍ واحدة؛ فذلك متروكٌ للقارئ الكريم نفسه؛ فهو وحده صاحب هذا الحقّ، ولا شكّ أنّ أسلوب العرض، ووجود نيّة صادقة لخدمة الحياة الإسلاميّة كما شاءها لنا ربّ العالمين جلّت قدرته سيّهيّان الجوّ النّفسيّ عند القارئ ليكون الرّضا سبيلاً إلى قراءة الفاتحة ترحمًا على روح صاحب الكتاب المغفور له فضيلة الشّيخ عبد الله النّوريّ، فهو رجلٌ وهب حياته لله وكلمته ودينه منذ مطلع صباه حتّى آخر نسمة حياةٍ قدّرها له الله، وسواءً هنا في الكويت، أو في شبه الجزيرة العربيّة، أو إندونيسيا فقد حمل راية الدّعوة الإسلاميّة والدّفاع عن الدّين بالقول والعمل، والرّأي والقُدوة الحسنّة، وهذا هو الجهاد الحقّ في سبيل الدّعوة لله، وقد كان رحمه الله تعالى خزّانة علم بكاملها، فلم يبخل على أحدٍ من النّاس بما يفيدهم، فوهب علمه لله بلا منّةٍ حامدًا الباري ﷻ وشاكره على ما هداه إليه من علمٍ في أمور الدّين والدّنيا، وقد كان قريبًا من النّاس، متواضعًا لهم، يشعر بهم، ويعالج مشكلاتهم، ويعطيهم من علمه ما فيه شفاءً لنفوسهم وحلّ لمشكلاتهم، ولربّ كلمة تُقال تفعل فعل السّحر في النّفوس، فتُدخل الطّمأنينة إلى القلب والسّكينة إلى النّفوس، وتفسح درب الهداية للحقّ والنور، ورجل



حاله مثل حال فضيلة الشَّيْخِ النَّوْرِيِّ يكون علمه نافعًا ومفيدًا؛ لأنَّه ينقله لأصحاب الحاجة إليه، مثل علم الطَّيِّبِ الَّذِي يضعه في خدمة المريض؛ إذ يهيئ له جوَّ الشِّفاء الجسديِّ، ورجل الدِّين يهيئ للإنسان جوَّ الشِّفاء النَّفْسِيِّ حين يأخذ بيده إلى طريق الصَّواب.

وما يجده القارئ في هذا الكتاب قليلٌ من كثيرٍ مرَّ في حياة أشخاصٍ فسألوا الشَّيْخَ النَّوْرِيَّ الرَّأْيَ والنُّصْحَ والمشورة، وهو اختار ما نُشر في هذا الكتاب؛ لاعتقاده أنَّه سينفعُ أشخاصًا آخرين قد يصادفون الموقف نفسه، أو ما يُشبهه، فيجدون الجواب.

ولولا التُّقَّة العميقة بين السَّائل والمجيب لما تقدَّم السَّائل بسؤاله طالبًا الرَّأْيَ والمشورة والنُّصْحَ، وهذه ميزة العلماء الَّذين يخدمون النَّاسَ بالقول والعمل؛ فالتُّقَّة بعلم الشَّيْخ هي الأساس، وهذه من نعم الله على عبَّيده المخلصين.

وإذا كان للنَّاشِر كلمةٌ يقولها فهي أنَّ المغفورَ له فضيلة الشَّيْخ عبد الله النَّوْرِيِّ كان قد خصَّ ذات السَّلاسل بنشر كتابيه «الأمثال العامية»، و«مذكَّرات عن المرحوم الشَّيْخ أحمد الجابر»، وهذا مبعث اعتزازنا وحافزنا لمتابعة نشر كلِّ ما جادَ به قلمُه بعد أن فوّضتنا جمعيَّة الشَّيْخ عبد الله النَّوْرِيِّ الخيريَّة بذلك العمل، فإنسانٌ عاش يعمل لآخرته لا لدنياه لا يُقابل فضله إلا بالوفاء، فذلك يتمُّ النَّفع والفائدة لتعمَّ بين النَّاس؛ لأنَّ جزاء الإحسان هو الإحسان، ولأنَّ إحياء ذكر هذا الرَّجل الفاضل الكريم المحسن الخلق يستوجب نشر آثاره وآرائه وأفكاره بين النَّاس ينتفعون بها فيكون لهم فيها فائدةٌ وهدايةٌ، ويكون له بها ثوابٌ وأجرٌ عند الله يُضاف إلى ما عمله بدنياه لله، وهو كثيرٌ كثيرٌ.

جزاه الله عنَّا أحسن الجزاء، وطيب ثراه، والحمد لله ربِّ العالمين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

أحمد الله جلَّ شأنه، وأسأله التَّوفيقَ إلى ما يحبُّ ويرضى، وأستعين به وأستهديه إلى السَّبيلِ السَّويِّ القويمِ، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمدِ النَّبيِّ الَّذي بعثته نورًا، وأنزلت عليه كتابًا يهدي للَّتِي هي أقوم، وبعد:

فمنذ سنة (١٩٦٤م) أو قبلها بقليل حُدِّت لي جلسةٌ أسبوعيَّةٌ في تلفزيون الكويت للردِّ على أسئلة السَّائلين الدِّينيَّة والاجتماعيَّة، وتجمَّع عندي من هذه الأسئلة وأجوبتها كثيرٌ، وقد أشار عليَّ بعض الإخوة أن أجمعها في كتاب، ووفَّقني الله لاستجابة طلبهم، فأصدرت منها الجزء الأوَّل ثمَّ ملحقه بعنوان «سألوني»، وضمَّنته الأجوبة على الأسئلة الاجتماعيَّة والأسريَّة والتَّاريخيَّة والتَّفسيريَّة، فبلغ (٦٠٠) صفحةٍ أو يزيد، وخصَّصت الجزء الثاني للأسئلة الفقهيَّة من عباداتٍ، وأحوالٍ شخصيَّة، ومعاملاتٍ، وقبل أن يصل هذا الجزء إلى المطبعة عثرت على رسالةٍ تضمَّنت موضوعًا غريبًا يحمل مأساةً أشبه بالخيال، فجذبتني وأعدت قراءتها مرَّةً أخرى متعجِّبًا! هل هذا حقيقة؟! إلاَّ أنني تذكَّرت ما عشت لأتيقن أنَّ ما قرأت ليس خيالًا، غير أنَّها لم تكن مأساةً، فوضعت الرِّسالة في جيبِي؛ لكيلا تختلِط ببقية الرِّسائل.

كان الكاتب السُّكرتير يجلس معي كلَّ يومٍ بعد العصر أملي عليه أجوبة



الرَّسَائِلَ ، وَلَعَلَّهُ أَخَذَ بَعْضُهَا لِيَصُوغَ الْأَسْئَلَةَ أَوْ لِيَرُدَّ عَلَيَّ بَعْضُهَا إِنْ كَانَ مَرَّةً عَلَيْهِ مِثْلُهَا . ثُمَّ عَدْتُ لِقِرَاءَةِ الرَّسَالَةِ الْغَرِيبَةِ تِلْكَ ، فَأَنْكَرَ الْكَاتِبُ تَأْثُرِي بِهَا ، وَسَأَلَنِي : مَاذَا بِكَ ؟ فَأَعْطَيْتَهُ الرَّسَالَةَ ، وَلَمَّا قَرَأَهَا ؛ قَالَ : غَرِيبٌ وَاللَّهِ ! إِنَّهَا لِمَأْسَاءٌ حَقِيقِيَّةٌ ، فَقُلْتُ : وَسَنَجْمَعُ أَمْثَالَهَا فِي كِتَابٍ يُقْرَأُ ، يَحْمِلُ اسْمَ «غَرِيبٍ» ، وَكَانَتْ تِلْكَ هِيَ الرَّسَالَةُ الْأُولَى فِي كِتَابِنَا هَذَا ، وَسِيرَى الْقَارِئِ الْكَرِيمِ أَنَّهَا مَأْسَاءٌ وَيُوَافِقُنَا الرَّأْيَ ، وَأَنَّ الْمَآسِي كَثِيرَةٌ ، وَلرَبِّمَا تَكُونُ بَعْضُ الْمَآسِي نَعْمًا . وَبَدَأْتُ مَعَ السُّكْرَتِيرِ أَتَفَحَّصُ الرَّسَائِلَ ، فَمَا وَجَدْنَاهُ غَرِيبًا حَفْظْنَاهُ ، وَالَّتِي حَمَلَتْ عِنْوَانَ صَاحِبِهَا أَجْبَنَاهُ بِالْبَرِيدِ مَخْتَصِرًا .

وَفِي سَنَةِ (١٩٧٠م) زَادَتْ الرَّسَائِلُ الْغَرِيبَةَ عَلَيَّ الثَّلَاثِينَ ، فَارْتَأَيْتُ أَنْ أَقْدِمَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِوَصْفِهَا قِصَّةً مَحْتَفِظًا بِمَعْنَى السُّؤَالِ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ ، ثُمَّ أَنْشَرْتُهَا مَعَ الْجَوَابِ تَحْتَ عِنْوَانٍ : «مَنْ غَرِيبٌ مَا سَأَلُونِي» ، وَاخْتَرْتُ لِذَلِكَ مَجَلَّةَ الْيَقْظَةِ . وَقَدْ قَرَأَ الْقُرَّاءُ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ وَأَجَوَبْتُهَا ، فَتَوَالَتْ الْأَسْئَلَةُ الَّتِي ظَنَنْتُ مَرْسَلُوهَا أَنَّهَا غَرِيبَةٌ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ فِي نَظْرِي ، وَرَبِّمَا كَانَ بَعْضُهَا لَا أَسَاسَ لَهَا ؛ لِكُونِهَا مَخْتَلَفَةً . وَبَعْدَ نَشْرِ الرَّسَالَةِ الرَّابِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ تَلَقَّيْتُ رِسَالَةً مِنْ أَحَدِ الْقُرَّاءِ فِي الْكُوَيْتِ يَنْصَحُ لِي بِجَمْعِ تِلْكَ الرَّسَائِلِ وَأَجَوَبْتُهَا فِي كِتَابٍ يَحْمِلُ عِنْوَانَ «مَنْ غَرِيبٌ مَا سَأَلُونِي» ، ثُمَّ تَلَقَّيْتُ رِسَالَةً مِنْ قَارِئٍ فِي الْمَغْرِبِ ، وَبَعْدَهُ بِأَسَابِيعٍ جَاءَتْ رِسَالَةٌ أُخْرَى مِنَ السُّعُودِيَّةِ تَحْمِلُ النَّصِيحَةَ نَفْسَهَا ، وَأَكَّدَ السُّكْرَتِيرِ النَّصِيحَةَ ، ثُمَّ زَارَنِي جَاسِمُ أَحْمَدَ النَّصْفِ يَطْلُبُ مِنِّي أَنْ يَتَبَنَّى طَبْعَ الْكِتَابِ قَائِلًا : إِنَّ فِي طَبْعِ هَذَا الْكِتَابِ فَائِدَةً لِقَارِئِهِ ، وَفِيهِ دَرْسٌ وَعِبْرَةٌ وَذِكْرٌ ، فَلَا تَبْخُلْ بِالذِّكْرِ عَلَى الْقَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَقْنَعْتَنِي كَلِمَاتِهِ ، فَدَفَعْتُهَا لَهُ .



والقصص التي بين يديك أيها القارئ الكريم ورد أكثرها بالبريد، وبعضها قابلني أصحابها؛ كالرسالة المعنونة: أم مثاليّة، وبنّت مثاليّة، أو الرسالة: لا يتيمة ولا لقيطة، وغيرهما، وربّما ترى في بعض الأجوبة قسوة تشبه الصدمة الكهربائية، أردت بها أن يستعيد السائل توازنه، ويعود إلى رشده.

أخيراً أيها القارئ الكريم أقدم إليك هذا الجهد؛ لترى بعض ما يعانیه الناس من آلام في حياتهم، ولتعلم أنّ العالم مملوءٌ بالغرائب، وأنّ على الإنسان أن يسأل الله المعافاة امتثالاً لأمر الرسول ﷺ: «سلوا الله المعافاة، فإنّه لم يؤت أحدٌ خيراً من المعافاة»^(١).

عبد الله النوري

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٨٤٩).

١ - لعلّه نزع به عرق

نحن إخوةٌ ثلاثةٌ من أصلٍ غير عربيٍّ، بيننا أنثى، ولدنا في بلدٍ عربيٍّ، وكان أبونا تاجرًا، فلمّا مات ورثنا عمله .

تعرفنا رجلاً ظهر لنا من مظهره أنّه من أصلٍ غير عربيٍّ، فقد كان أشقر اللّون، أحمر الشّعْر، أشهل العينين، ألقى الأنف، طويل الخدّين، فأول ما يراه المرء يظنُّ أنّه من شمال أوروبا، وقد أكّد لنا ذلك، غير أنّه ولد في بلدنا العربيٍّ، وعاش معنا خمس سنين، عرفناه فيها أميناً نشيطاً في عمله، تقيّاً، طاهر الدّيل، عفيف العين واليد، فعرضنا عليه أن يشاركنا؛ فظهرت لنا رغبته بذلك، وأنّه يريد مصاهرتنا، فعرضنا ذلك على أختنا فرضيت وتزوّجها، وابتغينا ذلك حرصاً على بقائه معنا، حيث وجدنا في قربه الخير كلّ الخير؛ مادّيّاً؛ لنشاطه في العمل، ودينيّاً؛ لأنّنا نصاهر رجلاً خبرناه في المعاملة، فالدين المعاملة .

وأثمر الزّواج فحملت المرأة، وقبل الولادة بأسبوع اضطرّه العمل إلى السّفْر، فولدت أختنا، ولكنّ الولد لم يكن أشقر كأبيه، ولا أبيض كأّمّه، بل كان أسود اللّون، فسألنا أختنا: من أين أت بهذا الولد؟ فحلفت يميناً أنّها لم تخطئ ولم تزَلْ، ولم تتّصل بإنسانٍ غير زوجها، لكن لم نصدّق؛ فالشّاهد بين أيدينا، ويجب أن نستتر أنفسنا من كلام السّوء وأن نحفظ بشريكتنا ولا نفقده .

ثمّ تشاورنا أنا وأخي، واتّفقنا على ارتكاب الإثمين، فنقتل الصّغير قبل أمّه؛ لتموت الفضيحة في مهدها، ثمّ نرى رأياً آخر في الأمّ،



وحنقنا الطُّفل وفعلنا ما يقوله المثل: اقطع راس مؤت خبير، وجاء صاحبنا من سفره، فكان سؤاله الأوَّل يستفسر عن ولادة زوجته، فقلنا له: ولدت ومات المولود بعد ساعات، فقال: الحمد لله على سلامة الأمِّ، والبركة في حياة الخالين.

وبعد مدَّةٍ حملت المرأة، وقبل الولادة بأيَّام أردناه أن يسافر، فرفض حتَّى تلد زوجته، وجاء يوم المخاض وكان الرَّجل واقفًا عند باب الغرفة يسمع صوت زوجته تتألَّم، وإذا بالجنين يصرخ، فاندفع الرَّجل إلى الحجرة ليرى ولده الَّذي جاء أسود كأخيه أيضًا، فصرخ قائلاً: الله أكبر، الآن برئت ساحة أمِّي، الآن أيقنت أنني ابن أبي، الآن الآن، أستغفر الله ربِّي ممَّا كنت أتَّهم به أمِّي، الله أكبر، إنَّه والله ابني، فهو يشبه أبي تمامًا، فكان الرَّجل يضحك تارةً ويبكي أخرى، فظننا أنَّ جنونًا قد مسَّه؛ لكثرة ما ردَّد أبي أبي، ولمَّا رأنا نحدِّق به مستغربين، قال موضِّحًا حالته: إنِّي عشت عمري متَّهمًا أمِّي بأنِّي لست ابن أبي؛ إذ لم أكن أشبهه بشيءٍ من صفاته الخلقية، فجعلني هذا أشكُّ في نسبي، ولمَّا ماتت أمِّي لم يهتزَّ لي جفنٌ؛ لظني السيِّئ بها ونقمتي عليها، فلم يبرِّئ ساحة أمِّي إلَّا هذا الولد الأسود، وتيقنت أنَّ أمِّي بريئةٌ صادقةٌ عفيفةٌ، فرأيناها يبكي ويقول: رحماك وعفوك يا ربُّ، وكأنَّه يخاطب أمَّه فيقول: سامحيني يا أمِّي، ظلمتك وأنت بريئةٌ، وها هو ذا ابني ينسبني إلى أبي، شاهدًا أنَّك طاهرةٌ مطهَّرة.

فلم نكن نعرف عن صاحبنا ونسبه من قبلُ شيئًا، حيث علمنا حينها أنَّ أباه أفريقيُّ أسودٌ تزوج أمَّه الشركسيَّة، فولدته بهذه الصِّفات، ولمَّا تزوج أختنا نزع عرق من أبيه^(١) بأولاده.

(١) نزع إليه: إذا أشبهه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/٢٣٩).

السُّؤال:

قتلنا نفساً بريئةً خوفاً من الفضيحة؛ حيث كنا نظنُّ أن صهرنا من أصلٍ أوروبيٍّ؛ فأوصافه الخلقية لا تمتُّ إلى الإفريقيين بصله، ولا إلى الآسيويين بصفة، والآن ماذا علينا؟ وهل نحن بذلك نكون من القاتلين عمداً؟ وهل مصيرنا إلى غضب الله ونار جهنم، أم إننا مخطئون وعلينا الدية والكفارة؟ ثم ما كفارة سوء ظننا بأختنا؟ هل يُعدُّ السؤال الذي سألناها إياه قذفاً؟

نرجو من فضيلتكم إيضاح ذلك لتطمئن قلوبنا، ونحن مستعدون لعمل كلِّ شيءٍ إلا أن نخبر صهرنا بفعالنا؛ فهذا ما لا نقدر عليه، ونخشى أن يؤدي ذلك إلى إثارة ثأرٍ أو حقدٍ.

الجواب:

الحمد لله، وما توفيقي إلا بالله، أمّا العرقُ فقد نزع، وبراً الرَّجلِ ساحةً أمّه، وتيقن أن ذاك الإفريقيَّ الأسودَ كان أباه.

وسؤالكم ذو شقين:

وجوابي على الأوّل: لقد قتلتم مع سبق الإصرار نفساً لم ترتكب بحقكم ولا بحق غيركما ذنباً أو إثماً، متذرّعين بأنكم ارتكبتم أخفّ الإثمين، وفعلتم أهون الشرّين، وهذا لا يعذرکم، ولا يرفع عنكم وزراً، فقد نصبتما نفسيكما قضاةً وجلّادين، تصدرون الأحكام وتنفّذونها، دون أدنى محاولةٍ منكم تفسح المجال أمام الأخت لتدافع عن نفسها.

وما ظنكم بأنكم سترتم جريمةً إلا أمرٌ اختلقتموه، فتلك النفس البريئة ما ذنبها؟! وما شأنها بالإثم الذي اتّهمتم به أختكم؟! فهذه القِتلة يتعلّق



بها حقان: حق الله تعالى، وحق الأب في ولده، إلا أن حق الله قد يُغفر لمن صدقت توبته، إذ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

أمّا حق الأب، فلا بدّ من إخباره، وله عند ذلك أن يتنازل أو يقبل الدية أو يطلب القصاص، وأظنه يتنازل؛ لأنه عاش قبلكما العمر كلّه يؤرّقه هذا الشكّ وتعذّبه هذه الريبة، إلى أن شاء الله أن ينزل السكينة على قلبه بقدم هذا الطفل الأسود.

وأخيراً، ربّما لا ألوم موقفكما ممّا حصل، وأدرك أنّ له وقعاً شديداً في النفس، فقد وصلني هذا الأثر عند قراءتي الرسالة، فكيف بكما وأنتما صاحبا الشأن، ولكن ما لا أتقبّله هو قتل الطفل البريء، إذ كان من الأجدر بكما أن تواجهها الواقع بشجاعة، وتقتنعا ببراءة أختكما ما دام الذنب لم يثبت عليها، لا سيّما أنّها ليست المرّة الأولى التي تضع فيها أنثى بيضاء طفلاً أسود، أو أمّاً سمراء ابناً أبيض.

وختاماً أقول لكما داعياً: كان الله في عونكما وغفر لكما.



٢- عشق متباين

قصّتي غريبة، لعلّها تضحكك والسامعين أو القارئین.

إنّني امرأة في الخامسة والثلاثين من العمر، ماتت أمّي بحمّى النفاس بعد ولادة أخي الثاني، وكنت متجاوزة الثالثة حينها، ومات أبي بعد

بلوغي السنّة الرَّابِعة، فعشنا يتامى بلا أبوين، رعتنا جدّتنا لأمّنا، وكانت تعمل طبّاخةً في بيوت الموسرين، وشاء الله أن تعمل لدى رجلٍ من الأخيار، عطف عليها؛ لتربيتها أيتامًا، ولا سيّما حين علم أنّنا يتامى الأبوين؛ كنت يومئذٍ في التّاسعة من عمري؛ أي: في الصّفِّ الثّاني الابتدائي، فكان إذا رأني آتيةً من المدرسة يتسم لي ويجود عليّ بحنانه وماله، فيعطيني ما يكفيني وأخي لشراء حاجاتنا المدرسيّة، وعلى الرّغم من أنّ جدّتي تركت الخدمة عنده لكنّه لم ينسانا، وبقي إحسانه يصل إلينا سنّي طويلة، ومرّت الأيّام وتخرّجت في الثّانويّة في عمر الثّامنة عشرة، وكنت إذا رأيته قبّلت يده وقبّل رأسي، غير أنّي أحسست بمشاعر حبّ تجاهه، رغم فارق العمر بيننا.

يتامى لم يترك لنا والدنا من حطام الدّنيا سوى البيت الخرب الذي نسكنه، والذي لم تتجاوز مساحته المئّة والسّبعين مترًا، فضلًا عن أنّ جدّتي رهنته بمبلغ زهيدٍ عند ربّويٍّ لا يرحم، فتضاعف الرّهن بتراكم الرّبا حتّى استنزف قيمة البيت كلّها، وعلم المحسن بذلك فأرسل إلى الدّائن المرابي، ثمّ سدّد الدّين من ماله الخاصّ، وسجّل البيت باسمي، وقاويل^(١) في ترميمه بناءً حتّى يصلح للسّكن.

وفي يومٍ من الأيّام زرته في منزله، وكان يجلس وحيدًا في مكتبه، فقال لي: هل ستدخلين الجامعة أم ستعملين لرعاية أخويك؟ إنّ جدّتك قد كبرت على هذا، فنصيحتي إليك أن تكتفي بشهادة الثّانويّة وتدخلي ميدان العمل، ثمّ مدّ يده إليّ بشيءٍ من النّقد قائلاً: أعطيه لجدّتك مصروفًا لكم، لكنّي لم أمدّ يدي إلى يده، وإنّما احتضنته وقبّلته، ولم

(١) قاويل في أمر: فاوض. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/٥٧٧).



أشعر بنفسي إلا وهو يدفعني عنه قائلاً: اعقلي يا بنت، فقلت - وأنا أبكي - : إنني أحبك يا عمي، فأجاب: وأنا أحبكم حبي لأولادي، فقلت: أنا أحبك بوصفك حبيباً، فقال لي: اعقلي. وخرجت بعد ذلك وأنا خجلى من تسرعي، ومع ذلك لم يتخلل عناً، بل جاءنا يوماً يقول: هناك شاب لطيف متعلم يجمع صفات الرجولة كلها، وإنني أحب أن تكوني زوجته. فبكيت وقلت له: يا سيدي، قلبي مغلق ليس فيه مكان لحب أحد، وأعترف بحبي لك صراحةً.

وقد كان الرجل يبتعد مني بعد ذلك، فلا يرضى أن أدخل عليه إلا بصحبة أخوي أو أحدهما أو مع جدتي، إلى أن جاء يوم كنت بالغاً فيه الثانية والعشرين من عمري، وقد أرسل إليّ كتاباً يخبرني أن فلاناً كفوفاً قد خطبني، فوافق وطلب إليّ ألا أردّه؛ فالفرصة الجيدة لا تتكرر، لكنني رفضت، وقلت له في جوابي: الزواج يحتاج إلى زوجة قلبها يحب، وعينها تتأمل حبيبها، وقلبي ليس معي، وعيني لا تلتفت إلى أحد غيرك، لا أرغمك على الزواج مني، ولست طالبة ذلك منك، يكفيني أنك بخير، وأنني أسمع عنك كل خبر مفرح، ورجائي منك ألا تكلمني في خاطب، ولا تخبرني عن راغب.

واليوم، وقد بلغت الخامسة والثلاثين، وأظنه قد قارب الثمانين أو جاوزها، وما زال إحسانه يصل إليّ كل عيد ورمضان، وفي بعض المناسبات الأخرى، لكن لم نتقابل منذ عشر سنين، فالتفتني فرصة الزواج، ولست آسفة؛ خطبني كثيرون قد تقدّموا إليّ وإليه، لكن لم أحلم بزواج إلا به، ويا ليتني أكون ممرضته في سنه هذه، أحلام وأمانني لم تثمر ولم تينع.



تكفّلت تعليم أخويّ حتّى تخرّج الأوّل في الثّانويّة، ودخل ميدان العمل، لكنّ الثّاني كان كسولاً، فدخل الجنديّة، ثمّ ميدان العمل، وأعتنهما ليتزوّجا، وما زالا يقيمان معي في بيتي مع الجدّة التي بلغت أرذل العمر، ولم يبخل الرّجل بإحسانه عندما علم.

والآن لا ينقصني إلّا النّظر إلى وجه ذلك المرّبيّ المحبوب، على أنّي أعلم أخباراً عنه لا يعلمها إلّا هو، ولي في معرفة أخباره درايةٌ تعلّمها من طول زمن حبّي له، إنّه حبُّ ربع قرنٍ.

السُّؤال:

هل أنا آثمٌ برفض الزّواج؟ أنا على يقين أنّ أيّ زوج أقبل به لن يجد منّي سوى وسادةٍ، جسدٌ بلا قلبٍ، فأكون مذنبٌ بحقّه.

أرجو الجواب.

الجواب:

إنّ لي في مثل هذه القصة شأنًا، أيّ شأنٍ، وكان لي في ميدانٍ مثل ميدانها جولةٌ، حاولت فيها لمّ الشّمل فلم أوفّق.

أمّا التّبئّل^(١) للرّجال فقد قال الفقهاء فيه أقوالاً عدّة: فهو حرامٌ على من قدر على الزّواج وخاف على نفسه العنت^(٢)، وهو مستحبٌّ لمن وجد القدرة عليه، وأمن على نفسه الوقوع في الزّلة؛ فقد قال النّبِيُّ ﷺ في

(١) التّبئّل: الانقطاع عن النّساء وترك النّكاح. انظر: النّهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/٩٤).

(٢) العنت: الفساد والإثم والهلاك، والوقوع في أمرٍ شاقٍّ. انظر: تاج العروس، للرّبيديّ (٥/١٢).



النِّكاح: «النِّكاح من سنَّتِي، فمن لم يعمل بسنَّتِي فليس منِّي»^(١)، وقال بعضهم: إنَّ قوله: «ليس منِّي» يفيد الوجوب.

أمَّا من أحسَّ في نفسه عدم القدرة على الزَّواج فهو مكروهٌ له، إلَّا إذا وجدَ من ترضى بحاله؛ فقد يزول ما عنده فيكون رجلاً قادراً على أداء الواجب نحو الزَّوجة.

أمَّا التَّبَتُّلُ للأُنثى فلم أقرأ للفقهاء فيه قولاً؛ فالمرأة مخطوبةٌ لا خاطبةٌ، ومطلوبةٌ لا طالبةٌ، ورأيي أنَّ مَنْ أَحَسَّتْ نفسها قادرةً على أداء الحقوق الزَّوجيَّة فحرامٌ عليها أن تحرم نفسها متعة الحياة ونعمة الأمومة، لكن ما وصفت به نفسك بأنك امرأةٌ بلا قلب، وأنك إن تزوجت فلن يجد الزوج منك سوى وسادة. قولٌ فيه صراحةٌ لم أقرأها إلَّا في الروايات.

لكنني أردُّ فأقول: أحببت في هذا المحسن عطفه وحنوّه وقلبه الكبير، وكان لليتم المبكر الذي عشته أثره في إذكاء ما توهمت أنه حبُّ امرأةٍ لرجلٍ، والحقيقة أنك عشت وهماً كبيراً؛ فالزَّواج شيءٌ آخرٌ مختلفٌ عن المساعدة والعطف وبذل الحنان، الزَّواجُ مستقبلٌ وحياةٌ مشاركةٌ تقوم على التفاهم والعطاء المبذول من الشريكين.

وعلى كلِّ حالٍ أعانك الله وهداك إلى الصَّواب، ولعلَّ باستطاعة الرجل الذي يتزوجك أن يفتح مغاليق هذا القلب فيردّه إليك، وأثابك الله على إخلاصك لأخويك الوحيدين وجدَّتكَ، ولك العذر في أن تردِّي الخاطبين؛ لأنك لم تشائي أن تظلمي أحداً منهم، فأنت أدري بنفسك وأعلم بحياتك.



(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٤٦).

٣ - غنيمة اليتيمة

من يدَّعي أنه أبي طلق أمِّي - وأنا في الشهر الثاني من عمري - لا لذنبٍ جنته، بل لنسوةٍ آخر يريد أن ينقل هواه بينهنَّ، فلذات الهوى عنده في ذلك، يتزوَّج العشرات، وقد حالف أمِّي الحظُّ في الحصول على شهادة ميلادي، فدخلت بها المدرسة، حتَّى بلغت الثَّانويَّة.

والآن أصبحتُ في التَّاسعة عشرة من عمري أحملُ شهادةً ثانويَّةً تخوِّلني دخول الجامعة أو العمل لأساعد أمِّي التي ما زالت في مقبل العمر، وقد رفضت الزَّواج حرصًا على ابنتها الوحيدة؛ أحسنت وحنَّت، وخدمت، وعملت في الخياطة أيضًا، وكلُّ ذلك لأجل ابنتها الوحيدة، ولحسن نيَّتها وفقَّها الله في عملها الذي ردَّ عنها الحاجة، حتَّى من أقرب النَّاس إليها؛ إخوتها وقرابتها.

طلبت من أبي الاتصال بالمسؤولين لإعطائي الجنسيَّة التي نصَّ عليها القانون، وأن يرسل صورة جنسيَّته ورسالةً منه إليهم فأبى، وأقام دعوى طالبًا بها حضانتي فخرها، علمًا أنه قد أقام دعوى، وأنا في الثَّانية من عمري، يطلب بها ذلك فخرها، وأمِّي المحسنة الكبيرة لم ترفع دعوى بنفقة، ولم تفكِّر حتَّى في ذلك، لا أدري لم!

هذا الأب أو الذي يدَّعي أنه أبي لم ينفق عليَّ فلسًا واحدًا منذ أن تنفَّست أنفاسي الأولى، وإلى الآن، أمَّا والدتي فحالها كما وضَّحت، تعمل بيدها لتضع اللُّقمة في فمي، تبتسم لابتسامتي، وتفرح لفرحي، وتتألَّم لألمي، وتسهر إذا مرضت، وما زلت حتَّى الآن أذكر ملاحظتها لي



كطفلةٍ لطفلةٍ .

السؤال:

هل لمثل هذا الأب القاسي حقُّ في طلب حضانتني وحرمانني من
حضان أمِّي الذي هو بمنزلة الجنة بالنسبة إليَّ؟ فهو إن رأني في الطريق لن
يعرفني .

أرجو الصراحة في ردِّك .

الجواب:

ليس اليتيم هو الذي أبواه قد تركا الحياة وخلفاه ذليلاً
إنَّ اليتيم هو الذي تلقى له أمًّا تخلَّت أو أبًا مشغولاً^(١)
وما أكثر هؤلاء اليتامى! لا سيَّما عندنا في الكويت، بعد أن فتح الله
عليها باب يسرِّ لم يحمد النَّاسُ ربَّهم عليه .

ثمَّ أعقَّب على رسالة غنيمة بالحديث النَّبويِّ الذي رواه الإمام أحمد
وأبو داود والحاكم والبيهقيُّ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله
ﷺ: «كفَى بالمرءِ إثماً أن يُضَيِّعَ من يَاقُوتٍ»^(٢) .

والأولاد - ذكوراً كانوا أم إناثاً - مسؤوليَّة أبيهم في قوتهم وكسائهم
وتعليمهم، وفي كلِّ شأنٍ من شؤونهم، فكيف يرضى الأب أن ينعم
بالنعمة فيأكل من اللذيذ، ويشرب من المريع، وعياله يتضوِّرون جوعاً،
وربَّما التمسوا الحسنه من المحسنين؟! لا شكَّ أنَّ مثل هذا الأب لا

(١) انظر: شعر شوقي في ميزان النَّقد، لمحمَّد مصطفى المجذوب (١/٨٢).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (١٦٩٢)، وأحمد، رقم: (٦٤٩٥)، والحاكم في
المستدرک، رقم: (١٥١٥)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان، رقم: (٨٣٣٦).

ضمير له ولا وجدان، وأنَّ ذلك من اللُّؤم والقسوة والأنايَّة، فكفاه لؤمًا أن يشبع وأولاده جياعٌ، وأن يكتسي وأولاده عراةً، وأن ينام على الوثير^(١) وأولاده نيامٌ على الحصير، ومن المتوقع لهذا الأب أن يكرهه أقربُ النَّاسِ إليه، وأن يتمنَّوا موته؛ فقد كان غِلًّا^(٢) ثقيلاً عليهم، وقِفلاً مانعًا من وصول خيره إليهم.

وهنيئًا لأُمَّك طيِّبة القلب التي رَدَّت الخاطبين، ودخلت معركة الحياة، وعكفت على تربية ابنتها، فأحسن الله لها وكافأها على إحسانها إحسانًا، فوقَّتها في سعيها؛ لأنَّها كانت مع الله فكان الله معها، والله جلَّ شأنه قال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [التَّيْسَاء: ١٢٣]، وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

وأبوك رجلٌ ظالمٌ كما أخبر عنه الرَّسول ﷺ بالحديث الذي ذكرتُ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مِنْ يَقُوْتٍ»^(٣)، ودعواه خاسرةٌ؛ لأنَّ حضانه الأنثى تعطى لأُمِّها مهما بلغ سنُّها ما لم تتزوَّج، وأكتفي بهذا الجواب فقط، فقد يكون للطَّرَفِ الثَّانِي قولٌ غير ما ذكرت، والله أعلم.



٤ - العاقل من لم يغترَّ بإقبال الدنيا

أبي وعمِّي أخوان شقيقان، مات أبوهما فقيرًا، وعاشا بعده في بيتٍ

(١) الوثير: الفراش الوطيء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤٦/١٤).

(٢) رجل غل: إذا كان ذا غشٍّ أو ضغنٍ أو حقدٍ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/١١٤).

(٣) سبق تخريجه.



واحدٍ، لكنَّ عمِّي لم يحسن التَّصَرُّفَ مع أخيه الأكبر؛ أبي، إذ كان يخالفه ويخاصمه، وأبي يصبر ويتحمَّل ويسأل الله الفرج والعون، وفي أثناء الحرب الثانية اشتغل عمِّي بالتجارة فوفَّق مادِّيًّا، وبقي أبي موظَّفًا يعاني شظف العيش وثقل العبء، فكان كثير الأولاد، كثير التكاليف، لكنَّه كان يحبُّ أولاده ويوسِّع عليهم مع قلة ذات يده، ويصل أخواته وإخوته الصُّغار.

وفي يومٍ لا أذكر تاريخه وصل جماعةٌ من أقاربنا، فوجبت علينا دعوتهم كما هي العادة في البلاد العربيَّة، فدعاهم أبي لأنَّه أكبر إخوته، ثمَّ دعاهم عمِّي لغناه، فوسَّع في الوليمة ونوع، وكان في جلوسه أمام المدعوِّين يحاول احتقار أبي أو إهانته بحركاتٍ كان يظهرها، وكنت يومها في العاشرة من عمري، أعني كلَّ هذا، وأرى صبر أبي متألِّمًا لذلك لا أستطيع التَّكلم، وتمرُّ الأيام سراعًا، ونصبح في يوم عيدٍ لتتفق وإخوتي أن نذهب إلى عمِّنا لتهنئته بقدوم العيد، وكنا يومئذٍ ثمانية: ستَّة ذكورٍ وبنيتين، عندما دخلنا أقبل علينا عابسًا وبصق في وجهي؛ لأنِّي كنت الأنشط والأقوى والأجراً بينهم، وكنت صاحب الرأى فيهم، والمقدَّم مع وجود من هو أكبر منِّي، ثمَّ يمدُّ يده فيمسك ذقني ويبصق في وجهي مرَّةً أخرى، ولم يكن لي حيلةٌ إلا أن أمسح البصقة بطرف عُثرتي^(١)، وخرجنا من بيته مطرودين مدحورين خائبين، ومنذ ذلك اليوم وبعده - أظنُّ - بثلاثين سنة لم أرَ عمِّي، إلى ما قبل خمس سنوات من اليوم.

(١) الغترة: قطعة نسيج توضع على رأس الرِّجل وتدلُّ إلى كتفيه، وقد يوضع فوقها عقال أو غطاء الرأس. انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١٥٩٤/٢).

تعلمت، وتخرّجت، وأُرسلتُ في بعثةٍ وأخرى وثالثة، وصرت مهندساً كبيراً بارزاً، تُعهدُ إليه إدارات عدّة؛ إداراتُ في القطاع الحكومي والأهليّ، وقد نجحت فيها كلّها، والحمد لله.

وقبل خمس سنوات استأذني مديرُ مكتبي في رجلٍ يريد مقابلي، قال: إنّه عمّي. وكنت في ذلك الوقت مسؤولاً في إحدى الشركات الأهليّة ورئيسَ مجلسها، وكلمتي فيها نافذة؛ لا تُبدّل ولا تردُّ.

ويلقي عمّي التّحيّة عليّ باحترام، وأحمدُ الله ﷻ إذ لم تأخذني العزّة بالإثم، فعرفته بعد ثلاثين سنةً لم أره فيها وقمت له، وقبّلت يده عندما مدّها مصافحاً، وأجلسته وجلست قبّالته، وقلت له: أهلاً وسهلاً بالعمّ، زيارةً غربيّة، فقال لي: يا بنيّ، أنا الآن محتاجٌ، جئتُ أبحث عن عملٍ. ومددت يدي إلى وجهي بلا إرادةٍ كأنّي أريد أن أمسح تلك البصقة، ثمّ سكّتُ.

وصدّق أنّ عينيّ اغرورقتا بالدمع، لكنّي شعرت بشماتةٍ بذرها الشيطان في قلبي أعود بالله منه، ثمّ أمرت له بالشّاي وماءٍ باردٍ، ثمّ أمرت له بالقهوة، وقلت له: هل كتبت الطّلب؟ فقال: وهل يحتاج الأمر إلى طلبٍ وأنت رئيسُ مجلس الإدارة؟! قلت: إنّها - يا عمّ - رسميَّاتٌ، وقدّمت له ورقةً كتب الطّلب عليها بخطّه الجميل الأنيق، فأخذت الورقة ووقّعت عليها بالقبول، وأصبح عمّي موظّفاً عندي.

وبعد نهاية الدّوام جئتُ إلى بيت أبي، ولم تكن عادتي أن آتي إليه في مثل هذا الوقت من الأسبوع، فأظهر أبي استغرابه من مجيئي، وقال لي كعادته: زيارة غربيّة، عساه ليس شراً؟! فقلت له: جئتُ لأخبرك أنّ عمّي أصبح موظّفاً عندي، فبهت، وسكت سكتةً طويلةً، ورفع رأسه إليّ وقال:



أعيدك بالله من الشّماتة يا ولدي - كرّرها مرّتين أو ثلاثة -، ثمّ مسح دمعين بطرف عُثْرَتِهِ، وقال: أحسن إلى عمّك؛ فإنّه محتاجٌ إليك، واعلم يا بنيّ - وهذا سرٌّ لم يعرفه أحدٌ إلاّ الآن - أنّني أدفع لعمّك في هلال كلّ رمضان من زكاة مالي من ثلاثمئةٍ إلى خمسمئة دينارٍ، والحمد لله الَّذي فضّلنا على كثيرٍ من خلقه، ونسأل الله أن يجعلكم جميعاً ممّن تواضع في غير منقصةٍ، وأعزّ نفسه دون عُجْبٍ، ثمّ أخذ يوصيني بالتواضع والإحسان إلى عمّي، علماً أنّ عمّي لم يقابل أبي حتّى في وقت دفعه المساعدة له، معنى ذلك أنّ عمّي لا يزال مغروراً مع حاجته.

السؤال:

في أثناء مراجعة عمّي لي بصفته موظّفاً أشعر في قلبي بالشّماتة، وأحياناً أمدُّ يدي إلى وجهي بلا إرادةٍ فأتذكّر تلك البصقة الكريهة، وأنا رجلٌ مؤمنٌ بالله، قائمٌ بأركان الدين، ولم يشعر عمّي مني بشيءٍ من هذه الشّماتة، لكنّها حديثٌ نفسٍ، فهل عليّ من ذلك إنهم؟ هذا ما أرجو أن أعرفه؛ لأنني أقرأ قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، والشّماتة شيءٌ في نفسي.

الجواب:

كلمةٌ أقولها لكلّ مسلم: لا تغترّ إذا أقبلت عليك الدنيا، فالدهرُ قَلْبٌ، وقديماً قالوا: دوام الحال من المحال، وقد ناديت كثيراً بأن نعود إلى السلف الصّالح، ونتأسّى بهم في أعمالهم، ويكفي أن نرى قائد الإنسانية ومعلّم البشرية محمّداً ﷺ وهو يدخل مكّة فاتحاً، منتصراً على قومٍ أخرجوه من داره وحاربوه وأذاقوه وأصحابه من العذاب أمره، نراه يدخل مكّة متواضعاً حامداً الله على فضله شاكرًا له، ثمّ يعفو عمّن

أخرجوه وحاربوه عفو الكرام، بلا شماتة ولا استعلاء.

وأنا أقول لك كما قال أبوك: جعلك الله ممن تواضع في غير منقصة، وأعز نفسه دون عجب ولا غرور.

والشعور بالشماتة دون أن يرى الآخر منها شيئاً لا إثم فيه عليك، والشماتة في اللغة معناها: إظهار الفرح ببلية خصمك، وخصمك هذا ليس خصماً، وإنما هو عم، وكما تقول: إنه لم ير على وجهك أثر فرح ببيته أو حاجته، إنما رأى الفرح منك بزيارته لك، ورأى ترحيباً وتكريماً وتقبيلاً يد، وقياماً بالواجب وأمرًا بالتعيين، فأبي شماتة تخاف منها الإثم يا أخي؟!!

اطمئن بالآ، فليس هناك شماتة، ويكفي عمك تأنيب الضمير الذي يشعر به الآن، أو اسمح لي أن أقول: وخز الضمير، وامتناع عمك عن زيارة أبيك مع إحسانه إليه ليس جفاءً منه، ولكنه حياة؛ لأن أباك أطاع الله ورسوله، فوصل من قطعه، وأحسن إلى من أساء إليه.

أما خوفك من قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فاطمئن بالآ، فإن هذه الآية لا تتكلم على الموضوع الذي تفكر فيه، بل على موضوع الشهادة، فلو قرأت الآية التي قبل هذه الآية لقرأت فيها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وكتمان الشهادة أو أداؤها عمل يكون في باطن النفس، وهو أمر لا يخفى على الله، لكن اقرأ معي قوله تعالى في الآية الأخيرة من سورة البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقرأ قوله تعالى في آخر آية من سورة البقرة: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ



تُوفِّي كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴿[البَقَرَة: ٢٨١]﴾، ولا يمكن أن يلومك أحدٌ لشعورك بالزُّهُوِّ داخلِك دون أن تبديه، فقد مددت إليه يد العون، ولم تقابل إساءته بإساءةٍ مثلها، بل قابلتها بالإحسان، ولا يعيبك أن داخلتك بعض الشَّماتة دون أن تظهرها، فنحن بشرٌ، والنَّفْسُ أَمَّارَةٌ بالسُّوءِ، ويكفيك أنك استطعت أن تسيطر على هذه النَّفْسِ، وتكبح جماحها، فلم ير منك عمَّك سوى كلِّ التَّقدير وقضاء الحاجة، كما تقول.



٥- يكرهها زوجةً ويحبُّها أختًا

سيدي! قصتي عجيبةٌ، وحكايتي غريبةٌ، وهي كما يقال في المثل:
تكتبُ بالإبر على آماق^(١) البصر.

أنا عربيٌّ من الجنوب، جئت إلى هذه الدُّنيا بعد ستِّ بناتٍ، وكان أبي وأمِّي يتعطشان لرؤية الذَّكر، وكانت أمِّي تخشى أن تبلغ سنَّ اليأس من غير أن تلد ابناً تُكنِّي به، وأخيراً جاء المولود السَّابع ذكراً، ونذرت أن تزوجني وأنا صبيٌّ، وأخبرت أبي بهذا فوافق.

ونشأت مدللاً بين والديَّ وأخواتي، لا يُرَدُّ لي طلبٌ، ولا يُعصى لي أمرٌ، ولَمَّا بلغت الثَّانية عشرة من عمري زوَّجوني فتاةً لا ينقصها شيءٌ، لكننا أطفالٌ كلعبتين متحرِّكتين لا نعرف من الحياة الزَّوجية شيئاً، وعشنا زوجين كما ظنَّ النَّاسُ، حتَّى بلغنا؛ فبلغتُ سنَّ الرُّجولة، وبلغتُ سنَّ

(١) الآماق: جمع مَاقٍ ومُوقٍ، وهو حرفُ العين الذي يلي الأنف. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٣٧٦/٢٦).

النساء، فصرنا زوجين حقيقةً.

والآن وقد مضى على عقد قراننا أربعة عشر عامًا، وعلى زواجنا الحقيقي ما يقارب عشر سنواتٍ إلا أنني لا أشعر أن هذه الأنثى زوجتي، إنها تحبني كثيرًا وتتلمس راحتي، فترضى لرضاي، وتحزن لغضبي، وتُسرع في تنفيذ أمري، لم أشعر منها بأيّة مخالفةٍ أو عنادٍ، ولكن ليس عندي نحوها أيُّ ميلٍ لمعاشرتها بوصفها زوجةً.

أحبها، لم أشعر تجاهها بأيِّ كرهٍ لكنه حبٌّ أخويٌّ، كحبي لأخواتي بنات أمي وأبي؛ لهذا أشعر أن إمساكي لها زوجةً ظلمٌ وعدوانٌ؛ لأنني أمنعها من حقٍّ يجب أن تمارسه، وقد صارحتها مرّاتٍ عدّةً بذلك، فكانت تُقبّل يدي ورأسي، وتقول: إنني أحبُّك زوجًا، أمسكني لله، وتزوّج من تشاء، ولا أطلب منك العدل بيني وبين من اخترتها زوجةً. لكنني لا أريد أن تكون عندي معلقةً، فلا هي زوجةٌ، ولا هي مطلّقةٌ.

علمًا أننا لم نُرزق أولادًا، وأظنُّ أن كرهِي معاشرتها سبّب هذا العقم؛ لأنها امرأةٌ بالمعنى الصّحيح، وأنا رجلٌ بالمعنى الصّحيح.

السؤال:

زوجتي ترغب في البقاء معي وتأذن لي بالزّواج، فهل في طلاقي لها ذنبٌ عليّ؟

الجواب:

الرّسالة التي وصلتني تحمل نفس المعنى الذي كتبه السائل، وقد طلبت حضوره لمقابلتي، وجاء وقال: إنني والله لا أكره من يسمونها زوجتي، بل أحبها، لكن لا أحبها زوجةً، ولا أميل إليها كما يميل الزّوج



لزوجته، وعندما أهتمُّ معها بما يكون بين الزوج والزوجة تفتّر همّتي، مع أنّي - والله - رجلٌ بمعنى الكلمة؛ لأنّي أعرف نفسي.

قلت له: هل هي معك بالكويت؟ فقال: نعم، وأحضرتها محاولاً إنقاذ زواجنا، معتقداً أنّ في بقائها هناك بين أهلي وأخواتي عقدةً أو شيئاً في النفس، فإذا جئت بها إلى هنا لربّما يتغيّر الحال، ولكنّ الأمور تعقّدت أكثر، واستطرد قائلاً: حاولت المستحيل مع نفسي، وكنت أحاول إقناع نفسي بأنّي أحبُّها، وأحبُّ اهتمامها بي، وتفانيها في الحرص على بيتي ومصالحي، وكنت أستعرض مع نفسي كلّ محاسنها عساي أفنع هذه النفس بحبّها، لكنّها محاولاتٌ أخفقت، وذهبت أدراج الرّيح.

وبعد ذلك طلبت إليه أن يحضرها فلم يمانع، ورأيت فيهما الزوجين اللّائقين، كلُّ يليق بصاحبه، فضلاً عن أنّها كانت جميلةً حسنةً، وكلاهما من الجنوب كما أشار في كتابه.

وقد صادقت على كلامه الذي قاله وكتبه، وسألتهما: هل أنتما قريبان؟ فقالت: قرابةٌ بعيدةٌ، قلت: هات ما عندك يا ابنتي، قالت: زوجي رجلٌ كاملٌ حتّى حين يعاشرنني بالفراش، ولكن عندما يهّمُّ بي يفتّر، وقد اعتراه هذا البلاء منذ زواجنا، أعترف أنّي أحبُّه، وهو كذلك، والجنس بالنسبة لي أمرٌ ثانويٌّ، إنّي أريد البقاء معه زوجةً ثانيةً، فليتزوّج، وأنا أبارك له هذا الزّواج، وسأفرح لفرحه، وكانت المسكينةُ تتكلّم وفي حلقها غصّةٌ، وعيناها تملؤها الدّموع، ثمّ لم تستطع إمساك نفسها فبكت، وبكى هو أيضاً، فأيقنت أنّهما متحابّان.

وقال: أنا لا أريد أن أحرمك متعة الحياة ونعمة الأمومة، فلا تحرميني - بالله عليك - من أن أكون أباً، فقالت: إنّ أولادك سيكونون

أولادي، أربيهم وأحبهم كحبي لك، ومهما حدث سأكون لهم بمنزلة الأم، ثم إن الذي سيتزوجني لن أحبه كحبي لك، فتحت عيني على الحب بفضلك.

في الحقيقة كان صعباً عليّ اتخاذ قرارٍ مناسب، وترددت كثيراً قبل أن أسوق لهما النصح، إنها مشكلة إنسانية متشابكة ومعقدة، فلو أن أحد الزوجين يكره الآخر أو كان غير كفء للآخر لما كانت هناك مشكلة.

قلت له: إذا كان الأمر كما أرى فحرامٌ عليك أن تطلقها، وتزوج ممن تشاء، فقال: لا يا سيدي، هذا كلامٌ تقوله هي، وهي صادقة، لكن الزوجة التي سأتزوجها من ضمنها؟! وإذا صارت أمًا فسيزداد شرها، وأنا أخاف عليها، إنني أريدها أن تكون سابعة أخواتي.

إنني - والحمد لله - غني، والغنى لله، وعندني إيمانٌ بالله ووفاء، وإنني أحبها، ولدي بعد ذلك كله ضميرٌ، ثم التفت إليها قائلاً: أمّا بقاؤك معي زوجةً فهذا أمرٌ مستحيلٌ، واسمعي مني، فوالله لن تضيعي ولن تحتاجي شيئاً وأنا حيٌّ، حتى لو كنت فقيراً، ثم بكيا، وبكيت لبكائهما.

وقرراً فيما بعد أن يطلقها وتبقى معه في بيته أختاً لا زوجةً، وأن يتلمس لها الزوج الكفاء ويزوجها إذا رغبت بعد مراجعة أوليائها.

وانتهت المأساة.



٦- ومن أولى برعاية ولده من أخيه؟

لي صديقان أخوان شقيقان، لكل منهما زوجته وأولاده، يسكنان في



دارٍ واحدةٍ، يتقاسمان الحياةَ في العملِ والمعيشةِ، والضَّيقِ والسَّعةِ، والرِّخاءِ والشَّدَّةِ، وفي كلِّ شأنٍ من شؤونهما، وكانا في توافقهما وتآلفهما محلًّا إعجاب المعجبين، تراهما سويًّا في ذهابهما وعودتهما، وإذا سافر أحدهما قام الثاني مقامه في رعاية أهله وولده.

لم أسمع مدَّة صحبتي لهما أن أحدهما رفع صوته على الآخر أو بحضرته، ولا أبالغ إذا قلت: إنِّي لم أعرف الأكبر من الأصغر؛ فكلُّ واحدٍ منهما يحترم الآخر، فإذا تكلم هذا سكت ذاك، وإذا أجاب ذاك وافق هذا على إجابته.

والحقُّ أقول: إنني دائماً أهنئهما بهذا التفاهم والألفة، حتَّى جاء يومٌ من الأيام وكنا جالسين في مكانٍ، والوقت ليس وقت عملٍ، سألت أحدهما من الأكبر بينكما؟ فقال: وماذا تظنُّ؟ قلت: لا أدري، قال: ولدت قبل أخي بسنةٍ واحدةٍ، فقلت له: لماذا لم تخبرني أنك أكبر منه؟ قال: لا أَرْضَى أن أكون أكبر من أخي، فكلانا سواءً، لكنني ولدت قبله بسنةٍ.

في يومٍ من الأيام حصل شجارٌ بين الأخ الأكبر وزوجته، واشتدَّ الخصام، فحاول الأخ أن يُصلح بين أخيه وزوجته، ولكنَّ سعيه أخفق، ودامت الخصومة أياماً ولم يُفلح الأخ؛ لأنَّ المرأة كانت قويَّة كثيرة العناد، سليطة اللسان؛ لهذا طلق الأخ زوجته، فحزن الثاني لهذا الطلاق، وأرادت الزوجة أن تترك البيت بعد الطلاق، فأبى وقال: لن تخرج أمُّ أبناء أخي من بيتها، وأنت في بيتك ما دام لك أولادٌ هذا أبوهم وأنا عمُّهم.

وبقيت الزوجة في البيت، ولمَّا انتهت عدَّتتها طلبها للزواج، وخيرها



بين الزَّوْجِ وبين أن يشتري منها حضانة الأولاد بالثمن الذي تريد، أو تبقى في البيت ترعى أولادها؛ لأنَّه لا يرضى لأولاد أخيه أن يعيشوا في بيت غير بيت أبيهم، وقدَّرت المرأة فعل عمَّ أولادها، وقالت في نفسها: لا أبيع حضانة أولادي بثمانٍ، ولا أكُلُ أمرهم إلى مربِّيةٍ لا أدري كيف تكونُ، ولا أبقى في البيت حاضنةً لأولادي بأجرٍ كخادمةٍ، ولو كان الأجر سكني وقوتي، ولكن أرضى أن أكون زوجةً لعمِّ أبنائي، فسألته: هل ترضى زوجتك بذلك؟ فقال: إنَّ زوجتي أكثرُ مروءةً مِنِّي، وعطفاً على أولاد أخي، وهي من أشارت عليَّ بذلك، فقالت: إذا كان الأمر كذلك فإنِّي أقدرُ مروءتكما، وأرضى بما عرضتما عليَّ، الآن عرفت أنا في بيت مَنْ.

وتزوَّج الأخ زوجة أخيه، وبعد أشهرٍ مضت قال الأخ لأخيه الأكبر: أما آن لك أن تعود إلى فراشك؟ فقال: إنِّي أقدرُ موقفك يا أخي، وما دمت أميناً على أولادي أراهم في بيتي صباح مساءً، وأرعاهم بحنانتي وأنفقُ شؤونهم بنفسي فلا حاجة لي بالفراش، وهي لا حاجة لها به، وإن رضيت بك زوجاً فمن أجل أولادها، وكان حقاً ما قاله لأخيه.

السُّؤال:

هل يُباح لهذا الأب المطلق أن يرى مطلقته ويكلِّمها ويعيش معها في منزلٍ واحدٍ؟

الجواب:

ما تزال الدنيا بخير والحمد لله، وما يزال الوفاء عند النَّاسِ موجوداً، ولا تزال الرَّحْمُ عند الأقارب موصولةً، وما فعله العمُّ مع أبناء أخيه وأمِّهم - مطلقه أخيه - مروءةً وصلتهٍ رحمٍ.



ولعلَّ ما لا أستطيع أن أقدره وما هزَّني من الأعماق هو موقف الزَّوجة التي قبلت عن طيب خاطرٍ أن يتزوَّج زوجها مطلَّقة أخيه، وقبلت أن تدخل بيتها امرأةً غيرها تُقاسمها زوجها، ومع ما في هذا الموقف من المرارة في نظر معظم النساءِ إلَّا أنَّ الهدف الأسمى غلب الأثرَةَ، والوفاء انتصر على الأنانيَّة.

ولا أريد أن أستطرد في التعلُّيق على رسالة السَّائل، ولكن كلُّ ما أريد أن أقوله: هكذا فلتكن الإخوة.

لماذا لا يباح له أن يعيش مع أمِّ أولاده في بيت واحدٍ؟! إنَّها ما تزال أمًّا لهم، وإنَّها محرَّمةٌ عليه حرمة المحصنات؛ فهي الآن زوجة أخيه وفي الوقت نفسه أمُّ أولاده.



٧- النعمة لا تدوم

اكتب لك هذه الرِّسالة وقلبي يكاد ينفجر حزناً وكمدًا، وماذا أقول؟ وقد قال قبلي أبو العلاء:

تعبُّ كلُّها الحياة فما أعدَّ -جب إلَّا من راغبٍ في ازدياد^(١)

لم تكن بنتاً جميلةً بالمعنى السَّائد، لكنَّها كانت خفيفة الدَّم، باسمَةَ الثَّغر، تشدُّ انتباه النَّاظِر إليها فتُشعره أنَّها كاملةٌ، عرفتها منذ كُنَّا في الرَّابع الثَّانويِّ، وحدثت أمِّي عنها فقالت: سأسأل عنها، وفي اليوم التَّالي

(١) انظر: الحماسة المغربية، للجراويِّ التَّادليِّ (٢/٨٨١).

قالت: عرفتُها، ونعمَ الأبُ أبوها، ونعمَ الخالُ خالها، وبعدَ أن أخذنا شهادةَ الثَّانويَّةِ خطبها أبي ورضي أبوها، وتزوَّجنا وكانت الفرحة لي ولها، ولوالدينا.

يقال: إنَّ أمَّ الزَّوجِ تكره كَنَّتَها، ولم أرَ ذلكَ في أمِّي وزوجتي في السَّنواتِ الأربعةِ التي مضت، فقد عشناها كأننا في جنَّاتِ النِّعيمِ على سُرُرٍ متقابلين، يحيط بنا السَّلامُ في الصُّباحِ والمساء.

ومرَّت السَّنواتُ الأربعةُ وكنت متلهِّفًا لأن أكونَ أبًا، وهي كذلك؛ من أجل أن يكونَ هذا المولودُ الزَّهراءَ في جنَّتنا، أو ملعقةَ السُّكَّرِ في كأسِ حُبِّنا، وقبل عشرةِ أيَّامٍ وعند عودتي من العملِ استقبلتني كعادتها ببسمةٍ عريضةٍ أنسى بها تعبَ العملِ كلِّه، لكنَّ البسمةَ كانت أوسعَ من البسماتِ العاديَّةِ هذه المرَّة، وقالت لي: أبشر، لقد تحقَّقَ أملنا، فقلت: بماذا؟ قالت - وهي تشيرُ إلى بطنها - : لقد أثمر، ولا تسلُّ عن فرحتي، فقد حملتِ امرأتي بعدَ أربعِ سنواتٍ من زواجنا، والحمدُ لله، وبعدَ تسعةِ أشهرٍ أو أقلَّ، سأكونُ أبًا لمولودٍ لا أدري ذكَرًا كان أم أنثى، وليكن كما يشاء الله، فسأكونُ أبًا، ولكن - لا حول ولا قوَّةَ إلَّا بالله - أبي الله - ولا رادَّ لقضائه - إلَّا أن يُدخلَ علينا السُّومَ، السُّومَ الَّذي حملته امرأةٌ لا أدري إلَّا أنَّها عراقيةٌ الأصلُ كانت تخدمُ أبي، وأخبروني أنَّها أرضعتني، وأكَّدت أمِّي ذلكَ، حيث دخلت علينا طالبةً الرِّزقَ، فرحَّبت بها أمِّي.

وقالت نذيرةُ السُّومِ أو حاملته: إنَّها أرضعت سعدةَ زوجتي، التي لم أخبرك باسمها حتَّى الآن، إنَّها سعادتي التي انقطعت بسببِ هذه الخادمة، فحينما سافرت أمِّي إلى الحجِّ، جعلت بيتَ أمِّ سعدةَ مأوىً لها، وسعدةٌ تصغرني بستتين، فسألنا أمَّ سعدةَ فأكَّدت إرضاعها لها أيضًا.



سيدي! منذ أربعة أيّام وأنا مريضٌ، وسعدة إلى جانبي لا تعلم ما هو مرضي، نخشى إخبارها فتجهض أو تموت؛ لذلك لم يخبرها أحدٌ منّا بهذا الأمر.

أنا لا أخاف على نفسي، فليكن ما يكون، لكنني أخاف على سعدة، وهذا هو الحقُّ الذي أكنّه.

السؤال:

عشنا أربع سنين وأيّام زوجين، هل علينا في ذلك إثمٌ؟ وما مصيرُ هذا الجنين الذي لا ذنب له؟ وهل هو ولد شرعيٌّ لنا؟ أجبني، أثابك الله.

الجواب:

يقول الرسول الكريم في الحديث الشريف: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(١)، ومصيبتك مصيبةٌ، لكن لا مفرَّ ممّا حصل، ولتحمد الله على السراء والضراء ممّا قضاه وقدره، ولتمثل لأمره في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [التحل: ١٢٧]، وتدرّج في إخبار سعدة بشيءٍ من اللطف حتى تصل إلى النتيجة؛ النتيجة المرأة.

كانت سعدة زوجتك، أمّا الآن فهي أختك، ويا لعجائب القدر، وأختك من الرضاع وإن كانت محرّمةً عليك إلى الأبد؛ لكنّها أهون من أن تكون أختك من النسب، وقد سمعت عمّن تزوّج ابنته أو بنت أخته، وكانت مصيبتهم أشدُّ هولاً، فالحمد لله على ما قسم، وسل الله السّتر، أمّا زواجكما فكان صحيحاً قبل علمكما بالرضاع، ولكنّه انفسخ حكماً بعد علمكما وتأكدكما من خبر المخبر وصدق حاملته، وأصبحت من

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (١٣٠٢)، ومسلم، رقم: (٩٢٦).

كانت زوجتك أختًا لك بحكم القرآن؛ فهي حرامٌ عليك إلى الأبد.
 أمّا الجنين فهو ابنكما بالعقد الشرعيّ الصّحيح والنّكاح الذي كان
 صحيحًا، وقد سمّي الفقهاء مثل هذا النّكاح نكاح شبهة، فهو ليس
 ابن زنا، وإنّما ابن نسب، أنت أبوه وهي أمّه، يرثكما وترثانه، وليس في
 نسبه لكما أيُّ شبهة بنصّ الشرع.



٨- مأساة

جاءتني هذه الرّسالة من الفاو في جنوب العراق، يقول مرسلها: لي
 جارٌ له ابنان، ليس له غيرهما، جُنْدٌ أحدهما وتُرك الآخَرُ معيلاً لأبيه،
 وكان المجدّد متزوّجاً وله ولدان، تطوَّع في الجندية ليرثك أخاه المعيل
 للعائلة كلّها، وأرسل المجدّد أيّام الحرب التي دارت بين الأكراد في
 الشّمال والحكومة العراقيّة في الجنوب، وكان الابن المعيل قائماً
 بواجباته تجاه أبيه الشّيخ، وأولاد أخيه وأمّهم، لم يقصّر يوماً من الأيّام
 في واجبه الذي أسند إليه، حتّى إنّ الأب لم يشعر ببعده ولده، ولا
 الأولاد بغيبة أبيهم.

وفي صباح يوم من الأيّام يحمل ساعي البريد إلى الشّيخ رسالةً من
 وزارة الدّفاع تخبره فيها أنّ ابنه فُقد، واحتسب الشّيخ عند الله فقد ولده،
 وفي عرف الجندية إذا فُقد الرّجل يعني أنّه مات ولم يُعثر على جثّته، أو
 أنّه أُسر، والأسير عند الأكراد محكومٌ عليه بالإعدام.

وصبر الشّيخ سنةً كاملةً لم يسمع فيها خبراً عن ولده المفقود، لا من



قريبٍ ولا من بعيدٍ، وبعد مضيِّ العام وإحداد الزَّوجة وإكمالها العِدَّة، عرض الشَّيخ على ابنه الثَّاني أن يتزوَّج زوجة أخيه؛ حفظًا لأولاده من الضَّياع، وحتَّى لا يشعروا بفقدان أبيهم، ولحبِّ الأخ لأخيه رضي بما عرضه عليه أبوه، وتزوَّج زوجة أخيه، وبعد مرور عام، والزَّوجة حُبلى طُرق الباب ليلاً، وعرفوا أنَّ الطَّارق رجلٌ، فخرج الزَّوج وفتح الباب، فإذا بأخيه هو الطَّارق، ولا تسلُّ عن المفاجأة، فاحتضن أحدهما الآخر، وكاد أن يسقط الثَّاني مغمى عليه، وسمع الأب صرخة الفرحة فخرج ليرى ابنه المفقود.

وتَمَّ اللِّقاء ودخل الثَّلاثة إلى البيت وخرجت الزَّوجة، وجلس الجميع بين سؤالٍ وجوابٍ، وفي أثناء ذلك رأى الوالدُ ولده المقيم وقد تغيَّر لونه، وألجم لسانه، فسأله: ماذا بك يا بني؟ فلم يجب، وبعد لحظاتٍ سقط، فحرَّكوه فإذا هو ميّتٌ، فانكبَّ الأخ العائد على أخيه يبكي ويصرخ وينادي: أخي أخي، ثمَّ خفت صوته فإذا هو قد مات أيضًا، وبقي الأب وحيداً، والزَّوجة أرملةً، والأولاد يتامى، وهنا تنتهي المأساة، وكان عجبى من صبر الأب الذي رفع رأسه إلى السَّماء، وقال: لك الحمد يا ربُّ، وهبت وأخذت، وأعطيت وسلبت، فمنك ولك، أسألك اللهمَّ أن ترعى هؤلاء اليتامى؛ فإنِّي عاجزٌ، اللهمَّ إن كنت كتبت لي عمراً فأعني على تكاليفهم، وإن كنت اخترتني إلى جوارك فسخر لهم من يرعاهم.

صبرٌ عجيب، ومثالٌ نادرٌ، ولا سيَّما في وطن كالعراق.

السُّؤال:

كانت المرأة قد حدَّت للمفقود، والآن قد رجع لكنَّه لم يعش، رجع واجتمع بأخيه، والأخ كان زوجاً، فعلى من تحدُّ المرأة؟ هل تحدُّ على

الأوّل أم على الثاني أم عليهما معاً؟

الجواب:

هي مأساة، وعظّم الله أجر والد الولدين، وجبر مصيبتيه، وجزاه خير الجزاء وأعانه على رعاية يتامى ولديه.

أمّا الجواب على السؤال فالمرأة الآن زوجةٌ للأخير، وليست زوجةً للمفقود، وإحداها لزوجها الأخير، وفي مثل هذه الحالة لو بقي الأخوان حيّين يكون الأمر للزوج الأوّل، فإن وافق على بقائها في عصمة أخيه بقيت، وإن لم يوافق انفسخ النكاح من الثاني، ثمّ تعتدّ، ثمّ تعود لزوجها الأوّل، أمّا عند موت الأخوين سويّةً فإنّ عدّتها للزوج الثاني.



٩- تزوّج بنت أخته زواج الشبهة

جئت إلى الكويت وأنا طفلٌ مع عائلةٍ كويتيّة، كانت تصطاف منذ أكثر من عشرين سنةً في بلادنا، عشت مع هذه العائلة محاطًا بالرّفق والحنان، ولمّا كبرت قال لي ربُّ العائلة: أصبحت يا ولدي كبيرًا ولك عندي مبلغٌ من المال خُذه، فإن شئت الذّهاب إلى بلدك ففي حفظ الله، وإن شئت البقاء في الكويت ففي أمان الله، ونحن لك أهلٌ، ولكنّي فضّلت البقاء في الكويت وعملت ونجحت.

بعد مرور عام رأيتُ في السُّوق شخصًا قال لي أحد السُّوريين: إنّه يسأل عنك، وبعد أن تعرّفت إليه علمت أنّه خالي، جاء يسأل عنّي عندما عرف أهلي أنّي تركتُ العمل عند من كنتُ أعمل معه، ورحّبت بالخال



وأخذته معي إلى سكني، وبعد سؤالٍ وجوابٍ كما هي العادة عن الصِّحة والأهل والأقارب قلت له: يا خالي، قد أصبحت رجلاً، والرجل بلا زوجة ضائع، والكويتية لا أستطيع مهرها، فهل لك أن تبحث لي عن فتاة تحفظني وأحفظها، وشرطي الوحيد أن تسكن معي في الكويت؛ لأنني لا أريد غير الكويت سكناً، فقال: على الله التوفيق.

وسافر الخالُّ بعد أن عرف مكاني وعنواني ومحلَّ عملي، وبعد أشهرٍ قليلةٍ جاءتني برفيقةٍ بموعدٍ قدوم خالي من سورية عن طريق البرِّ وخرجت لمقابلته وكانت معه امرأةٌ جميلةٌ أظنُّ أن سنَّها يقارب سنِّي، وقال لي: هذه زوجتك، وقد عقدنا عليها، وكنت نائباً عنك في العقد، فوافقت على ما جرى، وبعد أن وصلنا إلى البيت جلسنا نتحدَّث، وأنا أسارق النَّظر إليها، وهي تسارقني النَّظر، وكأنِّي وجدت فيها طلبتي.

دخلت على زوجتي، وحبلى المرأة ومرَّ على الحمل ستة أشهر، وفي هذه المدة علمت أن زوجتي من بلدٍ في شمالِ سورية اسمه الرِّقَّة، وأنا من بلدٍ في جنوب سورية اسمه درعا، وبين درعا والرِّقَّة مسافةٌ طويلةٌ، وفي يومٍ من الأيام كان كلُّ واحدٍ منَّا يتكلَّم عن بلده، فقالت لي زوجتي: إنَّها نشأت يتيمة الأم؛ لأنَّ أمَّها ماتت عند وضعها، فسكَّتُ مبهوراً؛ لأنِّي أعرف أن لي أختاً تزوجها رجلٌ من أهل الرِّقَّة في أسبوعٍ ولادتي، وأنَّها ماتت عند ولادة ابنتها بعد سنةٍ من زواجها، وبعد سؤالٍ وجوابٍ عرفت أن زوجتي هي بنت أختي، وأنِّي خالها، فيا لها من مصيبةٍ.

السؤال:

ماذا يترتب على زواجي هذا؟ وما قول الشرع في هذا الجنين وفي هذه البنت التي تزوجها خالها؟ وماذا يترتب عليَّ أنا الذي هتكت عرضي؟



ومنذ أن علمنا بهذه المصيبة لم يقرب أحدنا الآخر، كلانا واجفٌ حزينٌ، ننتظر جوابك بصبرٍ فارغٍ.

لا كان هذا الزَّواج ولا كان يومه.

الجواب:

١- بعلمك يقيناً أنّها بنت أختك يفسخ العقد، علماً أنّ هذا الزَّواج يحدث مثله كثيراً لا سيّما في الأماكن التي يكثر السّفَر منها وإليها؛ كبلاد حضرموت مثلاً مع الهند وجاوه، أو كالحجاز مع كثيرٍ من الأقطار، ويسمّى هذا النّكاح نكاح الشُّبهة، والنّكاح يفسخ حكماً متى علم أحد الزَّوجين بحرمة على الآخر.

٢- أمّا الجنين فهو ولدكما، أنت أبوه وهي أمّه، ولمّا حملت به كنتما زوجين، ولم تنكشف لكما الحرمة إلّا بعد تكوينه، فهو بهذه الحال ابنكما، يرثكما وترثانه، ولم يتغيّر شيءٌ في الموضوع إلّا انفساخ العقد بينكما وتحريم أحدكما على الآخر لعلمكما بالتحريم، فأنتما أشبهُ بمن طلق زوجته، وهي حاملٌ.

٣- أمّا حال البنت التي كانت زوجتك فهي بعد الولادة حلالٌ لمن يطلب يدها، وليس عليها أيُّ إثمٍ، وهي من الآن بنت أختك وأنت خالها، ولا شيء عليك ولا على خالك، ولا على البنت، وإن كان هناك إثمٌ فهو على الصدفة، والصدفة لا دخل لكم بها، وقد حصل ما حصل، وظهر لكما الحقُّ والحمد لله.





١٠- وتقدرّون وتضحك الأقدار

تزوَّجته بعد موت زوجته الَّتِي خَلَّفَتْ مِنْهُ بِنْتًا فِي الرَّابِعَةِ مِنْ عَمْرِهَا، وَكَانَ يُحِبُّ الْبِنْتَ وَيَذْكُرُ الْأُمَّ، وَكَانَ ذَلِكَ يَغِيظُنِي مِنْهُ، وَكَمْ حَاوَلْتُ بِوَسَائِلٍ وَحِيلٍ شَتَّى أَنْ أَصْرِفَهُ عَنْ ذَلِكَ فَلَمْ أَنْجَحْ، كَانَ يَقُومُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فِي اللَّيْلِ لِيَتَفَقَّدَ الْبِنْتَ وَهِيَ نَائِمَةٌ، فَيَغْطِّيْهَا بَعْدَ أَنْ يُقْبِلَهَا أَوْ يَصْلِحُ وَضَعَهَا، وَفِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي أَصِيبَتْ الْبِنْتُ بِالْحَمَّى، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهَا الْحَرَارَةُ، فَوَضَعَهَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي فِرَاشِنَا يَتَحَسَّسُهَا بَيْنَ لِحْظَةٍ وَأُخْرَى، وَيَقُولُ: يَا خَلْفَ أُمِّي وَأَبِي، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَلَيْسَ هَذَا الْحَدُّ؟! وَمَكْرَتْ بِهَذِهِ الْبِنْتَ لِأَقْتُلَهَا، لَيْسَ قَتْلًا يَزْهَقُ رُوحَهَا بَلْ قَتْلًا مَعْنَوِيًّا، سَأَدَلُّهَا حَتَّى تَصْبِحَ خَرْقَاءَ، لَا تُحْسِنِ عَمَلًا، وَلَا تُرَقِّعِ ثَوْبًا، وَلَا تَعْرِفِ طَبْخًا، وَلَا أَيَّ شَيْءٍ تَحْتَاجُهُ الْأُنْثَى فِي بَيْتِهَا، سَأَجْعَلُ مِنْهَا امْرَأَةً كَسُوْلَةً تَعْجِزُ عَنْ إِعْدَادِ طَعَامِهَا بِنَفْسِهَا.

وَبَدَأْتُ بِالخَطَّةِ، وَكَانَ الْأَبُ فَرِحًا مِنْ عَمَلِي هَذَا؛ لِأَنَّي دَلَّلْتُ الْبِنْتَ كَمَا يَظُنُّ، حَتَّى إِذَا كُنَّا عَلَى مَائِدَةِ الطَّعَامِ وَالتَّفْتَتِ إِلَى الْمَاءِ - وَإِنْ كَانَ الْمَاءُ عَلَى السُّفْرَةِ - مَلَأْتُ الْكَأْسَ بِيَدِي لِأَسْقِيَهَا، أَوْ أَمَرْتُ بِنْتِي لِتَذْهَبَ وَتَأْتِيَ بِالْمَاءِ، وَكَانَ ذِكَاةَ الْفَتَاةِ وَنَجَاحِهَا فِي دَرُوسِهَا كُلِّهَا يَزِيدُ غِيظِي، فَكُنْتُ أُبْغِضُ إِلَيْهَا الْمَذَاكِرَةَ، وَأَقُولُ لَهَا: نَامِي يَا ابْنَتِي، وَأَوْهَمَهَا أَنَّهَا مَرْهَقَةٌ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَحْتَاجُ إِلَى مَذَاكِرَةٍ؛ لِأَنَّهَا ذَكِيَّةٌ فَكَانَتْ دَائِمًا فِي امْتِحَانَاتِهَا مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَائِلِ.

وَبَلَغَتْ الْبِنْتُ الثَّمَانَةَ عَشْرَ مِنْ عَمْرِهَا، وَقَدْ أَكْمَلْتُ الثَّنَوِيَّةَ وَدَخَلْتُ

الجامعة بنجاح، ولمَّا بلغت الثانية والعشرين من العمر جاءها الخاطب، ففرحت وقلت: الآن أرتاح. وأقنعت أباهَا أن يزوّجها قبل أن تُكمل دراستها الجامعيّة، وقَبِل نصيحتي وتزوّجت، ولكنّها تزوّجت من يعبدها ويخاف عليها هبوب الرّيح؛ فالخدم بلا عدِّ ولا حساب، والأمر يُنفذ قبل أن يُنطق به، ولن تحتاج إلى طبخ وترقيع، ومع ذلك كلّه فالبنت ذكيّة ولبقة، وبعد سنتين تزوّجت ابنتي رجلاً شديداً قاسياً، سبّاباً، حادّ المزاج، بخيلاً.

السؤال:

سيدي: بنتي لم تُذنب، وأنا من فعلت الذنب، لكنّ الله عاقبني في ابنتي، فكيف أكفر عن ذنبي لأخلص ابنتي ممّا هي فيه؟
وقبل أن أختتم رسالتي أقول لك: إن بنتي تحب زوجها، وهو يحبها مع ما هو عليه من الصّفات التي ذكرتها لك.

الجواب:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وأثر عن العرب قولهم: «على الباغي تدور الدوائر»^(١).

والكيد الذي فعلته لم يفكر فيه أحد قبلك، ولو نجحت في كيدك هذا لقتلت نفساً قتلاً حقيقياً لا معنوياً؛ إذ ما الفرق بين القتلين؟! كلاهما حرمان من الحياة، ولكنّ الله ﷻ حمى البنت فدرّعها بالعلم، وسوّرها بالذكاء، فكانت ربّة بيت، أمّا الخدم والحشم والنعمة فلا يستطيع أن يحرزها بليد أو أخرق كما تظنّين، ولعلّ النعيم الذي ترين به بنت زوجك

(١) انظر: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، للتّوخّي البصريّ (٢٩٧/٥).



يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أَنَّ بِنْتَكَ لَا تَعِيشُهُ، ثُمَّ تَقُولِينَ: إِنَّهَا تَحِبُّهُ وَهُوَ يَحِبُّهَا،
وَالْمَحَبُّ لَا يَسِيءُ إِلَى حَبِيبِهِ، وَإِذَا كُنْتَ تَتَخَيَّلِينَ ذَلِكَ فَلْعَلَّ هَذَا مِنْ تَوْبِيخِ
ضَمِيرِكَ لَكَ.

فَإِنْ كُنْتَ تَرِيدِينَ الْعَفْوَ وَالسَّمَّاحَ مِنْ بِنْتِ زَوْجِكَ فَقُولِي لَهَا: إِنِّي يَا
بِنْتِي أَسَأْتُ إِلَيْكَ كَثِيرًا، وَأَنْتِ الْآنَ قَدْ غَادَرْتِ بَيْتِي إِلَى نِعْمَةٍ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ
أَنْ يَدِيمَهَا عَلَيْكَ، فَسَامِحِينِي وَاغْفِرِي لِي زَلَّاتِي، وَإِذَا أَوْضَحْتَ لَهَا
زَلَّاتِكَ فَإِنَّ الْعَفْوَ يَكُونُ أَوْسَعَ، وَبِذَلِكَ يَطْمَئِنُّ بِالْكَ وَيَرْتَاحُ ضَمِيرُكَ
وَتَتَخَيَّلِينَ بَعْدُ أَنَّ بِنْتَكَ فِي نَعِيمٍ.



١١- توفيقٌ ووفاءٌ

سَيِّدِي! لَا أَدْرِي بِمَاذَا أَبْدَأُ قِصَّتِي! فَأَنَا عَرَبِيَّةٌ، وَلَكِنِّي لَسْتُ ذَاتَ
حَسَبٍ وَنَسَبٍ، وَلَا مِنْ قَبِيلَةٍ ذَاتِ أَصْلٍ وَفَصْلِ، فَأَنَا بَدَوِيَّةٌ مِنْ جَنُوبِ
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، مِنْ جَمَاعَةٍ يُقَالُ لَهَا: الصُّنَّاعُ، يَتَّبِعُونَ قَبِيلَةَ مِنَ الْقَبَائِلِ
الَّتِي تَعِيشُ قَرَبَ وَادِي حَنِيفَةَ، وَأَبُوآيَ ابْنَا عَمٍّ.

هَلْ أَبْدَأُ قِصَّتِي بِوِلَادَتِي أَمْ بِزَوَاجِ وَالِدِي؟ لَا، وَلَكِنِّي سَأَبْدَأُهَا بِبَيْتِ
أَبِي، فَقَدْ فَقَدَ أَبِي أَبُويهِ فِي الرَّابِعَةِ مِنَ الْعَمْرِ، فَاحْتَضَنْتُهُ خَالَتهُ الَّتِي هِيَ
جَدَّتِي؛ أُمُّ أُمِّي، فَأَبُوآيَ وَوِلْدَا عَمٍّ وَخَالَةٍ أَيْضًا.

بَعْدَ ذَلِكَ وَوَلِدْتُ أُمِّي يَتِيمَةً، فَعَاشَ أَبِي وَأُمِّي كَأَخْوَيْنِ فِي حِضَانَةِ خَالَتهِ
الَّتِي هِيَ جَدَّتِي، وَلَمَّا بَلَغَا زَوْجَتَهُمَا، وَكَانَتْ أُمِّي يَوْمئِذٍ فِي السَّادِسَةِ
عَشْرَةَ، وَكَانَ أَبِي فِي الْعِشْرِينَ، وَقَبْلَ أَنْ أُولَدَ مَاتَ أَبِي غَرِيقًا، وَبَعْدَ

ولادتي ماتت أمِّي بحمِّي النَّفَاسِ، فاحتضنتني جدّتي وأنا في أسبوعي الثاني من العمر، ولم أعرف لي أمًّا ولا أبًا، وكنت أناديها أمِّي وما زلتُ.

كنا نسكن في حيِّ من الكويت، في بيتٍ متواضعٍ، ولجارنا الملاصق امرأةٌ ذاتُ ولدٍ واحدٍ يتيمٍ، وكانت أمِّي وأُمُّه تتزاوران، وكنت أصحب أمِّي في زيارتها، ويصحبُ أمّه كذلك في زيارتنا، كان يكبرني بخمس سنواتٍ تقريبًا، ولمّا بلغ الخامسة عشرة من عمره انقطع، فلم يصحب أمّه في زيارتها لنا؛ لأنّه أصبح رجلًا، والتقاليد السائدة يومئذٍ تمنعه من ذلك، كان ناجحًا في دروسه، ولم يرسب طوال ملازمته الدّرس، وكنت كذلك.

بقيت الجارتان تتزاوران، تقضي كلُّ منهما حاجةً الأخرى بالمداينة أو الاستعانة أو الاستعارة، وفي مطلع سنة (١٩٥٦م) بلغت السادسة عشرة من عمري ونجحت في امتحان الثانوية، وبينما أمِّي في السُّوق تشتري حوائجها كعادتها مساء كلِّ خميسٍ لم أشعر إلاّ بآبن الجارة قد دخل عليّ بلا استئذان، فحاولتُ الصُّراخ، لكنّه قال: مهلاً، أنا فلان، وسمّي نفسه، فقلت له: أعرفك، ماذا تريد؟ قال: جئتُ لأسأل عنك. قلت: مرحبًا. قال: منذ متى لم نر بعضنا؟ قلتُ: منذ ستّ سنواتٍ تقريبًا، قال: أمّا أنا فأراك كلَّ يوم. قلت: شكرًا، ماذا تريد الآن؟ قال: أريدُ أن أسألك، إنني أصبحتُ رجلًا، وأريدُ أن أكملَ ديني، فهل ترضين بي زوجًا لك؟ قلت: كان الواجب عليك أن توجّه هذا الكلام لأمِّي. قال: لا، بل أوجّهه لك؛ لأنّك صاحبة الشّان في الموضوع، حتّى إذا راجعتِ نفسك وقبلتِ طلبتُ يدك من أمّك، راجعي نفسك حتّى يوم الخميس القادم إن



شاء الله، وسأتيك عند خروج أمك لآخذ الجواب في الوقت نفسه،
واعلمي أن خير البر عاجله؛ فإمّا نعم، وإمّا لا.

الحقيقة يا سيدي أنني في تلك الساعة أحسستُ أنني امرأة، وستضحك
منّي إذا قلت لك: إنني دخلت الغرفة لأرى وجهي في المرآة، وأسأل:
هل أنا جميلة؟ هل سأصبح زوجةً حقًا؟ هل بلغت مبلغ النساء؟

وبقيت أسبوعًا كاملاً أنتظر الخميس الموعودَ على أحرّ من الجمر،
وجاء في الوقت المحدد ظهرًا بعد خروج أمي إلى السوق، وقال: ما
جوابك؟ قلت: إذا أردت فأنا موافقة، ولا مانع عندي، قال: إذن
سأزورك مع أمي هذه الليلة؛ لأطلب يدك، قلت: هكذا سريعًا؟ قال:
نعم، وبعد العشاء جاء مع أمه ولم تكن أمي على استعدادٍ لاستقبالهما؛
لأنني لم أخبرها، فدخلنا عليها بلا ميعادٍ كالعادة، وتكلّمتُ أمه تمهّد
للدخول في الموضوع، وأمّه لبقةٌ تُجيد الكلام، وقد باغتت أمي في
النهاية بالموضوع، فقالت أمي: يا ليت، وهل سأجد خيرًا من ابنك، وقد
جاورناكم كلّ هذا العمر الطويل، ولو كانت ابنتي حرّةً لقبلت، إلا أن
لابنتي ابن عمّ، ولا أستطيع أن أجيب إلا بعد مراجعته لأسأله: هل
يريدها لنفسه أم سيسقط حقّه بها؟ فنحن بدو.

كنت أسمع هذا الكلام بدهشةٍ، فلم أكن أعرف أن لي ابن عمّ، ومن
هذا ابن العمّ الذي لا أعرفه ولم أسمع به، ولا علم لي بوجوده؟! ومتى
ولد؟ ومن أبوه؟ أنا لا أعرف أن لأبي أخًا.

ولمّا خرج الخاطبانُ ثرت في وجه أمي وصرخت وبكيت وقلت: من
هذا ابن العمّ الذي تدّعيه؟ هل هو حقيقة؟ فقالت: نعم يا بنتي حقيقةً،
قلت: إن طلب يدي أقتله. قالت: غداً يكون الخير إن شاء الله. ثمّ قالت

كلمتها المعروفة التي كثيراً ما كنتُ أسمعها منها: في الصُّباح رباحٌ. وفي الصُّباح ارتدت أمِّي ثيابها وخرجت، وطال غيابها عن البيت، وقبيل الظُّهر عادت، وقالت: أبشري بالخير يا ابنتي، إنَّ ابن عمِّك تنازل وقال: إنَّها بنتٌ صغيرةٌ، وأنا الآن في الأربعين من عمري، وهي متعلِّمةٌ، وأنا جاهلٌ، ولن أظلمها، ثمَّ سألني عن الخاطب فأخبرته، وقال: إذا كنت راضيةً؛ فأنعم به وأكرم، سأحضر في الخميس القادم حتَّى يخطبها منِّي، ويكمل مراسيم الخطبة، وفرحتُ، وذهبت أمِّي لتبلغ أمَّه بما حصل، وكنا على استعدادٍ لما سيجري في مساء الخميس.

كنا في أوائل شهر شباط سنة (١٩٥٦م)، وقد صنعنا عشاءً للضيوف، وجاء ابن العمِّ مع المأذون ومعه هديَّةٌ، وجاء الخاطب وأمُّه، وقال ابن العمِّ: أين شهودك يا ولدي؟ قال: هل تريد أن نعقد أم نخطب؟ فقال: انتهت الخطبة من الأمِّ، ولأنِّي الوليُّ الوحيد جئت لإجراء العقد، اذهب يا ولدي وأتني بشهودٍ من الجيران، وعقد القرآن والحمد لله، وخرج ابن العمِّ بعد أن قدَّم هديَّته وكانت ضخمةً قياساً بذلك الوقت، فقد كانت قطعةً من القماش الحريريِّ وعشر قطعٍ ذهبيةً من فئة الجنيه الإنجليزي.

وبعد العشاء الذي لم يشترك فيه ابن العمِّ خرج الشُّهود، وبقيت أمِّي وأمُّه في غرفةٍ، وبقيت أنا وزوجي في غرفةٍ، في كلِّ عامٍ وإلى اليوم نجتمع في الليلة نفسها، أمِّي وأمُّه في غرفتهما، وأنا وهو في غرفتنا نتذكَّر أيام الشُّباب، حيث كانت بيوتنا في المدينة، واستُملكت للمصلحة العامَّة، فاشترينا بدلاً منهما بيتين متلاصقين؛ كما كانا سابقاً، وبنينا غرفتين متجاورتين سمَّيناها دور الذِّكري؛ لنعيد فيهما ذكرى أوَّل ليلةٍ من



شباط سنة (١٩٥٦م) فأبيتُ مع زوجي في الغرفة المخصّصة لنا، وتبيت والودتان في الأخرى.

والآن مضت عشرون سنةً كاملةً، صرنا أبوين لخمسةٍ من الأولاد أكبرهم في التاسعة عشر من العمر في سنته الجامعيّة الثانية، وصار زوجي دكتوراً في العلوم الاجتماعيّة، وأنا وصلت إلى درجة الماجستير في التّربية، لم أتوظّف بشهادتي لكنّي أطبّق علمي على أولادي، وأمّي بلغت السادسة والسّبعين من العمر، وأمّه دون السّتين، وكلُّ منهما أقرب من الأمّ إلى البنت، أو أقرب من الأخت إلى أختها.

تألّفي وزوجي وتفاهمنا سرّت عدواه إلى الجميع، فقد جعلنا من البيت جنّةً لا لغو فيها ولا تأثيم، وعلى وجوه الجميع نضرة النّعيم، صدّق إذا قلت لك: إنّ الجدرانَ تضحك لنا، وأولادنا كالولدان في الجنّة، وهم أصدقاء لنا.

كُتبت هذا لأسألك سؤالاً واحداً، في السنّة الثّانية من زواجنا تذكّرت ابن عمّي فأردتُ أن أكافئه، أنا وزوجي لا نعرفه، ولا يعرفه أحدٌ منّا غير أمّي، فقلت لها: كيف نستطيع أن ندعو ابن عمّي لنشكره على صنيعه ونهدي له هديّةً، ونحن والحمد لله في يسرٍ من الحال، لا سيّما أنّ أمّي كانت غنيّةً منذ فتحتُ عينيّ، وذهبت أمّي لتبحث عن ابن عمّي الذي لم يتزوَّج، وعادت إلينا وقالت: إنّ بيته قد استمّلك للمصلحة العامّة، وقد ترك المنطقة التي كان يسكن فيها، وسألت عنه فلم يعرفه أحدٌ، علماً أنّ ابن العمّ غير معروفٍ، وأمّي لا تعرف غير اسمه واسم أبيه، وبقيت تسأل عنه في كلّ سنةٍ وفي كلّ مناسبةٍ، وحتىّ يومنا هذا، وقد مضى على حكايتنا عشرون سنةً لم نعرف لابن العمّ هذا مكاناً، ولم نسمع عنه

خبرًا، ولا رأينا له أثرًا.

السؤال:

هل نحن مقصرون في حقّه؟ هل نستطيع مكافأته بشيءٍ من الصّدقات عن روحه إذا كان ميتًا؟ فهو إن كان حيًّا فسيكون في السّتين من عمره أو قريبًا منها.

أرجو الجواب.

الجواب:

رسالة لكنّها قطعةٌ من شعرٍ، لم أُغيّر فيها إلّا بعض أغلاطٍ نحوويّةٍ، ولا أدري هل هي حقيقةٌ أم خيالٌ؟! وقد تكون حقيقةً.

الله سبحانه وتعالى يهب التّوفيق لمن يتحرّاه، كما يهب الهداية لمن يطلبها، وقد رأينا وسمعنا وصادفنا بيوتًا عاش أهلها في جنّاتٍ كجنّات النّعيم، ورأينا وشاهدنا وخبرنا بيوتًا عاش أهلها في نيران الجحيم، إنّها الأسرة، والأسرة زوجٌ وزوجةٌ، فإن كانا موفّقين ولان أحدهما للآخر ورفق به كانا سعيدين، والرّسول ﷺ قال وقوله الحقُّ: «ما كان الرّفق في شيءٍ قطُّ إلّا زانه»^(١)، فمتى رفق أحد الزّوجين بالآخر زان الرّفق حياة الزّوجين، فأصبح موطن الأسرة جنّةً، ريحانها وفاق الزّوجين، وحوورها وولداؤها أطفالهما.

نعود إلى الجواب الَّذي سألت عنه بنت العرب صاحبة الرّسالة، فأقول: أنت وفيّةٌ، وزوجك وفيٌّ، وقد بحثتما عن الرّجل الَّذي أدّى لكما المكرمة كما تقولان فلم تجداه، وتريدان أن تكافئاه على مكرمته بمكرمةٍ

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٥٧٠٩).



مثلها فجزا كما الله خيرًا، وتستطيعان مكافأته بما تقدّمان لروحه من صدقاتٍ، فإن كان حيًّا فالله كريمٌ، وستصلُ إن شاء الله، وإن كان ميتًّا فكذلك، وأفضل ما تقدّمان له الدعاء.



١٢- من محاسن المصادفات

ما أعجب أمر القضاء والقدر! والقضاء والقدر سرُّ لو اطلعنا عليه لما عشنا.

كنت شابةً جميلةً، أعيش في بيت عمِّي الذي ربّاني بعد موت أبي حين تزوّجت أمِّي، وأخذني منها بحكم الشرع، ولكنّه لم يقطعني منها، فكنت على اتّصالٍ دائمٍ بها حتّى بلغت سنّ الثّانية والعشرين، وجاءني خاطبٌ من السّعوديّة، وكان ذلك سنة (١٩٥٠م)، ولم يتردّد عمِّي في إجابته، وتمّت المراسيم العرفيّة والشرعيّة من خطبةٍ وصدّاقٍ وعقد زواجٍ، وتزوّجت، وبعد مرور عامٍ واحدٍ أنجبت ابنتي؛ فارسة، والتي هي قصّتي.

كنت فرحةً بولادتها لولا أنّ زوجي دخل عليّ، وقال: استعدّي للسّفر إلى الكويت، وفرحت بهذه المفاجأة، وإذا بزوجي يوصلني إلى عمِّي، ثمّ يسلمه ورقة طلاقي، فأصبحت مطلّقة بعد أن صرت أمًّا لطفلةٍ لم تعرف أباهما، إذ تركها معي وأعطى الأريحيّ الكريم نفقة العِدّة، ولم نسمع عن طليقي بعد ذلك أخبارًا، ولم نعرف له مكانًا.

وعندما كبرت ابنتي شعرت بالثقل على عمِّي، وأصبحت في شقاقٍ

دائم مع أحفاده، فطلبتُ إلى الشؤون الاجتماعية بيتًا، وحصلت على عملٍ أعيشُ بوارده مع ابنتي، ولم يقصّر عمِّي في مساعدتي، ولم ينقطع عن زيارتي حتى توفاه الله، ودخلت ابنتي المدارس وتعلّمت، وقد كتبت لك شيئًا من حكايتي، وكان معنى جوابك لي أن الله مع الصّابرين.

خطبني كثيرون، ولكنِّي كنت أخاف ضياع ابنتي فنذرت نفسي لها.

وفي يوم من أيّام شتاء سنة (١٩٧٣م) أصاب ابنتي مرضٌ، اشتبه الأطباء بخطورته، فقرّرت السفر إلى لندن؛ خوفًا عليها أن تموت فأموت، وفي المستشفى تعرّفنا عائلةً عربيّةً من السّعودية وعائلةً أخرى كويتيّةً، وبعد انتهاء العلاج وقرار السفر جاءني ربُّ العائلة السّعودية، وقال: إنِّي عمُّ ابنتك، أخو أبيها الشّقيق، وأهدى للبنت هديّةً ثمينةً.

وصلنا الكويت وقد شفيت البنت، والله الحمد، وإذا بالأب ينزل علينا نزول الصّاعقة مطالبًا بابنته بدعوى قد أقامها لذلك، فحكمت عليه المحكمة بالنّفقة للسّنين الماضية، وكانت نفقةً لا بأس بها، دفعها دون تأجيلٍ أو اعتراضٍ، وأخذ البنت مني، وسافر بها إلى بلده في السّعودية.

وبقيت عشرة أشهرٍ أقاسي أشدَّ عذاب الفراق، فكيف أستطيع العيش دون ابنتي ولا أمل في حياتي إلّا هي؟! وأصبحت أنصح لكلّ كويتيّةٍ إلّا تقبل بأيّ غريبٍ زوجًا لها، بل أنصح لكلّ أنثى إلّا تتزوَّج أحدًا من غير أهل بلدها.

مرّت الشّهور العشر بأيّامها الثلاثمئة، كنت أعدّها يومًا يومًا، وكلُّ يوم يمرُّ عليّ كأنّه سنة قحطٍ أو خوفٍ، وأصبحتُ يومًا فإذا بأحد أحفاد عمِّي الصّغار يأتيني ويقول: إنّ فلانة تكلمك بالهاتف. فقلت: أيُّ فلانة؟ فقال: إنّها ابنتك، وخشيت أن يغمى عليّ، فأنا بين مصدّقةٍ ومكذّبةٍ،



وظننتُ أنّ الولد يكذبُ عليّ، فاستحلفتُه فحلف أنّ الأمر حقيقةٌ، فأسرعتُ إلى بيت عمّي، وكانت ابنتي قد أعطتهم رقمًا اتّصل بها بوساطته، أدت قرص الهاتف، فإذا بصوت ابنتي، شعرت أنّي في حلمٍ، هل ابنتي في الكويت؟! أنت فلانة حقًا؟! فقالت: نعم، أنا فلانة، وقد تزوّجت من فلانٍ، وفي أسبوعٍ زواجي نُقلت وظيفته من المملكة السّعوديّة إلى الكويت في شركةٍ تجاريّةٍ، وزوجي غنيٌّ، ولم يمضِ على زواجي شهرٌ، وكان قبلَ أن يأتيه الأمر بالنّقل مصمّمًا على طلبك، فتعالى إليّ؛ فإنّ زوجي يحبُّ أن يراك، وأبشرك يا أمّي أنّ زوجي جامعيٌّ له مكانةٌ في المجتمع ووظيفةٌ عاليةٌ، وأرجو أن ينال في المستقبل مكانةً أعلى.

ولن أستطرد في وصف مشاعري عند اللّقاء وفرحتي به بعد طول فراقٍ ولهفةٍ، حتّى إنني كدت أطيّر إليها، ولن أحكي لك عن دموع الفرحة بلقائها، وقد زادت هذه الفرحة برؤية زوجها الذي لمست فيه حسن أخلاقه وحبّه لها.

وإنّي ما زلت أذكر جوابك الأوّل لي، والذي كان معناه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، أو معناه: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصّٰدِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزّمر: ١٠]، وقد تعدّبت عشرة أشهرٍ كاملةً كنت فيها بأشدّ حالات العذاب، أمّا اليوم فأنا سعيدةٌ بلقاء ابنتي وزوجها وبالحبّ الذي يجمعهما، لكنني إذا تذكّرت أيّامي مع زوجي أخاف أن تكون عاقبتها كعاقبتي.

السؤال:

ما رأيك في سوء ظنيّ؟ وما رأيك بالثلاثمئة يومٍ التي قضيتها في عذابٍ؟

الجواب:

يا بنتي! لعليّ تذكّرت رسالتك السابقة، وتذكّرت أنّي نصحت لك بالصّبر، وقد أكبرت فيك إخلاصك لوحيديتك التي عشت لها، وكان من الممكن أن تنزوّجي بعد طلاقك، ولم يلمك أحدٌ لو فعلت ذلك، ولكنك اخترت الطّريق الصّعب وهو أن تعيشي لابنتك، وأكادُ أشعر بشعورك ذاته وأنت تراقبينها تحبو، ثمّ تخطو خطوتها الأولى، ثمّ تكبر، وأعرف شعورك وأنت ترين نفسك فيها، أعرف كلّ هذا يا بنتي، وأقدّر عذاب فراقك لها وانتزاعها منك بعد كلّ هذه السّنين، لكنّ الأيام التي قضيتها في عذاب كانت كالمرض الذي يصيب الصّحيح؛ ليعرف به نعمة الصّحة، وكالشّدّة يصاب بها الموسر؛ ليدرك نعمة الرّخاء، والنّعْم لا يعرفها الإنسان إلّا بضدّها، فاحمدي الله على أنّ الشّدّة لم تطل بك، بل كانت وقتيةً، أراد الله ﷻ بها امتحانك، ففرّق بينكما؛ لتعرفا نعمة اللّقاء ولذّته، ولعلّ الفراق الذي قضاه الله جلّ شأنه كان وسيلةً لتلتقي البنت زوجها، فالمزوّج في السّماء.

أمّا تفكيرك بما جرى لك، وخوفك من تكراره في ابنتك فهذا شيءٌ طبيعيٌّ، أنت ذقت مرارة الحياة بلا زوج، وعشت سنين طويلةً وحيدةً مع ابنتك، واضطرت إلى أن تخوضي معركة الحياة وتكافحي وتعملي من أجلها، ولكن ما أريد قوله: إنّ الزّمن قد تغيّر وأصبح الزّواج شركةً تقوم على التّفاهم والمودّة والحبّ، وباعتقادي أنّ انتشار التّعليم قد ساهم في أن يدرك الشّابّ والفتاة ما في الزّواج من معانٍ ساميةٍ، وساعدهم في مواجهة مشكلاتهم والتّغلب عليها بالعقل والتّفاهم، وأنت تقولين: إنّ ابنتك متعلّمة، وزوجها متعلّم على أنّه يحبّها أيضًا؛ لذلك لا مكان



للخوف بإذن الله، ويزيد من اعتقادي هذا أنك ربّيت فأحسنت التّربية، ولعلّ ابنتك ترى فيك قدوةً تحذّيتها في حياتها، فلا تخافي واحمدي الله، ولتكن ثقتك به كبيرةً، وسيعوّضك الله خيرًا كما وعد ﷻ عباده الشّاكرين: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

كلمةٌ أخيرةٌ أوّجّها إلى ذلك الأب الذي طلق زوجته بلا سببٍ معقول وتركها تواجه الحياة مع طفلتها كلّ هذه السّنين دون أن يكلف نفسه عناء السّؤال عنهما، ثمّ يأتي فجأةً لينتزع ابنته من أحضان أمّها دون مراعاةٍ لما عانته وقاسته من أجلها، أقول له: أين كنت طوال هذه السّنين؟! لماذا لم يستيقظ شعور الأبوة فيك إلّا بعد أكثر من عشرين سنةً؟! ثمّ كيف طاوعك قلبك أن تنتزع ابنتك من أمّها التي وهبتها نفسها؟! وقد كان الواجب عليك أن تتقي الله فيهما، فلا تفرّق بينهما مع علمك بما سيسببه هذا الفراق من آلام، وعلى أيّة حالٍ، لعلّ هذا - كما قلتُ - كان خطوةً لكي تلتقي ابنتك زوجها؛ ليؤسّسا أسرةً تقوم على الإخلاص والتّفاهم والمشاركة؛ وليعوّض الله بقيام هذه الأسرة السّعيدة صبرك الطّويل.



١٣- كما تدين تُدان

سيّدي! لا أدري أهي مشكلةٌ أم هي جريمةٌ؟!

أنا صاحب دكّانٍ أو كما يسمّونه نيفوتيه، وهو معرضٌ لحاجاتٍ نسائيّةٍ، فتحت دكّاني منذ سنة (١٩٧٠م)، وقد جاوزت الثلاثين من عمري ومع هذا فإنّي عازبٌ؛ لأنّي لم أجد الزّوجة التي تخيلتها أمّا لأبنائي، ولا

أفخر - وإنما أتحدّث بنعمة الله عليّ - إن قلتُ: إنني حسن الأخلاق، عفيفٌ، مستقيمُ السيرة، محافظٌ كما يقولون في عصرنا هذا.

في يومٍ من الأيام دخلت دكاني امرأةٌ لفتت نظري بحيائها، وغضّ بصرها وصوتها وجمالها، ولم تكن كالنساء اللواتي يتردّدن على محليّ - وما أكثرهنّ - بضجيجهنّ وصخبهنّ، وحين يجادلن في شراء سلعةٍ أو دفع ثمنٍ تشعرُ كأنّ إحداهنّ تتكلّم مع زوجٍ أو ذي محرمٍ، أمّا هذه فلم تكن كأولئك، بل كان الحياء في كلامها وابتياعها واستلامها السلعة وتسليمها الثمن واضحًا باديًا عليها، وقد أعجبتني والله، وتمنيت لو سألتها أهي زوجةٌ أم مطلّقةٌ؟! ثمّ قلت في نفسي: مثل هذه لا تُطلق.

وشغلت هذه الفتاة فكري، وبعد غيابٍ دام أسبوعًا عادت لزيارتي، فلم أتمالك نفسي أن قمت لها مرحّبًا، لكنني خجلت ورجعت إلى طبيعتي، وحاولت أن أسألها بعض الأسئلة عن شخصيّتها؛ فلم أستطع، وخانتني شجاعتني، وقبل عيد الأضحى سنة (١٩٧٥م) عادت ثني على معاملتي، وطلبت حاجاتٍ عدّة للعيد، قالت: إنّها لها ولولديها، فسألتها: هل أنت متزوجةٌ؟ قالت: نعم، ويا ليتني لم أكن، ثمّ سكتت وأخذت ما تحتاج، وسلّمت الثمن بلا جدالٍ، وبعد شهرٍ تقريبًا عادت ومعها طفلٌ في الرّابعة من عمره، وقالت جوابًا على سؤالني: إنّ ابنه البكر، وإنّها تكره أباه، ولا تدري لماذا تكرهه؟! وذكرت أنّه شابٌ غنيٌّ جميل أريحيّ^(١) يحبّها، وينفدُ كلّ طلباتها، لكنّها تكرهه وتمنّي أن يطلقها، ثمّ ذهبت بعد جلوسها مدّة قصيرة، وكانت الزيارات تتكرّر كلّ

(١) الأريحيّ: الواسع الخلق، المنبسط إلى المعروف، مهترٌ للندى والمعروف والعطيّة. انظر: تاج العروس، للزبيديّ (٦/٤٣٣).



أسبوعين أو ثلاثة، ولم أسألها عن اسم زوجها، لكنني عرفته من بعض أحاديثها، فهو شابٌ في مثل سنِّي، له مكانته الماليَّة والاجتماعيَّة والعائليَّة، وساءلت نفسي لماذا تكرهه؟ ولم أجد جوابًا عن سؤالي سوى الحديث الشَّريف: «الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(١).

سيدي! قيل في المثل: من أكثر التَّرداد أضناه الملل، لكنَّ تكرار زيارة هذه المرأة لي أثمر حبًّا، فقد صرت أشتاق لها إذا تأخَّرت، لم تكن لزيارتها مواعيد، لكنني صرت أستبطنها، فإذا جاءت تلقَّيتها بالترحاب والسُّؤال عن سبب تأخُّرها، حتَّى كأنني لمست شعورها بحبِّي لها، وكنت أتمنَّى لو طلقها زوجها لأنزَّوجها، وقبل أيَّام قالت: إنني سأتخلَّص من زوجي، سأجعله يكرهني فيطلقني، فقلت: كيف؟ قالت: ذكروا لي شيئًا يستخدم الجنَّ ويسخِّرهم، وسأذهب إليه ليساعدني في جعل زوجي يكرهني ويطلقني.

الحقُّ يا سيدي أنني عندما سمعت منها هذا اقشعرَّ بدني، ولكنني عندما نظرت إلى وجهها؛ قلت: اللهمَّ حقِّق أملها، قلتها حبًّا لنفسي؛ لأنني أتمنَّى أن تكون لي زوجةً، ولأولادي أمًّا، ثمَّ قالت: هل تساعدني؟ قلت: إن كانت العمليَّة ناجحةً فنعم، لكن هل هناك أحدٌ يستطيع استخدام الجنَّ؟! قلتها ولا أدري لم قلتها بلا تفكيرٍ، قالت: يقولون.

سيدي! إنَّ الله يعلم أنه لم تحصل بيننا خلوةٌ، ولا في حديثنا ما يريب، لكنَّها أمنيَّةٌ في النَّفس أن تكون هذه المرأة زوجة لي.

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٣٣٣٦)، ومسلم، رقم: (٢٦٣٨).

السُّؤال:

ما هو الرَّأي السَّديد في قِصَّتِي؟ أرجو إرشادي إلى الخير.

الجواب:

غريب أمرك، تقول: إِنَّكَ عَفِيفٌ، مستقيم السَّيرة، محافظٌ، ومع ذلك لا أجد في تصرُّفاتك صفةً واحدةً من هذه الصِّفات الَّتِي تنسبها إلى نفسك، فإذا كان هذا تصوُّرك للعفة والاستقامة فلا كانت عفةً، ولا كانت استقامةً.

أنا لا أقسو عليك، بل أنا أقرُّر واقعًا كتبته بنفسك واعترفت به، فقد ضعفت أمام أوَّل تجربة تعرَّضت لها، وليت ضعفك هذا كانت آثاره تعنيك وحدك أو تنعكس عليك وحدك، لكن آثار هذا الضعف فيها خرابٌ أسرة، وهدمٌ بيت، وتشريدٌ أطفال، ودعنا نتحدَّث بصراحةٍ وتعقُّلٍ، هذه السَّيدة الَّتِي أسرتك - كما تقول - ماذا ينقصها؟! ما الَّذِي يدفعها لأن تتماذى في استهتارها؟! إنَّها - كما تقول - زوجةٌ وأمٌّ، وزوجها شابٌّ غنيٌّ جميلٌ أريحيٌّ يحبُّها، وينقذُ كلَّ طلباتها، ولكنَّها مع ذلك تكرهه، فما الدَّاعي لهذا الكره؟! وإذا لم تكن كلُّ هذه الصِّفات، أو واحدةً منها أساسًا للحبِّ، فما أساس هذا الحبِّ؟!

قل لي بالله عليك، ماذا يمكن أن تعطيتها أنت أكثر ممَّا يعطيها زوجها، إنَّك سمحت لنفسك أن تجلس معها، وتتبسَّط في الحديث معها وترحَّب بها، ثمَّ أكثر من هذا تسايرها فيما تسعى إليه بدافعٍ وحيدٍ هو جحودها لإحسان زوجها، وإنكارها جميله معها، ألم تسأل نفسك مرَّةً ما ذنب طفليها في كلِّ هذا؟! وماذا سيكون مصيرهما؟!



ضع نفسك مكان هذا الزوج الطيب الذي وضع ثقته وحبّه فيمن لا تستحقُّ شيئاً من هذه الثقة وهذا الحبّ، هذه الصلة التي بينك وبينها، وإن كانت شريفةً كما تدّعي فهي جنايةٌ على الدين الإسلامي والخلق العربيّ، وإنّ كلّ واحدٍ منكما يُظهر غير ما يبطن، وكلاكما يعلم ما في ضمير صاحبه، فهي تتصنّع الحياء في كلامها وابتياعها واستلامها السّلح، ودفع الثمن، وأنت تدّعي أنّك عفيفٌ مستقيمٌ محافظٌ، فنعَم الصّفات!

حياؤها يدفعها لكره زوجٍ أعطاهَا كلّ شيءٍ ومنحها كلّ ما يملك، ويدفعها لتستدرجك لعلاقةٍ آئمةٍ مدمّرةٍ، ويدفعها لتترك طفلها وتهدم بيتها ضاربةً عرض الحائط بكلّ شيءٍ، إلّا نزواتها وأغراضها الدنيئة.

واستقامتك التي تدّعيها تدفعك لعلاقةٍ حرّمها الله واستنكرها المجتمع والعرف، فقد انهارت هذه الاستقامة أمام أوّل تجربةٍ حقيقيّةٍ تعرّضت لها، فاشتھت زوجةً غيرك، بل سعيت لإشعال نار الكره والبغضاء في نفسها تجاه زوجها أيضاً.

اسمعها منّي يا بنيّ، هذه المرأة التي لم ترض بمكانة زوجها الماليّة والاجتماعيّة والعائليّة، ولم ترض بجماله وشبابه لن ترضى بك؛ لأنّها متى ملكت ما تريده منك تطلّعت إلى غيرك، إنّها من النوع الذي يزهد بما في يده ولو ملكت الدنيا كلّها، فتركها يا أخي، وأقنعها أن ترضى بقسمتها، ومُرّها أن تودّ زوجها، وترحم طفلها، ولا تكن سبباً في الإفساد، فإنّ الله أمر بالإصلاح فقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

ولا تنس أن الله بالمرصاد، وأنّه جلّ شأنه يغار أن تنتهك حرّماته، وأيُّ حرمةٍ أشدّ من إعانة المرء على تشتيت أسرة؟!!

أنصح لك - والنصيحة لله - أن تقاطع هذه المرأة، وتذكر «أن الديان لا يموت، وكما تدين تدان»^(١).

كلمة أخيرة لك ولغيرك من الذين ينسون عقولهم ويمشون خلف الأوهام: إن الإسلام الحنيف حرر العقول من الخرافات والخزعبلات والدجل، فأين هذا الشيخ الذي يستخدم الجنّ ويسخرهم لخدمة الناس؟! أليس الأولى له أن يسخرهم لمصلحة نفسه أولاً؟! أين ذلك الدجال الذي يسخر الجنّ لنذهب إليه فيساعدنا بجنّه بما يسعد الأمة ويجنبها تسلط الأعداء عليها.

أخي: إن اللجوء إلى الدجالين ضلال، وتسخير الجنّ معجزة نبوي، ولم يسخر الله الجنّ إلا لنبي الله سليمان عليه السلام فقط. أيها الناس: حرروا عقولكم وكونوا مسلمين.



١٤ - الذنب لا ينسى

كنّا وما زلنا أربعة أشقاء: ابنتين وابنين، أولاد رجلٍ عاملٍ ببدنه، يعمل في شركةٍ بدورٍ أسبوعيّ، يعمل أسبوعاً ويُقيم مثله بلا عملٍ، وكنت أكبر إخوتي، وفي التاسعة من عمري شعرت بأنّ أمّي تخون أبي مع رجلٍ أحبّته؛ فقد كانت في غيبة أبي تتركنا وتذهب إلى خليلها، فلا نراها ليلاً ولا نهاراً، ونبقى في البيت نستجدي من الجيران أو من غيرهم غذاءنا.

(١) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، رقم: (٢٢٠٣).



فإذا جاء أبي أفلقت راحته التي يحتاجها بمشكلاتٍ تفتعلها عمداً، وعكّرت فرحتنا بوجوده بيننا، ولم يطل الأمر بتلك الحال فقد طلقها أبي، وتركها تذهب في سبيلها، وصار أبي يهيئ لنا طعام الأسبوع الذي يغيبه عنا، ويوصي بنا الجيران الذين لم يقصّروا معنا؛ فقد كانوا يعاملوننا كالأيتام، لا سيّما أنّ أبانا كان طيباً مع معارفه كلّهم، محبوباً مع شدّة فقره.

وبعد مرور عامين من طلاق أمّي - وكنت في الحادية عشرة من عمري، وأختي الصّغرى في الخامسة من عمرها - تزوّج أبي امرأة ذات دين قارئة كاتبه، وأبي مسكينٌ فقيرٌ عاملٌ، صبر وصبرنا معه فعوّضنا الله؛ لأنّ الدُّنيا لا تخلو من الصّالحين، فضمّتنا زوجة أبي إليها وأرتنا من حنانها الشّيء الكثير، حناناً لم نكن نعرفه من أمّنا الحقيقيّة، وعرفنا معها ما نسيناه من النّظافة، وأوينا إلى فراشٍ لم نكن نعرفه إلّا حصيراً، وأكلنا معها مجتمعين مع أبينا، ضحكت لنا وأضحكتنا، فرأينا لنا أمّاً ترعانا وأباً حنوناً علينا آمن بأنّها أمنيّة ناصحةٌ راعيةٌ برّة، وأنّنا عرفنا الهدوء والسّكينة بقربها، فنشط في عمله وتقدّم عند رؤسائه.

وبعد هذا كلّه - ولا أدري هل تصدّقني أم لا - علّمتنا القراءة والكتابة في البيت، رحمةً بأبينا؛ لأنّه لا يقوى على مصاريف التّعليم، وعلّمتنا كيفيّة الصّلاة والصّيام، واحترام أبينا، ومعاملة النّاس، لا سيّما جيراننا الذين كانوا يحسنون إلينا، وكيفيّة مكافأة الحسنه بالشّكر والسّيئة بالعفو.

مرّ الزّمن سريعاً ونحن نعيش في ظلّ رحمة أمّنا الحنون الجديدة، ومضى أكثر من أربع سنوات فإذا بأمّنا القديمة تأتي إلينا، وأنا وإخوتي لا

نحبُّها ولا نريدها، وقد هممت بضربها وطردها، إنَّها عارٌ، فلم تفعل معنا أو مع أبينا المشفق الحنون خيراً، ولو بقيت معنا لأفسدتنا، ولكنَّا مشرِّدين؛ أبناء شوارع أو إصلاحيات.

أنا الآن في الرَّابِعة عشرة من عمري، أرجوك هل يجب علينا برُّ مثل هذه الأمِّ؟ أنا أخاف أن يحدث من مجيئها شرٌّ، وأن تتغيَّر معاملة أمِّنا الحنون لنا بعد أن ظهرت هذه الأمُّ القاسية الجاحدة، إنَّني أريد أن أطردها، وإخوتي يقولون لأبي: اضربها، أبعدها عنَّا، لا نريد أن نراها، إنَّها كذَّابَةٌ، إنَّها ليست أمِّنا، أمُّنا التي ولدتنا ماتت.

إنَّنا لا نريد أمًّا غير زوجة أبينا التي علَّمتنا الإحسان والخير، وأذاقتنا لذة الحنان، لكن يا عمُّ، ما أطيب قلب هذه التي تقول: لا يا أولادي، لعلَّها تابت، و«التائبُ من الذَّنْبِ كمن لا ذنْبَ له»^(١).

السُّؤال:

هل نعقُّ التي تركتنا، ونطرد التي شرَّدتنا؟ أم ندفع بالأحسن والحسنى سيئتها؟

الجواب:

الله ﷻ فرض علينا برَّ الوالدين ومقابلة الإحسان بالإحسان، وأمُّكم هذه أساءت ولم تحسن، وشتَّت ولم تجمع، وأهملت ولم ترع؛ لهذا لا يجب عليكم برُّها، إنَّ الأمومة تعني الطُّهرَ والحنان والقدرة؛ لأنَّ عاطفة الأمومة هي أسمى عاطفةٍ على ظهر هذه الأرض، ولمَّا غرس الله كلَّ المعاني الجميلة السَّامية في قلب الأمِّ جعل الجنة تحت أقدامها مكافأةً

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٢٥٠).



لمن يقابل هذه المعاني بالبرِّ، ورسولنا صلوات الله وسلامه عليه أوصى بالأمِّ ثلاثاً، ثمَّ بالأب حين سأله رجلٌ: «من أحقُّ النَّاس بحسن صحابتي؟ فقال له: أمُّك، قال: ثمَّ من؟ قال: أمُّك، قال: ثمَّ من؟ قال: أمُّك، قال: ثمَّ من؟ قال: أمُّك»^(١) تقديرًا منه لما تبذله الأمُّ من عطاءٍ في سبيل وليدها حملاً، ثمَّ رضيعاً، فطفلاً، فشاباً، تسهر لينا، وتشقى ليسعد، وتفقده صوابها إذا أصابه مكروه.

إنَّ الأمومة عطاءٌ مدى الحياة، والابن يرى في أمِّه الطَّهر، وترتبط صورتها في ذهنه بكلِّ ما هو طيِّبٌ ونبيلٌ في هذا العالم، وهذه الأمُّ داست القيم كلَّها، وتناست مهمَّاتها الجليلة التي خُلقت من أجلها، فلا هي رعت، ولا هي اتَّقت الله في زوجها وعرضها، هذه الأمُّ - وآسف أن أطلق عليها هذه التسمية النَّبيلة - باعت نفسها للشَّيطان وأسلمته قيادها، واندفعت خلفه مغمضة العينين، كأنَّها استمرأت الدَّنس، واستطابت الخبيث.

وقد عرفت أبناء قاطعوا أمَّهاتهم؛ لأنَّهنَّ تزوَّجن غير أبيهم بعد وفاته، أو بعد طلاقهنَّ، وأعلم أيضاً صعوبة أن يرى الابن رجلاً آخر يأخذ مكان أبيه حتَّى لو كان هذا بالزَّواج على كتاب الله وسنة رسوله، فما بالكم بهذه الأمِّ التي تركت بيتها لترتمي في أحضان خليلٍ، ثمَّ بعد ذلك تسبُّ زوجها وتهينه على مرأى ومسمع منكم؟!!

كلُّ هذه المعاناة التي عايشتها أنت وإخوتك أحسُّها وأدرك تماماً شعورك نحو هذه الأمِّ، ولكنَّ الله عوِّضكم خيراً بهذه المرأة التي تزوَّجها

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٥٩٧١)، ومسلم، رقم: (٢٥٤٨).

أبوكم، واسمح لي أن أسميها أمكم الثانية، فقد جمعتكم بأبيكم وأصلحت خطأ غيرها، وأعطتكم الأمان بعد طول خوفٍ، وجمعتكم بعد ضياعٍ وشتاتٍ، وأهمُّ من هذا أنها أوصتكم بأن تغفروا لهذه الأمِّ الآثمة، وقالت لكم: كافئوا سيئاتها بالإحسان، وردُّوا غلطها بالعفو والمغفرة، ولعلها تابت، و«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١).

إنك يا ولدي قاسيت وإخوتك كثيراً، قاسيتم الجوع والإهمال، وأهمُّ من ذلك أنكم قاسيتم نتيجة خيانتها، ولكنَّ عين السُّخط لا تبصر المحاسن، بل ربَّما جعلت من المحاسن مساوئ، فكيف بكم وأنتم لا تذكرون لهذه الأمِّ إحساناً؟!

رأيي يا ولدي أن تترفّعوا عن أحزانكم وغضبكم على هذه الأمِّ، وتسمعوا نصيحة أمكم الثانية؛ فإنها رأت بعين العطف ما لم تروه أنتم بعين السُّخط، واعلم أن الله يحبُّ العفو ويجازي عليه، فإن رأيتم من أمكم استقامةً وتوبةً نصوحاً وندماً على ما مضى فردُّوا سيئاتها بالعفو وابدؤوا حياةً جديدةً، ولعلها عادت لتكفّر عن أخطائها وتعوضكم عن إهمالها، وإلا فالابتعاد عن الشرِّ فضيلةٌ، والله يراكم.



١٥ - سوء الظن يهدم السعادة

سيدي! قصّتي غريبةٌ مؤلمةٌ، وما يجعلها أشدَّ إيلاًماً أنها حدثت بمحض المصادفة نتيجةً لكلماتٍ قيلت قوّضت سعادتي وسعادة أسرتي،

(١) سبق تخريجه.



فأنا يا سيدي زوج وأب، مضى على زوجي أكثر من خمسة عشر عاماً عشتها في جنّة حقيقيّة، فزوجتي وفيّة مخلصّة ترعاني في بيتي وأولادي، وتنفّذ كلّ رغباتي بلا نقاش، وتتفانى وتُفني نفسها في خدمتي، حريصةً على مالي، فهي زوجة مثاليّة، وأمّ أكثر من مثاليّة، تزوّجتها على الطّريقة التّقليديّة دون حبّ، فقد أعجبت أمّي فكلّمتني، ورأيتها فأعجبنتني، وأحبت فيها حياءها وطهرها، ومن أوّل لقاءٍ معها أحسست أنّها فتاة مهذبّة في كلامها وحركاتها، طيبة القلب حدّ السّداجة والبراءة، فتزوّجنا وكان إحساسي أنّي وفّقت في اختيار شريكة حياتي، وتعمّق إحساسي هذا يوماً بعد يوم، وبمجيء أولادي ازدادت روابط الألفة والمحبة بيننا، ومرّت أيّامنا كلّها هناءً وسعادةً، حتّى أنّني كنت أحسد نفسي على هذه النّعمة التي أعيش فيها، ومرّت السنين لم يكدر صفونا خلافٌ أو شدّة، اللهمّ إلّا إذا مرض أحد الأولاد.

جلسنا ذات يوم جلسة هادئة أنا وزوجتي نتحدّث في أمورٍ شتى، وأخذنا الحديث بعيداً، ووجدتني أعترف لها بعلاقتي النسائيّة السابقة، فقلت لها كلّ شيء بصراحة، وحكيت لها عمّن عرفتهنّ قبل زوجي، ولم ألمح في عينيها شبح تأثرٍ أو غيرة؛ فقد كانت متفهّمة لهذه الأمور، وأخيراً قلت: والآن أحمد الله الذي وفّقني للسّتر والعفّة، وأسأله أن يعفو عمّا مضى ويتوب عليّ، ثمّ سألتها: هل كان لها علاقات حبّ مع أحدٍ قبل زواجنا، وطلبت منها أن تحكي لي إن كانت لها علاقات، وألححت عليها في السّؤال، ووعدتها ألاّ أتأثر بأيّ شيء، فذاك ماضٍ قد انتهى، ويكفي ما نعيشه اليوم من سعادة، وكانت المفاجأة المذهلة، هذه المرأة الطّاهرة النّقيّة عرفت شاباً قبلي، بل أكثر من هذا، اعترفت لي بأنّه غرر بها بعد أن وعدّها بالزّواج، ثمّ هرب بعد أن نال منها ما يريد.

ويا لغفلي، المرأة التي عاشرتها هذا العمر الطويل كله معتقداً أنها أشرف النساء وأطهرهن لم تكن كذلك!

سيدي! إنني في حيرة من أمري، أريد أن أطلقها؛ لأنني لا أستطيع أن أتصور أنها خدعتني كل هذه المدة الطويلة، ثم ما يدريني أنها ارتبطت بشابٍ واحدٍ! ربّما كان في حياتها كثيرون، ثم كيف خدعتني ليلة الدخلة، وتصوّرت وتصوّر الجميع أنها بكرًا لم يمسسها بشرٌ قبلي، إنني أعترف أنني سعيدٌ معها، وقد وثقت بها، وكانت أهلاً لهذه الثقة، وأعترف بصدق أنني لن أجد امرأةً مثلها، ولو جُبْتُ الأرضَ كلها، ولكنني مطعونٌ في كرامتي، مخدوعٌ، لا أستطيع أن أنسى زلتها، وأخاف أن أطلقها فأهدم بيتي، على أنني وعدتها أن أسامحها.

السؤال:

دلّني بالله عليك ماذا أفعل؟ ولو طلقتها هل عليّ ذنبٌ في ذلك؟

الجواب:

لا أدري بم أبدأ جوابي!

قلت في رسالتك: إنك تحسد نفسك على النعمة التي تعيش فيها. وقلت: إنك مع زوجةٍ وفيّةٍ مخلصَةٍ ترعاك وترعى أولادك، وتنقذ طلباتك بلا نقاشٍ، تتفانى وتفني نفسها في خدمتك، أمينةٌ على مالك، والأمينة على مالك أمينةٌ على نفسها، والوفية لا تخون، والمخلصة مخلصَةٌ في الحبّ، هذا هو معنى قولك، وهي شهادةٌ لها منك.

أمّا المفاجأة التي أذهلتك فهي ذنبك، أنت فتحت بابها، وأنت الذي بدأت بالشّرّ، حكيت لها علاقاتك في صباك، وذكرت لها سيئات شبابك، وطلبت إليها أن تحكي ما كان من علاقاتها، فحدّثتك بما كان؛



ولم يدفعها لصدق القول والحديث إلا الوفاء الذي تحسُّ به نحوك، والإخلاص الذي تراه منك؛ ولأنَّها مخلصَةٌ، فلو كانت منافقةً أو ذات وجهين لقاتل غير ما قالت .

وقد أخبرتها بماضيك فصدقتك ولم تتأثر؛ لأنَّها عرفت فيك الأمين عليها والوفى لها، والحارس القوي الذي يحميها من الذئاب الذين عرفتهم خونةً كذابين؛ لذلك وثقت بك وأخبرتكم بما كان؛ لأنَّك قلت لها: إنه ماضٍ قد انتهى، ويكفينا أننا اليوم في سعادةٍ، فصدقتك، لكنك كذبت عليها .

هي لم تخذعك، ولم تطعن في كرامتك، لكنك من خدعتها، وسبقتها إلى الكلام الذي لا تحبُّ، إنَّها امرأةٌ مستورةٌ عفيفةٌ وفيَّةٌ مخلصَةٌ أمينةٌ كما شهدت لها بذلك؛ لذلك أقول لك: اغسل أفكارك من سوء الظنِّ، واسمع نداء ربِّك إن كنت مؤمناً؛ فإنه يقول جلَّ شأنه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، واعصِ شيطانَ الوسواس، وعُدْ إلى سعادتك قبل أن تخسرها، وبسمتك التي تعودتها، واحفظ أولادك من اليتيم؛ فإنَّك إذا طَلقت أمَّهُم؛ عاشوا يتامى بين زوجة أبٍ وزوج أمٍّ، وكلاهما لا يرحم، وتكون أنت الجاني على نفسك وعليها .

وفي الختام أقول لك: لن تجد سعادةً مثل سعادةٍ اعتدتها، ولا نعمةً مثل التي تدوّقتها .

وأخيراً أسأل الله لك ولها الهداية، والعودة إلى الصواب والوفاء .



١٦ - لا رحمة في الجريمة

سيدي! أكتب لك هذا بعد تردُّدٍ وتفكيرٍ طويلين، فقد أثقلتني جريمتي البشعة التي ارتكبتها، ولم أجد أمامي ملجأً سوى أن أكتب لك لعليّ أجد عندك رشداً يهيني راحةً في ضميري، أو نصحاً أنال به تكفيراً عن ذنبي، وإليك قصتي من البداية.

أنا شابٌّ عربيٌّ من بلدٍ شقيقٍ، موفَّقٌ في حياتي، جامعيٌّ، مثقَّفٌ، تزوّجت بعد حبٍّ دام ثلاث سنواتٍ ليس كحبِّ هذه الأيام، بل كان حبًّا طاهرًا بكلِّ ما تعنيه كلمة حبٍّ، ووجدت في الفتاة التي تزوّجتها ضالّتي، فنحن متفاهمان في كلِّ شيءٍ، نحبُّ بعضنا بعضًا، ونخلص لبعضنا، وبيتنا - والحمد لله - جنةٌ، أو كان جنةً حتّى حدث ما حدث.

لم أرزق أولادًا مدّة خمس سنواتٍ بعد الزّواج، وكنت أتوق إلى أن يرزقنا الله بطفلٍ يزيد من روابط المحبّة والوئام، ويكون البسمة الحلوة في بيتنا الصّغير، وقد طال انتظارنا لهذا الطّفل، وكانت زوجتي أشدَّ لهفةً منّي لتحقيق هذا الأمل، ذهبنا إلى أطباء عدّة، وطرقنا كلّ الأبواب حتّى أبواب المشعوذين والدّجالين، مع يقيني بعدم فائدة ما فعلت، وبأنّ ما فعلته حرامٌ، إلّا أنّ شوقي للولد كان يُنسيني في بعض الأحيان كلّ شيءٍ حتّى ثقافتني التي تسخر من الدّجل والدّجالين، لكنّ الغريق يتشبّث بالقشة.

وأخيرًا وبعد أكثر من أربع سنواتٍ زوّجت إليّ زوجتي خبر حملها السّعيد، ولن تستطيع أن تدرك مدى فرحتنا بهذا النّبأ الذي طال انتظاره،



وأخذنا نَعُدُّ الأيامَ انتظارًا لتحقيق الأمل، وأعددنا كلَّ شيءٍ؛ الملابس والسَّرير الصَّغير للمولود، واسمه إن كان ذكرًا أو أنثى، حتَّى طعامه، ومرَّت الأيامُ بطيئةً وكنا نستعجلها، فأنا أريد أن أكون أبًا لفلانٍ أو فلانة، وزوجتي تريد أن تكون أمًّا تكُنِّي بابنها أو ابنتها لا فرق، فالمهمُّ أن يأتي المولود وكفى.

وأخيرًا حانت اللَّحظة المنتظرة، وجاءت ساعة المخاض، ولا تسل عن قلقي ورعبي وخوفي على الأمِّ والوليد، ثمَّ لهفتي لسماع أجمل لحنٍ في الحياة يتمنَّاهُ أبٌّ؛ إنَّه صراخ طفله، وخرج الطَّبيب منكِّسًا رأسه، ولم أنتظر لأسأله، بل اندفعت إلى الغرفة لأجد زوجتي بخيرٍ، ويطرق سمعي صراخُ طفلي، فلماذا خرج الطَّبيب منكِّسًا رأسه حزينًا؟!

سلَّمت على زوجتي ثمَّ ذهبت لألقي نظرةً على الوليد، وكانت المفاجأة المؤلمة، رأيتُ مسخًا مشوهًا قبيح المنظر، وكانت الصَّدمة قاسيةً عليَّ وعلى زوجتي، ولم تستطع أعصابنا تحمُّلها، فاندفعنا في البكاء، وممَّا زاد المأساة وقعًا أنَّها كانت بنتًا، وماتت فرحتنا في المهد، فلو كان ولدًا ربَّما كان وقع المصيبة أخفَّ، لكنَّها كانت بنتًا، ودعني أعترف لك يا سيِّدي أنَّا صرفنا الكثير من المال والوقت، حاولنا المستحيل لعلاجها لكن دون أمل.

واتَّفقنا على التخلُّص منها، فكنا نتركها في البرد القارس بلا غطاءٍ، ونهملها في الشَّمس، ونفعل كلَّ شيءٍ من شأنه أن يقصِّر عمرها، ولكنَّها كانت تتشبَّث بالحياة بشكلٍ غريبٍ، ولم تفلح كلُّ محاولاتنا معها، وأخيرًا قرَّرت أن أقتلها رحمةً بها وشفقةً عليها من مستقبلٍ كئيبٍ مظلم، كلُّه ألمٌ ومعاناةٌ، وأفضيت إلى زوجتي بنيتي، ولكنَّ المشكلة أنَّها بدأت

تحبُّها، ورفضت بإصرارٍ قائلةً: هذه قسمتنا، وعلينا أن نرضى بها. لكنِّي لم أستطع المقاومة، فكلُّ نظرةٍ إليها كانت تمثِّل لي عذابًا هائلًا فوق احتمالي وطاقتي، فقتلتها دون علم زوجتي وأفهمتها أنَّها ماتت ميتةً طبيعيَّة، والآن أحسُّ ببشاعة جرمي، فلا أنام اللَّيل، وطيف الصَّغيرة يطاردني.

السُّؤال:

قتلتها - كما قلت - إشفاقًا وعطفًا عليها وتخليصًا لها من عذاباتِها، فهل لذنبي من مغفرةٍ؟ ثمَّ هل عليّ مصارحة زوجتي - أمِّها - بجريمتي؟ أخافُ إذا فعلت ذلك أن أهدم بيتي وأفقدُها إلى الأبد، دُلِّني بالله عليك ماذا أفعل؟

المعذَّب

الجواب:

إنَّكَ قتلت الطِّفلة - كما تقول - رحمةً بها وإشفاقًا عليها، وتخليصًا لها من العذاب، وراحةً لك ولأمِّها من آلام الرُّؤية البشعة التي كانت تؤذيكما، ولكنَّ ذلك لا يبرِّر فعلتك، فقد قتلت نفسًا بغير حقٍّ، والله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

قتلُ النَّفس جريمةٌ كبيرةٌ موبقةٌ يستحقُّ صاحبها الخلود في النَّار؛ لقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النِّساء: ٩٣]، فلا أرى لك مبررًا لقتل هذه البنت المشوَّهة، التي خلقها الله هكذا وأعطاك إيَّها في وضعها هذا، ولو



صبرت لكان لك في ذلك ثواب الصّابرين، ولكنك استعجلت الإثم فأثمت، ولا بدّ من التّوبة النّصوح واستغفار الوالدة - زوجتك -، فإن عفت عنك فأرجو أن يغفر الله لك، ولا شكّ أنّها ستعفو؛ لأنّها تعرف شعورك، وتقدر حالتك وتألمك، فصارحها واستغفرها، وتبّ إلى الله، فالله هو العليم بالقصد والمطلّع على النّيّات.



١٧- خيانة وتوبيخ ضمير

أذكر أنّ عائلتنا مكوّنة من ستّة: أبي وعمّي، وزوجتيهما: أمّي وخالتي، وأنا وابن عمّي، وكلانا وحيد أبويه، وكنا من بدو ساحل عمان، قُتل أبي وعمّي في معارك لا أدري سببها، ثمّ ماتت أمّي بمرض الجدريّ المنتشر هناك، والذي لا تمرّ سنة دون أن يكون له ضحايا من صغارٍ وكبارٍ، ثمّ بعدها بزمنٍ لا أدري كم هو ماتت خالتي بعد أن طال مرضها دون أن يعالجها طبيبٌ؛ فلا طبّ عندنا ولا طبيب.

أذكر هذا كلّه، وأذكر قول خالتي لولدها - وأنا في السّابعة من عمري - : أنتم البقيّة من عائلتكم، ثمّ توصيه بي خيراً، ثمّ ماتت خالتي بعد ذلك، وابن عمّي في السّابعة عشرة من عمره، وكان برّاً بي عطوفاً عليّ، وكنت - ولا أمدح نفسي - أهلاً لبرّه وعطفه، ثمّ ضاقت الحال بنا في سنة قحطٍ وأصابنا الجوع، وسمعنا بالكويت ويُسّر العمل فيها، وطيبة أهلها وعطفهم على الغريب، فبعنا ما لدينا من حطام، وركبنا البحر متوجّهين إليها، وكان ذلك سنة (١٩٥٧م).

أمّا ابن عمّي - وسأسمّيه فيما بعد أخي - فقد وُقِّع لعمل في إحدى الشركات، وأمّا أنا فعملت لدى عائلةٍ ميسورة الحال خادماً، وبعد أسبوعٍ من وصولنا الكويت التحقنا بالمدارس الليلية؛ حيثُ كنّا أميين.

كان أخي مسروراً بعمله، ناجحاً فيه، موفقاً في تعلّمه، وكنت راضياً عن حالتي بخدمة هذه العائلة، فكانت ربّة البيت مثل أمّي، وكان ربّها مثل أبي، بل أحسن، وواصلنا الدّراسة عشر سنواتٍ قاربنا فيها نيل الشهادة الثّانويّة، وكان أخي يزورني ظهر كلِّ جمعةٍ، فأخرج معه حتّى المساء، ثمّ أعود إلى عملي.

لم يسألني أخي مرّةً عن الأجر الذي أقبضه من عملي، على أنّي لم أكن أقبضُ شيئاً؛ لأنّ سيّدي قال: إنّ سيدّخر أجرتي لي، وكان يعطيني بعض المصروف كما يعطي أولاده، وقد قبضته فيما بعد مبلغاً كبيراً حين تركت العمل.

ومرّت الأيام سريعةً، قال لي أخي في يومٍ: إنّني سأتزوّج، فقلت: ومن التي ستقبلك زوجةً؟! قلتها وأنا أضحك، قال لي: قد أصبحت رجلاً، ولا بدّ لي من امرأةٍ تسترني وتعيني على الحياة، وقد تعرّفت رجلاً من بلدنا له بنت، فخطبتها منه ووافق على مصاهرتي، علماً أنّي خيرٌ منه أصلاً وشرفاً ومالاً، فقلت: وفّقك الله فيما أردت، ولا خيب لك رجاءً.

وتزوّج أخي في ليلة جمعةٍ من شهر تشرين الثّاني سنة (٦٧) كنت فيها في إجازةٍ من عملي، وفرحنا جميعاً بهذا الزّواج وباركنا له في صباح يومه، وفي الأسبوع الثّاني من زواجه زرته في إجازتي، وجلسنا مع الزّوجة التي كانت خجولةً لم ترفع نظرها إلّى حياءٍ وخفراً^(١)، فسررنا

(١) الخفر: شدّة الحياء. انظر: تاج العروس، للزبيديّ (١١/٢٠٤).



بهذا الخلق الكريم .

نسيت أن أقول: بعد أن استأجر أخي سكنه أذن لي أسيادي أن أبيت عنده في إجازتي؛ وإجازتي من ظهر الجمعة حتى صباح السبت، ولمّا زرتُ أخي ورأيت الحياء في زوجته عرضت عليه أن يعفيني من المبيت عنده؛ لأنّه كان يقيم في غرفةٍ واحدةٍ، فقال لي: أمّا اللّيلة فنعم، وأمّا فيما بعد فلا، لأنّي سأعدُّ لك مكاناً ترتاح فيه، ودعنا يا أخي نجتمع ما دمنا تلميذين حتى ننال الشّهادة الثّانويّة، ثمّ نبحث لك عن عملٍ يناسبك، وسيوفّقنا الله ما دمنا مخلصين لبعضنا .

وفي الأسبوع الثّاني وجدت مكاناً صالحاً للسّكن، وقال لي أخي: إنّ فلانة - يعني: زوجته - ساعدتني في إعداده فاشكرها، فنظرت إليها، فطأطأت رأسها حياءً، ومرّت أشهرٌ ثلاثةٌ لم يتغيّر في حياتنا شيءٌ، وكان الحياءُ والخفّرُ صفةً ظاهرةً في زوجة أخي لا سيّما عند اجتماعنا .

كان يوم الجمعة من شهر شباط سنة (١٩٧٨م) يوماً أسود، ستظلُّ أحداثه ماثلةً أمامي، ولن أنساها حتى أموت، وكلّما ذكرت ذلك اليوم ارتعد جسمي والتهب دمي حتى أشعر به يحرق عروقي .

وقد فكّرت أوّلاً أن أجمع بك لأحدّك عن جريمتي؛ لكنني خشيت أن تصفني على وجهي أو تطردني، فقرّرت أن أكتب إليك؛ لتعلم أنّني سأعمل بما تقول، فجريمتي لا نقاش فيها ولا جدل .

في ذلك اليوم جيئت في إجازتي إلى بيتنا فاستقبلتني زوجة أخي استقبالاً حارّاً خلافاً لعادتها، فسألتها: أين أخي؟ قالت: إنّهُ اليوم مشغولٌ بعملٍ إضافيٍّ، وخرج بعد أذان الفجر، ولن يأتي حتى المغرب، قلت: إذن سأذهب وأعود بعد المغرب، قالت: لا تخرج حتى نشرب



الشَّاي الَّذِي أَعَدَدْتَهُ لَكَ، فَجَلَسْتُ لِأَشْرَبَهُ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُن ذَاتَ حَيَاءٍ كَمَا عَهَدْتَهَا، تَتَكَلَّمُ مَعِي كَأَنِّي زَوْجُهَا، وَتَدْنُو مِنِّي حَتَّى أَكَادُ أَشْعُرُ بِحَرِّ أَنْفَاسِهَا تُلْهَبُ وَجْهِي، كَانَتْ كَأَنَّهَا تَلْهَثُ، وَبَعْدَ أَنْ شَرِبْتُ الشَّاي قُلْتُ: سَأَخْرُجُ حَتَّى يَعُودَ أَخِي. فَضَحِكْتَ وَقَالَتْ: إِلَى أَيْنَ؟! إِنَّ الْبَابَ مَغْلُوقٌ، وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ غَيْرِنَا، وَهَذِهِ أَمْنِيَّةٌ كُنْتُ أَتَمَنَّاهَا وَأَنَا عَرُوسٌ أَخِيكَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمْرُكَ فَسَأَقُولُ لِأَخِيكَ: إِنَّكَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي، وَسَيَقْتُلُكَ بِلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّكُمْ بَدَوْا، وَلَنْ يَصُدِّقَكَ مَهْمَا قُلْتَ وَأَنْكَرْتَ، فَافْعَلْ مَا أَمْرُكَ بِهِ وَاسْتِرْ نَفْسَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ كَيْدَنَا - نَحْنُ النِّسَاءُ - عَظِيمٌ، ثُمَّ هَجَمْتَ عَلَيَّ فَسَقَطْتُ، وَأَعْتَرَفْتُ لَكَ أَنَّ جَسَدِي خَانَنِي فِي الْبَدَايَةِ، لَكِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةُ اللَّعُوبُ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَحِيلَنِي رَجُلًا كَامِلًا، لَكِنَّهُ رَجُلٌ بِلَا إِرَادَةٍ، وَاسْتَمْرَأَتْ الْخَطِيئَةَ، وَكُنْتُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِذَا رَجَعْتُ إِلَى مَكَانِي أَشْعُرُ بِتَوْبِيخِ ضَمِيرِي، فَإِذَا جَاءَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ اشْتَقْتُ لِرُؤْيَا أَخِي، فَإِنْ كَانَ مَوْجُودًا حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَانَتْ الْخَطِيئَةُ، وَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَتَخَلَّصُ مِنْ هَذَا الشَّرِّ حَتَّى حَدَثَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحِسَابِ، فَقَدْ أَخْبَرَنِي أَحَدُ مَعَارِفِنَا أَنَّ زَوْجَةَ أَخِي لِعُوبٌ، تَبِيعَ جَسَدُهَا لِمَنْ يَدْفَعُ الثَّمَنَ، فَهِيَ مَوْمَسٌ^(١) مُحْتَرَفَةٌ، وَأَخْبَرْتُ أَخِي بِمَا سَمِعْتُ وَرَاقِبْنَاهَا، وَصَدَقَ الظَّنُّ، وَأَمْسَكَهَا أَخِي مُتَلَبِّسَةً بِالْجَرَمِ الْمَشْهُودِ، فَطَلَّقَهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

السُّؤَالُ:

سَيِّدِي! فَكَّرْتُ كَثِيرًا أَنْ أَبُوحَ لِأَخِي بِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَحْكِي لَهُ مَا حَدَثَ،

(١) المومس: الفاجرة مجاهرة؛ أي: الزانية التي تلين لمريدها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٠/١٧).



وأقبل حكمه عليّ مهما كان، لكنّ المشكلة أنّني قد أفتح جرحًا لا يندمل، وقد أخسرُ أخي؛ لهذا قرّرت الكتابة إليك منتظرًا منك الجواب.

ولأختم حكايتنا: بعد أن ارتحنا من العفن والدّنس أقنعت أخي أن يتزوَّج، وقال: إنني أفكر في ذلك، لكنني أبحث عن بيتٍ يناسبنا، وأظنّني عثرت على ما أريد.

وفي شباط سنة (١٩٧٠م) تزوّجنا أختين ضممناهما إلينا مع أمهما الكهولة، ومنذ ذلك اليوم ونحن في سعادةٍ آمنين على أنفسنا وأموالنا وعرضنا، أخلصنا لبعضنا فكافأنا الله على إخلاصنا بزوجتين صالحتين ووهبنا منهما الدّرّيّة، فنعمننا بالأبوة كما نعمت زوجتانا بالأومّة.

الجواب:

إن صدقت فأنت مكره، ولا حيلة لك فيما وقعت فيه أوّل يوم، وكان باستطاعتك أن تبتعد من الدّار التي فيها المنكر، ولكنك استمرأت المنكر وأخذت تترقّب أوقاته لتأتيه، كأنك كنت تتمنّى ألاّ تجد أخاك في بيته حتّى تخلو لك الدّار.

على أيّة حالٍ قد حصل ما حصل، وسترك الله، فاغتنم هذا السّتر، لا سيّما أنّ الله طهّر المحيط الذي تعيش فيه أنت وأفراد عائلتك، واحمد الله واستر نفسك، ولا تحدّث أحدًا بما حصل، فإنّ كلّ حديثٍ جاوز الاثنين شاع، وقد يصل الحديث إلى أخيك فيجرح شعوره، وجرح الشّعور لا برأ منه، فمن ستر نفسه ستره الله.





١٨ - المحبُّ المَسِيء

سيِّدي! لست أدري كيف أبدأ قصّتي أو مشكلتي، لكنني أعدك أنني سأكون صادقًا كلّ الصّدق في سرد أحداثها، لعلك بعد أن تقرأها تجد لي بعض العذر، ثمّ تجد لي الحلّ.

أنا من ساكني الرياض؛ عاصمة المملكة العربيّة السّعوديّة، كان لي صديق طفولةٍ في مثل عمري يجاورني في السّكن، نشأنا سوياً، وتعارفنا صغاراً، ولعبنا في دروب محلّتنا، وكان هناك بيتٌ ثالثٌ بجوارنا فيه طفلةٌ في مثل عمرنا أو أقلّ.

قرأتُ مع صديقي عند المطوّع، وكنا متلازمين دائماً كأننا شقيقان، ومرّت الأيام وكبرنا، وأحببت جارة الطّفولة حبّاً يفوق كلّ وصفٍ، فقد كانت جميلةً متحفّظةً لطيفةً، لكنني لم أحاول معرفة شعورها تجاهي، ومنعتني الطّروف الاجتماعيّة من الاعتراف لها بحبّي، وكنت أفكّر فيها ليل نهار، وأتخيّلها زوجةً لي تملأ عليّ بيتي، وتكون أمّاً لأولادي، وصمّمت على تحقيق هذا الحلم ما إن سنحت الفرصة بذلك.

لكنّ الرّياح أتت بما لا تشتهي السّفن - كما يقولون - ففي يومٍ حضر صديق الطّفولة وهو يكاد يطير فرحاً، وأخبرني أنّه خطبها، ولم يبق سوى تحديد موعد العقد، ثمّ الزّفاف.

وكم كانت الصّدمة قاسيةً عليّ! وكم بكيت وسهرت اللّيل أقلّب وجوه الرّأي! لكن ماذا أستطيع أن أفعل؟! قد تمّت الخطوبة، ووافق أهلها، ولم يبق سوى أيّام، وتُزفُّ زوجةً لصديقي، لكنّه لم يشعر بما حلّ بي من



نكدر وكدر؛ لأنّه صديقي منذ الطفولة، وعزيز عليّ أن يشعر بما يكدر صفوه، فليهنأ بعروسه .

وتزوّجا، ورضيت بحكم القدر، كنت أتصوّر أنّ الزّمن كفيلٌ بأنّ يُسبني حبّ هذه الفتاة التي ملأت عليّ أحلامي، وشغلت منّي أفكارى، ولكن كيف؟! وزميل طفولة الأمس قد أصبح شريكي في العمل؟! وفي كلّ يوم يأتي حاملاً إليّ أخبارهما، ثمّ إنّ رؤيتي له وحدها كفيلةٌ بأنّ تشعل النّار في قلبي، فقد أصبحت أشعر أنّه غريمي، لا سيّما عندما يجلس إليّ ويحدّثني عن أيّامهما السّعيدة التي لا يعكّر صفوها شيءٌ، وأنّ كلّ يومٍ يأتي خيراً من الذي مضى .

وفي يومٍ قال لي صديقي: ألا تنزوّج؟! أما أنّ لك أن تستقرّ وتكوّن أسرة؟! فقد أصبحت رجلاً، والزّواج حصنُ الإيمان، فوجدت نفسي أقول له: كيف أتزوّج وأنا خنثى؟! ألا تعرف أنّني خنثى ولا أصلح للزّواج؟!!

وكانت دهشة صديقي كبيرةً، ودهشتي أكبر منها، ولست أدري كيف ألصقت بنفسى هذه الصّفة القبيحة التي يخجل منها أيُّ رجلٍ حتّى لو كانت فيه، ولكنني قلت هذا ليطمئنّ لي، لعلّ فرصةً تُتاح فيسمح لي بدخول بيته، فأرى وجه حبيبي التي سلبت عقلي وشغلت فكري، وحدث ما كنت أتمنّاه بعد أن آمن بكلمتي تلك .

واتّسع مدار عملنا التجاريّ، ووجب علينا أن نتذاكر ونتناقش، والمحلّ لا يتحمّل مناقشةً ولا مذاكرةً، فنقلنا عملنا إلى البيت لنناقشه هناك بعد أن نغلق محلّنا، وبدأت جلساتنا تطول هناك، وقد احتجبت زوجة أخي عني في البداية، ثمّ بدأت تحضر أحاديثنا وتُحضر لنا الشّاي

والقهوة، فقد اطمأنَّ الرَّجُلُ وأخبر زوجته، فاطمأنتَ أيضًا.

وكنت سعيدًا برؤية وجهها، ولم أكن أطمع بأكثر من رؤية وجهها وسماع صوتها، وفي يوم طلبنا تاجرًا كبيرًا من الرياض ليخبرنا أنه يحتاج إلى مساعدتنا في سفرةٍ إلى الهند فيها مصلحةٌ لنا، وفي إنهاء بعض الأعمال له هناك، وأراد منَّا السَّفَر، لكنني قلت: لا نستطيع إغلاق محلنا، وليسافر أخي فلان. أعني صديقي المتزوج.

وشجعت صديقي على السَّفَر وحده متعللاً بأنه أكثر مني فهمًا، ويعرف بعضًا من الكلمات الإنجليزية، وألححتُ عليه بذلك، فوافق ووافق التَّاجر، وذهبت معه إلى المطار أودَّعه، وكانت آخر كلماته لي: الله الله في بيتي، البيت بمن فيه أمانةٌ في رقبتك حتى أعود، فسافر بعد أن طمأنته بوضع كلمات.

وخلا لي الجو، وأستغفر الله أن يكون ما قصدت هو خيانتته في عرضه، وإنما كانت فرحتي لا تُوصف؛ لأنني أستطيع الآن أن أجلس إليها وحدي، وأكلّمها وأراها، فكنت أتردد على البيت مرتين في الأسبوع؛ لأرعى مصالحها وأقضي حوائجها، وكنا نتبادل الحديث، أحاديث عادية لا تخرج عن المألوف، ولكن حبها استيقظ في قلبي، واستيقظت أحلامي، وسنحت الفرصة لأصل إلى بغيتي.

وفكّرت طويلًا في المنفذ الذي سيفسد حياتها مع زوجها فلم أجد غير عدم إنجابهما الأطفال، وأخذت أضرب لها على هذا الوتر، فقلت لها: ما ذنبك أن تعيشي محرومةً من الأطفال؟ وكيف تعيشين محرومةً من أسمى عاطفة في الوجود؛ عاطفة الأمومة؟ ما فائدة المرأة إذا لم تنجب أطفالًا يملؤون عليها حياتها؟ أظنُّ أن زوجك عقيم لا يستطيع الإنجاب،



فلماذا تربطين حياتك به؟ وما الضَّمان في أنه بعد مدَّةٍ سيزهد فيك ويلقي بك في الشَّارع إن لم تنجبي منه أطفالاً؟

وقد وجدت كلماتي فيها الأذن الصَّاغية، فحزمت أمرها أن تُفاح زوجها عندما يعود، ورأيت في عينها نظرةً غير نظرة الإخلاص، وتصميماً على الطَّلاق من زوجها، وبعد وصول الرَّجل إلى وطنه وبيته بأيَّام بدأت نارُ الخلاف تُوقد بين الزَّوجين، فاشتعلت وتحوَّل البيت من جنَّةٍ إلى جحيم، وكان صديقي يشكو إليَّ تصرُّفات زوجته، فلا أزيد على أن أقول له: امرأةٌ بامرأةٍ، طلقها، والنِّساء كثيراتٌ، وكلُّ امرأةٍ تعرفك تتمنَّاك لها زوجاً، ولم أنصح له بعرض نفسه على الطَّبيب ليقرِّر من منهم العقيم، وكيف أنصح له بذلك وأنا أريده أن يطلقها؟!

وأخيراً طلقها.

السُّؤال:

الآن حصلت بغيتي، وأريد أن أتزوَّجها، ولكن كيف؟! إنَّها تظنُّ أنني خشي، والنَّاس يعرفون هذا أيضاً؛ لأنَّ صديقي أعلن علَّتي، فكيف أطلبها للزَّواج؟! وكيف ترضى هي أن تتزوَّج خشي وهي تريد الذُّرية؟

ثمَّ ماذا سيكون موقفي أمام صديقي وشريكي؟ ماذا سيقول؟ سيعتقد بوجود علاقةٍ آثمةٍ بيننا، ومعه كلُّ الحقِّ إذا شكَّ في هذا، ثمَّ إنَّه سيظنُّ أنني سبب هدم بيته.

وما موقفي أمام خالقي، وقد فرَّقت بين زوجين، وختت صديقي؟ دلَّني بالله عليك، ماذا أفعل؟

الجواب:

لا تلمني إذا وصفتك بالخائن، فقد خنت الأمانة خنت من قال لك: الله الله في البيت ومن فيه، فبدلت وغيّرت وخبّبت^(١) امرأة على زوجها، والرّسول ﷺ قال: «من خبّب زوجة امرئٍ أو مملوكه فليس منّا»^(٢).

على كلِّ حالٍ وقعت الواقعة، وكان عليك أن تفكّر قبل وقوعها، هل إذا طُلّقت محبوبتك سترضى بك زوجًا وهي التي تريد أن تكون أمًّا؟! هل ترضاك زوجًا لها وأنت خنثى لا تصلح زوجًا ولا أبًا؟! وكيف تصدّقك لو قلت لها: إنني رجل معافى من كلِّ داءٍ؟! أظنّك خسرت وأخسرت، فقد هدمت بيتًا أمر الله بإصلاحه، وفرّقت بين زوجين أمرك الله أن توفّق بينهما لا أن تفسد، وبدل أن تصلح آخرتك فقد أفسدتها دون أن تنال مصلحةً تنفعك في دنياك وآخرتك.

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعلم^(٣) ولا بدّ أن ينكشف الأمر يومًا لصديقك، ويعلم أنّك سببُ الإفساد والتّفريق بينه وبين زوجته، وأنّك خائنٌ لست بأمينٍ.

ولا أدري ما أقول لك؟ وبماذا أشير عليك؟ ولكن صدّقني إذا قلت: إنّ الشيطان دعاك فاستجبت له، وأغضبت الله بمعصيته، فإذا أردت أن يغفر الله لك - ولعلّ في غفران الله لك تطهيرٌ لسمعتك - أخبر صاحبك بالحقيقة وبكلّ ما فعلت معه ومع زوجته، فهذا أفضل من أن تترك بلدك

(١) خبّب امرأة: خدعها وأفسدها. انظر: النّهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/٢).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٥١٧٠).

(٣) انظر: جمهرة أشعار العرب، للقرشيّ (١/١٧٨).



وشريكك وعملك، وبه أيضاً تحفظ مستقبلك؛ لأنك لست تعلم انتقام الله وكيده، فإذا غفر لك صاحبك غفر الله لك، وعفا عنك.

وإن كان هذا صعباً عليك فاطلب يد محبوبتك، فإن وافقت فلا بدّ من سفرٍ بعيدٍ من مدينتك إلى مدينةٍ تسكنها أنت وصاحبتك حتى لا ترى صديقك ولا يراك، وإلا فأبشر - والبشرى قد تكون سوءاً - بسوء السُّمعة بين معارفك كلّهم، وبنظرة الحقد من صديق الطُّفولة، وقد تستطيع السَّفر إلى بلدٍ بعيدٍ كبلاد الغرب مثلاً بحجّة علاج دائك المزعوم وتُشيع هذا بين النَّاس.

هذا ما أستطيع أن أقوله لك، وليس عندي حلٌّ لقضيّتك، وأنت بنفسك وبسوء فعلتك أدري، وبصاحبك أعرف.



١٩ - أمومة شاذة

سيّدي! قد لا تصدّق قصّتي، ولكنّي عاهدت الله أنّي سأكون معك صادقةً كلّ الصّدق فيما أكتبه لك عنها، قد لا تصدّق أنّ الأمومة بكلّ ما أودع الله فيها من حنانٍ وإيثارٍ ومعانٍ ساميةٍ تتحوّل إلى قسوةٍ وأنانيةٍ مطلقةٍ بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى سيّئ.

تعلّمنا في المدارس، وقرأنا في الكتب الدّينيّة تفسيراً لآياتٍ مُنزّلةٍ، وأحاديثٍ مرويةٍ عن الصّادق المصدوق الذي آمنّا أنّه لا ينطق عن الهوى، وعلمّتنا هذه الأحاديث والكتب أنّ الأمومة تعني التّضحية والعطاء والحنان وإنكار الذات، والتّفاني في سبيل الولد، وقرأنا فيما روي: أنّ



جاهمة جاء النَّبِيُّ ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئتُ أستشيرُكَ، فقال: «هل لك من أمٍّ؟!» قال: نعم. قال: «فالمها؛ فإنَّ الجَنَّةَ عندَ رجليها»^(١)، وقد جعل الله ذلك جزاءً لتلك المعاني التي تعطيها الأمُّ لولدها.

لا أريد أن أبسط الحديث في مشاعري، فأطيل عليك في مقدمتي؛ لهذا أبدأ قصتي مختصرةً من أولها.

كنت في الرَّابِعة من عمري حين مات أبي وتركنا ثلاثة؛ بنتين وابناً، أنا أكبرهم، وكان الواجب علي والدتنا أن تعيش لنا فتحضننا وتسهر من أجلنا، وتربينا، وترعانا في الليل، وتحميننا في النهار كما تفعل الأمّهات اللواتي يتركهن أزواجهنَّ أمّهاتٍ أرامل أو مطلقاتٍ، ولكن بعد انتهاء عدّة وفاة والدي تزوّجت أمنا ابن عمّها بعد حبٍّ كبيرٍ ادّعت أنه كان بينهما - كما تقول - وأنجبت أمي من هذا الزّوج أربعةً، وكان زوجها هذا يعاملنا معاملة الحيوانات، لا والله، فراعى الحيوانات يرحمها ويعطف عليها، ولكنّه لم يكن كذلك، فكان يستعمل طرائق وحشيّة في إيذائنا؛ ضرباً وإهانةً وإزعاجاً وتجويعاً، وكان يقصد بذلك كلّه إخراجنا من البيت الذي هو ميراثنا من أبينا، ولمّا لم تنجح معاملته الوحشيّة معنا حاول الاعتداء على عرضي غير مرّة.

ولعلّك تقول: أين أمك؟ أمنا في البيت، ولكنّ موقفها كان سلبياً، فلم تحاول الدّفاع عني ولا عن إخوتي، ولم تحاول أن توقف زوجها عند حدّه، كان موقفها غريباً، ترانا نذُلُّ ونُحتقر، ومع ذلك كلّه تقف متفرّجةً

(١) رواه النَّسَائِيُّ، رقم: (٤٣١٢).



أو كمن لا يهتم بما يحدث، كأننا غرباء.

ويشاء الله - ولا راداً لمشيئته - أن ينتقم من أمي لينقلب الزوج، فيصبح مبغضاً لها، وبدأت الإهانة والسب والشتم، وأخذ يطعنني في شرفها، ويصفها بالخائنة حتى وصلت بها الحال إلى طلب الطلاق، فطلقها، وكنا يوم تزوجته ثلاثة، أمّا الآن فنحن سبعة، كان زوجها يطمح بالاستيلاء على بيت أبي، فلمّا لم ينجح لم يبالِ بها وبأولادهما في أيّ وادٍ هلكوا.

والغريب أنّ أمي لم تتعظ بما حدث لها ولم تستيقظ، وقد كنت أظنّ أنّها ستعقل وسيكون لها من هذا الدرس القاسي ذكرى، وتعيش لنا نحن السبعة، ولكنها لم تكن كما ظننا، فما كادت تنتهي عدّة الطلاق حتى أخذت تنتظر خاطباً جديداً، وتقدّم لها رجلٌ، فرفض جدّي زواجها منه بعد إلحاحنا عليه وبعد أن عرفنا أنّ هذا الرجل متزوج وله تسعة من الأولاد خاصّة، ولكنّ أمي أصرت على الزواج به، ولم يفد رجاؤنا ولا بكاؤنا ولا رفض أبيها ولا قسوته عليها، فكلّنا حاولنا معها، وكأنّنا كما يقول المثل: نضرب في حديدٍ باردٍ^(١).

بكيّت راجيةً إيّاها تأجيل هذا الزواج ولو سنةً واحدةً؛ حتى أنال الثانوية العامّة لعلّي أجد عملاً أنفق منه على إخوتي، ولكنها رفضت مدّعيةً أنّها تريد أن تتخلّص من كلام النّاس، ولمّا سألتها: أيّ كلام النّاس تعنين؟ وأيُّ ناس هم الذين يتكلّمون؟ وما هذا الكلام الذي يقولونه؟! سكتت ولم تجب، وتزوّجت وخرجت مع زوجها الجديد،

(١) انظر: الأمثال، لابن سلام (١/٢٤٦).

وتركت البيت لي أنا بنت السادسة عشرة، ومعِي سِتَّةُ إِخْوَةٍ: أخوَي الشَّقِيْقَانِ، وإِخْوَتِي الأَرْبَعَةَ لِأُمِّي.

يَا سَيِّدِي! أَنَا حَائِرَةٌ لَا أَتَبَيَّنُ طَرِيقِي، الْإِنْسَانِيَّةُ تَطَالِبُنِي بِرِعَايَةِ إِخْوَتِي الصَّغَارِ، وَتَفْرَضُ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ لَهُمْ أُمَّ وَأَبًا، وَمُسْتَقْبَلِي يَفْرَضُ عَلَيَّ أَنْ أَكْمَلَ دِرَاسَتِي حَتَّى أَسْتَطِيعَ شَقَّ طَرِيقِي فِي الْحَيَاةِ.

السُّؤَالُ:

البيت يحتاج إلى خدمةٍ، والإخوة يحتاجون إلى رعايةٍ، والدراسة تحتاج إلى فراغٍ، قل لي برِّبك؛ ماذا أفعل؟ وما رأي الدين؟ وكيف نعامل هذه الأم التي تصرفت معنا هذا التصرف السيئ ولم تحسن إلينا منذ كنا صغارًا؟ وهل يفرض علينا ديننا برّها؟ أسألك بالله ما رأيك؟

الجواب:

صدقتك بكل ما كتبته، وأدعو الله أن يردك ويعينك على رعاية إخوتك.

إنَّ مَا كَتَبْتَهُ عَنِ الْأُمُومَةِ هُوَ الْحَقُّ، فَالْأُمُومَةُ - كَمَا تَقُولِينَ - عَطَاءٌ وَحَنَانٌ وَرَقَّةٌ، وَالطُّفْلُ يَتَلَذَّذُ بِحَنَانِ أُمِّهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَلَذَّذُ بِحَنَانِ غَيْرِهَا أَيًّا كَانَ؛ سِوَاءِ كَانَ أَبًا أَمْ مَرِيئَةً أَمْ جَدَّةً.

وَالطُّفْلُ يَشْعُرُ بِحَنَانِ الْأُمِّ، وَيَقُولُ عِلْمَاءُ النَّفْسِ: إِنَّ ابْنَ السَّاعَةِ يَتَغَدَّى بِرِيحِ أُمِّهِ كَمَا يَتَغَدَّى بِلَبْنِهَا، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَقْسُوَ عَلَى أُمَّكَ؛ لِأَنِّي لَا أَعْرِفُ ظُرُوفَهَا.

وهناك أسئلةٌ تمرُّ بذهني، أليس من المحتمل أن أمك خافت على نفسها الفتنة فأثرت أن تتزوج حتى لا تكون مطمئنًا لكل طامع؟!!



أليس من المحتمل أنّ النَّاس تناولت الحديث عن أمك بالقليل
والقال، فأرادت أن تقطع ألسنتهم حتّى لا يخوضوا في غيبتها؟!
أنا لا أحاول أن أدافع عنها أو أقسو عليها، ولا أحاول أن أبرّر
تصرّفاتها أو أظلمها فيها، ولكنّ خبرتي في الحياة وعملي الطّويل في
المحاكم جعلني أدرك أشياء قد يقصر عقلك عن إدراكها، فأمّك لم تفعل
شيئاً يؤاخذها عليه الدّين إلّا إهمالها لكم بعد الزّواج، وستحاسب على
تقصيرها في هذا الأمر، ولعلّها تعود إليكم يوماً ما وقد وبّخها ضميرها
على ما فعلت.

أمّا أنت فحاولي التّفوق بين دراستك ورعاية إخوتك، فهناك كثيرٌ من
الأمّهات الزّوجات استطعن التّفوق بين مهمّة البيت وخدمة الزّوج ورعاية
الأولاد وبين الدّراسة أو العمل، وهناك كثيرٌ من البنات يفعلن فعلك،
وقد وفّقن في خدمة آبائهنّ ورعاية إخوتهنّ ودراستهنّ.

أنا أعلم يقيناً أنّ مهمّتك ليست سهلةً، وأنك ما زلت في ربيع عمرك،
ولكنّي أقول لك: حاولي، وأعتقد أنّك ستنجحين، وكوني كما قال
الشّاعر:

لأستسهلنّ الصّعبَ أو أدرك المُنَى فما انقادتِ الآمالُ إلّا لصابرٍ^(١)

واستعيني بالله، فمن يستعن بالله يُعنه، ومن كان مع الله كان الله معه.



(١) انظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، لليوسي (٨٢/٣).

٢٠- خَطِيئَةٌ وُلِّدَتْ خَطَايَا

سيّدي! قصّتي غريبةٌ ومؤلمةٌ، ويزيد في وقعها وإيلامها أنّ أبطالها أقرب النَّاسِ إليّ، وقد قرأت لك كثيراً ممّا تكتبه في مجلّة اليقظة بعنوان: «من غريب ما سألوني»، لكنني أظنُّ أنّ قصّتي هذه أكثر غرابةً من كلّ القصص التي كتبت عنها أو سمعتها؛ لأنّها قصّة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، ولكنّها وربّ العزّة حقيقةٌ.

سيّدي! هل جرّبت أن تتلقّى الطّعنة في الظّلام من قومٍ كان عليهم حمايتك من كلّ شرٍّ، ودفع كلّ أذى عنك؟!

هل عانى أحدٌ ممّن يعرفهم المرارة والأسى وخيبة الأمل وسوء المنقلب دون أن يستطيع النّطق ولو بكلمة، أو حتّى أن يُطلق صيحة ألمٍ تخفّف عنه وقع ذلك الألم؟!

هل يستطيع أحدٌ أن يعيش في سكنٍ جوّه موبوءٌ مريبٌ، والأسرة فيه وضعها شائنٌ، لا يرضى عنها دينٌ ولا خلقٌ ولا عرفٌ، ولا يقبل منه سوى الرّضا والطّاعة، وإلاّ فالمصيبة واقعةٌ عليه من أقرب النَّاسِ إليه؟!

أنا يا سيّدي أعيش هذا كلّّه بل أكثر؛ أعيشُ في جوٍّ ملوّثٍ بالقدر والخيانة وبكلّ ما يحويه قاموس لغتنا من ألفاظ الحزن والأسى، أو ما يحويه الاصطلاح الطّبّيّ من أسماء السّموم البطيئة التي تلوّث الحياة، ومع ذلك لا أستطيع أن أتكلّم أو أحكي عذاباتي لأحدٍ إلّا لك.

أسفةٌ لهذه المقدّمة الطّويلة وإن كانت مأساتي تحتاج إلى مجلّدٍ كامل،



إلا أنني سأحاول الاختصار قدر الإمكان، أنا سيّدةٌ تزوّجت منذ أربعة عشر عامًا، عرّفتني أمّي زوجي اللّذي كان يزورنا أحيانًا، ولا أدري لم كان يفعل! كان لزوجي بنتٌ قيل لي: إنّها ثمرة زواجه من ابنة عمّه اللّذي طلقها بعد أن خلفتها منه.

تزوّجنا، وكنت في الثالثة عشرة من عمري، وبعد زواجنا بمدّة قصيرةٍ لحظتُ الخلاعة في تصرّفات أمّي مع زوجي؛ تصرّفاتٍ أقلُّ ما يقال عنها: إنّها بعيدةٌ من الحياء، فكانت تُساقيه الخمره حتّى إذا سكرًا أخذًا يمزحان بلا خجلٍ ولا حشمةٍ.

كنت يومئذٍ صغيرةً، وأرى ما يحدث، وأخذ الأمر ببساطةٍ، ونفيت من ذهني كلّ شكٍّ قد يُتطرّق إليه، وقلت في نفسي: أمّي كأمّه وهو لها كالولد، ومرّت الأيام سريعةً، وخلفتُ من زوجي ستّة أطفالٍ؛ بنين وبنات، وكان الشكُّ يكبر في نفسي وينمو، وأمّي قد شاخت لكنّها ما زالت تتصرّف مع زوجي كتصرّفها أيّام زواجي منه، ومع مرور الأيام وتفهمي للحياة ظهرت الحقيقة، وكانت حقيقةً مرّةً، أشدّ مرارةً من العلقم.

أكتب إليك رسالتي هذه وقلمي يكاد يجفُّ، وأشعرُ بحشرجةٍ في حلقي، هل أكتب؟! هل أنطق؟! ماذا أقول؟!

أيقنت يا سيّدي أنّ تلك البنت هي أختي من زوجي، إنّها بنت أمّي، فقد كانت هناك علاقةٌ آثمةٌ بين أمّي وزوجي، كانت ثمرتها هذه البنت، وعلمت أنّ أمّي طلبت إليه الزّواج، لكنّه رفض لفارق السنّ بينهما، فاقترحت عليه أن يتزوّجني؛ لكيلا تضيع الطّفلة، فتبقى بجانبها ويبقى هو معها؛ لأنّها تحبّه حتّى بعد أن شاخت، وما زالت، وإن امتنعت العلاقة الآثمة بينهما منذ تزوّجتُ، لكنّ المزاح الخليع ما زال.



دعني أعترف لك يا سيدي بأنّ وقع الصّدمة لم يكن عليّ شديداً، فقد تلقّيت الخبر ببرود، وكنت مستعدّة نفسيّاً لتلقّيه؛ لأنّني أرى من تصرّفات أمّي أمامي أنّ شيئاً مستوراً كان قد حدث أو يحدث، وأشعر أنّ زوجي يحبّني كما أحبّه، ويربطني به طول العشرة وأولادنا السّنة، فهل طلبي الطّلاق يكون إساءةً إلى مستقبل أولادي الذين سيكون مصيرهم التّشرد، والعياذ بالله؟

مشكلتي متعدّدة، إنّها مشكلاتٌ.

الأولى:

سمعت من بعض المدرّسات أنّ من عاشرت إنساناً بالحرام حرّمت عليه ابنتها، فهل معيشتي مع زوجي والذّ أولادي في حكم الحرام؟

الثّانية:

إنّني أصبحت أكره أمّي وأتخيّل أحياناً وأنا في وحدتي علاقتها بزوجي، كأنّني أرى خيالها تمازح زوجي وتغازله.

ديننا يأمرنا بالإحسان إلى المخلوقات كلّها لا سيّما الوالدين، ويفرض علينا البرّ بهما، ولكن هل يجب عليّ لمثل هذه الأمّ برّ وإحسان؟

إنّني أكره أن أسمع صوتها فضلاً عن مرآها.

الثّالثة:

لا أحبُّ سماع الآيات القرآنيّة التي تحثُّ على برّ الوالدين، وأتألّم عند قراءتي لها؛ لأنّني لا أستطيع أن أسامح هذه الأمّ التي تمرّغت^(١)

(١) تمرّغ الإنسان: تقلّب وتمعك. انظر: تاج العروس، للزّيديّ (٢٢/٥٦٥).



بالوحدل^(١) الوسخ، ومرّغت سمعتي ولطّختها بأوساخها.

السؤال:

ما حكم علاقتي بزوجي؟ وهل سيعاقبني الله على قطيعتي لأمي؟ إنني لم أقل لها شيئاً يكدرها، لكنني قاطعتها، لا تنصح لي بالغفران! فلا أستطيع أن أغفر لمن أساءت إليّ في بدايتي ونهايتي.
أرجوك سرعة الردّ على صفحات مجلة اليقظة، وشكراً.

الجواب:

لك الله، قرأت رسالتك وتألمت لألمك، وصدق من قال: «الناس معادن»^(٢)، فبعضها خبيثٌ، وبعضها ثمينٌ، وقد يخرج الخبيث من الطيب، وقد يخرج الطيب من الخبيث، وصدق الله العظيم بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١].
أجيبك عن مشكلاتك الثلاث:

صدق من قال لك: إن من عاشر امرأةً بالحرام حُرِّمت عليه أصولها وفروعها كحرمة الزّواج بها حرمةً أبديةً، وقد شدّد الفقهاء في ذلك تشديداً، وقال الأحناف: إن من نظر إلى امرأةٍ نظرة شهوةٍ حُرِّمت عليه أصولها وفروعها، إلا في المذهب الشافعيّ؛ فإنّه يعتمد الحديث الشريف: «لا يُحرّم الحرام الحلال»، رواه ابن ماجه عن عبد الله بن

(١) الوحدل: الطّين الرّقيق الذي ترتطم فيه الدّواب. انظر: تاج العروس، للزّبيدي (٧١/٣١).

(٢) رواه البخاريّ، رقم: (٣٤٩٣)، ومسلم، رقم: (٢٥٢٦).

عمر، ورواه البيهقي عن عائشة أم المؤمنين (١).

وقد قررنا بقاء هذه الزيجة وعدّها قائمةً رحمةً بالأطفال الستّة الذين كانوا ثمرتها، وذلك اقتداءً بالمذهب الشافعي وتقليدًا له.

أمّا الجواب عن المشكلة الثانية: فإنّ أمك لم تسيء إليك، وإنّما أساءت إلى نفسها، فسارت في الطّريق الشّائب، واستمرّت الخبيث، وارتكبت الحرام، وعصت ربّها، وأطاعت هواها، ولكنّها حافظت عليك من الانزلاق فيما انزلت به، واجتهدت واختارت لك، وأنت حمدت الاختيار، فأحسني إليها ولا تسيئي، اللهمّ إلّا إذا أمرتك بالسوء ولا أظنّها تفعل ذلك، وانصحي لها بالتي هي أحسن إلّا تعصي الله، وانصحي لها بالكلمة الطّيبة أن تمثل أوامر الله، وتؤدّي ما عليها من واجبات.

وقد رأينا كثيراتٍ من السّاقطات أظعن الله بعد توبةٍ نصوحٍ، حتّى وصلن إلى درجاتٍ من الخير عاليةٍ، وكسبن السّمتة الحسنة بعد أن كنّ يستعاذ بالله من ذكرهنّ.

أمّا الجواب عن المشكلة الثالثة فامتثلي أمر الباري ﷻ بالإحسان إلى أمك، واقرئي الآيات التي تأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتأملّي معانيها ما دمت - كما قلت - متعلّمةً، ولا تأخذك عاطفة الكره فتأثمّي، بل تمسّكي بعاطفة المحبّة والرّحمة والإحسان، وتذكّري منها قبله حنونةً ورعايةً طيّبةً، وانظري إلى معاملتها لأختك، وتذكّري بهذه النّظرة معاملتها لك، وأخيرًا اختيارها الزّوج الذي أحبّته.

إنّ أمك تحتاج إلى توجيهٍ بإحسانٍ، فتعاوني مع زوجك لتوجيهها إلى

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٠١٥)، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٣٩٦٥).



الخير بالحسنى، واسألني الله أن يحسن خاتمتها ما دمت تحببني فعل الخير، ومن أولى به من والدتك وأنت ابنتها؟! فافعليه معها جزاك الله خيراً.



٢١- مرضٌ عجيبٌ

سيدي! إنني لصُّ سارقٌ، ومع ذلك كله لم تمسكني يد العدالة، على أن سرقاتي تعددت وتكررت، ولا تُدهش لهذه الصراحة الوقحة، ولا تمزق رسالتي، فأنت الأمل الوحيد الباقي لي بعد أن سُدت في وجهي الأبواب كلها، ولا تتسرع في الحكم عليّ، فأنا أعرف قسوتك على من ينحرف عن الطريق السويّ، وأعلم غيرتك الشديدة على الأخلاق والقيم.

إنني أكاد أجنُّ؛ لأنني أجد نفسي منقاداً دون وعيٍ إلى قدرٍ لا أدري هل سيشفق عليّ أم سيعاملني بالقسوة نفسها التي يُعامل بها المجرمين ومُطاردي العدالة.

إنّ مأساتي متشعبة غريبة، وما يزيد في غرابتها أنني لم أسرق مرّةً لأسدّ حاجةً، أو لأشتري رغيفاً من الخبز، أو حتّى زجاجة دواءٍ؛ لأنّ ذلك كله متوافراً أمامي، فأنا غير محتاجٍ.

واسمح لي أن أبدأ قصّتي من أوّلها:

عمري الآن أربعة وعشرون عاماً، من أسرة كبيرة كبيرة محافظة، أعرف ربّي جيّداً، وأودّي فروض ديني الحنيف كلها، يقول معارفي فيّ: إنني شابٌ مستقيمٌ، دمت الأخلاق، هادئ الطباع ويتنبؤون لي بمستقبلٍ عظيمٍ، هذا



رأى النَّاسُ كُلَّهُمْ فِي شَخْصِي، وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَالْمُسْتَقْبَلُ أَمَامِي
مُظْلَمٌ كَثِيبٌ قَاتِمٌ.

منذ طفولتي وأنا هادئ الطَّبع، لا أميل إلى العنف، أحبُّ النَّاسَ كُلَّهُمْ
حَتَّى مِنْ يَسِيءُ إِلَيَّ، وَيَحْبُبُنِي النَّاسُ؛ لِأَنِّي أَسَامِحُ كُلَّ مَنْ أَسَاءَ مَعِ قَدْرَتِي
عَلَى الْإِنْتِقَامِ، وَكُنْتُ الثَّانِي بَيْنَ إِخْوَتِي السُّتَّةِ، وَعِنْدَمَا كُنْتُ طِفْلاً كَانَ
الاهتمام كُلُّهُ مَنْصَبًا عَلَى أَخِي الْأَكْبَرِ، فَلَهُ لَعِبَ الْأَطْفَالِ وَالْمَلَابِسِ
الْجَدِيدَةِ، وَالنُّقُودَ تَعْطَى لَهُ بِلا حِسَابٍ، بَيْنَمَا كُنْتُ أَحْسَبُ نَفْسِي مَهْمَلًا
مَنْبُودًا وَحِيدًا.

لم تكن الصُّورة بهذه القِتامة الَّتِي أَصَوَّرَهَا لَكَ الْآنَ، فَاهتمام الوالدين
بَابْنِهِمَا الْبَكَرِ شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ؛ لَا سِيَّما أَنَّهُ جَاءَ بَعْدَ عَقْمِ دَامٍ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِ
سِنَوَاتٍ، عَاشَهَا وَالِدَايَ حَتَّى يَيْئَسَا مِنَ الْوَلَدِ، هَذَا شَيْءٌ أَحْسُهُ الْآنَ،
وَأَعْذِرُهُمَا.

لَكِنَّ شَعُورِي وَأَنَا طِفْلٌ كَانَ خِلَافَ ذَلِكَ، لَا أَذْكَرُ أَنَّنِي شَعَرْتُ يَوْمًا مَا
بِالرِّضَا، كُنْتُ أَشْعُرُ بِالْغِيْرَةِ مِنْ هَذَا الْأَخِ الْمَدْلَلِ، وَأَتَمَنَّى لَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ،
وَرَبَّما كَانَ لِهَذِهِ الْمَرْحَلَةِ - مَرْحَلَةُ طِفُولَتِي - أَثْرًا عَلَى سُلُوكِي بَعْدَ ذَلِكَ،
فَقَدْ أَصْبَحْتُ انْطَوَائِيًّا، أَحَبُّ الْعِزْلَةِ، وَأَفْكَرُ فِي أُمُورٍ أَكْبَرَ مِمَّا يَفْكَرُ فِيهِ
مَنْ هُمْ فِي سِنِّي، بِالْمَخْتَصِرِ كُنْتُ رَجُلًا صَغِيرًا كَمَا كَانُوا يَسْمُونِي.

وَفِي يَوْمٍ أَذْكَرُهُ جَيِّدًا سَرَقْتُ لَعْبَةً مِنْ أَلْعَابِ أَخِي، لَمْ أَكُنْ فِي حَاجَةٍ
إِلَيْهَا؛ فَقَدْ كَانَتْ عِنْدِي مِثْلَهَا، لَكِنِّي سَرَقْتُهَا وَحَطَّمْتُهَا، وَأَلْقَيْتُ بِقَايَاهَا فِي
السَّارِعِ، وَمَا زِلْتُ أَذْكَرُ هَذِهِ الْحَادِثَةَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنِي كُنْتُ طِفْلاً صَغِيرًا
يَوْمئِذٍ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِرَاحَةٍ غَرِيبَةٍ وَأَنَا أَحْطَمُ هَذِهِ اللَّعْبَةَ وَأَلْقِي بِهَا فِي
عَرْضِ السَّارِعِ، لَكِنِّي حَزَنْتُ بَعْدَهَا حِزْنًا لَا يُوَصِّفُ وَأَنَا أَرَى أَخِي يَبْحَثُ



عن لعبته دون جدوى، لم أقل لأحدٍ: إنني سرقتها. كنت أراقب الجميع وهم يبحثون عنها، أراقبهم في صمتٍ ومشاعري تتأرجح بين الراحة؛ لأنني أرضيت نفسي، وبين الحزن الذي شاركت فيه أخي.

وكبرت، وكبرت معي هذه الهواية؛ هواية السرقة، واتسعت لتشمل أماكن خارج البيت، فقد أصبحت أسرق من المحلات والجمعيات، وأي مكان، أسرق للسرقة لا غير، إنني أسرق أشياء تافهة حقيرة لست في حاجة إليها، صدقني، ولعلك تعجب إذا قلت لك: إنني ألقى ما أسرقه في الشارع بعد ركوب سيارتي وانطلاقي بها، وأحياناً أسرق أشياء لا يزيد ثمنها عن عشرات الفلسات التافهة، لا أدري ما سرُّ هذه التصرفات الغريبة التي تصدر مني! إنني أستطيع ببساطة شراء كل الأشياء التي سرقها طول عمري في لحظة دون أن تتأثر أحوالي المادية بذلك، لكن المشكلة أنني أسرق دون وعي، وأجد راحة غريبة بعد أن أمدّ يدي إلى أشياء ليست ملكي وأحصل عليها، ثم أزهدها بعد وقوعها في يدي، ولم أسرق شيئاً ثميناً كحلية، أو جوهرة، أو أي شيء ثمين، وإنما سرقاتي مُنصبة على كل تافه.

حاولت كثيراً أن أقاوم هذه الهواية القذرة فلم أستطع؛ لأنني أشعر أن دافعاً داخلياً يدفعني إليها أقوى مني ومن إرادتي، فأنا حين أسرق أكون كالمنوم مغناطيسياً، يتجه ذهني كله إلى الحصول على ذلك الشيء الذي أمامي، فأمدُّ يدي إليه دون إرادة أو تقدير أو تفكير بما سيأتي به عملي هذا من عاقبة لو رأي أحد وأنا أمدُّ يدي إليه.

عرضت نفسي على أطباء كثير، وطرقت الأبواب كلها دون أن يستطيع أحد أن يقتلع مني هذا الضعف المشين.



وإنَّ ما يورِّقني هو موقفي أمام الله، هل سيحاسبني ربِّي على سرقاتي هذه كأبيِّ سارقٍ آخر؟ وما حقُّ هؤلاء الذين أسرق منهم عليّ؟
فكَّرت مرارًا في تعويضهم عن سرقاتي، ولكنِّي أخاف من الفضيحة وكلام النَّاس، وأخاف من عدم تصديقهم إيَّاي أو فهمهم الخاطيء لدوافعي.

السُّؤال:

أفكر الآن جدًّا في الحجِّ، لكن ماذا يحدث إذا عاودتني هذه الرِّغبة المُلحَّة في السَّرقة وأنا في الأراضِي المقدَّسة؟ ماذا لو ضُبطتُ؟ إنَّهم سيقطعون يدي حتمًا؛ تطبيقًا للشريعة الإسلاميَّة، وحتىَّ إذا لم أضبط هل يصحُّ الحجُّ وأنا سارقٌ؟

ختامًا أرجو أن تنال رسالتي هذه رعايتك، وتردَّ عليها بسرعة؛ لأنَّني أتعذَّب كلَّ ساعة.

مع شكري

الجواب:

ذكَّرتني كتابك بضابطٍ كان في جيش إحدى الدُّول العربيَّة برتبة لواءٍ، وكان مصابًا بمثل مرضك، يسرق أشياء تافهةً، وغالبًا ما يسرق اللُّعب من أولاد أصدقائه، مع أنَّه عازبٌ لا زوجة له ولا أولاد.

أنت مريضٌ يا ولدي، وتحتاج إلى العطف والعلاج أكثر ممَّا تحتاج إلى القصاص وإقامة الحدِّ عليك، وقد تكون طفولتك هي السَّبب فيما وصلت إليه.

وأما بالنسبة إلى سرقاتك فالثمين منها عوِّض أهله عنه أو استغفرهم،



والرَّخِيسِ اسْتَغْفِرُ اللهُ لَكَ بِشَأْنِهِ، وَادْعُ لِأَهْلِهِ وَلِنَفْسِكَ؛ لِأَنَّكَ مَرِيضٌ، عَالِجُ نَفْسِكَ يَا وَلَدِي، وَحَاوِلْ وَلَا تَيْأَسْ، حَاوِلْ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ تَعَالِجَ نَفْسَكَ عِنْدَ طَبِيبٍ مَاهِرٍ، سَافِرٍ إِلَى الْخَارِجِ، وَالتَّمَسِ الْعِلَاجَ عِنْدَ أَهْلِهِ - إِذَا لَمْ يَتَيَسَّرْ عِلَاجُكَ فِي الْكُوَيْتِ - لَمَّا كُنْتَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ وَأَحْوَالِكَ الْمَادِيَّةِ مَيَسَّرَةً كَمَا تَقُولُ.

عَرَفْتُ حَالَاتٍ كَثِيرَةً تُشَبِّهُ حَالَتَكَ هَذِهِ، اسْتَجَابَ أَصْحَابُهَا لِلْعِلَاجِ، وَأَصْبَحُوا أَشْخَاصًا طَبِيعِيَّينَ عَادِيَّينَ، فَلَا تَيْأَسْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَقَدْ قَطَعَ الطَّبُّ النَّفْسِيَّ مَرَاحِلَهُ الْكَبِيرَةَ مِنَ التَّقَدُّمِ وَأَصْبَحَ يَعَالِجُ حَالَاتٍ أَكْثَرَ صَعُوبَةً مِنْ حَالَتِكَ.

أَمَّا عَنِ الْحَجِّ؛ فَانْصَحْ لَكَ بِالتَّرِيثِ قَلِيلًا حَتَّى تَشْفَى تَمَامًا وَتَصْبِحَ إِنْسَانًا طَبِيعِيًّا، فَتَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ اللهِ دُونَ خَوْفٍ وَبِقَلْبٍ مَفْتُوحٍ.
مَعَ دَعَائِي لَكَ بِالتَّوْفِيقِ وَالشِّفَاءِ الْعَاجِلِ.



٢٢- أحبُّ أم غيرة؟!

لَا تَلْمَنِي يَا سَيِّدِي إِذَا بَدَأْتُ رِسَالَتِي هَذِهِ بِانْتِقَادِ الْمَاضِي، وَأَنْتَ الرَّجُلُ الْمَجْرَّبُ الَّذِي عَشْتُ مَاضِي الْكُوَيْتِ وَحَاضِرَهَا، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ مَفْهُومَ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ قَدْ تَغَيَّرَ الْآنَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي، فَقَدْ كَانَ الزَّوْجُ فِي الْمَاضِي هُوَ الْحَاكِمُ بِأَمْرِهِ، فَكَانَ الْأَمْرُ النَّاهِي الَّذِي لَا يُخَالِفُ لَهُ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، وَالْمَعْصُومَ الَّذِي لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا وَلَا يُخْطِئُ فِي فِعْلٍ، وَكَانَتِ الزَّوْجَةُ فِي الْاِعْتِقَادِ السَّائِدِ وَقْتُهَا خَادِمَةً فِي بَيْتِهَا، مَمْلُوكَةً لِزَوْجِهَا، لَا

حقّ لها في الرأى والمناقشة أو الاعتراض، محرومةً من حقّها بوصفها بشرًا، وكانت - كما يقولون - نعلًا للرجل يجددها متى شاء أو يغيّرُها أنى أراد.

وكان غريبًا على المرأة أن تتكلّم على الكرامة والحقوق أو المشاعر والأحاسيس؛ لأنّ هذه المواضيع أكبر من عقلها، فهي «ناقصة عقل ودين»^(١)، يقولون هذه الجملة ويفسّرونها كما يريدون، لا كما عناه الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أو كما فسّره علماء عصره والتّابعون لهم بإحسان.

وكانت المرأة أسيرة المستبدين، ذليلةً عند المتسلّطين، مقهورةً من المتحكّمين، محرومةً عند الأنانيّين، تعيش هذه الحال مهما كان شأنها، أختًا أو بنتًا أو زوجةً، ولكنّ الصّورة تغيّرت اليوم مع كلّ النّاس إلّا معي، فقد أصبح الزّواج شركةً قائمةً على التّفاهم والمحبة والاحترام المتبادل بين الزّوجين، وأصبحت القوامة للزّوج قوامة رعاية وإنفاق كما أراد الله لها أن تكون، لا قوامة تسلّط واستبداد كما أراد لها بعض النّاس أو أراذلتها الجاهليّة.

نعم، تغيّرت الصّورة، وفهم النّاس أنّ الإسلام دين المساواة لا يفرّق بين ذكور البشر وإناثهم تلك التّفارقة المشينة التي ادّعاها الأسلاف عن جهلٍ مشين.

أمّا أنا يا سيّدي فكأنّني لستُ من أهل هذا العصر، كأنّني أعيش عصرَ

(١) رواه البخاريّ، رقم: (٣٠٤)، ومسلم، رقم: (٧٩)، بلفظ: «... ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لبّ الرجل الحازم من إحدكنّ... إلخ».



جدّتي ، أو عصر الجاهليّة قبل الإسلام؛ العصر الذي كانت المرأة فيه تُورثُ كأنّها قطعة أثاثٍ، أعاني العيش مع زوجٍ لا يعرف معنى الزّواج، ولا حقيقة معناه الدّينيّ والاجتماعيّ .

إنّني زوجةٌ وأمٌّ، مطيعةٌ، صبورَةٌ، أَرْضِي بالقليل ولو كان شحيحًا، أعطيتُ نفسي وحياتي لزوجي وأولادي وبيتي، أحببت زوجي وما زلتُ أحبُّه وأخلص له، وأحبُّ أولادي وأتفانى في رعايتهم، لم أعتد الشكوى من قلةٍ أو جهدٍ، فقد اعتادت نفسي الرّضا بكلِّ شيءٍ، فزوجي يقترّ علينا أحيانًا، ومع ذلك أحاول تدبير أمور البيت والأولاد ولو بحرمان نفسي من الصّروريّات .

قد تسأل نفسك أين المشكلة إذن؟!

المشكلة يا سيّدي في زوجي نفسه؛ في مفهومه الخاطيء عن الزّواج وقدسيّته، في عدم مبالاته بمشاعر الزّوجة الأمّ، فهو يفعل كلّ ما يشعرني بأنّني عرضٌ مهملٌ، أو إنسانةٌ أعيش على هامش الحياة، يفعل كلّ ما يؤذي مشاعري، فمثلاً: أكون معه في الشّارع فيرى امرأةً جميلةً ذات حسنٍ في زيّها أو تسريحتها أو مشيتها أو ثوبها، ثمّ يقارن بيني وبينها، وطبعًا تكون نتيجة المقارنة في صالح غيري، وقد يحدث هذا أمام صديقاتي أو ضيوفني دون مراعاةٍ لما يسبّبه ذلك لي من إيّلامٍ نفسيّ أو جرح شعورٍ أمام الآخرين .

وقد نكون وحدنا فيذكر محاسن إحداهنّ، بل يتغزّل بها أمامي دون حياءٍ، وليت الأمر يحدث مرّةً أو مرّتين في الشّهر أو في الأسبوع، ولكنّه عندما يراني أثور وأتألّم يتعمّد ذلك ويكرّره دائماً حتّى كرهت صديقاتي وقريباتي وجاراتي، وأصابني مرض الأعصاب أو الجنون - سمّه كيفما



شئت - ، وأصبحت دائمة الشكوى منه ، وقد فاتحته مرّةً بهذا ، فثار عليّ ،
وأتهمني بأنني شديدة الغيرة ؛ لهذا أسألك : هل الغيرة حرامٌ؟ وقد سمعت
أنّ الغيرة على الحقّ من الإيمان .

هل يريدني زوجي امرأةً بلا مشاعر ، أم يريد أن يجرحني في كرامتي
وأسكت ، أم أن أكون خادمةً له ولأولاده؟ أم يبتغي شريكة في الفراش؟
إنني أخشى أن يتمادى زوجي في غيّه ، ثمّ يُعرض عنيّ ، فماذا سيكون
مصيري ومصير أولادي عندها؟

إنني والله حائرةٌ ، أبادلني بالحبّ طعنًا بالمشاعر ، وبالإخلاص
استهتارًا بالقيم؟!!

إنّها - والله - مبادلةٌ جائرةٌ ، وثمانٌ ظالمٌ! ونسيت أن أقول قبل أن
أختم رسالتي : إنّ زوجي يفقه الصّلاة ولا يصلّيها ، ويفقه الصّوم ويفطر
رمضان متعللاً بأنّه لا يستطيع منع نفسه الدخان .

السؤال :

كيف أربّي أولادي على حبّ دينهم وهم يرون في أبيهم القدوة ، ثمّ
يخطئ أمامهم؟!!

الجواب :

من الذي قال لك : إنّ المرأة كانت حقيرةً عند أسلافنا؟! المرأة التي
تحترم نفسها كانت محترمةً ، وقد اشتهرت في التاريخ الكويتي نساءً كانت
لهنّ مواقف أشبه بمواقف الرّجال ، ولا حاجة إلى ذكر أسمائهنّ ؛ لأنّ من
عدّ موج البحر عدّ طويلاً .

وأحبُّ أن أقول - وكم كرّرت هذا القول! - : إنّ من احترم نفسه



احترمه النَّاسُ ، ومن حَقَّرَ نفسه فالنَّاسُ بتحقيره أولى .

قلت في رسالتك هذه الجملة: إِنَّ الغيرة على الحقِّ من الإيمان .
وحقُّ ما قلت ، لكنَّك فسَّرت الغيرة بغير معناها ، إذ لها معانٍ كالأنفة من
الذَّلَّة ، وحماية الحقِّ من الإهانة ، أمَّا غيرتك فإنَّها إثارة مشاعر وتنبية
إحساسٍ ، وأنت - كما أستنتج من رسالتك - شديدة الغيرة ، وقد رأى
فيك زوجك سلوَّةً ، وكان الواجب عليه ألاَّ يفعل ما فعله .

أنا لا أطلب إليك أن تكوني متبلِّدة الحسِّ ، لكنِّي أطلب إليك أن
تستجيبى لرغبات زوجك بالمزايا التي يستحسنها في صديقاتك ، فزوجك
يرى في صديقاتك بعض المزايا ، ويتحدَّث عنها لك ، فهل قلَّدتهنَّ بها
ليراها ظاهرةً فيك ، ويلمسها ويتحدَّث عنها فيك كما تحدَّث عنها في
غيرك؟

قد تكونين مخلصَّةً لزوجك وأولادك وبيتك - كما تقولين - لكنَّك لم
تُري زوجك هذا الإخلاص ، ولم تشعر به .

ومن الخطأ أن تتصوَّر كلُّ زوجةٍ أنَّها أدَّت ما عليها من واجباتها
المنزليَّة ، إنَّه الواجب ، والواجب لا مَنَّة فيه ، لكن هناك النَّاحية المهمَّة
التي تهملها زوجاتٌ كثيراتٌ ، إنَّها المشاركة الوجدانيَّة .

أختي أو ابنتي ، لا أدري ، اسمعي من زوجك متاعبه وهمومه ، خفِّفي
عنه مشكلاته ، وكوني له سكنًا كما أراد الله أن تكوني ، أشعريه بأنَّه
رجلك ، وأنَّه الوحيد الذي يعينك أمره ، أعطيه أكثر وقتك ، فالرجل مَنَّا -
يا ابنتي مهما تقدَّمت به السنُّ - طفلٌ مع زوجته يحتاج إلى حنانها ، وقد
يغار من ابنه إذا عطفت عليه زوجته أكثر منه .

أقلعي عن الغيرة، وحاولي أن تكوني قدوةً لأبنائك، علّمهم أركان دينهم ومبادئه، وقيم الإسلام الأخلاقية، فحين تفعلين ذلك أكون ضامنًا لك زوجك، وسيتغيّر ويعود لك رجلًا آخر، مطيعًا لله، مؤدّيًا واجبات دينه، مطيعًا لك، صادقًا في حبه، والله الموفق.



٢٣ - مدمن شكوى

سمعتك كثيرًا وأنت تتكلّم على قسوة الآباء، وقرأت لك كثيرًا ممّا كتبت عن ظلمهم، وسمعتك تنصح لهم بقول الله ورسوله، وبِحّ صوتك وأنت تدعوهم بالتي هي أحسن أن يراعوا الله في أسرهم وزوجاتهم وأولادهم، وغير هذا نسمع كلّ يوم أصواتًا تنطلق من الإذاعات حاملةً لأسماعنا آياتٍ من كتاب الله الكريم كلّها رحمةً، تحمل في معانيها المحبّة، وتأمّر قارئها وسامعيها بالإحسان والرأفة، وأنظر حولي فأرى رفاقي وأقراني وزملائي يتمتّعون بحبّ آبائهم ورعايتهم، وينعمون بعطفهم وعنايتهم، ولكن ما بالي أنا؟

لو كنت عاقًا، أو عاصيًا أوامر ربّي، أو شاذًا في حديثي معه لكنت جديرًا بكلّ ما ينزل بي منه جزاء ما قدّمته يداي له.

المصيبة يا سيّدي أن يعذب الإنسان وهو لا يدري لماذا يعذب، وإنّها لمهزلةٌ محزنةٌ أن يعاديني أقرب النّاس إليّ بلا سببٍ، ثمّ أجد العالم كلّه وقف معه موقف الموافقة، ووقف منّي موقف العداء دون أن أعرف لذاك سببًا، وكثيرًا ما أرى آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]



أنَّها تشتمل على اسمين من أسماء الله الحسنى هما الرَّحْمَنُ والرَّحِيمُ، ففي هذا إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أنَّ الرَّحْمَةَ من صفات الله تعالى، يحبُّ أن يتَّصف بها خلقه، فإنَّه يرحم من عباده الرَّحْمَاءَ.

ديننا يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وأيُّ قرابةٍ أقرب من البنوة للأبوة! ديننا يحبُّ الفضائل والمكارم، والرَّحْمَةَ أفضل الفضائل وخير المكارم، فهل يليق بنا - ونحن مسلمون نفخر بانتسابنا إلى دين الرَّحْمَةِ - أن نكون قساة القلوب متحجَّري الشُّعور، مع أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البَقَرَة: ٧٤]، وأقسم إنَّها الحقيقة يا سيدي، وإنَّها الواقع الَّذي عشته وأسفاه، وإليك قصتي:

ما زلت شابًّا في الخامسة والثلاثين من عمري، فقدت أمِّي رضيحًا، ولست أدري من تكفَّلتني بالرَّضاعة بعد موتها، إلَّا أنَّ رحمة الله أدركتني فسحَّرت لي من لا أعرفها لترضعني.

ولعلَّك تعرف كثيرين - كما أعرف - من الذين فقدوا أمهاتهم أطفالًا وعاش لهم أبأؤهم، فكان أحدهم لولده الأمُّ والأب والأخ والصديق، حتَّى إنِّي أذكر بعضهم احتفل بأبيه في عيد الأمِّ؛ لأنَّه كان له الأمُّ حين ماتت أمُّه، وكان الأب القيم المرَبِّي.

لا أقول ذلك يا سيدي حسدًا، ولكن أقوله مُقرًّا بأنَّه واقعٌ وحقيقةٌ ألمسها بنفسني وأراها بعيني، وهي خلاف ما حدث لي.

قلت قبل قليل: إنَّ رحمة الله أدركتني فسحَّرت لي من أرضعتني؛ لأنَّ أبي تزوج بعد وفاة أمِّي، وقيل لي: إنَّ الجيران هم الذين احتضنوني؛ لأنَّ زوجته رفضت أن أكون معها في رعاية أبي، وقسوة زوجة الأب على ابن زوجها معروفةٌ منذ الأزل؛ لهذا فأنا لا أشكو قسوة زوجة أبي؛ فهذه

طبيعة كلِّ بنات البشر، لكن أشكو قسوة أبي الذي أنا من صلبه وأشكو جفوته، إذ كان الواجب على أبي أن يحاول تعويضي حنان أمي، ويضاعف جرعة العطف حتَّى لا أشعر بمرارة الضيعة، لا أن يحرمني أيضًا حنانه وعطفه منذ كنت رضيعًا.

سمعتك تقول كثيرًا: ليس اليتيم من فقد أبويه أو أحدهما، إنّما اليتيم من حُرِمَ حنانهما، وقد فقدت حنان أمي ميّنةً، وحنان أبي حيًّا.

وليت الأمر اقتصر على الإهمال، لكنّه إهمالٌ وعذابٌ وحرمانٌ وإهانةٌ وطرْدٌ وتشريدٌ، أعمل هنا يومًا وهناك يومًا، ومتى أحسَّ أبي أنني حصلت على فلسين أو ثلاثة تملّقت لي فأخذهما ثم طردني.

صدّقني يا سيّدي حين تضيق بي السُّبل فلا أحصل على عملٍ وأجوع آتية مستعطفًا فلا يرقُّ لي، بل يطردني إلى الشّارع حيث لا غذاء ولا مأوى.

إنّه لا يطيق رؤيتي، وحين أسأله لم تكرهني؟ يسكت، فأعيد السُّؤال ليكون الجواب سبًّا وإهانةً أو بصقةً في الوجه، وأكثر غرابةً من الغريب أنّه حين يحتاج يتملّق لي فأرقُّ له وأعطيه ما أملك، ولا أبخل عليه، فإذا تملّقت لأرى بسمّةً على وجهه أو أسمع منه كلمةً طيبةً نهرني واحتقرني.

وقد زوّج إخوتي الأصغر مني - الذين هم إخوتي لأبي - فلم تكن الحال كذلك معي على تذكيري له بذلك، إذ لم يكن ردّه إلّا كلمةً مهينةً: لست كفوًّا لذلك.

ذهبت إلى كلِّ مكانٍ؛ إلى القضاء، والحكومة، وشيوخ الدّين، وأصدقائه، والقراية، لكن ما من حلٍّ حتّى أصبحت معقّدًا.



السؤال:

هل أجد حلاً لمشكلتي عندك؟

الجواب:

تقول: إنَّ عمرك (٣٥) عامًا، معنى ذلك أنك الآن رجلٌ قد وخطك^(١) الشَّيب، وجاوزت سنَّ الشَّباب، وتستطيع الاعتماد على نفسك، وتدير أمورك بما فيه مصلحتك، ولو أنَّ هذه الشَّكوى جاءتني من طفل، أو من شابٍّ في المدرسة لما كانت غريبةً، لكنَّها تأتيني من رجلٍ، إنَّها غايةٌ في الغرابة!

أبوك أساء إليك، وقسا عليك، وشتت شملك وأنت صغير، ولم يدر عنك وأنت رضيعٌ، أساء؛ وكثيرٌ من الآباء الضُّعفاء أمام زوجاتهم يسيئون، وقد تكلمت مع كثيرين من أمثال أبيك، وطرقت الموضوع في الإذاعة والتلفاز، واستجاب للنُّصح آباءٌ، والحمد لله ربَّ العالمين.

أنت الآن رجلٌ، شقَّ الطَّريق في ميدان الحياة، فلا مجال لشكواك، ومشكلتك قد انتهت، فأبيَّ حلٌّ تريد مني؟

ثمَّ إنَّك تناقض نفسك بنفسك، تقول: إنَّك تساعد أباك وتعطيه من كسبك، وكلَّما رأى عندك مالاً تملِّق لك، ثمَّ تقول: إنِّي محتاجٌ، أباي زوجٌ إخوتي ولم يزوِّجني، فلماذا لا تزوِّج نفسك، ولماذا تذهب لأبيك عندما تكون مملوء اليد؟! اعتمد على نفسك؟ وضع ثقتك في الله، وشقَّ طريقك في الحياة، ولا تنتظر المساعدة من أبيك ولا من زوجته ما دام أبوك ضعيفاً أمامها، ولا تكن مدمن شكوى، فكفاك تألماً.



(١) وخطه الشَّيب: خالطه. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (١٦٣/٢٠).

٢٤ - إِنَّ رَبِّكَ لِبِالْمِرْصَادِ

سيدي! إنني سجينٌ، أبعث رسالتي إليك وقد كتبتها في زنزاتي بعد أن قضيت عشر سنواتٍ خلف الأسوار، كانت تلك ربيع عمري.

بعد أسابيع سيلفطني^(١) السَّجْنُ إلى الفضاء الفسيح، وسأستردُّ حرِّيَّتي، لكن كيف ستكون نظرة العالم إليَّ؟! هل سيقبلني تائبًا نادمًا مستغفرًا، أم سينظر النَّاسُ إليَّ شَزْرًا^(٢) بالغمز واللَّمز؟! هل سينسى آثامي الماضية ويسمح لي بفتح صفحةٍ بيضاء جديدةٍ أم سيقف منِّي موقف المتعنِّت الذي لا يغفر ولا يعفو؟! لا

لست أدري، لكن كلُّ ما أدريه أنني سأخرج إلى العالم بقلبٍ مفتوحٍ ونظرةٍ مختلفةٍ تمامًا عن تلك التي دخلت السَّجْنَ بها.

أنا لا أكتب إليك طالبًا مساعدةً أو نصحاء، فقد أتاحت لي السَّنوات الطَّويلة وراء القضبان أن أعيد النَّظْرَ في مواقفي السَّابِقة كُلِّها، وأن أرى عيوبي بوضوحٍ، إنني فقط أرسل إليك رسالتي؛ لكي يعلم النَّاسُ في الخارج أن يد الله قادرةٌ، وعدالته لا تغفل، وأنَّ الله يُمهِّل ولا يُهمِّل، وأنَّ انتقامه من أمثالي آتٍ لا ريب فيه.

أريد أن تكتب قصَّتي للنَّاس ليعرفوها، وأظنُّك الآن تريد أن تعرفها؛ لذلك سأسردها عليك باختصارٍ، دون أن أحرف شيئًا فيها، سأذكرها

(١) لَفَظُ الشَّيْءِ، يَلْفُظُهُ: رماه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤٦١/٧).

(٢) شَزْرُهُ شَزْرًا: نظر نظر المعادي. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦٤/١٢).



بمعناها كلُّه :

نشأت في أسرة متوسطةٍ ميسورةٍ بين أبٍ لاهٍ بسهراته العابثة ونزواته الطائشة ومشاغله الخاصة وأعماله التجارية، وأمّ أنانيّةٍ بكلِّ ما في الكلمة من معنى، لا يعينها في الحياة شيءٌ سوى المرأة ومستحضرات التجميل والملابس والموضة، وكنا نعيش في عالمٍ غريبٍ، فلا أب يعرف مسؤوليته، ولا أمٌ تدري ما واجبها، ولا أحدٌ يسأل عن أحدٍ، ولا أحدٌ يحاسب على ما يفعله، بالمختصر نشأنا في إهمالٍ دون رقيبٍ.

ولا غرابة أن أخفقت في دراستي، وكنت أسأل نفسي: لم أذاكر وأسهر الليالي وأتعب، وكلُّ شيءٍ مكفولٌ لي من قليلٍ أو كثيرٍ، حتّى أئتمن شيءٍ أطلبه؟! فانطلقت أعربد وأنا ما زلت في الخامسة عشرة، أسهر حتّى الصّباح وأعود، ولا أحدٌ يسأل عني، وكنت أغيب عن البيت أيّامًا لا يفتقدني أحدٌ فيها، عرفت رفاق السوء، ودعاني الشيطان فاستجبت له وصادفته، وفعلت كلَّ شيءٍ زينه لي، فقد زينت، وشربت الخمر، وسرقت مع عدم اضطراري للسّرقة، بل إنني ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير.

وكان الشيطان يزيّن لي أفعالي، فأنساق وراءه ولكن بحذرٍ كحذر الذئب، كنت أعرف الشرّ والخير، والحسن والسيّئ، والخطأ والصّواب، والحلال والحرام، لكنّ للحرام حلاوةً، وللاستهتار جاذبيّةً، فاستمرّأتهما.

لا تدهش يا سيّدي، فهناك ألوفٌ من الشّباب أمثالي، أنا لست مثلاً شاذّاً، بل إنني أكاد أقول: إنّ القاعدة كلّها مثلي، والشّواذُّ الآن هم الذين يتمسّكون بالدين والفضيلة، لكنني كنت أتميّز منهم - كما قلت لك -

بالحذر، كنت أرسم وأخطط وأدرس الاحتمالات كلها، وأضع الحسابات لكل شيء، فكل خطوة أخطوها مرسومة، وكل فعل أفعله مدروس؛ لذلك كنت آمنًا قرير العين، لا أخاف أن تنالني يد العدالة، وكم سخرت من هؤلاء الأغبياء الذين يقعون في يد القانون، سخرت من غفلتهم وغبائهم.

كل ذلك يحدث والوالد لاه عنا بنفسه، والوالدة مشغولة بأنانيتيها، ويسير كل منا في طريقه، وأريد أن أكون صريحًا معك فأقول: إنني لم أشعر مرةً بوخز ضمير، ولم أتألم لدموع ضحية، ولم أتأثر لضياح أسرة بسببي، أصبت بالبلادة، ونام ضميري، بل مات ودُفن.

وفي يوم لا أنساه كنت أجلس في قهوةٍ أشرب الشاي مع بعض أصدقائي؛ فدخل رجال الشرطة فجأةً وانتشروا في المكان بسرعة، وفتشوا الموجودين جميعهم، لكنني لم أعر الأمر أي أهمية؛ لأنني لست المطلوب، بل جلست في مكاني ببرود كأن الأمر لا يعني، ولم أكلف نفسي عناء السؤال، فاقترب مني ضابطٌ وفتشني، ولم يجد معي شيئًا، ولما هم بالانصراف نظر تحت قدمي وكانت المفاجأة، القطعة الكبيرة من المخدرات تحت قدمي، إذن أنا المطلوب المبلّغ عنه.

لا داعي أن أقسم لك إنها لم تكن تخصني، فلو كانت لي لاعترفت دون خجل، لكنها لم تكن لي، قذفها أحدهم فاستقرت تحت أقدامي دون الموجودين كلهم، واختارني أنا.

اقتادوني إلى التحقيق، فالنيابة، فالمحكمة، ووكلت المحامين الذين حاولوا بدفاعهم المستحيل لتبرئتي، لكن يد الله أرادت أن تعاقبني على جرم لم ارتكبه، ويا لسخرية القدر، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].



وحكم عليّ بالسّجن مع الأشغال الشاقّة مدّة عشر سنواتٍ، كدت أجنُّ وقتها، أنا الَّذي فعلت كلَّ شيءٍ ولم يردعني أحدٌ أدفع ثمن ذنبٍ لم أرتكبه؟!!

وفي السّجن بدأت أفكّر في حياتي بعمقٍ، ومرّت أمام خيالي أشرطة الماضي بكلّ قبيحه، مئات الصّحايا كانت صورهم تأتي إليّ في اللّيل، فتورّقني وتسلب النّوم من عينيّ، ودفعني كلُّ ذلك أخيراً إلى معرفة الله الَّذي لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ، فعرفت الَّذي يمهل ولا يستعجل العقاب لعلّ المذنب يعود إليه ويتوب، إنّه القويُّ القادر على إنزال البطش في غمضة عينٍ، ولكنّ رحمته أوسع من انتقامه، وأفقت إلى نفسي، وبدأتُ أصليّ وأصوم وأؤدّي الفرائض كلّها، وأكثرُ من النّوافل، أحالني السّجن من عريبدٍ إلى متصوّفٍ، وأدركت أنّي كنت أعيش في وهمٍ، فذقت حلاوة الإيمان والسّكينة واليقين بعد أن ذقت حلاوة الوحل، وشتان بين الحلاوتين، وشتان بيني وبين نفسي في الحاليتين.

السؤال:

هل حبسي في جريمةٍ لم أرتكبها قد كفّر عن ذنوبي؟ وهل للذنوب والجرائم الكثيرة التي فعلتها كفّارة؟ هل أدّيت ديني للمجتمع؟ هل تنفع لي توبةٌ فرضت عليّ فرضاً على بشاعة جرائمي؟ وماذا سيكون موقفي أمام الباري؟

إنّني أنتظر ردّك، فقد يفتح لي هذا الرّدُّ أبواب المستقبل، وقد يعيدني إلى ظلام الماضي، لا أقصد أن أعود لاستهتاري ومجونني، وإنّما أقصد أنّي سأظلُّ أفكّر في جرائمي دائماً، هل لي من توبة؟

الجواب:

قرأت قصّتك، وقد مرّ عليّ من أمثالها كثيرٌ، كأنّها حكاياتٌ أو قصصٌ خياليّةٌ، وعرفت من هم أكثر منك على المعصية جرأةً، ورأيت منهم من مات في غيّه وشقاوته مطرودًا من رحمة الله، ملعونًا بالسنة النَّاسِ، ورأيت منهم من تاب توبةً نصوحًا وأتاب إلى الله فقبله ورضي عنه، ورضي عنه النَّاسُ؛ لأنّه لمّا تاب استغفر كلَّ من أساء إليهم، ومن مات قبل أن يستغفر استغفر ورثته.

أمّا أن تسيء إلى النَّاسِ، ثمّ تتوب دون أن تستغفر من أسأت إليه ففي مثل هذه التّوبة شكٌّ، إنّ الله ﷻ عليمٌ، يعلم صدق التّائب أو عدم صدقه، ولا يعلم ذلك أحدٌ سواه، لكنّ للنّاس الظّاهر، وقد أخبرنا القرآن الكريم أنّ السُّؤال موجودٌ، وأنّ الحقوق مطلوبةٌ، وليس من عملٍ يمحو الذُّنوب كلّها إلّا الجهاد؛ لأنّ الله ﷻ سيتولّى وفاء النَّاسِ المساء إليهم، فقد قال جلّ شأنه: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَحَرُّفٍ تُنَجِّكُمْ مِّنْ عَذَابِ ٱلْإِلْمِ ۗ تَوَمَّنُونَ ۙ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصّف: ١١-١٠]، ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصّف: ١٢]، وقد عمّم الغفران دون تخصيصٍ، لكن أين الجهاد في سبيل الله؟!!

لهذا أقول للسّائل صاحب القصة: اكسب رضا النَّاسِ عنك باستغفار من أسأت إليهم، فستكون ألسنتهم شاهدةً لك لا عليك، والمثل الدّارج يقول: ألسنة الخلق أقلام الحقّ.





٢٥- أشريك حياة، أم عدو لدود؟!

طريقي مع العذاب طويلٌ، وهو مع الألم مظلّمٌ، ومع القسوة وعزٌّ وعسيرٌ.

عندما تبدأ قراءة رسالتي قد تقول: إنها متشائمةٌ، أو تظنُّ أنني مبالغةٌ في الوصف، لكن صدّق أنّ ما أكتبه هو الواقع؛ واقع حياتي التي أعيشها، ولعلّك بعد قراءة رسالتي تعذرني.

لا أدري لم يحلو لبعض النّاس أن يعذبّ غيره، ويذيقه الكأس المرّة كلّ يومٍ أو كلّ ساعةٍ دون أن يشعر نحو أسيره بعطفٍ أو رحمةٍ؟!

رسالتي إليك طويلةٌ، وهي طويلةٌ بغير إرادةٍ منّي، فقد عشت كلّ ما فيها، وكلُّ كلمةٍ أكتبها هي من واقعي الحزين، وسأحاول الاختصار كي لا أضيع وقتك الثمين، فأنا أعرف أنّ وقتك ليس لك، وإنّما هو للنّاس كلّهم.

ودعني يا سيّدي بعد هذه المقدّمة القصيرة أدخل في الموضوع:

تزوّجت وأنا في الثالثة عشرة من عمري، أو بالمعنى الأصحّ زوّجني أهلي قبل أن أصبح امرأةً مهيبّةً للزّواج، إنهم زوّجوني ابن عمّي، ولكن لم أعرف ابن عمّي هذا ولم أراه من قبل، ولم أدري إن كان لي عمٌّ أو ابن عمٍّ، وكلُّ ما عرفته أنّ نسوةً نقلنني ذات يومٍ من بيتٍ إلى بيتٍ آخر قيل: إنّه بيت زوجي، نقلنني من بيت أبي بالضّحك والضّجيج، وهنّ يصفقن ويغنين ويزغردن، ولو نقلنني بالبكاء والعيول لكان أولى بي.

مكثت في بيت عمِّي والد زوجي ثلاثة أشهر، ثم تشاجرت مع عمِّي فهددني بالسُّكِين، فخفت؛ لأنَّ السُّكِين معناها الموت، وهربت إلى بيت أبي، فجاء زوجي لاحقاً بي بعد أن طرده أبوه، فأخلى أبي لنا غرفةً خاصَّةً في بيته لأعيش مع زوجي فيها.

ومضت سنةً، فاختصم أبي وزوجي في أمرٍ لا أدريه، وأرادني زوجي أن أخرج معه إلى مسكنٍ بعيدٍ من بيت أبي وبيت أبيه؛ فلم يرضَ أبي بذلك محتجاً بصغر سني وجهلي، لا سيَّما أنَّ المحيط الَّذي نعيشه محيط عوامٍ، وقد كنت بلا تجارب ولا خبرة، فمكثت في بيت أبي.

وتطوَّر الخلاف بين أبي وزوجي إلى أن كمن له ذات يوم في طريقه وهو مبكِّراً إلى عمله فاعتدى عليه بالضرب المؤلم الَّذي اضطرَّه إلى دخول المستشفى، وتدخلَّ القضاء في الموضوع، فحكمت المحكمة عليه بالسُّجن ثلاثة أيَّام، وبغرامةٍ قدرها خمسةُ دنانير.

وتمضي الأيَّام ويخرج أبي من المستشفى عليلاً ميئوساً من شفائه من آثار ذلك الاعتداء على البدن والنفس، ليموت بعد أسبوعٍ من خروجه منه.

مات أبي وهو يشعر بكلِّ ما حوله، مات ويده في يدي وهو يخاطب أمِّي وأخي بقوله: لا تحاولوا إرجاعها لزوجها، حرامٌ عليكم، إنَّها تعذَّبت وعذبتني معها، إنَّها تعذَّبت وظلمت بما يكفي، وطلب إليهم أن يحلفوا، فأقسموا له أن ينفذوا وصيَّته، ومات ونفسه طيبةٌ أنني سأعيش بعيدةً من الظلم والظالمين.

لكنَّ زوجي لم يتركنا، كان يحضر كلَّ يومٍ أمام بيتنا ومعه سكينه يهدد بأنَّه سيدبحني بها، والحقُّ أنني خفت من تهديده فلزمت البيت لا أخرج



إلى الطَّرِيق، ولا أطلُّ من النَّافذة، وأصبحت قعيدة البيت سجينَةً فيه .

ألحَّت عليَّ أمِّي أن أعود إلى زوجي، وهي أوَّل من أقسم اليمين أمام أبي وهو يحتضر، ألحَّت عليَّ أن أعود إليه؛ حلًّا للمشكلات، فعدت إليه، لكن من شبَّ على شيء شاب عليه^(١)، فقد تمادى زوجي في غيِّه، فأصبح يضربني في البيت وأمام النَّاس في الشَّارع والسُّوق دون مراعاةٍ لأيِّ حياءٍ أو خُلُقٍ، وإنَّ آثار الضَّرْب ظاهرةٌ على وجهي وجسدي كلَّه .

زوجي - يا سيِّدي - جاهلٌ، أمِّي، وأنا متعلِّمةٌ، عملت مدرِّسةً في مدرسةٍ ابتدائيَّة، وكنت ناجحةً في عملي، محبوبَةٌ عند كلِّ من عرفني، ولعلَّ هذا الفارق هو الَّذي يدفعه لتكرار الاعتداء عليَّ؛ ليذلَّنني دونما وازع أو رحمةٍ، إنني أكرهه وأمقته، وأريد الطَّلاق منه، لكنَّ ما زاد الطَّين بلةً أنَّ لي أخًا أصغر منِّي تخرَّج هذا العام مهندسًا، يضغط عليَّ بشدَّة كي أعود إلى ذلك الزَّوج العدوِّ، لكنَّ الموت عندي أهون من هذا، وقد طردني أخي وطرده أمِّي من بيته، وأبى أن يقف إلى جانبنا أو يقدم لنا آيةً مساعدةً، وطلب إليَّ أن أترك عملي وأعود إلى زوجي الَّذي مضى على زواجي منه ثمانية عشر عامًا، لم أذق في يومٍ واحدٍ منها طعم الحياة الزَّوجيَّة التي تتحدَّث عنه النِّساء .

السُّؤال:

أوَّلاً: إنني أقول لزوجي دائماً هذه الكلمة: نفسي عليك حرامٌ. فهل حياتي معه حرامٌ؟

ثانياً: إنني أكره أولادي منه؛ لأنَّهم نسخةٌ منه خلَقًا وخُلُقًا، وإنني

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للقاضي (١/٦٩٢).

أعدُّهم أولادٍ حرامٍ، فهل هذا صحيحٌ؟

ثالثًا: أكره أمِّي؛ لأنَّها سبب مصائبِي، وهي التي خالفت وصيَّةَ أبي، لكن لا أظهر لها هذا الكره، إنِّي أكره زيارتها ورؤيتها، فهل أنا عاقَّةٌ؟

رابعًا: ما موقف من أقسموا لأبي ساعة احتضاره أن ينفذوا وصيَّته فنكثوا العهد ونقضوا اليمين؟

خامسًا: زوجي مدمن خمرٍ، يرفض أن أغسل الكأس التي يشرب فيها، فهل هي نجسةٌ؟

سادسًا: زوجي ملحدٌ، يكره الإسلام وسماع القرآن والأذان ويشتم القارئ والمؤدِّن، فهل تباح لي معه الحياة الزوجية؟

الجواب:

أبدأ قبل الإجابة عن أسئلة السائلة بكلمة مختصرة: أجمع المرثونون أو من يسمونهم علماء النفس على أن البيئة هي المنشئة، فإن كانت صالحة أنشأت صالحين، وإن كانت غير ذلك كان النتاج فاسدًا، وهم في قولهم هذا على حق، ولكنني أقول: «العرق دساس»^(١)، ولهذا أوصانا المصطفى عليه الصلاة والسلام أن نتخيَّر أمهات أولادنا، فقال: «تخيَّروا لِنُطْفِكُمْ وانكِحُوا الأَكْفَاءَ، وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ»^(٢)، فالطفل ذكرًا كان أو أنثى ينشأ على ما ربِّي عليه كما قال شاعر العرب أبو العلاء المعرِّي:

وينشأ ناشئُ الفتيانِ منَّا على ما كان عودُهُ أبوه^(٣)

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٠٤٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٩٦٨).

(٣) انظر: السحر الحلال في الحكم والأمثال، للهاشمي (١/١١٢).



وهذا البيت - وإن كان قد قيل مدحًا - ينطبق على الخير والشرِّ،
فإذا كبر الطُّفل واشتدَّ عوده وشبَّ عن الطُّوق - كما يقال - فلن يفيد معه
تغييرٌ أو تأديبٌ، وقديمًا قيل:

إِنَّ الغصونَ إِذَا قَوِّمَتْهَا اعتدلتْ ولا يلينُ إِذَا قَوِّمَتْهُ الخشبُ^(١)

فمن نشأ في بيئةٍ صالحَةٍ وشبَّ على التَّربية الصَّالحة عاش عبْرَةً
للسُّوَادِ، ولهذا كان الواجب على الإنسان أن يسترشد فيتعلَّم أو يجالس
المتعلِّمين، وهذا ما دفع الدُّول المتقدِّمة لتجعل التَّعليم إجباريًّا؛ لكي يميِّز
المواطن الخير من الشرِّ، والحسن من القبيح، ويفعل الأحسن ويتعد من
الأسوأ.

والإسلام سبق البشر كلَّهم إلى ذلك فجعل الثَّواب لفاعل الخير،
والعقاب لفاعل الشرِّ، ثوابًا أو عقابًا في الدُّنيا أو في الآخرة، وأوجب
على المسلمين جميعهم أن يتأمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر؛ حتَّى
يكونوا صالحين لأنفسهم مصلحين لغيرهم.

زوجك عاش في بيت أبيه، وأبوه لم يراعِ صغر سنِّك، فحمل عليك
السُّكَّين، وأنت لم تعيشي في بيته نصف سنَّة، وزوجك ذاك أيضًا سكن
بيت والدك وأكل نعمته، ثمَّ اعتدى عليه كما تقولين، وسبَّب له بهذا
الاعتداء الموت، فكان الواجب على ذويك بعد موت أبيك أن ينفذوا
وصيَّته بإنقاذك من ذلك الزَّوج المتوحِّش، ولكنَّهم قصَّروا وتحمَّلو آثام
عذابك، أمَّا بقيَّة الأسئلة فأكتفي بالإجابة عن سؤالٍ واحدٍ منها وهو
السُّؤال الأخير.

(١) انظر: جمهرة الأمثال، لأبي هلالٍ العسكريِّ (٢/٢٨٠).

لَمَّا كَانَ زَوْجُكَ مَلْحَدًا يَكْرَهُ الْإِسْلَامَ وَسَمَاعَ الْقُرْآنِ وَالْأَذَانَ، وَيَشْتُمُ الْقَارِئَ وَالْمُؤَدِّنَ إِذَا سَمِعَهُمَا أَوْ سَمِعَ أَحَدَهُمَا؛ فَأَنْتَ حَرَامٌ عَلَيْهِ لِكْفَرِهِ، وَهَذَا يَغْنِي عَنِ الْإِجَابَةِ عَنِ الْأَسْئَلَةِ الْبَاقِيَةِ.

أَمَّا كَرِهَكَ لِأَوْلَادِكَ فَأَظُنُّ هَذَا غَيْرَ صَحِيحٍ، وَلَمْ أَسْمَعْ أَنَّ أُمَّكَ كَرِهَتْ ذُرِّيَّتَهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ الشُّوَاذِ وَلَا عِبْرَةَ لِلشُّوَاذِ، وَكَرِهَكَ لِأَمِّكَ لَيْسَ عَقُوقًا مَا دَمْتَ لَمْ تَظْهَرِي هَذَا الْكِرْهَ لَهَا، وَأَمَّا عَدَمُ وِفَاءِ وَرَثَةِ أَبِيكَ بِالْوَعْدِ وَتَنْفِيذِ وَصِيَّتِهِ فَنَكْتُ، وَهُوَ جُنَايَةٌ عَلَيْكَ.



٢٦ - أَيُّ الطَّرِيقَيْنِ أَسْلُكُ؟

أَمَامِي طَرِيقَانِ، لَا بَدَّ أَنْ أَسْلُكَ أَحَدَهُمَا، وَكِلَاهُمَا يُوصلُنِي إِلَى الْهَلَاكِ؛ أَمَّا الْأَوَّلُ فإِلَى غَضَبِ رَبِّي، وَأَمَّا الثَّانِي فإِلَى الْجُوعِ وَالْعُوزِ وَالْيَتَمِّ، لَا أَظُنُّ أَنَّ امْرَأَةً أَوْ زَوْجَةً أُصِيبَتْ بِمِثْلِ مَا أُصِيبْتُ، أَوْ وَصَلَتْ بِهَا الْحَالُ إِلَى مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ، وَلَا أَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّذِيلَةَ وَالْأُنَانِيَّةَ تَصِلُ بِإِنْسَانٍ مِثْلَمَا وَصَلَتْ بِزَوْجِي وَشَرِيكِ حَيَاتِي وَوَالِدِ أَوْلَادِي، وَأَنَّ الْقَسْوَةَ فِي الْمُنْكَرِ تَبْلُغُ فِي رَجُلٍ كَمَا بَلَغَتْ فِيهِ، وَلَمْ أَكُنْ أَصَدِّقُ أَنَّي سَأَقِفُ هَذَا الْمَوْقِفَ أَوْ أَقَعُ فِي هَذِهِ الْهَوَّةِ، أَوْ أَنْ يُطَلَبَ إِلَيَّ - بِلا رَحْمَةٍ - أَنْ أَفْعَلَ شَيْعَةً يَنْكُرُهَا الْعَرَفُ، وَتَأْبَاهَا الْقِيمُ، وَتَنَافِي التَّقَالِيدِ، وَتَحَرِّمُهَا الشَّرَائِعُ، هَلْ يَصَدِّقُنِي النَّاسُ إِذَا قُلْتُ؟! إِنَّهُ شَيْءٌ لَا يُقَالُ، وَلَا بَدَّ أَنْ أَقُولَهُ، وَعِزَائِي أَنَّكَ سَتَصَدِّقُنِي؛ لِأَنَّكَ عَشْتُ مَعَ مَشْكَلاتِ النَّاسِ، وَلَعَلَّ مَشْكَلَةَ مَرَّتْ بِكَ مِثْلَ مَشْكَلَتِي، وَقَدْ تَجَدَّ لَهَا حَلًّا.



سيّدي! إنني في الحادية والعشرين من عمري، تزوّجت منذ خمس سنوات، وأنا أمٌّ لطفلين هما ثمرة هذا الزّواج غير المبارك، وعشت قبل زواجي مع أبي وزوجته الثّانية، فقد افترق أبي وأمّي بالطلاق، وعانيت من زوجة أبي ما يعانیه مثلي من أولاد الأزواج، وتولّدت عندي حساسيةٌ شديدةٌ من كلمة طلاق، أشعر منها برجفةٍ وصداعٍ وغثيانٍ، لأنّي أعرف أنّها كلمةٌ تجرُّ وراءها العوز والجوع والمشكلات، وضحاياها أطفالٌ لم يذنبوا ولا وزروا.

زوجي في الخامسة والعشرين من عمره، وأنا في الحادية والعشرين، ونحن متقاربان في العمر، لكننا مختلفان في كلّ شيءٍ، لأننا نقيضان؛ إنني أصلي وأصوم وأؤدّي أركان ديني، وهو لا يعرف القبلة إلا في رمضان، وأنا أخاف الله، وهو لا يتورّع عن ذنب، وكلّما دعاه الشيطان استجاب له، وكلّما سوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء شيئاً أرضاها به، أنا أحاسب نفسي، وإذا أخطأت وبّخني ضميري، وزوجي دفن ضميره منذ زمنٍ قد يكون قبل زواجنا، ومع كلّ هذا حكمت عقلي، فلم أدع هذا التناقض يدمّر بيتي منذ أحسست بحركة النّسمة^(١) في أحشائي؛ حتّى لا يعيش الطّفل بعيداً من أبويه، فرضيت بقسمتي، وعودت نفسي الرّضا بالقضاء، فقد كنت ضعيفةً في نفسي، ذليلةً بطبيعتي، وزوجة أبي هي من عودتني ذلك.

أمرني زوجي فأطعت، ولعلّه كان يراعي في البداية شعوري عندما يراني أقوم بأكثر ممّا يجب عليّ في إدارة شؤون بيتي ورعاية طفلي، وأتحمّل كلّ شيءٍ، وأتغاضى عن كلّ شيءٍ، وبدأت مشكلتي منذ أشهرٍ،

(١) النّسَمُ: نَفْسُ الرُّوح. انظر: تاج العروس، للزبيديّ (٤٨٨/٣٣).

فقد كانت لي أختٌ لأبي مطلَّقةٌ زارتني في بيتي، وراها زوجي وأعجب بها، لقد طلب إليَّ زوجي أن أدِيث^(١) له عليها، وأن آتيةً بها ليعاشرها، طلب إليَّ ذلك - وأنا زوجته أمُّ أولاده وشريكة حياته - بلا حياءٍ أو مراعاة شعورٍ، فهل سمعت بمثل هذه الوقاحة من رجلٍ لزوجته؟! والغريب أنه يلحُّ عليَّ بهذا الطَّلَب، قلت له: إنني سأحرِّم عليك، فقال: إنَّ كلَّ حرامٍ حلَّوٌ. ثمَّ قال: وما ذنبك أنت؟ إنَّ الذَّنْبَ ذنبي، وأنا العاصي ولستِ أنت. إنَّه يلحُّ عليَّ في هذا الطَّلَب حتَّى عندما نكون في خلوتنا، أخبرت أبي بما جرى فكذَّبني ونهرني، وقال: هذا ما لا يقبله عقلٌ، وحدَّثت زوجة أبي فلم تستطع عمل أيِّ شيءٍ؛ لأنَّ أبي لم يصدِّق.

السُّؤال:

وهكذا أعيشُ - يا سيِّدي - بين نارين، وأمام طريقتين؛ إنَّ زوجي سيصل إلى ما ربه عاجلاً أم آجلاً، فإذا وصل حُرِّمت عليه، وسأعيش معه بعد ذلك بوصفي خليلاً، أأعيش معه في زنا وحرام، أم أطلب الطَّلَاق؟ وإذا طُلِّقتُ فهل يقبلني أبي مع أولادي؟ وهل تقبلني زوجة أبي؟ قد كنت ثقيلةً عليها وأنا واحدة، أمَّا الآن فنحن ثلاثة، سأعود إلى الدُّلَّة، لا وحدي؛ ولكن سيعيشها أولادي. قل لي برُّك: أيُّ الطَّريقتين أسلك؟

الجواب:

صدقت، أمامك طريقتان؛ الأوَّل طريق الحرام، وفي الحرام لمثلك عذابٌ من توبيخ الضَّمير، تعيشين معه في ألمٍ وسهرٍ، وربَّما قارك هذا إلى

(١) ديوث: لم تكن له غيره، ولم يبال بالحشمة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/٢٥٥).



الجنون، أو إلى مرضٍ نفسيٍّ، ثمَّ بعد ذلك عقاب الله في الآخرة، والطَّريق الثَّاني هو الطَّلَاق، وهو - كما قلت - حرمانٌ وحاجةٌ، وتضييعٌ للأولاد، لكنَّ مثلكَ لن تضيِّعَ أولادها، فأنا واثقٌ من أنَّك ستعيشين لهم، والعسر يعقبه يسرٌ، ومن توكلَّ على الله كفاه، ثمَّ إنَّك ستتركين هذا الزَّوج لا لسببٍ إلَّا لمعصية الله، والرَّسول ﷺ وعدَّ، ووعدَه حقٌّ؛ لأنَّه لا ينطق عن الهوى، قال: ﷺ «إنَّك لَنْ تدعَ شيئًا اتَّقاءَ الله إلَّا أعطاك اللهُ خيرًا منه»^(١).

وزوجك - كما وصفته - هجره طاعةً، والبعد منه مكرمةً، فاطلبي الطَّلَاق، علمًا أنَّي أكره كلمة الطَّلَاق، ولا أحبُّها، لكنِّي أخشى أن يقع المحذور، ثمَّ تقعين في الإثم، إنَّ المحكمة ستحكم بالنفقة لك وللأولاد، ولعلَّها تجود فتضيف لك نفقة الحضانة.

أبعدي أولادك يا ابنتي من البيئة الموبوءة، والجوِّ العفن، والمحيط الدَّنس، وأنقذي نفسك من الزَّلَق في الوحل، وربَّ ضارَّةٍ نافعةٌ، وسيأتيك الخير متى تفاءلت بالخير، ولن يخيبَ اللهُ من توكلَّ عليه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].



٢٧- استسلام أم إكراه؟!

سيدي! لم أجد من أثق به لأكاشفه بمصيبتني، ومن أحكي له قصتي كاملةً بدموعي المنصبَّة في ريشة قلمي، لعلِّي أجد اليد الحنونة التي تكتب

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٠٧٣٩).

لي ما أقرأ في سطورهِ الطُّمأنينة برقّةٍ وحنانٍ، ووالله ما كتبت إلا الحقيقة،
فصدّقني فيما كتبت .

تزوَّجت وأنا في الخامسة عشرة من عمري، واليوم أنا أمٌّ لأطفالٍ
ثلاثة؛ وُلد الأوّل بعد عامين من زواجي، وُوُلد الثاني بعده بأربعة أعوامٍ،
وبعده بأربعة أعوامٍ جاء الثالث .

عشت مع زوجٍ مادّيٍّ، بل عبْدٌ للمادّة، يعدّها هدف الحياة، لم أسمع
منه كلمة حبٍّ، أو نظرة مودّة، أو لمسة عطفٍ، ولم أشعر معه يوماً أنّي
صاحبة بيت، والبيت - كما يقولون - مملكة المرأة، وكنا نقيم في نصف
شقّة لنا، والنّصف الآخر لأسرة زوجي وأهله الذين عاملوني خادمةً لهم،
وكنت معهم كالأمّة المملوكة؛ أقضي نهاري كلّهُ في عمل بيتي لزوجي
وأطفالي وفي سخرتهم، والويل لي إن قصّرت في استجابتي لهم، فضلاً
عن ذلك كان الجدار الذي يفصل بين مخدعي ومخدع حماتي لوح
خشبٍ، فكنت إذا تكلمت مع زوجي تكلمت همساً، فعشتُ في عذابٍ
بدنيّ في النهار وسجنٍ نفسيّ في الليل، وكنت راضيةً بنصيبي، فالزّواج -
كما يقولون - قسمةٌ ونصيبٌ .

لكنّ زوجي لم يقدر صبري هذا ولا رضاي، وكان يهينني أمام أمّه
وأبيه وأطفالي، وتحملت ما تحملت من أجل الأطفال، وطلبت إليه أن
نعيش وحدنا ولو في ملحِقٍ؛ لنعرف أننا أسرةٌ، ولكي أشعر أنّي صاحبة
بيتٍ، فكان يرفض؛ لأنّه عاملٌ، ودخله لا يكفي لإيجار سكنٍ، فأعطيته
ما ادّخرت، وبعث ما أملك؛ ليفتح له بقالةً يعمل فيها، لكنّه لم يقدر لي
هذه التّضحية، بل بذّر ما أعطيته، أو ادّخره، لا أدري! واستمرّ في غيّه .

وأخيراً مرض ابني الصّغير مرضاً شديداً أثرَ حصبةً أصيب بها هو



وإخوته، لم أستطع علاجه هنا، فقررت السفر إلى أهلي لعلاج ابني أولاً، ولعل زوجي يعود إلى عقله، فيعلم أنه أبٌ وزوجٌ، وأنني امرأةٌ لي كرامتي بوصفي إنساناً، وحقوقي بوصفي زوجةً وأمًّا، إنني لا أريدُ أن أستبق الأحداث، فالقلم يريد أن يقفز إلى كلمة الألم، سافرت - وليتني لم أسافر - ووصلت إلى بلدي، واستقبلني أهلي كما يستقبل الوالدان ولدهما وأحفادهما، وكان ابني الصَّغير بين الحياة والموت، أدخلته المستشفى فور وصولي، وفي المستشفى تطوَّع لمساعدتي طبيبٌ شابٌ، أبدى لي عطفًا لم أجده حتَّى في أبي، حنَّ على ابني حنانًا يفوق حنان أبيه، ولمَّا نَقَه^(١) الطَّفل أخذتُ والطَّبيبُ الشَّابُّ نطيل الجلوس عنده، فسألني عن أصلي وفصلي وزوجي وحياتي الزوجية ومشكلاتي وأولادي، وقلت له كلَّ شيءٍ، ولم أخف عنه أيَّ شيءٍ، وكنت أجد معه العزاء والسَّلوَى؛ لأنَّني فقيرةٌ عطفٍ وحنانٍ وبائسةٌ، وقد وجدت من يسمعني إذا حكيت، ويواسيني إذا بكيت، ويفهمني إذا شكوت، فبحت له بكلِّ أسراري بلا شعورٍ، ولم أندم؛ لأنني وجدت من أحكي له همومي، وقد بذل كثيرًا من نفسه لرعاية ابني، وعرض عليَّ مرَّةً أن يوصلني بسيَّارته إلى بيت أبي، وأحيانًا كنت أقف له في الطَّريق ليأخذني إلى المستشفى بسيَّارته، وأعلل نفسي بالذهاب إلى المستشفى لزيارة ابني، لكنَّ الحقيقة خلاف ذلك، كان مرادي أن أرى الطَّبيبَ الشَّابَّ وأتحدَّث إليه، وتكرَّرت الزَّيارات حتَّى صارت يوميةً محدَّدة المواقيت، وأخيرًا نال الطَّبيبُ الشَّابُّ منِّي ما يناله الزَّوج من زوجته، بعدها انتبهتُ إلى نفسي وبكيت طويلاً

(١) نَقَه: أفاق، وكان قريب العهد بالمرض لم يرجع إليه كمال صحته وقوته. انظر:

تاج العروس، للزَّبيدي (٥٢٩/٣٦).



ومرضت، فزارني الطَّيِّبُ الشَّابُّ في بيتي ليعالجني، ويكشف علي ولدي المريض، فسترت وجهي عنه، وطلب إليَّ أن أطلق زوجي فأتزوَّجه، وقال: إِنَّه سيعدُّ أولادي كأولاده ويتبنَّاهم، وكاشفني بحبِّه، وأنَّه يحبُّني من كلِّ قلبه، إنِّي خائفةٌ حائرةٌ، لا أدري ماذا أفعل، أُغتصبتُ بالقوَّة، ولا أستطيع أن أكاشف زوجي بما حصل، ولا أجرؤ على طلب الطَّلَاق بلا سببٍ، وقد عدت إلى الكويت نادمةً أصليَّ وأستغفر ربِّي، ومنذ ذلك اليوم وأنا في عذابٍ يلسعني بمياسم^(١) من نارٍ أحسُّ بألمها كلِّما تذكَّرت جريمتي وخيانتني، وقد أستيقظ مرعوبةً من نومي، فينتبه زوجي ويسألني: ما بك؟!!

تحملت كثيرًا منذ ذلك اليوم، وقد مرَّ على الحادث ستَّة أشهرٍ، وإنَّ وزري قصم ظهري، فقدَّر - يا سيِّدي - مدى عذابي وما تحمَّلته؛ لأنني فقدت يومها إرادتي، وكنت كالمغتصبة لا أستطيع دفعًا ولا منعًا، وكالمأخوذة لا حول لي ولا قوَّة، وكالمنومة تنويمًا مغناطيسيًا.

السُّؤال:

هل ما زلت على عصمة زوجي؟ فقد سمعت أن من أخذت بمثل ما أخذتُ به خُلعَت من عصمة زوجها، وهل صرت محرَّمةً عليه، أم إنَّ حياتي الزوجية قائمةٌ؟

الجواب:

إنَّ قصَّتكَ مؤثِّرةٌ، حاولت أن تستدرِّي بها دموع القراء، تماديت في غيِّك حتَّى سلَّمت نفسك للذَّئب، فلمَّا جرحك قلت: إنِّي مغصوبةٌ، إنَّك

(١) الميسم: الحديدية التي يُكوى بها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٥/٣٤).



أنت التي اغتصبتِه، نعم؛ أنت التي اغتصبتِه لا هو المغتصب، جلستِ إليه، وبحث له بأسرارِك الزَّوجِيَّة كُلِّها، ثمَّ ركبت معه بالسيَّارة، ووقفت له في الطَّرِيق، وتماديت في الذَّهاب والإياب معه، ومن يدري؟! لعلَّكَ تعظرت وتجمَّلت، ثمَّ ذهبتِ معه في فسحةٍ ونزهةٍ، حتَّى أطمعتِه في نفسك، ووجد منك لقمةً شهيةً كان في حاجةٍ إليها، وتمنَّعت - ومن طبيعة المرأة أن تتمنَّع - تمنَّع رغبةٍ، ثمَّ تقولين: إنَّه اغتصبني. أقولها مرَّةً أخرى: أنت التي اغتصبتِه.

متى شعرتِ بعيوب زوجك التي حكيتها؟ وهل شعرت بها بعد معرفة الطَّبيب الشَّابِّ، أم قبل ذلك؟ لو شعرت بها من قبل فلماذا بعثتِ مصاغك وأعطيتِه الثَّمَن؟ وهل تجود المرأة بدينارٍ واحدٍ على زوج تكرهه؟! لا أظنُّ ذلك؛ لأنَّ المرأة عاطفيَّةٌ، قد جلستِ إلى الطَّبيب الشَّابِّ، وعرفتِه شابًّا متعلِّمًا، يعرف كيف يتحدَّث، وكلاكما ألقى للثَّاني شباكه، وكلَّما بدت من الطَّبيب حسنةٌ ظهرت لك من ذلك البعيد سيئةٌ، حتَّى غطَّت محاسن هذا محاسن ذاك، ومتى سُترت المحاسن بدت المساوي.

إنِّي قرأت كتابك مرَّاتٍ فلم أر اغتصابًا، إنَّما هو استسلامٌ؛ لذلك توبني إلى الله توبةً نصوحًا، وابذلي من نفسك لزوجك، واجعلي حياتك سكنًا وشركةً له، وابذلي من إخلاصك لبيتك وأولادك، «فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ثمَّ تاب إلى الله تاب الله عليه»^(١).



(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٤٧٥٠)، ومسلم، رقم: (٢٧٧٠).

٢٨ - قال: إنَّ ضميرَهُ استيقظ!

سيدي! لقد آمنت أنَّ عذاب الضَّمير أشدُّ العذاب، وأنَّ ليله طويلٌ مؤلِّمٌ، ونهاره مظلمٌ، وعرفت أخيراً بعد أن استيقظ ضميري قول الرسول ﷺ: «عليكم بالقناعة، فإنَّ القناعةَ ما لا ينفدُ»^(١)، والجشع هاويةٌ لا قرارَ لها، والطَّماع على شفا جرفٍ هارٍ من هذه الهاوية، لا يلبث أن ينهار به فيها إلى عذابين؛ ذلٌّ في الدُّنيا بين النَّاس، وعذابٌ في الآخرة في السَّعير وبئس المصير، والمشكلة - يا سيدي - أنني أخطأت بحقِّ أسيرٍ فقيرةٍ، وبحقِّ أرباب هذه الأسر المعدمين، ولا أدري كيف أصلح خطي.

أنا أملك عمارةً ذات ستِّ عشرة شقَّة، تسكنها ستُّ عشرة أسرةٍ بإيجاراتٍ بسيطةٍ بالنسبة إلى وقتنا هذا الذي ارتفعت الإيجارات فيه إلى أربعة أضعافٍ أو خمسةٍ، كنت أنظر بعين الجشع والطَّمع إلى من يسكن هذه العمارة، ولم أنظر يوماً بعين الرِّحمة إلى حالة الأغلبية منهم؛ إلى طفلٍ بثوبٍ مهلهلٍ ممزَّقٍ لا يستر عورةً ولا يقي من بردٍ، وعاملٍ يوميٍّ يعيل أكثر ممَّا يكفيه دخله، وأرملةٌ أمٌّ أيتامٍ تعمل خادمةً؛ لتعيل أطفالها وتنفق على غذائهم ودراساتهم، إنَّما كنت أنظر إلى شيءٍ واحدٍ؛ كيف أستطيع أن أزيد في دخل العمارة، وأكسب كما يكسب غيري من ذوي العمارات الجديدة، طلبت زيادةً على الأجرة، فردَّ بعضهم باللَّين، وبعضهم الآخر بالشُّدة؛ لأنَّ القانون معهم، فلم ألثفت إلى القانون، بل

(١) رواه الطَّبْرانِيُّ في المعجم الأوسط، رقم (٦٩٢٢).



رفعت دعوى ضدَّهم أطلب الزيادة على الأجرة أو الإخلاء، لكنَّ المحكمة رفضت طلبي، وفكَّرت وفكَّرت طويلاً؛ كيف أنتقم لطمعي من هؤلاء؟! لم أفكر بمكرمةٍ أو حسنةٍ أو رحمةٍ، وأخيراً تفتَّق تفكيري عن هذه الفكرة التي رقصت لها طويلاً، ثمَّ بدأت بتنفيذها فوراً، لعلَّك تظنُّ أنني في حاجةٍ إلى تلك الزيادة التي أطلبها من المستأجرين، لا والله؛ فأنا موظَّف حكوميٍّ في الدَّرَجَة الثَّالِثَة، وعندي رصيدٌ كبيرٌ لم أوُدِّ زكاته منذ بلغ النَّصاب، وأظنُّ أنَّ ذلك كان قبل عشر سنين، ولم أَدفع من زمنٍ طويلٍ مسؤوليَّتي الحياتيَّة؛ أي: فطرة رمضان أو زكاة الفطر.

اشترت من صيدليَّةٍ قريبةٍ شاشاً طبيّاً، ربطت به رأسي وإحدى يدي وإحدى رجلي، وجئت لحارس العمارة، فلمَّا رأني دهش، وقال: سلامتك! قلت له: لقد نجوت من الموت في حادثٍ تصادمٍ والحمد لله، والنَّعمة تحتاج إلى شكرٍ، فأبلغ السُّكَّان بإعفائهم عن أشهرٍ ثلاثة، أي: بإسقاط أجرة ثلاثة أشهرٍ مجاناً لهم، فشكروا لي هذه المنحة وهنَّؤوني بالسلامة، ودعوا لي بالخير والبركة، وبعد ذلك قلت لهم: سأدخل المستشفى للرَّاحة وعمل فحوصٍ، ولكي يصدِّقوا ويطمئنُّوا، جئتهم بعد شهرٍ بعشرة خرافٍ ذبحتها ووزَّعت عليهم لحمها، محاولاً في كلِّ ما قلته وفعلته أن يبدو الأمر حقيقياً؛ حتَّى تنظلي الحيلة عليهم، وصدَّق المساكين كذبتني، ومضت من الشَّهر الرَّابِع أيَّامٌ، وكان السُّكَّان مطمئنِّين أنَّهم لن يطالبوا بالأجرة عن الماضي، وإذا بهم يفاجئون برفع دعوى ضدَّهم مني للإخلاء؛ لأنَّهم اتَّفَقوا ضديَّ على عدم دفع الأجر مدَّة ثلاثة أشهرٍ كاملةٍ، فحكمت المحكمة بإخلاء العمارة كلِّها خلال عشرة أيَّام، ولم تنفع معي توسُّلاتٌ ولا دموعٌ ولا رجاءٌ، أخذتهم بالشَّدَّة؛ شدة التَّنفيذ، ورفضت كلَّ ما قالوه بالتَّصام^(١) والسُّكوت، وقلتُ لنفسي: نعم؛ إنَّها



فرصةً، فاغتنمها يا طمّاع. وأخلّيت العمارة في عشرة أيّام بعد صدور الحكم لصالحِي، وكنت ساعة الإخلاء واقفًا، وسمعت سبّابًا وشتيمَةً ودعواتٍ عليّ، لا سيّما دعوات أمّ الأيتام، وأجّرتُ العمارة بخمسة أضعاف ما كانت عليه مسبقًا، وانتهت القضية منذ ثلاثة أشهر؛ أي: منذ نحو مئة يوم، ولكنّي لم أكن أعرف أنّ هناك توبيخًا داخليًا يسمّونه الضّمير، إنّ هذا الضّمير سيحيل حياتي جحيمًا، وإنّني أعيش منذ شهرٍ كما يقال: لا ليلي ليلٌ، ولا نهاري نهارٌ، لم أكن أظنُّ أنّ حساب الضّمير قاسٍ، فأين كنت يا ضميرٌ قبل تنفيذ المؤامرة؟

سيّدي! كلّما أغمضت عينيّ في ليلٍ أو نهارٍ أتذكّر أولئك المساكين وهم يسحبون أمتعتهم، ويمسكون بأيدي صغارهم في ذلّة ما بعدها ذلّة، وهم ينظرون إليّ - والدموع في أعينهم - نظرة الذلّة والعداء، وكأنّي في هدأة الليل أسمع أصواتهم يدعون عليّ، هكذا يُخيّل إليّ، وأخشى أن أجنّ، يا ليتني كنت في حاجةٍ إلى مثل هذه الزيادة في الإيجار؛ لكنّها قسوة الشّح، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، كيف أغفر لنفسي ما جنت وأجرت في حقّ أولئك المساكين دون رحمةٍ في هذه الأيّام القاسية أو أيّام المسغبة^(١)؟! كيف أغفر حيرة الآباء، وحزن الأمّهات، ودموع الأطفال، وعذاب الأسر في تشريدّها؟! الآن أريد أن أكفّر عن ذنبي، وأنام بلا عذابٍ، أريد نومةً هادئةً بلا مخدّرٍ، إنّي أعيش على هذا الأمل.

(١) تصام: أرى من نفسه أنّه أصمّ، وليس به صمم. انظر: معجم الوسيط، لمجمع اللغة العربيّة بالقاهرة (١/٥٢٤).

(٢) المسغبة: المجاعة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/٦١).



السؤال:

بالله عليك طمئن قلبي، هل أستطيع إصلاح خطي والتكفير عن ذنبي؟

الجواب:

وماذا فعلت يا هذا؟! إنه تدبيرٌ فوق وساوس الشيطان، إنك تُدانُ بجرائمٍ عدّة:

- ١- كذبت على نفسك، فادّعت المرض، وأنت بريءٌ.
- ٢- وكذبت على ربك، فتصدّقت بنية الشرِّ.
- ٣- وكذبت على سگان عمارتك، فأوهمتهم وغششتهم.
- ٤- وأجرت بحق القانون، فضللت القاضي حتى حكم بغير حقِّ.
- ٥- وأجرت بحق المجتمع، فأشعت الفساد بما فعلت.
- ٦- وأجرت بحق ستّ عشرة أسرة؛ شتت شملها.

وبعد هذه الجرائم كلّها وغيرها جئت تستغفر ربك، عسى أن يكون ضميرك قد استيقظ حقًا، وألا تكون هذه تمثيلية تريد مني نشرها في صحيفة «من غريب ما سألوني». لقد سمعت منذ أيامٍ مثل هذه القضية في المحكمة، لكنّ المحكمة اكتشفت تدبير مالك العمارة ورفضت دعواه، أخيرًا أقول لك: إنك تستطيع أن تغفر لنفسك، وتقدر على إصلاح أخطائك، وتكفير ذنبك بفعل ما يأتي:

أولاً:

إرضاء العوائل التي شرّدتها، فإنك لا تملك إرجاعهم إلى مساكنهم التي أخرجتهم منها؛ بسبب تأجيرك الآخرين، لكنك تستطيع شراء

خواطرهم وإرضاءهم بحيث تجعلهم يستغفرون ربهم لك .

ثانياً :

إرضاء القانون الذي غششته بإعلانٍ في إحدى الصحف، فتنشر أنك أجمت جريمةً ضدَّ القانون، وأنتك تستغفر المجتمع الذي كذبت على نظامه، وتنصح به بالابتعاد من الكذب على القاضي، وأنَّ الحياة الهادئة الهانئة لا تسود في مجتمع لا يسوده النُّظام، ومتى فعلت ذلك ارتاح بالك، وبتَّ ليلك هادئًا هانئًا بلا مخدِّرٍ، والله مع من لجأ إليه .



٢٩ - الدُّنيا ما زالت بخير

قرأت لك كثيرًا، وسمعتك تعيب على زوجات الآباء سوء معاملتهنَّ أولاد أزواجهنَّ، وتذكر للأزواج منقصة الضَّعف تجاه زوجاتهم في قسوتهنَّ على هؤلاء الضَّعاف، وقرأت لك ولغيرك حكاياتٍ محزنة تشوّه خلق زوجة الأب في سلطتها وحقدتها على أولاد زوجها، وكيدها لهم وبهم، ولعلَّ ما قيل ويقال في هذه الحكايات أو مثلها صحيح، لكنني أحبُّ أن أحكي لك قصة زوجة أب ذات طابعٍ مختلفٍ تمامًا، مصداقًا للمثل الدارج القائل: أصابعك ما هي سواء؛ لأنَّ الأصابع في اليد الواحدة تختلف شكلاً وحجمًا، تلك - يا سيدي - هي قصتي، وأنا بطلتها، والتي سأقصُّها عليك كما وقعت، بلا رتوش^(١)، فقد وعيتُ

(١) رتوش: لمسات أخيرة. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ٨٥٥)، وكثيرًا ما تُستخدم مجازًا؛ تعبيرًا للإضافات والمبالغات .



الحياة وأنا بنت خبّازة في قرية من قرى البصرة الجنوبيّة، لا أعرف لي أباً ولا أحداً في الدنيا كلّها سوى أمّي التي كانت خبّازة، تعجن وتخبز وتبيع الخبز للناس صباحاً ومساءً كلّ يوم، ولم تفكّر في الزّواج، وقد كانت شابّة؛ لأنّها قرّرت أن تعيش لي، وتحمّل المسؤوليّة كلّها من أجلي، وفي سنة (١٩٤٠م) جاء قرينتنا رجلٌ من الخليج العربيّ قال للنّاس: إنّه اشترى في القرية بستاناً فيه مسكنٌ جميلٌ، واستوطن هذه الدّار هو وزوجته العليّة وبناته، وإنّه ذو حظّ من اليسار، وذو سماحةٍ وكرمٍ.

وذات صباحٍ جاء ليشتري خبزاً منّا، فرآني مع أمّي عند الثّنور أساعدها في بيع الخبز وقبض ثمنه، فنظر إليّ طويلاً، ثمّ سألني: من أنت يا بنت؟ فالتفتُ إلى أمّي وأشرت إليها قائلةً: بنت هذه. قال: ما اسمك؟ قلت: نعمة. قال: زادك الله نعمةً، ثمّ التفت إلى أمّي قائلاً لها: هل تسمحين يا أمّ نعمة لنعمة أن تأتينا بالخبز صباح كلّ يوم، فاليّت قريبٌ منكم؟ قالت: لا مانع. فقال: إذن من الغد تأتينا نعمة به إن شاء الله. فكنت أحضّر لهم الخبز كلّ يوم، وأوصله إليهم، فيدفع الثّمن أو أكثر منه، واستمرّت الحال حتّى نهاية الصّيف.

كانت زوجته مريضةً كما قلت، وكانت كبرى بنتيه في التّاسعة وصغراهما في الخامسة، واتّخذ له من القرية خادمتين: للمطبخ وللمسكن، وكنت في بعض الأحيان أزور بنتيه في الأمسيات لألاعبهما، كنت مواظبةً على إحضار الخبز كلّ صباح بلا انقطاع حتّى انتهى الصّيف، وسافر الرّجل مع أهله إلى بلده، وفي الشّتاء جاء ليجري إصلاحاتٍ في المسكن، وكالعادة طلب إلى أمّي أن أحمل إليه الخبز صباح كلّ يوم، فرفضت أمّي، قال: ولم؟! قالت: لأنك عازبٌ، وأنت شابٌ، وبيتك

خالٍ إِلَّا مِنْكَ، وَأَخَافُ أَنْ يَحْضُرَ الشَّيْطَانُ مَعَكُمْ، فَابْتَسَمَ الرَّجُلُ
وَسَكَتَ، وَكَانَتْ أُمِّي تَحْمِلُ إِلَيْهِ الْخَبْزَ، وَأَحْيَانًا تَبْعَثُ بِهِ مَعَ أَبْنَاءِ
الْجِيرَانِ، وَجَاءَ الصَّيْفُ الثَّانِي، وَقَدْ جَاوَزَتِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِي،
وَكَانَ الَّذِي يِرَانِي يَظُنُّنِي بِنْتِ ثَمَانِيَةِ عَشْرَةَ، كُنْتُ جَمِيلَةً بِكُلِّ مَا فِي الْكَلِمَةِ
مِنْ مَعْنَى، وَكَانَ جَسْمِي مُتَنَاسِقًا فِي كُلِّ أَعْضَائِهِ، مَا زَادَ فِي جَمَالِي،
وَجَاءَ الرَّجُلُ يَصْطَافُ عَامًّا آخَرَ مَعَ بِنْتِيهِ فَقَطُّ؛ لِأَنَّ زَوْجَتَهُ مَاتَتْ،
وَاسْتَدْعَى الْخَادِمَتَيْنِ لِتَعْمَلَا فِي الْبَيْتِ، وَجَاءَ الرَّجُلُ لِلْمَخْبِزِ يَسْتَأْذِنُ أُمَّي
أَنْ يَزُورَهَا فِي الْبَيْتِ، فَرَحَّبَتْ بِهِ قَائِلَةً لَهُ: أَهْلًا بِكَ فِي بَيْتِكَ. وَقَالَ لِأُمِّي
وَأَنَا أَسْمَعُ: مَنْ أَبُو نِعْمَةٍ؟ قَالَتْ: وَمَاذَا يَهْمُكَ مِنْ أَبِيهَا؟ إِنَّهَا بِنْتُ الْخَبَّازَةِ
أُمُّ نِعْمَةٍ.

قال: ولكنني أودُّ أن أطلب يدها منك، فهل تزوجيني إياها؟

قالت: لا يمنعني مانعٌ إذا رغبت فيها، ولن أجد خيراً منك شباباً
وغنىً وسخاءً.

قال: ولكن من يتولَّى العقد؟

قالت: وليُّ اليتيمة القاضي.

سألها: كم تطلِّبين صداقاً لنعمة؟

قالت أمِّي: يكفيني اسمك، وخلقك، وسخاؤك.

وخطبني، وفي اليوم ذاته عقد القران، وبعد يومين دخلت عليه،
تزوَّجني الرَّجُلُ فِي حَزِيرَانَ سَنَةِ (١٩٤١م)، وَقَدْ بَلَغَتْ بِنْتَهُ الْكِبْرَى
الْعَاشِرَةَ، وَالصُّغْرَى السَّادِسَةَ، وَجَدْتُ نَفْسِي زَوْجَةً، لَكِنِّي لَسْتُ رَبَّةَ بَيْتٍ،
إِنَّ رَبَّةَ الْبَيْتِ هِيَ أُمِّي الَّتِي تَرَكْتُ الْمَخْبِزَ حَسَبَ رَغْبَةِ زَوْجِي، وَأَصْبَحْتُ



المشرفة والآنسة الناهية في بيته، وبدأنا نعيش في جو لا أدري كيف أصفه! فيه الألفة والمحبة والصفاء، كان زوجي الأب والأخ والصديق، ليس لي وحدي؛ بل لي ولبنتيه، كنت في الفراش زوجةً، لكنني في غيره كبرى بناته الثلاث، وكان يحاول جهده أن يجعل من ثلاثتنا أخوات، ومن أمي أمًا لنا كلنا، وكان من لطفه أن يأمرني ويأمر بناته أن نناديها بكلمة «حبّابة»، ومعناها في اللغة العراقية الدارجة: الأمّ الكبيرة. وكانت تشعرنا بمعاملتها لثلاثتنا أنّها في الحقيقة حبّابة، وتعطينا من نفسها معنى الحبّ، وشاء الرحمن أن يهب لنا طفلًا ذكرًا في السنة الثالثة من زواجنا: فقد ولد ابننا هذا في صيف سنة (١٩٤٤م)، وصدّقني يا عمّ؛ إنّ فرح البنّتين بأخيها كان أكثر من فرحي وفرح أمي؛ لأنّهما لم تشعرنا مرّة أنّني زوجة أب، ولا شعرتا أنّهما بنتا زوج، كنّا نشترك في كلّ شيء، ونتبادل الرأي في كلّ موضوع، ونخرج سوياً، ونقرأ سوياً، ونلعب سوياً، أحببتهما وصدقت في حبّهما، وبادلتاني الحبّ مثله، وعشنا حياةً خاليةً من الضغائن والحقد والكراهية، وتزوّجت البنّتان، ولم تبعدا مني، فنحن ما زلنا أحباباً نعيش في نعمة الله التي أرادها لعباده؛ نعمة الألفة والصفاء، وكبر ابني الوحيد وتزوّج، وما زال أحّالي ولأختيه، نحن الآن في سنة (١٩٧٧م)، مضى على زواجي ستّ وثلاثون سنةً، تجاوز زوجي السّتين من عمره، وقد شاب شعره، لكنّه ما يزال شاباً في لطفه مع الجميع، طلق المحيّاً، عريض الابتسامة، سخّي اليد، صديقاً لأولاده، عطوفاً على أحفاده، يابى أن ينادوه إلّا بكلمة «بابا»، وأمّي ما زالت حيّةً، وهي الآن في السّبعين من عمرها، وما زالت ربّة البيت الآنسة الناهية، وزوجي يحترمها، وتسمع منه حين يناديها كلمة (عمّتي)، وأصبح ابني أباً لبنين وبنات هم الحور والولدان في جنّتنا الغنّاء، كنت أخاف

العين العائنة، لكنني عندما سمعتك تنكرها آمنت بأن الإيمان حارسٌ، فكلُّنا مؤمنون، وبما أوجبه علينا الإسلام - إن شاء الله - قائلون، ولَمَّا عشنا صفاءً ووفاءً وحبًّا في الله كان من الصَّعب أن يستطيع حاسدٌ أن يهدم ثلاثة جدرانٍ بناها الإله جلَّ شأنه بتوفيقه لنا.

سيدي! أحببت في رسالتي هذه أن تعلم أنه ما زال في النَّاس طائفةٌ تحبُّ الخير، وتسعى إليه، وتفرح بفعله، ويصدق فيها المثل القائل: لو خلت لخربت.

إنني زوجة أب، وأمِّي هي أمِّي، لكن صدق أنها لم تهن بنتي زوجي، ولا اغتابتهما، ولا فضلتني يومًا عليهما، وفي عيدٍ من أعياد الأمِّ كتبتا لإحدى المجلَّات تطلبان لأمِّي جائزة الأمِّ المثاليَّة، وهذا دليلٌ على أنَّهما كانتا راضيتين في البيت الذي تعيشان فيه، علمًا أنَّهما كانتا تهديانها في كلِّ عيدٍ أمَّ هديَّةٍ سخيةٍ ذات رمز كبيرٍ يُشعر أمِّي بحبِّهما إيَّاهما. إننا نعيش - والحمد لله - في ظلِّ قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾

[الأنفال: ٦٣].

وقبل أن أختتم قصَّتي أحبُّ أن أذكر أنني خلال السَّنوات العشر الأولى من حياتي الزوجية أكملت تعليمي في المرحلتين المتوسَّطة والثانوية، ثمَّ بدأت مع زوجي في الدِّراسة الجامعية حتَّى نلنا شهادتها، وخلال تلك المدة كنت أتعلَّم وأعلِّم أختي في البيت، فكنت معلِّمةً في الوقت نفسه الذي كنت فيه طالبةً.

كتبت هذا ليعلم قرَّاء مجلة اليقظة أنَّ الإنسانيَّة لا تخلو من خيرٍ، وأنَّ الإنسان الذي يريد أن يعيش إنسانًا كما خلقه الله يستطيع أن يصل إلى الإنسانيَّة.



السؤال:

هل يصدق الناس أن الدنيا ما زالت بخير؟!

الجواب:

في تعليقي على القصة أقول:

سلامة الرأس سلامة للأعضاء جميعها، وصدقت نعمة فيما كتبت، فكثير من زوجات الأب استمعوا لقول الله ﷻ: ﴿وَأَعْلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] وفعلنه، وقد عرفت زوجات أب كثيرات عشن مؤلفات لا مفرقات، ومحسنات لا مسيئات، وجامعات لا مشتتات، وطيبات لا خبيثات، بكاهن أولاد الأزواج أكثر ممَّا بكاهن الأولاد، أذكر في البصرة امرأة حنت على أولاد زوجها بعد موت أمهم، وعوضتهم حناناً بحنان، وعطفًا بعطف، ورعايةً برعاية، وأذكر في الكويت كثيرات، وليس من عادتي أن أذكر الأسماء، ولكن أقول كما قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:

٥٦].

وأخيرًا أكرّر الكلمة التي بدأت بها تعليقي: فالرأس هو رب البيت، متى كان حازمًا في رعاية، شديدًا في رحمة، مهذبًا في أمر كان أعضاء البيت كلهم في وفاق، وزوج نعمة هو الأساس في الرابطة التي حزمت هذه الأسرة، وجعلتها متآلفة في محبة، يتعهد هذا التألف الرأس المدبر.

وختامًا أسأل الله أن يصلح الرؤوس المسؤولة كلها.



٣٠- خطبتُ لنفسي

اعتاد المجتمع أن يكتب إليك، ولم تقصّر في الإجابة، ولا أهملت جواباً عن سؤالٍ، وقرأت لك كثيراً ممّا تكتب، لا سيّما في صحيفة الغرائب التي يسألك أهلها في مجلّة اليقظة، ولقد تابعت الحلقات التي كتبتها في هذه الصّحيفة كلّها لما فيها من عبرٍ وذكرى ونصيحة.

أكتب إليك هذا ولا أدري لماذا، فليس عندي سؤالٌ أطرحه أو أرجو جوابه، ومع ذلك أراني أكتب، ولعليّ أجتزّ ممّا أكتب ذكرياتٍ عزيزةً عليّ، قد تجدُ فيها غريباً تكتبه للمجتمع، ولا تظنّ أنّها قصّة خيالٍ، إنّما هي الحقيقة، هاجرنا لهذا البلد أنا وزوجي سنة (١٩٤٨م)، وكنا قبل ذلك نساكن قريةً صغيرةً جدّاً تابعةً لمقاطعة البريميّ، كنت وحيدةً أبويّ، وفي السّابعة من عمري عقد أبي قراني على قريبٍ له يتيم عاش معنا؛ ليسهل دخوله على أمّي بصفتها أمّ زوجته، ومات أبي وأنا في الثّامنة، وماتت أمّي بعد أبي بخمس سنين.

لم نعرف هناء العيش بعد أبويننا، وممّا زاد الطّين بلّةً أنّنا عشنا سنتي جفافٍ وقحطٍ، هاجر فيها أهل البلد، ولم يبق أحدٌ سوانا؛ أنا وزوجي، فقرّرنا أن نترك الوطن كلّهُ إلى مكانٍ لا نُعرف فيه، وهاجرنا سيراً على القدم، حتّى وصلنا بلداً نسيّت اسمها، تقع على السّاحل، ومنها ركبنا متن سفينةٍ قال صاحبها: إنّنا نقصد الكويت، ووصلنا الكويت، وكنت في السّابعة عشرة من عمري، وكان زوجي يكبرني بعشر سنواتٍ، وكان دمث الأخلاق، ليّن الجانب، إذا عمل أخلص، وقد عمل مع البنّائين، فأحبّه



أستاذة، وخلال شهرين أصبح خليفةً للأستاذ من الدرجة الأولى، وقد يخلف الأستاذ إذا غاب، وفي سنة (١٩٥٣م) حصلنا خيرًا كثيرًا، واشترينا دارًا صغيرةً للسكن، سجّلها زوجي باسمي، ولا أدري لماذا!

وفي الربيع، في يومٍ ليس فيه عملٌ خرج زوجي مع رفاقٍ له في رحلةٍ بحريّةٍ، وقد نهيته فلم ينته، وقال: إنّها رحلة العمر التي لم أعرفها من قبل. وكان يستعدُّ لها ويستحضر ما سيحكيه من نكاتٍ لأصحابه، وفي الصّباح خرج، ولم يعد، فقد انقلب الزّورق الذي ذهب به مع رفاقه، فكان غذاءً للحيتان، بحث عنه أصحابه فلم يجدوه، كانت تركته بضع مئاتٍ من الرُّوبيّات، وهي يومئذٍ مبلغٌ كبيرٌ، وكانت لي؛ لأنّي زوجته ومن أرحامه، لم أرض بالخمول والجمود، فبعد انتهاء العدة بحثت عن عملٍ شريفٍ أكسب منه رزقي، لم أرض لنفسي أن أكون خادمةً في بيتٍ أذلُّ به، والخمول قد يجرّني إلى الانحراف، أردت أن أتعب نهاري لأنام في ليلي، أريد عملاً يسترني، فجرّبت خياطة الثياب والتّطريز، فنحطت ونجححت وطرّزت ونجححت، وصرت خياطةً يشار إليها، وتذكرها الرّاغبات في الخياطة، فأقبل النساء عليّ أخيط لهنّ بأجرٍ لا بأس به، منذ وفاة زوجي حاولت أن أجد من تشاركني السّكن في بيتي فلم أجد تلك التي أرضاها، ومرّت سنتان على وفاة زوجي الذي لم يترك لي صورةً شخصيّةً أتسلّى بها.

وكنا من قبل نستعمل الآبار نستخرج منها الماء الذي يستهلك في غير الشّرب، وذات يومٍ سقطت لي عنزٌ في بئر البيت، وفي الوقت نفسه سمعت صوتَ من ينادي على نفسه: قلب يخم، وهي وظيفةٌ يعمل بها جماعة مختصّون، فناديته وسمع صوت العنز، فبادر إلى البئر وخلع ثيابه

مسرّعًا ونزل وقال: أمسكي الرشاء^(١).

لقد رأيتُ شابًّا جمع معاني الرجولة كلّها، صبيح^(٢) الوجه، طويل القامة، عريض المنكبين، خشنًا، غضيض الطرف، فاشتتهته زوجًا لي، فكّرت في هذا وأنا ممسكةٌ بالرشاء، وأستغفر الله أن أكون حدثت نفسي بسوءٍ يغضبه، لكنني وحيدةٌ في بلدٍ أنا فيه عربيّةٌ منقطعةٌ إلا من رحمة الله.

وبعد أن أخرج العنز سليمةً سألته عن بلده، فقال: من عمان. من بلدٍ سمّاها قريبةً من بلدي، وقال: إنّه جاء لكسب قوته، وإنّ سبب مجيئه فقد أسرته بوباءٍ حلّ في بلده، وإنّه خرج من غير قصدٍ حتّى وصل إلى هذا البلد الطّيب بلا قصدٍ أيضًا.

قلت: وهل لك من زوجةٍ؟ قال: ومن أين لي ذلك! فقلت: أنا بنت بلدك - وسمّيت قريتي - فهل ترضى بي زوجةً؟ قال: خير البرّ عاجله.

قلت: هيّا بنا إلى القاضي لنعقد القران، وخذ هذه خمسين رويّةً أصدقني بها. وأحضرت اثنين من الجيران يعرفانني، وزوّجني القاضي منه، لقد خرجنا غريبين، ورجعنا للبيت زوجين.

كنت يومها في الرّابعة والعشرين من عمري، وهو دون الثلاثين، وبعد أن أصبحنا قلت له: إنّ مهنة تنظيف البئر لا تأتي بخيرٍ، وقد أصبحت ربّ بيتٍ، فهل تعرف الأستاذ فلان؟ - أقصد أستاذ زوجي الأوّل - اذهب إليه، وقل له: إنّني قريب عاملك فلان - زوجي الأوّل - وقد علمت أنّك تحبّه وتودّه، وستجد فيّ ما يرضيك إن شاء الله، وستجدني أقوى وأنشط، وكن عند حسن ظنّي بك. ورحب الأستاذ به، ونشط معه، وسرّ منه.

(١) الرشاء: الحبل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥٤/٣٨).

(٢) الصّبيح: وضيء الوجه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥٢٢/٦).



ومرّت الأيام، وفي مساء يوم جاء زوجي يبشّرني بأنّه أصبح أستاذًا ثانيًا، نسيت أن أذكر أنّ بعد وفاة زوجي أشارت عليّ إحدى جاراتي أن ألتحق معها بالتّعليم اللّيليّ، وقد تعلّمت مع الخياطة القراءة والكتابة، وهذا ما نفعتني وفتح عليّ بصيرتي، وقد أشرت عليّ زوجي أن يتعلّم.

الآن نحن في منتصف سنة (١٩٧٧م)، وقد مضى عليّ زواجنا أكثر من (٢٢) سنةً، اكتسبنا فيها الجنسيّة الكويتيّة، ورزقنا فيها الذرّيّة، واتّسع بيتنا، وكثر خيرنا.

السؤال:

قد تقول: لم كتبت هذا الكتاب وأطّلت القصّة؟ أقول لك: ما رأيك بمن تخطب لنفسها؟

الجواب:

أطّلت الحكاية، وكان الواجب أن تقتصرني على السّؤال فقط، لكنّي سأضيف القصّة إلى كتاب من غريب ما سألوني.

حدّثنا التّاريخ عن كثيراتٍ من نساء العرب خطبن لأنفسهنّ، وأشهر من ذكرهنّ التّاريخ وأفضلهنّ خديجة بنت خويلد؛ أمّ المؤمنين، وزوجة سيّد المرسلين، خطبته لنفسها قبل أن يكون نبيًّا.

وسمعنا عن كثيرٍ من الآباء خطبوا الرّجال لبناتهم، وليس في ذلك عيبٌ، وأنت لم تفعلي إلاّ الخير، وقد خطبت لنفسك ابن بلدك، ومن أحسنت الظنّ به، فكان عند حسن ظنّك، لا سيّما أنّه ابن بلدك.

والمثل الكويتيّ يقول: حلاوة الثوب رقعته منه وفيه.



٣١- لا يَتَمِيَّةٌ وَلَا لَقِيْطَةٌ

هذه ليست رسالةً، لكنّها حديثٌ من صديقٍ لي عربيٍّ مسلمٍ يسكن في كوالالمبور؛ عاصمة الاتحاد الماليزيِّ، ويحمل شهادتٍ علميّةً عدّة من بلادٍ عربيّةٍ، هو أبو المبارك، وهو محبّبٌ إلى نفسي، قريبٌ إلى قلبي؛ لثقافته وخفّة دمه.

قال لي صديقي أبو المبارك: دخلت زوجتي المستشفى حين أخذها المخاض بولدنا الثالث، وحمدنا الله على سلامتها وسلامة المولودة التي سمّيناها زينب.

وبينما نحن نستعدُّ لمغادرة المستشفى في يومها الخامس دخل علينا الطّبيب فجأةً وبلا استئذانٍ وهو في حالةٍ فزعٍ بوجهٍ عابسٍ وذهولٍ، يقول لي: أدركنا أبا المبارك أدركنا بالله عليك.

كان منظره مفرغاً، ولم أدر ما السّبب! فسارعت إليه أقول له: ماذا حصل؟! خيرٌ إن شاء الله. قال: في الغرفة المقابلة زوجان صينيّان وثنِيّان رزقا طفلةً جميلةً، ولمّا كان في ظهر الطّفلة بقعةٌ سوداء تخالف لون جلدّها عزما على قتلها الآن. قلت: ولم؟ قال: لأنّ الكاهن أخبرهما أنّ المرأة ستلد طفلةً، فإن كان في ظهر هذه الطّفلة ما يخالف لون جلدّها من شامةٍ أو علامةٍ فإنّها ستكون شؤمًا على حياتهما ورزقهما، فيجب عليهما دفعًا لهذا الشُّوم أن يتخلّصا منها. وهما يريدان قتلها الآن، وقد قلتُ لهما: يمكنكما التخلّص منها بلا قتلٍ.

فنظرا إلى بعضهما، وقالوا: كيف؟ قلت: أخذها بنتًا لي. ورضيا



بذلك، لكن زوجتي أبت عليّ تبنيها مدعيةً أننا لسنا بحاجةٍ إلى زيادة حملٍ، فعندنا من الأطفال ما يكفيننا. ثمّ قال الطّبيب: وأنت تعلم أنّ هؤلاء الوثنيين يؤمنون بالخرافات ويصدّقون الكهنة، ولا يؤمنون بالقضاء والقدر، لهذا أسألك بالله أن تفعل الخير - وأنت من أهله - وتحبي نفسك لله تعالى وتنقذها من الموت أوّلاً، ومن الكفر ثانياً، وأنت الرّجل الطّيب الذي لا تريد على فعل المعروف جزاءً ولا شكوراً إلاّ من الله ربّك، وهذه الطّفلة بريئةٌ مسكينةٌ لم تجنّ ذنباً، ولم ترتكب إثماً، وهكذا خلقت.

قال أبو المبارك: كفى إقناعاً أيّها الطّبيب، فقد فعلت الخير، وأرشدت إليه، وجزاك الله خيراً؛ «إنّ الدّالّ على الخير كفاعله»^(١)، هاتها ومرحباً بها ابنةً لي، ولكن لن أخذها إلاّ باستلام رسميٍّ من وزارة الدّاخليّة من دائرة تعداد النفوس بالإجراءات المعتادة في مثل هذه الحالات. قال الطّبيب: وهذا كان شرطي حين نويت أخذها منهما.

واستلمت البنت استلاماً رسمياً مصدّقاً من جميع الجهات التي ثبتت مثل هذه الحالة، وسمّيناها سلمى، وكان قد مرّ على ولادتها حين استلامها ساعتان، وبدأت أعالج البقعة السوداء في ظهر البنت حتّى زالت خلال شهرها الأوّل دون أن يبقى لها أثرٌ أو ما يدلُّ على أثرٍ، والبنت ما تزال عندي وهي هذه. وأشار إليها، كانت في الثامنة عشر من عمرها، وفي السنّة الأولى في الجامعة.

البنت لا تعرف عن أصلها شيئاً، تعرف أنّي أبوها وزوجتي أمّها، ولدتها كما ولدت إخوتها؛ أبنائي وبناتي، والنّاس لا يعرفون شيئاً عن

(١) رواه الترمذيّ، رقم: (٢٦٧٠)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

ذلك إلا أن زوجتي في تلك السنة ولدت توءماً، لكن أقربائي وإخوتي وابني الكبير يعرفون الحقيقة.

وسجلتها في قسم النفوس حين استلمتها من والديها على أنها بنت عبد الله بن أبي المبارك، علماً أنه ليس لي ابن بهذا الاسم، وأن البكر من أولادي يكبرها بخمس سنين، وابن خمس لا يلد.

هذه قصة صديقي أبي المبارك، قصتها علي بعد سؤالي له عن مخالفة ملامح البنت لأولاده الكبار والصغار؛ لأن وجودها في بيته بين أولاده يلفت نظر الرائي إلى أنها غريبة عنهم.

السؤال:

سألني أبو المبارك هذه الأسئلة الأربعة:

س ١- هل علي من كتماني عنها أصلها وفصلها إثم؟

س ٢- هل تعد في وضعها الحاضر في بيتي وبين أولادي يتيمة أم كتيمة؟ لقيطة أم كلقطة؟!

س ٣- هل تكشف سرها إذا تزوجت؟

س ٤- هل أبقى بوصفي جداً لها دون أن يكون نسباً صحيحاً؟!

قلت لأبي المبارك: قبل أن أجيبك عن أسئلتك الأربعة أقول لك: إنك أحييت نفساً زكيةً، وأنقذتها من الموت، فكأنما أحييت الناس جميعاً، وأنقذتها من الشرك، وهديتها إلى الإسلام، وكان لك بهذا العمل الخير الجزيل، وقد بشر بهذا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

ثم إنك تقول إنها في بيتك كأحد أولادك، وأنا أراها كذلك، ولا



أرى فرقاً بينها وبين الكبير والصغير، ولا تعرف عن أصلها وأهلها إلا أنها بنتك حتى في المعاملة، والناس كذلك، اللهم إلا خاصة الناس من الأقارب والإخوة، معنى هذا أنك أحسنت تربية أنثى، والأخبار النبوية تبشّر من أحسن تربية الأنثى بالنجاة من عذاب الله يوم القيامة؛ لما جاء في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم: «من ابتلي من البنات بشيءٍ، فأحسن إليهنَّ، كنَّ له سترًا من النار»^(١).

أما الجواب عن أسئلتك الأربعة فأقول:

ج ١- لا مانع من إخبار البنت أصلها، وإطلاعها على المستند الذي بيدك؛ حتى تكون على بصيرةٍ من أمرها، ولكن بصورةٍ رقيقةٍ تحبب إليها الإسلام وتبعّضها بالشرك وأهله.

ج ٢- ليست البنت يتيمةً ولا لقيطةً، ولكنني أسأل الله ﷻ أن يكتب لك بتربيتها ثواب من ربّي يتيماً.

ج ٣- ليس في كشف سرّها عارٌ عليها ولا عليك، فليست بنت زنا، ودليل براءتها من الزنا أو من بنوة الزنا بيدك؛ هو ذلك المستند الموقّع عليه من الجهات الرسمية المختصة.

ج ٤- قال الله ﷻ: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

ولمّا كان كشف سرّها لا يغيّرها فليتكشف السرُّ، فهو خيرٌ لها ولك، كثيرٌ من الذين أسلموا غيّرُوا أسماءهم وألقابهم وكُنَاهم فما ضرّهم ذلك شيئاً، وكثيرٌ منهم احتفظوا بها، فما عابهم. اترك لها الخيار، ولتختار ما

(١) رواه البخاري: رقم: (١٤١٨)، ومسلم، رقم: (٢٦٢٩)، وأحمد، رقم: (٢٤٥٧٢)، واللفظ لمسلم.

تشاء من الأسماء، لكن أحبُّ أن أقول لها: لَمَّا كانت قد عرفت بأبي المبارك فلتبقَ على حالها؛ سلمى بنت عبد الله بن أبي المبارك، وأسأل الله لها حسنَ المستقبل، ولك عظيم الأجر.

هذه هي قصَّة صاحبي أبي المبارك المقيم في كوالالمبور؛ عاصمة الأتحاد الماليزيِّ وربيبته، علماً أنَّ عنده من البنات والبنين ثلاثاً وثلاثة، وهي سابعتهم.



٣٢- ادفع السيئة بالحسنى

سيدي! ليس الذي أكتبه مشكلةً أريد حلَّها، وإنما هي حكايةٌ مضى عليها حينٌ من الدهر.

إنني ممَّن يقرأ مجلَّة «اليقظة»، وأتبع السلسلة التي تكتبها بعنوان «من غريب ما سألوني»، وقد وجدت في القصص التي تنشر والأسئلة التي تطرحُ عبراً كثيرةً لمن يريد أن يعتبر، وعرفت وأيقنت أنَّ الحياة بكلِّ ما فيها ومن فيها لا تستحقُّ تناحرًا وتناجسًا وحقداً وحسداً.

والقصَّة التي أكتبها ليست لي، بل لقوم قضوا، وكان آخرهم أبي الذي مات منذ ربع قرنٍ، أكتب هذه القصَّة ليعلم القارئ أنَّه بالحبِّ تطيب الحياة، وتعمر الدنيا، وأنَّ البغضاء شقاءً وظلاماً، وقد قال فيها الرسول ﷺ: «إنَّ فسادَ ذاتِ البينِ هي الحالقة»^(١).

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٥٠٩)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.



وأقول أيضًا: إنها حالقة السعادة، زارعة الكره، هادمة المجتمع، وإنَّ النَّظْرَ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ بِالرِّضَا يَبْعَثُ فِي النَّفْسِ الْأَمَلَ بِالْعَمَلِ وَبِنَاءِ مُسْتَقْبَلِ الْحَيَاةِ.

سيدي! حكايتي تشبه حكاية ذلك الشاب الذي طرده عمه طفلاً عندما جاءه مع إخوته في صباح عيد، فبصق في وجهه. تلك الحكاية المعنونة بـ (العاقل من لم يغتر بإقبال دنياه)، وهي الحكاية الرابعة في السلسلة المذكورة.

أمَّا حكايتي هذه فكما قلت لك آنفاً ليست لي، بل هي قصة أبي مع عميه.

قال أبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مات أبي فقيراً، وليس له من الورثة إلا أنا وأمِّي التي أصرت على تربيتي على الرغم من شبابها وكثرة خطابها من عشاق الجمال، وكان لي عمّان: أكبرهما غني، لكنّه بخيل متحجّر القلب لا يبتسم لأحد، ولا يعطف على فقير، استخدمني بغذائي بعد أن بلغت السابعة عشرة من عمري، ونشط عودي للخدمة ولم يعرفني قبل ذلك، وكان عمي الثاني مستور الحال، يتاجر أوّل نهاره بالأغنام، وآخر النهار بالجمال، يكسب قوته بعرق جبينه، ولقلة ذات يده لم أكن أجمع به إلا لماماً^(١).

وكان لعمي الكبير بنته الوحيدة التي تكبرني بأربع سنين، ولعمي الثاني بنته الوحيدة أيضاً، وهي أصغر مني بثلاث سنين.

ومرّت أيّامي وأنا في خدمة عمي، لست أدري كيف مرّت، ولم أكن

(١) لماماً: أحياناً على غير مواظبة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٣٦/٣٣).

أعرف نوع المعدن الذي تصنع منه النقود؛ لأنني لم أرها.

كنت أعمل، لكنني لم أقبض مقابل عملي شيئاً، لا درهماً ولا فلساً، وإن من حكمة الله أن ينسينا آلامنا، ويضع في قلب كل إنسان طاقة هائلة تستطيع احتمال الألم والتكليف معه.

بلغت الخامسة والعشرين وأنا في خدمة عمي الكبير، أصل الليل بالنهار من أجل اللقمة فقط، وكثيراً ما كانت تمتد بي الخدمة حتى فجر اليوم الثاني.

وفي ليلة من تلك الليالي القاسية رأيت ابنة عمي تتقرب مني خلافاً لعادتها، وتتلطف معي، فتجاهلت وجودها، وأين أنا منها؟! إنها ابنة السيد، وأنا الخادم المأمور.

وفي اليوم الثاني أخبرت أمي بما حصل، فقالت: مسكينته، إنها دميمة وعانس، والرجال لا يريدونها، لكن اخطبها يا ولدي، فإنها وحيدة أبويها، ولن يرث أباهما أحدٌ غيرها، وهي بنت عمك، فتقدم لها، فلن يجد أولى منك بها، ولا أحسن منك لها وأنت ابن عمها.

وفي المساء - وقد جلسنا للعشاء - قلت لعمي ما أوصتني به أمي: هل تسمح لي أن أطلب يد ابنتك فلانة للزواج؟! فأنا ابن أخيك وريبك. لكن عمي ضحك باستهزاء، ثم سكت قليلاً، وقال: لو قلتها قبل أيام لكان أولى بك، وربما أجبته، ولكن فات الأوان، فإن البنت خطبت لغيرك ووافقنا على الخطبة، فانس هذا الموضوع.

وأخبرت أمي بما قال لي عمي، فقالت: إنه كذاب، ولن تذهب إليه بعد اليوم، ولن يسأل عنك، واترك خدمته، واستعن بالله على العمل الحر.



مع الرجال، وخذ هذه الدرهمات القليلة التي اقتصدتها لك طوال حياتي، فادخل السوق، واشترِ وبع، واعتمد على ربك، وكن رجلاً صادقاً في عملك، وستنجح بإذن الله.

ودخلت السوق أول النهار، واشترت بما معي عزيزين، بعتهما بربح ثلاث روبياتٍ، نعم؛ ربحت بالعزيزين ثلاث روبياتٍ، وإنه لشيءٌ كبيرٌ، إنه راتب شهرين لمن كان مثلي يومئذٍ، ثم دخلت السوق بعد العصر بنشاطٍ وانسراحٍ صدرٍ، وكأنَّ مال الدنيا في جيبِي.

وفي السوق رأيت عمِّي الثاني، فرحَّب بي وهشَّ^(١)، وسألني عن سبب دخولي السوق. فقلت له: لقد تركت الخدمة عند عمِّي فلانٍ، وأحببت أن أجرب نصيبي في العمل الحرِّ، فمسك بيديَّ إلى حلقة سوق الإبل، وهناك اشترينا ذلولاً وبعناها بمصلحة ست روبياتٍ كان لي فيها الربع بقدر ما كان معي.

فقلت في نفسي: لك الحمد يا الله أن كسبتُ في يومٍ واحدٍ أربع روبياتٍ ونصف الروبيَّة، ولن آكل منها أنا وأمِّي أكثر من نصف روبيَّة، وسيبقى معي أربعٌ أضيفها إلى رأس المال الذي أعطتنيهِ الأمُّ الحنون، إنه شيءٌ كبيرٌ يا ربُّ، وصدقت يا ربُّ إذ قلت - وقولك الحقُّ -: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [المُلْك: ١٥].

ودخلت السوق في اليوم الثاني والثالث، ونشطت، ورأيت عمِّي نشيطاً أيضاً، فمرةً يشترك معي ومرةً يتركني وحدي، ولم أخسر.

وبعد يومين قال لي عمِّي: هل تساعدني الليلة في صنع القهوة لضيوفٍ

(١) الهشاشة: الارتياح والخفة للمعروف. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/٤٦١).

عندي؟ فقلت له: مُرْ وأنا أطيعُ.

وبعد صلاة المغرب أتيت دار عمِّي، فلم أجد أثرًا لضيوفٍ، ولا استعدادًا لاستقبال ضيوفٍ، ورأيت عمِّي يرحِّب بي، وقال لي: ها هي القهوة جهَّزها.

وبعد قليلٍ سمعت طرقًا على الباب، ففتحت، فإذا بالطَّارق - وهو من رجال الدِّين المعروفين - يسألني: أين عمِّي. ويخرج عمِّي مرحِّبًا به، وبعد جلسةٍ قصيرةٍ يسأله الزَّائر لماذا طلبتني؟ أرجو أن يكون طلبك لخيرٍ. فيجيبه عمِّي قائلاً: نعم؛ لخيرٍ إن شاء الله، أريد أن أزوج بنتي فلانة لابن أخي هذا. قالها وأنا أسمع، فكاد يُغمى عليَّ من الفرح، قلتُ في نفسي: أيطردني عمِّي الكبير عن بنته العانس الدَّميمة وقد خدمته ثمان سنين بلا مقابلٍ لكي أتزوج هذه الجميلة الفتية؟! حمدًا لك يا ربُّ، وبكيت من الفرحه، ثم رجعت إلى نفسي: من يخبر أمِّي؟! إنها - لا شك - ستفرح أكثر منِّي.

وكان الضُّيوف الشَّيخ وشاهدي العقد وأنا فقط، وعُقد القران، وقال عمِّي في نصِّ العقد: إنَّه قبض منِّي مئةً ذهبًا، وأنا والله لم أدفع حتَّى درهم فضة.

وقبَّلت يده ورأسه، وسالت دمعتي على وجهه من شدَّة الفرح، وكان عمِّي فرحًا كذلك، وخرج الشَّيخ والشَّاهدان، واستأذنت عمِّي لأبشُر أمِّي، فقال: لا، بل سأبشُرها بنفسي، وأنت اللَّيلة عروسٌ، والعروس لا يخرجُ من دار عروسه، سأبشُرها نيابةً عنك.

كلُّ هذا جرى وكأنِّي في حلمٍ، أو أشاهد تمثيليَّةً، وكأنَّ الأمر لا يخضُّني.



الله أكبر، في أسبوعٍ واحدٍ أتخلَّص من ذلِّ الخدمة بلا أجرٍ، ثمَّ أكون تاجرًا في السُّوق، ويكُون لي رأس مالٍ كان بالنُّسبة إلى من كان مثلي كبيرًا، ثمَّ أتزوِّج، كنت بالأمس خادماً لا إرادة لي ولا كرامة، واليوم أكون تاجرًا حرًّا، ربَّ بيتٍ، رفعت رأسي إلى السَّماء قائلاً: اللَّهُمَّ لك الحمد يا رب .

وقال عمِّي لأُمِّي: إِنَّ ابْنك سيبيت عندنا اللَّيلة ليساعدني في عملٍ شاقٍّ، ولن يأتيك إلَّا بعد الفجر، ولم يخبرها بما حصل، فقالت: هو ابنك وأنت عمُّه، علمًا أنَّ أُمِّي كانت مسرورةً جدًّا من عملي الجديد؛ لأنَّها رأت فيَّ رجولةً، وكانت مسرورةً من عمِّي لتعاونه معي .

ودخلت على زوجي، وبتنا سعيدين في أسعد ليلةٍ مرَّت عليَّ في حياتي الماضية، وفي الصُّباح وبعد أذان الفجر قال عمِّي لي: زواجٌ مباركٌ إن شاء الله، خذ زوجتك واذهب إلى بيتك، مع السَّلامة، واحفظ الأمانة. ثمَّ التفت إلى الزَّوجة، وقال: وأنت ابنتي أصبحت الآن زوجًا، وهكذا قدَّر الله لبنات حوَّاء، فأطيعي زوجك، واحفظيه، واحتفظي بشرفك .

وطرقت الباب على أُمِّي المسكينة وهي لا تدري بكلِّ ما حصل؛ لأنَّ عمِّي لم يخبرها بما حدث، ورأيته ترحَّب بابنة عمِّي، وترى مجيئها معي هكذا غريبًا، والنَّاس في ذلك اليوم لم يعتادوا مثل هذا، وسمعتها تقول: خيرًا. قلت: ألم يخبرك عمِّي بما حدث؟ قالت: وما الَّذي قد حدث؟ قلت: زوَّجني عمِّي بنته هذه، فأنا الآن زوجٌ وهذه كَتَّتك .

لقد أخطأ عمِّي بعدم إخباره أُمِّي بما حصل؛ لأنَّها حين سمعت هذا القول أُغمي عليها من الفرح، واحتاجت إلى إسعافنا، لكنَّها بعد ذلك

حمدت الله، وصَلَّتْ رَكَعَتَيْنِ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النُّعْمَةِ.

كانت زوجتي خير كَنَّةٍ لَأُمِّي، وكانت أُمِّي أَرَأْفَ بِزَوْجَتِي مِنْ أُمَّهَا، وولد لنا بكرنا بعد خمسة عشر شهرًا، وفرحنا به جميعًا، وشاركت عَمِّي في عمله، وَحَسُنَتْ نَيْتُنَا، وَرَزَقَنَا اللَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا.

وفي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ زَوَاجِنَا اشْتَرَيْنَا أَرْضًا، وَبَيْنَنَا فِيهَا دَارَيْنِ مُتَلَاصِقَيْنِ وَسَكَنَاهُمَا، وَكَانَتْ أُمِّي وَزَوْجَةُ عَمِّي كَالْأَخْتَيْنِ، بَلْ أَكْثَرَ.

ثُمَّ تَمَضَى السَّنَوَاتُ، وَأَذَكَرَ عَمِّي الْأَوَّلَ، وَابْنَتَهُ الدَّمِيمَةَ الْعَانِسَ، وَأَسْأَلَ عَنْهَا أُمِّي صَبَاحَ يَوْمٍ، فَتَقُولُ: مَسْكِينَةٌ، لَقَدْ شَابَ شَعْرُهَا، وَجَاوَزَتْ سَنَّهَا الْأَرْبَعِينَ، وَقَارَبَتْ سَنَّ الْيَأْسِ وَلَمْ تَتَزَوَّجْ، ثُمَّ تَقُولُ: وَإِنَّ عَمَّكَ فِي حَالٍ لَا يَحْسُدُ عَلَيْهَا مِنَ الْعُوزِ وَالْحَاجَةِ.

وفي مساء ذلك اليوم ذاته يزورني عَمِّي، وَيَطْلُبُ الْخَلْوَةَ بِي، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي مُحْتَاجٌ إِلَى دَرَاهِمٍ، فَأَعْطِنِي أَوْ أَقْرَضِنِي! قُلْتُ لَهُ: كَمْ تَحْتَاجُ؟ فَقَالَ لِي: أُرِيدُ مَصْرُوفَ شَهْرٍ لِأَسْرَتِي، شَهْرٍ وَاحِدٍ فَقَطْ.

ويسبقني سؤالٌ يا ليتني لم أقله، قلت: أَلَمْ تَتَزَوَّجْ فَلَانَةٌ؟ فنظر إليَّ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ إِلَى جَبِينِهِ كَأَنَّهُ يَمْسَحُ عَرْقًا، ثُمَّ قَالَ: لَا.

أَعْطَيْتَهُ مَا يَحْتَاجُ، وَقُلْتُ لَهُ بِشِمَاتَةٍ: خُذْ يَا عَمُّ، إِنَّهَا لَيْسَتْ دِينًا؛ إِنَّهَا مِكَافَأَةٌ لَكَ عَلَى تَرْبِيَّتِكَ لِي سَبْعَ سِنِينَ.

لَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا فَعَلْتُ وَقُلْتُ، وَلَكِنْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدَلَ^(١).

(١) العدل: الملام، ويُضرب في الأمر الذي لا يُقدَّرُ على رَدِّهِ. انظر: اللُّبَابُ فِي قَوَاعِدِ اللَّغَةِ وَأَلَاتِ الْأَدَبِ، لِلسَّرَّاجِ (١/٢٧٥).



وأتى عمِّي، وأخبرته بما بدرَ منِّي، فنظر إليَّ شزراً^(١) وقال: وماذا أفادتك كلمتك يا مغرور؟ أليس الله قد أبدلك خيراً منها وخيراً منه؟ وسكت، ثمَّ أكمل كلمته قائلاً لي: لا يا ولدي، لا تسمت! قم الآن وخذ مبلغاً أكثر من الذي أعطيته إِيَّاه، واذهب إليه، وسلِّم عليه، وقل له: يا عمُّ! لقد قصَّرت تجاهك، وقد أحسست بتقصيري، وهذه هديَّةٌ، سامحني، ثمَّ اسأله أن يدعو الله لك، وأظهر له استعدادك لقضاء أيِّ حاجةٍ تعرض له في أيِّ وقتٍ، وقل له: إنني ابنك، ومطيعُ الآن كما كنت مطيعاً من قبل، واستأذنه بالسَّلام على زوجته وابنته، فإذا أذن فافعل.

وفعلت ما أمرني به عمِّي.

وبعد عام تزوّجت بنته أرملاً عجوزاً، ودامت المساعدة له منّا في كلِّ نصف عامٍ، حتّى توفاه الله بعد زوجته.

إلى هنا انتهت قصّة أبي، لا سؤال عندي؛ لأنّ والدي رحمه الله توفّي منذ ربع قرنٍ، لكنني بعد أن قرأت قصصك أو الأسئلة الغريبة في مجلّة اليقظة أحببت أن أكتب لك قصّة أبي، لعلّك ترى في نشرها للقراء عبرةً أو موعظةً أو ذكرى.

الجواب:

الأليق بهذا الجواب أن يكون تعليّقاً، والدك رحمه الله أظهر الشّماتة بعمّه وآلمه بسؤاله عن بنته. ولعلّ سؤاله كان مقروناً بنظرةٍ شامتةٍ، وعبارةٍ شامتةٍ، ما اضطرَّ عمّه إلى أن يمسح جبينه من عرقٍ توهمه.

(١) الشَّزْرُ: نظرٌ فيه إعراضٌ، كنظرِ المُعادي أو هو نظرُ المُبغضِ الغضبانِ. انظر: تاج العروس، للزبيديّ (١٢/١٦٤).

ثمَّ إِنَّ أَبَاكَ لَمْ يَسْتَقْبَلْ عَمَّهُ بِالتَّرْحَابِ وَتَقْيِيلِ الْيَدِ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ الشَّابُّ الَّذِي سَأَلْنَا سَابِقًا، لَكِنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ كَانَ فِي فِعْلِ عَمِّهِ؛ جَدُّكَ لِأَمِّكَ، فَإِنَّهُ غَسَلَ الْخَطِيئَةَ. وَاسْمَحْ لِي أَنْ أَقُولَ: إِنَّ السَّخِيمَةَ^(١) الَّتِي فَعَلَهَا أَبُوكَ مَحَا أَثَرَهَا عَمُّكَ، وَنَعَمَ مَا فَعَلَ؛ فَقَدْ أَجْبَرَ أَبَاكَ عَلَى أَنْ يَضَاعِفَ الْمَبْلَغَ، وَيَذْهَبَ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ، وَيَعْتَذِرَ لَهُ، وَيَقْبَلَهُ، وَيُظْهِرَ اسْتِعْدَادَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ لِكُلِّ حَاجَةٍ تَعْرُضُ لَهُ.

إِنَّ الَّذِي فَعَلَ الْخَيْرَ هُوَ جَدُّكَ لِأَمِّكَ، عَمُّ أَبِيكَ. فَقَدْ كَانَ فِعَالًا لِلْخَيْرِ طَوَالَ حَيَاتِهِ كَمَا ذَكَرْتَ. تَعَمَّدَ اللَّهُ الْجَمِيعَ بِرَحْمَتِهِ، وَأَسْكَنَهُمْ فِسْحَ جَنَّتِهِ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.



٣٣- أَيُّ عَشْقٍ هَذَا؟

قَصَّتِي كَالْأَسْطُورَةِ، وَقَدْ يَظُنُّهَا بَعْضُ النَّاسِ مِنْ وَحْيِ الْخِيَالِ، لَكِنَّهَا وَاللَّهِ حَقِيقَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ الْحَقِيقَةُ أَكْثَرَ غَرَابَةً مِنَ الْخِيَالِ.

إِنَّهَا قِصَّةُ حُبٍّ، وَالْحُبُّ أَوْ الْعَشْقُ - كَمَا يَسْمِيهِ الْمَعَاصِرُونَ - رَأْيُنَا وَعَرَفْنَا، لَكِنَّ حُبَّ قِصَّتِنَا غَرِيبٌ، مِنْ نَوْعٍ غَيْرِ الَّذِي اعْتَدْنَا أَنْ نَرَاهُ أَوْ نَسْمَعُ عَنْهُ أَوْ نَقْرَأَهُ فِي الْقِصَصِ وَالرُّوَايَاتِ وَالْأَشْعَارِ.

وَلِأَنَّ يَحِبُّ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا لِحَمَالِهِ، أَوْ عِلْمِهِ، أَوْ خَلْقِهِ، أَوْ عَمَلِهِ، أَوْ طَوْلِهِ، أَوْ تَقَاسِيمِ وَجْهِهِ، أَوْ رَشَاقَتِهِ، أَوْ عَذُوبَةِ صَوْتِهِ، شَيْءٍ عَادِيٍّ، وَيَحْدُثُ دَائِمًا.

(١) السَّخِيمَةُ: الْحَقْدُ وَالضَّغِينَةُ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٢/٣٥٥).



لَكِنَّ الْحَبَّ الَّذِي سَأَحْكِي قِصَّتَهُ حُبٌّ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، لَا أُدْرِي مَاذَا
أَسْمِيهِ! حُبٌّ شَفَقَةٌ أَمْ حَنَانٌ أَمْ رَحْمَةٌ أَمْ قَرْبَى أَمْ صَدَقَةٌ؟!!

لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ التَّسْمِيَةَ سَتَكُونُ صَاحِيحَةً، فَهُوَ حُبٌّ مِنْ نَوْعٍ فَرِيدٍ، حُبٌّ
جَمَعَ فِي طَيَّاتِهِ كُلَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَأَضْدَادِهَا، جَمَعَ بَيْنَ عَدَوِّينَ وَرِثَا
الْعِدَاوَةِ مِنْ أَبْوِينَ عَدَوِّينَ لِدَوْدِينَ، بِاخْتِصَارٍ: إِنَّهُ حُبٌّ فَرِيدٌ فِي بَابِهِ كَمَا
سَيَقْرَأُ الْقَارِئُ الْكَرِيمُ فِيمَا سَنُرْوِيهِ.

سَيِّدِي! نَحْنُ أَخَوَةٌ أَرْبَعَةٌ مِنْ بَلَدٍ عَرَبِيٍّ فِي شِمَالِ الْعِرَاقِ، أَصْغَرْنَا
الآنَ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمْرِهِ، اسْتِضَافَ أَحَدُنَا الْكُوَيْتِ بِلَدِكُمْ الْمَضِيَّافِ
الْمُسْلِمِ مِنْذَ عَشْرِينَ عَامًا.

وَالدَّانَا وَوَلَدَا عَمِّينَ شَقِيقَيْنِ، كَانَ أَبُوَاهُمَا عَدَوِّينَ لِدَوْدِينَ لِبَعْضِهِمَا، إِثْرَ
دَمٍ سَالَ بَيْنَهُمَا، فَقَدْ اعْتَدَى جَدِّي لِأَبِي عَلِيٍّ جَدِّي لِأُمِّي فَاسَالَ دَمَهُ،
وَكَانَا بَدَوِيِّينَ، وَلِلدَّمِ عِنْدَ الْبَدْوِ شَأْنُهُ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ، وَبَقِيَ
الْعِدَاءُ بَيْنَهُمَا، وَعَاشَ مَعَهُمَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَحَضُّرِ الْأَخْوِينَ، وَلَعَلَّهُمَا
تَحَضَّرَا؛ لِيَنْتَقِمَا مِنْ بَعْضِهِمَا.

وَمَاتَ جَدِّي لِأَبِي فَقِيرًا أَرْمَلًا، وَخَلَّفَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ عَامِلًا يَكْسِبُ قُوَّةَ
يَوْمِهِ بِعَرَقِ جَبِينِهِ.

وَمَاتَ جَدِّي لِأُمِّي غَنِيًّا مُوسِرًا، لَا يَرِثُهُ إِلَّا ابْنَتُهُ الَّتِي مَلَكَهَا فِي حَيَاتِهِ
كُلَّ مَا يَمْلِكُ؛ خَوْفًا مِنْ اسْتِيْلَاءِ الْعَاصِبِ عَلَى نِصْفِ التَّرْكَةِ.

مَاتَ الْأَخْوَانُ الْعَدَوَّانَ بِكُلِّ مَا يَحْمِلَانَهُ مِنْ بَغْضَاءٍ وَحَقْدٍ، وَمَا يَمَثِّلَانَهُ
مِنْ عَادَاتٍ بَدَوِيَّةٍ سَخِيفَةٍ.

كَانَتْ أُمِّي جَمِيلَةً، وَالنَّاسُ تَعَشِقُ الْجَمَالَ، وَكَانَتْ غَنِيَّةً، وَلِلغَنَى



طَلَّابَهُ، وَكَانَتْ طَمُوْحَةً، وَبَطْمُوْحَهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَدْخُلَ مِيْدَانَ التِّجَارَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ، وَتُنْمِي الثَّرْوَةَ الَّتِي تَرَكَهَا أَبُوْهَا.

وَتَقَدَّمَ لَهَا كَثِيْرُونَ حَتَّى كَانَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ وَسَامَةً وَجَمَالًا مِنْهَا، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ جَاهًا وَمَالًا، لَكِنَّهَا رَفَضَتْ أَوْلَئِكَ الْمَتَقَدِّمِينَ، كَأَنَّهَا كَانَتْ تَبْحَثُ عَنْ شَخْصٍ مَعِيْنٍ تَرِيْدُهُ زَوْجًا لَهَا.

وَبَدَأَ النَّاسُ يَتَهَامَسُونَ وَيُحِيْكُونَ الْقِصَصَ حَوْلَهَا، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ تَسْمَعُ وَتَتَصَامُ.

وَفِي يَوْمٍ مَا يَرَى بَوَّابَ الْمَحَلِّ رَجُلًا كَسِيْحًا مَشُوْهُ الْوَجْهَ بِكَسْرِ فِي فَكِّهِ الْأَسْفَلَ، يَزْحَفُ عَلَى يَدَيْهِ يَسْتَأْذِنُ لِلدُّخُوْلِ عَلَى صَاحِبَةِ الْعِصْمَةِ التَّاجِرَةِ الثَّرِيَّةِ، وَكَأَنَّهُ شَحَّاذٌ، فَيَسْخَرُ مِنْهُ الْبَوَّابُ وَيَطْرُدُهُ، لَكِنَّ الْكَسِيْحَ يَصْرُُّ عَلَى مِقَابِلَةِ رَبَّةِ الْعَمَلِ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ، فَتَسْمَعُهُ وَتَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْ مَكْتَبِهَا، وَتَسْأَلُ عَنْ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ، ثُمَّ تَرْحُبُ بِهِ، فَيَدْخُلُ أَمَامَهَا الْمَكْتَبَ، وَبَعْدَ جَلْسَةٍ قَصِيْرَةٍ يَخْرُجُ بِاسْمًا مَشِيْعًا بِأَرْقِ الْكَلِمَاتِ وَأَعْذَبِهَا.

ذَلِكَ هُوَ أَبِي، وَتِلْكَ هِيَ أُمِّي.

مَاتَ أَبُوْهُ مَعْدَمًا، لَا يَمْلِكُ حَتَّى الْكِفْنِ، وَاشْتَغَلَ أَبِي عَامِلًا فِي الْبِنَاءِ، فَلَمْ يَنْجَحْ، كَانَ بِلَا مَأْوَى، يَنَامُ فِي الْخِرَائِبِ، وَيَعِيْشُ عَلَى الْفَتَاتِ، وَفِي لَيْلَةٍ سَقَطَ عَلَيْهِ جِدَارٌ مِنَ الْحِجْرِ هَشَّمَ عِظَامَ سَاقِيهِ وَفَخَذِيْهِ، وَكَسَرَ عِظْمَ فَكِّهِ وَجَرَحَهُ فِي وَجْهِهِ جَرْحًا غَائِرًا، وَلَمْ يَشَأْ اللهُ لَهُ أَنْ يَمُوتَ، وَلَعَسَرَهُ لَمْ يَجِدْ طَبِيْبًا يِعَالِجُهُ، لَكِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عَاشَ كَسِيْحًا مَشُوْهُ الْوَجْهَ، لَا يَرْجَى بَرُوْهُ.

خَرَجَ ذَلِكَ الْكَسِيْحُ مِنْ عِنْدِ صَاحِبَةِ الْمَكْتَبِ مَصْحُوْبًا بِمَنْ يُوْصِلُهُ إِلَى



بيتها؛ ليشبع بعد جوعٍ، ويلبس بعد عريٍّ، وينعم بعد بؤسٍ، وصدق من قال:

ما بينَ طرفَةِ عَيْنٍ وانتباهتِها يقلُّبُ الأمرَ من حالٍ إلى حالٍ^(١)
وبعد أسبوعٍ من ذلك اليوم يسمع الناس خبر عقد زواج تلك الغنيَّة
الجميلة وذلك الكسيح المشوَّه، كيف؟ وما هو السرُّ؟ ولم؟
لم تركت الشَّبَابُ أبناءَ الذَّواتِ الأغنياء، واخترت ذلك الشَّحَّاذَ أعوج
الوجه؟

قالت: نعم، اخترته لأنَّه ابن عمِّي شقيق أبي، ومن لحمي ودمي،
ولأنَّه أحوج النَّاسِ إليَّ، ولأنَّه يريد الخير، والكساح لا ينقص من قدره
شيئاً، والتَّشويه ليس من داءٍ أصابه أخاف عدواه، ولم يلومني اللائمون؟
فأنا أدري بمصلحتي.

وبدأ الزَّوجان يعملان، وكافأها الرَّجُلُ بإخلاصه، وبصلتها رحمها،
وأتسع مدار العمل، وفتحاً منسجاً للقطن، ثمَّ منسجاً للحرير، وكان
الزَّوج يراقب العمل بيقظةٍ، وصارت له خبرة، فكان مديراً للعمل،
ومراقباً للعمَّال والمديرين والمكتبة على الرَّغم من أميَّته، وبعد سنتين من
الزَّواج ولد أكبرنا، وبعده بثلاث سنين ولدت أنا، وفي نهاية عشر السنين
كنَّا أربعةً، وكانت أمُّنا تحترم أبانا، وعودتنا على احترامه وبرِّه وطاعته.

وحاولنا بعد أن كبرنا أن نعمل لأبينا مركبةً له ذات عجلاتٍ يجرُّها
أحدنا أو خادمٌ بالأجرة، فأبى إلَّا أن يخرج من بيته إلى المعمل كعادته
يزحف، ويعود إلى البيت يزحف.

(١) انظر: ريحانة الكتاب ونجعة المتتاب، للسان الدِّين ابن الخطيب (٢/ ٢٠٤).

وكبرنا وتزوج بعضنا، وكان لنا في المجتمع مكانةً تجاريةً، وكان لبعضنا وظائف، وكان الحال في بعض الأحيان يوجب علينا أن نذهب معه إلى تعزيةٍ أو تهنئةٍ، فكان يزحف أمامنا، ونمشي خلفه، وكنت أسمعه يحمد الله، ويثني عليه، ويدعو لنا ولأمنا.

هذه قصة والدي، اختصرتها لكم بأوجز العبارات.

كانت أمنا تقول لنا: لا تشمئزوا من كساح أبيكم، وتشويه وجهه، فأنتم الحسب والنسب، أنتم آل فلانٍ عمًّا وخالًّا، ولولا زواجي بأبيكم لانقرض اسم الأسرة، ففيكم وفي ذريتكم بقاءها، لا يضرُّكم عداؤُ حصل بين جدِّكم سببه جهلٌ أحدهما.

كانت تقول لنا: لعلَّ أبي كان المخطئ، فدافع عمِّي عن نفسه، فجرحه من غير قصدٍ، وللدَّم عند البدو شأنه، ولئن كان عمِّي المعتدي، فما ذنب أبيكم؟ والله يقول: ﴿وَلَا تَزُرْ وَاِزْرَةً وَاِزْرَةً أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

كانت أمِّي مثقفةً، أو كما يقول المعاصرون: ولدت قبل زمنها. وكان أبي على الرِّغم من أميِّته ذكيًّا صموتًا، يعمل كثيرًا، لكن بلا ضجَّةٍ.

وها نحن الآن في بلدنا، وفي كلِّ بلدٍ نتعامل معه ملء السَّمع والبصر، ألفةً أبويننا رحمهما الله ألَّفت بين قلوبنا، فنحن في مجموعتنا كشخصٍ واحد، إذا قال أحدنا قولًا في موضوعٍ من مواضيع العمل وافق عليه الآخرون، إلَّا أن نكون منفردين، فقد نعرض على القائل بأدبٍ فيما بيننا، كذلك عودنا الوالدان، وقد نتداول فيه، أو نصوت عليه.

لقد قرأت لك كثيرًا في مجلَّة اليقظة ممَّا يسألك عنه السَّائلون، فأحببت أن أكتب لك قصة والدي، لعلَّك تستحسنها، فتشرها، فتكون



لمن يقرؤونها عبرةً وذكرى .

ولعلك تقول: إِنَّهَا قِصَّةٌ خِيَالٍ، وأقسم لك بأسماء الله الحسنی إِنَّهَا حقيقةٌ، ولولا إصرار أمِّي على زواجها بأبي لانقرض اسم أسرتنا .

ولعلك تقول ما المشكلة في هذا؟!!

وأجيب: لا مشكلة، ولا سؤال، إِلَّا أَنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَقُولَ لِلنَّاسِ: إِنَّ الخير موجودٌ، وفي الخير السَّلام، وفي صفاء القلب أمانٌ وطمأنينةٌ .

أردت أن أقول للقراء: أَحْبُّوا فِي الله، فالحبُّ فِي الله يدوم، وبه يسعد المجتمع .

وها نحن ولدنا بالحبِّ، وبالحبِّ كبرنا، وبه نجحنا، ومازلنا نعيش بالحبِّ في سعادةٍ وأمانٍ، وما زلنا نذكر أبوينا بالحبِّ، وندعو لهما كذلك بالحبِّ .

واليوم - ونحن كلُّنا آباءٌ وأزواجٌ - ما تزال مجموعتنا من آباءٍ وأمّهاتٍ وبنين وبناتٍ تعيش في الحبِّ .

ونسأل الله تعالى أن يديم علينا نعمة الحبِّ .

الجواب:

وجوابي لصاحب القِصَّة، ولا بدَّ أن أجيبه عنها:

رحم الله أمَّك فقد فعلت خيراً:

١- حافظت على كرامة ابن عمِّها، فصانتها من الذلَّة، وأيُّ ذلَّةٍ شرٌّ من السُّؤال؟!!

٢- وصلت به رحمها، وصلة الرِّحم من أكرم مكارم الأخلاق، وقد

قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإنّ صلة الرّحم مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مِثْرَةٌ فِي الْمَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثْرِ»^(١).

٣- حافظت على اسم الأسرة التي كادت أن تنقرض بموت جدّيكما.

٤- أنجبت بزواجها هذا رجالاً نجباء بحقّ كما تقول أنت: ملء السّمع والبصر في بلدكم وفي كلّ بلدٍ. عرفوا بحسن المعاملة، والدين المعاملة.

لله درّ هذه الأمّ، رحمها الله، ورضي عنها وأرضاها، وجعلها ممّن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُم حَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البَيِّنَةُ: ٧-٨].

وأخيراً أقول لصاحب الرّسالة:

أذكر قصّة تشبه قصّتكم، أعرف بطليها المسلمين العربيين في شمال العراق، لهما أربعة أبناء أصغرهم إن يعيش اليوم يبلغ الثمانين.

كانوا أصحاب مزارع ومتاجر حبوبٍ، والقصّة تشابه قصّتكم تماماً.

كان الرّجل كسيحاً مشوّهاً يتيماً، نشأ في بيت عمّه، لكنّه كان مثقفاً، ورفضت ابنة عمّه كلّ خطّابها، وأبت إلا أن تتزوّجه على الرّغم من تهديد أبيها لها.

وتزوّجته، وحمدت وأبوها العاقبة؛ لأنّ زواجها من ابن عمّها حفظ اسم الأسرة.



(١) رواه الترمذيّ، رقم: (١٩٧٩)، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.



٣٤- العفو عند المقدرة من مكارم الأخلاق

سيدي! أستغفر الله، فكثيراً ما كنت أفقد إيماني في لحظةٍ من لحظات الضعف التي مرّت بي في مسيرة العذاب الطويل الذي عشته في منتصف عمري.

وكثيراً ما تساءلت: لماذا نرى الباطل يعلو ويعلو، بينما الحق يتوارى منه خجلاً؟!!

ولماذا نرى الباطل يلبس ثوب الحق، والحق مهلهل الثياب ضعيفاً لا حول له ولا حيلة؟!!

هكذا عشت، وهكذا فكّرت، وهكذا فقدت إيماني، وهكذا زلزلت عقيدتي، لكنني أحمد الله الذي أعاد لي عقلي، فانفتحت بصيرتي حين علمت أنّ العاقبة للحق، وأنّ الباطل زهوقٌ.

ليالٍ كثيرةً نام النَّاس ملء جفونهم فيها، وسهرتُ أتساءل، ثمّ أرجو، ثمّ أستغفر، ثمّ أقول: صدق الله العظيم: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [التحل: ١٢٧]؛ أربع كلماتٍ كنت أرددها آلاف المرّات، كانت كالبلسم لجراحي، تردُّ إليّ عزيمتي، وتهبني قوّة الصّبر على مصابي.

وأعترف لك يا سيدي أنني على الرغم ممّا مرّ بي كنت موقنةً أن لا بدّ لليل أن ينجلي، وأنّ الفجر لا بدّ آتٍ وإن طال الظلام، وأنّ الشّمس ستبزغ حاملةً معها الحياة والدّفء والحركة.

لا بدّ لليل أن ينمحي ظلامه بنهارٍ مشرقٍ؛ لأنّ دوام الحال من

المحال، والبشرى للصّابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ توجَّهوا إلى الله يسألونه الفرج.

تزوَّجت منذ ربع قرنٍ، وكأنيّ زوجةٍ أعطيت من نفسي لزوجي ما تعطيه الزَّوجة النَّصوح، وأعطيته من صحَّتي كلَّ ما أستطيع، كنت موقنةً أنّ مملكة المرأة بيتها، وأنَّ الزَّوج هو المليك الَّذي يجب على الزَّوجة أن تطيعه، وألَّا تخلص إلَّا له.

وهكذا مضت خمس عشرة سنةً وأنا أقوم على خدمة زوجي؛ أطيعه إذا أمر، وأسرع إليه إذا نادى، وأسهر عليه إذا مرض، رغباته وأوامره منفذةٌ، وأشهد الله أنه كان يبادلني الحبَّ والعطف والحنان، ويرعاني إذا نظرت إليه، ويلبِّي طلبي إذا طلبت.

رزقنا الله من البنين خمسةً، ومن البنات أربعةً، وزاد الأولاد من قوَّة رباط المحبة والمودة، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم:

٢١].

ومرّت أيّامنا عاديّةً كأنيّ أسرةٌ يرفرف في سماء بيتها الحبُّ والوفاق، لكن كما قلت في أوّل رسالتي: دوام الحال من المحال.

بعد هذه المدّة جاورتنا في المنزل المقابل لنا امرأةٌ كان الشيطان يمشي معها حيثما ذهبت، بل كانت الشياطين كلّها قد وجدت فيها خير أليفٍ.

كانت من النوع الَّذي لا يستحيي؛ تخالط الرجال، وتسهر معهم، وتعاشرهم، وخفت منها في أوّل يومٍ رأيتها فيه، ولم أحاول أن أربط بيني



وبينها كما يرتبط الجار بالجار، وأوجست منها خيفةً.

نصبت أحبولتها^(١) لزوجي وغيره من الجيران، لكنني لاحظت أنّ زوجي كان أسلس قيادًا من غيره لها، فقد طلب منّي أن أزورها وأستضيفها بحجة أنّها امرأةٌ وحيدة، وأنّ من واجبنا - وقد جاورتنا - أن نعاملها بوصفها جارةً، لكنني لم أطعه في ذلك، فلا زرتها ولا استضيفتها.

ومرّت أشهرٌ، وبدأ زوجي يتغيّر، أصبح شارداً الذهن، كثير التفكير، سريع الغضب، لا يأبه ببنّيه وبناته ولا بأهمهم.

وفي ليلةٍ من الليالي عرفت السرّ، لقد رأيتّه يخرج من الغرفة في وسط الليل متسللاً إلى شقّة الجارة اللّعوب، تجاهلت الأمر، ودست على كرامتي من أجل أولادي التسعة، فأغمضت بصري، وأفقلت سمعي عن كلّ شيءٍ قد ينغص عليّ حياتي، ولم أحاول أن ألومه أو أفاتحه بشيءٍ ممّا رأيت وسمعت، ولم يعلم أنّي أعلم بالصّغيرة والكبيرة ممّا يجري حولي وفي حياتي.

لكنّه قابل حناني وصبري بحقدٍ وغلظةٍ، حتّى أصبحنا أنا وأولادي لا نراه إلّا عابساً ساخطاً شاتماً صاخباً.

لم أطلب الطّلاق خوفاً من تشتيت الأطفال، فقد كان أكبرهم في الرّابعة عشر من عمره، وليس لي في الكويت إلّا أمٌّ عجوزٌ تسكن في بيت أخيها؛ لهذا ولكيلا يتشتت أولادي صبرْتُ، لكنّ الرّجل زاد عتوّاً وشرّاً،

(١) أحبولة: جمع حبائل. وهي مصيدة، يُقال أوقعته في أحابيلها: في شرك حبّها، ونصب حباله لفلان: دبّر له. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/٤٣٨).

ولم أكن أتوقع شيئاً أكثر من الطلاق، لكنّ الدنيا قست عليّ، ونذالة زوجي أظهرت حقيقته؛ لقد دبّر لي زوجي تهمةً.

نعم يا سيّدي؛ تهمة قذفٍ، اتّهمني بالزّنا، وكيف حصل ذلك؟ استدعى أحد أقربائه ليكون وساطةً صلح بيني وبينه، جاء هذا الرّجل بعد المغرب، وجلس مع الأولاد يحاول أن يلين قلبي بالعطف على زوجي بوساطتهم، وفيما كان الرّجل يتكلّم فوجئت بطرقٍ على الباب، كان الطّارق زوجي، ومعه ثلاثة من رجال الشرطة ومحقّق، وكتب المحقّق ما قاله ذلك النّذل - واسمح لي أن أصفه بالنّذل، وأعني به الوساطة؛ قريب زوجي - الذي أقرّ أمام الشرطة والمحقّق أنّه كان وما زال ذا علاقةٍ آثمةٍ معي منذ مدّةٍ، وأنّه حضر هنا لقضاء وطره.

ووقع الطّلاق، ورفضت أن أسلمّ الأولاد لأبيهم، وكانت تلك رغبته، وخرجت بهم إلى الشّارع؛ لا مأوى، ولا مال، مجردّين من كلّ شيءٍ، عاريةً ظهورنا، خاويةً بطوننا، إلى أين نذهب؟! نواجه المجهول.

ولصقت بي التّهمة، وأصبحت امرأةً منبوذةً من المجتمع كلّه، موصوفةً بأبشع جريمةٍ، معها أولادٌ صغارٌ لا عائل لهم ولا راعي.

ولن أستطرد في وصف ما لاقيته من ألمٍ وعذابٍ، ولكن تصوّر امرأةً معسرةً، لا بل معدمةً ومعها تسعة أطفالٍ، نعم كُنّا عشرة أفواهٍ تطلب اللّقمة فلا تجدها، وصبرت، وعملت في مجالاتٍ عدّةٍ؛ فعملت خادمةً في البيوت، وخبّازةً، وفي غسل الثّياب، وحافظت على شرفي وعرضي على الرّغم من التّهمة التي كانت تلاحقني، ولكنني أخيراً انتصرت، وعرفني المجتمع طاهرةً عفيفةً.

نعم؛ لقد كان طريق الانحراف بالنّسبة إليّ سهلاً، فقد كنت جميلةً،



وكان جمالي يلفت النظر، وفقيرةً، والفقير من مسببات السُّقوط، كانت الكلاب المسعورة تقف في طريقي، والمغريات كثيرة، لكن صدَّقني - والله يعلم - كلما زادت المغريات ازددتُ عنادًا وتمسُّكًا بشرفي، وصمَّمت على أن أحفظ لأولادي أكرمَ سمعةٍ، وأن أكون لهم أظهرَ أمّ.

وذاث يوم دعاني أحد الأغنياء؛ لأخدم في بيته براتبٍ شهريٍّ كبيرٍ، وعلمت أنه لم يردني للخدمة، فقد كان هذا الغنيُّ مستهترًا، وكانت له خبايا في بيته، وقد بذل في سبيل إغرائي المال والوعود، لكنني وقفت صامدةً أمام كلِّ ما بذل، ثم تركت بيته بعد أن وبَّخته وأثبتته، وبعد يومين جاءني لا لشيءٍ إلا لسمع قصّتي هذه؛ قصّة المرأة الصّابرة الفقيرة الغنيّة بعفتها، الصّادقة مع ربّها، الأمانة على نفسها.

ورأيت عيني الرّجل وأنا أحكي له قصّتي قد اغرورقتا بالدموع، وأقسم على أن يتوب لله ڤڤ من استهتاره، وأنه تلقّى منّي درسًا ما سمع مثله من واعظٍ.

كان الرّجل عقيمًا، فدعاني إلى بيته، وأفرد لي ولأولادي جناحًا، وبذلت زوجته من حنانها ومالها لأولادي الشّيء الكثير حين أحسّت بتوبة زوجها على يديّ.

وعشت معها، وما أزال معزّزةً مكرّمةً، مدبرةً لهذا البيت، أمانةً على ما فيه.

وكبر الأولاد، وتخرّج من تخرّج منهم في الجامعات، وما يزالون لا يعرفون لهم أبًا ولا أمًّا سواي، فأنا الأبُّ الرّاعي، وأنا الأمُّ البارّة.

وذاث يوم كنت مع ثلاثةٍ من أولادي في السُّوق، فرأيت زوجي،



وكان في ثياب رثّة، يعلوه البؤس، يمدُّ يده لهذا وذاك من المارّة
وأصحاب الدّكاكين يستجديهم، ولكنّي لم أر أحدًا يعطيه، ولا أدري
لماذا!

عرفته على الرّغم من مظهره المزري، وعرفني؛ لأنّي ما زلت -
على الرّغم من الهجر اللّذي دام عشر سنواتٍ والبؤس والعذاب اللّذين مرّاً
بي - أحتفظ بجمالي ومظهري ولم أتغيّر كثيراً.

ومدّ يده إليّ يستجديني، لكنّي ضربت كفّه بكفّي، ونهرته بشدّة، ورأى
ابني عملي، ولم يعهد فيّ هذه القسوة على سائلٍ فعاتبني، لكنّي لم أردّ
عليه.

المشكلة يا سيّدي: أنّ أولادي يسألونني دائماً عن أبيهم، وقد
أخبرتهم أنّه هلك.

الأربعة الكبار يعرفون قصّتي معه ويتذكّرونه، لكنّي أرفض كلّ محاولةٍ
منهم لرؤيته أو معرفة مكانه.

إنّني أحسّ الآن بانتصارٍ وأنا أراه يشربُ من الكأس التي سقانيها،
أودُّ أن يتعدّب أكثر فأكثر، وكلّما رأيتَه في السُّوق يدور على النّاس
يستجديهم أبلغ الشُّرطة عنه؛ ليقبضوا عليه بتهمة التّسوّل، وكلّما خرج من
السّجن سعيت لإدخاله فيه مرّةً أخرى بتلك التّهمة.

سيّدي! إنّي بشرٌ، وأشعر بالانتصار على ذلك اللّئيم اللّذي ضيّع
أطفاله التّسعة وأمّهم، أرجوك لا تقل لي: سامحيه، واغفري له، واعظني
عليه، إنّه أبو أولادك.

إنّني الآن في نعمةٍ، فقد أغدق ذلك الغنيّ وزوجته على أولادي



خيرًا، وأظنُّ أنه سيوصي لهم بثلاث ما يملك، هكذا أشعر، ولكن مع ذلك كله أنا حاقدٌ على ذلك اللئيم؛ أبي أولادي.

السؤال:

هل أنا آثمةٌ بحقدي على عدوي اللدود، وحرمان أولادي من رؤية أبيهم الظالم؟! أشعر أنني فعلت كثيرًا بحق هذا اللئيم، لكن كل ما فعلته معه لا يساوي عذاب يوم واحدٍ عندما خرجت من بيتي أنا وأولادي التسعة جياعًا عراةً لا غطاءً لنا غير الأرض، ولا دثار لنا غير السماء.

هل أنا ظالمة؟

الجواب:

كنت أودُّ أن أقول لك: سامحيه. فإنَّ أفضل ما يكون العفو عند المقدرة، وأنت الآن قادرةٌ على العفو، مالكةٌ له، وقد فضلك الله عليه بصبرك ووفائك وعطفك على أولادك التسعة الذين نسأل الله أن يعصمهم من سوء أبيهم.

إنَّك الآن قدرت، ومكَّنك الله من كلِّ شيءٍ، وقد أمرنا الله أن نعفو ونصفح، ورعَّبنا في ذلك بقوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:

٢٢٠]

فإن عفوت فأجرك على الله، والمسامح كريمٌ، وإن تركت فأنت صاحبة حقٍّ، لكنني لا أريد أن يشعر الأولاد بانتقامك؛ حتى لا يتألّموا من سوء تصرف أبيهم.

هذه نصيحتي وليس لي على قصّتك تعليقٌ إلا أن أقول: هنيئًا لك، فقد استطعت بصبرك أن تغسلي عن شرفك سوء السمعة، وهذا ما لا يقدر

عليه إلا ذوو الإرادة القويّة والثّقة بالنّفس، وهما صفتان يمنحهما للمفضّلين من عباده.

ولعلّ فيما حصل الخير بالنّسبة إلى مستقبل أولادك، وقديماً قالوا: ولو اطلّعت على الغيب - أيّها النّاس - لا اخترتم الواقع^(١)، ولو أنّ زوجك لم يطردك أو أنّه لم يدبّر ما دبّره من مؤامرة ضدّك لبقيت مع أولادك في الدّلة، ولم يتعلّموا أو يصلوا إلى ما وصلوا إليه، ولم يشقّوا الطّريق في الحياة، لكنّ ما حصل أظهر معدنك الأصيل، وكان باباً لخيرهم وحفظ مستقبلهم.

إنّني مقدّر ما عانيته، وشاعرٌ به، وأنا لم أطلب إليك الصّفح إلا لأنّ الحقد يولّد الحقد، وأنت استطعت الارتفاع فوق آلامك المرّة، وصمدت أمام كلّ صنوف الإغراء والضّياع والألم، من هنا ليس غريباً أن أطلب إليك أن ترتفعي فوق حقدك وتصفحي.



٣٥- مصيبةٌ وأعظم بها!

سيّدي! المصائب أنواعٌ، والبلايا أصنافٌ، وكم من مصيبةٍ تقع في أهل دارٍ هي بالنّسبة إلى بعضهم نعمةٌ، وبالنّسبة إلى الآخرين نقمةٌ، وقديماً قال المتنبي:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد^(٢)

(١) انظر: بيان المعاني، لعبد القادر العاني (٦/٣٤٨).

(٢) انظر: خزنة الأدب وغاية الأرب، لابن حجّة الحمويّ (١/١٩٥).



لكنَّ مصيبتِي ليست كغيرها من المصائب، فلو سترت لكانت بالنسبة إليَّ نعمةً، لكن أبت الأقدار إلا أن تظهر على بشاعتها وسوء وقعها في الوقت الذي كنت أتحرّرها أن تكون مصدر سروري وهناء مستقبلي.

إنني أكتب لك واقعا حدث، ولا أتجنّي فيه ولا أظلم.

سيّدي! وإنّها - وحقّ الله - حقيقةٌ، لا خيال، فلاترك المقدمات؛ حتّى لا أسبق الحوادث، وأبدأ بذكر مأساتي.

عشت مع زوجتي خمس سنواتٍ كان ملؤها التفاهم والحبُّ، وكأنا خلقنا؛ ليكمل بعضنا الآخر، عشنا كما أراد الله لنا أن نعيش في مودّةٍ ورحمةٍ، وسكّن، نحكي لنضحك، ونضحك لنسعد، ولا ينقصنا إلا الأولاد.

لقد تمّنت أن أكون أباً، لكن لم أفكر جدّياً في هذا الموضوع، ولا تكلمت أمامها عنه؛ خشية أن يزعجها ذلك، بل ربّما خفت على نفسي من ولدي أن يكون شريكي أو ضرّتي.

وكنت أرى زوجتي شديدة الوله لسماع كلمة (ماما)، وكانت تكثر الحديث في هذا الموضوع، كقولها مثلاً: لو أنّ الله أتّم علينا نعمته بطفلٍ يكون الرّابطة بيننا والأنس لنا، نصغي إلى بكائه، ونسرُّ بتناغيه.

وكنت أقول لها: ما زلنا أطفالاً نحتاج إلى من يرّبينا، فهل تريدين إزعاجنا بطفلٍ؟! ما لنا وللأطفال؟!!

وحبلت زوجتي، ولا تسل عن فرحتي، وكان الولد غاية أمنيّتي، لا يهمني جنسه، أريد ولداً ذكراً أو أنثى، المهم أن أسمع كلمة بابا من فم طفلٍ، أدخل البيت فألاعبه وأناغيه.



مركزي المالي جيّد، ومركزي الاجتماعي ممتاز، ومركزي الثقافي جامعي، وأنا ممتلئ نشاطاً، والجميع ينتظر لي مستقبلاً زاهراً، وبيتي جنة، ونعمة الله تحيط بي من كل جانب.

ومضت الشهور بطيئة وأنا أستعجلها، وفي كل يوم أحسب لقدوم الطفل حسابه، وأعدُّ له كل شيء؛ ملابسه، وسريره، وطعامه، وغرفة أثاثه، المهم أن يفتح عينيه للدنيا.

لكنني لاحظت تغييراً في زوجتي في شهرها السابع، كانت شاردة الذهن، مهمومة، تفكر كثيراً، ويسرح بها الفكر بعيداً، وكنت أظن أن هذه الأعراض طبيعية تشعر بها كل أنثى، وعرضتها على الأطباء المختصين، فلم يذكروا مرضاً، وعندما أسألها: بم تشعرين؟! تجيبني: إنني أفكر بالولادة. وكنت أهوّن عليها كل شيء، وأقول لها: لست أول أنثى تلد.

وبذلت لزوجتي من مالي وقلبي ونفسي الشيء الكثير، لم أبال بأي شيء، فقد انحصرت تفكيري واهتمامي فيها؛ لأنها ستكون أمّ ولدي بعد أن كانت حبيبتي وشريكة حياتي، وجاء اليوم الموعود، وحانت اللحظة الحاسمة التي كنت أنتظرها بفارغ الصبر.

إنك - يا سيدي - أب، وتذكر تلك اللحظة التي تمخضت فيها زوجتك؛ لتنجب أول ولدٍ لك، فتشعر بأبوتك له وبنوته لك!

إنه الأمل والرجاء، ما كنت خائفاً، لكنني كنت أحس بشيء لا أدري ما هو، كنت مرعوباً ومسروراً وخائفاً ومطمئناً.

لكن زوجتي تعسرت ولادتها، ورأيت الطبيب يهرول، وعلى وجهه



علامات اليأس، والممرضة تجري، تدخل وتخرج وهي تنظر إلى لا شيء، سألتها: ماذا حدث؟ فلم تجب. وسألت الطبيب: ماذا جرى؟ فقال: تحتاج إلى عمليّة، ولكن من الأهمّ عندك؛ الولد أم الأمُّ؟! سؤالٌ غريبٌ، ما معناه؟!

لا بدّ من تضحيةٍ، أجبت: أريد زوجتي ولا أريد ولداً، أنقذ زوجتي يا دكتور، أرجوك، إنّها حياتي، ولن أعيش دونها.

وقال الطبيب كلماتٍ يطمئنني بها، ثمّ دخل غرفة العمليّات، وكانت زوجتي قد دخلتها من قبل محمولةً فاقدة الوعي.

وبكيت للمرة الأولى منذ خمس سنين، ورفعت بصري إلى السماء أرجو الله أن يحفظ لي زوجتي، وسمعت صوت الطفل يصرخ، وبعدها خرج الطبيب قائلاً لي: ادخل، زوجتك تطلبك، إنّها محتضرةٌ، ودّعها. قالها لي بجزعٍ ويأسٍ.

ودخلت الغرفة، وكانت زوجتي مصفرةً الوجه، نائرة النفس، وأمسكت بيدي، ونظرت إليّ، وطلبت إلى الممرضة أن تخرج، وقالت: اغفر لي يا زوجي. قلت: ماذا يا عزيزتي؟! اطمئني إنّك لم تسيئي إليّ. وليتها ماتت قبل أن تجيبي، ودفنت سرّها في قلبها، ورحلت قبل أن تبوح به، قالت: إنّ المولود ليس لك، إنّ ابن من لا أعرفه، لقد رأيتك مشتاقاً إلى الطفل، وكنت له أشوق، وعلمت من طبيبنا أن لا أمل فيك؛ لأنّك عقيمٌ ولن تنجب، وقد اجتمعت بمن لا أعرفه، فحملت. وسكتت، ثمّ قالت: أما وقد علمت الحقيقة فأوصيك بالمولود خيراً، فإنّها ابنتي، واغفر لي ذنبي، فوالله ما خنتك إلاّ هذه المرّة.

وألحّت في طلب المغفرة، وانتابنتي في تلك اللّحظة نوبة شهامةٍ من

هول الموقف، فقلت لها: لقد عفوت، فتبسّمت وهي ممسكةٌ بيدي، ثم ماتت.

ماتت وتركت لي العذاب الذي أراه في الصّباح والمساء، تلك المولودة المشؤومة التي فُرِضت عليّ فرضاً؛ لتحمل اسمي، وفرضت عليّ رعايتها واحتضانها، وفعلاً حملت اسمي خوفاً من الفضيحة.

حدّثني نفسي مرّاتٍ أن أقتلها، لكنني خفت الله ﷻ، وما ذنبها حتّى تقتل؟! إنّها لم تسيء إلى أحدٍ، ولكنها مظلومةٌ بنسبة السوء إليها.

وعاشت معي، لأرى في وجهها كلّ يومٍ الخيانة، ولتذكرني بأمّها التي لا أدري؛ أترحمّ عليها أم ألعنّها!

أهملت عملي، وأصبحت أعيش حياتي كالمذهول، أخاف من المرأة، وقلت لنفسي: لن أتزوَّج؛ لأنني عقيمٌ، وأخشى أن تتكرّر المأساة، وأن أفتضح، فقد يقول قائلٌ: من أين أتته هذه الفتاة؟!

كنت ضحوكاً أنيساً، فصرت قطوباً، وكنت مرحاً فرحاً، فصرت حزيناً، وكنت شاباً متوقّداً الذكاء أضحك للمستقبل، فصرت يوّوساً قنوطاً أخاف من الحاضر والمستقبل.

إنني أكره دخول بيتي لوجود هذه البنت فيه، وأحاول التخلّص منها فلا أقدر، وكانّ المتنبّي قال فيّ هذا البيت:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ^(١)

إنّها عدويّ اللدود، لكنّها تعيش في بيتي، وتكبر أمام عينيّ، وأنا

(١) انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجّة الحمويّ (١/١٩١).



مكرهٌ على تربيتها ورعايتها.

السؤال:

قل لي بالله عليك: ماذا أفعل؟! إنَّ هذه البنت كالكابوس الجاثم على صدري، كيف أتخلَّص منها؟ إنَّني أخشى على نفسي وعقلي من بقائها معي؟

الجواب:

قلت في رسالتك: إنَّك عفوت. وإنَّ الميِّتة تبسَّمت لك حين سمعت منك كلمة العفو، والوعد بالإحسان لهذه البريئة التي هي بحكم الشريعة بنتك؛ لقول النبي ﷺ: «الولدُ للفراشِ، وللعاهرِ الحجر»، رواه البخاريُّ ومسلم وغيرهما من طرقٍ عدَّةٍ^(١)، وعن غير ما رجلٍ من الصَّحابة.

والتي هي بحكم القانون بنتك؛ لاعتراك بها أمام الجهات المختصة.

أمَّا ما جرى بينك وبين أمِّها كما تدَّعي فمن يصدِّقك لو قلت ذلك؟! إنَّك تدَّعي أنَّها قالت لك: إنَّها خانتك. فهل من بينة؟! «والبيِّنةُ على المدَّعي»^(٢)، هكذا قالت الشرائع وقوانين المرافعات.

وهبَّ أنَّها قالت لك، ثمَّ استغفرتك، ثمَّ طلبت العفو والصَّفح، وفي تلك اللَّحظة انتابتك نوبةٌ شهامةٍ، فعفوت، فابق يا أخي على شهامتك، واستر على نفسك وعلى من طلبت إليك السَّتر.

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٢٠٥٣)، ومسلم، رقم: (١٤٥٧)، والترمذيُّ، رقم: (١١٥٧)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) رواه الترمذيُّ، رقم: (١٣٤١)، وقال: هذا حديثٌ في إسناده مقالٌ.

ثمَّ تقول: ليتها لم تفعل. هب أنها لم تفعل، وهب أنها كانت في هذيانٍ حسيٍّ أو احتضارٍ. أحسن الظَّن!

كن شهماً، وانس الماضي، وكن مسلماً، واستر، فقد سمعنا حديثاً عن رسول الله ﷺ: «مَنْ سَتَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فِي الدُّنْيَا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١)، والمسلم كلمة تشمل الذكر والأنثى.

ولو صدَّقناك وصدَّقناها رحمها الله وعفا عنها فاحتسب تربيتها لله، إنها أنثى يتيمة، وفي تربية اليتيم مكرمةٌ وجزاءٌ، وفي تربية الأنثى مكرمةٌ وجزاءٌ.

أمَّا اليأس والقنوط والخوف من المستقبل فصفاتٌ لا تليق بشابٍّ مسلمٍ له مكانته المرموقة في مجتمعه وبين عارفه.

عدَّ إلى أنسك ومرحك، ولا تنس أنك قد عفوت، والمثل العربيُّ يقول: المسامح كريم.

انس يا أخي، وربِّ ابنتك؛ فإنها ابنتك شرعاً وقانوناً، فلن تستطيع البراءة منها. ربُّها على حبِّك، ولا تنس القول المأثور: لو اطلعت على الغيب - أيُّها النَّاسُ - لا اخترتم الواقع^(٢).



(١) رواه النَّسَائِيُّ، رقم: (٧٢٤٤).

(٢) سبق تخريجه.



٣٦- إذا لم تَسْتَحِيْ فاصنع ما شئت^(١)

سيدي! أكتب لكم سؤالي، أشرح فيه قصتي، فهي من القصص المؤلمة بالنسبة إلى فتاة مثلي، لعلنا - نحن النساء - نجد عندكم البلسم الشافي اللهم الذي نعانيه، لقد فقدت ثقتي بكل الناس، وكدت أفقد ثقتي بكل شيء، حتى بنفسي.

يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِيْ فاصنع ما شئت»^(٢)، وقد وجدت هذا الحديث ينطبق تمامًا على سلوك زوجي أو مطلقتي كما أحب أن أسميه، ويعبر عن أخلاق هذا الزوج الناقص خلقًا وخلقًا.

وأذكر بيتًا من الشعر كنت أحفظه وأنا صغيرة، وهو للشاعر زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمُ^(٣)
والحق ما قاله الشاعر، فإنَّ أشدَّ الندم إيلاَمًا أن تصنع المعروف، ثم لا تجد له صدى أو وفاء عند من صنعته معه أو له، فكيف بمن يقابل هذا المعروف بالإساءة بعد الإساءة، والشر بعد الشر، ثم لا يستحيي؟!!

قالوا: إنَّ حبل الكذب قصيرٌ، والشمس - وإن حجبته الغيوم عن

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٤٨٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: شرح المعلقات السبع، للزوزني (١/١٥٠).

العيون - نورها ظاهرٌ ونهارها واضحٌ. والحقيقةُ كذلك لا بدَّ أن تظهر، مهما طال الزَّيف.

ولكنِّي أعجب ممَّن يريدون أن يغمضوا عيونهم عن هذه الحقيقة على الرَّغم من وضوحها، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وأسفةٌ يا سيدي، سأطلق العنان لمشاعري بهذه المقدمة الطويلة، وقد تعذرني إذا عرفت قصتي.

أنا امرأة في الثالثة والعشرين من عمري، متزوجةٌ اسمًا، فلا أنا زوجةٌ في الحقيقة، ولا الرجل الذي وضعته الأقدار في طريقي زوجٌ كسائر الأزواج.

قد تُفاجأ الفتاة بخصلةٍ سيئةٍ في زوجها، كالبخل مثلاً، أو الأنانية، أو الشراسة، لكنِّي بُليت بما هو أفظع، فزوجي عاجزٌ جنسيًا، وهو يعلم ذلك من تقارير الأطباء الكثيرين الذين اتَّصل بهم يلتمس لديهم العلاج، ولم أتصوَّر أنَّ إنسانًا يعلم عن نفسه ذلك ثمَّ يقدم على الزَّواج ليعذب امرأةً بريئةً.

وكنت أظنُّ أنه فوجئ بهذا الأمر، وحاولت أن أقف بجانبه؛ لأسرِّي عنه، وأنصحته بالعلاج، وأصحبته إلى بعض من أعرف من الأطباء، وقرَّر الأطباء جميعًا أنه مريضٌ جنسيًا، وأنه يجب أن يعالج، وأنَّ شفاؤه غير مؤكَّد، وأخبرني أحدهم - وكان قد زاره من قبل - بأنَّ لا شفاء له، ومع ذلك كلُّه كان يرفض كلَّ نصيحةٍ، بل كان يستهزئ بالأطباء، ويؤكد أنه كامل الرَّجولة أمامي، أنا الزَّوجة العذراء بشهادة الأطباء الذين كنت ووالدي نراجعهم بصحبته.



ومن المضحك المبكي أن يتكلم أمام بعض أقاربه - وأنا أسمع - عن رجولته وفحولته، يتكلم كلام الواثق بنفسه، مع من يصدقه ومن لا يصدقه، وأنا أسمع، أنا التي أشاره فراشه وأعرف عجزه، ولكن لماذا يتكلم؟! والمعروف بين الناس أن هذا سرٌّ من الأسرار التي لا يليق بالإنسان ديناً وعرفاً أن يتكلم بها. لكنَّ الرَّجُل يحاول بكلامه هذا تغطية النَّقص الذي يحسُّ به، وكلامه من نوع الهديان.

وكنت أغفر له ذلك، وأقول: فليسْ نفسه. لكنَّ الأمر لم يقف عند هذا الحدِّ، بل تعدَّاه إلى اتِّهامي بأنَّه عندما دخل عليّ لم يجدني عذراء، علماً أنَّ الأطباء الذين راجعهم أكَّدوا عذريتي.

وبدأ سلوكه يتَّخذ طابعاً شديد الوقع في نفسي، فيه كثيرٌ من الإيلام والقسوة، ومع اتِّهامه لي وإيلامه وقسوته وقفت بجانبه إلى آخر المدى، كما قيل في المثل: بنت الكرام تصبر. وحاولت أن أكون مضرب هذا المثل، وكنت أقول لأهلي: إنَّ موقف الرَّجُل صعبٌ، فلنصبر.

فقد بدأ الرَّجُل يتَّهمني في سلوكي، وهو يعرف كيف يخلق الكلام وينسُق الكذب، وقديماً قيل:

لي حيلةٌ فيمن ينمُّ - مُ وليسَ في الكذابِ حيلةٌ
مَنْ كانَ يخلقُ ما يقوُّ لُ فحيلتي فيه قليلةٌ^(١)

صدَّقني إذا قلت، إنَّه مؤلَّفٌ يعرف كيف يخترع القصص ويؤلِّفها بسرعة، اتَّهمني بعرضي وأخلاقي، وأصبح محطَّة إذاعةٍ متنقِّلةٍ تتحدَّث عني في كلِّ مكانٍ، وعلى مسمع كلِّ أحدٍ، والسَّامعون بين مصدِّقٍ ومكذِّبٍ.

(١) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، للتويزي (٣/٣٦٢).

وأخيراً طلبت الطلاق ورفض، ورفعت دعوى ضده أمام المحكمة
أطلب فسخ النكاح للعيب الذي فيه، وقدمت كلّ المستندات التي تثبت
صحّة أقوالي، والتي أخذت بها المحكمة، وقضت بطلاقي منه.

بعد ذلك كله علمت أنّ هذا الرجل كان قد تزوّج قبلي من فتاة عاشت
معه المأساة نفسها التي عشتها، ثمّ انتهت بنفس الطريقة التي انتهت بها.
واكتشفت أنّ هذا الداء خلق معه، ومنذ بلغ سنّ الرجولة وعرف أنّه
فاقد لها سافر إلى بلادٍ أجنبيّة طلباً للعلاج، وأكّد له الأطباء أن لا شفاء
له من مرضه هذا.

وهنا أحبُّ أن أسأل: كيف يبيع إنسانٌ لنفسه أن يخدع غيره بمثل هذه
الخدعة، وهو يعلم عن نفسه أنّه إنسانٌ ناقصٌ؟! بل كيف يسمح لنفسه أن
يكذب الواقع، علماً أنّ الحقيقة قد ظهرت له، وما تزال تظهر أمامه،
وتقول له ها أنا؟!!

أمّا أنا فقد أصبحت مطلّقةً، وإنّ كلمة الطلاق كلمةٌ مكروهةٌ، ومكروهةٌ
وقعها على السّمع، وكفاها كراهةٌ قول النبي ﷺ: «أبغضُ الحلالِ إلى الله
تعالى الطلاق»^(١).

لكنني أعدّها نعمةً من الله بها عليّ، حيث أصبحت مطلّقةً من ذلك
الإنسان الذي ساء خلقه وخُلِقَ، وأنكر الجميل، ثمّ قابله بالتُّكران.

لقد أساء هذا الرجل إلى سمعتي إساءةً بالغةً، وصدّقه كثيرون ممّن لا
يعرفون حقيقته وحقيقتي، وأصبحت أحسُّ باتّهامهم لي من نظراتهم، حتّى
دون أن يتكلّموا، وما أسهل أن يطلق الإنسان العنان لخياله حين يسمع

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢١٧٨).



مثل هذه الأخبار، ثم يبدأ خياله يتصوّر قصصاً عن تلك المسكينة التي ألقاها القدر في طريق رجل لا يُقدّر المسؤولية حقّ قدرها، فكانت ضحيةً، وكانت حكايتها مأساةً.

وقد يكون في طلاقي منه رحمةً لي ونهايةً لعذابي، وهذا ممكن الحدوث لو أنني طلقتُ كأيِّ مطلّقةٍ اختلفت مع زوجها، فوقع الطلاق.

إنَّ مشكلتي أنني أصبحت امرأة سيئة السمعة، مطعوناً في شرفي وعرضي، من إنسانٍ فقد كلَّ معاني الإنسانية، وكلَّ معاني الرجولة.

أسفةٌ لإطنابي في شرح آلامي، لكنني مضطّرةٌ لأمهّد لسؤالي.

والسؤال ليس دافعه الانتقام أو الحقد، بل دافعه إظهار الحقيقة ليعرفها الناس.

نسيت أن أقول: إنَّ معظم صديقاتي ابتعدن عني، وإنَّ أهلي - وأعني أقاربي الذين سمعوا الحكاية - تغيّرت نظرتهم إليّ؛ لكثرة ما يسمعون من أقوال، والمثل الكويتي العامي يقول: كَثْرَ الدَّقِ يَفِكَ اللَّحَامُ.

السؤال:

هل عليّ ذنبٌ إذا أعلنت الحقيقة للناس دفاعاً عن شرفي ونفسي، على الرغم من قسوة هذه الحقيقة؟

إنني ما زلت شابةً، وكأني مطلّقةٌ أملي أن يأتي من يعوّضني عمّات، ويفتح لي بيته وقلبه؟ فهل من الممكن أن يطرق بابي أحدٌ، وأنا أحمل هذه السمعة؟

أرجوك، دلّني، ماذا أفعل؟!!

وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمَنَّ عَلَيَّ بِمَا يَثِبُ طَهَارَتِي وَعَفَّتِي .

الجواب:

أذكر شبهاً لهذه القصة قضت بها محاكمنا سنة (١٩٥٠م)، ذلك أن امرأة بدويّة رفعت دعواها تطلب الطلاق من زوجها، وحضر الزوج، وكان جميل الصورة ظاهر الغنى، طليق اللسان، يتمتع بنعمة الصّحة، وكان يتكلم بصوت خشن يوحى برجولته، وأخذ يعدّد نعمه على زوجته بفاخر الثياب والحليّ والتّوسعة على أهلها، وكان جواب المرأة: كلُّ هذا لا يفيد، فالتفت القاضي إليها، وقال: يظهر أنّك طامح. ومعنى كلمة طامح عند البدو: أنّ لك حبيباً وتريدان الطلاق من هذا لتتزوجيه. فقالت: لا والله، لكنّ زوجي هذا ليس رجلاً، بل هو امرأة مثلي، وكلُّ ما قاله صحيح، فقد أنعم عليّ، ووسّع على أهلي، وهو غنيّ، لكنّ هذا بالنسبة إلى مثلي لا يفيد، فإنّي أخشى على نفسي الزّلة التي تهدم شرف أهلي وشرفه، وتقضي على نفسي وشرفي، فأرجو تدارك الأمر، فإنّما أنا بشرٌ.

وأحال القاضي الزوج إلى الطّبيب الذي قرّر أن لا علاج لمثله، ولا دواء لدائه، وفصل القاضي بين الزوجين، واشتهر أمر هذا الرّجل بين عشيرته، فلم يزوجه أحدٌ، وعقل هو فلم يسع إلى زواج.

وكان الواجب على غريمك الذي عرف داءه أن يقف موقف العاقل، فلا يؤلم غيره، ولا يكذب نفسه، ولا يرمي غيره بدائه الذي فيه.

أمّا أنت، فلا تكرهي ما وقع، ولعلّ فيه خيراً لا تعلمينه، وقديماً قيل: لو اطلّعت على الغيب لا اخترتم الواقع^(١).

(١) سبق تخريجه.



وَالرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ قَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وَإِنْ كَانَ لَكَ نَصِيبٌ فَلَا بَدَّ مِنْهُ .

واعلمي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النِّسَاءِ الْعَفِيفَاتِ وَالْجَمِيلَاتِ وَالْأَصِيلَاتِ وَالغَنِيَّاتِ لَمْ يَحَالِفِهِنَّ الْحُظُّ، وَلَمْ يظْفِرْنَ بِزَوَاجٍ .



٣٧- إِيَّاكَ وَالشُّطْط

سَيِّدِي! أبعث لك برسالتي، ولعلك عندما تقرأها تضحك مني؛ لأنني لا أدري ما أقول لك، أقول: إنها مشكلة، أو رسالة حب؟! أم إنها من معقّد بعقدة اليتيم، وفقدان الحنان؟!

أنا إنسانٌ أبلغ من العمر الثانية والعشرين، لم أعرف لي أبًا ولا أمًّا؛ لأنّهما ماتا وأنا طفلٌ، ربّاني جدّي لأمي، وله أبناءٌ وبناتٌ؛ هم أحوالي وخالاتي، عشت معهم عيش المتطفّل على موائدهم، وفي مخادعهم، ووالله ما رأيت منهم منّا ولا أذى، لكنّه شعوري بأنّي عالّة على غير أبويّ .

أمّا مشكلتي فتتخصّر في الآتي :

كنت في الخامسة من عمري حين استيقظت ضحوة يوم؛ لأرى أهل البيت يجتمعون على طفلةٍ صغيرةٍ لا أدري أهى بنت يومها أم بنت أسبوعها، قالوا لي: إنّ جدّي وجدها في زنبيل^(١)، وهو خارجٌ من

(١) الزنبيل: الجراب، وقيل: الوعاء يُحمل فيه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣٠٠/١١).

المسجد بعد صلاة الصُّبح .

لم أعرف لماذا وجدها ، ولماذا أتى بها إلى بيته ، ولماذا ظلَّت تعيش بيننا ، ولم أعرف معنى اللَّقيط أو اللَّقيطة ، وإنَّما كنت أشعر بعطفٍ على هذه البنت دون غيرها ممَّن في البيت ، ولا أدري لماذا عطفت عليها ! وفي البيت من كان في مثل سنِّها ، ولعلَّ مشكلة اليتيم هي التي جعلتها قريبةً من قلبي .

علمت فيما بعد أنَّ جدِّي تبَنَّى هذه البنت عن طريقٍ رسميٍّ حتَّى كبرت وأصبحت فتاةً جميلةً كاملة الأثوثة ، تخطَّت مراحل التَّعليم بسهولةٍ ، وعرفت في أوساطنا الاجتماعيَّة بأنَّها بنت جدِّي .

نسيت أن أقول : إنَّ لي إخوةً من أبي أكبر منِّي ، وفيهم من يكبرني بعامٍ واحدٍ .

تقدَّم لخطبة هذه البنت كثيرٌ من النَّاس ، وكانت ترفضهم بحجَّة أنَّها تريد إكمال مراحل تعليمها ، وكانت تقول : إذا أكملت دراستي فلا مانع من الزَّواج ، أمَّا الآن فلا .

كنت كلِّما كبرت أشعر أنني مربوطٌ بهذه البنت ، وأحسُّ أنَّها تنظر إليَّ النَّظرة نفسها التي أنظر إليها بها ، حتَّى إذا بلغت العشرين من العمر أحسست أنني أحبُّها .

طلب أخي الصَّغير لأبي يدها ، فرفض جدِّي ذلك ، ولم أعرف السَّبب ، ولمَّا سألت قيل لي : إنَّها هي التي رفضت .

وقبل أيَّام خطبتها شخصيَّة مرموقة في مجتمعنا ، وعلمت بموافقتها فلم أصدِّق ، وكلمت جدِّي برغبتني بأن تكون زوجةً لي على كتاب الله وسنة



رسوله، فكان جوابه لي: لا يا ولدي؛ حرامٌ.

قلت: ولم؟! ومن أين أتت هذه الحرمة؟

قال: لأنَّها خالتك. فلم أصدِّقه، وهل كان جدِّي زانيًّا؟! لم أر يومًا من الأيام أحد أحوالي يقبِّلها، بل كانوا يعاملونها معاملة الغريبة، فمتى كانت هذه الخوولة التي زعمها جدِّي؟!

لا؛ أظنُّ أنَّ جدِّي اختلق هذه الخوولة^(١)، لأنَّه مفلسٌ، وكان يطمع بمبلغٍ أكبر من هذا الخطيب الجديد الوجيه الغنيِّ.

ثمَّ أرجع إلى نفسي، فأقول: لماذا رفضت الخاطبين الكثيرين الذين طلبوا يدها، ولم ترفض هذا؟!

لو صارحتها بحبِّي لها، وأنِّي أتمنَّاها زوجةً لي، وأمَّا لأولادي، وراعيةً لي ولبيتي، أتقبل بي؟! علمًا أنَّي لا أدري أتحبُّني أم لا، أظنُّ أنَّها تحبُّني، عرفت ذلك من نظراتها كما قلت.

وقلت لجدِّي: هل تعرف أنَّها ابنتك وأنَّها خالتي؟ قال: نعم، ويعرف الجميع ذلك.

قلت: وهل يعرف هذا الخطيب المتصابي مبدأ هذه البنت، وأنك التقطتها في زنبيلٍ عند باب المسجد؟ قال: وما شأنه بذلك؟ قلت: أظنُّ أنَّ هذه البنوة كانت وليدة إعجاب هذا الغنيِّ بها.

سيدي! سوف تتزوَّج البنت، وقد وقفت في وجه جدِّي وجميع أفراد

(١) الخال: أخو الأمِّ، والخوولة: مصدره. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/٤٤٣).



أسرتي، وقلت لهم: سأقف أمام البنت يوم زفافها وأقول لها على مسمع من زوجها ومن المحتفلين بزفافها: إِنَّكَ بِنْتُ زَنَا، وَإِنَّ جَدِّي قَدْ تَبَّنَاكَ وَادَّعَاكَ لِنَفْسِهِ، وَسَأَفْسِدُ جَمِيعَ الْمَحَاوَلَاتِ الَّتِي دَبَّرْتُمُوهَا لِاِكْتِسَابِ مَصَاهِرَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْغَنِيِّ.

قالوا لي: إِنَّكَ تَأْتُم، وَإِنَّا نَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا، إِنَّهَا أَخْتُنَا، وَإِنَّ أُمَّهَا قَدْ مَاتَتْ.

أنا على يقينٍ أَنَّ كَلِمَةَ الْبِنُوَّةِ هَذِهِ جَاءَتْ مَتَأَخَّرَةً، وَرَفُضَ الْبِنْتُ لِلْخَاطِبِينَ لَا يَدُ لَهَا فِيهِ، كَمَا أَنَّ قَبُولَهَا هَذَا الْخَطِيبَ لَا يَدُ لَهَا فِيهِ أَيْضًا. إِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِهَذِهِ الْبِنُوَّةِ إِلَّا بَعْدَ إِعْجَابِ ذَلِكَ الْغَنِيِّ بِجَمَالِ الْبِنْتِ، وَطَلَبِهِ يَدَهَا.

أنا لا أنكر أَنَّ جَدِّي تَبَّنَى الْبِنْتَ رَسْمِيًّا، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ بِنْتُ صِلْبِهِ؛ لَا مِنْ زَنَا، وَلَا مِنْ حَلَالٍ.

السُّؤَالُ:

هل يصحُّ زواجي من هذه البنت إذا كانت في الحقيقة بنت جدي؟ ثمَّ إذا كانت بنت جدي فكيف لم يأخذها من أمِّها، ووجدتها عند باب المسجد؟!

وهل يحرم الحرام الحلال؟! هي بنتٌ غير شرعيَّة، هل تدخل في جملة الأسرة؟! ترث وتورث؟ وهل في سعيي في إفساد زواجها من ذلك الخاطب إثمٌ؟!

الجواب:

قلت: إِنَّكَ فِي الثَّانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عَمْرِكَ، وَإِنَّكَ عَشْتُ يَتِيمِ الْأَبْوِينِ



في بيت جدك لأُمَّك الَّذِي تَبَنَّى فيما بعد بنتًا لقيطةً، وإِنَّكَ هَائِمٌ فِي حَبِّهَا،
وتريدها زوجةً لك بعد أن تَبَنَّاها جُدُّكَ رَسْمِيًّا .

إِنَّ هَذِهِ الْبِنْتَ أَصْبَحْتَ تَنَادِي جُدَّكَ: يَا أَبِي . فكيف بعد ذلك تريدها
زوجةً لك؟ وَإِنَّ إِثْبَاتَ جُدِّكَ بِنَوَّتِهَا رَسْمِيًّا حَرَّمَهَا عَلَيْكَ، وفوق ذلك قال:
إِنَّهَا بِنْتُ صَلْبِهِ . وقال لك: إِنَّهَا خَالَتُكَ . فما معنى ذلك؟ هل تريد أن
تتزوج أنثى حرَّمت عليك التَّحْرِيمَ الْأَبَدِيَّ؟!

يا ولدي! إِنْ كَانَ لَكَ عَقْلٌ فابْتَعِدْ عَنِ طَرِيقِ الزَّلَّةِ، فَإِنَّ الْحَرَامَ حَرَامٌ،
وَالْحَلَالَ حَلَالٌ، وَالنِّسَاءَ كَثِيرَاتٌ، دَعِ الْبِنْتَ لِنَصِيبِهَا، وَلَوْ كَانَ عِنْدَهَا شَعُورٌ
حَبٌّ نَحْوِكَ لِفَاتِحَتِكَ^(١) بِحَبِّهَا، وَهِيَ مَعَكَ فِي الْبَيْتِ فِي لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا .

دَعَهَا وَحَظَّهَا، وَلَا تَلْتَمَسِ الْمُسْتَحِيلَ، فَالْبِنْتُ خَالَتُكَ . هكذا قال
جُدُّكَ لِأُمَّكَ . وقوله هذا مُصَدِّقٌ، وَسَتَأْخُذُ بِهِ الْمَحْكَمَةُ؛ كُلُّ مَحْكَمَةٍ
شَرْعِيَّةٍ .

فابحث لك عن زوجةٍ غير هذه، ووقوفك في طريق زواجها حرامٌ
عليك، وستعاقب عليه شرعًا وقانونًا؛ لِأَنَّكَ سَتَكُونُ قَاذِفًا، وَعَقُوبَةُ الْقَذْفِ
يُعَاقَبُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ فِي دُنْيَاهُ أَوْ لَا ثُمَّ فِي آخِرَتِهِ .

وأقول لك أيضًا: إِنَّ رِسَالَتَكَ يَنَاقِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَمَنْ تَأَمَّلَهَا عَرَفَ
أَنَّ كَاتِبَهَا كَانَ حِينَ كِتَابَتِهَا فِي حَالَةٍ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ .

وختامًا أسأل الله لك الهداية إلى سبيل الرِّشَادِ .



(١) تفتاحا كلامًا بينهما: إذا تخافتا دون النَّاسِ . انظر: تاج العروس، للزَّيْدِيَّ (٨/٧) .

٣٨- لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل (١)

سيدي! أنا شاب من بلد عربي، فتحت عيني لأرى أبوين جاهلين، لم يسمعا في حياتهما كلمة المدرسة أو الدرس؛ لأنهما عاشا في أرض نائية بعيدة عن العمران بين البهائم، فكانت عقليتهما كعقليتها.

إنها الجاهلية التي عاشها الآباء والأجداد، فحسنوا بها السيئات، وأسأؤوا بها إلى المكرمات، وقالوا كما قال أسلافهم الأولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الرَّحْف: ٢٢].

وما أنا فيه الآن ليس إلا ترجمة عملية لمن يحاول الوقوف في تيار هذه الجاهلية الجارف، حاربي مجتمعي، وعادتي قرابتي، حتى أقرب الناس إلي، فأمي تبرأت من بنوتي لها.

فهل كان المفروض أن أسير في ركبهم وأتجاهل الحق؟ هل أنسى نفسي وأترك علمي الذي بذلت في تحصيله شبابي؟ هل أكفر بعد إيمان، وأضل بعد رشاد؟! هل أنا واهم أم مصيب كلاً، وأستغفر الله العظيم؛ إن علمي وإيماني يدفعاني إلى أن أفعل الخير، وأبتعد عن الشر، وذلك ما يريده الله من أولي الألباب الذين يفقهون ويعقلون، وما تعلمت إلا لأكون مميزاً بين الحق والباطل، وبين النور والظلام، وبين الحسنة والسيئة.

ومنذ أنهيت المرحلة الابتدائية من تعليمي كنت ثائراً على الأوضاع التي ورثناها عن الأجداد، لكن من سمع منهم قولي كان يقول لي: إنك

(١) رواه أحمد، رقم: (١٠٩٤).



بعدُ طفلٌ صغيرٌ.

كنت أنتقد الكبيرة والصغيرة من عاداتنا السيئة، وأتساءل: لماذا نضلُّ هكذا في ظلامٍ دائمٍ دامسٍ؟!

لماذا نرجو من لا يعقل ولا يبصر؟ ونسأل من لا يسمع ولا يجيب؟
لماذا نقتل لأتفه الأسباب؟ ونظلم ولا نعترف بالظلم، ونذنب ولا نقرُّ بالذنب؟

لماذا نطلب الثَّارَ، ونحن الظَّالمون؟

لماذا ننكر الحقَّ الذي علينا، ونقتل من أنكره لنا؟

لماذا نشهد بالرُّورِ عصبيةً إذا دعانا قريبٌ للشَّهادة، ونتصامُّ عن قول
الله لنا: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؟!

ولماذا نقُدِّس هذه السيئات؟!

وحاولت مرَّاتٍ عدَّةً أن أقتلع هذه الأوبئة من نفوس مجتمعي
وأقربائي، لكنَّهم كانوا يسخرون منِّي، ومن العجب أنَّهم قالوا لي:
استغفر ربِّك، وكأني قد قلت بهتاناً وزوراً، أو كأني كفرت.

ودخلت الجامعة، وكنت موفقاً في دراستي إلى أن نلت الشَّهادة،
وأصبحت مهندساً زراعياً، وكنت أجاهد قومي بالقول، أريد أن أصلح
بعض جاهليَّتهم، لكن في هذه المرَّة كادوا يقتلونني، وقال قائلهم: عفونا
عنك صغيراً، فإيَّاك أن تتكلَّم بعد الآن بما يمسُّ شرفنا وتقاليدنا التي هي
كرامتنا.

وتسلَّمت عملي بوصفي مهندساً زراعياً بإحدى قرى الرِّيف، وفكَّرت

في الزَّوْجِ، ولم أكن حرًّا في اختيار شريكة حياتي، فالإرادة الأولى إرادة أمِّي، اتَّفقت مع أبي على اختيار الزَّوْجَةِ، وكان الله معي في اختيارها، فنزَّوجت من اختارها زوجةً لي، وكانت جميلةً لم يطغها جمالها، فقد كانت مطيعةً، وبهذه الطَّاعة تعلَّمت القراءة والكتابة، فاستقامت حياتنا، ورزقنا الله ولدين ربطا حياتنا بالموَدَّة والرَّحمة.

وذاث يومٍ لم يكن سعيدًا بالنِّسبة إليَّ وصلتني برقيَّةٌ كانت موقَّعةً باسم أمِّي، فما معنى هذا؟! أين أبي إذن؟! وكيف تخرج أمِّي من بيتها إلى مكتب البرقيَّات؟ إنَّها لكبيرةٌ لا تحدث من امرأةٍ مثل أمِّي.

كان مضمون البرقيَّة: (احضر فورًا)، إذن لا بدَّ أن شيئًا حصل لأبي.

وأوجست خيفةً، وسافرت في أوَّل قطارٍ، واستقبلني في المحطَّة من حملني إلى قريتي على دابَّته، وكان كالأبكم صامتًا لم يتكلَّم حتَّى وصلنا إلى المنطقة، وانطلقت إلى بيتنا، كانت الوجوه التي أراها واجمةً^(١) عابسةً، وتجاهلني كثيرٌ من الجيران، ودخلت المنزل، ولم يكن هناك شيءٌ غيرٌ عاديٍّ، اللّهمَّ إلَّا الهدوء القاتل، أمِّي تلبس السَّواد، ووجهها جامدٌ، أين أبي إذن؟ قالت بياجاز: قتلوه!

قلت: ومن الذي قتله؟ وأين العزاء والبكاء والترُّمُّل والأجداد؟! لا جواب على أسئلتي، لكنني استمعت إلى القصَّة تحكيها أمِّي لي:

أسرةٌ تسكن في منازل قريبةٍ من منزلنا كان بينها وبين أسرة أبي ثأرٌ

(١) الواجم: العبوسُ المطرق من شدَّة الحزن. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦٣٠/١٢).



قديم، وانتهزوا الفرصة، فقتلوا أبي وهو يرمى دوابه وحيداً في حقله، ولم تُبلغ أمي السلطات الحادث؛ لأن في هذا عيباً كبيراً، والواجب يحتم علينا أن يقتصر أحد أفراد أسرتنا من أسرة القاتل، وليس لأبي ولدٌ سواي، فلا بد أن أقتل من قتل أبي، فإذا قتلت قاتل أبي لا بد من قتلي ثأراً بثأراً، ونفساً بنفس، ونسوا قول الله ﷻ: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لُولِيهِ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]. نسي هؤلاء الولاية، ونسوا سلطان الدولة، وحكموا بالفوضى، التي كانت نتيجتها سلسلة طويلة من الدماء يجب أن تغطي تراب القرية، إلى أجل لا يعلمه إلا الله.

لم تقم أمي مأتماً، ولم تتلق من أحد تعزية؛ لأن التعزية لا تكون إلا بعد أن نأخذ بثأرنا، وحينئذ تكون التعازي بنصب المأتم.

لقد كنت وحيداً لوالدي، وعلي أن آخذ بثأر أبي، ولا مفر من ذلك.

علي أن أبرأ من إيماني وعقلي وتعليمي، وأن أعود إلى الجاهلية المتحجرة في أدمغة لا تعقل، وألباب لا تفقه.

ومضت الأيام ثقيلة، واستأذنت أمي لأعود لعملي، فكان جوابها: إلى أين؟ وأي عمل هذا الذي يمنعك من أخذك بثأر أبيك؟! ستبقى هنا حتى تغسل عارك!

ووصلت زوجتي وأولادي إلى بيت أبيها، وستبقى هناك حتى أثبت رجولتي، فإنني الآن لست لها بكفء، فقد فقدت رجولتي، ولن أستردها حتى أقتل قاتل أبي، أو آخذ بثأري من بيت القاتل.

وطلبت زوجتي فرفض الأب والجيران ومن لا دخل لهم من أنصار الفوضى، وحاولت السفر إلى عملي فمنعوني، ولا تسل - يا سيدي -

عمًا عانيته من جرّاء رفضي لكلّ محاولاتهم التي كانت تدور حول أخذي بثأري من قتلة أبي، كانت العيون تشرزني، والألسنة تشتمني، ووصل بي الحال إلى أن كان بعض الصّبية يبصقون على الأرض إذا شاهدوني في الطّريق، وعلى ثوبي، وربّما أصاب وجهي البصاق، ولعلّ هؤلاء الصّبية كانوا مدفوعين من آبائهم أو أمّهاتهم.

أمّا أمّي فأعدتّ لي يومًا من الأيام القناع وثوبًا عتيقًا لامرأة، وقالت لي: ليتني لم ألدك، ليتك كنت سقطًا، يا لعاري فيك أمام النّساء، ومع ذلك وقفت مع العقل؛ لكي لا يضيع مستقبل أولادي ومستقبل أسرتي، وأخيرًا قلت لأمّي: لقد علّمني ديني هذه الكلمة، ولن ينفعك أيُّ كلام تقولينه لي، ولن أطيعك في معصية ربّي، ولن أطيع أحدًا غير الله؛ لأنّ ديني قال: «لا طاعة في معصية، إنّما الطّاعة في المعروف»^(١)، ولن أعصي الله في طاعتكم.

أمّا زوجتي المغلوبة على أمرها فكانت تعاني القسوة مثلي؛ لأنّها تحبّني، وكانت تعلم أنّني على حقّ على الرّغم ممّا كانت تراه من كره أبيها لي.

وقد وقفت يومًا أمام أبيها قائلةً له: لا أريد أن يعيش أولادي يتامى، وأبوهم حيّ، فكان ردُّ أبيها لها: قصرت رقبتني، ومعنى ذلك: أنّ زوج ابنته رجلٌ ناقصٌ، فكيف سيبقى هذا النّاقص صهرًا له؟! إنّ ذلك بالنّسبة له عارٌ.

وسافرت مودّعًا باللّعنات إلى بلدٍ عربيّ مجاورٍ، وأخذ النّاس بل

(١) رواه البخاريّ، رقم: (٧٢٥٧)، ومسلم، رقم: (١٨٤٠).



الأوباش^(١) الجاهلون يعيرون أمي، ومنهم من كان يعزّيها بموتي، لكنّها كانت تُطمئنُ نفسها والنّاس بأنّني سأعود لأخذ ثأر أبي، تقول هذا لتغطي موقفها المشوّه المَعيب في نظرها ونظر المجتمع المحيط بها.

وسمعت الأسرة المعادية لنا كلام أمي فأرسلت في إثري من يقتلني حتّى يموت الثأر، فهربتُ حتّى وصلت الكويت.

مشكلتي أنّ زوجتي علمت مكاني هنا، وكتبت إليّ بشوقها وحبّها تسألني متى سأطلبها، أو متى سأحضر لأخذها، وقد اشتقت لها ولأولادي، وطال فراقي لأسرتي؛ زوجتي وذريّتي، فماذا أفعل؟

الخطر محيط بي؛ لأنّني مطادرٌ من قبَل الأسرة المعادية المهدّدة بكلمات أمي، ومطادر من أسرتي التي تبرّأت منّي والتي تريد غسل عارها بالخلاص من وجودي.

السؤال:

حياتي مهدّدة من الطّرفين، وزوجتي لن يتركها أبوها لي؛ لأنّني أصبحت عارًا، ولست كفؤًا لها في نظره، فماذا أفعل؟

إنّني ضحيّة؛ ضحيّة العادات الجاهليّة، فهل أجد عندك حلًّا لمشكلتي؟

الجواب:

إلى القراء الكرام، كان على السائل أن يوجّه سؤاله إلى المُستشار في

(١) الأوباش: هم الأَخلاص والسّفلة من النّاس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/٤٣٧).

باب (الحقني يا مستشار)، لكنّه وجّههُ إِلَيَّ ؛ لحسن ظنّه بي، وثقته في جوابي، وأرجو أن أكون كما ظنّ.

إنّ قضيتّه اجتماعيّة أكثر منها دينيّة، والجواب الدّينيّ الَّذي كنت سأقوله أجاب عنه في قوله: إنّ القصاص لوليّ الأمر، فهو الَّذي يتولّى قتل النّفْس بالنّفْس، وأخذ العين بالعين، وإنّه وحده الَّذي جعل الله له السُّلْطَان بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]؛ لهذا أوجّه إلى القُرّاء الكرام، ذكورهم وإناثهم أن يمدّدوني أفكارهم في مشكلة هذا السّائل لعلّي أستطيع من اطلاعي على آرائهم حلّ مشكلة هذا المشرّد، وأرجو أن أنشر بعض الأجوبة الّتي ترد إليّ.



٣٩- اليّيمُ المعقّد

سيّدِي! سمعتك غير مرّة بوساطة التّلفاز والإذاعة تنشّد هذا البيت من الشّعْر:

ليسَ اليّيمُ مَنْ انتهى أبواه مِنْ هَمِّ الحياةِ وخلفاهُ ذليلاً
 إنّ اليّيمَ هو الَّذي تلقى له أمّا تخلّت أو أباً مشغولاً^(١)
 وإنّ ما قاله الشّاعر في هذين البيتين ينطبق عليّ تماماً، فقد عشت هذا اليّيم، وهذه المأساة.

قرأت عن حنان الأمّ كثيراً، وسمعت من والدتي في صباي ما هو

(١) سبق تخريجه.



أكثر، وقرأت عن رعاية الآباء وعطفهم على أولادهم، وسمعت عنها كثيراً، وكلّما قرأت أو سمعت ابتسمت ساخراً قائلاً لنفسي: أين أنا من هذا، فأنا لم أر منه شيئاً؛ لأنّ واقعي على النقيض ممّا قرأت وسمعت.

قرأت وسمعت عن لهفة الوالدين وسهرهما الليلي الطّوال إذا مرض ولدهما أو عطش أو جاع أو بكى، وقرأت القصص والحكايات والأشعار عن حنوّ الآباء والأمّهات وإيثارهم الأولاد على النفس، فإذا رجعت لنفسي قلت: أين أنا من هذا؟!!

لا أدري ماذا تقول إذا قلت لك: إنني أكره أن أسمع كلمة: رحم الله والديك؛ لأنني لم أر من والديّ إلاّ القسوة والجوع والتّشردّ والحرمان والإهانة، وكلّ الصّفات التي تجمعها معاني هذا الكلمات، وأرجو أن يتّسع بالكم لي حتّى أضع بين أيديكم مخاوفي التي أخشى أن يمتدّ بلاؤها إلى آخرين أبرياء.

نشأت لا أعرف لي أباً ولا أمّاً، لم أكن لقيطاً، فأنا ابن شرعيّ، ولدت من نكاح؛ لا من سفاح، لكنّ أبي وأمّي تزوّجا ثمّ تفرّقا بعد أشهر، وكنت في أثناء طلاقهما حملاً.

لماذا تزوّجا، ولماذا افترقا؟! لا أدري، وكلّ ما أدريه أنّ أمّي كانت تعيش مع رجلٍ غير أبي، وأبي يعيش مع زوجةٍ غير أمّي، تزوّج كلّ منهما؛ لينعم بحياته على حساب شقائي، فأنا الضّحيّة، أصارع الدّنيا وتصارعني، وأنا لم ييس عودي بعد.

لم يكن لي جدّ ولا جدّة، لا من جهة الأب ولا من جهة الأمّ، فضعت، قد ألتمس الحنان وأشتاق إليه، فأتي البيت الذي تسكنه أمّي، لكنني لا ألبث حتّى أخرج مطروداً كالكلب، فإذا ذهبت إلى بيت أبي ذقت

مرَّ العذاب والطرْد من زوجته التي يسمِّيها النَّاسُ زوجة الأب .

وهكذا لم أعرف الاستقرار، ولم يمسح أحدٌ على رأسي مسحة حنانٍ، ولم يطعمني أحدٌ لقمة سخاءٍ، لم أسمع كلمة عطفٍ من أبٍ أو أمٍّ .

وهكذا عشت حياتي في دائرة ألمٍ وحزنٍ وقلقٍ لا بداية لها ولا نهاية .

لا أذكر - يا سيدي - أنني عشت الطفولة كما يعيشها الأطفال، ولا أذكر أنني لعبت في الحارة كما يلعبون، أو مرحت معهم كما يمرحون، بل كنت حزينا مكتئبا دائما؛ حتَّى إنَّهم أطلقوا عليَّ اسم الرَّجُل الصَّغير .

وجئت يوماً إلى بيت أبي مطروداً من بيت أمِّي، فلم يستقرَّ بي الحال سوى ليلةٍ واحدةٍ، حتَّى أصبحت لأستقبل الطرد من أبي وزوجته مرَّةً أخرى .

فإلى أين أذهب؟ لا أدري! وكانت كلُّ أمتعتي وأثاثي وملابسي في صرَّةٍ لا يشقُّ حملها على مثلي، وكنت يومئذٍ في الحادية عشرة من عمري، وقادنتي رجلاي بلا إرادةٍ إلى بيت أمِّي، وكانت السَّاعة السادسة صباحاً حين طرقت الباب، فتحت أمِّي فلم أعرفها، اتَّهمت عيني بالكذب .

هل هذه أمِّي؟ لا أظنُّها أمِّي؛ لأنَّها كانت عُريانةً من كلِّ ثوبٍ، حتَّى من شقَّافٍ، سألت: من؟ إنَّ صوتها صوت أمِّي، وكان زوجها يقف خلفها عُريانةً أيضاً، وانقبضت أساريهما حين رأياي، وانها لا عليَّ بالشتائم، فبكيته وقلت: زوجة أبي طردتني وضربتني، وأريتهما آثار الضرب الواضح على جسدي، والتفتت أمِّي إلى زوجها تقول: اتركه،



وسنبحث له عن حلّ.

لكنّ الزّوج لم يلتفت إليّ، ولا إلى كلام زوجته، بل هجم عليها هجوم الوحش، وفعل معها أمامي ما لا أستطيع ذكره ممّا يندى لذكره الجبين.

قد لا تصدّق ما حدث، فقد رأيت بعينيّ كلّ شيءٍ، وأنا ابن الحادية عشرة، وخرجت من البيت هائماً ساعاتٍ طويلةً، لا أبصر طريقي، حتّى سمعت صوت أذان الظُّهر قريباً منّي، ورأيت النّاس يدخلون المسجد، فدخلت معهم أحمل صرّتي التي كان فيها كلّ ما أملك، أجرّ رجليّ، وللجوع آلامه في أمعائي، والجوع لا يرحم.

وشعرت بيدٍ حانيةٍ تمسح على رأسي، فرفعت بصري لأرى وجهها يتسم لي قائلاً: ما بك يا ولدي؟ فسكّتُ، فكرّر السُّؤال مرّةً أخرى، فكانت دموعي أسرع من لساني، بكيت ولم أكن قد بكيت من قبل بهذه الحرقة، فقد بكيت بنحيبٍ ونشيجٍ، وأحسست بدفء اليد التي لمست شعري، ولم أشعر بيدي إلاّ وهي تمتدُّ إلى تلك اليد، لأضغط بها على رأسي، ثمّ أخذها فأقبّلها.

انهمرت دموعي بغزارةٍ لم أعهد لها من قبل؛ لأنّي لم أعرف البكاء، ثمّ إنّ ذلك الرّجل الطيّب وضع يده على كتفي، وأدخلني معه المسجد، فصلّيت مع النّاس، وصلّيت إلى جانبه وكأنّه أبي، ثمّ أخذني معه إلى بيته، وتناولت الغداء معه، وبعد أن شبعت أحسست بحاجةٍ إلى النّوم، فنمت نومًا عميقًا في مكاني.

نمت ولا أدري كم مرّ من الزّمن، نمت النّومة الآمنة الهادئة الهانئة.

وانتهت صباح اليوم التالي لأرى الرجل وزوجته يحنون عليّ؛ لأنّهما محرومان من الذريّة، فليس لهما أبناءٌ وبناتٌ، وعملت عنده بوصفي خادماً، ولم أكن كالخادم، بل كنت عنده خادماً مرحوماً محاطاً بالعطف والحنان.

ولم يحرمني من التّعليم، بل تعلّمت بالمدارس الليلية، واعتمدت على نفسي، وكان الرجل ذا دين، فكان لي كالأب، وكانت زوجته كالأمّ، اعتدتُ بفضلهما الاعتماد على نفسي، لكنّي ما زلت معقّداً، وكلّما تذكّرت أمّي وأبي وقسوتهما ولا إنسانيّتهما أحسست بالحقد الشّديد على كلّ إنسانٍ.

وبلغت الخامسة عشرة من عمري، وذكّرت أمّي وأبي، وقلت: من أقابل أوّلاً؟!

وذهبت إلى أبي، وطرقت بابه، فخرج إليّ، وقال لي: ماذا تريد؟!

قلت: جئت لأسأل عنك، لا أريد منك شيئاً. قال: زوجتي لا تريدك.

وذهبت إلى أمّي، وكان جوابها: زوجي لا يريدك. لكنّ الله أرادني عبداً له، ونعم الصّفة عبوديّة الله.

وعلمت فيما بعد أنّ أمّي طلّقت من زوجها، ومعها أربعة أطفال، رماهم أبوهم كما رماني أبي بلا عائلٍ ولا مأوى، وسألت عنيّ، فذهبت إليها لأراها مريضةً بالسلّ، لم يرقّ لها قلبي، ولم أرحمها، ولم أبرّها، ولم أعطيها ثمن الدّواء على الرّغم من توسّلاتها، فقد كنت غنيّاً، وأحمل من الدّراهم في تلك السّاعة ما كان يكفي لشراء الدّواء لو اشتريته لها.



وماتت غير مأسوفٍ عليها من جهتي، ولم أدر عن أولادها فيما بعد،
لم يرقّ قلبي لها أو لهم.

سامحني إذا قلت: إنني لم أشعر بحنانٍ أو عطفٍ على أولادها وهم
يكون حول سريرها، وأخيراً خرجت ولم أحضر دفنها.

وكانت وهي تحتضر تطلب إليّ أن أرحاهم، لكنني لن أفعل؛ لأنّ
الإحسان يستعبد الإنسان، وهي لم تحسن إليّ، بل تركتني هائماً في
الدنيا؛ لا وطاء يضمّني، ولا غطاء يظلّني.

إنّها سبّبت لي كلّ عذاباتي، فكيف أحنو على أبنائها؟!

ومنذ تلك اللّقاء التي قابلت أبي بها وأنا في الخامسة عشرة من عمري
لم أدر عنه شيئاً، أمّا أمّي فقد عرفت بمصيرها؛ لأنّها سألت عني.

إنني تجاوزت الثلاثين من عمري، وكنت قد عاهدت نفسي ألاّ
أتزوّج؛ لأنني لا أريد أن أكرّر المأساة، ولأنّ قلبي حاقداً لا يعرف الحنان
أو العطف.

وأخشى أن أعطي أولادي ما أعطانيه أبي وأمّي، لا أستطيع أن أنسى
ما حصل لي.

السؤال:

أسئلة كثيرة أنتظر جوابها منك سأختصرها في سؤالين:

إنني مسلمٌ، وأعلم أنّ الإسلام حرّم التّبثّل، فهل عليّ من ذلك إثمٌ لو
صمّمت على عدم الزّواج؟

وحرّم الإسلام قطيعة الرّحم، وأشعر أحياناً في وحدتي بالشفقة على

إخوتي الأربعة، وأتخيّلهم وهم يصارعون الحياة، فأذكر ما حدث لي وأنا في مثل سنّهم، لكنّ قلبي لا يرقُّ لهم، ولا أريد أن أراهم.
أعدك وعد الصّدق أنّني سأنفذ كلّ ما تقول، لكن قدّر ظروفِي، ثمّ احكم، ولا تدعني أنتظر طويلاً.

الجواب:

لماذا تفعلون ذلك أيّها الآباء؟! ولماذا تنقادون لنسائكم، وتخلقون لكم أعداءً من دمائكم، وتقتلون نفوسهم والعاطفة فيهم؟!
لقد عرفنا من الفطرة التي فطر الله النّاس عليها أنّ الأب يعطف على ولده؛ لأنّه يرى فيه بقاء ذكره، فيرعاه ويسهر عليه، أمّا أنتم يا أشباه الآباء فقد نسيتم كلّ شيءٍ، وخلقتم لكم أعداءً من أصلابكم، وعدوّ الصّلب أشدّ وأبلى من العدوّ الغريب.

أين أنت أيّها الأب العاقُّ من ذلك الأب الذي يقول لابنه:

كأنّي أنا المطروقُ دونك بالذّي طرقتَ به دوني فعيني تهملُ^(١)
قالها حين أحسّ بحرارة الحمّى في جبين ولده، أمّا أنت أيّها الأب القاسي فلم تعرف أين كان يأوي ابنك، وعلى ماذا كان ينام، ومن أين كان يأكل، وإلى أين كان يذهب؛ لأنّ زوجتك لا تريده.

متى كانت زوجة الأب تحنُّ على ابن ضرّتها؟! ولو أنّك أيّها الأب أظهرت عطفًا على ابنك، وأمرت تلك الزّوجة بالعطف عليه، أو أمرتها بفعل ما يجب نحوه من رعايةٍ لامثلت أمرك ولم تعصه، لكنّك ضعفت

(١) انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة (٣/٩٩).



أمامها فاشتدت، وهذا شأن كلِّ أبٍ؛ يضعف أمام زوجته إذا قست على أولاده من غيرها.

والذي نعرفه أنَّ حنان الأمِّ على ولدها أقوى من حنان الأب، هكذا فطر الله الأمَّهات، كلَّ الأمَّهات، من البشر وغيرهم.

ولم أسمع عن أمِّ قست على ولدها امتثالاً لأمر زوجها الذي هو غير أبيه، بل الذي أعرفه أنَّ كثيراً من الأمَّهات عندما طُلقت وهنَّ أمَّهاتُ أبين الزَّواج خوفاً على أولادهنَّ من الضَّياع، أو من أن يأخذهم آباؤهم.

أمَّا أمُّك أيُّها السَّائل، فلا أدري من أيِّ جنسٍ هي! فلا تؤاخذ إخوتك بجرمها، ولا تقطعُ رحمك معهم بذنبها.

ثمَّ أقول لصاحب الرِّسالة: إنِّي أراك قد ناقضت قولك بنفسك.

قلت: إنَّك مسلمٌ، والإسلام مسامحٌ، وأنت ما زلت تذكر قسوة أبويك، ثمَّ تشعر بالشفقة على إخوتك؛ لأنَّهم يصارعون الحياة، ثمَّ تقول: إنَّ قلبك لا يرقُّ لهم، فما معنى شعورك بالشفقة نحوهم؟! وكأنِّي بك تريد أن تختلق لنفسك هذه القسوة الاصطناعيَّة التي لم تكن صفةً فيك.

ثمَّ ما ذنب هؤلاء الأطفال؟! وهل تريد أن تؤاخذهم بجريرة غيرهم؟! لا يا أخي، اسمع قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر:

أمَّا جوابي عن سؤالك في التَّبَتُّل وعدم الزَّواج: فهل أنت واثقٌ من أنَّك لن تسلك سبيل الحرام، أم أنَّك ممتنعٌ من الزَّواج بقصد عدم الإنجاب فقط، ثمَّ بعد ذلك أنت وراء شهوتك؟!!

إن كنت كذلك فأنت آثم، أمّا إذا كنت آمنًا على نفسك من الزّلة فأنت حرٌّ.

أخيرًا أقول لك: إن كنت آمنًا على نفسك من الزّلة فأنت حرٌّ في عدم زواجك، وإلا فتزوّج، فإنّك ما زلت شابًا، والزّلة سهلةٌ عليك، وهي حرامٌ.

أمّا من جهة إخوتك فإن كنت مسلمًا حقًا فصلّمهم قدر استطاعتك، واكسب حبّهم وحنانهم، واسمع قول ربك في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [التحل: ٩٠].

ولا تنسَ أنّ الله ﷻ هيأ لك من رعاك في تشردك، فاشكر نعمة الله عليك برعايتك إخوتك المشرّدين.



٤٠ - بَيْتٌ مُّعَقَّدٌ

أكتب رسالتي هذه بعد أن قرأت كثيرًا ممّا سئلت عنه، وكتبته في مجلة اليقظة.

ورسالتي لا تتضمّن استفسارًا دينيًا، بل إنّها تجسّدُ حقيقيّ لآلام قاسيةٍ اكتفنتني طوال حياتي، كانت بدايتها منذ أحسست أنّي أعيش بين أبوين اختلفا في كلّ شيءٍ.

أنا طالبٌ في الجامعة، بلغت الخامسة والعشرين من عمري، وما زلت طالبًا، أبي وأمّي قريبان من بعضهما، فهما ولدا عمٍّ وخالةٍ.



كان أبي عسكرياً اعتاد أن يطاع أمره بلا سؤالٍ من مأموريه، وأمّي تريد أن تمزج بين عصرها الماضي عندما كان زوجها عسكرياً وبين عصرها الحاضر وزوجها متقاعدٌ، تريد أن تكون ربّة بيتٍ كغيرها ممّن هم مثلها من الأمّهات، لي إخوةٌ أنا أكبرهم سنّاً.

أسرتنا تعيش في سلسلة مشاحناتٍ لا أوّل لها ولا آخر، يتخلّلها أحياناً ضرب الوالد للجميع، أو ضرب الأكبر للأصغر، أو كلماتٌ تقالُ وتجرح معانيها حتّى البليد، وتتكرّر المشكلات كلّ صباح وكلّ مساءً، فلا ينتهي النهار إلّا على مشكّلةٍ، ولا تشرق الشمس ليومها الآخر إلّا على مشكّلةٍ مثلها.

رجوت والدي بكلماتٍ رقيقةٍ أن يتحمّل كلّ أذىٍ يصيبه من أمّي في سبيل هؤلاء الصّغار الذين لا يدرون إذا طُلّقت أمّهم لمن يركنون، وسألت والدي أن تتمسّك بالصّبر وتتّصف به محاولاً تشجيعها لتكون أمّاً تضحّي في سبيل صغارها الذين لا يأمنون لسواها في حياتهم.

ويستمرُّ البيت في هدوءٍ مؤقتٍ لا يلبث حتّى يعود إليه الإعصار بفوضاه المدمّرة.

وأشجّع نفسي محاولاً ردّ النّظام، لكنّها محاولاتٌ عقيمةٌ لا بدّ أن تنتهي باتّهام أمّي لي أنّي بليدُ الفكر، عديم الإحساس، وبتهديد أبي لي بالطّرد من البيت إذا لم أحترم سيادته في البيت وشعوره بوصفه أباً، يشتمني بكلماتٍ جارحةٍ لو سمعها لثيمٌ لبكى من وقعها الأليم.

وأخيراً أسحب رجلي التي لا تقوى على حمل جسمي الهزيل، لأوي إلى فراشي، فيطويني محطّماً مبعثر الأفكار، مهدور الكرامة، وليس معي سوى دمعي، وأبيت ساهراً أفكّر في حلّ هذه المأساة.

إِنِّي - يا سيدي - أهان يوماً مسمع من الجيران، وعلم من الأقرباء، وأنا - كما ذكرت لك - طالب جامعة خسرت من حياتي سنين تكرر رسوبي فيها ممّا أقاسيه من أبويّ اللذين عاشا لا كما أراد الله لهما أن يعيشا في سكنٍ ووفقٍ، بل عاشا في خصومةٍ وقلقٍ، وكانا وبالأعلى أولادهما اللذين يعيشون معهما في ألمٍ وتعقيدٍ.

السؤال:

إِنِّي في السنّة الأخيرة من الجامعة، ولا أدري هل أنجح أم لا!
وكيف ينجح من يعيش مثل الظروف التي أعيشها؟! فهل أصمت أمام الخصام الدائم بين والديّ؟! أم أترك البيت؟! وإلى أن أذهب؟!
هل أذهب إلى الفندق؟ أم إلى قسمٍ داخليّ؟ علماً أنه ليس في بلدنا قسمٌ داخليّ؟ وهل أرتاح إذا تركت البيت؟!
إن لي إخوةً معقدين؛ إخوةً ثلاثةً وأختاً واحدةً لا يمرُّ عليهم يومٌ واحدٌ إلا وتليه أيامٌ عاصفةٌ مدمّرة.
أرشدني أرشدك الله؛ إِنِّي معقّدٌ لأنني مبعثر الأفكار كما قلت، مجروح القلب كما ذكرت، مهدور الكرامة كما بيّنت، لقد مللت الحياة مع أبوين هذا شأنهما في الحياة. أرشدني!

الجواب:

هذه رسالة طالب الجامعة كما وقّعها، وإنها في الحقيقة مؤلمة، وكثيرٌ من الآباء يعيشون مثل هذه الحياة، وكثيرٌ من الأبناء والبنات يقاسون أمثال هذه العواصف المدمّرة.

إنّ الدمار والانهيار لا يقع على أحدٍ سوى الأولاد، نعم؛ الأولاد



وحدهم، وهي الحقيقة، وما مستقبل أولادٍ عاشوا في مثل هذا الجحيم؟! إنَّ الله أمرنا بالزَّواج لنكوِّن الأسرة، ولتكون الأسرة سكنًا للرجل والمرأة، وتكون بينهما مودَّةً ورحمةً.

وقد فسَّر المفسِّرون هذه المودَّة والرحمة بالذُّرِّيَّة، وإذا حصل السَّكن - ومعنى السَّكن الرَّاحة والهدوء والانسجام بين الزوجين - والمودَّة كان البيت جنَّةً نعيمٍ.

لكنَّ بعض الآباء والأمَّهات بخلافهم ونزاعاتهم جعلوا من البيوت جحيمًا، ونعوذ بالله من نار الجحيم.

وضحايا هذه المشكلة هم: الأولاد وحدهم؛ لأنَّهم تربُّوا مع اللَّبن الَّذي شربوه بالخلاف والمشكلات الَّتِي عاشها أبواهم، وسيعيشون فيما بعد في مشكلاتٍ تتجدَّد، إلَّا من عصم الله.

وأقول لصاحب المشكلة: «وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» [التَّحَلُّ: ١٢٧]، وأنت الآن على وشك التَّخرُّج، ثمَّ ابدأ حياتك العمليَّة بعد ذلك، لقد صبرت كثيرًا، ولن يضيرك أن تكمل بصبرك الرِّحلة بعد أن قاربت بها نهاية آلامك ومتاعبك، ثمَّ استقلِّ^(١) بحياتك، وحاول أن تأخذ إخوتك معك؛ لتجنِّبهم ما قاسيته من أهوال.

وختامًا: نسأل الله أن يهيِّئ لك بالمستقبل ما يسعدك ويريحك ويحمي إخوتك بالمعرفة الَّتِي أرجو أن تكون غاسلةً ومطهِّرةً لقلوبهم ممَّا علق بها من سوءٍ في البيت الَّذي عاشوا فيه، حتَّى ينشؤوا على حبِّ وصفاءٍ ووفاءٍ.

(١) المستقلُّ بنفسه: الضَّابطُ أمره. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٣٠/٢٨١).



٤١ - أمُّ مَثَالِيَّةٌ وَبِنْتُ مَثَالِيَّةٌ

لعلَّ أغلب الأسئلة التي نشرت في سلسلة «من غريب ما سألوني» كانت رسائل، وكانت مهمّتي تصحيح بعض الأخطاء اللغويّة أو الأغلاط النحويّة التي تكون في تلك الرّسائل، ثمّ ترتيبها؛ لتكون صالحة للنّشر، فأعداد الجواب عليها .

ومشكلة اليوم لم تصلني برسالة، بل إنّ صاحبة المشكلة حضرت مع أمّها في بيتي، وطلبتا مقابلي، وحدّثني حديث الولد للوالد .

فتاة في ربيع العمر، مثقّفة ثقافة جامعيّة، تتكلّم بطلاقة وحسن تعبير، حكّت لي قصّتها وأنا أنصت إليها، لم أقاطعها إلّا للاستفسار عن بعض النّقاط من حديثها، واقتصر دور أمّها المحجّبة على الإيماء برأسها موافقةً ابنتها في كلّ ما تقول .

وأقول الحقّ أيّها القارئ: إنّ حديث الفتاة أعجبنى، وتمنيت لو كانت كلّ بناتنا في هذا المستوى من الثّقافة والاطّلاع واحترام النّفس والثّقة بها، كانت الفتاة تتكلّم بثقة وموضوعيّة، ووجدت عندها إمامًا إلى حدّ ما بدينها ومجتمعها .

وبقدر ما أعجبنى حديث البنت الذي لمست فيه الصّدق أكبرت هذه الأمّ التي عرفت كيف تربّي وحيدتها، وصبرت وصابرت حتّى رأت العاقبة في زرعها وقد نما وأينع، لتحمد الله على نعمته، وتسأله المزيد منها .



لا أريد أن أستبق الأحداث، ولأبدأ القصة من أولها كما قالتها الفتاة، ولكن باختصارٍ.

قالت:

إنِّي خريجةٌ في الجامعة، وهذه التي تراها أمِّي، وأعظم بها من أمِّ، ضحّت في سبيل تربيّتي بالنفس والنّفس، أوّذ لو أنّي أقف أمام كلِّ العالم العربيّ؛ لأعلن للنّاس والأمّهات هذه الحقيقة، وأعني الأمّهات اللّواتي يطلبن البرّ من أولادهنّ، وكلُّ ما أرجوه أن يوفّقني ربّي حتّى أردّ لهذه الأمّ العظيمة بعض الدّين الذي تُطوّق به عنقي.

صعبٌ - يا سيّدي - أن أشرح أو أصوّر لك كيف ربّنتني أمِّي، بل مستحيلٌ أن توفّيها كلماتي حقّها، فالكلمات مهما كانت بليغةً وكان تعبيرها قويًّا فهي مجردّ كلماتٍ.

وترجمة هذه الأعمال بالكلمات صعبةٌ، لا سيّما إذا كانت هذه الأعمال جبّارةً، ومغلّفةً بالألم والسّهر والتّعب والمعاناة.

باختصارٍ شديدٍ يا سيّدي، لم أعرف لي أبًا منذ الثالثة من عمري، لم أراه، ولم أسمع به.

هناك أشياء قد يتصوّرها بعض النّاس تافهةً أو سطحيّةً، لكنّ هذه الأشياء التّافهة تؤثّر تأثيرًا مباشرًا على مسار حياتنا.

لم أذكر لي أبًا لولا أنّ النّاس يقولون: إنّي بنت فلانٍ، علمًا أنّ هذا الفلان نكرةٌ لم أعرفه، بل لم أعرف رجلًا مسح يومًا بيده على جبّتي، ولم أقم صباح يومٍ من الأيّام لأجد رجلًا واقفًا أمام سريري كي يقبّلني قبلة الصّباح، ثمّ يعطيني بيده الحانية المصروف اليوميّ مهما كان تافهًا،

ولم يوصلني بسيارته إلى المدرسة، لأنزل منها فأتلقَى سؤال زميلاتي وصديقاتي وهنَّ يقلن لي: من هذا؟! فأقول بفخرٍ واعتزازٍ: إنه أبي أو عمِّي أو خالي أو جدِّي.

لم يحدث هذا لسببٍ بسيطٍ، هو أنني لم أعرف لي أبًا كما قلت، ولا عمًّا ولا خالًا، لم أعرف إلا هذه الأمَّ التي كفتني برعايتها رعاية كلِّ الأولياء.

أرجوك يا سيدي! لا تسخر من تفاهتي، إنك قد تتصوَّرها أشياءً ثانويَّةً، لكنَّ الطَّفل يراها كلَّ حياته، فما بالك وأنا أنثى؟! والأنثى - كما تعلم - تأسرها كلمةٌ حانيةٌ، أو مسحة يدٍ على شعرها، أو قبلةً على جبينها.

ولا أريدك أن تتصوَّر أنني شعرت بالحرمان، لا؛ فقد استطاعت هذه الأمُّ المكافحة أن تعوِّضني عن حنان جميع من يسمِّيهم الشَّرْع بالأولياء، فأغدقت عليَّ كثيرًا من نفسها وحنانها وعطفها ما كان بلسمًا لجراح قلبي الصَّغير.

قد تتساءل: وأين أبي؟! الحقيقة لا أدري، كلُّ ما أعرفه أن أمِّي كانت تذهب إلى المحكمة اليوم الأوَّل من كلِّ شهرٍ، وتعود لتحكي لي عن شيءٍ اسمه النَّفقة، ولم يستطع عقلي الصَّغير أن يستوعب معنى هذه الكلمة البشعة البغيضة، كنت أيامها في العاشرة من عمري، وكانت أمِّي تعود وفي يدها شيءٌ من الدَّراهم القليلة، تنظر إليها بحسرةٍ ثمَّ ترفع عينيها إلى الله طالبةً منه البركة فيها والعون على تربيتي، وكان الله معها يستجيب دعاءها، كيف؟! لا أدري، قد تستطيع أمِّي أن تجيب عن هذا السُّؤال، لكنِّي أقول: إنني لم أشعر إطلاقًا بأنني أقلُّ من زميلاتي، كنت ألبس



مثلهنَّ، وربَّما كان لباسي أحسن، وأكل ما أشتهي، وآخذ مصروفًا، وكلُّ شيءٍ طلبته وفَّرته أمِّي لي، وأنا أقول لك الآن بلا عاطفة: إنَّها كانت تقتطعه من نفسها وراحتها، ومن سهرها لتعملَ، وربَّما باعت واشترت لا لنفسها، ولكن لتوفِّر ما تعطيه لي، وإلَّا فكيف استطاعت أن تحلَّ هذه المعادلة الصَّعبة، وأن توائم بين دخلنا الذي يكاد لا يُذكر وبين مصروفنا الهنيئِ الميسَّر؟!!

وعلى الرَّغم من قسوة الحياة على أمِّي، وكفاحها البطوليِّ لم أسمعها يومًا تتذمَّر، كانت ابتسامة الرِّضا فوق شفيتها دائمةً، وكان حسن ظنِّها بالله يملأ قلبها، وأسايرها تنبئ عن سكينَةٍ هائلةٍ في داخلها، سكينَةٍ المؤمن بأنَّ حبل الشَّدَّة قصيرٌ، سكينَةٍ الصَّابر المصدِّق بوعد الله بأنَّ مع كلِّ عسرٍ يسرٌ، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أقول: على الرَّغم من قسوة الحياة وشظف العيش لم أسمع أمِّي تسبُّ أبي بالأمس مرَّةً، أو حتَّى تُنحي عليه باللائمة^(١).

كانت تقول: هذا قدرِي، وعليَّ أن أرضى بقضاء الله، ويكفيني وجودك معي، فأنت أُملي، وأنت ذخري عند عجزِي إن طال بي العمر، تقولها أملًا بالمستقبل، ورضًا بالواقع.

وصمَّمت أمِّي على أن أتعلَّم حتَّى النِّهاية، كانت تقول: يا ابنتي! الشَّهادة أكبر سلاحٍ تواجهين به غدر الزَّمن، والنَّاس اليوم غيرهم بالأمس، فالعلم يا ابنتي هو المصباح الذي ينير لك الظُّلمات.

(١) أنحى عليه باللَّوائيم: أقبلَ عليه، وهو مجازٌ. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٤٠/



لم أكن أفهم كلماتها، وكأني طفلة في سني كانت المدرسة بالنسبة إليّ واجباً ثقيلاً، وأحياناً واجباً بغيضاً، لكن بكلماتها وصبرها وتشجيعها ورعايتها لي هوّنت عليّ كلّ صعبٍ، وذللّت لي كلّ عقبة؛ حتّى أصبحت المدرسة بالنسبة إليّ ألزم من غذائي.

وكبرت، وكنت عند حسن ظنّ أمّي بي، لم أخيب أملها ولم أرسب مرّةً في حياتي، ولم يتأخّر ترتيبي عن الخمس الأوائل، كنت أبذل جهدي، وهي من ورائي توّازرني وتشجّعني وتشحذ همّتي.

ولكن كرهت أبي، كرهته دون أن أراه، ودون أن تكرّهنني به أمّي، أو تعيبه أمامي، كرهته حين بدأت أعني الأمور وأفهمها، وحين رأيت أمّي تقف وحدها كالصخرة الصّماء تصارع العواصف الهوجاء، والأعاصير القاسية، والتيّارات الجارفة بشجاعةٍ، وكرهت حتّى ذكره.

ودخلت الجامعة، وذات يوم زارتنا امرأة عراقيةً وجلسنا نتكلّم، وأعجبت المرأة بي، وقالت: رحم الله أباً ربّاك، ووجدتني أندفع بلا وعي، لأقول لها: الله لا يرحم أبوك.

لست أدري كيف صدرت منّي هذه الكلمة القبيحة، وكيف قلتها، ربّما أنطقني بها كرهني لذلك الأب اللّاهي، أو ربّما حبّي لأمّي المكافحة، لا أدري! واعتذرت بعد ذلك للمرأة، وطيّبت خاطرها.

الغريب - يا سيّدي - أنّ أمّي عاتبنتني على ذلك، على الرّغم من كلّ ما سبّبه لنا أبي من آلام عاتبنتني، وقالت لي: يا ابنتي سامحي من أساء إليك، والتمسي عند الخالق ما تفتقدينه عند المخلوق.

والآن سيّدي قد تتساءل: ما المشكلة التي جئتك من أجلها؟!!



السؤال:

المشكلة تلخّص في سؤالين:

سؤالَي الأوّل:

إنّني لا أعرف أبي كما قلت، والآن أنا بسببيلي لا اختيار شريك حياتي، ومعلوماتي تقول: إنّه لا عقد بلا وليّ، فكيف أعقد زواجي على من أختار؟! من أختار؟!!

ثمّ إذا ظهر هذا الأب فجأةً، وعارض زواجي بدافع الحقد أو الانتقام، فكيف أتصرّف؟! من أختار؟!!

أمّا سؤالَي الآخر:

فإنّني عاهدت نفسي أن أعوّض هذه الأمّ عمّا عانتها، ووجدت أفضل سبيلٍ لذلك ألاّ أتركها البتّة، وأن تعيش معي، وتحت سقف بيتي أيّما كان هذا البيت، وأنا أضع شرطي هذا أمام كلّ رجلٍ يتقدّم لي، فهل مثل هذا الشرط نافذ؟! وإنّني أسمع في بعض الأحيان عن شروطٍ نافذةٍ أو شروطٍ باطلةٍ، أو شروطٍ غير واجبة التّنفيد.

إنّني جئت إليك وكلّي أملٌ في أن أجد عندك جوابًا لأسئلتني التي لا أعرف لها جوابًا.

وانتهت الفتاة من سرد قصّتها، ووجدتني أنظر مرّةً أخرى إلى أمّها وأقول:

بارك الله في بطنٍ حملت، وحجرٍ حضنت، ويدٍ رعت، وعينٍ سهرت، بارك الله في أمّك التي ربّت.

الجواب:

وقبل أن أجيب على سؤال السائلة أقول:

لا يسعني إلا أن أكبر هذه الأمّ النادر وجود مثلها في زمننا هذا، علماً أن كثيراً من الآباء شتتوا شمل الأولاد، فضاع الولد بين أمّ لاهية، وأبٍ بلا ضمير.

وباعتقادي أن الله قد عوّض صبر هذه الأمّ خيراً بإنجابها مثل هذه البنت المثقفة الواعية الهادئة الحنونة.

وقد استأذنتها لأنشر قصتها؛ لأنّ فيها ذكرى مفيدة للأمّهات والبنات، فأذنت دون ذكر اسميهما، علماً أنني لم أسألها عن اسميهما.

ثمّ نأتي للإجابة عن أسئلة السائلة، وأقول: إنّ القاضي وليّ من لا وليّ لها، فإذا اخترت شريك حياتك، ولم يكن لك وليّ فسيكون القاضي وليّك.

أمّا إذا ظهر الوالد، وحاول عرقلة زواجك فيمكنك اللجوء إلى المحكمة، وشرح القضية كلّها للقاضي الذي سيفهم مشكلتك، ولن يعير ظهور هذا الأب - الذي تركك طفلةً، ولم تراه مرّةً واحدةً في حياتك - اهتماماً، حتّى ولو دفع النفقة سنتين أو ثلاثاً.

والجواب على سؤالك الثاني: وهو الشرط على زوج المستقبل في أن تكون أمّك معك، فأرجو أن تعدّي هذا الشرط أمنيتك التي تتمنيها، وليس فرضاً تفرضينه عليه، وأعتقد أنّ أيّ إنسانٍ يتمنى أن تعيش معه مثل هذه الأمّ العظيمة؛ لأنّها ستكون مكسباً له، وليس عبئاً عليه، والشرط هذا واجبٌ التنفيذ، إلا أن تكون الأمّ مشاغبةً بين الزوجين، ولا أظنّ أنّ



مثل أمك التي ضحّت بشبابها في سبيل إسعادك ستكون في المستقبل سبباً في شقائك .



٤٢ - المحسن من أتمَّ إحسانه

قليلٌ من النَّاسِ من يحسن لوجه الله ولا يريد ممَّن أحسن إليه جزاءً ولا شكوراً، ولكن حين يقابل الإحسان بالإساءة فالأحرى بالمحسن أن يردّد القول المأثور: «اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ»^(١).

ومن الصَّعب على المحسن جدًّا أن يعضَّ يداً أطعمته من جوع، أو يصعِّر^(٢) الخدَّ لمن كسا ظهره من عريٍّ، والأسوأ من ذلك وذا أن تسمع ممَّن أحسنت إليه بدل الشُّكر كفرًا، وبدل الحمد ذمًّا، وبدل الثَّناء والمديح هجواً.

والأصعب من هذا أن يحدث هذا من أحبِّ النَّاسِ إليك وأقربهم نسباً منك، وهذا ما حدث معي .

مات أبي، ولم أرث منه مالاً، لكنَّه ترك ثقالاً وعناءً؛ ترك إخوةً لي أربعةً وأمَّهم، لا عائل لهم سواي .

كنت يوم موته طالباً في الجامعة، وكان أملي أن أنهي دراستي بنيل الشَّهادة الجامعيَّة؛ لأتبوأ المنصب اللائق ولأكون إنساناً نافعاً في الحياة،

(١) أورده العجلونيُّ في كشف الخفاء، رقم: (٨٦).

(٢) التَّصعير: إمالة الخدِّ عن النَّظر إلى النَّاسِ تهاوناً من كِبَرٍ. انظر: تاج العروس،

للزَّبيديِّ (٣١٦/١٢).

لكن كما قال الشَّاعر:

ما كلُّ ما يتمنَّى المرء يدركه تجري الرِّياح بما لا تشتهي السُّفن^(١)
والمقدَّر لا بدَّ كائنٌ، وشاء الله - ولا رادَّ لمشيئته - لهذا الأمل أن
يخيِّب وأنا في السَّنة الثَّالثة من سنِّي الجامعة.

كنت في العشرين من عمري، ونظرت حولي فإذا أعين الإخوة والأُمَّ
تنظر إليَّ طالبةً أن أرهاها بوصفي رجلاً، وأطعمها بوصفي عائلاً، وأقيها
كوارث الدَّهر وعاديات اللَّيالي والأَيَّام، فأنا الابن الأكبر للأرملة، والأخ
الأكبر لليتامى، وتركت الجامعة للبحث عن عملٍ، ولم يكن القرار بالنَّسبة
إليَّ سهلاً؛ لأنِّي سأنسى مستقبلتي وأحلامي وأملي بنيل الشَّهادة الجامعيَّة
التي ستفتح لي الباب للحصول على المركز الكبير، والوظيفة العليا
المحترمة.

لا بدَّ أن أضحيَّ بالمستقبل والأمل وحتىَّ الشَّباب، لا بدَّ أن أجعل
من نفسي شمعةً تذوب في سبيل مصلحة الآخرين، وتحترق لتنير الطَّريق
لهم.

وكان هذا يعني أن أحمل همَّ الدُّنيا وأنا ابن العشرين، في هذه السنِّ
المبكرة قرَّرت، وكان قراراً صعباً بالنَّسبة إليَّ، وعلى الرَّغم من ذلك لم
أتردَّد بتنفيذه، فقد كان هذا واجبي، وعليَّ أن أوْدِّي هذا الواجب،
وأرضى بهذا القدر، ونفَّذت.

وبدأت أبحث عن عملٍ، وقبلت أوَّل عملٍ عرض عليَّ، ولم أناقش في
الأجر، ولا في الوقت، بل قبلت؛ لأنَّ البطون جائعةٌ تحتاج إلى القوت.

(١) انظر: الأمثال السَّائرة من شعر المتنبي، لأبي القاسم الطَّالفاني (١/٦٣).



كان عملي شاقًا، وأجره تافهًا لا سيِّما بالنسبة إليَّ؛ أنا طالب الجامعة الذي كتب عليه أن يواجه مصيره بشجاعةٍ وصبرٍ.

لم أتهاون، وما توانيت، بل عملت بكلِّ ما أوتيت من قوَّة، كنت أرى الدَّموع في عيني أمِّي تبكي بها مستقبلي الذي مات، وكنت أقابلها بابتسامةٍ؛ حتَّى لا تحسَّ بعذابي، وكنت أحدثها بسعة صدرٍ، وبكلامٍ عذبٍ رقيقٍ؛ حتَّى لا تشعر بتعبِي، علمًا أنّي كنت مُجهَّدًا وشقيًّا.

قد تلومني فتقول: إنّ الآلاف من أمثالك عملوا واستمروا في دراستهم، فنالوا الشَّهادة، فما الذي منعك من أن تكون مثلهم؟!

وجوابي عن سؤالك: لأنَّ دراستي كانت عمليَّة، وبالتالي لا بدَّ من تفرُّغٍ كاملٍ، وأنا في حاجةٍ إلى كلِّ فلسٍ؛ لكي أشتري به ما يسدُّ جوع سنَّة بطونٍ، ويستر عريَّ سنَّة ظهور.

وكبر إخوتي، وصمَّمت على أن يتمُّوا دراستهم؛ حتَّى لا تتكرَّر مأساتي، فيحرم أحدهم من أملٍ يفكِّر فيه، أو مستقبلٍ يحلم به كما حرمت أنا، ليس هذا فقط، بل كنت أفرح لنجاحهم السنويِّ، وأشجِّعهم على الدِّراسات الإضافيَّة؛ لينالوا الدِّرجات العالية، ويدخلوا الكليَّات المحترمة.

كان أحبُّ إخوتي إليَّ أصغرهم، أحببته كابني، ولو كنت أبًا لكان أحبَّ ولدٍ في مثل سنِّه، كان حادَّ الذِّكاء، كثير الحركة، وأقرب إخوتي شبهاً منِّي، أرى فيه كثيرًا من صفاتي، يظنُّه بعض أصدقائي أنه ابني فعلاً.

وتمنَّيت أن أراه مهندسًا، وعندما أتمَّ دراسته الثَّانويَّة نصحتَه وشجَّعته حتَّى دخل كليَّة الهندسة، وتخرَّج فيها متفوقًا، واشترك معي في تحمُّل

جزءٍ من العبء الأَسْرِيّ حين عمل في أحد المكاتب الهندسيّة الكبرى، وبرز فيه، ثمّ علمت أخيراً أنّه أحبّ إحدى زميلاته في العمل، ثمّ تزوّجها وغاب عنّا، فلم نعد نراه إلاّ لماماً.

وتخرّج كلُّ إخوتي من الجامعة، وذهب كلُّ فردٍ منهم في سبيله إلاّ الوالدة العجوز، وبدأ البياض يتسلّل إلى شعر رأسي، ورأيتني أسعى إلى الشّيخوخة مسرعاً، فأنا الآن أكبر من سنّي بكثيرٍ، كنت في الخامسة والأربعين وكأني ابن السّتين، ولم أتزوَّج حتّى ذلك اليوم.

وكنت قد عرفت فتياتٍ، وعرفني فتياتٌ من أسرٍ محترمةٍ، وتمنّيت أن تكون لي أسرةً، وأعيش كما ينبغي لأمثالي أن يعيشوا، لكنّي أردُّ الجواب لنفسي، فأقول: وهؤلاء من لهم؟ إنني المسؤول عنهم، فهم أولادي، ولن يضيع معروفني فيهم.

وفي يوم كان البيت فيه خالياً إلاّ أمّي ومن الوالدة، جلست مع أمّي نتحدّث، وتشعّبت بنا الأحاديث، وإذا بها تفاجئني بقولها: إلى متى يا ولدي تبقى عزباً؟! ليتني أراك زوجاً فأباً؛ فأفرح بك زوجاً، وأسرُّ بك أباً. قلت لها: لقد حلمت بالزّواج مئات المرّات، وقد فات أوان الزّواج يا أمّي، فقد اشتعل الرّأس شيباً، ولا يصلح مثلي للزّواج، ثمّ من تلك التي ترضى بي زوجاً لها؟! إنني فقيرٌ أشيبٌ.

وسخرت منّي أمّي، وقالت: كثيراتٌ أولئك اللّواتي يتمنّينك زوجاً لهنّ. فشرحت لها مخاوفي، فقالت: أمرك أن تتزوَّج، وقد اخترت لك فلانة بنت فلانٍ. وذكرت فتاةً أعرفها من جيراننا تبلغ العشرين من العمر، وأسرتها في مستوى أسرتنا.

قلت لأمّي: هذا زواجٌ غير متكافئٍ لأسبابٍ أهمّها: فارق السنّ، فهي



كبرت لي، ثم لماذا الزواج يا أمي؟ فأنا أب لإخوتي، إن فلاناً وفلاناً -
 وذكرت الصغيرين منهما - ما زالا يقولان لي: بابا. ثم أما يكفيك
 الأحفاد من إخوتي؟! أليس من الأفضل ألا أظلم هذه البنت؟ دعيها
 تتزوج من يعرف كيف يلاعبها وتلاعبه، وماذا تصنع هذه البنت بشعري
 الأثيب؟!!

لم تجد معارضي لأمي نفعاً؛ لأنها كانت قد حزمت أمرها وصممت
 على رأيها.

والحق أقول: إن دفاعي كان ضعيفاً؛ لأنني كنت أتمنى أن أسمع كلمة
 (بابا) من فم طفلٍ من صلبِي؛ لهذا قلت لأمي في نهاية الحديث: افعلي
 ما تشائين، فأنا طوع أمرك. وكان الأمر قد دُبر بليل، فقد رحب أهل
 البنت بي خطيباً لبنتهم، ولم تعارض البنت زواجها مني، لكنني بوصفي
 رجلاً لم أرها مسرورة، ولا رأيته كارهة.

وتزوجت، ومرّت السنّة الأولى، وكانت مطيعةً منفذةً لأوامري، مؤدبةً
 لواجباتها تجاهي، لم تقصّر في حقّي بوصفي زوجاً لها، لكنّها لم تكن
 سعيدة، بل كانت كأنّها تخفي حزناً، كانت شاردة اللبّ ساهمةً.

وكنّت أقول في نفسي: إن فارق السنّ يقف حاجزاً بيننا، وكذا الفارق
 بين عقليّتي وعقليّتها.

وفي السنّة الثالثة من زواجنا رزقنا بطفلة جميلة من رآها معها قال:
 إنّها تشبه أمّها، ومن رآها معي قال: إنّها تشبهني أكثر.

وفرحت بهذه البنت التي أصبحت سلوتي في أوبتي، وأمنيّتي حين
 أعود من عملي، كنت أجلس معها وأداعبها دون ملل، وأحملها أينما

ذهبت عندما أعود من عملي .

ووفَّقني الله في عملي ، وانتدبتني الشركة التي أعمل فيها للسَّفر داخل القطر لمدة أسبوعٍ ، ولكنَّ شوقي لبنتي جعلني أختصر السَّفر لثلاثة أيَّام .
وعدت إلى الوطن ، وتسلَّلت إلى البيت ، لا لقصدٍ سيِّئٍ ، بل لأفاجئ ابنتي بعودتي ، فسمعت صوتًا هدتني غريزتي إلى أن أستمع إليه .

كان صوت أخي الأصغر يخاطب زوجتي ، ويقول لها : اطلبي الطَّلاق ، وسأترَوِّجك . وكانت تبكي ، ثمَّ تردُّ عليه : إنَّها صبرت وصبرت حتَّى طفح الكيل ، وإنَّها تحسُّ بقاءها معي كمن يعيش في قبرٍ ، لا يرى الحياة ، ولا تراه الحياة ، وإنَّها لا تستطيع أن تتحمَّل أكثر ممَّا تحمَّلته .

واكتشفت من ردِّ أخي على كلامها هذا أنه سيقف في وجهي ويساعدها ؛ لأنَّه يحبُّها كما تحبُّه ، وسيتزوَّجها .

ولا تسل - يا سيِّدي - عن حالتي بعد أن سمعت ما سمعت ، كدت أقتحم عليهما المكان ، وأقضي عليهما بسكِّينٍ كانت معي ، لكنَّ الله سلَّم ، فرفعت عينيَّ إلى السَّماء ، وقلت : اللّهُمَّ الطفِّ بي ، وأنزل عليَّ سكينتك ، وعدت من حيث أتيت هائمًا على وجهي طوال اللَّيل .

وفي الصَّباح عدت إلى بيتي لأعرف القصَّة :

كانا متحابِّين قبل أن أتزوَّجها ، لكنَّ خطبتي لها وقفت في سبيلهما ، ولمَّا أصبحت أمًّا لبنتي اتَّفقا على أن يهدما بيتي ، علمًا أنَّ أخي هذا متزوَّجٌ وأب .

سيِّدي ! هل أرفض الطَّلاق وأطردها إلى دار أبيها وأتركها معلَّقة؟!!

هل أستطيع أن آخذ بنتي وأحرمها من رؤيتها؟!!



أخي هذا يقيم خارج بيتي؛ لأنه يعمل لنفسه، هل أكون قاسي القلب مع أخي الذي يعرف حبي لزوجتي وبنتي؟!!

أصارحك القول: إنني أحبُّها؛ لأنَّها أمُّ بنتي، لا لشيءٍ غير هذا.

هل هذا جزائي من أخي الذي ربَّيته ورعيته أكثر ما يرعى الأب ابنه، وتمنيت له السَّعادة والتَّوفيق، وصرفت عليه حتَّى وصل إلى ما وصل إليه من شهادةٍ عاليةٍ ومنصبٍ كبيرٍ؟!!

السُّؤال:

هل يليق بمثل هذا الأخ أن يقابلني بهذا السُّوء؟!!

أرشدني بالله عليك، كيف أتصرَّف؟! هل أظلم؟!!

الجواب:

مشكلتك من صنع يدك، ودعني أناقشك بهدوءٍ بعيداً عن الانفعالات؛ كي نصل إلى لبِّ المشكلة، ثم نجد لها حلاً بعد ذلك.

أنت حملت المسؤولية بأمانةٍ بعد وفاة والدك، وضحيّيت من أجل إخوتك، وجعلت من نفسك - كما قلت - شمعةً تحترق؛ لتنير الطريق لإخوتك، وفعلت كلَّ ما تستطيع من أجلهم، هذا صحيحٌ، لقد اخترت الطريق الصَّعب، وآثرت أن تشقى لتسعد إخوتك، وهذا نبلٌ منك، وكنت تستطيع أن تختار طريقاً أسهل لتتخلَّص من هذا العبء، لكنك كنت الرِّجل الشَّهم، وهذا ما تستحقُّ عليه الثَّناء من كلِّ من عرفك، وقليلٌ هم الذين يفعلون ما فعلت، لكنك أخطأت فيما بعد أكثر من خطأ:

تزوَّجت من فتاةٍ هي في عمر أولادك، ففارق السنُّ بينكما كبيرٌ، وهذا يعني اختلافًا في وجهات النَّظر، وفي طريقة التَّعامل مع الحياة.

وتزوَّجت بسرعةٍ بعد أن تركت أمَّك تختار لك بمعرفتها شريكة حياتك، إنَّك تركت الأمر كلَّه لها، ثمَّ تقول: وكأنَّ الأمر دُبْر بليلى، وحتَّى معارضتك لأمِّك كانت معارضةً واهيةً، هي من باب (يتمنَّع وهو راغبٌ).

ثمَّ تزوَّجت، وكنت تلحظ أنَّ زوجتك تخفي حزنًا، وكنت تراها شاردة الفكر غير سعيدة، وإنِّي لأعجب: كيف لم يخطر ببالك أن تسألها عن سرِّ تعاستها؟! وكيف لم تحاول من جانبك أن تصل إلى سرِّ هذا الشُّرود والحزن؟!!

إنَّك لو كلَّفت خاطرك، وبذلت قليلاً من الجهد في التَّفكير والتَّحرِّي لاستطعت أن تصل إلى ما خفي عليك، أو ما تعمَّدت تجاهله، لكنَّك لم تحاول مواجهة الأمر بشجاعةٍ، وتندارك الخطر ببسالةٍ.

إنِّي لا أحاول أن أجد تبريراً لما حدث، أو أدافع عن زوجةٍ لم ترع الله في زوجها، وأخ قابل الإحسان بالإساءة، لا؛ لكنِّي في الوقت نفسه لا أستطيع أن ألوم زوجتك؛ لأنَّها لم تصارحك بالحقيقة التي جنت أنت عن مواجهتها.

إنَّه خطؤكم جميعاً، والمسؤولية موزعةٌ عليكم بالتساوي، فلا تحاول إلقاء اللوم على الآخرين، ثمَّ تبرئ نفسك.

ونأتي إلى لبِّ المشكلة، إنَّك تتساءل الآن: ماذا تفعل؟! وإنِّي ألمح في سطورك الرَّغبة في الانتقام ليس إلَّا.

وأقول لك: لقد شملك الله بعطفه ورعايته، وأنزل السَّكينة على قلبك في موقفٍ من الصَّعب أن يسيطر فيه الإنسان على أعصابه، ولو أنَّك



اقتحمت الغرفة على زوجتك وأخيك لما استطاع إنسان أن يتكهن بما كان سيحدث، لكن رحمة الله كانت معك، فانصرفت دون تهوّر وجريمة كان من المحتم وقوعها.

هذا هو ردّي عليك باختصار، وهذا ما أستطيعه لك، وهل لي قولٌ بعد أن قال الله كلمته: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]!؟

واجه الحقائق، واعلم أن هذه الزوجة لا تصلح لك، وأنت أيضاً لا تصلح لها، والزواج شراكة أساسها التفاهم والموّدة والرحمة والحب، وما دام بينكما محروماً من كل هذا فلا داعي لمثل هذا الزواج.

دعها لسيلها، وطلّقها، وتفرّغ لرعاية ابنتك، ولا داعي للعداء؛ حتّى لا تتعقّد هذه الطفلة المسكينة التي لا ذنب لها، ثمّ ابحث لك عن زوجة تلائمك سنّاً وعقلاً، أو اراع الله في بنتك، وكفاك ما حدث، والله يراك.

واشكره على نعمة كنت تتمنّاها فظفرت بها، كنت تتمنّى أن تسمع كلمة «بابا» من طفلٍ من صلبك، وقد سمعتها والحمد لله.



٤٣- كلمة طيبة

عزيزي القارئ! هذه هي المشكلة الثالثة التي قابلني صاحبها في منزلي، كان الرجل شاباً جميلاً في نحو الثامنة والعشرين من عمره، حلو الحديث، فهمت من طريقة كلامه أنه شديد الاعتزاز بنفسه، وأنه من الذين يحبون أن تعلق كلمتهم على أهليهم، وأن تنفذ أوامرهم دون سؤالٍ

مَمَّنْ أَمْرُوهُمْ بِكَيْفٍ أَوْ لِمَاذَا .

وكانت المرأة الزوجة أصغر منه سنًا، جميلة المحيّا، هادئةً، تلبس العباة الكويتيّة، وكان من هدوئها أنّها ظلّت ساكنةً حتّى طلبت منها الكلام، وكانت كلماتها القليلة ممّا يحسن السُّكوت عليه، فكانت حسن الختام، وكانت فصل الخطاب .

قال لي الرّجل: جنّت وزوجتي كخصمين نرجو أن نجد الحلّ عندك لمشكلتنا الّتي استعصى حلُّها فيما بيننا، ولا نريد أن يطلع والدانا عليها؛ خوفًا من تفاقمها وتضخّم المشكلات بين الأمّهات .

قلت: إنّ البدويّ يتفاهل دائمًا بسماحة الوجه، وكلاكما سمحّ كما يبدو لي، وإنّي لا أصدّق أنّ بين هذين الوجهين مشكلة .

قال الزوج: إنّها مشكلةٌ .

قلت: وما هي؟! .

قال: سلها لتجيبك .

قالت: ليس عندي ما أقول، ولا أدري إن كانت هناك مشكلة! فإن كان بيننا مشكلةٌ فليقلها وليحك .

والتفتُ إلى الرّجل التفاتة مستفسرٍ، فقال: تزوّجنا منذ ثلاث سنين، ولم يكن زواجنا بعد حبّ، بل خطبتها لي أمّي، ورأيتها فأعجبتي، وكانت حسنة السُّمعة والأخلاق، وما زالت كما كانت، وأسرّتها مشبهةٌ أسرتي في المكانة والمجتمع، وقد وافق أبوها على خطبتي، وتمّت مراسيم الخطبة، ثمّ تمّ الزّواج . ولكنّي لم ألحظ على زوجتي أنّها تكرهني، ولا أنّها تحبُّني، كُنّا كأبيّ اثنين التقيا على غير موعدٍ في طريقٍ فسلكاه .



وقلت في نفسي: لعلَّ العشرة تؤلّف بين قلوبنا حين يتكرّر اللقاء، لكن طال الزّمن، وتكرّر اللقاء، ولم يحدث ما تأمّلت.

وعلى الرّغم من العشرة التي طالّت لم أشعر أنّها قريبةٌ منّي، كانت دائماً في وادٍ، وأنا في وادٍ آخر، وإنّي أقولها لله، وأنا على يقينٍ بصدق ما أقول: ما كان في حياتها إنسانٌ آخر، لا قبل الزّواج، ولا بعده، وهذا ما حيرني.

كنت أتساءل: ما الحاجز الذي يقف بيني وبينها؟! علماً أنّها تشعر أنّي أحبّها حتّى لو لم أنفق بالكلمة كما ينافق النّاس.

أسكنتها في فيلاً يحسدها عليها كثيرون، واشترت لها صالة استقبالٍ وغرفة نوم لا يملك مثلهما إلاّ قليلاً، وأرکبتها سيّارةً من أفخم السيّارات وأحدثها طرازاً، وملاّت بيتها بما لا يخطر على بال أمثالها، وفرت لها كلّ ما تريده، وأكثر ممّا تريد، حتّى جعلت منها أميرةً على خدم أكثر ممّا تحتاج إليهم. ولكنّها للأسف لم تقابلني حتّى بكلمة شكرٍ على ما قدّمت.

كنت أظنّ أنّ سلوكها سيتغيّر، ونظرتها إليّ ستتبدّل، لكنّها ظلّت كما هي بعيدةً ونحن في بيتٍ واحدٍ، نائيةً حتّى لو جمعنا الفراش الواحد.

ولا أبالغ يا سيّدي! إنّ الفجوة بيننا اتّسعت، والقلوب تباعدت، والكلام قلّ.

أمري مطاعٌ ومنفَّذٌ، لكن بلا كلام، فزوجتي في بيتي خرساء، أو هي معي بجسدها، لكنّ روحها في مكانٍ بعيدٍ، عن محيط اجتماعنا.

ونظرت إلى الزّوجة أسألها: أصحيحٌ ما يقول؟!!

قالت: نعم.

قلت: ولم الجفاء إذن؟!

وسكتت تنظر إلى زوجها، وقد التفت بعباءتها، ووضعت إصبعها ملفوفاً بطرف العباءة على فمها كعادة الكويتيات القديمات، وهي تنظر بهدوءٍ غريبٍ إلى وجه زوجها الذي سكت.

والحقيقة أنني أكبرت هذا الهدوء وهذه السكينة، ورأيت في تلك النظرة توبيخاً لا أعرف ما هو؛ لأنَّ الرَّجُلَ كان ينظر إلى وجهها، ثمَّ يخفض بصره، ويطأطئ رأسه.

وأخيراً قلت: لماذا أنت ساكئة، لماذا لا تجيبين؟! فنظرت إليَّ بهدوءٍ، ثمَّ حوّلت نظرها إلى زوجها مرّةً أخرى، وقالت لي: صدق في كلِّ ما قال إلا في كلمةٍ واحدةٍ، ثمَّ نظرت إليه تقول له: يعلم الله يا فلان أن ليس في قلبي سواك، وأنا أحكي قول الشاعر:

نَقْلُ فَوَادِكِ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَىٰ مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ^(١)

ثمَّ نظرت إليه تقول: صدق فيما قال، فقد أسكنني في بيتٍ يحسدني عليه أترابي، وهياً لي غرفةً لم تنلها كثيراتٌ من أمثالي، وأركبني سيّارةً لم يركب مثلها في الكويت إلا قليل، ولكن ما فائدة ذلك كلّها يا سيّدي؟! ما فائدة ذلك وأنا لم أسمع منه كلمةً طيّبةً البتّة، ليتني أسكن معه بيتاً بلا سقفٍ على حصيرٍ بالٍ، وألبس الخيش^(٢)، وآكل الكسرة الجافّة من الخبز على أن أسمع منه الكلام الطيّب.

(١) انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجّة الحمويّ (١/١٨٧).

(٢) الخيش: ثيابٌ رقائق النّسج، غلاظ الخيوط، تُتخذ من مشاقّة الكتّان ومن أردئه.

انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/٣٠١).



إِنِّي والله أحبه، وما أحببت أحداً سواه غير أبي، لكنه حبٌ يختلف عن حبي له، ثم ما فائدة الحب والكلام جافٌ خشنٌ؟! إنه شريك حياتي، وأنا له كذلك، فأين منه - يا سيدي - كلمة ﴿وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]؟! إِنِّي لم أسمع منه كلمة المعروف ولا الأمر بالمعروف.

ما فائدة الغرفة والقصر والسيارة مع الوجه العبوس والكلام الخشن؟! وسكتت، وطال السكوت، ونظرت إلى الرجل فإذا هو قد طاطأ رأسه وكأنه يصدّق ما قالته، كانت تتكلّم بهدوءٍ وبصوتٍ مسموعٍ لكلينا دون ضجيجٍ أو انفعالٍ، وأخيراً رفعت رأسها إلى زوجها وقالت: تكلم يا حبيبي، يا زوجي، يا أبا ابن المستقبل. فرفع رأسه إليها وهو يحاول جاهداً حبس دموعه وقال لها بصوتٍ مختنقٍ: أحبلى أنت؟! قالت: نعم. قال: منذ متى؟ قالت: منذ شهرٍ.

ثم نظر إليّ يقول: إنها صدقت فيما قالت، فأنا خشنٌ في كلِّ معاملتي لها، ولم أشعر منها يوماً بانتقادٍ أو اشمئزازٍ إلا ما ذكرت، أمّا اليوم فإنني أعاهد الله أمامك وأمامها أنني سأكون لها زوجاً وحبيباً وصديقاً وشريك حياةً.

ثم التفت إليها وقال:

سأكون لك كما تريد، وستسمعين مني منذ اليوم كلَّ ما تحبين، ولكن أحسني إليّ بشيءٍ واحدٍ أطلبه إليك، أن تسمح لي بزيارة أصدقائي مساء كلِّ خميسٍ.

قالت: لم أمنعك من زيارة أصدقائك، ولم أنك عن ذلك، ولا أريد أن أكون قاطعة رحمٍ ولا قاطعة صداقةٍ، زُر من تحبُّ متى أحببت، ولكنني

أريد الكلمة الطَّيِّبَةَ، أريد أن تتملَّقني بحبِّك كما يتملَّق الابنُ أباه بحبِّه، لا أريد نفاقاً، إنّما أريد أن أسمع منك كلمة الحبِّ؛ الكلمة الطَّيِّبَةَ؛ الَّتِي بِهَا يَعْمُرُ الْبَيْتَ وَيَصْفُو، وَالَّتِي تَسْقِي شَجَرَةَ السَّعَادَةِ، وَتُعْطِي الْأَكْلَ الطَّيِّبَ وَالْعَطَرَ الزَّكِيَّ، ثُمَّ قَامَ الزَّوْجَانِ مُتَصَافِيَانِ، وَحَمَدَتِ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَالْحَقُّ أَقُولُ:

إِنَّهَا تَكَلَّمَتْ عَنِ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَعَقْلِ، فَلِمَاذَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِقْنَاعَهُ قَبْلَ مَجِيئِهِمَا إِلَيَّ؟!!

لَعَلَّ حَبَّةَ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا لَمْ يَتْرِكْ لَهَا مَجَالًا لِلْكَلامِ، فَلَمَّا حَضَرَ عِنْدِي وَسَمِعَ مِنْهَا كَلِمَةَ الْحَقِّ أَذْعَنَ.

الجواب:

إِنَّ الْإِسْلَامَ أَرَادَ الْاسْتِمْرَارَ لِلْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَأَحَاطَهَا بِالْقُدْسِيَّةِ، وَأَمَرَ بِالمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا وَالْعِنَايَةَ بِهَا، وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ الْأُسْرَةَ تَبْدَأُ مِنْ زَوْجٍ وَزَوْجَةٍ اجْتَمَعَا عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؛ ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وَحَتَّى تَبْقَى هَذِهِ الْأُسْرَةُ وَتَعِيشَ بِاتِّفَاقِ الزَّوْجَيْنِ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ الْأَزْوَاجَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ثُمَّ أَمَرَ الْأُمَّةَ جَمِيعَهَا أَنْ يَحَافِظُوا عَلَى الْأُسْرَةِ، فَقَالَ فِي وَصِيَّتِهِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥].

الزَّوْجُ شَرِكَةُ حَيَاةٍ، وَالشَّرِكَةُ لَا تَدُومُ إِلَّا بِالتَّفَاهُمِ؛ فَلَا سَيْطَرَةَ، وَلَا عَتْوً وَلَا اسْتِبْدَادَ وَلَا إِضْرَارَ، فَلِلزَّوْجِ عَمَلُهُ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ لَهُ، وَلِلزَّوْجَةِ عَمَلُهَا الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ لَهَا، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ وَهُوَ يَعِدُّ نِعْمَهُ عَلَى عِبَادِهِ: ﴿وَمَنْ عَابَتْهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا



وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿الرُّوم: ٢١﴾

إِنَّ السَّعَادَةَ الزَّوْجِيَّةَ تَقُومُ عَلَى الْحَبِّ يَمْنَحُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ لِلْآخَرِ، وَعَلَى احْتِرَامٍ مُتَبَادِلٍ بَيْنَ الشَّرِيكَيْنِ يَقْدِّمُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ، وَهَذَا هُوَ السَّكَنُ الَّذِي يَرِيدُهُ اللَّهُ لَهُمَا.

إِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ حَقُوقًا تَجِبُ لَهُ عَلَى الثَّانِي يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُوَدِّعَهَا لَهُ كَامِلَةً، فَمَتَى عَرَفَاهَا وَأَدَّيَاهَا اطمأننا، والاطمئنان راحةٌ، والرَّاحَةُ سَعَادَةٌ، والسَّعَادَةُ مَطْلَبُ كُلِّ إِنْسَانٍ.



٤٤- من أنا؟!

سيدي! حتَّى الآن لا أعرف من أنا، ولعلَّ سؤالي هذا بالنسبة إليك غريبٌ، فأنا أعرف أبوي، وأعرف بلدي، وكيف عشت، لكنَّ الأمر الوحيد الَّذي يحيرني أنني أعيش بين النَّاسِ كُنُكْرَةٍ لا أعرف كيف أعيش، ولا أعرف نفسي بينهم.

ولهذا جئت أسألك عن نفسي: من أنا؟!

قرأت اليقظة، وما زلت أقرؤها في كلِّ أسبوعٍ، وتابعت سلسلة ما تكتب «من غريب ما سألوني»، وكنت أنظر إلى حلِّك المشكلة بإمعانٍ لعلِّي أجد ما يشبه مشكلتي، فلا أكلفك السؤال، ولا أكلفك الحلَّ.

وقد شكاك كثيرٌ من النَّاسِ؛ أبٌ من أولاده، وولدٌ من أبيه، وزوجٌ من زوجته، وخادمٌ من أسياده، وكلُّهم على حقٍّ، لكنِّي جئت أشكو لك نفسي.

نعم سيدي، ولا تعجب؛ فإن بداخلي ضجيج وفوران وعريضة، أحياناً
تسلمني إلى قلقٍ مخيفٍ قد يقودني إلى الجنون، فأضرب يميناً وشمالاً،
فلا أجد ملجأً إلا الله، وأنعم به من ملجأ.

ولأبدأ قصتي:

ولدت لأبوين كانا يعيشان على هامش الحياة، ومكانتهما الاجتماعية
تأتي تحت خط الفقر المدقع^(١) بكثير، كنت ثاني إخوتي الثلاثة.

كان أبي يخرج للعمل، ويعود بشيءٍ في يده لا يكاد يسدُّ رمقاً، أو
يروى من ظمأ، ومع ذلك فقد كان يحبُّ السيطرة والاستبداد، لكن على
من؟! على إنسانٍ واحد لا ثاني له؛ إنه أمي.

كان يحاول أن يغطي مرگب النَّقص^(٢) داخله، وذلك بفرض سيطرته
هذه على من هي دونه ثقافةً ومكانةً ومركزاً كما يرى ونرى. وأمي ثالثة
أخويها اللذين هما شرُّ أخوين جهلاً وقطيعةً وجفاءً وقسوةً، يتكبران عليها
وعلينا فقط؛ لأننا - كما يقولان - أقلُّ منهما.

وتقول أمي: إنها تتحمَّل العذاب من أجلنا، وتشرب المرَّ لكي لا
نتشَّت، والحقيقة غير ذلك، فلو كان لها ملجأ غير أخويها تلجأ إليه
لفرَّت من جحيم أبي، ولكن إلى أين؟! فلا مأوى لها غير هذا البيت،
ولو ذهبت لأخويها فلن يتحمَّلها صاحب البيت منهما أكثر من يوم، أمَّا
الثاني فلا مكان له غير الطريق.

(١) الفقر المدقع: الشديد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٠/٥٦٠).

(٢) مرگب النَّقص / عُقدة النَّقص: إحساسٌ دائمٌ لدى الشَّخص بنقصه عن غيره. انظر:

معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٣/٢٢٧٠).



لهذا رضيت بالأمر الواقع، وعاشت حياتها ذليلةً مهانةً في بيت والدي، تعلل نفسها بأنها تحمّلت تلك الذلّة والمهانة من أجل أولادها.

آسف أن أكتب عن أبي هذا، لكنني لم أذكر خلاف الواقع، بل كتبت الحقيقة؛ الحقيقة المرّة.

نشأت في أسرة كل فردٍ من أفرادها يقول عن نفسه: إنّه تافهٌ. ومعنى ذلك أنني تافهٌ من تافهين. فأخوتي تافهون، ووالداي - كما ذكرت - تافهان، وخالاي كذلك.

لم أر على والدي في حياته قميصًا جديدًا، ولا لبس يومًا من الأيام حذاءً جديدًا، وأنا كذلك.

ولعلّي كنت ألبس أسمال^(١) أبي أو إخوتي، وقد يحسن إليّ أحد أترابي في المدرسة، فيعطيني من ثيابه ما يحسدني عليه إخوتي ووالدي.

ودخلت المدرسة، لا أدري كيف دخلتها، ولعلّ دخولي كان من باب الإجبار الذي نسمع عنه باسم التّعليم الإجباري.

ولا أدري كيف تعلّمت، كان زملائي في التّلمذة يذهبون إلى المدرسة وأكثرهم يحمل مصروفه اليوميّ أو الأسبوعيّ، ويلبس ثوبه الجديد أو النّظيف، لكنني كنت أذهب ومعني ورقةٌ فيها طلب إعفائي من المصاريف المدرسيّة، كانت هذه الورقة تسمّى شهادة فقر، أقدمها للمسؤول في المدرسة وأنا في غاية الذلّة والمهانة.

وأنهيت المرحلة الابتدائيّة، وتبعها المرحلة الثّانويّة، والورقة ما زالت

(١) سَمَل الثّوب: أخلق، فهو ثوبٌ أسمالٌ. انظر: تاج العروس، للزّبيديّ (٢٩/٢٢٣).



تلازمي، أجددها كلَّ عامٍ؛ لأقدمها إلى المسؤولين في المدارس التي أتعلَّم فيها.

وكان من حسن حظِّي أنني متفوّقٌ في الدِّراسة، فقد كنت الأول دائماً، وكان زملائي يحسدونني، علماً أنني لا أستطيع المذاكرة؛ لأنني أعيش في ليلٍ مظلم، وفي نهارٍ مملوء بالصَّجيج، ولكنَّ من نعم الله أن منحني ذكاءً واستيعاباً لما أتلقَّاه من دروسٍ.

صدِّق يا سيّدي! إنني الوحيد بين خمسمئة طالبٍ يحمل شهادة الفقر، لا يحملها أحدٌ في المدرسة غيري، ومع ذكائي وتفوّقي كنت مهاناً ومطروداً، لا لشيءٍ إلا لأنني فقيرٌ، لم أكن شقيّاً، بل كنت أتمتّع بخلقٍ كريم، اسمح لي أن أمدح نفسي، ووالله ما قلت إلا الصّدق، لكنّ ثيابي قدرة، ورأسي مشعانٌ^(١) شعثٌ، ولا أجد الماء الذي أغتسل به، ولا حتّى المكان، فكان ثوبي في الليل هو ثوبي في النهار، وكان نومي على الحصير الذي لا يمنع عني دنس الأرض.

كنت في المدرسة كاسف البال^(٢) ذليلاً، لكنني مع ذلك لم أحرم الرّحمة.

لا أدري كم مرّة طردت من الفصل لعدم دفع المصاريف، فأجمع كتبي ذليلاً، ثمّ أخرج من الصّفّ خجلاً لأقف على بابه، أو عند إحدى النوافذ، وأستمع إلى الدّرس، هكذا عشت حياة المدرسة.

(١) اشعانٌ شعره اشعيناناً: تفرّق وتنفّس، فهو مُشعانُ الرّأسِ ثائرُهُ وأشعثُهُ. انظر: تاج العروس، للزبيديّ (٢٨١/٣٥).

(٢) كاسف البال: سيئ الحال. انظر: تاج العروس، للزبيديّ (٣٠٩/٢٤).



إنَّ هذه المصاريف الَّتِي كنت أطرد من أجلها كانت مصاريف تافهةً، لكنَّ الوالد عفا الله عنه رضي بشهادة الفقر الَّتِي اعتادها، وليذلَّ ولده ما دام ذلك لا يضرُّه شيئاً.

ودخلت الجامعة لمدة شهرٍ واحدٍ، لكنِّي نظرت حولي فوجدت أنَّ لوازِم الحياة كثيرةً، وأنَّ أحد إخوتي يرغب بدخول الجامعة، فقرَّرت التَّضحية بمستقبلي لیسعد أخي.

وبحثت عن عملٍ يناسب مؤهَّل دراستي، فلم أجد، فعملت كما يقول الكويتيون «صبيّاً» في بقالةٍ، وفي محلِّ أقمشةٍ، ثمَّ في مزرعةٍ، وعملت راعي حيوانٍ، بقيت في هذه المهن المهينة عامين كاملين، ذقت فيهما الذلَّة والعذاب المرَّ، حتَّى حصلت على عملٍ في مكتبٍ حكوميٍّ في مكان بعيدٍ من الأهل، وبأجرٍ لا يكاد يذكر؛ لأنَّ أجور حكومتنا تمتاز بالبخس^(١) والقلَّة، وكان واجباً عليَّ أن أستأجر مكاناً لسكني، وأن أصرف على معيشتي، ثمَّ أعول أهلي من هذا الأجر.

لقد عشت في هذه الظروف، ومن حسن حظِّي أنَّي كنت قانعاً بما قدَّر لي، فالجزع لا يعرف طريقه إلى قلبي، رضيت بالمقسوم، وقلت: حمداً لله؛ لأنَّي إنسانٌ نكرةٌ أعيش على الهامش، لا قيمة لي بين النَّاس، وعند أهلي خاصَّةً، حتَّى بعد أن ساهمت في مصروفهم، فأنا ما زلت كما كنت.

وتزوَّجت، وعوَّضني الله بزواجي هذا خيراً، فهي الوحيدة الَّتِي كانت تنظر إليَّ بوصفي إنساناً، هكذا يُخيَّل إليَّ، ساقها الله إليَّ في طريق

(١) البخس: نقصان الحقِّ. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٤٣٨/١٥).



حياتي، وكانت لي نعم الرفيق، وكنت لها كذلك.

تزوجتها بمهرٍ كان أيسر من اليسير، وعلم أهلي بزواجي، ولم يحضر زفافي أحدٌ إلا أمي التي جاءت بالراح مني ورجاء، لأن الأهل كرهوا هذا الزواج، وكرهوا الزوجة. ولم يكرهوها لشيءٍ إلا لأنها زوجتي.

وهكذا سارت حياتي، والناس يقولون عني: إنني نعم الإنسان، يقول رفاقي عني: إنني نعم الرجل، وإنني طيبٌ، وأتمتع بخلقٍ كريم، وأملك مواهب عالية، لكنني أراني خلاف ما يقولون، وشعرت برضا رؤسائي عني حين بدأت أرقى درجات السلم الوظيفي بخطواتٍ كانت أشبه بالقفزات، حتى وصلت إلى مركزٍ محترمٍ بالنسبة إلى مؤهلاتي العلمية وسني الصغير.

ورزقت بالأولاد من تلك الزوجة التي كانت لي، وكنت لها نعم الرفيق.

إذن فأين المشكلة؟ المشكلة سرٌّ في داخلي؛ لأنني حتى الآن لم أعرف من أنا.

كلُّ رفاقي وزملائي في العمل والناس الذين أعرفهم يقولون عني: إنني طيبٌ، أوّدي واجبي تجاه وظيفتي والمراجعين، الكلُّ يشكرني، ولكنني أقول: إنني لا أستطيع أن أكون غير هذا، فالأمانة تفرض عليّ أداء الواجب، وهو واجبٌ لا يكلفني مجهوداً.

إذن فمن أين أتني الطيبة؟! ليس لي عدوٌّ حتى أكرهه، ولست قادراً على إيذاء أحدٍ؛ لأنني أقلُّ من كلِّ الناس كما أعتقد.



السؤال:

كما شرحتُ لك لا أعرف من أنا؟! فبالله عليك أخبرني؛ من أنا؟!

الجواب:

إنَّ الله ﷻ فرض على النَّاسِ واجباتٍ، فمن أدَّأها أكرمهُ الله في الدُّنيا برضا النَّاسِ عنه، وفي الآخرة بالثَّواب الجزيل، وجعل للنَّاسِ مراكز، فمن شكر الله على مركزه وأدَّى ما أوجبه عليه مركزه لمجمعه كافأه الله برضاه ورضاه ومجمعه عنه.

ولا ننسى قول رسول الله ﷺ: «يومٌ من إمامٍ عادلٍ أفضل من عبادة ستِّين سنة»^(١)، وقول رسول الله ﷺ: «سبعة يظلُّهم الله في ظلِّه، يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: الإمامُ العادل»^(٢)، لأنَّه عدل فأدَّى الواجب الَّذي عليه.

وأنت قد رضي الله عنك، وأرضى النَّاسُ عنك، فأثنوا عليك؛ لأنَّك لم تغترَّ بالوظيفة، بل زادتكَ الوظيفة تواضعًا، فأدَّيت واجباتها، ولم تتكبر على مراجعٍ أو مرؤوسٍ، فشكركَ النَّاسُ، وقالوا عنك: إنَّكَ طيبٌ ومتواضعٌ وسمحٌ وذو خلقٍ كريمٍ.

لكِنَّك لم تعرف نفسك، وأقول لك: إنَّني عرفتك من رسالتك، وعرفت أنَّ الغرور لم يداخل قلبك، والإعجاب لم يصل إلى نفسك، فكن كما أنت؛ رجلًا صغيرًا في عين نفسك، كبيرًا في أعين النَّاسِ، وادعُ بدعاء رسول الله ﷺ حين كان يقول: «اللَّهمَّ اجعلني شكورًا، واجعلني

(١) رواه البيهقي في سننه، رقم: (١٦٦٤٩).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٦٠)، ومسلم، رقم: (١٠٣١).

صبوراً، واجعلني في عيني صغيراً، وفي أعين الناس كبيراً»^(١).
 ونصيحتي لك أن تبقى هكذا؛ لأنك رجلٌ كما قال عنك رفاقك
 والذين عرفوك من معاملتك لهم، وإنَّ هذه الأحداث التي مرَّت بك،
 والتي لا شكَّ أنك صدقت في سردها لو مرَّت بغيرك لحقد على المجتمع
 كلُّه، ولكان من أشقى الناس، ولكنك رجلٌ مرَّت بك هذه الأحداث مرور
 العواصف الهوجاء على الجبل الأشمِّ، فلم تهزَّك، ولم تزعزع نفسك، بل
 جعلت منك رجلاً صغيراً في عين نفسك، كبيراً في أعين الناس.



٤٥ - غدرٌ لا وفاء

سيدي! قد لا يصدِّق القارئ ما أكتب، وقد يظنُّ أن فيما سأكتبه
 مبالغةً، لكنِّي سأذكر الواقع، ولا أريد تعزيةً أو تسليّةً، إنَّما كتبت لك
 لأثبت صحَّة المثل الدَّارج القائل: سوء الظَّنِّ من حسن الفطن.
 وفي كلِّ إنسانٍ عاطفتان، عاطفة خيري، وعاطفة شرِّ، والمؤمن تعلق
 عنده عاطفة الخير، لا أقول في المسلم فقط، بل عند كلِّ متديِّن يؤمن
 بدينه، أمَّا المنافق قليل الإيمان، فهو كما وصفه رسول الله ﷺ: «إذا
 حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٢).

وما دام الأمر كذلك فسيظلُّ الصِّراع ما دام على الأرض إنسانٌ،
 صراعٌ قويٌّ بين الخير والشرِّ، والمؤمنون فقط هم الذين تسمو نفوسهم

(١) رواه البزار، رقم: (٤٤٣٩).

(٢) رواه البخاريُّ، رقم: (٢٤٥٩).



دائمًا، ويعلو شأنهم، لكنَّ الشرَّ سيبقى دائمًا كالوميض تحت الرماد، يترقّب الفرصة لتنطلق شرارته، فتحرق وتثير في النَّاس الدُّعر.

الخير والشرُّ، الحسن والقبيح، الحقُّ والباطل، الصِّدق والكذب، الوفاء والغدر، الأمانة والخيانة، المعروف والمنكر، قصصٌ طويلةٌ مرّت بين الأقراب والأصدقاء والشُّركاء، والعاقبة فيها مع الخير.

قد يعلو المنكر أحيانًا، لكنَّ المعروف لا يموت، وقد ينجح خائنٌ يومًا من الأيام، لكنَّ العاقبة للأمين، وفي الصِّدق منجاةٌ، والعاقبة للمتقين؛ فإنَّ الله ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨].

وقصّتي هذه أكتبها وأنا على يقينٍ أنك ستكتبها في غريب ما سألوك، وسيقرأها كثيرٌ، وأرجو أن لا يمرَّ القارئ بها مرور الكرام؛ حتّى يعلم أنّ في الدُّنيا شرًّا، والحذر منه مطلوبٌ، فلا ينخدع بالمظاهر، وليتّعظ ممّا جرى لي.

تبدأ قصّتي حين تعرّفت إلى زميلٍ في العمل معي، جاء إلى مكّتي، ولم أكن أعرفه من قبل، وجلس يتحدّث إليّ بحديثٍ شائقٍ، وصوتٍ رقيقٍ يجذب السّامع إليه، ولمّا شعر أنّي أخذت بحديثه قال لي: إنّ ظروفه صعبةٌ، وإنّه يعمل بمكانٍ بعيدٍ من أهله، ويطلب منّي نقله إلى المدينة قريبًا من أسرته، وإنّ له أطفالًا في مدارسها، ولا يستطيع أن يفرّق بين الأطفال وأمّهم، ولا يصبر على البعد من أهله.

وحين رأيت صاحبنا هذا أحسست أنّ له ظاهرًا يخالف باطنه، لكنني - وقد قلت أعجبنني حديثه ونبرة صوته - وعدته خيرًا، وتعاميت عن الإحساس الذي شعرت به، وتصاممت عن الصّوت الدّاخليّ الذي حدّرني منه.

وأجبتة إلى طلبه، وقررت نقله ليعمل معي في محيط عملي وتحت مسؤوليتي، ونُقِلَ مباشرةً.

وجاءني فيما بعد يقدم شكره ويعترف لي بالجميل، ويعدني أنه لن ينسى هذا الجميل ما دام حيًّا.

وبدأ يتردد عليّ بحكم رئاستي للقسم الذي نعمل فيه، فيجلس إليّ أو يقف جانبي ليتحدّث معي في شؤون العمل، وبدأت الجلسات تكثر، وعلمت أنه من أسرة ذات أصلٍ وغمي، كانت لها أراضٍ زراعيةٌ شاسعةٌ، ولمّا مات أبوه مورّث هذه الأسرة ومخلّف تلك الأراضى اختلف مع إخوته، فأبعده عن تولّي أيّ عملٍ من أعمالهم.

حكايةٌ فيها شيءٌ من المبالغة أو الخيال، ومع ما أشعر به نحوه من نفاقٍ يخالف ظاهره باطنه فقد أصغيت له، وفي يومٍ طلب إليّ أن أكون وساطة صلحٍ بينه وبين إخوته، فلبّيته وسافرت معه إلى بلده، ونجحت في الصلح بينهم، ومنذ ذلك اليوم بدأت صداقتنا، وكنا ثلاثة؛ فقد كان لنا صديقٌ ثالثٌ هو نائبي في رئاسة العمل إذا غبت، نقضي معظم الوقت معًا حين نكون خارج الدائرة، ولا تضحك إذا قلت: إن معارفنا سمّونا الثلاثي.

كان صاحبنا أكثرنا مرحًا، وأسرعنا إلى تنفيذ ما نريد فعله من مقتضيات صداقتنا، فقد كان يتميّز بصفة النخوة، أو كما سمّيتها (الرّجولة)، استطاع بها أن يخدعني طوال الوقت، وكانت أحواله الماليّة الحسنة تخفي أخطاه، لا سيّما بعد أن صالح إخوته.

ودامت صداقتنا أكثر من عامين، نقضي أكثر أوقاتها في بيتي أو في بيت صديقنا الثالث، حتّى شعرت أنّ زوجتي تغار منه، وتقول لي: إنّ



هذه ليست صداقةً، إنِّي أشكُّ فيك، إنَّه أغنى منك، ويستطيع أن ينفق ببذخ، وأنت - كما أعرفك - قليل ذات اليد، وأخشى أن تضطرَّ إلى مجاراته على حسابنا، أو على حساب وظيفتك ومستقبل أولادك، إنِّي أخاف على مستقبل أولادنا، وأخاف على أسرتنا أن تنهار.

كان كلامها يحمل النصيحة والصدق وإخلاص الزوجة لزوجها، لكنِّي تصاممت وسرت في طريق الصداقة، ولم أفكر في مستقبلي ولا مستقبل أسرتي.

وفعلاً تحقَّق ما تنبَّأت به أمُّ أولادي، فلم أرض أن أكون يوماً عاليةً على غيري، أو أن يفعل صديقي أكثر ممَّا أفعل، فمددت يدي أستدين من هذا وذاك، وبدأت أبيع أثاثي، ومتاع زوجتي وحليَّها، ما أستطيع به مجارة صديقي في إنفاقه، وحتى لا أكون أقلَّ منه كرمًا.

ثمَّ بدأت أخلاقي تتغيَّر، فبعد أن كنت مؤمناً، أخاف الله، مستقيماً في طاعة ربِّي صرت لا أتورَّع^(١) عن ارتكاب المعصية، لقد صارت هذه الصداقة وبالأعلى على خلقي وسمعتي، وشرًّا عليَّ وعلى أسرتي.

ولا أخفي عليك أن مواعظ الزوجة كانت تتكرَّر، وكنت أستمع إليها، وأصدِّقها في كلِّ ما تقول، وأعدّها بفعل ما يرضيها من تقليص هذه الصداقة المشؤومة أو تخفيفها، فإذا أصبحت وتقابلنا نسيت نصائح الزوجة المخلصة.

وذات يوم كُنَّا في مجلسنا نلعب الورق وغلبني، ومن باب الهزل طلب إليَّ أن أكتب إقراراً بأنَّه غلبني، فكتبته ووقَّعته، ثمَّ لعبنا مرَّةً أخرى

(١) تورَّع: تحرَّج. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/٣٨٨).

فغلبني، فأتى بورقةٍ أخرى، وقال: وقّع. وكانت الورقة بيضاء، فوقّعت عليها بلا تفكيرٍ في سوء نيةٍ.

وبعد عامين ونصف من توقيعِي تلك الورقة تقرّر نقلِي في العمل إلى بلدٍ آخر فحزنت.

لم يكن حزني لنقلي، بل كان لبعدي عن صديقي، لقد أصبحت لا أصبر عنه، وأخذت أحاول إيجاد حلٍّ لهذا النّقل، أو أن ننقل سوياً؛ لكي لا نفترق، ولم أكن أعلم أنّ صاحبي كان يقف حجرٍ عثرةٍ في محاولاتي هذه.

لم أتصوّر البتّة أنّ هذا الصّديق الذي أخلصت له سيخونني، ولكنّه خان، وصدقت فراستي الأولى فيه، عندما رأيتهُ أوّل مرّةٍ إنساناً يخالف ظاهره باطنه.

وقد فوجئت بخطابٍ مسجّلٍ جاءني من محامٍ يطلب إليّ سداد ما عليّ لصديقي من دينٍ، وفي البداية تصوّرت أنّه مزاحٌ من صديقي، فكلمته هاتفياً أسأله عن الخطاب المبعوث بوساطة المحامي، فإذا به يخاطبني جاداً قائلاً: لقد صبرت عليك، وأمهلتك لعلّك تشعر بوجوب الوفاء عليك، لكنّك لم تفعل.

لم أصدّق ما سمعت، وهل صحيحٌ أنّ صاحبي يفعل ذلك بعد كلّ ما كان بيننا من محبّةٍ وصدقةٍ.

الله أكبر! أيكون في النّاس مثل هذا الغدر والغشّ والخيانة؟! إنّها ورقةٌ وقّعتها في ساعةٍ مزحٍ، يحتفظ بها مدّةً تزيد على عامين ونصفٍ؛ ليستغلّها ضديّ؟



ألا يذكر العيش والملح الذي أكله في بيتي؟! ألا يذكر خدماتي له؟!
استشرت محامياً، فقال: إنه يستطيع أن يملأ ورقةً وقّعت بإمضاءك
عليها كما يريد، ومن ذا الذي يصدّق ادّعاءك بأنك وقّعت ورقةً بيضاء؟!
وحاولت أن أجعل من صديقنا الثالث وساطة خيرٍ، فجبّنت، وسلّمت أمري
إلى الله، وقلت له: ما مقدار دينك عليّ؟ فكان جوابه: سأخذ منك ما
عشت أقساطاً شهريةً، ولن تستطيع أن تفيني ديني ولو بلغ عمرك مئة عام،
فسألته: وما الذي دفعك لتعاملني هذه المعاملة؟! فقال: أنا حرٌّ ما دام
القانون معي، والحجّة لي.

واستشرت محامياً، فقال: إنَّ القانون معه، ولن تستطيع أن تفعل أيّ
شيءٍ ضده، فالورقة بيده، ويستطيع أن يملأها بما يريد.

وبدأ يأخذ مني كلّ شهرٍ مبلغاً لو صرفته في مصلحة بيتي وأولادي
لكان نافعا لي، وارتبكت حياتي المعيشية، وعشت شهوراً لا أدري كيف
عشتها، السيف على رقبتني في أوّل كلّ شهرٍ، وأبواب السّجن مفتوحةٌ
أمامي، ولو خالفت لعوقبت.

وأخيراً استعنت بأحد الرّملاء، وكان وساطة خيرٍ لتخليصي من تلك
الورطة، لكن بعد أن ذقت عذاب القلّة، ومرارة العسرة، وسوء المعيشة،
وبعد أن أخذ مني مبلغاً ليس بالسّهل بالنسبة إليّ وإلى راتبني.

عندي مستنداتٌ مزوّرةٌ مكتوبةٌ بخطّ صديقي هذا حفظتها عندي أمانةً،
وتقديمها للشرطة كفيلاً بالقبض عليه ومحاكمته، لكنّ أمانتي منعني من
استغلالها، وأخلاقي أبت عليّ أن أكون مثله، وصمّمت أذني عندما أشار
الأقربون عليّ بأن أتخذها سلاحاً ضده؛ لأنّها أمانةٌ كان قد ائتمني
عليها، ضميري ينهاني عن مجاراته في خيائته.



هذه المستندات ما زالت بيدي، وزوجتي تنصحني باستغلالها ضدَّ هذا
الَّذِي سَمَّ حياتنا وجعلنا أسرى الفقر والعوز والبؤس والخوف شهوراً
طويلةً.

السُّؤال:

هل عليّ من ذنبٍ لو كشفت هذه الأوراق للسلطات انتقاماً من فعلته
التي فعلها؟!!

الجواب:

لا أدري ما هذه الأوراق، ولم تكشف لي عن محتوياتها، ولو كنت
رجلاً تريد البعد من المشكلات لكشفتها له قبل أن يفعل فعلته التي
فعلها، لكنك سكت، وطالت المدّة، وفات الأوان، وطول المدّة قد
يحرّم صاحب الحقّ من حقّه، فإن كنت واثقاً من أنّ هذه الأوراق ستفيد
لو كشفتها فصورها وقدمها له بوساطة محام كما فعل، وهدّده بكشفها
أمام السلطات لعلّه يردُّ لك ما أخذه منك مجموعاً لا مفرّقاً، والمجموع
أنفع من المفرّق، وبهذا العمل لا تكون خائناً، ولا أستطيع أن أجيبك
بأكثر من هذا.



٤٦ - الأعمى المخدوع

نعم الله كثيرةٌ لا يحصرها عدُّ، ولا يحصيها حسابٌ، والإنسان غارقٌ
بهذه النعم، لا يدري خيرها، ولا يعرف نفعها، حتّى إذا سئِلَها عرفها.
فنعمة البصر لا يعرفها إلا من عمي، ونعمة الصّحّة لا يشعر بها إلا



من مرض، وبضدّها تميّز الأشياء^(١)، والعاقل من أحاط نعم الله بشكره عليها، واستنجز به وعد الله لعباده: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:

• [٧

لأبدأ قصّتي، إذ لا حاجة بي إلى تمهيد:

تزوّجت منذ عشرين عامًا، بحبّ طاهرٍ عفيفٍ، لم يشعر به سوانا، وانتهى كأني حبّ حقيقيّ نهايةً طبيعيّةً بالزّواج.

وعشنا زوجين سعيدين، يغمر زواجنا الحبّ والرّفاهية والهناء، يعمرّ بيتنا الانسجام، لا ينقصنا إلّا أن نكون أبوين، ولم أعر هذا الأمر أهميّةً ما دمنا سعيدين، إلّا أنّ زوجتي اهتّمت به، فطرقت كلّ السبل، وكانت تسعى كأني امرأةٍ تشعر أنّها يجب أن تكون أمًّا، وأنّ رسالتها لا تتمّ إلّا بالأمومة، وكنت أعلّلها بأننا لم نزل بعد صغارًا، وأنّ أحدنا للآخر سلوى.

ومرّت ثلاث سنواتٍ أصبحت ذات يومٍ بعدها لأتلقّ البشارة من الزّوجة العزيزة بأنّها صارت أمًّا لجنينٍ، وحمدنا الله تعالى على نعمة الأبوة، وقلنا: أهلاً بالوافد العزيز.

وجاءت ذكرى زواجنا العاشرة، ونحن أبوان لثلاثةٍ ربطوا بيننا كما أراد الله: بالموّدة والرّحمة، لكنني كنت في قرارة نفسي أخشى بلاءً سيحدث أو نكبةً ستحلّ، كنت أردّد هذا البيت بيني وبين نفسي:

اللّيالي من الزّمانِ حبالِي مثقلاتٌ يلدن كلَّ عجبٍ^(٢)

(١) انظر: مجاني الأدب في حدائق العرب، لرزق الله شيخو (٦/٣١).

(٢) انظر: السّحر الحلال في الحكم والأمثال، لأحمد الهاشمي (١/٢٣).

كنت أخاف تقلُّبات الأيام، كأنِّي أسمع صوتًا يناديني: لا تأمن الدهر فالدهر قُلَّبٌ، وإذا أنصفك فيومٌ لك ويومٌ عليك.

وأحيانًا أكون معها في غرفتنا منسجمين في حديثٍ، فتخطر لي مثل هذه الخواطر، فأصمت فجأةً، فتقول: مالك؟! فأقول: لا؛ لقد تذكَّرت حاجةً، حتَّى إنَّها قالت لي يومًا: قل لي بالله عليك أفي قلبك أنثى غيري؟!!

كنت أخاف من المستقبل أن يسلبنا هذه السَّعادة الَّتِي أنعم الله بها علينا، ويحرمانا هذه النِّعمة الَّتِي حلَّت بنا من فضله.

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَا نَقْصُهُ تَرَقَّبْ زَوَالَ إِذَا قِيلَ تَمَّ (١)

وحدث ما كنت أخافه، بعد مرور أسابيع على الذكرى العاشرة لزواجنا، وكنت عائداً إلى البيت من عملي أحمل بعض الحاجات للأسرة، والطريق مظلمةً، وكنت أمشي مسرعاً على قدمي، شعرت أنني اصطدمت بشيءٍ، ثمَّ لم أدر عن نفسي شيئاً، إلَّا أنني أسمع أصوات بشرٍ يلتفون حولي، ويحاولون إسعافي.

وحاولت القيام، وقمت فعلاً، الدُّنيا ظلامٌ، ما بال الأيدي تمسك بي؟! أنا في ليلٍ أم نهارٍ؟! أنا في يقظةٍ أم منامٍ؟! الظَّلام يحيط بي من كلِّ الجهات، أين السَّماء؟! أين الأرض؟! ما هذه الأصوات؟!!

إنَّني أعمى، نعم أعمى، وعندما عرفت الحقيقة أغمي عليَّ، وجدت نفسي في المستشفى، وعندني زوجتي وأولادي، وزوجتي تسلَّيني وتعزَّيني، وتمسح على رأسي، وتقبِّلني كأنَّها الأمُّ الرَّحيم، وقد سبق أن

(١) انظر: المستطرف في كلِّ فنٍّ مستطرف، لشهاب الدِّين الأبيهيِّ (١/٥٣).



قلت في أوّل رسالتي هذه: إنّ النّعم تعرف متى سلبت، وهكذا كنت؛ فلم أعرف نعمة البصر إلّا بعد أن فقدتها، إذن فسأعيش بقيّة عمري أعمى، سأعيش في الظّلام.

وعدت إلى البيت مع زوجتي وأولادي بعد أن قرّر الطّبيب أن لا أمل إلّا بعد سنواتٍ قد تزيد على العشرة، وأنّ الأمر خطيرٌ جدًّا، وقد يأتي من ألطاف الله ما لا يخطر على بالٍ، فقلت: هيهات إنّها تسليّة، والأطباء دائماً يسألون.

وعدت إلى البيت بعد غياب أسبوعين، عدت إليه على غير ما كنت عليه يوم خرجت منه، فقد خرجت منه بصيرًا، وعدت أعمى، وخرجت سليماً، وعدت مريضاً مُعقّداً.

كلُّ خطوةٍ أتعثّر فيها تسبّب لي ألمًا نفسيًّا، وكلُّ إناءٍ ينكسر بيدي ينكسر له قلبي جزعًا، إذن فما بالي؟! أيأسًا من رحمة الله، أم حربًا لقضائه وقدره؟!!

وأخيرًا انتصر إيماني على جزعي، وتغلّب صبري على ألمي، وعاشت حياتي الجديدة واعتدتها، واعتدت الجلوس وحدي، وأحيانًا مع الأولاد عندما يذاكرون دروسهم، ومع أولاد الجيران الذين أخذوا يأنسون بي وأنس بهم عندما أحلّ لهم ما يستعصي عليهم من دروسهم، وأشرح لهم ما يُشكل منها.

وطرقت أبواب الأطباء مرّةً أخرى، وكأنّهم كانوا على اتّفاقٍ مع الطّبيب الأوّل، فالجواب واحدٌ: إنّ الأمر يحتاج إلى زمنٍ، وقد يأتي من ألطاف الله ما لا يخطر على بالٍ.

وجلست إلى زوجتي ذات يوم، وكانت صامتةً على غير عاداتها، وقلت لها: لا تؤاخذيني، فمن باب براءة الذمّة أن أعرض عليك رأيي، ومن الحرّية أن تجيبي بصراحة:

أنت زوجة، ولست ممرضة؛ لا سيّما أنك ما زلت شابةً جميلةً، ومن حقك أن تعيشي كما يحلو لك، والمستقبل أمامك طويلٌ، لكنّها حين سمعت قولِي هذا غضبت، وقالت: أنت زوجي العزيز، وأبو أولادي، ومن العار أن أتركك أو أترك بيتي، وأسأل الله أن يمنحك الصّحة، ونسأل الله أن يُعجّل لك اللّطف الموعود، وسأظلُّ جانبك، فأنت الرّوج الأوّل والأخير بعد عمرٍ طويلٍ.

وأكبرت فيها هذا الإخلاص، وبكيت سرورًا من موقفها هذا، بكيت كالطفل عندما تحتضنه أمّه بعد غيبةٍ.

ومرّت السّنون رتيبةً ممّلةً، نهارها كليلها حالكٌ مظلّمٌ، لا أخرج من بيتي إلّا قليلاً مع سائقٍ هو في الوقت نفسه قائدي، وأحمد الله تعالى أنّي كنت في ميسرةٍ، فقد كان لي عقارٌ يكفيني دخله الشّهريُّ، وقد يزيد.

وكنت على الرّغم من العمى حاضرًا دائمًا في حياة أولادي الثلاثة، فقد كانوا دائمًا معي بعد عودتهم من مدارسهم، وكنت لهم الوالد والصّديق والمدرّس المذاكر.

وكانت زوجتي ترعاني أكثر من رعايتها أولادها، فما أكاد أنطق باسمها حتّى يأتي صوتها إليّ حنونًا بكلمة: أبشر أو لبّيك.

ومضت عشر سنين عشتها في ظلماتٍ لا تعرف نورًا، وأصبحت ذات يومٍ منشرح الصّدر، باسم الثّغر، كأنّ شيئًا سيكون، قالت زوجتي: ما



بك؟! هل تذكّرت أنّ غداً ذكرى زواجنا الحادية والعشرين؟ قلت: لم أذكر، وأظنّها - كما يقولون - إحساساً روحانياً، فقد صلّيت البارحة كثيراً، ودعوت للأولاد كثيراً، وأظنّ أنّ الله تقبّل منّي، وأمسى المساء وأنا أشعر بسرورٍ باطني لا سيّما أنّ الأولاد رجعوا ظهرًا من مدارسهم، يحمل كلُّ واحدٍ كتابه بيمينه ناجحًا متفوّقًا بامتحانه، جاء الليل وكلنا في غمرةٍ من الأُنس والسَّعادة، وجاءني بعد المغرب صديقٌ اعتاد زيارتي يبشّرني بأنّ أسهمًا لي في الشَّرْكة الفلانيّة ربحت خمسة أضعافها؛ أي: (٢٥) ألف دينارٍ، فسجدت لله شكرًا.

وهنا تذكّرت التَّشاؤم، فقلت في نفسي: يا ستّار، يا لطيف تمّمها علينا بخيرٍ، واحفظنا من مواليد الليالي.

وبعد السَّهرة ذهب كلُّ إلى مرقده، ونمت نومًا عميقًا؛ تفاؤلي يغلب تشاؤمي، وسروري يغلب خوفي، ورأيت في نومي رؤيا كلّها نورٌ.

واستيقظت من نومي، ويا لها من صحوةٍ، إنّي أرى كلّ شيءٍ، هذا هو السُّراج، وهذا هو الأثاث، وهذه يدي ورجلي.

وقمت فرحًا لأرى وجوه أولادي الذين حرمت النّظر إليهم عشر سنين، وذهبت إليهم في مراقدهم، هذه بنتي وقد بلغت السادسة عشرة من عمرها، ما شاء الله! إنّها امرأةٌ جميلةٌ، اللّهمّ وفّقها، وهذا أخوها، وهذا أخوها الأصغر، وكلّهم يتحلّون بالأخلاق الكريمة والذكاء اللّامع، اللّهمّ وفّقهم جميعًا لمستقبلٍ سعيدٍ.

لن أوقظهم لأخبرهم، كفاني الآن ما رأيت، وغداً سأبشّرهم، وسنحتفل بعودة البصر وذكرى الزّواج، فلأذهب إذن إلى أمّهم وأفاجئها بالخبر، وانطلقت إلى غرفة زوجتي، وفتحت الباب لأرى الخيانة مجسّمةً

في زوجتي، رأيتها في أحضان رجلٍ غريبٍ، ماذا؟! هل هذا صحيح؟! لا، لا.

إنني ما زلت أعمى، وتصنعت العمى، وقامت زوجتي من أحضان الخليل، وبصوتها الرقيق الحنون تقول لي: ماذا بك يا حبيبي؟! خيراً إن شاء الله؟! وكانت عاريةً تماماً، قلت: لا شيء، لكن لم أنم حتى الآن، فجئت إليك بعد أن مررت بالأولاد فوجدتهم نياماً، فكان جوابها لي، اذهب ونم يا حبيبي، نوم الصّحة والعافية. قالتها بلسانٍ رقيقٍ، ووجهٍ كالح بشعٍ مكفهرٍ.

لم يفزعها دخولي، ولا أفزع خليلها، فهما يعرفان أنني أعمى، ويا ليتني كنت أعمى ولم أر هذا المنظر المخزي المسيء إلى سمعتي وسمعة أولادي.

ودام تظاهري بالعمى أسبوعاً كاملاً أو أكثر، ثم أخبرتها بعودة بصري إليّ، ففرحت أو تظاهرت بالفرح، وفرح الأولاد، وكنت بينهم الحزين المهتم.

هذه قصّتي يا سيّدي سرّتها مجملّة، وهي في إجمالها مفصّلة.

السؤال:

هل أطلقها؟! وإذا سألني الأولاد لماذا طلّقت أمّهم ماذا أقول لهم؟! وإذا طلّقتها فسيقول الناس عني: إنني عديم الوفاء، غدارٌ، أحسنت إليّ في الشدّة، فأسأت إليها في الرّخاء.

أشر عليّ جزاك الله خيراً، إنني في حيرة.



الجواب:

قرأت رسالتك، وإن صحَّ ما فيها فهو مؤلِّمٌ، وسامحني إذا قلت لك: لعلَّك واهمُّ فيما رأيت، أما سمعت المثل الكويتيَّ القائل: إذا قيل لك رأسك عليك تلمَّسه.

صارح زوجتك بما رأيت، وأكِّد لها ذلك، وصف لها الموقف الَّذي كانت عليه ليلتها، وانتظر جوابها، واقبل عذرها، واكظم غيظك، وكن من العافين المحسنين، لا لأجلها، ولكن لأجل أولادها ولسمعتك، فطلاقها - كما قلت - إساءةٌ لسمعتك، وتشتيتٌ لأسرتك، وإساءةٌ لأولادها، وتضييعٌ لهم، أو قتلٌ لمواهبهم.

هي الآن في الثامنة والثلاثين كما عرفت من رسالتك، وأنت في الثانية والأربعين، فهل تعيشان عازبين؟!

إنها كما تقول: زلت وهي في عصمة زوج، فإن لم تتزوج فستزلُّ، ثم تذلُّ، ويذلُّ أولادها، لا؛ أرجوك كن من عباد الله الَّذين قال فيهم: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:

١٣٤].



٤٧- أريد حياته ويريد قتلي

قرأت كما قرأ الآلاف سلسلة «من غريب ما سألوني»، والحقيقة أنَّها غرائب، وإنَّ فيها لعبر، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) [ق: ٣٧].

وقرأت عن شكوى الأولاد من سوء معاملة والديهم، ورأيتك تقف في ردودك مع الأولاد، وإنك محق في ذلك، وأشعر بقسوة كلماتك وكأنها تصرخ فيهم: انتبهوا يا آباء قبل أن يفوت الأوان، ويفلت الزمام.

وفكرت في مشكلتي، وأسرعت إلى القلم لأكتب إليك، لكنني تلكأت وأخذت كما يقول المثل: أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، من ذا يصدق ما أقول، من الذي يؤمن بما يقرأ؟! لو تقررت كتابته، ثم ذكرت كلامك وأنت تحدثنا يوماً عن الصبر، وأنه على من ابتلي أن يذكر مصيبة غيره لتهون عليه مصيبته، فقلت: إن المصائب مزدوجة، وإنه لا بد أن يكون في الوطن من هو مثلي أو أشدُّ بلاءً مني.

إنك يا سيدي أب تدرك وتقدر معنى كلماتي، وتعلم أن أي إنسان في العالم البشري لا يرضى أن يفوقه أحد غير ولده، وأن أي أب في هذه الدنيا يسره أن يسمع هذه الكلمة: جعلك الله خيراً من أبيك، تقال لابنه، وإنه يتمنى ذلك حقيقةً، ويرجو أن يدركها حقيقةً، ويبذل الغالي والرخيص في تحقيقها مؤثراً ابنه على نفسه، تلك العاطفة الوالدية التي زرعا الخالق العظيم في قلوب الوالدين؛ آباءً وأمّهاتٍ تجاه أولادهم؛ بنين وبناتٍ.

ومصيبتي - يا سيدي - أولادي؛ نعم أولادي الذين رببتهم صغاراً، وعلتهم أيفاعاً، وعلمتهم جهّالاً، وأغنيتهم عن الحاجة إلى الناس، ويسرت لهم كل ما يحتاجون، وكنت لهم الأب الحنون والصديق الوفي، والأخ البرّ، والزميل المعين، لم أقس على واحدٍ منهم، فإذا أخطأ أحدهم نصحته، وإذا أعسرت في تلبية طلبه اعتذرت له، وإذا مرض أحدهم سهرت عند مرقده حتى ينام، وربما نمت عند مرقده كالممرضة.



لقد كنت لأولادي كما قال الشاعر:

غذوتك مولودًا وعلتك يافعًا تُعلُّ بما أدني إليك وتنهلُّ
إذا ليلةً نابتك بالشكو لم أبتُ لشكواك إلا ساهرًا أتململُّ
كأنِّي أنا المطروقُ دونك بالذي طرقتَ به دوني وعيني تهملُّ^(١)
وهكذا كنت مع من يمرض منهم، فأنا الممرض، وأنا المريض.

لم أكن أرجو أن أبلغ كبر الشيخوخة ليكونوا لي العصا التي أتوكلُ
عليها، لا والله ما قصدت هذا، ولا فكّرت فيه، بل فعلته ابتغاء وجه الله،
ورجاء أن يكونوا صالحين، تصلني دعواتهم ويبقى ذكري بهم.

ولعلّ قائلًا يقول: إنهم أولادي، وإنّ الواجب يحتم عليّ فعل ما
فعلت، ومن غير الأب يرّبي ويكسو ويطعم، ويهيئ لهم سبل التعليم
والمعرفة؟! لكنني والله فعلت ما هو أضعاف الواجب، بل أكثر.

إنني سهرت ليناوما، وتعبت ليرتاحوا، وجعت ليشبعوا، وقترت على
نفسي؛ بل تناسيتها ليسعدوا.

ولعلّي أطلت المقدمة، فمعدرة سيدي! الجرح تسمم، وهيهات أن
تداويه رقية راقٍ، أو كلمات عدولٍ.

أولادي ثلاثة أبناء وبنّت، وكنت يوم ولدوا عاملاً يوميًا أكسب قوتي
وقوتهم بعرق جبيني، وقد لا أجد العمل في بعض أيام الأسبوع، وقد
أجده مساءً، فأبيت ساهرًا حتى الصّباح؛ لأوفرّ لهم ولأمّهم الصّروريّات،
وحتى لا يشعروا بالحاجة، فيذلّوا أمام المعارف والجيران.

(١) انظر: شرح ديوان الحماسة، للتبريزي (١/٣١٤).

ونصحتني كثيرٌ من الأقارب والأصدقاء حين اشتدَّ عودهم أن أعلمهم الحرف، شأنهم شأن أبناء أمثالي؛ ليكسبوا قوتهم ويعينوني أو يريحوني، لكنني تصاممتُ عن نصيحتهم قائلاً: لن يكون أولادي عمَّالاً، بل سيكونون مديرين أو وكلاءً أو رؤساءً، وسأعيش إن شاء الله حتى ينالوا الشَّهادات الجامعيَّة.

وكانت أمُّهم رحمها الله تشفق عليَّ حين تراني مهوود القوي، مجهوداً مكدوداً، فتقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فارحم نفسك وارحمني، دعهم يعملون بالنَّهار، ويتعلَّمون في المساء؛ فأولاد أمثالك يفعلون هكذا.

وكنت أجيها ضاحكاً: لن تُراعي، فغداً ستحمدين العافية، وتكونين أمَّ النَّائب والوكيل والمدير، ولا تخافي عليَّ؛ ففيَّ بقيَّةٌ، ومن جدِّ وجدِّ^(١).

وكنت أعود إلى بيتي مساء كلِّ يومٍ خائر القوي أجرُّ رجليَّ؛ حتَّى إذا وضعت جنبي على فراشي غبت عن نفسي في سباتٍ عميقٍ حتَّى عن الأحلام.

وماتت شريكة الحياة في مستشفى الولادة، بعد أن ولدت البنت صغرى الأولاد، أجل ماتت الأمُّ وعمر المولودة ساعاتٌ، ماتت أليفة العمر، ماتت الصَّديقة الصَّادقة، ماتت سكن النَّفس ذات اليد الحانية، والقلب الحنون، ماتت الزَّوجة الوفيَّة، والأمُّ الحنون.

ولن أنسى كلمتها لي وهي تحتضر وتنظر نظرتها الأخيرة إليَّ: الله

(١) انظر: المستطرف في كلِّ فنٍّ مستطرف، للأبشيهي (١/٣٠٧).



يعينك، الله يصبرك.

وبكيتها كثيراً، ولم يخطر ببالي أنها ستتركني، وأنها ستموت قبلي، لأنني أرى الأرامل في النساء أكثر منهم في الرجال، فلم صرت منهم؟! أستغفر الله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وانتقلت إلى رحمة الله، تاركةً على كاهلي حملاً ثقيلاً، كانت تشاركني في حمله؛ ثلاثة أبناء، ورضيعةٌ، من لهم غيري؟! فأنا الأب والأم، وصبرت، وكان الله معي، ولم أياس من وعد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

أشار الإخوة عليّ بالزواج، ونصحني به الأصدقاء، وألحّت عليّ الأم، وأبيت أن تدخل على أولادي زوجة أب، إن هذا لن يكون البتة، لن يذلوا بعد عزة، ولن يهانوا بعد تكريم، سيقون أعزّة.

وطلبت أمي الصغيرة مني فوافقت، وعشت السنين وأنا أمثل معهم دور الأب حيناً، ودور الأم حيناً، وأدعو الله وأنا أعمل أن يمدّ في أجلي؛ لكي أراهم رجالاً يملؤون السمع والبصر.

وكبر الأولاد، وشجعتهم على الاستمرار في التعلّم، ووفّقني الله في عملية لم أعد لها العدة، ولم أحسب لها حساباً، إذ يأتي من أطفاف الله ما لا يخطر على بال، فقد كافأني الله على صبري، وبدأت أصعد السلم بثبات وأناة وأمانةٍ عرفت بها بين الناس، وصدقٍ اطمأنّ له معارفي وعملائي، فازدهرت أعمالي، وذقت نعمة اليسر بعد عسرٍ طويل الأمد، واستخدمت امرأةً ترعى شؤون البيت، ذات إيمانٍ وأمانةٍ، حتّى يطمئنّ لها الأولاد.



واستمرَّ البنون في طلب العلم، ونالوا الشَّهادات الجامعيَّة، وحصل بعضهم على الدُّكتوراه، ووفَّقت في صفقاتٍ تجاريَّةٍ، لم أحسب لها حسابًا، زادت في ثروتِي، وأراحتني من عناء العمل، بينما وُفِّق الأولاد في حياتهم العمليَّة، فتزوَّجوا وتركوني إلى بيوتهم، وتزوَّجت البنت أحد أقارب أمِّها ليقميا معي في بيتي.

ومنذ أيسرت حبَّبت إليَّ القراءة، فكنت أقرأ بنفسِي، واستقرئ من أسمع منه، وأستوضح من يعلم، وكنت بحمد الله أفهم ما أقرأ وما أسمع، وحفظت شيئًا من القرآن، وكثيرًا من الأحاديث النَّبويَّة لفظًا ومعنى، حتَّى قال عني النَّاس: إنِّي من رجال الدِّين.

وفتحت بيتي للفقراء أجلس معهم وأتحدَّث إليهم، وأعين من أعرف حاجته منهم، واحتضنت يتامى، وتكفَّلت بمصروف بعض من لا عائل لهم.

واعترض عليَّ أبنائي، وأعرضت عن اعتراضاتهم قائلاً لهم: هذا مالي، وأنتم في غنيَّ عنيَّ وعنه، وقد ذقت مرارة الحاجة، وأحسست بألم الحرمان، وآمنت بقول رسول الله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(١)، وأحبُّ أن يكون الله في عوني دائماً، ولن ينقص منكم شيءٌ، فلا تخافوا.

وأخيراً وقفوا منِّي موقف المعارضة العنيفة، لا أدري ما السَّبب، فكلُّهم موسرٌ؛ كسبًا وجاهًا ومادَّةً، ولمَّا اشتدَّ موقفهم ضديَّ، وعلا صوتهم عليَّ هدَّدتهم بالخروج من مالي لله في سبيلٍ ينفعني في آخرتي،

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٦٩٩).



ولست ظالماً لهم؛ لأنني ضحيت في سبيلهم كثيراً، وكلُّهم الآن أغني منِّي، فخرجوا، وظننت أنهم اقتنعوا بما قلت، ولم أعلم أنهم أضمرُوا لي الشرَّ.

وقرَّرت أن أوقف عمارةً قدَّرتها بثلاث مالي؛ لتكون صدقةً جاريةً، وعلموا بما سعيت إليه، فجنَّ جنونهم، ورفعوا دعوى ضدي يتَّهمونني بالسَّفه أو العته، ويطلبون الحكم بالحجر عليّ، واختاروا لهذه الدَّعوى أقلَّ المحامين حياءً، وأسوأهم خلقاً.

وهذا - يا سيدي - ما صار إليه حالي، وهكذا كافأني أولادي، أستغفر الله، أبناء الثلاثة فقط؛ لأنَّ بنتي لم تشاركهم في الثَّورة ضدي، علماً أنهم لن ينالوا الحكم الغاشم؛ لأنني - والحمد لله - مالكُ جميع حواسِّي، وذاكرتي قويَّة، وأحفظ ما أقرأ، ولا أنسى.

السؤال:

هل يباح لي أن أخرج من كلِّ مالي لله؟

هل يباح لي أن أحرمهم من ميراثي؟

هل يباح لي أن أعطي البنت شيئاً وأنا حيٌّ؟

أجبنى سيدي، وجزاك الله عني خيراً.

الجواب:

أظنُّ - والله يعلم - أنك دَلَّلت أولادك، دَلَّلت أجسامهم، وأفرطت في الدَّلال، حتَّى دَلَّلت عقولهم، ولم تترك لهم ساعة تفكيرٍ، والإفراط والتَّفريط سيِّئان، وكلاهما تناهى:

وَحُبُّ التَّنَاهِي غُلَطٌ وَخَيْرُ الْأُمُورِ الْوَسْطُ^(١)

وَأَظُنُّ - وَبَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنَ الظَّنِّ الْآثِمِ - أَنْ مِنْ وِرَاءِ
أَبْنَائِكَ مَنْ يَحْرِكُهُمْ ضِدَّكَ، فَلَعَلَّ هَذَا الْمَحْرُكُ بَعْضُ نِسَائِهِمْ، وَفِي الْمِثْلِ:
فَتَّشَّ عَنِ الْمَرْأَةِ. أَوْ لَعَلَّ عَدُوًّا لَكَ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِنْتِقَامَ مِنْكَ، فَأَثَارَهُمْ ضِدَّكَ،
أَوْ حَاسِدٌ يَتَمَنَّى الشَّرَّ لَكَ، وَيَسْرُهُ زَوَالُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَنكَ.

وَنَصِيحَتِي لَكَ مَا دَمْتَ عَالِمًا أَنَّهُمْ لَنْ يَنَالُوا ضِدَّكَ حَكْمًا أَنْ تَنْتَظِرَ
حَتَّى يَصْدُرَ الْحُكْمُ ضِدَّهُمْ بِرَفْضِ الدَّعْوَى، ثُمَّ تَأَلَّفَهُمْ، فَهَمُّ أَوْلَادِكَ وَأَبَاءِ
أَحْفَادِكَ يَحْمِلُونَ اسْمَكَ.

وَلَا نَسِيَ مِثْلَنَا الْكُوَيْتِيَّ الدَّارِجَ: الظُّفْرُ لَا يَتَبَرَّأُ مِنَ اللَّحْمِ.



٤٨ - شَخْصٌ بِلَا شَخْصِيَّةَ

سَيِّدِي! لَيْسَ مِنَ الْيَسْرِ وَلَا مِنَ الْجَمِيلِ أَنْ يَرْفَعَ الْإِنْسَانُ شِكْوَاهُ لغير
خَالِقِهِ، لَكِنَّ مَكْلُومَ الْقَلْبِ يَجِدُ فِي شِكْوَاهِ لِمَنْ يَظُنُّ فِيهِ الْخَيْرَ تَخْفِيفًا، لَا
سَيِّمًا إِذَا سَمِعَ مِنْهُ مَوْعِظَةً، أَوْ أَصْغَى لِحَدِيثٍ فِيهِ تَسْلِيَةٌ.

وَقَدْ حَاطَلْتُ مَرَّاتٍ عَدَّةً أَنْ أَزُورَكَ فِي بَيْتِكَ مَعَ أُمِّي؛ لِأَحْكِي لَكَ
مَشْكَلَتِي إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدِ الشَّجَاعَةَ الْكَافِيَةَ لِأَنْفُذِ هَذِهِ الزِّيَارَةِ، وَهَآنَذَا أَبْتُ
لَكَ شِكْوَايَ مَكْتُوبَةً، عَلَّهَا تَجِدُ مَكَانَهَا فِي صَحِيفَتِكَ الْمَفْضَلَةِ لِلْقُرَّاءِ «مَنْ
غَرِيبٌ مَا سَأَلُونِي»، وَأَرْجُو مِنْ حَضْرَاتِ الْقُرَّاءِ الْكِرَامِ أَنْ يَسْأَلُوا اللَّهَ لِي

(١) انظر: المقاصد الحسنة، للسَّخَاوِيِّ (١/٣٣٢).



الفرج ممَّا أنا فيه من ضيقٍ .

إنني فتاةٌ في التَّاسعة عشرة من عمري، وحيدةٌ أبويَّ، جميلةٌ مقارنةً
بغيري من الفتيات، وأبي رجلٌ مستور الحال، متديُّنٌ يخاف من سوء
الظَّنِّ، ويعدهُ من أكبر الآثام.

وفدنا إلى الكويت مع مَنْ وَفَدَ إليها؛ لننعم براحة الأمان وطمأنينة
الاستقرار، وبعد عامٍ من استقرارنا في الكويت جاورنا من قال: إنَّه من
بلدنا، أخرجهُ من وطنه ما أخرجنا، وجاء يلتمس من الكويت المضياف
ما نلتمسه من طمأنينةٍ نفسيَّةٍ وراحةٍ أمنيَّةٍ .

والغريب للغريب قريبٌ كما يقول المثل، وبعد أيَّامٍ توَّطدت الصِّداقة
بين أبي وجاره، ولهذا الجار ابنٌ عازبٌ، قال أبوه: إنَّه في الثامنة
والعشرين من عمره، وهياته تدلُّ على أنَّه في الخامسة والثلاثين، يعمل
مع أبيه، وقد طلب بوساطة أبيه يدي، ولا أكذب إن قلت: كان الطَّالِب
الأب لا الابن .

وتزوَّجت لأكتشف منذ الشَّهر الأوَّل أنَّ زوجي ضعيف الشَّخصيَّة،
فاقد الثِّقة بنفسه، بلا إرادةٍ، وأنَّ أهله يتصرَّفون بجسمه وعقله كما
يتصرَّف حامل العصا بعصاه .

وتحمَّلت من هذا الزَّوج وأهله أقسى الآلام في نفسي وجسمي؛ لأنَّ
هذا الزَّوج يستعمل يده في الضَّرب واللَّكز كأنَّه مصارعٌ، وأبواه يستخدماني
بوصفي مأجورةً، وتعبت وحاولت أن أجعل من هذا إنساناً له فكره
وشخصيَّته ورأيه، لكن بلا فائدة، فيئست من كلِّ شيءٍ .

وأحسست أنَّني لم أتزوَّج، بل ابتاعني القوم؛ ليجعلوا مني خادمةً

للأب والأم، وسُرِّيَّةٌ^(١) للابن متى أراد.

كنت أقضي نهاري في عذابٍ مع والديه، وليلي في عذابٍ معه، وأحيانا في اللّيل يشعر بوخز ضميره، فأحسُّ به يبكي بينه وبين نفسه.

وبعد مضيِّ خمسة أشهرٍ من زواجي رأيت أن أفشي سرِّي لوالدي الذي هو صديق والد زوجي، وبعد نقاشٍ دينيٍّ بين والدي الزوجين قبلَ أهل زوجي أن نستأجر غرفةً قريبةً، مع جماعةٍ من أقارب الزوج، لكنَّ ريمة رجعت لعادتها القديمة، فكان زوجي يقضي نهاره مع أبويه في العمل والغداء والعشاء، ثمَّ يعود إليَّ في اللّيل حاملاً هموم الدُّنيا كلّها على رأسه، ليستعملني بوصفي وسيلةً لتفريج كربه بالضرب والإهانة، فيكون كالوحش المسلَّط، حتَّى استبدَّ بي اليأس بعد أن استنفذت كلَّ الطُّرق لتبديل صفاته، أو لكي أجعل منه رجلاً بالمعنى الذي تفهمه المرأة، لكنِّي أخفقتُ، وأخيراً قبلَ أيَّام علمت أن زوجي كان قد تزوّج وطلَّق، ثمَّ تزوّج وطلَّق، وأنا الرَّابعة، وقد عاشت الزَّوجة الأولى معه أسابيع، والثَّانية خالعتَه بعد شهرٍ من زواجهما، والثَّالثة طلَّقتَه وهي حبلى وأسقطت جنينها كرهاً له.

إنَّ زوجي إذا بكى اعترف أن لا إرادة له، وأنَّ أهله يلعبون بعقله، ثمَّ يطلب السَّماح، فإذا عاد من عمله عاد إليَّ بالضرب والسَّتم والرَّكل، ثمَّ البكاء في اللّيل.

(١) السُّرِّيَّة: الأُمَّةُ الَّتِي بَوَّأَتْهَا بَيْتًا، وَاتَّخَذَتْهَا لِلْمَلِكِ وَالْجَمَاعِ. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (١٣/١٢).



السؤال:

لقد أعيتني معرفة زوجي هذا، لم أستطع فهمه البتّة، وأبي يكره الطّلاق، ولا أدري ماذا أفعل؛ إنني منذ تزوّجت لم أعرف للسّعادة طعمًا، ولا للحبّ الذي تحكي عنه النّساء مذاقًا، ولا للحنان راحةً، وإنّي أخاف على نفسي أن يدركني اليأس فأنتحر، أو أجنّ، وأملي بالله ثمّ بك أن ترشدني.

الجواب:

لا أدري إن كان أبوك قد قرأ القرآن أم لا، وإن كان قرأه وفهم ما قرأ فهل قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَايَنَاهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرّوم: ٢١]؟!

الزّواج بين رجلٍ وامرأةٍ سكنٌ نفسيٌّ لكليهما، والتقاء نصفين ليكونا وحدةً ثمرها المودة والتّواصل على ما يثمر الخير والرّحمة، وليشعر الزّوجان أنّهما وحدةٌ تسمّى أسرةً، وأنّهما مسؤولان أمام الله والمجتمع عن حياة هذه الوحدة، ولتبقى ممثّلةً بإنسانيتها الرّاقية، وأخلاقها العالية، ومعانيها الجميلة، ولتحقّق مقاصد الزّواج الحسيّة والمعنويّة على خير وجهٍ يحبه الله وتحسن به العاقبة.

وقد وصفت زوجك بأوصافٍ عرفت منها أنّه مريضٌ بإرادته ونفسيّته، وأنّ أعراض المرض ظاهرةٌ عليه في اهتزاز شخصيّته، وتصرفاته معك، وانجذاب أهله، ثمّ شعوره بضعف شخصيّته أمامك بعدما يفعله معك من ضربٍ وإهانةٍ وشتمٍ.

على أيّة حالٍ نصيحتي لك بالخلاص من هذا الزّواج المشووم قبل أن

يشمر، فإنه لا فائدة من زوجك ما دام عديم الشَّخصيَّة والإرادة، وممسوح الرُّجولة.

وإنني أعلم كما يعلم أبوك أنَّ أبغض الحلال عند الله الطَّلَاق، لكنَّ بقاءك زوجةً لمثل هذا الشَّخص فيه هلاكٌ وشقاءٌ وشقاقٌ، والشُّقاق أبغض عند الله من الطَّلَاق، وليعلم أبوك أنَّ ذرِّيَّة مثل هذا الإنسان ستكون مثله معلولةً.

وليفهم أبوك معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ﴾ [النِّسَاء: ١٣٠]، والله أعلم.



٤٩ - أنت أدرى

كنت رابع أخواتي، وكنت المدلل الوحيد في طفولتي؛ لأنني الذكر الوحيد في الذُّرِّيَّة، وذو المركز الثاني في الأسرة بعد أبي، والأمل في بقاء اسمها، وكنت العزيز المحترم في صباي.

وعرفت مكانتي فاحترمت نفسي، وحاولت أن أكون رجلاً قبل بلوغي سنِّ الرُّجولة، فكنت أقلد أبي وأصدقاءه في كلامهم وحركاتهم، ولم أخاصم أختاً، ولا عصيت أمًّا، وكنت أتفقّد أخواتي في حاجاتهنَّ، فأقضي منها ما استطعت، وأستعين بالوالد الذي يعينني في قضاء ما لا أستطيع.

وتزوَّجت الأخوات الثلاث، فكنت لهنَّ كما يحببن، وعند حسن ظنهنَّ، أسهلَّ لهنَّ الصَّعب، وأيسرَّ لهنَّ العسير، ولا أردُّ لهنَّ أيَّ طلبٍ



أستطيعه، وما زلت كذلك والحمد لله .

وفي الثانية والعشرين من عمري قال لي الوالد رحمه الله: أحبُّ أن أناديك بالكُنية، فأبيُّ الأسماء أحبُّ إليك لأناديك به؟!

قلت: لا رأي لي في حضورك .

قال: إني سائلك، وأنا أعرف هذا، أيُّ الأسماء أحبُّ إليك؟

قلت: إذا سألتني عن أحبِّها إليّ فهو «سعد» .

قال: ولم؟

قلت: لأنه خفيفٌ على اللسان، قليل الحروف، وهي السَّين أوَّل اسمك، والعين أوَّل اسم أمِّي والدَّال أوَّل اسمي .

قال: جواب رجلٍ والله، ومتى سيكون سعدًا يا أبا سعدٍ؟

قلت: متى تزوجتُ أمَّه .

قال: ستتزوج حسب أمري إن شاء الله بعد شهرٍ، وستكون أمَّ سعدٍ فلانة بنت فلانٍ، وقد أخبرتني أمُّك أنك تثني على أخلاقها وصفاتها، وعلمت أنك راغبٌ بها، وبالأمس كلَّمت أباها، وذكرتك خاطبًا لها، وقد رحَّب الأب بك، وأثنى عليك، وستكون الخطبة رسميًا هذه اللَّيلة إن شاء الله .

وكانت لي نعم الزَّوجة؛ تسرُّني إذا نظرت، وتطيعني إذا أمرت، نظيفةً، عفيفةً، شريفةً، ودودًا ولودًا .

وعشنا زوجين سعيدين خمسًا وعشرين سنةً، وهبنا الله منها خمسةً من الأولاد؛ أكبرهم سعدٌ، وهو في الرَّابعة والعشرين من عمره، ثم بنتان،

ثم ابنان أصغرهما في الخامسة عشرة.

وانتقل الوالد إلى رحمة الله راضياً قير العين بعد ولادة البنت الثانية، ثم بعده بأشهر توفيت الوالدة كذلك متأثرة بنوبة قلبية أصيبت بها بعد موت الوالد، وقبل عامين ماتت الزوجة الغالية بعد ربع قرنٍ عشناه، كان لنا كشهر عسلٍ، وتركنتي وحيداً، وتركت الشباب الذي ربّت ورعت، وكلّهم ذوو أخلاقٍ حميدة، كسبوا بها رضا الوالدين.

ومنذ ماتت زوجتي وأنا مريضٌ، وقرّر الأطباء المختصون بالإجماع أنّ مرضي مزمنٌ، وأنّ الشفاء منه عسيرٌ، وأصبحت زبوناً دائماً للأطباء والمستشفيات، إمّا مراجعاً طبيياً، أو نزيلاً في مستشفى.

ولم يقتصر هذا على أطباء بلدي ومستشفياته، بل سعت إلى العلاج حتّى في بلاد الغرب.

وفي بلدٍ من بلاد أوروبا نزلت مستشفاهَا ستّة أسابيع كنت فيها موضع عناية إحدى الممرضات، كانت دائمة البسمة، لطيفة اللّمس، تعرف كيف تصل إلى نفسيّة مريضها، تنطق ببعض كلماتٍ عربيّة، قالت: إنّها كانت زوجةً لعربيٍّ عاشت معه عامين، ثمّ مات منذ عام في حادثٍ سيّارة، وإنّها خاليةٌ من كلّ مسؤوليّةٍ إلّا من نفسها، وتحمل شهادةً عاليةً في التمريض.

قلت: أنا الآن كبير السنّ، دائم المرض، مضطّرٌّ إلى ممرضةٍ تعيش معي ما دمت حيّاً، حتّى يقضي الله بأمره، فهل تقبلين أن تعيشي معي وفي بيتي بوصفك زوجةً لي بالاسم، ممرضةً بالعمل؟!

قالت: رضيت.

قلت: على أن تكوني مسلمةً؟



قالت: أمّا هذه فتحتاج إلى تفكير؛ لأنّ الدّين ليس ثوباً أخلعه لألبس ثوباً آخر، وأنا لا أستطيع أن أغيّر ديني حتّى أعرف الدّين الذي سأعتنقه، الدّين إيماناً بعقيدة، فإذا لم أصدّقه فكيف أعتنقه؟ إنني سأكون إذن منافقاً، ولا آمن أن أغيّره مرّةً أخرى.

كان كلامها كلام عاقل، ورضيت أن تكون معي زوجةً بالاسم، ممرّضةً في بيتي وبلدي، وأخبرت أولادي بما حصل، وعارضني أصغر الذّكور من أولادي والبنّتان، وقالوا: أزوجةً بالاسم، ممرّضةً بالعمل؟! وكيف يكون ذلك، ومن يأمن ألاّ تكون زوجةً بالفعل؟! وأنت مريض، ومرضك مزمن، ولا نرضى أن تعيش مع امرأةٍ في بيتٍ خالٍ، إنّنا نخاف الله فيك، ونخاف قدر الله عليك، علماً أنّنا نعتقد أن لا رادّ لقدر الله؛ لكننا لا نريد أن نقول: لولا ذلك ما كان هذا. فاتّق الله يا أبا سعدٍ في أولادك ونفسك؛ إنك استشرتنا، وهذا ردّنا على استشارتك، ولو قرّرت ما اعترضنا، ولو نقّدت لباركنا، وإنك عزيز، وإنّ لنا في حياتك رغبةً، وسلامتك فرحةً، ووجودك سعادةً، وصحّتك رجاءً، فلا تخيّب لنا رجاءنا يا أبانا.

وسألت الابن الأكبر؛ سعداً عن رأيه فقال: إنّ لي في حياتك لرغبةً، ولو قرّرت لباركت، ولساني أقصر من أن يردّ لك قراراً، هذا رأيي.

لقد أصبحت كالواقف بين طريقين أعرف نهايتهما.

الأوّل: اتّخاذ الممرّضة، ولا بدّ من وقوع ما يخشاه الأولاد، والله أعلم ماذا ستكون العاقبة.

والثّاني: النزول عند رغبة الأولاد، وكلّ مشغولٍ عني، علماً أنّ البنّتين مخطوبتان، وأنني في هذه الحالة سأكون مهملاً إلاّ وقت حضور



الأولاد من أعمالهم أو مدارسهم .

السؤال:

أكتب هذا إليك راجياً أن يكون الجواب على صفحات اليقظة؛ ليقراه الأب وأولاده، وشكراً سيدي!

الجواب:

قلت في أوّل رسالتك: إنك عشت تحاول أن تكون رجلاً منذ صغرك، ومعنى ذلك أنك جرّبت، وأطلت التجربة، وكنت الرجل الوحيد المعتمد بين ذويك، وعشت مسلماً في محيط مسلم، ونحن المسلمين نؤمن أنه لن تموت نفسٌ إلا بأجلها، وأن لكلٍّ أجلٍ كتاباً، والأجل معروفٌ، والكتاب رصيده، وختام حسابه، وأولادك على حقٍّ، وما قالوه هو الصّحيح، ولو نقّذت لما عارضوك ولباركوك، لكنك استشرتهم فأبدوا رأيهم باحترامٍ، ولن يمنعوك من تنفيذ ما تريد.

وقلت: إنك غير واثقٍ من نفسك عند خلوتك بالزوجة المزعومة، فهل أنت واثقٌ أنّها لن تستسلم لك؟! وأولادك يخشون أن يكون الموت في هذا حسب ما قرّره الأطباء.

وأنت على حقٍّ في اتّخاذ ممرضةٍ دائمةٍ معك في بيتك، وعقد الزواج في مثل هذه الحالة أسلم إن لم أقل واجباً، وتمريضٌ في بيتك خيرٌ لك من بقائك في المستشفى الزّمن الطّويل؛ لأنّ المستشفى سجنٌ يقيد، وفي بيتك حرّيّةٌ، والممرضة تتقيّد بأوامر الطّبيب في طعامك وشرابك ودوائك حسب المواعيد المقرّرة.

على أيّة حالٍ أنا لا أعرف نفسيّتك، قرأت كتابك ووازنت بين رأيك



ورأي أولادك، وكلُّكم على حقٍّ، وأنت أدري بنفسك؛ فإن كنت واثقاً من قوّة إرادتك فاتَّخذ الممرّضة، وإلّا فالحكمة تقول: ابعد عن الشرِّ، وغنِّ له .



٥٠- الذي لا يعرف تدابيره- حنطته تأكل شعيره

عشت حياتي كلّها في محيطٍ جاهلٍ؛ في أسرةٍ فقيرةٍ، وبين أبوين محافظين كما يقولان، لا يعرفان للحبِّ طعمًا، ولا للحريّة والحنان معني، فهما على خلافٍ دائمٍ بسببٍ أو بلا سببٍ، وخصامٍ على لا شيءٍ؛ إنَّهما لا يملكان شيئًا يختصمان عليه، ولا يعرفان شيئًا يختلفان فيه .

وقانون التّعليم الإلزاميّ أدخلني المدرسة، فتعلّمت القراءة والكتابة، ولفقر أبي المدقع عملت لأعينه على كسب القوت، وأنا الذّكر الوحيد بين أولاده الخمسة، ومات الوالد، وتزوّجت البنات، ثمّ ماتت الأمُّ بعد أن بلغت الرّابعة والعشرين من عمري .

حياةٌ عشتها خاويةً إلّا من الشّقاء والنّصب والتّعاسة والتّعب، ولمّا خفّ حملي الأسريّ وصرت حرّاً من المسؤوليّة لذّلي العمل، ونشطت فيه، ووُفّقت، وأدّخرت، وصرت ذا مالٍ .

وتزوّجت أوّل فتاةٍ صادفتها وابتسمت لي وقالت: إنَّها في العشرين من عمرها، ولم أسعد معها غير أسبوعٍ واحدٍ، اختلفنا بعده في كلّ شيءٍ، فزادت تعاستي، وعظم عذابي، فلا نصبح إلّا على خصامٍ، ولا نمسي إلّا على نزاعٍ، ولا نجتمع إلّا على خلافٍ، سعادتها في أن تقلق راحتي بأيّ

حركة في البيت، كأن ترفع صوت المدياع إذا أويت إلى فراشي، أو تُبكي طفلتينا إذا جلست إلى طعامي، أو تشكو نكدها وحظها إذا أنست بمشاهدة التلفاز أو سمعت الإذاعة، حتى مللت حياة البيت الذي أراه الله أن يكون للزوج سكنًا، فجعلت منه جحيمًا لا يطاق.

وهجرت البيت لأعيش بين رفاقٍ كانت لي عندهم السلوى من مصيبي، والراحة من ألمي.

وفجأة وجدت سعادتني في عيني فتاةٍ باسمه الثغر، جميلة الصورة، ناعمة الصوت، ظننتها الفرج الذي سيحيل نغمتي إلى نعمة، ويبدل ناري إلى جنّة، والذي سأسعد به بعد شقاء، وسأنعم به بعد عناء.

وهبتها قلبي الفقير إلى الحب حين أحسست بحبها، ووضعت تحت قدميها ثروتني التي جمعتها بالكد الكادح في الشتاء القارس والصيف اللافح، ولم أبخل عليها بشيءٍ ممّا أملك، وعرضت عليها الزواج، فكانت تماطلني وتقول صبرًا؛ فالوقت لم يحن بعد يا حبيبي.

ولم أدر أنّ هذا الثغر الباسم والصوت الناعم كانا لشيطانٍ متنكرٍ في ثياب امرأةٍ أضاعت عقلي، وحطمت كبريائي وقلبي، وقلّمت أظفاري، وسلبتني ثروتني، ثمّ نبذتني نبذ النواة كأنّها لا تعرفني.

وأخيرًا قالت لي بعد أن وقفت على بابها: اذهب عني، فأنا لا أعرفك، ولست بأول واحدٍ وقف هذا الموقف، فقد وقف هنا من كان مثلك، وطرد بعد أن خلا جيبه، ولست أول من غرّته خضراء الدمن^(١).

(١) خضراء الدمن: تشبيه المرأة بما ينبت في الدمن من الكلاء؛ يرى له غضارة وهو وبيء المرعى، متنّ الأصل. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/١٥٨).



إنَّ قلبي يحترق حقدًا على كلِّ امرأةٍ، ويكاد ينفجر غيظًا على كلِّ أنثى، أمِّي أشقت أبي، ثمَّ عدَّبتني، وزوجتي كانت تغيظني إذا أصبحت، وتشقيني إذا أمسيت، وذلك الشيطان المتنكِّر سلبي إنسانيتي وكرامتي ومالي وصحتي.

السؤال:

قلبي يكاد يتمزق، أعصابي تثور، ودمي يفور، إنني مريضٌ، ولا أدري ما هو مرضي؛ أمجنونٌ أنا، أم معقدٌ، أم ساذجٌ كتب عليه الشقاء؟! أنا بحاجةٍ إلى من يسليني ويواسيني ويعزِّيني.

لقد كتبت إلى المستشار في مجلة اليقظة، فأجابني بما معناه: الذي لا يعرف تدابيره حنطته تأكل شعيره.

وما أردت جوابه هكذا، أنا بحاجةٍ إلى من ينتشليني ممَّا أنا فيه، أرجوك ساعدني قبل أن يتبخَّر دمي.

الجواب:

قرأت كتابك للأخ الأستاذ مستشار مجلة اليقظة، وقرأت جوابه لك، وكان جوابه حقًا كما قلت: الذي لا يعرف تدابيره حنطته تأكل شعيره.

والظروف التي مرَّت عليك كانت قاسيةً فعلاً، ومررت بأيامٍ عصبيةٍ، هذا صحيحٌ؛ لكن كان عليك أن تتخذ من هذا درسًا، ويكون لك فيه ذكرى وعبرة، كان عليك أن تتخذ من خلاف أمك مع أبيك وسيلةً تنفذك ممَّا وقع فيه، فتكون خير زوجٍ تستطيع أن ترضي شرَّ امرأةٍ.

كان عليك أن تحاول إطفاء جمر المشاكسة البيئية بماء الحكمة والعقل كما قال لك الأستاذ المستشار، لا أن تهرب إلى غانيةٍ تتاجر باللذَّة كانت



في عمر ابنتك، وعلمت بما تملك، فباعتك به لذة مؤقتة.

وكان الواجب عليك أنت الشيخ المجرب أن توقن أن هذه الغانية بائعة شهوة أغرمت بجيبك، لا بشيبك كما يقول المستشار، وكان كلُّ همّها أن تستولي على كلِّ فلسٍ تملكه، حتّى إذا أيقنت أنّك أفلست أغلقت بابها دونك لتفتحه لمغفلٍ جديدٍ مثلك.

لكنّك بدلاً من يقينك الواجب تزوّجت أوّل امرأةٍ ابتسمت لك، ثمّ جريت لاهياً وراء غانيةٍ جرّدتك من كلِّ شيءٍ، ثمّ لفظتك، قد تكون متعطّشا للحنان، وقد تكون أسير لمسة عطفٍ افتقدتها في طفولتك، لكنّ هذا لا يمكن أن يكون ذريعةً لتلقي بنفسك في أحضان غانيةٍ، أو تتزوّج أوّل فتاةٍ تصادفها، والغريب بعد ذلك قولك: إنّك تحقد على كلِّ النساء، وتكره كلَّ أنثى، فما ذنب النساء، وهل كلُّ بنات حواء على هذه الشاكلة التي أوقعك فيها سوء حظّك، أو قل: عمى بصيرتك؟!!

لا؛ إنّ العيب فيك أنت، ففتّش داخل نفسك وواجهها بشجاعةٍ لتتخلّص من عقدك، وتلقي بها وراء ظهرك، ولتبدأ حياتك مرّةً أخرى بلا هموم وعقيد.

ونصيحتي لك أضّمّها إلى نصيحة الأخ المستشار، فأقول: حاول أن تصلح بينك وبين أمّ الأولاد، عد إليهم، وليكن فيما جرى لك درسٌ تضمّه إلى الدروس التي نسيتهما، فاذكرها، واعتبر، وتذكّر، وأحسن النية مع ربّك ونفسك وأهلك الذين هم زوجتك وبناتك.

انس أو تناس ما مضى، وثق أنّ هذا كلّهُ سيغسل الحقد والكراهية التي في قلبك للنساء المحصنات، وسيزيدك كرهاً وبغضاً وحقداً على النساء الغانيات سالبات العقول، وناهيات الجيوب.



إِنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْنُهُ قَالَ لِعِبَادِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وأنا واثقٌ أنك متى عدت إلى بيتك وبناتك وأمهم بحسن نيةٍ وصفاء طويةٍ فسيبدل الله كرهك لهم حبًّا، وغيظك عليهم رضا، وسيعوّضك نشاطًا في العمل، وسعةً في الرزق.

حاسب نفسك على ما فعلت مع أمّ أولادك، وأظنك إذا عدلت ستلقي اللوم على نفسك؛ لأن الله أرادك قوًّا، ولكنك لم تحسن القوامة، بل فرطت فيها، وقصرت بالإمساك بالمعروف.

هكذا ظهر لي من كتابك عندما قرأته مع كتابك إلى المستشار، ولا تنس كلمة الله العادلة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، صدق الله العظيم.



٥١- يتيم الطلاق

ولدت في ضجيج الخلاف بين أعظم شخصيتين في حياتي؛ أبي وأمِّي، ورضعت اللبن من صدر أمِّي ممزوجةً بالحزن والنكد، وسمعت أول ما سمعت في حياتي كلمات الشتم واللعن يقذفها بها أبي، وسمعت منها الدعاء عليه بالهلاك وسوء المنقلب كل يوم.

وكان فطامي من لبن أمِّي يوم أنعم أبي عليها بكلمة الطلاق، فقد حسبتها نعمةً فرّج الله بها أزمته، وزغردت لها لما سمعتها منه، وصفقت وضحكت.



ولما تزوّجت من تحبُّ طردتني إلى بيت أبي لتعيش في نعمة الحبِّ،
وأعيش أنا في جحيم زوجة الأب العاقر الحقود على كلِّ طفلٍ وعلى كلِّ
أمٍّ ولودٍ.

أمّا أبي فكان لاهياً في عمله، لا يأتي عليه آخر النهار حتّى يصل إلى
بيته كالألّا من العمل، ليأكل طعامه وينام، ويستأنف في غده يوم عملٍ
آخر.

هكذا يا سيّدي بدأت حياتي، ولمّا بلغت السّابعة من عمري أحسست
بوحشةٍ في نفسي تحبّب إليّ الوحدة والبعد عن محيط النّاس، حتّى عن
الصّغار أمثالي، وكبرت هذه الوحشة معي حتّى صرت أشعر بالخجل
الذي يقيد لساني عند التّحدّث إلى الرّجال، وكأنّي لست رجلاً مثلهم،
وخشيت من الشّدوذ إلّا أنّي وجدت نفسي أعاني من العلة ذاتها مع النّساء
والبنات، ممّا أدّى بي إلى الاعتقاد بأنّي لا أملك ذرّة واحدة من الثّقة
بالنفس، وأنّي سأعيش مستقبلاً قاتماً، فالحياة ملأى بالعقبات، فكيف
أستطيع اجتيازها؟! وملاى بالصّعاب، فكيف أقدر على تذليلها.

وهكذا أعيش، وقد بلغت الآن سنّ العشرين، ونسيت أن أقول: إنني
ولدت من أبوين في جنوب الجزيرة العربيّة، وفي السّابعة عشرة من عمري
هربت من جحيم زوجة الأب إلى وسط الجزيرة، وما زلت أعيش فيها
خادماً عند أسرةٍ كريمةٍ، تعلّمت عندهم القراءة والكتابة، ومع كوني خادماً
فقد عرفت بينهم طعم الرّأفة والرّحمة.

وعرف أبي وأمّي بمكاني، أو أنّي كتبت إليهما أتسلّى بالكتابة في
وحدتي، فكتبا إليّ؛ لأنّي أصبحت صاحب كسبٍ، وكلاهما يريد التّقرّب
إليّ ليقبض من موردي، ولا أكذب يا سيّدي إذا أخبرتك أنّ زوجة



أبي كانت تتودّد لي بسؤالها عنيّ، وتتمنّى لو أنّها كتبت لي .
 ومنذ أيّام تلقّيت رسالةً من أبي يقول فيها: إنّه تكلم مع ابن عمّه
 يطلب يد ابنته زوجةً لي، ويسألني رأيي في ذلك، وأنا أعرف البنت تمام
 المعرفة حتّى بلغت العاشرة من عمرها، والآن أنا بعيدٌ عنها، وأتمنّاها،
 لكن لا أدري ماذا يكون حالي عند لقائنا، وأنا المعقّد عديم الثقة بنفسي .
 وأبي يريد بهذه الوسيلة أن يجذبني إليه؛ ليستغلني في حالتي الحاضرة،
 أو ليعيدني إلى الوطن، فالعمل في الوطن كثيرٌ رابحٌ ناجحٌ .
 وكتبت إلى أمّي أستشيرها في الأمر، فأجابت بالموافقة على زواجي
 من تلك البنت التي مدحتها وأثنت على أبويها، على شرط أن أكون
 مستقلاً عن أبي بعيداً عن جحيم زوجته؛ عدوّتي الحقود اللدود، وهددّني
 بالمقاطعة والدعاء عليّ إن خالفت أمرها والتحقت بأبي .

السؤال:

- ١- هل أتزوّج؟ أخشى أن أخفق في الزّواج، أخشى أن تغلبني قلّة
الثقة بنفسي، فلا أجدها .
- ٢- وإن تزوّجت فهل أذهب لأبي، أم أطيع أمّي فأستقلّ وحدي
وأعيش حيث أنا الآن عبداً للنّاس، أو أرجع إلى وطني للعمل هناك
وأكون سيّد بيتي؟!

وأخيراً شكراً لك سيّدي، وأنا في الانتظار، ولن أخالف لك رأياً .

الجواب:

المرضى بمرضك يا ولدي كثيرون، وأولئك هم يتامى الطلاق، فهم
يتامى ولهم أمّهاتٌ وآباءٌ يعيشون بين النّاس أحياءً، أقول: إنهم يتامى؛

لأنهم فقدوا حنان الأمّ ورعاية الأب، وعاشوا تحت قسوة معاملة زوجته .
ولا يلام هذا الطفل البريء الذي خلق ليكون حرّاً عزيزاً، فكان عبداً
ذليلاً منذ بدأ يحسّ بالحياة، أدلته زوجة الأب، وحرمة لذة الحياة، إنّه
يرى أترابه ينعمون وهو بائسٌ، ويسعدون وهو شقيٌّ، ويشبعون وهو
جائعٌ، ويتحدّثون عن آبائهم وأمهاتهم، فأين أبوه وأمه، ولماذا لا يتحدّث
عنهما وعن حنانهما وهداياهما؟! إنهم يلبسون الجديد وهو ذو أسمال^(١)،
إنهم ملأى الأيدي ويده فارغة .

والطفل حسّاسٌ ذو شعورٍ، وهنا تنشأ العقدة، إضافةً إلى مؤثرات سنّ
المراهقة التي يستغلّها بعض الأشرار من المراهقين من أمثال هؤلاء،
والتي لا بدّ أن تترك آثارها السيئة في نفوسهم، وعند ذوي النفوس
المرهفة منهم خاصّةً .

أي بني! تشجّع، وتخطّ الحاجز تنجح، نعم؛ ستنجح، إنّ العقدة
تشجّع بساقتك، فامدد ساقتك، ثمّ اففز متخطياً الحاجز تنحلّ العقدة بإذن
الله، ولا تخفّ .

تحرّر من انطوائك على نفسك، وامتزج بالشباب من أمثالك، لا سيّما
أنك قرأت وكتبت، واختر لهذا الامتزاج من هو أوسع منك علماً،
واسأله، واطلب الجواب منه .

وبهذا الامتزاج تتخلّص من هذا الانطواء الذي استعبدك وأعدمك
الثقة بنفسك، وأرجو أن تكون زوجتك؛ زوجة المستقبل زوجةً صالحةً،

(١) السَّمَلُ: الخَلْقُ من الثَّياب. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/٣٤٥).



«فالدُّنيا متاعٌ، وخير متاع الدُّنيا الزَّوجة الصَّالحة»^(١) التي تعين زوجها على متاع الحياة؛ فتبعث فيه القوَّة إذا تعب، وتحيي فيه الأمل إذا يئس، وتعينه على تكاليف الحياة إذا كلَّ، وتمسح عنه عرقه إذا تصبَّب.

أمَّا الجواب على مشكلتك الأخرى، فلا محلَّ له من القول إلاَّ بعد حلَّ المشكلة الأولى، لكنِّي لا أدري، فلعلِّي لا أحياء، وأنا لا أعرف من تكون، إذن فلا بدَّ منه.

إذا تحرَّرت من عقدتك فخيرٌ لك أن تتبع مشورة أمِّك، وتبتعد عن زوجة أبيك التي تريد أن تستعبد زوجتك كما استعبدتك من قبل، فانج بنفسك منها، فأنت الآن حرٌّ، ولعلَّ زوجة أبيك تريد الانتقام منك؛ لأنَّك فررت منها، فأوحت لأبيك ما أوحت.

انج بنفسك، وكن حرًّا أنت وزوجتك، وحاذر أن تطلق زوجتك متى كان لك منها أولادٌ؛ حتَّى لا تتكرَّر مصيبتك في أولادك، وكن لها نعم الزوج تكن لك نعم الزَّوجة، وأحسن لأولادك، والله مع المحسنين.



٥٢- من كان عدو نفسه فلا خير فيه

أرغمني أبي على الزَّواج منه؛ لأنَّه ورث مالا عن أبيه فاشتراني بمهرٍ غالٍ من أبي، ولم أر من هذا المهر حتَّى خمسه.

ولأنَّ زوجة أبي لا تريدني في بيت أبي حتَّى خادمة لها، ولأنَّ

(١) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧).

مصلحتها المعجّلة في أن تقبض من هذا المهر حصّة الأسد .

وكنّت أتمنى زوجاً يناسبني في معرفتي وشبابي وصورتي، لكنّ أمنيّتي خابت، فزوجي في سنّ أبي، ورضيت بالقسمة، واتّعظت بالمثل القائل: الزّواج قسمةٌ ونصيبٌ، وقلت لنفسي هذه قسمتك، وهذا قدرك، لكن ما باله وهو الذي رضيناها لا يرضى بنا؟!!

إنّه منذ الأسبوع الأوّل لزواجنا يسهر خارج البيت، ويعود آخر الليل تعباً خائر القوى، ويسقط في فراشه كأنّه مخمورٌ، علماً أنّه لا يشرب الخمر، وليس فيه من الحسنات إلّا هذه.

وسألته المرّة الأولى عن سهره فلم يجب، ثمّ سألته في الثانية فنهاني أن أسأله مرّة أخرى، ولكن لا بدّ للزّوجة أن تعرف عن زوجها كلّ شيءٍ خشية أن يحدث له ما يسوءه، ولمّا سألته في الثالثة وبيّنت له سبب إلحاحي في السّؤال انهال عليّ بالضّرب واللّكم والإهانة والسّتم قائلاً: وما دخلك في خصوصيّاتي؟!!

ومضت ثلاث سنواتٍ لم أعرف خلالها زوجي إلّا بالاسم، ولم أعرف نفسي أنا زوجة أم خادمةٌ بأكل بطني؟! لقد كنت زوجةً لمُدّة عشرة أيّام فقط، بعدها عزل فراشه عنيّ، فلا أراه إلّا إذا طلب طعامه أو غير لباسه، ولا أدري عنه متى يخرج ومتى يعود، وهكذا عشنا.

وخلال هذه المدّة عرفت أنّ زوجي يلعب القمار، وأنّه يخسر دائماً، وأنّه على وشك الإفلاس بعد أن خسر كلّ تركة أبيه، وأنّه رهن بيت السّكن ليسدّد ما عليه من ديونٍ وخسائر.

وفي يومٍ من الشّهر الماضي علمت أنّه لم يخرج، فدخلت غرفته وكان



في فراشه صاحب الوجه خائر القوى، فسلمت وسألته عن حاله، فقال:
إنني مريضٌ.

قلت: أحتاج إلى طبيبٍ؟

قال: لا.

وجلست إليه، ووضعت يدي على رأسه، وكأنه ارتاح لذلك، وقلت:
أتريد شيئاً أصنعه لك؟! فبكى.

وسألته: لم تبكي؟! قال: لأنني عدو نفسي، ومن كان عدو نفسه فلا
خير فيه.

قلت: وهل تعرف هذا؟!

قال: الآن عرفت، ولكن بعد فوات الأوان.

قلت: لم يفت الأوان، فما زالت في الحياة فسحةً، فقال: وأيُّ
فسحةٍ وقد خسرت كلَّ ما أملك؟!!

قلت: أعلم كلَّ شيءٍ، لكن ألا تعلم أن من تاب تاب الله عليه، وأن
الله وعد من تابوا وصدقوا التوبة أن يبدل سيئاتهم حسنات؟! فإن صدقت
توبتك مع الله تعالى فسيعوّضك ما خسرت، فكن مع الله يكن معك.

لكنَّ الرَّجل كان ضعيف الإيمان بالله، فلم يقتنع، وعاب قولي
بالفلسفة، وقال: هذه أمانِي، والأمانِي رأس مال المفلسين، قومي إلى
غرفتك، أنا لا أريد شيئاً.

ثم أدار لي ظهره، وتناوم فقممت إلى غرفتي، لكنني لم أنم، وبين
لحظةٍ وأخرى أقوم لأتفقده فأجده يقظاً لم ينم.



وفي الصَّبَاح أتيته لأسأل عن حاله، فقال: اليوم هذا أخرج من الدَّار لصاحبها الجديد، ولا مكان لك عندي، وسأذهب إلى الجحيم، اذهبي إلى أهلك، وإن شئت الطَّلَاق فإنِّي طوع مشيئتك، واعلمي أنني عدو نفسي، وكما قلت لك: من كان عدو نفسه فلا خير فيه، وبعد شهرٍ سأمُّ بك في دار أبيك لأعرف إن كنت تريدين الطَّلَاق، ونصيحتي أن تقبلي هذا، فإنِّي لا أصلح أن أكون زوجًا.

سيدي! إنني اليوم في الثانية والعشرين من عمري، عشت مع هذا الرَّجُل كما ذكرت أسبوعًا واحدًا بوصفي زوجةً، وهو الأسبوع الأوَّل من الزَّواج.

السُّؤال:

هل أطلب الطَّلَاق؟! أفدني، وشكر الله سعيك، وأجرك على الله.

الجواب:

إنني أكره كلمة الطَّلَاق، فكيف بتنفيذها؟!

وزوجك إن صدقت في وصفك له ففي البعد عنه خيرٌ لك، وفي طلاقك منه حفظ مستقبلك؛ إذ قسا قلبه حتَّى كان كالحجارة أو أشدَّ قسوةً.

عشت معه ثلاث سنواتٍ معلقةً، لا أنت زوجةً، ولا أنت مطلَّقةٌ، وكان جزاؤك منه: اذهبي إلى أهلك، أهذا جزاء مواساتك له عندما علمت بعدم خروجه وجئت للسُّؤال عنه ونصحه، أهكذا يكافئك بقوله: إن شئت الطَّلَاق فأنا طوع مشيئتك؟!

إنك ما زلت في ريعان شبابك، وخالية الحُضن والبطن؛ فلا ذرِّيَّة



تربط بينكما ، فلم التَّمسُّكُ به؟!

والقمار شرُّ داءٍ ، قلَّ أن يبرأ منه من ابتلي به ، وقد عرفت كثيرين ممَّن قامروا كان أحدهم يقسم الأيمان المغلَّطة ألا يعود ، فإذا ملك درهماً أخذ يفتش عمَّن يقامره عليه ، ولا يرتاح باله حتَّى يخسره ، فإذا خسره شتم نفسه وسبَّ الشَّيطان .

ولقد صدق الشَّاعر العربيُّ بقوله :

لكلِّ نقيصةٍ في النَّاسِ عارٌ وشرُّ معائبِ المرءِ القمارُ
هو الدَّاءُ الَّذِي لا براءَ منه وليس لذنْبِ صاحبهِ اغتفارٌ^(١)
ثمَّ إنَّه قد نصحك بعد أن عرفك بنفسه ، فهو كما قال : عدوُّ نفسه ،
ومن كان عدوًّا لنفسه فلا خير فيه .

أنصحك أن تقبلي عرضه بالطلاق ، فلا خير فيمن كان عدوًّا لنفسه ،
ومن كان عدوًّا لنفسه فهو بعبادة غيره أشدُّ وأولى ، وسيعوّضك الله على
صبرك ووفائك خيراً ، وستحمدين العاقبة ، والعاقبة للمتقين ؛ ﴿ إِنَّمَا يُوفِّى
الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزُّمَرُ : ١٠] .



٥٣- عَجُوزٌ يَتَصَابِي

أبي أمِّي جاهلٌ ، أقول : إنَّه جاهلٌ ؛ لأنَّ في الأميين من يميِّزُ الخير من

(١) لم أقف عليه ، ولم أجده فيما توقَّر لي من مصادر ، وينسب إلى الشَّاعر نجيب الحدَّاد .

الشَّرِّ، وَالنَّافِعَ مِنَ الضَّارِّ، وَفِيهِمْ مَنْ يَسْتَمِعُ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُ أَحْسَنَهُ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ الْأَحْسَنَ، لَكِنْ أَبِي غَطَّى جَهْلُهُ جَمِيعَ حَوَاسِّهِ، فَهُوَ كَالْبَهِيمَةِ، بَلْ أَضَلُّ، عَاشَ مَعَ أَرْضِهِ وَدَوَابِّهِ أَكْثَرَ مِمَّا عَاشَ مَعَ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ بَشَرٌ عَاشَهُمْ فَكُلُّهُمْ كَانُوا مِثْلَهُ.

ووصلنا هذا البلد مهاجرين مع من هاجروا إليه بعد حرب (١٩٦٧م)، وكنت يومئذٍ في السادسة من عمري، ويسر الله قبولي في المدرسة الابتدائية بوساطة مالك الدار التي سكنناها، واستخدم هذا المالك أبي خادمًا وفلاحًا في داره مع خدمه الكثيرين.

وكانت المدرسة في الطريق بين مسكننا ودار السيد المخدوم، وكنت أصحب أبي أحيانًا إلى بيت مخدومه بذهابي إلى المدرسة، أو أنتظره حتى يفرغ من عمله.

وكنت أصغر إخوتي الذين ظلَّ بعضهم حيث كانوا، وصحبنا منهم اثنان يعملان في الورش لا ندري عنهما إلا يوم الجمعة حين يزورنا أحدهما أو كلاهما.

ومرَّت ثمانِي سنواتٍ حصلت فيها على الشهادة المتوسطة التي تخوِّلني دخول الثانوية، وقد بلغت الرابعة عشرة من عمري، وفيها رأيت مالك مسكننا مخدوم الوالد يزورنا كثيرًا، ويدَّعي أنه أحبَّ القهوة التي تصنعها الوالدة، ورأيته يتكرَّم بالهدايا البسيطة عليَّ وعلى أمِّي أيضًا، هدايا كما يقول المثل: على قدر الحال، علمًا أنَّها بالنسبة إلى الوالد والوالدة كثيرةٌ وكبيرةٌ جدًّا، ورأيت أبي يلبس الجديد من الثياب التي لم يكن يحلم بها من قبل.

وتكرَّرت الزيارات أسابيع، وربَّما كانت في بعضها مرَّتين في الأسبوع



مدَّعيًا أَنَّهُ اعتاد القهوة، ولا يستسيغها إِلَّا من يد الوالدة؛ زوجة فلاحه الحبيب، وفرحت الوالدة بهذا اللَّقب الَّذي لم تسمعه من قبل من فم إنسانٍ، وعدَّته وسام شرفٍ.

وكنَّا في صيف عام (١٩٧٥م) وكنت فرحةً بنجاحي الَّذي يخوِّلني دخول الثَّانويَّة، وأحسب لهذه النُّعمة - نعمة دخولي الثَّانويَّة - حسابها.

وإذا بي أفاجأ أَن السَّيِّد المحترم مخدوم الوالد وسَيِّد الجميع ومالك الشُّقَّة الَّتِي نسكنها جاء اليوم ليطلب يدي من أهلي.

علمت بهذا من أمِّي وأبي اللَّذين رَحَّبَا به، ووافقا على طلبه دون أَن يسألاني رأيي؛ لأنَّهما عدَّا هذا التَّنازل منه نعمةً ساقها الله إِلَيَّ وإليهما، وعليهما أَن يشكرا الله ﷻ على هذه النُّعمة العظيمة، ولا يجحدانها؛ فَإِنَّ جحود النُّعمة كفرٌ.

لعلَّ سيِّدي يسألني عن صاحب الدَّار السَّيِّد المحترم: من يكون، وما هيأته؟! وجوابي: إِنَّه رجلٌ جاهلٌ أغناه الله بعد فقرٍ، وأيسر عليه بعد عمرٍ بثمَّين خرابةٍ كان يملكها بأحد الأحياء النَّائية، وقد جاوز السَّبعين من عمره، ويا ليته جاوزها وهو في صحَّته، إِنَّه مريضٌ دائم المرض، مرتعش الأطراف، ثقيل السَّمع، محدودب الظَّهر، أبيض الشَّعر، لا يفارق عصاه الَّتِي يتوكَّأ عليها إذا مشى، بل إِنَّه لا يستطيع المشي دونها، فهي أليفته في بيته وطريقه.

وتزوَّجته رغماً عنِّي، بل دفعني أبي إليه بالإكراه والقسوة والعصا والتَّهديد بالقتل إن أبيت.

لقد مضى على زواجي من هذا المتصابي ثلاث سنواتٍ عدت نفسي



فيها موءودة، نعم دفنني أبواي في أحضان هذا العجوز الثري وأنا حيّة،
فما الفرق بيني وبين تلك التي دفنت حيّة في التراب؟!

إنني لست زوجةً إلّا في ورقة العقد، إنني في الحقيقة دميةٌ جعلني من
سمّاه القدر زوجي في بيته ديكوراً يباهي به إذا ما زاره أو استزاره أحدٌ من
أصحابه الذين هم على شاكلته طبعاً، أمرني أن أتزيّن لأكون في
الاستقبال ليراني الزائرون والمزورون، أو في الحفلات وفي صالات
الفنادق أو معه في السيّارة.

وعلى الرّغم من مضيّ السّنوات الثّلاث ما زلت عذراء!

إنني الآن في السّابعة عشرة من عمري، وأنا إنسانةٌ أعرف الخير من
الشّرّ، وأعرف الحسنه من السيّئه، وأعرف الفضيلة والرّذيلة، فهل أبقى
سجينهً كما أنا؟!

إنّ السّهر أمرضني وأدخلني المستشفى مرّاتٍ عدّه، لا أنام إلّا
بالمهدّئات، أريد - يا سيّدي - أن أنعم بنعمة النّوم الطّبيعيّ.

والداي يصرّان على بقائي في سجن سيّدهما العجوز؛ لينعموا بالعيش
الرّغيد على حساب صحّتي وأعصابي، وأنا أكاد أجنّ، أو أفقد ثقّتي
بنفسي.

السؤال:

هل أنتحر وأكون مجرمةً، فأجرم في حقّ هذا الذي جعلني دميةً يفاخر
بها أقرانه وأخوانه؟! وإنّي أعوذ بك اللّهمّ من ذلك، أأفعل ذلك دون أن
يعلم بي أحدٌ إلّا الله الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، والذي يعلم خائنة الأعين
وما تخفي الأعين والصّدور؟!



إِنِّي أحمد الله على أن وهب لي ديناً يحميني، وإيماني بربي يحرسني، وهذا هو الدافع القوي الذي جعلني أصبر على ما أنا فيه ثلاث سنواتٍ كاملةٍ، هل أخرج على إرادة أبي وأمي وأطلب الطلاق في المحكمة أو في أية دائرة من دوائر الحكومة؟!

لا أدري ماذا أفعل، أنقذني، أرشدني، أعني؛ إِنني مظلومةٌ، إي والله إِنني مظلومةٌ.

الجواب:

قبل أن أجيب عن أسئلة المظلومة أقول للسادة القراء:

الزَّواج ضرورةٌ فطريَّةٌ لا تنحصر في الإنسان والحيوان والنبات كما نفهم، بل هي سنَّةٌ كونيةٌ واسعة المدى كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الدَّارِيَات: ٤٩].

والإنسان كائنٌ من الكائنات؛ ذكرٌ وأنثى، شطران لا بد أن يلتئم أحدهما مع الآخر ليكمل وجوده، ويثمر ثمره كما أخبرنا الخالق جلَّ شأنه بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١].

فالزَّواج صلةٌ شرعيةٌ بين إنسانٍ وإنسانةٍ يتحد به جوهر الإنسانية في كلِّ منهما؛ تحقيقاً لسنَّة الله التي جعل بها من كلِّ شيءٍ زوجين؛ لحفظ النوع، وحفظ ما يتبعه من النُّظم الاجتماعيَّة.

والمرأة إنسانٌ، وأجمل ما في الإنسان إنسانيَّته، وأعني بهذه الكلمة خلقه ودينه وأمانته وصفاته، فإذا أوتيت المرأة حظَّها من ذلك فقد كمل جمالها.

ولا ننسى قول المصطفى صلوات الله عليه: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»، رواه البخاري ومسلم^(١).

والزَّواج اقتران صفاتٍ بصفاتٍ، ومن التَّعقيد أن نستبدَّ فنجمع بين صفتين متباينتين؛ لأنَّنا باستبدالنا هذا نزيد الدَّاء داءً، أو نزيد النَّار اشتعالًا، وما بهذا أمرنا، ولا لهذا ندبنا، ومن التَّباين الجمع بين عجوزٍ وشابَّةٍ، والعكس.

وإنني لأعجب من أولئك العجزة أرباب الأموال الذين يظنُّون أنَّ المال هو كلُّ شيءٍ في الحياة، وأنَّ بإمكان الملايين أن تعيد الشَّيخ إلى شبابه، وقد جهلوا أنَّ الملايين لا تصلح ما أفسده الدَّهر.

أيُّها الشَّيخ المغرور بملايينه دع الورود لمن يسقيها ماءً؛ إنَّها إن لم تسق تذبل، والمرأة لا تصلح أن تكون دميةً في فاترينة، ولا أن تكون تحفةً في متحفٍ.

إنَّ المرأة روحٌ وقلْبٌ، وإنَّها إرادةٌ قد تضعف أمام المغريات، لكنَّها ستعود إلى الطَّبيعة والفطرة، فاتَّقوا الله يا عجزةً في الشَّوابِّ، وأغلى أمنيَّةً للشَّابَّة أن تكون زوجةً لشابٍّ، ثمَّ أمًّا لطفلٍ.

أمَّا جوابي على صرخة المظلومة العذراء فأقول:

لا تنتحري؛ فإنَّ في الانتحار جريمةً جزاؤها عند الله الخلود في النَّار، ولا تجرمي؛ فالجريمة عارٌّ في الدُّنيا لا تغسل أدرانه، ثمَّ عذابٌ في الآخرة.

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٠٩٠)، ومسلم، رقم: (١٤٦٦).



اتَّبِعِي سَبِيلَ الْعَقْلِ، وَاِرْفَعِي دَعْوَى ضِدِّ ذَلِكَ الْمَتَصَابِي هَاوِي جَمْعِ التُّحْفِ كَمَا وَصَفْتَهُ، وَاَدَّعِي أَمَامَ الْقَاضِي أَنَّكَ مَا زَلْتِ عِذْرَاءَ، وَاسْتَحِيلِكِ الْمَحْكَمَةَ إِلَى الْجِهَاتِ الْمَخْتَصَّةِ لِلْحَصُولِ عَلَى شَهَادَةِ طَبِيبَةٍ تَثْبِتُ عِذْرِيَّتَكَ، وَسِيْثَبْتُ بَعْدَهَا عِزَّ الرَّجُلِ، ثُمَّ يَقَعُ الطَّلَاقُ.

كَلِمَةٌ أُخِيرَةُ أَوْجَّهَهَا إِلَى كُلِّ أَبٍ وَأُمٍّ: اتَّقُوا اللَّهَ فِي بِنَاتِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّهِنَّ دَمٌ وَلَحْمٌ وَشَعُورٌ وَإِحْسَاسٌ، إِنَّهِنَّ لَسُنَّ سَلْعًا تَبَاعُ وَتُشْتَرَى، تَخَيَّرُوا لَهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ، وَلَا يَغْرَبَنَّكُمْ مَالٌ وَجَاهٌ، فَمَا اسْتَطَاعَ مَالٌ أَنْ يَسْعِدَ شَقِيًّا، أَوْ يَعِيدَ شَبَابًا، إِنَّ الْمَالَ وَسِيلَةٌ وَلَيْسَ غَايَةً، فَلَا تَجْعَلُوهُ غَايَةً لَكُمْ تَضْحُونَ مِنْ أَجْلِهَا بِبِنَاتِكُمْ، وَإِنَّ نَظْرَةَ إِلَى بَيْتٍ يَرْفَرُ عَلَيْهِ الْحُبُّ وَالسَّعَادَةُ وَالْعَطْفُ وَالْحَنَانُ مَعَ الْفَقْرِ، ثُمَّ نَظْرَةَ إِلَى بَيْتٍ آخَرَ تَوَافَرَتْ لَهُ كُلُّ الْمَطَالِبِ الْمَادِّيَّةِ مِنْ مَالٍ وَرِيَاشٍ وَأَثَاثٍ وَخَدْمٍ وَحَشَمٍ، مَعَ شِقَاقٍ وَنَفُورٍ وَكِرَاهِيَّةٍ وَبَغْضٍ لِكَافِيَةٍ لَجْعَلِكُمْ تَحْسِنُونَ الْحُكْمَ، وَتَحْسِنُونَ الْإِخْتِيَارَ.



٥٤- وحلت الكارثة

مَاتَتْ أُمِّي وَأَنَا فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عَمْرِي بَعْدَ مَرَضٍ عِضَالٍ أَلَمَّ بِهَا، وَبَعْدَ عَمَلِيَّاتٍ جِرَاحِيَّةٍ أُجْرِيَتْ لَهَا، وَشَعَرَ أَبِي بَعْدَ فَقْدِهَا بِالْوَحْدَةِ وَالْفِرَاقِ، وَشَعَرْتُ بِالْأَلَمِ وَالْيَتَمِّ وَالصَّيَاعِ، وَصَبَرْنَا، وَعَوَّضَنِي أَبِي بِحَنَانِهَا حَنَانًا، وَبِعَطْفِهَا عَطْفًا، فَكَانَ يَتَعَبُ كَثِيرًا، يَذْهَبُ إِلَى عَمَلِهِ صَبَاحًا، فَإِذَا عَادَ ظَهْرًا عَمَلَ فِي الْبَيْتِ لِتَحْضِيرِ الْغَدَاءِ، وَفِي اللَّيْلِ يَغْسِلُ الثِّيَابَ وَيَنْظِفُ السَّكْنَ.



وكنْتُ أذهبُ إلى المدرسة صباحًا، فألهو مع زملائي في ساحة المدرسة، ثمَّ في الصَّفِّ أنشغل بالدرّوس، فإذا عدتْ شغلني الواجب المدرسيّ المطلوب تحضيره ليوم غدٍ، ثمَّ أنام لأصحو في الغد على يومٍ كالَّذي مضى .

وهكذا سلوت أو نسيت كما ينسى غيري، ممَّن فقدوا أمّهاتهم في مثل سنِّي ولم يُبتلوا بزوجة أبٍ .

ومرّت ستُّ سنواتٍ تعب فيها أبي، وكان يومئذٍ في الثامنة والثلاثين من عمره، وفيها كبرت وخشن صوتي، وكان من يراني يحسبني ابن العشرين لا ابن السادسة عشرة .

وقال لي أبي ذات صباحٍ: ما رأيك يا بنيّ لو تزوّجت؟! قلت: والله خيرٌ لي ولك .

قال: لا خير لي ولا لك إلا إذا كنت لبقًا حسن الكلمة أصمّ أعمى؛ لأنني سأتزوّج من ستكون زوجة أبيك، وزوجة الأب عدوٌّ لدودٌ لولد زوجها .

قلت: كيف؟

قال: لا غرابة في ذلك؛ إنَّها طبيعة كلِّ امرأةٍ من بنات حواء، لكن يا بنيّ إذا سمعت منها الكلمة السيئة فردّ بالتي هي أحسن، أو تصام عن كلِّ شيءٍ، وتعام عن كلِّ ما ترى، وكلّ ما يأتيك منها .

قلت: فهمت الآن، وسترى مني ما يسرُّك إن شاء الله، فأنا ابنك الَّذي ربّيت، وطوع أمرك .

قال: لقد صبرت حتّى بلغت السنّ الَّذي آمن عليك فيه من كيد زوجة الأب .



وتزوَّجَ أبي بنت العشرين بعد أن أخذ عليها وعلى أهلها العهد والميثاق أن ترعى وحيدَه الغالي بالمعروف والإحسان.

والحقُّ أقول: إنَّها منذ دخلت بيت أبي لم تسيءِ إليَّ، لقد رأيت منها الرِّقَّةَ في القول، واللُّطفَ في المعاملة، سواءً في غيابتي أو حضوري، وسواءً حضر أبي أم غاب.

وكان أبي يوم تزوَّجها في عنفوان شبابه وكمال صحَّته.

ومرَّت الأيَّام كنت فيها موضع العناية في البيت بين أبي وزوجته، وكان أبي مسرورًا من رعاية زوجته لي، كما كان سعيدًا بشبابها وجمالها ولطفها ووفائها بوعدِها.

كانت جميلة المحيَّا، رشيقة القوام، خفيفة الدَّم، متناسقة الأعضاء، رقيقة العواطف، محبوبة الصُّورة، هكذا كان جوابي لها حين سألتني مرَّةً أن أصفها، ثمَّ أردفت قائلاً: هنيئًا لأبي بك.

كانت الظروف تضطرُّ أبي إلى أن يتأخَّر في عمله، فلا يعود إلَّا ليلاً ليرانا بانتظاره نتحدَّث أو نلعب الورق أو الدُّومنة، أو يراني أستذكر دروسي وهي تلهو بعملٍ يدويٍّ أو بمشاهدة التِّلْفاز في قاعة الجلوس.

ومرَّت أربع سنواتٍ كنت فيها أسعد النَّاس بحبِّ أبي ورعاية زوجته.

وفجأةً أصيب الأب بنوبةٍ قلبيةٍ نقل إثرها إلى المستشفى الذي قرَّر أطبَّاءُه أنه مريضٌ بالجلطة، وظلَّ الوالد طريح الفراش بعيداً من البيت أكثر من أسبوعين، صدر بعدهما قرار لجنة طبيَّة أن يعالج خارج الكويت.

وكان للخبر وقعَه الشَّديد في نفسي، وقرَّر عمِّي أن يسافر مع



أبي حسب إرادته؛ حتّى لا أحرم من الامتحان، لأنّي في السنّة النهائيّة من الجامعة، وحرامٌ أن أخسر الامتحان وقد بذلت قصارى جهدي في المذاكرة والتّحصيل، وكنت الفائز دومًا.

وودّعت أبي وعمّي في المطار وعدت إلى البيت حزينًا كئيّبًا لأحمل الخبر إلى زوجة أبي التي صرخت وبكت أو تباكت، لست أدري.

وسافر الوالد مشيّعًا بالدموع والدُّعاء والرّجاء، وفي اللّيلة الأولى كنت أذاكر دروسي في غرفتي حزينًا، وقد اغرورقت عيني بالدمع، فدخلت عليّ زوجة أبي وربّبت على كتفي ثمّ أخرجت منديلها المعطرّ لتمسح به دمعتي وتقول: أتبكي وأنت الرّجل وأنت الأمل، لا يا حبيبي!

حبيبي؟! كلمةٌ أسمعها كلّ يوم منذ دخلت بيت أبي، لكنّها في هذه المرّة ذات جرسٍ، بل لها صدّى خاصّ.

وفي اللّيلة الثّانية لاحظتها تتعمّد إظهار مفاتنها أمامي، لكنّي أحسنت الظّنّ، فهي زوجة أبي، ومكانتها من مكانة أمّي، ولم أقل شيئًا.

وفي ثالث ليلةٍ كان في غدها امتحاني كنت غارقًا في المذاكرة فدخلت غرفتي بقميص النّوم في ساعةٍ متأخّرةٍ من اللّيل لتقول: أما تزال تذاكر؟! ثمّ طأطأت رأسها، وقربت أنفاسها من وجهي، حتّى أحسست بلهيب الحرارة يسري بجسدي، ثمّ قبّلتني وذهبت.

كان من عاداتها أن تقبّلني دائمًا، وكنت أشعر بالحنوّ والعطف في قبّلتها، لكنّها في هذه المرّة كانت على غير قبّلات الماضي؛ إنّها قبلةٌ طويلةٌ وحارّةٌ.

وبعدها ببضع ليالٍ كنت في فراشي غارقًا بنوم عميقٍ، ولم يكن من



عادتي أن أغلق باب الغرفة من الدّاخل، دخلت عليّ زوجة أبي، وكانت في حالة هستيريّة، وهجمت عليّ ودخلت معي في فراشي، ولم أشعر بنفسي إلّا ضعيفاً أمامها، لا أستطيع مقاومتها، ولا الدّفاع عن نفسي، وحلت الكارثة، ووقع المحذور، والوالد مريضٌ في الغربة، وحالته تسوء كلَّ يومٍ.

ومنذ ذلك اليوم ونحن غارقان في الإثم كلَّ ليلةٍ، وهو لا يعلم عنّا إلّا كلَّ الخير، أمّا الشّرُّ فلا يعرفه فينا، بل لا يخطر له على بالٍ. حاولت مرّاتٍ عدّة أن أبتعد من البيت، فهدّدتني باتّهامي بالاعتداء عليها إن فعلت، ولو فعلتها لفعلت.

إنّني في عذابٍ نفسيّ، وأخشى أن أخسر الامتحان، وأن يعاقبني الله بخسارة المستقبل، فقد خسرت رضا الله، وخنت والدي في عرضه، إنني بعملتي هذا هتكت شرفي، فمن هي زوجة أبي؟ إنّها أمّي، إنّ ذنبي عظيمٌ، لقد فقدت الأمل بنفسي، فماذا أفعل؟! وأبي المسكين الذي أحسن الظنَّ بي، وضحّى كثيراً من أجلي، وصبر على العزوبة حتّى علم أنّي أستطيع الدّفاع عن نفسي، هذا الأب كافأته بإحسانه سوءاً، وبمعروفه منكرًا، وبرّه عقوقاً.

مسكينٌ أبي، إنّ الأمل بنجاته ضعيفٌ، لا أمل في شفائه، سيموت ولن يرى وجه ابنه العاقّ الخائن، نعم والله إنّي خائنٌ.

السؤال:

سيدي! إنني أمدُّ يدي لك، فامدد يمينك لإنقاذي!

هذه قصّتي، فبالله عليك قل لي: كيف أنجو من الغرق؟!

الجواب:

سمعت في المحاكم عن زوجة أبي في الثلاثين من عمرها اعتدت على ابن زوجها البالغ خمسة عشر عامًا، فهتكت عرضه، وأن أختًا مطلقةً في العشرين من عمرها اغتصبت أخاها، وكان في الرابعة عشرة من عمره.

وبحثنا عن هذه وتلك فعلمنا أنهما عاشتا في ظلام جهلٍ دامسٍ، وأنهما كالأنعام، بل هما أضلُّ.

أما أنت يا ابن العشرين، يا جامعي، يا مثقف، يا مطلق فما عذرُك؟! أما كان لك من علمك حارسٌ يحرسك من الزَّلَّة؟! أما كان لك من معرفتك وقايةً تقيك من السُّقوط؟! وتلك خريجة الثانوية وحاملة شهادتها ماذا عنها؟!!

لكنني أظنُّ أنَّ العلاقة بينكما كانت تهيئُ لكما طريق الانزلاق منذ سألتك عن نفسها أهي جميلة؟ فأطلت النظر إليها، ووصفتها بالوصف الذي تؤخذ به كلُّ أنثى لا دين لها يحميها من الإثم: جميلة المحيَّا، رشيقة القوام، رقيقة العواطف.

واللعب بالورق والدُّومنة لا يخلو بالطبع من كلمات إعجابٍ متبادلةٍ بين اللّاعبين إذا كانا من جنسٍ واحدٍ، فكيف بهما إذا كانا من جنسين؟! وأبوك المسكين أحسن الظنِّ بكما فانخدع، إنَّ حسن ظنِّه كان في غير موقعه.

ولو أنَّ زوجة أبيك رأت منك نظرة احترامٍ وتكريمٍ لها لحافظت على احترامها وتكريمها، وكذلك لو أنَّها ظهرت أمامك بمظهر الأمِّ الموقرة



وزوجة الأب المحافظة لاحترمتها .

لكنكما مهَّدتما للخيانة طريقها بكلمات الإعجاب بالمحيا الجميل والقوام الرشيقي، ثم بلعب الورق والدُّومنة، ثمَّ بالسَّهر سوياً، ثمَّ بسكوتك حين حاولت اختبارك يا حبيبها، فسكَّت، وباقتراب أنفاسها من أنفاسك انتشيت وسكرت بدلاً من أن تنتفض وتثور وتغضب وتذكر ذلك المريض الَّذي لا براء من دائه كما تقول، وأخيراً احتضنت وضاجعت .

إنَّك مهما اختلقت من الأعدار فلا عذر لك، فأنت المذنب تجاه أبيك، وأبوك الآن في مرضٍ لا يرجى شفاؤه، فدع زوجة أبيك تذهب إلى بيت ذويها حتَّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وحتَّى يقضي الله أمره في أبيك، وبذلك تكون قد طهَّرت فراشه في آخر أيامه .

ثمَّ تب إلى ربِّك، واتَّق الله في نفسك، فإنَّ ما فعلته جريمةٌ ليس كمثلهما جريمةٌ .

إنَّ فيها صفتين من السَّبع الموبقات: الزَّنا والعقوق .

إنَّك لوَّثت شرفك بيديك .

إنَّه العقوق لوالدك الَّذي أحسن إليك .

إنَّها خيانةٌ لأبيك الَّذي اتَّمنك على عرضه وماله .

إنَّه اعتداءٌ على امرأةٍ ذات فراشٍ .

وأخيراً استمع إلى قول ربِّك واسع المغفرة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ

نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] .



٥٥- ولا خير في وجهٍ إذا قلَّ ماؤه (١)

كان أبي صاحب بَقَالَةٍ كما يسمونها الآن، دگانًا فيها من كلِّ حاجات البيوت اليومية؛ صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها، رخيصها وغاليها، وحتى النَّادر منها.

وإذا طلب أحد الزَّبائن حاجةً ليست عنده اشتراها من أحد زملائه أصحاب البَقَالَات، ثمَّ أرسلها مع أحد صبيته الثلاثة إلى طالبها.

ويقولون في المثل: عدوُّ المرء من يعمل عمله، لكنَّ أبي لم يعاده أحدٌ من أصحاب البَقَالَات؛ لأنَّه كان يعينهم ويجاملهم.

وكان الزَّبائن يحبُّونه جميعًا؛ لأنَّهم لم يسمعوا منه كلمة ما عندي.

إنَّهم اعتادوا أن يسمعوا منه: يسهِّل الله، وكان لسانه رطبًا من ذكر الله، فإذا مدَّ يده لحاجةٍ أو أخذ أو أعطى قال: باسم الله. وإذا طلبت منه حاجةً كانت عنده قال: إن شاء الله، وإن لم تكن عنده قال: يسهِّل الله. وإذا أرسل أحد الصُّبية قال له: على بركة الله، أو في أمان الله.

وقد تحتاج صاحبة البيت فتطلب حاجتها بالهاتف، فلا تلبث قليلًا حتَّى تصل الحاجة إليها، أو أنَّها تبعث من يطلبها، فيرسلها معه.

وكان يقدِّم قوائمه للعملاء في رأس كلِّ شهرٍ تسهيلًا لعملائه من

(١) انظر: الصَّدَاقَةُ وَالصَّدِيقُ، لأبي حَيَّان التَّوْحِيدِيَّ (١/١٩٠)، وهو شطرٌ من البيت الشعريِّ:

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤهُ ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤهُ



الموظفين العمّال الذين يسهل عليهم الوفاء في مثل هذا الوقت .

كان سعيداً بعمله، وكان عملاؤه وزبائنه مسرورين بمعاملته، وقالوا عنه: سهلٌ إذا باع، سهلٌ إذا اشترى، سهلٌ إذا قضى، سهلٌ إذا اقتضى، وصحّ ما قالوه عنه .

ولا أدري كم عاش أبي في عمله هذا، لكنني ولدت لأبٍ بقّالٍ، وأذكر وأنا صبيٌّ خلاف أبي مع أمي بسبب دراهم قليلةٍ غالطت فيها إحدى الزبونات، وعندما علم بالمغالطة أمرها بردّ الرائد للزبونة، والاعتذار عمّا فعلته، فقال: أمّا الحرامُ فالمماتُ دونهُ^(١)، وإلاّ تفعلني ما أمرك به فأنت طالقٌ .

وتركت الوالدة بيت الزوجيّة، وعشنا أنا وأختي في بيت أبينا سعداء برعاية عمّتنا منعمين بحنان أبينا المحترم عند جميع أقاربه وأصدقائه .

وكبرنا، وتزوّجت الأخت الوحيدة، وماتت العمّة، ثمّ كانت النكسة، وهاجرنا إلى بلدٍ عربيٍّ لنعيش فيه لاجئين، لكنّا لم ندلّ، فقد كان أبي متديّناً وقائماً بأركان دينه، له صحيفةٌ بيضاء عند من عرفه، عزيزاً مكرّماً بين الجميع، وقوراً في عين من يراه .

وكانت الأسرة أنا وهو فقط، وسكنا في ذلك البلد العربيّ في ملحقيّ لعمارةٍ قريبةٍ من مسجد المنطقة، وكان أبي يؤدّي صلواته فيه مع الجماعة، وكنت لا أفارقه في خروجه ودخوله وغدوّه وممساها .

وفي يومٍ يا ليت شمسهُ لم تشرق أنكرت جلوس أبي في مقهى مع

(١) انظر: مجمع الأمثال، للنيسابوريّ (٢/١٠٥)، وهو شطرٌ من بيتٍ شعريّ:

أمّا الحرامُ فالمماتُ دونهُ والحلُّ لا حلٌّ فأستبينهُ



شبابٍ سيماهم في وجوههم من أثر الشَّرِّ، يتحدَّثون همسًا، فما إن رأوني حتَّى سكتوا، فأرسلني أبي إلى البيت لإحضار حاجةٍ قال: إنَّه نسيها، ولم تكن تلك الحاجة ضروريَّةً.

فعلمت أنَّه يريد إبعادي، ثمَّ حضر الوالد، ولم يسألني عمَّا أرسلني من أجله، فخشيت شرًّا، لكنَّ يقيني بإيمان أبي أبعده خشيتي.

وترك جماعته الطَّيِّبين الذين كان يجالسهم على محبَّة الله ورسوله، ويحدِّثهم بما قال الله ورسوله، ويرافقهم في ذهابهم إلى المسجد وإيابهم ومنه، نعم تركهم إلى أولئك الشُّباب؛ شباب المقهى الأشرار.

وبعد أيَّام يسافر الوالد وحده، لا أدري إلى أين، لكنَّه قال: إلى مكانٍ قريبٍ، وسأحضر بعد يومين.

وحضر بعد يومين ومعه حقيبةٌ سوداء صغيرةٌ دخل بها غرفته وأخفاها.

ومنذ ذلك اليوم وأبي يغلق بابه دوني، يقفل غرفته بقفلٍ يحتفظ بمفتاحه الجديد معه؛ لأنَّه غيَّر قفل الباب.

وتغيَّرت أخلاق أبي، وترك صلاة الجماعة في المسجد، لكنِّي لا أدري أترك الصَّلَاة أم لا، فإنِّي لم أراه يصلِّي، ولم يعد يسألني عن صلاتي، وترك الأحاديث الحلوة التي كان يحدثني بها عن القناعة، ويقول: الغنى غنى النَّفس لا كثرة المال، ويحدِّثني من الذِّكر الحسن، ويقول: السُّمعة الطَّيِّبة هي رأس المال للحَيِّ، والحياة للميت، ويقول: خير ما يملكه الإنسان ذكْرٌ حسنٌ، فإن عاش فهو فخرٌ له، وإن مات فهو ذكْرٌ له.

فقدت هذه الأحاديث وأمثالها، والحقيقة أنني فقدت أبي كلَّه،



وأصبحت خادماً أهيبُّ طعام الغداء والعشاء.

ومرّت سنةٌ أو ما يزيد وهو على حالته الجديدة مع رفاقه الجدد، يسافر كلَّ أسبوعين أو ثلاثة مرّةً، ولا يتجاوز سفره اليومين، ثمَّ يعود بتلك الحقيبة السوداء في يده، ولا أعرف ما بداخلها.

وذات يوم، وفي ساعةٍ منه قبيل الظُّهر وأنا في المطبخ أعدُّ طعام الغداء فتح الباب، لم يحن وقت حضور أبي بعد، لكن يا لهول ما أرى، إنَّه أبي وفي يده القيد، يمشي بين رجلين من رجال الأمن، وخلفهم محقّقٌ بين شرطيين، ماذا جرى؟!!

وتفتح غرفة أبي، وتفتح الحقيبة السوداء؛ حقيبة السرِّ، إنَّها ممتلئةٌ بالمخدّرات؛ الحشيش والأفيون، الآن انكشف السرُّ، الآن عرفت كلَّ شيءٍ.

ونظرت إلى وجه أبي الواعظ النَّاصح أقول له: ماذا حلَّ بك يا أبي؟! أين ذكرك الحسن وسمعتك الطَّيِّبة؟! أين نصيحتك لي حين تقول السُّمعة الطَّيِّبة هي الوسام للحَيِّ والحياة للميت.

لكنَّ أبي تغيَّر خلقه، وكان جوابه غير ما اعتدت سماعه منه: أريد مالا، أريد الغنى. فقلت له: إنَّك علَّمتني أنَّ الغنى غنى النَّفس. لكنَّه أعرض عني، ولم يردَّ عليّ.

لقد وجد رجال المباحث الحشيش في جيبه في المقهى، وضيَّقوا عليه، فأتوا به إلى المسكن ليجدوا البقيَّة.

وسيق إلى المحاكمة، وأخبر عن أصحابه الذين لم يعثر على شيءٍ عندهم، وحكم عليه بالسَّجن سبع سنين؛ سبع سنين عاش أيَّامها ولياليها

مع المجرمين، وكنت أزوره خلالها فأجده أسوأ خلقًا، لقد تفوَّق على المجرمين في سوء السلوك، كان أكثرهم بذاءةً وأقلَّهم حياءً، وأبعدهم عن حسن الكلمة.

وخرج أبي من السِّجْنِ محكومًا عليه بالإبعاد، وأبعد من البلاد، إنَّ أبي مسخَّ من إنسانٍ إلى أسوأ حيوانٍ.

السُّؤال:

١- هل كان أبي مسلمًا حقًّا ثمَّ جرَّته صحبةُ السُّوءِ إلى الشَّرِّ، أم كان منافقًا في تديُّنه، ثمَّ ظهر على حقيقته؟!

٢- هل المسخَّ الَّذي ذكر في القرآن معناه مسخُّ الصُّورة أم مسخُّ الصِّفات البشريَّة في الإنسان؟!

الجواب:

١- كان أبوك مسلمًا، ولم يكن منافقًا، لكنَّه كان ضعيف الإرادة، وطمَّاعًا، فاستغلَّ الأشرار طمعه لمنافعهم، واستغلُّوا ضعف إرادته لطمعهم، حتَّى أوقعوه، ولا تنس الحديث الشَّريف الَّذي يقول: «والله إنَّ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حتَّى ما يكونُ بينه وبينها غيرُ باعٍ أو ذراعٍ، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فيدخلها. وإنَّ الرَّجُلَ ليعملُ بعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حتَّى ما يكونُ بينه وبينها غيرُ ذراعٍ أو ذراعين، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فيدخلها»^(١).

لذلك يجب علينا دائميًّا أن نسأل الله حسن الخاتمة، وأن يختم لنا بخاتمة السَّعادة، ويكفيننا سوء العاقبة، ويحمينا من سوء المنقلب.

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٦٥٩٤)، ومسلم، رقم: (٢٦٤٣).



وأبوك لم ينته بعد، فلا تيأس منه، لعلَّ محسنًا من أصدقائه القدامى يحسن مقابله، ويذكره بماضيه وصلاحه، ويذكر له بعض أحاديثه ونصائحه، وأرجو أن يكون هذا اللقاء خيرًا.

٢- أمّا سؤالك عن المسخ، فإنني ممّن يقول: إنّ المسخ ليس مسخ صورة، إنّما هو مسخ أخلاقٍ وتشويه إنسانيّة، وتبديل مساوئ بمحاسن، وصفاتٍ قبيحةٍ بصفاتٍ كريمة، وهذا ما كنت أشرح به الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].



٥٦- المفتاح عند شقيقة الحبيب

عشنا في البادية رحلاً نرتاد الكلاً في مواسمه، ونقطن حول الموارد في الصيف، نعيش حياتنا مع مواشينا، وننّخذ من الإبل؛ سفن الصحراء مراكب توصلنا إلى بلدٍ لم نكن بالغيه إلا بشقّ الأنفس.

و شاء الله - ولا رادّ لمشيئته - أن تتغيّر الحال وتبدّل، فتحضّرنا بعد بداوة، وحللنا بعد ترحال، وتوطّنا بعد أن لم يكن لنا وطن.

ثمّ شاء الله للصغار منّا أن يدخلوا المدارس، فيمسكوا القلم بعد رعي الغنم، ويقرؤوا الكتاب بعد الجهالة، وينعموا بعد الجذب والجفاء.

ولدنا في البادية في بيتين لا يفترقان؛ بيت أبي وبيت عمّي، وكان عمّي وأبي أخوين أليفين مجتمعين لا يفترقان إلا عند النوم، فإذا استيقظ أحدهما قبل الآخر ناداه.

وكان البيتان للنوم فقط، أمّا الطّعام فكان يصنع مناوبةً يوميّةً بين البيتين، والبيت الَّذي تكون المناوبة له يكون فيه اجتماع الأسرة نهاراً.

وجدتُنا؛ أمُّ أبويننا تنتقل مع المناوبة إلى بيتها، وتنام ليلتها فيه، وفي صباح اليوم التّالي تذهب إلى البيت الثّاني صاحب المناوبة، وهكذا عشنا في باديتنا في صفاءٍ لا يشوبه شقاءٌ، وألفَةٌ لا يعكّرها عداؤٌ.

ولكنّ دوام الحال من المحال كما يقول المثل، فقد ماتت العجوز في سنة (١٩٦٤م)، وفي صيفها اتّفق الأخوان على ترك البادية، وكانا قد مهّدا لهذا التّرك بالحصول على الجنسيّة، وطلب السّكن، ثمّ الفوز به، أخذنا بيتين متجاورين، علماً أنّ مياومة المناوبة انتهت بعد موت العجوز.

وعشنا حياة الحضر بعد بداوةٍ، وكنت يومئذٍ في الرّابعة من عمري، ولي إخوةٌ ذكورٌ ثلاثة، ولعمّي ابنان وبنّت، أحد الابنين يكبرني بسنتين، أمّا البنت ففي مثل سنّي، أحبّهما كثيراً، ويحبّانني، وربّما - ونحن في البادية - ننام سوياً، ولا أبالغ إذا قلت: ربّما مرّ يوماً أو ثلاثة دون أن نفترق، وهكذا كنّا بعد سكنى المدينة في طفولتنا المتأخّرة نسير على المنوال نفسه، ودخلنا المدارس، ودخلها ابن عمّي قبلنا بسنتين في أوّل سنةٍ من انتقالنا من البادية.

إنّني اليوم قد أنهيت المرحلة الثّانويّة في الثّامنة عشرة من عمري، وصداقتي مع ابنة عمّي ما زالت كما كانت في طفولتنا، وابن عمّي شابٌّ في السّنة الثّالثة من الجامعة، متديّنٌ عاقلٌ محافظٌ على تقاليد العرب وأخلاق الإسلام.

لكنّي بعد أن كبرت أحسُّ أنّي أحبُّ ابن عمّي غير حبِّ الطّفولة، أحسُّ أنّي أحبُّه من كلّ قلبي، وهو يُحبُّني حبّاً قرابيّةٍ أو حبّاً إعجابٍ كما



أظنُّ، إنَّ حبه يخالف حبي .

إنني أعيش في حبه، قاسيت العذاب من هذا الحبِّ أربع سنوات، إنَّه حبُّ دفنته في صدري دون أن يعلم ابن عمِّي به .

إنَّ شقيقته تعلم بحبيِّ لأخيها، فهي بنت عمِّي، وأخت حبيبي، وصديقة طفولتي، إنَّها تعلم بكلِّ أسرار هذا الحبِّ اليتيم .

قالت لي أخته يومًا: إنَّه سألها عن رأيها في طلب يدي زوجةً له، وإنَّها أثنت عليَّ عنده، وهذا ممَّا زاد البلبلة عندي، فلو كان يحبُّني لما سأل سؤاله هذا، لكنَّه مجرد إعجابٍ وحبِّ قرابةٍ .

تمارضت يومًا ليزورني، وزارني الجميع، وزارني هو، وأطال الجلوس عندي، وحدثني، لكن لم يطمئنَّ قلبي إلى أنه يحبُّني، بل كانت أحاديثه إليَّ كأحاديثه إلى أخته، وبعضها كانت عن ذكريات طفولتنا .

حاولت أن أنسى حبيِّ له، ولكن كلَّما فكَّرت في نسيانه ازداد حبيِّ له .

أمِّي وأبي يحبَّانه، ويحبَّان أمَّه، ويتمنَّيان لو أنَّه تقدَّم إليَّ، لكنَّ المشكلة عند عمِّي الَّذي تغيَّر علينا منذ تركنا البادية، إنَّني خائفةٌ من هذا الخلاف بين عمِّي وأبي .

أخاف أن يرفض رغبة ولده لو أفضى إليه بطلب يدي، وأخاف لو تقدَّم عمِّي بطلب يدي من أبي لابنه أن يرده .

السؤال:

أولاً: كيف أعرف أن ابن عمِّي يحبُّني؟ وكيف أجعله يعلم بحبيِّ له؟!

ثانياً: من عادتنا أن يتقدّم الكبير في الأسرة للخطبة، فإذا تقدّم عمّي ليطلبني كنةً له ورفض أبي فماذا أفعل؟! إنني لا شكّ سأموت.

أرجوك، أرجوك! ما الحلُّ؟!

الجواب:

كان عليك أن تتقدّمى بكتابك هذا إلى طبيبٍ مختصٍّ بأمراض الحبِّ، خبيرٍ بأمراض القلوب؛ لا إليّ، فإنني جاهلٌ كلُّ الجهل بالطبِّ؛ لا سيّما علاج مثل هذه الأمراض.

قلت في رسالتك: إنّ أباك هو الأكبر، وإنّ الذي كدّر صفو الأخوة عمك، فلو تقدّم الأصغر بطلب يدك فالخلاف سينتهي، والخلافات تنتهي بين الإخوة بكلمة طيبة وزيارة عيدٍ، والخلافات الأسريّة تمحوها - كما يقول المثل - مرّةً ملكٍ؛ أي: مرور الكرام.

أمّا الجواب عن سؤالك الأوّل فعليك بالشّقيقة الوفيّة المخلصة أخت الحبيب التي تعرف أسرارك ودخيلة حبك، والتي بإمكانها الاطلاع على خفايا قلبه ومعرفة مكانك فيه، وإن كان محبباً أم لا، وإذا عرفت ذلك سهّل كلُّ عسيرٍ.

فليتقدّم إلى الوالد الذي يتمناه صهراً له، ولن يردّ يده إن كان يتمناه كما تقولين، ولعلّ تقدّمه هذا يكون وساطة صلح بين الأخوين الكبيرين، فيجتمع الشّمل، ويعود الصّفاء بعودة المياه إلى مجاريها.

أخيراً أقول: إنّ مفتاح الأسرار عند شقيقة الحبيب، فعليك بالمفتاح.





٥٧- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهُمَزَةُ: ١]

الغيبة، وما أدراك ما الغيبة! وصفها الباري جلَّ شأنه بأكل لحم الميِّت، وما أكثر أولئك الذين يكثرون الخوض في أعراض النَّاس، ولا يرتاحون إلَّا إذا نهشوا هذا، واغتابوا ذاك، ونسبوا كلَّ النَّقائص لغيرهم، فيبيتون على غيبةٍ، ويصبحون على غيبةٍ، وكلُّهم كالخفافيش في الأماكن المظلمة، يعيشون فيها، وحين يحلُّ النُّور عليها يهربون، وتبقى روائحهم الكريهة، ثمَّ لا تلبث أن تزول.

والغريب في هؤلاء النَّاس أنَّهم يتصوِّرون أنَّهم وحدهم فوق كلِّ نقيصةٍ وعيبٍ؛ لا سيِّما ذلك الذي اكتسب مالاً أو ورثةً، إنَّه يظنُّ أنَّ ماله سيحجب عيوبه، وبعضهم يظنُّ أنَّ ذمَّه للآخرين يرفع من قدره، وبعضهم يعتقد أنَّ نبش أعراض غيره يظهره بمظهر العالم العارف ببواطن الأمور وخصائص النَّاس.

وسيّئ الحظِّ من يسوق القدر إليه في طريقه واحداً من هؤلاء، إذا أجبرته الظروف على التَّعامل معه خاصَّةً، فإنَّه يضطرُّ إلى تحمُّل سماجته، ويتحمَّل معه ذنوب كلِّ لفظٍ يتلفَّظ به.

وقد ساقَت الأقدار في طريقي واحداً من هؤلاء، ومنذ زمنٍ ليس ببعيدٍ أخذ يتردَّد على محلي الصَّغير المتواضع، يعرض عليَّ مساعداته التَّجاريَّة؛ ماديَّةً ومعنويَّةً.

إنَّه غنيٌّ واسع الغنى، ومن كبار رجال الأعمال، يلعب بالملايين كما يقال، ولعلَّ هذا ما أخفى عني نقائصه مدَّةً ليست بالقصيرة.



لقد تصوّرتَه إنسانًا طيبًا، أراد أن يمدَّ لي يد المساعدة دون غرضٍ أو مأربٍ، إلحاحه المتواصل لتقديم المساعدة لي جعله مقربًا إليّ.

لكنني بعد مدّةٍ وجدت كثيرًا من أصدقائي القدامى يحذرونني منه، وقد وصفوه بأنّه حقودٌ حسودٌ لئيمٌ إلى أبعد حدود اللؤم، بخيلٌ إلى درجة الشحّ.

ولم أصدّق ما قيل لي طبعًا، فالرجل لم يبد منه حتّى الآن ما يشين، وها هو يظهر بمظهر الكريم، الأريحيّ، ومع ذلك وجدتني أوجس منه خيفةً، وقرّرت أن أعامله بحذرٍ شديدٍ، وأن أجعل من نفسي جاسوسًا عليه؛ لاكتشف حقيقته.

وبدأت أزن كلّ أفعاله بميزانٍ مجردٍ من العاطفة، وأنظر إليه دون انحيازٍ له أو تجنُّ عليه، وقد حيرني أمره فعلاً.

إنّه يجمع المتناقضات في داخله، فتارةً تراه كريمًا إلى أبعد حدود الكرم؛ ينفق بسخاءٍ يصل إلى حدّ السّفه، وتارةً تراه بخيلًا شحيحًا يظنُّ بالفلس حتّى يبخل بمال غيره، فيصدق عليه وصف من قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [التّيساء: ٣٧].

تراه أحيانًا ذا مروءةٍ، يعطف على الأرملة والمسكين وذوي الحاجة، ويتصرّف بشهامّةٍ كاملةٍ دون إعدادٍ، وهو في ذات اللّحظة اللّئيم الحقود اللّدود.

يحدّثك عن مكارمه ومحاسنه وأعماله الحميدة، ويعيب هذه الخصال التي يحمدها في نفسه عند غيره من النّاس، يتحدّث بأعراض النّاس، ولا يترك لسانه أحدًا من معارفه إلّا ويذكر مساوئه، سواءً كانت حقيقيّة أم من



اختراع خياله المريض .

إنَّه من أولئك النَّاس الَّذين لا يحفظون كرامةً لأحدٍ من البشر، حتَّى ولو لم يكن بينهما سابق معرفة .

إنَّه إنسانٌ غريبٌ، يثير في النَّفس كثيرًا من علامات الاستفهام، وعلى الرَّغم من معرفتي بالنَّاس وخبرتي في التَّعامل معهم، وأنَّني أملك حسًّا صادقًا، وحدثًا لا يخطئ، إلَّا أنَّني أخفقت تمامًا في الوصول إلى كنه هذا الإنسان، فالمتناقضات التي تعيش داخله تجعل الوصول إلى حقيقته صعبًا .

وصدَّقني إذا قلت: إنَّ أجنبيًّا دخل محلِّي المتواضع يحمل ورقةً كتب فيها عنوانًا عرفته منذ رأيت الورقة يسألني عنه أهو قريبٌ أم بعيدٌ، ورأيت آثار التَّعب ومشقَّة السَّفر باديةً على وجه السَّائل المنهك، وملابسه المُغبرة، فأجلسته، وقَدَّمت إليه الشَّاي، ولمَّا استراح سألته: متى وصلت الكويت؟! أجاب: الآن، وهذا طريقي من الشَّام، والعنوان الَّذي سألتك عنه هو عنوان صهري .

ولمَّا كان العنوان قريبًا من محلِّي بعثت معه صبيَّ المكتب ليدلَّه على الطَّريق، ولمَّا أدبر الرَّجل الغريب أخذ هذا الإنسان ينهش عرضه ويغتابه، بل إنَّه لامني أن قدَّمت إليه الشَّاي، وأرسلت معه صبيَّ المكتب .

سألته: أتعرفه من قبل؟! قال: لا، لكن بدا من مظهره أنَّه ليس جيِّدًا . قلت: وما الَّذي دفعك لتحكم عليه هذا الحكم؟ قال: سيماهم في وجوههم من أثر المهانة والحاجة والدلَّة والمسكنة . قلت: أستغفر الله العظيم، وسكُّت .



ووجدتني أفكر في أمر هذا المخلوق، أإلى هذا الحد بلغ حقه على
البشر وخسته الحيوانية؟! لماذا يطلق لسانه هكذا دون وازع أو ضمير؟!
ماذا يكسب من وراء كل هذا؟ لا أدري!

كان هذا الرجل قد أعطاني عشرة آلاف دينارٍ لأعمل بها لمدة سنة،
وقد قاربت السنة على الانتهاء، ولا أنكر أنني وفقت في العمل بهذا
المبلغ، ولا أبالغ إذا قلت: إنني ربحت منه مئةً بالمئة.

ومنذ يومين فوجئت بهذا الرجل يتقدم لخطبة ابنتي الجميلة التي أنهت
دراستها الثانوية، وحين تقدم بطلب يدها أحضرت المبلغ المستدان كاملاً
وحساب أرباحه؛ حتى لا يكون له عليّ جميلٌ يطوق به عنقي، وأكون
حرّاً في رفضه أو قبوله.

إنني أعترف أن مصاهرته قد تجلب الخير لي، إذ ستكون بيننا أعمالٌ
مشتركة، وأستطيع توسيع دائرة نشاطي، لكنني خبرته، وعرفت نقائصه،
وهي تجعلني أفكر ألف مرّة في البعد منه قبل أن يكون زوجاً لابنتي.

السؤال:

ماذا أفعل؟! أرشدني وجزاك الله خيراً.

الجواب:

حقاً إنه لئيمٌ، إنه همزةٌ لمزةٌ، جمع مالا وعدده، إنها صفة الدنيء
الذي يحسب المال كل شيءٍ، وأن قيمة الإنسان فيما يملك، وينهش
أعراض الناس؛ ليستر عرضه المنهوش، ويهمزهم؛ لأنه معيبٌ يريد بهذا
الهمز أن يغطي عيبه الماضي، ويلمزهم بتقليده حركاتهم؛ لأنه حقير
النفس مهموزٌ ملموز.



إنَّهَا صُورَةٌ لِّئِيْمَةٍ حَقِيْرَةٍ، تَدُلُّ عَلٰى لُؤْمِ هٰذَا الْاِنْسَانِ وَحَقَارَتِهِ وَدِنَاءَةِ مَاضِيِهِ .

إنَّه رَأَى ابْنَتَكَ الْجَمِيْلَةَ، فَأَعْجَبَ بِهَا، وَأَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيكَ وَابْنَتَكَ بِمَا أَعْطَاكَ، وَدَفَعَ لَكَ الْمَالَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّكَ أَعْجَبْتَ بِهِ وَبَشْرَتِهِ وَتَوَاضَعَهُ وَكَرَمَهُ خَطَبَ ابْنَتَكَ .

أَنْصَحُكَ - وَقَدْ اسْتَنْصَحْتَنِي - أَنْ تَحْذَرَ اللَّؤْمَ، وَاسْمَعْ قَوْلَ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ الْحَكِيمِ :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا^(١) وَإِنَّكَ إِذَا أَكْرَمْتَهُ تَمَرَّدَ عَلَيْكَ، وَلَنْ يَنْفَعَكَ بَعْدَ ذَلِكَ نَدْمٌ، وَاللَّهُ مَعَكَ .



٥٨- خَسَّةٌ وَسُوءُ خُلُقٍ

الْحَيَاةُ غَيْبٌ، وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ ادَّعَى فَهَمَّهَا ادَّعَى مَا لَيْسَ فِيهِ، وَالنَّاسُ فِيهَا مَعَادِنٌ، تَنْبِيكَ عَنْهَا تَصْرُفَاتُهُمْ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ الشَّاعِرِ الَّذِي سَارَ مِثْلًا :

وَحَسْبُكُمْ هٰذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ^(٢) وَقَدْ تَبْتَلَى بِمَنْ يَعْجَبُكَ جَمَالَ صُورَتِهِ، وَنَبْرَةَ صَوْتِهِ، وَحَسْنَ كَلِمَاتِهِ، وَلَطِيفَ عَشْرَتِهِ، فَتَوَخَّذْ بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ، ثُمَّ تَكُونُ النَّتِيْجَةُ وَبِأَلَّا لَانْطَوَاءَ هٰذِهِ

(١) انظر: شرح ديوان المتنبي، للعكبري (١/١٦٦).

(٢) انظر: الأمثال، للهاشمي (١/١٨٦).

الصِّفَاتِ عَلَى نَفْسٍ شَرِيْرَةٍ وَقَلْبٍ حَقُوْدٍ، يَقُوْلُ الشَّاعِرُ:

وَيَعْجُبُكَ الظَّرِيْرُ فِتْبَتَلِيْهِ فَيُخْلِيفُ ظَنَّنَكَ الرَّجُلُ الظَّرِيْرُ^(١)

والدِّينِ - كُلُّ دِيْنٍ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ - يَاْمُرُ أُمَّتَهُ بِفَعْلِ الْخَيْرِ
لِلْآخِرِيْنَ، لَا سِيَّمًا دِيْنِنَا؛ الْإِسْلَامَ، وَالْقُرْآنَ الْكَرِيْمَ كِتَابُ اللَّهِ غَنِيًّا
بِالْآيَاتِ الَّتِي تُوصِي بِفَعْلِ الْخَيْرِ الَّذِي يُوصِلُ فَاعِلَهُ إِلَى الْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ، أَحْفَظُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ
تُقْلِحُونَ﴾ [الْحَجَّ: ٧٧].

ولقد اعتدت محبة الناس، فأحبوني، واحترمت نفسي باحترامي لهم
فاحترموني، وفعلت الخير منذ صغر سنِّي لمن يحتاجه من أترابي
ولِدَاتِي^(٢) فكافأني الله على ذلك خيرًا.

لكن لصغر سنِّي لم أعرف النَّاسَ وطبائعهم المتباينة، ولم أعرف اللِّئيمَ
من الكريم، ولا الحقود من الودود، ولا الدَّنيء من الأبيِّ، كنت أعتقد
وأؤمن أنَّ فاعل الخير محصَّنٌ بوعد الله، وأنَّ من أحبَّ الخير للجميع فلا
بدَّ أن يحبه الجميع، وقد أكون واهمةً، وكان الواجب لمن عاش في بيئةٍ
مثل بيئتي أن يكون سيِّئ الظَّنِّ بالنَّاسِ، شديد الحذر حتَّى من خيارهم.

لكنني لم أقرأ هذا البيت من الشعر إلا بعد أن حصل ما حصل، يقول
الشَّاعر:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِي^(٣)

(١) انظر: شرح ديوان الحماسة، للتبريزي (٢/٢١).

(٢) اللدَّة: التُّرْبُ، وهو الَّذِي يُوْلَدُ مَعَكَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. انظر: تاج العروس،
للزبيدي (٣٢٦/٩).

(٣) انظر: البديع في نقد الشعر، للشيرازي (١/٢٨٧).



لعلِّي أطلت المقدّمة، وقبل أن أدخل في الموضوع أودُّ أن أصف لكم الأسرة التي ولدت فيها؛ لأنّ بلائي كان منها.

كان لجدِّي ثلاثة أولاد؛ أبي وعمِّي وعمّتي، كلُّ واحدٍ منهم يعيش وحده، لا يتزاورون، ولا يتعايدون، ولا يتهادون، وربّما يرى أحدهم الآخر في مناسبةٍ، فيسلّم عليه سلامًا عاديًّا لا صفة فيه لصلة رحمٍ، ولا حرارة محبّةٍ، ولا شوق لقاءٍ.

جفاءً نتج من تربية أبيهم الخاطئة، وربّما فضّل بعضهم على بعضٍ، وهذا التّفصيل زرع فيهم العدا من حيث لا يشعرون، وهذا العدا أبعدهم من بعضٍ في سنٍّ مبكّرةٍ، فأخذتهم الحياة في دوّامتها القاسية، ومحت حبّ بعضهم بعضًا، والمثل الكويتيُّ يقول: من غاب عن عيني سلا عنه بالي.

وبلغت السّادسة، ودخلت المدرسة، ووفّقني الله للاستمرار في دروسي، حتّى جاوزت الثّانويّة، كنت أرى في العلم سلاحًا قويًّا ينيّر طريقي ويحميني من الوقوع في الخطأ، ويوسّع مداركي؛ لذلك اجتهدت وجاهدت حتّى نلت الشّهادة التي تفتح بصيرتي، وبها أكون إنسانًا فهمت معنى الحياة.

وفي يوم من أيّام الامتحان النّهائيّ سنة (١٩٧٤م)، وكنا نمتحن في غير مدرستنا، وقد خرجت من قاعة الامتحانات مسرورة؛ لأنّي أحببت كما أعتقد أجوبةً كلّها صحيحةً، ومع ذلك فقد كنت خائفةً بعض الخوف، لعلّي ألقى من يؤكّد لي صحّة أجوبتي.

وعلى باب القاعة قابلني شابٌّ عرفت من وجوده في هذا المكان أنّه زميلٌ يمتحن، واستوقفني ليسألني عن الامتحان، وعن إجاباته ومدى

صحتها، وطال الحديث بيننا واكتشفت المفاجأة؛ إنه ابن عمّتي الذي لم أعرف أباه، ولا رأيت في حياتي أمّه؛ عمّتي، وأنا أعرف أنّ لي عمّةً، ولها أولادًا وزوجًا.

كنت فرحةً بلقائه، وتصوّرت أنني أستطيع من خلال هذا اللقاء أن أصل ما انقطع، وأن ألمّ شمل أسرة تفرّق أهلها دونما سببٍ معقولٍ، لكنني اكتشفت في هذا الشابّ حفةً صبيانيّةً، وثقل دم، ولا مبالاةً غريبةً عمّن هو في مثل سنّه، كانت كلماته أشبه بقطعٍ ضخمةٍ من الحجارة تنهال فوق رأسي، ووجدت أنّ آمالي في لَمّ الأسرة تنهار بسرعةٍ، ووجدتني أودُّ الابتعاد منه بأسرع ما يمكن، وفعلاً أنهيت حديثنا بجفاءٍ وانصرفت.

وفي عام (١٩٧٦م) جاء هذا السّمج يخطبني من أبي الذي فاتحني بالأمر، فرفضته دون تفكيرٍ أو تردّدٍ، وعجب والدي لسرعتي في الرّفص، ونظر إليّ مستفسراً، فأخبرته بلقائنا أيام الامتحان، وما كان من تصرّفاته الصّبيانيّة، وثقل ظلّه، ثمّ تجنّبي لقاءه خشية أن يظهر منه ما يسيء إلى سمعتي، وشكرني أبي، ورأيت في عينيه نظرة ارتياحٍ ورضا، ثمّ دعا لي بخيرٍ.

بعد ذلك طلب يدي شابٌّ محمود السّيرة، رضيه أبي صهرًا له على شرط موافقتي، وزارنا هذا الشابُّ فوجدت فيه الفتى الذي أتمناه زوجًا لي، أو كما تقول الفتيات: رأيت فيه فارس أحلامي، وشريك حياتي، وأحبته، وأحبّني، وتزوّجنا في نهاية عام (١٩٧٦م)، وأثمر زواجنا صبيًا زاد رابطتنا مودّةً ورحمةً وسكناً.

كان زوجي ابنًا لأحد التّجار الذي أذن لابنه أن يفتح محلًّا تجاريًّا خاصًّا به بعد زواجنا، وعرض عليّ مشاركته العمل، وكنت مديرة المحلّ



كما أراد لي أن أكون، ثمَّ الشَّرِيكة فيه بعد إنجاب الولد.

عشنا في رفاء^(١) وسعادةٍ، وكلُّنا سكنٌ لآخر، لا ينغص عيشنا منعص، إلى هنا تبدو الحكاية عاديةً يعيشها كلُّ فتى وفتاة، بل هي في الغالب مصيرهما، لكنَّ ذلك الفتى الغرَّ ابن عمّتي ساءه أن يراني في هناءة العيش وبحبوحته، وحقد على تفضيلي رجلاً غريباً عليه، مع أنَّه كان بالنسبة إليّ أكثر من غريب؛ لأنَّه القريب الغريب الَّذي لا أعرفه، ولم أراه منذ ولدت وولد إلاَّ تلك السَّاعة المشؤومة، ويا ليتني لم أراه.

كانت الرِّسائل التي ترد للمحلِّ أفتحها أنا وزوجي، فكلانا يحسن الظَّنَّ بصاحبه، وكلانا يثق بشريكه، والحمد لله على نعمته.

وسارت سفينة حياتنا في جوِّ هادئٍ هانئٍ، وبحرٍ راكِدٍ رائقٍ، لترسو كلَّ يوم في مرفأٍ جديدٍ آمنٍ، وعلم ذلك اللُّئيم بحالنا، فأرسل رسالةً غراميةً لي يذكرني فيها بما كان بيننا، ويعيب عليَّ هجرانه بعد أن تعاهدنا على الزَّواج، ويختلق زوراً وبهتاناً مواقف غراميةً لم تحدث.

واستلمت الرِّسالة بالبريد فمزَّقتها، ولمَّا لم تنجح الفتنة كتب رسالةً أخرى أكثر كذباً وأعظم زوراً وبهتاناً، وبها من عبارات الحبِّ والغرام والشُّعر الخليع ما يندى له الجبين، وبعث بها مع شخصٍ ليسلِّمها إلى يد زوجي الَّذي قرأها وأنا جالسةٌ أمامه ثمَّ أعطانيها.

ومن يومها تغيَّر الزَّوج الحبيب، لا أقول: إنَّ الثَّقة التي بيننا انهارت، لكنَّ نظراته لي تغيَّرت، فلا عتاب ولا لوم ولا سؤال عن العمل أو البيت

(١) الرِّفاء: الالتئام والاتِّفاق والبركة والنِّماء وجمع السَّمَل وحسن الاجتماع. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (١/٢٤٨).

أو الأحاديث .

إنَّه يطيل النَّظْرَ إِلَيَّ، لكنَّه بعيدٌ مِنِّي بخياله، لم يعد يحكي لي عن همومه ومشكلاته وأفراحه، إنَّه بعيدٌ كلَّ البعد مِنِّي وهو أمامي، كأنَّ حاجزًا رهيبًا أقيم بيننا، لم أستطع على الرَّغم ممَّا بذلت من محاولاتٍ أن أجتازه .

إنَّه لم يسيء إِلَيَّ مرَّةً، بل لم يذكر هذا الموضوع بعد ذلك اليوم، لكنَّه يتعدَّب بنار الشَّكِّ والغيرة، وأخشى ما أخشاه أن يصل به الأمر إلى حدِّ الإحساس أنَّه وضع ثقته فيمن لا يستحقُّها .

وأنا أتعدَّب أيضًا، أرى زوجي يحترق أمامي، ولا أستطيع أن أفعل شيئًا .

لقد هدم هذا الفتى العابث النَّذل حياتنا بورقةٍ سَطَّر عليها الكذب والإفك، كأنِّي أتصوِّره الآن فرحًا بما فعل، فقد تحقَّق له ما أراد وانتقم لنفسه، إذ لا مبررٍ للانتقام ولا داعي له .

السُّؤال:

سيدي! ماذا أفعل؟! أريد أن يعود زوجي كما كان، أريد أن أسترده الثقة التي سحبها مِنِّي، أريده كما كان أبًا حنونًا وزوجًا محبًّا، ورفيقًا رقيقًا، وصديقًا صادقًا، وشريكًا أمينًا، أريده أن يسكن لي، وأسكن له كما كنَّا، فماذا أفعل؟!

الجواب:

كان عليك حين استلمت الرِّسالة الأولى أن تعرضيها على زوجك، وتقصِّي عليه القصة كما كانت بلا مبالغةٍ ولا نقصانٍ، وتشرحي له سببها



وأخلاق مرسلها، وحتّى خطبته لك ورفضك ورفض أبيك له، وما كان بين الإخوة من جفاء، وتكتبي له الجواب بخطّ يدك، رسالةً شديدة اللّهجة بألفاظٍ تناسب أخلاقه وتصرفاته الصّبيانيّة، وترسلها بعد عرضها على زوجك، صوراً لرسالته التي بعثها إليك بخطّ يده وتوقيع، وتوزّعها على أبويك، وعلى كلّ من يتّصل بهذا الشّخص النّذل الخسيس الدّنيء حتّى يكفّ عن سوء خلقه ودناءة فعلته.

لكنّك سكت، فبعث رسالةً أخرى أشدّ لهجةً تنبئ عمّا وصل إليه مرسلها من خلقٍ أسوأ، ومن نفسيّةٍ أخطّ.

فتداركي الأمر، وتفاهمي والزّوج، وأخبري أبويك بما حصل؛ ليساعدوك في إزالة سوء الظّنّ الذي عند زوجك، واعلمي أنّ زوجك عاقلٌ متأنّ، ولولا هذا العقل والتّأني لفعل وفعل.



٥٩- هل أنتقم؟!

عجيبٌ أمر هذا الإنسان! إنّه متباين الطّباع، مختلف الصّفات، صالحٌ وطالحٌ، جوادٌ وشحيحٌ، كريمٌ ولئيمٌ، خيرٌ وشريرٌ، شجاعٌ وجبانٌ، والكلُّ إنسانٌ، وقد يخالف ظاهره باطنه، يقول الشّاعر:

تري الرّجل النّحيف فتزدريه وفي أثوابه أسدٌ مُزير^(١)

وإنّا نسمع ونقرأ كلماتٍ تدعونا إلى التّمسك بالفضيلة والحرص

(١) انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، للهاشمي (٢/٤٢٥).



عليها، نسمع عن الأخلاق وضرورة التمسك بها؛ لكي ننجح في حياتنا، ومع ذلك فقد نجني الخسارة، ثم الندم أو السخرية من الناس إذا نحن سلكنا هذا السبيل أو ذاك.

لقد عشت عمري كله متمسكاً بأهداب الفضيلة، أسير وراء ضميري الحي، مغمض العينين، لم أحاول مرة أن انحرف عن الطريق السوي، فندمت؛ لأنني لم أظفر بما أريد، ولم المقدمه؟! لم لا نبدأ القصة من بدايتها؟!!

لقيتها مصادفةً في إحدى الحدائق العامة، ولا أدري كيف جمعنا القدر، ولا كيف رسم خطانا، كل ما أذكره أنها كتبت إلي بعد لقائنا الأول رسالة تبثني فيها لواعج قلبها، وتقول: إنها معجبة بي؛ بشبابي وعلمي وسعة أفقي ورزانتي، وكان خطابها مفاجأة لي، فمن عادتنا نحن الشرقيين أن يبدأ الرجل الخطوة الأولى، لكن ما حدث معي كان خلاف ذلك، فقد بدأت هي الكتابة لي.

وأخذت الأمر ببساطة، قلت لنفسي: ربّما كانت الفتاة صادقةً مع نفسها ومع الناس، وحين أعجبت بي لم تجد بأساً من المبادرة بالتعبير عن شعورها، هذا شيء طبيعي، وليس فيه ما يريب، ووجدتني أستجيب لعاطفتها، فبادلتها الشعور ذاته، وتطور الأمر بيننا ليصبح حباً مشوباً ملتهباً، وأكد لي صدق شعورها نحوي تلك الرسائل التي كانت ترسلها إلي، الملتهبة بنيران الحب.

وتكررت لقاءاتنا، فالتقينا في الحدائق العامة والمنتزهات، في ظلّ ظليل من شجر الجوز المطل على العيون المتدفقة بالمياه العذبة في ذلك الوادي؛ وادي الغوطة الأخضر، ولا أدعي لكم أن لقاءاتنا هذه كانت



بريئةً تمامًا، بل أعترف أننا قلنا كلامًا كثيرًا، وتبادلنا القبل واللمسات .
 وذات ليلة، وفي خلوةٍ في إحدى حدائق ذلك الوادي وارفة الظلال،
 وجدتُها تراودني عن نفسي، تريد الانزلاق معي إلى النهاية، كانت عيناها
 تلمعان بشهوةٍ عارمةٍ ملتهبةٍ طائشةٍ، وجسدها كله يرتعش بحمى الرغبة
 الآثمة، ولو أنني استجبت لها لتركتهَا ثيبًا، نعم؛ كانت تحرضني على
 ارتكاب الجرم معها، لكنني صحت إلى نفسي، ووجدت ضميري يقيم
 حاجزًا ضخماً من المثل والقيم بيني وبين رغبتها الآثمة، سيطرت على
 نفسي بسرعةٍ وقوةٍ لا أدري من أين أتتني، ولم أستجب لها، وبدلاً من أن
 تشكرني بعد أن عادت إلى نفسها طعنني في رجولتي، وانقلب وجهها
 ينضح بالكره والازدراء والاحتقار، لكنّها فيما بعد عادت لتسعى في
 محاولةٍ أخيرةٍ معي، فقالت:

ويلك! أنا وأنت وليس معنا أحدٌ، وقد سلّمتك نفسي، وعرضت
 عليك أعزّ ما أملك، فإذا بك ترفض كلّ هذا، من أنت؟! أنت إنسان أم
 جمادٌ؟! لا؛ إنك لست رجلاً، ولو كنت رجلاً لحققت رغبتني .

قلت لها بهدوءٍ تامٍّ: صدّقيني! إنني أريدك، لكنني أريدك بالحلال،
 أريدك زوجةً لي، شريكتي في حياتي، أمًّا لأولادي، وإذا أنا طاوعتك
 الليلة فماذا يبقى لليلة الزفاف؛ ليلة عمرنا الجديد؟! إنها ليلة مبدأ حياتنا
 المشتركة، ليلة نكون فيها روحًا واحدةً في جسدين .

فنظرت إليّ ساهمةً، نظرةً لا معنى لها، ثمّ انفرجت أساريرها
 وابتسمت بسمة سخريةٍ، وانصرفنا عن بعضنا .

بعدها صرت أتحاشى الخلوة معها إلا في التجمعات خوفًا من أن
 أضعف أمام رغبتها الشريرة، ثمّ تذهب الشّهامة أمام الإغراء، فيحدث ما

لا تحمد عقباه .

ثم بدأت بتباعد مني ، وتخفف من لقاءاتها معي ، كانت تتحاشاني على الرغم من محاولاتي المتكررة للقاءها ، ولم أفهم سرَّ تصرفاتها هذه ، وعشت في حيرة كبيرة من أمرها ، لقد تصوّرت أنها تخلو إلى نفسها وتزن الأمور بعقلها ، فتقدّر شهامتي معها حين رفضت مجاراتها ، ثم تحمد الله .

لكنّ هذا لم يحدث ، بل حدث ما لم يكن في الحسبان ، إنها تعرّفت إلى شابّ غيري ، كانت تخرج معه إلى تلك الأماكن التي كنّا نلتقي فيها ، وتطوّر الأمر بينهما حتّى وصل إلى الخطوبة ثمّ الزّواج .

نعم يا سيّدي ! رفضتني ، أنا الذي أبيت أن أعرضها للفضيحة والعار ، وتزوّجت ذلك الشابّ دون مقدّماتٍ ، ودون أن تخبرني حتّى بفسخ خطبتي .

وأصبت بصدمةٍ عنيفةٍ ، فالحقيقة أنّي كنت أحبّها حبّاً طغى على تفكيري ، وملك كلّ شغاف قلبي ، ولم أصدّق ما حدث ، لم أصدّق أنّ حفاظي على القيم والمثل والأخلاق سيفقدني الفتاة التي أحببتها ، إنّها تعلم أنّي أحبّها ، تعلم أنّها أصبحت كالماء والهواء بالنسبة إليّ ، ومع ذلك تركتني لتزوّج غيري ، لا لشيءٍ إلاّ لأنني كنت شهماً معها إلى آخر مدى ، إنّني أتعدّب ليلاً ونهاراً ، لم أعد أستطيع التّركيز في عملي ، أصبحت دائم الشُّرود ، حزيناً ، لا أتذوّق لحياتي طعمًا دونها .

ودعني أعترف لك يا سيّدي أنّي ندمت على موقفني منها ، وأتمنّى لو أنّي طاوعتها ، ونفّذت ما تريد ، إذن لكانت الآن بجواري ، ولكفتني هذا العذاب وهذه المعاناة .



لقد هاجرت إلى الكويت بعد زواجها مباشرةً، وقد مضى عليّ ببلدكم المضياف ما يزيد على عامٍ كاملٍ، ومع ذلك فلم يفارقني خيالها لحظةً.

والآن لم يبق أمامي سوى الانتقام، أريد أن أنتقم منها، أنتقم لقلبي الجريح وكرامتي، إنني أفكر في إرسال الخطابات التي أرسلتها إليّ إلى زوجها الذي فضّلته عليّ؛ ليعرف من تزوّج، أفكر في إرسال خطابٍ له أشرح فيه كلّ شيءٍ عن علاقتنا، فربّما يطلقها، فأتزوّجها أنا.

السؤال:

ما رأيك؟! هل يطلقها؟! وإذا طلقها، فهل أتزوّجها؟! أرشدني!

الجواب:

عجيبٌ أمرُك! عجيبٌ كتابك! هذا الذي يناقض أوّله آخره، ولا أدري ماذا أقول لك، تقول: إنك ذو شهامةٍ، والشَّهم لا يفكر فيما فكّرت فيه، ولا حتّى الصَّبِيُّ ابن ذوي الشَّهامة يكتب ما كتبت ويقول ما قلت.

تقول: إنَّها تعلم أنك تحبُّها، وماذا يفيد هذا العلم إذا هي لم تحبِّك؟! علماً أنَّها تعلم بميعاد الخطبة وتحديد يومها.

وأسألك عن هذه البكر التي تعرض نفسها عليك وهي حرامٌ عليك، هل تأمنها من أن تعرض نفسها على غيرك وهي ثيبٌ في عصمتك؟!!

ومن قال لك: إنَّها بكرٌ؟! إنك صدقتها حين قالت لك ذلك، وإنني أظنُّ - وأعوذ بالله من الإثم في الظنِّ - أن حبيبتك هذه طالبة شهوةٍ، رغبت فيك وأحببتك كحبِّ بائعات اللذَّة، فلمَّا لم تجد عندك رغبتها تحوَّلت إلى غيرك لتجد عنده ما فقدته فيك.

إنك مسكينٌ تتغافل، وأخيراً أقول لك: كن شهماً كما كنت، والشَّهم

يأبى الانتقام، واحمد ربك الذي عصمك من زانية، طالبة شهوة قد تلد على فراشك من ليس لك بولد.

كن محباً في الحقيقة - حتى لو لم تكن صاحبك محلاً للحب - والمحب لا يؤذي محبوبه، بل يتمنى له الخير دائماً حتى لو أساء إليه.

وكن رجلاً بمعنى الكلمة، والرجل لا يضعف أمام الصدمات، بل يتلقاها بالصبر والشكر، وآمن بقول ربك الكريم: ﴿وَعَسَى أَنْ تَحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، والفتاة التي ذكرتها شرٌّ، فاحمد الله الذي أبعدك منها.

وكن إنساناً بمعنى الإنسانية، والإنسانية تأبى الدنيا، وشرُّ الدنيا النَميمة، والله يتولأك.



٦٠- الفضلة لا تشبع، والسُّور لا يشفي

سبحانه جلَّ شأنه يحيي ويميت، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا رادَّ لقضائه، ولا مبدلٌ لحكمه، لقد عشت حياتي أو من بقضاء الله وقدره، حلواً كان أم مرّاً، عشت في سلام الإسلام مع نفسي ومع الناس، كنت دائماً أرى النَّجاح والتَّوفيق في مكارم الأخلاق والصدق والاستقامة؛ نجاحاً لا نجاح مثله، وتوفيقاً لا يضارعه توفيقٌ.

وكنت كلما ضاق بي أمرٌ فزعت إلى صلاتي أطلب الرَّاحة منها متأسِّياً بالنَّبِيِّ الكَرِيمِ ﷺ إذ يقول: «قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرْحِنَا بِهَا»^(١) فنجد العون من الله

(١) رواه أبو داود، رقم (٤٩٨٦).



تعالى بالهناء وراحة البال وصفاء النَّفس، وما من مشكلةٍ إِلَّا ويسَّهل الله لي حلَّها دون عناءٍ وقلقٍ.

إِلَّا هذه المرَّة التي أجدني فيها أقف على مفترق الطُّرق، ولا أدري أيَّ طريقٍ أسلك، أو في أيِّ دربٍ أسير، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه من سوء الظَّنِّ بالله.

إنَّني أتساءل: هل فقدت إيماني؟! هل التاثَّ عقلي؟! ثمَّ لا أرى في شريط حياتي ما يؤكِّد ذلك فيَّ، ومع ذلك أجد مشكلتي أكبر من قدرتي على حلَّها.

وسأبدأ حكايتي؛ لأضع الأمر كلَّه بين يديك، لتشير عليَّ؛ وأنت المستشار المؤتمن، ولتنصحني؛ وأنت الخبير بأحوال الدنيا.

عرفتها وأنا ابن العاشرة، إنَّها بنت الجيران، كنَّا نذهب سوياً إلى المدرسة، نلهو ككلِّ الأطفال، ونتخاصم ونلعب ونضحك كما يلعب اللدات والأقران، علماً أنَّ شهادتي ميلادنا تشهدان أنَّي أكبرها بثلاثين شهراً، وتجاوزت الخامسة عشرة وهي تقترب من الثانية عشرة، وكانت تبدو أكبر من سنِّها.

وأحببتها في سنِّ مبكِّرة، وتعلَّقت بها، وأحبَّتني هي أيضاً، وكانت تستعين بي على حلِّ ما يستعصي عليها من واجباتها المدرسيَّة، وكنت أساعدها وأنا سعيدٌ.

وعرف والدانا بما بيننا، فلم يعارضا اجتماعنا، فقد كانا صديقين حميمين، وكانت ثقتهم بنا كبيرةً كثفتهم ببعضهما.

وكبرنا، وكبر الحبُّ معنا، وترسَّخت بيننا الصِّداقة البريئة، وتوفِّي

والذي رحمه الله معدماً، وكان مديناً لبعض الناس في معاملاتٍ تجاريةٍ، ولمَّا كنت ابنة الوحيد فقد تعهّدت للدائنين بالوفاء بعد تخرُّجي من الجامعة التي كنت في سنتها الثالثة.

ولمَّا بلغت الثامنة عشرة وحن موعد امتحان الثانوية لها كنت إلى جانبها أساعدها، ونجحت وحمدنا الله على نجاحها.

وفاجأني أبوها ذات يوم بسؤالٍ نزل عليّ نزول الصّاعقة. قال: ما رأيك في فلان؟! قلت: أنعم به وأكرم؛ إنّه صديقي، وأبوه صديقك، وكان بحكم صداقته لك صديقاً لأبي رحمه الله. قال: إنّي أسألك عن سلوكه وأخلاقه. قلت بلا تردّد: نعم الفتى هو خلقاً وأمانةً. قال: إنّه جاء يخطب ابنتي فلانة. وفوجئت بهذا النّبأ، وكاد يغمى عليّ، فماذا أقول وأنا ذو ضمير؟! قلت: إنّه إنسانٌ طيّبٌ ومتمزّنٌ، ولا يعيبه شيءٌ، وهو نعم الصّهر؛ إنّه إنسانٌ مستقيمٌ، كريمٌ النّفس، حسن السّمعة، هكذا أراه يا عمّ، والغيب لا يعلمه سوى الله ﷻ. أحببت أبا الحبيبة التي ستفلت منّي بهذا الجواب، والنّار تشتعل في قلبي مثل اشتعالها في الهشيم^(١).

وجاءت أمّها تسألني عنه، فلم تخرج إجابتي لها عمّا قلته لزوجها، أنا أعلم يقيناً أنّهما بسؤالهما هذا كانا يطمعان بي صهراً لهما، وكانّهما يحثّانني على التّقدّم إلى ابنتهما، لقد أرادا أن يعرفا رأيي ومدى استعدادي لخطبتها، فهما يعلمان أنّني أحبّها وهي تحبّني، فأرادا أن يستعجلا الأمر، لا أدري لماذا، وأبو الحبيبة لا يعلم أنّني كنت يومئذٍ في وضعٍ لا أستطيع

(١) الهشيم: اليبس من كلّ شيء. تاج العروس، للزبيديّ (١٠٠/٣٤).



فيه التَّقدُّم إلى خطبة ابنته، فقد كنت خالي اليد، وكنت قد وعدت دائني أبي بتسديد كلِّ ديونهم عليه، وهذا هو واجبي المقدَّس الأوَّل تجاه أبي وتجاه نفسي، فكيف أسمح لنفسي بالزَّواج وأنا لم أف بالوعد الَّذي أعطيته لدائني والدي؟! ولا أعلم ما سيكون مصيري، ولا يعلم السِّرُّ هذا إلَّا الله، فقد كان أبي يوم مات في وضعٍ ظاهره فيه الغنى، وباطنه فيه العدم وتراكم الدُّيون.

وأخيراً، وبعد تريثٍ عُقد القران، ومن سخرية القدر أنني كنت أحد شاهدي العقد.

وتزوَّجت حبيبي الرَّجل الَّذي شهدت له بالتزكية، وهنَّأتها بالزَّواج، وكان لها نعم الزَّوج، وسارت حياتها هنيئةً، أو هكذا حُيِّل إليّ، وقُطعت الصِّلة بيني وبينها، وانصرفت إلى عملي أعطيه كلَّ جهدي عليّ أجد فيه بلسماً لجراحي الدَّامية، ونجحت وتمكَّنت من تسديد كلِّ ديون أبي، ووفَّقني الله مادياً واجتماعياً.

ورأيت أنَّ الوقت قد حان لأرتاح، فتزوَّجت، وعلمت الحبيبة القديمة بزواجي، فلم تحضر، ولم ترسل إليّ تهنئةً كتابيةً، وسارت حياتي وكنت فيها زوجاً سعيداً، وأنجبت، وكانت زوجتي نعم الزَّوجة، أعطتني من نفسها وإخلاصها كلَّ ما تستطيع، وتفانت في خدمتي، وكنت في تلك المدة التي جاوزت عشر سنين، لا أعرف عن تلك شيئاً ولا عن زوجها، أكرم حبَّها في قلبي، وأتذكَّر أيَّام طفولتنا الحلوة والتلمذة والشَّباب، وأوهم نفسي أنني نسيت كلَّ شيءٍ.

وقبل شهرٍ استلمت رسالةً منها عرفت خطَّها، وأنكرت منها هذه الرِّسالة، وفتحتها بعد تردُّدٍ، كانت رسالةً طويلةً تخبرني فيها أنَّ زوجها



مات وخلفها أمًّا لأيتام، وأنَّ أباهما مات قبله معسرًا، وفي الرِّسالة إشارة للذِّكريات القديمة الَّتِي كدت أتناساها، كانت تدعوني في رسالتها لوصول ما انقطع من الودِّ البريء بيننا.

إنَّ دعوتها أفضت مضجعي، هي أمُّ لأربعة أيتام، وأنا زوجٌ وأبٌ، وهنا تكمن المشكلة، لقد صرت في حالة قلقٍ سيئٍ، حتَّى إنَّ زوجتي شعرت بقلقي، وقلة نومي، والهجران الَّذِي لم تكن تعهده منِّي، وظنَّت أنَّني مريضٌ، فأشارت عليَّ بمراجعة الطَّبيب أو دعوته، وتعلَّلت بأنَّ لا بأس عليَّ، إنَّما هي حالةٌ نفسيَّةٌ سبَّبتها عمليَّةٌ تجاريَّةٌ، فيها خسارةٌ ماديَّةٌ كبيرة، فقالت: أو مثلك يهتمُّ لهذا؟! الله أعطى والله أخذ، فاشكره في الحالين، يوفِّ أجرك ويخلف عليك. وتقبَّلت نصيحتها على مضضٍ.

السؤال:

إنَّني الآن في دوَّامةٍ من الأفكار والآراء، لا أدري ماذا أفعل، وأخيرًا رأيت أن أكتب إليك، فأشر عليَّ؛ فأنت المؤمن، وانصحنني؛ ماذا أفعل؟!!

الجواب:

سمعنا عن مراهقة الكهولة أو مراهقة الشَّيخوخة، لكننا لم نعرف لها معنى حتَّى شرحتها لنا، فجزاك الله خيرًا عنَّا وعن القرَّاء.

تقول: إنَّك إذا التبس عليك أمرٌ فزعت إلى الصَّلاة، فلم لم تفرع لها هذه المرَّة يا كهل؟!!

إنَّك زوجٌ وأبٌ، وكتبت الأرملة إليك تخبرك بوفاة زوجها وأبيها، وأنَّها أصبحت أمًّا لأيتامٍ أربعةٍ، عبارات تدلُّ على أنَّها في حاجةٍ إلى مادَّةٍ؛



لا سيِّما أنَّها علمت بيسرك، وكانت على علمٍ بمرءتك ونخوتك .
فاكتب لها معزِّيًّا بوفاة الرَّجلين، واعتذر لها أنَّك لم تعلم بذلك،
وأعطاها ممَّا أعطاك الله مساعدةً لها، وإنِّي أشكُّ في أنَّها كتبت لك تثير
الذِّكريات، ولعلَّه يخيَّل إليك ذلك، إنَّها تذكِّرك بالنَّخوة التي كنت متَّصفاً
بها يومئذٍ .

واذكر يا شابَّ الكهول وصفك نفسك في رسالتك بأنَّك إنسانٌ ذو
ضميرٍ، فنصيحتي لك أن تحافظ على إنسانيتك وراحة ضميرك وسلامته .
ولقد وصفت زوجتك بالحسنى، فلا تسيء إليها، وجاز إحسانها
بإحسانٍ .

أمَّا تلك الأرملة فقد تزوّجت من زكّيته وأثنت عليه، وحضرت عقد
قرانها، فكن عند موقفك الشَّريف هذا، ولا تدنّسه، وابتعد من العفن
الدِّفين فقد يزكمك .

ونصيحتي لك أن تغلق باب الماضي، فالمرأة تزوّجت، ولم تتزوّج
إلَّا بمن رضيته لها، ولو تزوّجتها فلن تكونا ذينك^(١) الحبيبين ما دمت قد
تزوَّجت غيرها، وتزوَّجت غيرك، فكلاكما ذو قلبٍ مصدوع، والله
يرعاكما، فليتنفّغ كلُّ منكما لأولاده، فلا تنغص عليك أبوتك، ولا تكدر
عليها أمومتها .



(١) ذا: اسم إشارة إلى المذكّر، تقول: ذا، وذاك، الكاف للخطاب وهو للبعيد،
وتقول في التثنية: رأيت ذينك الرَّجلين، وجاءني ذانك الرَّجلان. انظر: تاج
العروس، للزبيدي (٤٠/٤٢٥).

٦١ - لا تكن أنانيًا

سيدي! لم أكن أتصوّر أنّ حادثًا بسيطًا يمكن أن يغيّر مجرى حياتي كلّها، ويحيلني من بشرٍ متفتّحٍ مشرقٍ ينتظر مستقبله الباهر إلى هيكلٍ محطّمٍ حزينٍ بائسٍ مهمومٍ.

ولم أكن أتصوّر - أنا الذي قضيت كلّ حياتي في خدمة الناس ومواساتهم - أن أفكّر ولو مجرد تفكيرٍ في أن أكون أنانيًا، وأبحث عمّن يواسيني في وسطٍ لا أجد فيه من يستطيع مواساتي، ولا حتّى تعزيتي.

إنّ الحياة قاسيةٌ مؤلمةٌ، ابتسمت لي كثيرًا، لكنّي لم أدرك أنّها ابتسامةٌ غدرٍ تستر وراءها عذابًا لا يطاق، وتخفي - وهو الأهم - موقفًا في غاية الصّعوبة مطلوبٌ منّي أن أجابه مكرهًا وأرضاه؛ إذ لا مهرب منه إلّا إليه.

أنا - يا سيدي - من بلدٍ عربيّ شقيقٍ، ولدت عام (١٩٥٢م)، ونشأت مدللاً لأبويّ وبين إخوتي، محبوبًا في وسطنا الذي نعيش فيه، حتّى اعتدت هذه المحبّة، كما اعتدت أن يقابلني الناس بالترحيب والابتسام، وعلى الرّغم من هذا الدّلال لم أنحرف عن الطّريق القويم، بل كان هذا دافعًا لأنجح في دراستي، ثمّ في عملي، وأقابل الحبّ بالحبّ، والبسمة بالبسمة، واعتدت شكر الله ﷻ بأداء ما أوجبه عليّ ما استطعت والابتعاد ممّا نهاني عنه.

وسارت حياتي هائلةً هادئةً ناعمةً، كلّ ما فيها مشرقٌ إشراقه صبحٍ جميلٍ.



وفي أيام الدراسة تعرّفت إلى فتاة مثقفة لطيفة من أسرة محافظة شريفة، أحببتها وأحبّنتني، وخطبتها بلا مشكلاتٍ أو عقباتٍ، واتّفقنا أن نتزوَّج بعد أدائي الخدمة العسكريّة، واتّفقنا وخطّطنا، ونحن نضحك للمستقبل، وكان المستقبل يضحك منّا، كما يقال: وتقدّرون وتضحك الأقدار^(١).

وانخرطت في سلك الجندیّة، وأخذت الأمر من ناحيته الوطنيّة خلافاً لغيري من الشّباب الّذين يحاولون المستحيل للهروب من الخدمة بدفع الفدية أو الغرامة، آمنت بصدقٍ أنّه حقٌّ وطنيٌّ يجب أدائه بكلّ أمانةٍ وسخاءٍ، وعلى كلّ مواطنٍ أن يحسن الأداء.

كنت مرّحاً، آخذ الأمر ببساطةٍ، حتّى المضايقات الّتي كانت تقابلنا وقت أداء التّمارين الصّباحيّة والمساءليّة أو الدُّروس كنت أحيلها إلى مواقف ضاحكةٍ، وكان زملائي من الجنود يستغربون منّي هذه الرُّوح المرحة وسط دوّامة التّعب والإرهاق، لكنّي كنت أفلسف لزملائي مواقفهم، وأقول لهم: إذا كنّا سننقضي هذه الأيام وكلّ شيءٍ إلى نهايةٍ فيجب أن نجعلها سعيدةً حتّى تمرّ بسلامٍ، وأستطيع القول إنني نجحت في أن أضفي على الإخوة الرُّوح المرحة.

وفي يوم مشؤوم في أثناء التّدريب أخطأت خطأً بسيطاً جدّاً، وإذا بالرّقيب المعلّم يأتي إليّ مسرعاً ليوبّخني، ثمّ يرفسني برجله رفسةً قاسيةً، لم يكن الخطأ الذي ارتكبته يستحقُّ حتّى مجرد اللّوم أو التّوبيخ، لكنّ هذا الرّقيب الشّرس أبي إلا أن يضع برفسته هذه النّهاية لكلّ أمالي، بل

(١) انظر: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، للمحسن البصريّ (٤/٢١٦).

نهاية حياتي المرححة .

لم أدر ماذا حدث لي ، ووعيت نفسي وأنا في المستشفى بعد غيبوبةٍ استغرقت اثنتين وسبعين ساعةً ، لأعلم أنه أجريت لي عمليةً جراحيةً ، وأنتني كنت في حالةٍ خطيرةٍ ، ولم أصدق ما سمعت ، إنَّ الرَّفْسة كانت قاسيةً فعلاً ، لكنني لم أتصوّر أن تتطوّر الأمور إلى هذه الدرّجة .

وظللت بالمستشفى ما يزيد على شهرين ، استعدت عافيتي بسرعةٍ بعد أن كنت معرّضاً للموت ثلاثة أيّام ، لكنّهم رفضوا إخراجي بحجّة الاطمئنان على حالي ، وكنت أحسُّ أنّ الطّبيب المعالج يخفي عنّي شيئاً ما ، وكلّما سألته عن سبب إبقائي في المستشفى أجاب إجاباتٍ مبهمّةً .

وذات يومٍ جاء إليّ الطّبيب ، وعلى وجهه نظرةٌ جادّةٌ أثارت في نفسي الرّيبة ، قال لي بعد مقدّمةٍ طويلةٍ عن القضاء والقدر والمكتوب والإيمان : إنني يجب أن أستعدّ لسماع خبرٍ سيّئٍ مؤمناً بما يجري ، فكلُّ ما يجري على المرء من الله ، وإنَّ «الصّبر نصف الإيمان»^(١) ، وإنَّ الله يوفّي الصّابرين أجرهم بغير حسابٍ .

قلت : إنك ربّما لحظت أنّني لم أفقد المرح أو إيماني برّبّي ، فلك أن تطمئنّ ؛ لأنني لم أكن بحاجةٍ لكلّ هذه المقدّمة الطّويلة التي أجزم أنّها كانت حملاً ثقيلاً عليك .

وتلعثم الطّبيب ، وارتبك ، وأخيراً ألقى إليّ المفاجأة المذهلة ، وأخبرني أنّني لم أعد رجلاً كامل الرّجولة ، لقد أفقدتني هذه الرّفْسة الظّالمة رجولتي ، فلن أستطيع بعدها الزّواج ولا الإنجاب ، لقد تحوّلت

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، رقم : (٩٢٦٥) .



إلى ظلِّ رجلٍ بعد أن كنت رجلاً كامل الرُّجولة، شاباً قويَّ الصِّحة.

لست أدري كيف تلقَّيت الصِّدمة، ولا أعرف التَّعبيرات التي ارتسمت على وجهي، لكنني غبت ذاهلاً عن الحياة، وعن كلِّ ما حولي على الرَّغم من أنني كنت مفتوح العينين يقظاً.

وأفقت بعد مدَّة لأجد الطَّبيب ما زال يتكلَّم على الأمل في عمليَّة جراحيةٍ تعيد إليَّ ما فقدت، وعلى ضرورة الرِّضا بالقضاء والقدر، كلامٌ كثيرٌ قاله الطَّبيب كان يأتيني ملفوفاً بضبابٍ كثيفٍ لا أدري أسمعته أم لا؛ لأنني كنت ذاهلاً لا أفهم معنى ما يقال لي.

ووجدتني أستحضر صورة خطيبتي؛ حبي وأملي، كيف أواجهها؟! ماذا أقول لها؟ كيف أعيش حياتي دونها؟ وكيف تعيش حياتها دون أن تراني بجوارها؟! وأنا أعلم حقيقة حبِّها لي.

هل أفاتها بالأمر كله؟! هل أتركها بلا مقدِّماتٍ كأني نذلٌّ؟! كيف أتصرَّف؟! وكيف يكون تصرُّفي معقولاً، فلا أجرح أحداً، ولا يجرحني أحدٌ؟!!

ليالٍ طويلةٌ - يا سيِّدي - قضيتها أتقلِّب كأني على فراشٍ من الشُّوك دون أن أصل إلى حلٍّ أو نتيجةٍ، ولم أجد بداً من مفاتها بالأمر كله، ثمَّ أترك لها اتِّخاذ القرار.

وأخيراً أخبرتها بكلِّ شيءٍ، وبما قاله لي الطَّبيب، قلت لها: إنني أصبحت الآن كأختٍ لها، ولا أمل في أن أكون زوجها، وأباً لأولادها، وصدَّقني - يا سيِّدي - إنَّ ردِّها كان تماماً كما توقَّعت، إصراراً كاملاً على التَّمسُّك بي على الرَّغم من كلِّ شيءٍ، وصل إلى حدِّ الغباء، قالت:

لن أترك مهما كنت ما دمت حيًّا، وإنَّ حسن ظنيَّ وظنك بالله يحيي أمني في أن تعود كما كنت، وتعود ابتسامتك للحياة، وترغم الحياة على أن تبسم لك.

وطلبت إليها أن تفكر طويلاً، وأن تحكّم عقلها لا عواطفها.

قلت لها: إنني على استعدادٍ لتقبُّل ما تقرِّره، وكلُّ ما أطلبه إليك أن تحافظي على سرِّي، وألاً تفضحيني.

قالت: أنا لك، إلا إذا رفضتني، ومتى رفضتني رفضت الحياة، أرجوك ألاً تأثم بذلك، وقالت: إنها لي قلباً وقالباً.

وسألتها: كيف وأنا لست رجلاً؟!

وقالت: ليس هذا مهمًّا، إنَّ المهمَّ أن أبقى بجوارك، وليحدث بعد ذلك ما يحدث، فأنا - كما قلت لك - مؤمنةٌ، وسأعيش مستقبلي مع مؤمنٍ.

وحاولت معها المستحيل، لكنني لا أكتمك سرًّا يا سيدي إذا قلت: إنني سعدت بقرارها كلَّ السَّعادة، فأنا لا أستطيع تصوُّر حياتي دونها، ووجدتني أتساءل: لماذا لا أتزوَّجها لنعيش أنبل عاطفةٍ في الوجود؛ عاطفة الحبِّ فقط؟!

أنا أعلم أنها أنانيَّةٌ مني أن أتزوَّجها، أعلم أننا سنتعذَّب سوياً، لكنَّ عذاب فراقنا سيكون أكبر، إنني أمام خيارين كلاهما صعبٌ وعسيرٌ.

السُّؤال:

دلني بالله عليك؛ ماذا أفعل؟



الجواب:

أعانك الله على بلواك وألهمك الصبر، والمؤمن كما يقول المثل مبتلى، وأقرب المؤمنين إلى الله من كان أكثرهم صبرًا؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «الصبر نصف الإيمان»^(١).

وأعجبني في نهاية رسالتك قولك: إنها أنانيَّة مني أن أتزوجها.

كما أعجبني قولها: المهمُّ أن أبقى بجوارك، وأعجبني أكثر قولها لك: أنا مؤمنةٌ، وسأعيش مستقبلي مع مؤمنٍ، وإنَّ الحبَّ - كما قلت - أنبل عاطفةٍ في الوجود.

ولأحكي لك من تجاربي قصَّة خطيبٍ وخطيبةٍ، سقطت الخطيبة في حفرةٍ فعميت، وقال النَّاسُ انفسخت الخطبة، لكنَّ الخطيبَ أبى إلا أن يعيش بجوارها قائلاً: لعلَّ في الحبِّ شفاءٌ لها، ولم تمض عليها سنةٌ إلا وقد عافاها الله فأبصرت.

ولن أنسى ذلك الزَّوج الذي أصيب ليلة زواجه بشللٍ في إحدى ساقيه إثر حادث سيَّارة، وأراد أبو العروس أن يفسخ العقد؛ لأنَّ الرَّجُلَ سيعيش زمنًا طويلًا في المستشفى، وقد يحتاج إلى تمرينٍ وراحةٍ في زمنٍ كان الطَّبُّ فيه بطيئًا، لكنَّ الزَّوجة دخلت على الزَّوج قائلةً: إياك أن تطلق، فأنا لا أريد غيرك.

كان ذلك ليلة الزَّفاف قبل الدُّخول، فقال لها: إنَّ الطَّبيبَ قرَّر أن لا علاج لساقِي، وستبقى مشلولةً، لكنَّ كلامك أسرَّ إليَّ، وأقنعني بأنَّ لمساتك ستشفيها وسأعود أحسن ممَّا كنت. وتزوجا، وبعد أقلَّ من عامٍ

(١) سبق تخريجه.

شفي الرَّجْلَ ، وأصبح كما ظنَّ ، وكان أحسن ممَّا كان .

لكنَّ مرضك ليس عمِّي ولا عرجًا أو كساحًا ، إنَّه مرض العلاقة الزَّوجِيَّة ، إنَّه مرض الجنس ، وهي شابَّةٌ ، وثورة الجنس جوعٌ وظمًا ، والجوع قد يكره الجائع على السَّرقة ليشبع . إنَّها اليوم في موقف عاطفِيٍّ ، لا شكَّ في أنَّها عاطفةٌ صادقةٌ ، لكنَّها مع مرور الوقت ستكتشف أنَّها أخطأت الاختيار ، وحين تخلو بك ستري الأمور بنظرةٍ أخرى غير نظرة العاطفة ، وسينتهي الأمر بها إلى كرهك ؛ لأنَّه لا لذَّةَ لحياةٍ تعيشها أنثى شابَّةٌ مع رجلٍ مثلك ، مهما أوتي من جمالٍ ومالٍ وعلمٍ وجاهٍ .

إنَّك تبحث عن السَّعادة وتريدها ، فلا تكن أنانيًا ، بل كن محبًّا صادقًا ، وآثر بالسَّعادة حبيبتك .

إنَّ الله جلَّ شأنه أخبرنا أنَّ الزَّوجة لباسُ الزَّوج ، وهو لباسٌ لها في قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ ﴾ [البَقَرَة : ١٨٧] . وهذه الصَّفة معدومةٌ عندك ، فلن تكون لباسًا لك ، ولن تكون لباسًا لها ، فالغرض الأساسيُّ من الزَّواج انتفى .

سامحني إذا قسوت عليك ، ولا تكن أنانيًا ، وكن من الذين يؤثرون على أنفسهم ، صابرًا على البلاء ؛ يُعْظِمُ اللهُ لك الأجر .

والبقاء على صداقتك مع من تحبُّ خيرٌ من كرهٍ يأتي بعداءٍ ، وقبل أن أختم جوابي أقول :

أرجو أن تراجع المختصِّين من الأطباء ولو في البلاد النَّائية ؛ لعلَّ الله يأتي بالفرج .

فإذا قرَّرَ الجميع اليأس فتركها وآثرها بالسَّعادة ، ولن يضيع الإحسان



البتّة، يقول الشّاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعَرَفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ (١)



٦٢- هل في الإسلام طبقيّة؟!

مشكلتي كاوية! وما أدراك ما هيه؟! إنّها نارٌ حاميةٌ، كوتني أنا وحدي، وأخشى من عواقبها، وعواقبها لا تضرُّ أحدًا غيري وغير ابنتي ذات الثلاث سنواتٍ، والحمل الذي لا أدري ما جنسه.

إنّها مشكلتي يا سيّدي، أبعث بها إليك عسى أن أجد عندك حلًّا لها.

تزوّجته على كتاب الله وسنة رسوله سنة (١٩٧٢م)، وعشنا زوجين سعيدين إلى ما قبل عامين، حين مرّ شابُّ بأبي يخطب منه أختي.

عرف أبي أنّ هذا الخاطب ذو مكانةٍ في المجتمع، متمسكٌ بالأخلاق الكريمة، عفيفٌ شريفٌ، جامعيٌّ، يسعى لنيل الدكتوراه، متديّنٌ، يؤدّي واجبات دينه، ويشهد له أهل محلّته أنّه محافظٌ على صلاة الجماعة، إلّا أنّه كما يقولون: بيسريٌّ؛ أي: عديم الأصل، أو لا أصل له.

ولمّا علم أبي أنّ الأخت راضيةٌ به زوجًا لها رضي به ممثلاً أمر نبيّ الإسلام عليه أفضل الصّلاة والسّلام: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلّا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبيرٌ» (٢).

(١) انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة الدّينوريّ (٣/٢٠٠).

(٢) رواه التّرمذيّ، رقم: (١٠٨٥)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.



وأبي يرى الكفاءة في الخلق والدين والمعرفة، وهذا رجلٌ جمع الصفات، ومن الإثم أن نردّه كما قال، وعلم زوجي أنّ أبي رضي بهذا الخاطب صهراً له، فقامت قيامته وهو المتمسك بأصله وفصله، وكيف يكون - وهو الحسيب النسيب - عديلاً لهذا البيسريّ الذي لا حسب له ولا نسب؟! إنه يتعامى عن أن ينظر إلى مكانته الاجتماعية، ويتصامم فلا يريد أن يسمع عن كفاءته العلميّة، وكلُّ ما يدريه أنّه غير كفءٍ ليكون عديلاً أو مثيلاً له؛ لأنّه بيسريّ لا أصل له.

وتزوَّجته أختي على كتاب الله وسنة رسوله، ومنذ أعلن الزّواج وأنا في شقاءٍ من العيش، لقد منعني زوجي من زيارة أهلي، وانتقل بي إلى مسافةٍ لا أبالغ إذا قلت: إنّها في أقصى شمال الدّولة، بينما أهلي يسكنون الجنوب، وقطع اتّصال الهاتف في البيت الذي أسكنه؛ حتّى لا أتصل بهم، وحرّم عليّ زيارة أقاربي أو أيّ أحدٍ يمتُّ بصلّةٍ إلى أهلي، وحرّم عليّ أن أذكرهم أمامه بخيرٍ أو شرّ.

ومن كلامه: الأسرة التي ترضى بمصاهرة ذلك الرّجل ليس لك أن تزوريها، ولولا أنّ لي منك ذريّةً لقطعت علاقتي بك، وطلّقتك. ثمّ يقول: واحسرتاه واخزياه.

وذاث يوم زارتنني أمّي على الرّغم من المسافة البعيدة، ولما عاد إلى البيت ورأته سلّمت عليه فلم يردّ التّحيّة لا بمثلها ولا بأحسن منها، ولكن بقوله: إذا أردت أن تأتي إلى هنا فلن أمنعك من زيارة ابنتك، لكن أخبريني؛ حتّى لا أرى وجهك في هذا البيت.

في اليوم الثّاني أتى بعمّال بناءٍ قسموا الدّار إلى قسمين بحجّة بناء ديوانٍ؛ مضافةً، حتّى إذا جاءت أمّي يقيم فيها بعيداً من البيت الكبير؛



حتّى لا يراها ولا يكلمها، وهي السيّدة الكبيرة المحترمة ذات الدّين والمعرفة، علماً أنّه كان يحبّها ويقدرها ويكرمها ويستأنس بزيارتها لنا، وكم من مرّة كان يقول لها: أنا أحقّ من يأتي بك إلى بيتي، فأنت جدّة أولادي، وأنت أمّي بعد أمّي. وكانت تقيم عندنا اللّيلتين والثلاث، يستأذن لهذه الإقامة أبي.

أمّا الآن فقد تغيّر الحال، وتبدّل الحبُّ كرهاً، هل تصدّق أنّي كنت معه يوماً في إحدى الجمعيات لشراء حاجة، فرأيت أحد أقاربي، وأشرت إليه ليراه، فترك الجمعيتة والحاجة وخرج بي كرهاً لمحادثتي هذا القريب الّذي لا ناقة له ولا جمل في موضوع زواج أختي، ولمّا سألته عن ذنبه قال: لأنّه لم يعترض.

أمّي انقطعت عن زيارتي الآن بعد أن كانت تزورني في الشّهر أو في كلّ ثلاثة أسابيع مرّة، تقول: إنّها ترى في إعراضه إهانةً، وتسمع في بعض الأحيان كلمات إهانة، وإنّ كرامتها فوق كلّ شيء. وسألته مرّة إلى متى سنبقى هكذا؟ قال: إلى نهاية الأجل.

لقد صبرت يا سيّدي، والصّبر مرٌّ، وأخاف أن يصيبني من طول الصّبر ضررٌ، لم أر أبي منذ سنة كاملة، وسمعت أنّ أمّي مريضةٌ منذ شهرٍ، وأنّها دخلت المستشفى.

والمدّة طالت، والرّجل يزداد عناداً، كلّمه أصدقاؤه المحبّبون في هذا الموضوع، فردّ عليهم بالتي هي أقبح، وكلّمه أخوه الكبير ناصحاً، فقال له: مع احترامي لك أرجوك لا تتدخّل بشؤوني الخاصّة.

سيّدي! زوجي متعلّم، ويحمل شهادةً، ومن موظّفي الدّولة، ورئيس دائرة فيها كثيرٌ من الموظّفين، إنّه يعامل موظّفيه بالحسنى، ويعاملني في



منزلنا بالأحسن، إلا في هذه العقدة؛ عقدة الأصل والنسب.

أحياناً يكون مسروراً، فأنتهز الفرصة لأكلمه، فيقول: لولا محبتك وأنت أم أولادي لفعلت أكثر وأكثر، إن العار الذي فعله أبوك لا يمكن أن يغسل، ويجب عليك البراءة من أختك التي دنستنا. إنه يرى زواجها من ذلك الإنسان على سنة الله ورسوله دنساً.

وفي عيدٍ من الأعياد زاره إخواني يعتذرون له، ويقولون: إن زوجتك لا ذنب لها، فلا تحرمها من رؤية أمها وأبيها، وإن الزواج وقع وانتهى. فقال: أهلاً بكم في داري، وحيّاكم الله! كما يقولون: العين أوسع لكم من الدار، لكن لن تذهب إليكم زوجتي؛ حتى لا ترى العار. يعني بذلك أختي.

إنني يا سيدي مللت الحياة تحت هذا الضغط الذي لم أعتده من زوجي، لقد نفذ صبري، وأمّي الحنون مريضة، والمسافة بين بيتي وبيت أبي تستغرق أكثر من ساعة.

السؤال:

أرجوكم! هل لمشكلتي حلٌ بلا فراق؟!
إنني أحب بيتي، وأحب زوجي، وإنه مع كل هذه الشدة لم يسئ إليّ بكلمة، لكنّه عنيدٌ متعصّبٌ لأصله ورأيه.

أرجوكم أن ترسلوا الردّ المتضمّن الحلّ، وشكراً!

الجواب:

جاء الإسلام والناس شعوبٌ وقبائل يفضل بعضهم بعضاً، ويعلو بعضهم على بعض، فكان فيهم السيّد والرقيق والمولى، وكان فيهم



الأشراف والعامّة، فقال الإسلام كلمته العظيمة:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجعل الكفاءة بالدين والتّقوى والإيمان والأمانة، ومعنى الأمانة: أداء الواجبات؛ كلّ الواجبات؛ نحو الله والنفس والأهل والجار والمجتمع، ورسول الله ﷺ - النبيّ الذي جاءنا من ربنا بالإسلام وكتابه - قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(١).

وفي خطبة خطبها الرسول ﷺ في منى قال فيها صلوات الله وسلامه عليه:

«يا أيُّها النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَجْمِيٍّ، وَلَا لِعَجْمِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَىٰ أَسْوَدٍ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَىٰ أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ»^(٢)، وقال ﷺ: «النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ»^(٣).

ثمّ جهل النَّاسُ دينهم، وجهلوا معانيه، والجهل داءٌ وبيلٌ، والجاهل أعمى أصمُّ أبكم، والجاهلون كما وصفهم الرَّحمن: ﴿هُمَّ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

(٣) رواه الدَّيْلَمِيُّ في الفردوس، رقم: (٦٨٨٢).

نعم؛ إنَّهم جهلوا فعادوا بجاهليَّتهم وعصبيَّتهم للقبليَّة، وعادوا لاستعباد المرأة وقهرها وإرغامها على الزَّواج ممَّن لا ترضاه؛ حتَّى حجز ابن العمِّ بنت عمِّه، وأرغموا ابنة العشر سنين على الزَّواج من ابن السَّبعين؛ لأنَّه ابن عمِّها الذَّبَّاح الصَّلاخ كما يصفونه، ورضوا قتلَ ابن العمِّ من تزوَّج من الغريب على كتاب الله وسنة رسوله، وعدَّوها زانيةً، وعدَّ قتلها هذا تطهيرًا.

وخرس رجال الدِّين، وعموا وصمُّوا؛ لأنَّ رجال السُّلطة قالوا، والعالم أمام الجاهل المتسلِّط ضعيفٌ، وقال لسان حالهم:

ما كنتُ أوثرُ أنْ يمتدَّ بي زمني حتَّى أرى دولة الأوغادِ والسَّفلِ^(١)

أمَّا اليوم فلا معنى لجهلنا بديننا، وتغافلنا عن محاسنه ما دما قد فهمنا الدُّنيا، علينا أن نحیی هذه المكرومة؛ مكرومة «النَّاس كَأَسنان المشط»^(٢)، وأن نفخر بالكفاءة الَّتِي أرادها الله لنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَرُكُمْ﴾ [الحُجرات: ١٣]، وأن نعمل بوصيَّة رسوله المقدَّسة: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه»^(٣).

وعلينا أن نعلم أنَّ المبدأ واحدٌ؛ وهو النُّطفة المذرة، وأنَّ النُّهاية واحدةٌ؛ وهي الجيفة القذرة، وأنَّ الجوهر هو الحياة الَّتِي بين المبدأ والنُّهاية.

فلنتمسك بالجوهر، ولنحكِّم العقل، ولنعمل بالحكمة القائلة:

(١) انظر: شرح لامية العجم، للدِّميري (١/٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.



إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَأَنْذَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي (١)



٦٣ - طلاق بالإكراه

كنت خامسة إخوتي الأربعة الذكور من أبي، وأصغرهم، ولدت في المدينة، ونلت شهادة الميلاد صادقةً من غير تقدير، ودخلت المدرسة في مراحلها؛ روضةً فابتدائيةً فمتوسطةً فثانويةً.

وكان أبي بدويًا كويتيًّا عايش أهله أمراء الكويت منذ عهد جدّهم صباح، وسكنوا برّ الكويت في بيوتهم المتنقلة، حتّى إذا حلّ موسم الصّيف تركوا مستضعفيهم من الرّجال والنّساء والولدان على ماءٍ من مياهها ومعهم الماشية، وذهب الرّجال إلى الغوص الذي كان موسم الكسب الأنجح والأربح.

وحلّ عام (١٩٤٨م)، وفيه ماتت زوجة أبي وأمّ أبنائه الأربعة، وهلكت ماشية أبي، وكسد الغوص وكسبه، وتركه أهله، فلم يبق غوّاص ولا غائص، والغوّاص كلمةٌ خليجيةٌ تعني صاحب السفينة التي تجمع الغائصين.

وفيه رغب أبي أن يتحصّر ويعمل في شركة نفط الكويت، أو كما كان يسمّيها شركة المقوّع، وهناك بنى له بيتًا من الخشب والزّنك، وترك بيت الشّعْر، وعمل في الشّركة، وكان أكبر أبنائه الأربعة يومئذٍ في الثانية عشرة، وأصغرهم في الخامسة.

(١) انظر: المجلس الصّالح الكافي والأنيس النّاصح الشّافي، للنّهرواني (١/١٦٥).



وربح عمله في الشركة، وبعد عامين افتتح دكاناً؛ بقالة صغيرة ترك فيه ابنه الكبيرين، ورباح العمل في الدكان، وفي سنة (١٩٥٤م) تزوج أمي، وبعد عامٍ ولدت، ولم تلد أمي غيري.

وبعد ولادتي بأسبوعٍ زارنا شقيق الوالد ومعه ابنه البالغ يومئذٍ عشرين عاماً، وأخبرهما الوالد بولادتي، فقال ابن العم: هي لي. فقال الوالد: هذا سلك البدو، وأنا الآن حضري. ويعني بكلمة سلك: عادة، وانتهى الكلام عند هذا الحد.

وتوفي والدي سنة (١٩٧٢م)، وقد بلغت السابعة عشرة، وجاء ابن أخيه يعزّي إخوتي ويخطبني منهم، وسمعت ورفضت وقلت: إنني وابن عمي متعلمةٌ وجاهلٌ، صغيرةٌ وكهلٌ، حضريَّةٌ وبدويٌّ، فكيف أعيش معه؟!

ولكنهم قالوا: إنَّ التَّقَالِيدَ والعادات تفرض علينا أن نزوِّجك إِيَّاهُ، فنحن ما زلنا بدواً وإن سكنا الحضرة.

وتفرَّق إخوتي في بيوتٍ أربعةٍ حين تزوج كلُّهم، وضمَّني أخي الأكبر إليه، ورجعت الوالدة إلى البادية حيث إخوتها، وهناك تزوجت.

وفي العام الماضي جاء شابٌّ من قبيلتنا يخطبني من أخي، وهو متعلمٌ كعلمي، يكبرني بسنتين، ورضيت به حين خطبني، وبارك أخي رضاي، وعقد زواجي.

وعلم ابن عمي بما تمَّ، فجاء ثائراً، ولمَّا قابل أخي الأكبر طرده، لكنَّ العادات والتقاليد أثَّرت في الإخوة الثلاثة، فجاءوا يطلبون إلي زوجي أن يطلقني.



ولمّا سألت العون من أخي الأكبر تخلّي عني، وقال: لا طاقة لي بهم. فقلت لأخي: هل هم على حقّ؟ قال: لا. قلت: ولم لا تكون مع الحقّ؟! قال: الله يرحم الحقّ.

وأخيراً هدّدوا زوجي بالقتل، لكنّ زوجي كان صاحب مروءة أبي أن يصغي لأقوالهم ويتخلّي عني، وأنا فيه راغبة، لكنّ أهله؛ أباه وأمه وأعمامه أجبروه كرهاً على طلاقني؛ خوفاً من أن يصيبه ويصيبني من إخوتي سوءاً، فطلّقني كرهاً.

وفي اليوم التالي اتّصل بي، وقال: إنّه طلّقني دفعاً للشرّ. وقال: إنك ما زلت زوجتي، وقد استرجعت، والله على ما أقول شهيدٌ.

وسألت إمام المسجد عمّا جرى وعن كلام زوجي، فقال: الرجعة تمّت، وأنت الآن زوجةٌ في عصمة زوجٍ حلالٍ.

علماً يا سيّدي أنّي ما زلت طالبةً في الصّفّ الرابع الثّانويّ، وزوجي خريج ثانويّة، ومنتسبٌ لدراساتٍ عليا، وموفّقٌ في دراساته وعمله، أحبه ويحبّني.

إنّني أعلم أن لا إكراه عليّ بالزّواج ممّن لا أرضاه، ولن يستطيع أيُّ مسؤولٍ عقد هذا الزّواج.

السؤال:

هل يقع طلاق المكره؟! إن إخوتي المعقّدين وأهل زوجي أكرهوه على الطّلاق.

وهل كلامه لي بأنّه استرجع كافٍ دون شهود؟! وهل يباح لي أن أجلس إليه، وأتحدّث معه؟!!

الجواب:

حَتَّى عام (١٩٣٨م) كُنَّا نحترم عادات البدو وتقاليدهم، إذ كان ابن العمِّ يحجز ابنة عمِّه له، وإذا طلبها غيره اشترى منه تنازله بمبلغ من المال.

وفي ذلك العام أبطل رئيس المحكمة الشَّيخ عبد الله الجابر الصُّباح هذه العادة بأمرٍ من أمير الكويت يومئذٍ المرحوم الشَّيخ أحمد الجابر.

هذه العادة جائرةٌ، وهي من ظلم الجاهليَّة وظلماتها، وقد أبطلت في جميع البلاد العربيَّة، فلا حجر لابن العمِّ على ابنة عمِّه إلَّا في بعض البيوت احتراماً للتَّقاليد، ويشترط فيها أن تكون سنُّ الزَّوجين مقاربةً، وأهليَّة الزَّوجين مناسبةً.

ولا أريد أن أطيل في جوابي للسَّئلة، بل أقول لها:

إنَّ ابن عمِّك طالب مصلحةٍ، أمَّا إخوتك فإنَّهم الظُّلمة يريدون أن يظهروا قوتهم عليك؛ لأنَّك الضَّعيفة وحدك، وانسحاب أخيك الأكبر انسحاب عاجزٍ أو متعاجزٍ.

لكن اطمئنِّي بالأ؛ إنَّك لست ضعيفةً، إنَّ البلاد محكومةٌ بحكمٍ عادلٍ، ولن يستطيع أحدٌ أن يقهرك على الزَّواج ممَّن لا ترضين به.

ارفعي أمرك إلى المحكمة طالبةً رفع الظُّلم والإكراه، وتمسَّكي بزوجك الوفيِّ الطَّيِّب الذي أبي إلَّا أن يكون وفيًّا مع من وفَّت له، ولا تنسي في هذه الحال المثل الكويتيِّ القديم الدَّارج: ما حطَّت السُّلاطين إلَّا للشَّياطين، ومن معاني الشَّيطان في اللُّغة العاميَّة الظَّالم، وإنَّ المحكمة ستعطيك الحرِّيَّة الكاملة في اختيار زوجك الذي تريدن؛ لأنَّك



في عصمة زوج.

وأقول في جوابي عن سؤالك عن طلاق زوجك أوقع أم لا: إنَّ زوجك مكرهٌ على الطَّلاق بتهديد إخوتك له، وإكراه أبويه، وطلاق المكره لا يقع.

فاطمئني بالأ؛ إنَّك ما زلت زوجةً لمن تهوين.
والله الموفق.



٦٤- صبرْتُ على شيءٍ أمرٌ من الصَّبْرِ (١)

دنيا غريبةٌ: مثلُ شملِ أقاليمِ الدُّنيا كلِّها، لا جنسيَّةَ له، ولا لغةَ خاصَّةَ به، قاله الخاصُّ والعامُّ من بني الإنسان، والغنيُّ والفقير، والمأمور والأمر، والبائع والمبتاع، مثلُ خالف الحقيقة، وكان الأولى به أن يكون: بشرٌ غريبون، أو إنسانٌ غريبٌ.

نعم والله! إنَّ الإنسانَ غريبٌ عن أخيه الإنسانِ في طباعه، وسلوكه، وأنانيته، ونكرانه الجميل، وكفرانه برِّه، وتكذيبه بقضاء الله وقدره، وجحوده نعمة الله عليه، يقول تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠-٢١]، إنَّه أنانيٌّ إذا استغنى، هلوعٌ إذا افتقر، إذا أكرمه ربُّه ونعمه طغى وتفرعن، وقال كما قال فرعون: ﴿أَنَا

(١) انظر: السَّحر الحلال في الحكم والأمثال، للهاشمي (١/٦٠)، وهو شطرٌ من البيت الشعري:

سأصبرُ حتَّى يعلم الصَّبْرُ أنني صبرْتُ على شيءٍ أمرٌ من الصَّبْرِ

رَبِّكُمْ الْأَعْلَى ﴿النَّازِعَات: ٢٤﴾، وإذا قدر عليه رزقه كفر وأنكر نعم الله الأخرى عليه، هذا هو الإنسان منذ كان؛ قسوةً، وأنانيَّةً، ونكران جميلٍ، إلَّا من عصمهم الله، وقليلٌ ما هم.

فهل توافقني أيها القارئ الكريم على أن الدنيا ليست غريبةً، وأن الدنيا هي الدنيا كما كانت، لكن الغريب فيها هو ابنها الإنسان؟!

اسمح لي يا سيدي أن أضرب لك مثلاً:

امرأةٌ كانت مثال الرّاعية المسؤولة أمام ربّها عن بيتها وزوجها، أخلصت في حبّها لزوجها، وحفظته - كما تقول الشريعة - في ماله ونفسها، في غيبته وحضوره، وتفانت في خدمته وخدمة أولاده، لكنّها لم تجن من ثمار حبّها غير النّدم، ولم تحصد من حصاد تفانيها سوى التّعب.

وصدق شاعر العرب حين قال:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمُ^(١)
تلك هي أنا، أنا صاحبة القصة، وقد كان حمدي ذمًا وجنابي ندمًا.

سيدي! لا أعطي نفسي أكثر من حقّها، ولا أحاول أن أقول ما ليس لي بحقّ أيضًا، ولا أكذب فيما أكتب، سأخبرك بما حدث لي بكلّ أمانة، وسأكتبه وأنا أشعر أن كلّ حرفٍ أكتبه وكلّ كلمةٍ أخطّها بمنزلة خنجرٍ أغمده في قلبي الذي أخلص ووفى، ولم يربح من هذا الإخلاص، ولا نجح في هذا الوفاء، يقول المثل الكويتي: حنا رضينا بالهم، والهم ما

(١) انظر: شرح المعلقات السبع، للزّوزني (١/١٥٠).



رضا فينا. وهذا بالضبط ما حدث لي، رضيت بالهم، ولم يرض بي الهم، وإليك قصتي من بدايتها، أكتبها إليك بعد تردّد، عليّ أجد عندك بلسمًا لجراحي، ودواءً لآلامي:

خطبني ابن عمّي وأنا في الخامسة عشرة من عمري، ووافق الجميع على الخطوبة إلا أنا، كنت في مقتبل عمري، تراودني الأحلام بأن أسير في مراحل دراستي، وأتخيّل نفسي في مدرج الجامعة بين أترابي أشقّ طريقي في هذا العالم بسلاح المعرفة الذي هو العدة الأقوى، والجمال، والكفاءة، والغنى للمستقبل في عصرنا والعصور التي تليه.

لكنّ أهلي أرغموني على قبول ابن عمّي زوجًا، وذهبوا بي إلى المحكمة لعقد القران، فرفض القاضي ذلك؛ لأنني ما زلت صغيرة، وفرحت إذ ظننت أنّ الأمر سينتهي عند هذا الحدّ؛ لكنّ أهلي أخذوني إلى أحد المطاوعة حيث تمّ الزّواج رغماً عني، وأخيرًا رضيت بالواقع.

نعم؛ رضيت بقسمتي، ولسان حالي يقول: لمّا كان المقدّر قد فرض عليّ ذلك فسأرضى بقدري وأعيش، كنت أرددّ لنفسي في كلّ وقتٍ قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وعشت مع زوجي خمس سنواتٍ كنت فيهنّ مثال الزّوجة المخلصة الأمانة على بيتها وزوجها، هذا الزّوج الذي لم يعطني من نفسه لحظةً واحدةً، لم يشعرني أنني إنسانٌ له كيانه البتّة، أو زوجةٌ لها حقّها في الحياة.

كان يخرج لعمله في الصّباح ويعود الظّهر ليتناول غداءه، وينام ثمّ يصحو ليخرج إلى النّادي أو إلى أصدقائه، ولا يعود إلّا بعد منتصف اللّيل لينام مرّةً أخرى، إنّه لم يعطني فرصةً من نفسه ليجلس معي مرّةً لتبادل الحديث، لم يخرج معي للسّوق أو لزيارة أحد أقاربي أو أقاربه،



لم يصحبني لنزهة، وبالاختصار كان يتصنع الحواجز بيني وبينه .

وأنجبت له ابناً وبناتاً، وقبل ميعاد الولادة - وحينما تكون الزوجة أمّاً ترى بسمة زوجها فرحاً بما أعطته، يقف إلى جانبها يشجعها ويشكرها ويشدُّ من أزرها، ويدعو لها بسلامة المخرج كعادة الأزواج - كان زوجي يتعمد السفر إلى خارج البلاد، ويعود بعد أن ينتهي النفاس كما كان، وربّما أكثر جفاءً ممّا كان عليه .

اعتدت أن أعيش في بيت أبي أكثر ممّا أعيش تحت سقف بيتي معه، صدّقني يا سيّدي! إنّ أولاده لا يعرفونه، فقد كانوا يقيمون بصفةٍ شبه دائمة في بيت أبي .

صبرت طويلاً، لم آبه لكرامتي التي تهان في كلّ يوم، لم أحاول أن أنغص عليه حياته، إنّهُ مهما كان سيظلُّ زوجي وأبا أولادي وابن عمّي، كلّ ما كنت أرجوه أن يعود إلى رشده، ويدرك أنّهُ أخطأ في حقّي وحقّ أولاده، وساعتها لن أدعه يعتذر لي، بل سيجدني بانتظاره فاتحةً ذراعياً لاحتضانه .

لكنّ الأيام خيّبت ظنّي، فبدلاً من أن يعود نادماً عاد بصحبته الضّرة، نعم يا سيّدي! ومعه امرأة، امرأةٌ غيري، لقد تزوّج!

ونسى أنّي ابنة عمّه وأمُّ أولاده، تزوّج ونسى أنّي ضحيت بمستقبلي ودراستي من أجله، تزوّج دونما سببٍ معقولٍ؛ اللهمّ إلّا نكران الجميل والأنايئة .

وقد تقول يا سيّدي: إنّ من حقّ الرّجل المسلم أن يتزوّج أكثر من واحدة، فأقول لك: صدقت وأنا معك في هذا، لكن ما الدافع القويّ



الَّذِي دفعه لفعل ذلك؟! أكانت زوجته عقيماً مثلاً، أكانت دميمةً، أكانت غير جديرةٍ به، هل نَعَصت عليه حياته، أو كَلَّفته بما لا يطيق، أكانت خرقاء أو بلهاء؟! لا والله، لقد أعطيته أكثر ممَّا يستحقُّ، وأكثر ممَّا هو مفروضٌ أن أعطيه.

وعرفت أن أهله يعلمون بخطوات زواجه، وإنني كنت آخر من يعلم، وسألته: لم تزوجت؟! هل قصَّرت أنا في حقِّك مرَّةً، هل رأيت منِّي ما يسوؤك؟! قال: لا؛ البتَّة، لكنَّ زوجتي لها أقارب ومعارف ذوو مراكز عليا في الدَّولة، وسينفعونني ويؤمِّنون لي مستقبلاً أفضل.

ورضيت بالأمر الواقع أيضاً، رضيت على كرهٍ منِّي، لكنَّ الرَّجُل انصرف بكلِّيته إلى زوجته الجديدة، وزاد إهماله لي ولأولادي، لقد أسكنها في بيتٍ كبيرٍ، وأتى لها بأحسن الأثاث، وكان يقضي معظم وقته عندها، بينما تركني وأولادي في غرفةٍ في بيت أبيه نتلقَّى الفتات من فضلات سفرة الزَّوجة الجديدة؛ خريجة الجامعة و بنت الأكا بر، وقريبة الوجهاء ذوي المراكز العليا.

وجاءني ذات ليلةٍ في ساعةٍ متأخِّرةٍ، فرحبت به، لكنَّه لم يردَّ التَّحيَّة حتَّى بمثلها أو أقلَّ منها، كأنَّه مدفوعٌ إليَّ دفعاً، لم يكلمني، وخرج قبل طلوع الشَّمس، ولم أستطع قبول هذا الوضع طويلاً، فأخذت أبنائي وذهبت إلى بيت أبي.

والآن لي سنةٌ كاملةٌ في بيت أبي، ولم يفكِّر مرَّةً في زيارتنا، حتَّى في الأعياد! لم يشأ صهر الأكا بر أن يتنازل لزيارة زوجته القديمة؛ بنت عمِّه، أو رؤية أولاده منها.

فاتحه أبي مرَّةً بالموضوع، فقال: إنني أريدها، ولكن بعد أن أجهِّز

لها بيتًا خاصًا.

سيّدي! إنني لا أريد الرجوع إليه، ولا البقاء على عصمته، أريد الطلاق منه، لقد كرهته، وسئمت الصبر معه، لقد صبرت على إهانتني ودوس كرامتي، وفعلت كما قال الشاعر:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمُ^(١)
سيّدي! إنه إنسانٌ معوجُّ الخلق والسلوك والتفكير، وأنا أعلم أنه إذا انتهى من تجهيز البيت وأتى ليأخذني فإنَّ الكلَّ سيوافقون، فهل يستطيعون إكراهي على ذلك؟!

السؤال:

هل أستطيع الحصول على الطلاق منه؟ علمًا أنني مهجورة الفراش منذ زمنٍ طويلٍ، وهل من كانت مثلي تصبح محرمةً على زوجها؟! وهل ينفعني هذا في دفاعي أمام القاضي؟

الجواب:

قصةٌ قديمةٌ، كانت وما زالت تجري حوادثها كلَّ حينٍ، بل كلَّ يومٍ، عرفنا شخصياتها في القديم والحديث، في كلِّ بلدٍ، بل في كثيرٍ من البيوت والأسر، ولن تزال هذه الشخصيات تمثل أدوارها في المستقبل ما بقي على الأرض بشرٌ، لكنَّ الشخصيات تختلف ضمائرُها.

فبعضها يظهر غير ما يبطن، فيكون في باطنه الرّحمة والكلام العذب، وفي ظاهره الشّدّة والعذاب، ومن مثل هذا يرجى الخير.

(١) سبق تخريجه.



ولبعض هذه الشَّخصيَّات عودةٌ إلى الحقِّ، وذكرٌ لما كسب من حسنى، وندمٌ على ما فرط منه، وصراعٌ بينه وبين ضميره، وهذا ما نسمِّيه توبيخ الضَّمير أو إحساس الضَّمير أو الندم أو التَّوبة.

وكم رأينا من أمثال هذا من رجع إلى الحقِّ من زوجٍ وزوجَةٍ، وأذكر أن زوجًا رجع نادماً مستغفراً إلى أمِّ أولاده الخمسة بعد هجران اثنتي عشرة سنةً، وقالت: لا تثرِب عليك، يغفر الله لك، فأنا زوجتك، وهؤلاء أولادك وبيتي بيتك، فأهلاً بك إن رغبت.

أمَّا النوع الثالث من تلك الشَّخصيَّات فهم ممَّن وصفتهم السَّائلة في أوَّل رسالتها عندما قالت: أنا نبيُّ، كافرٌ بالنَّعمة، ناكِرٌ للجميل، حقودٌ جحودٌ. وهذا لا خير يرجى منه، وربَّما كان البعد منه خيراً من القرب منه.

وزوجك؛ ابن عمِّك لا أعرف من طبيعته شيئاً، فأنت أعلم به منِّي، فإن قلت: اصبري. فأخشى أن يضيع ربيع شبابك، فلا تكسبي في خريف العمر شيئاً، وإن قلت: اتركي واطلبي الطَّلاق. فماذا يكون مصير الطَّفلين؟! إنَّهما لا شكَّ سيعيشان يتيمين مع أبوين حيَّين، وأمَّا طول الهجر فلا يقع به الطَّلاق.

استشيرني أبويك، الوالد والعمُّ، أو ابعثيهما إليَّ لأتحدَّث معهما في الموضوع، لعلِّي أعرف شخصيَّة زوجك من حديثي معهما.

أمَّا إن كنت عرفت طباعه، وكان من النوع الثالث؛ كنوداً^(١) جحوداً حقوداً ففي البعد منه سلامةٌ، وفي تركه الخير كلُّه.

(١) الكنود: كفران النَّعمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العَادِيَات: ٦٦]؛ أي: لَجحودٌ. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٩/١١٤).

وأرجو ألا تأخذك العاطفة، وحكّمي العقل رحمةً بالطفلين.



٦٥- باب الرّيح سدّه تسترح

نعلم أنّ الإسلام يأمر بالاستشارة في كلّ شيءٍ، لا سيّما في شركة الحياة، في المصاهرة التي هي ارتباط أسرةٍ بأسرةٍ، واختلاط أسرةٍ بأسرةٍ على كتاب الله وسنّة رسوله، والمصاهرة قرابةٌ، ربّما كانت أقرب من القرابة، لكنّ بعض النّاس يعاند، فلا يبالي بقولٍ يقال له، ولا برأيٍ يعرض عليه، فمثلاً: هذا غرّه جمالها، فعمي عن كلّ عيبٍ في أخلاقها، ورضي منها كلّ شيءٍ، فلا يبالي بشائنةٍ تقال فيها، ولا بسّيئةٍ توصف بها، وهذه أعجبها فارغٌ طوله، وجمال وجهه، وحسن حديثه، ونفحة صوته، فعميت عنها عن رؤية كلّ عيبٍ فيه، فلا نصيحة عندها تسمع، ولا تهديد يؤثّر، في ذلك يقول الشّاعر:

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبَدِي الْمَسَاوِيَا^(١)

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»^(٢).

أعرف هذا، وأعرف أقوالاً أكثر منه، ولكنّي عميت عن كلّ شيءٍ، ونسيت كلّ شيءٍ، وهأنذا اليوم أعضّ بنان النّدم، وأحصد حصاد التّسرّع، ولكيلا أسبق الأحداث إلى النّتيجة دون تمهيدٍ أرجو أن تقبلني

(١) انظر: الصّدّاقة والصّديق، لأبي حيّان التّوحيدّي (١/١٢١).

(٢) رواه الطّبراني في المعجم الصّغير، رقم: (٩٨٠).



لأقدم إليك نفسي، وأروي حكايتي:

كنت وحيد أبويّ، لم يرزقا غيري، وعشت معهما مدلاً، كانت طلباتي أوامر واجبة التنفيذ، حتى لو أطلت النظر إلى شيء أحضراه لي، أو أحضرا مثله، وكأنني راغبٌ به، وقد لا أرضى بشيء، فينزعجان ويحاولان إرضائي.

كان أبي شبه عقيم، فلم يرزق سواي، وكانت أمي تعرف مرض أبي، لكنّها رضيت بقسمتها ولم تتذمّر، بل قالت: هذا قدرِي، وعليّ أن أرضى به، وكفاني أن أكون أمّاً لوحيدي.

ولولا شبهي بأبي في صورته لآتَّهمني النَّاسُ، وصدق المثل العربيُّ القائل: «من شابهَ أباهُ فما ظلم»^(١)، وهكذا كنت مبرّئاً لساحة أمي.

ودخلت المدارس، وتعلّمت حتى جاوزت المرحلة الثّانويّة، لكنني لم أستطع إكمال تعليمي؛ لأنّ والدي احتاج إلى مساعدتي، فلبّيت نداءه، وعملت معه في أعماله التّجاريّة، فقد كان رحمه الله من أصحاب الأعمال، وإن لم يكن من كبار التّجار، كان يعمل، وكانت حالته ميسورةً، وأسرته صغيرةً؛ أنا وهو وأمّي فقط.

ونزلت إلى ميدان العمل، وفتح الله علينا، ووفّقنا في أعمالنا، فاتّسعت، وأصبحنا على أعتاب انطلاقةٍ كبيرةٍ، إلّا أنّ الوالد فاجأنا بأجله المحتوم، فانتقل إلى رحمة الله.

وبدأت والدتي تلحُّ عليّ بالزّواج، كانت تقول: لقد مات والدك دون أن تقرّ عينه برؤية أولادك، فلا تدعني أقابل المصير نفسه، أرجوك يا

(١) انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشنديّ (١٥/٦٢١).



ولدي لا تكرر القصة معي، وارحمني، وتزوج لأفرح بذريتك.

وكنت أحسُّ فعلاً أنني في حاجةٍ إلى الزواج بمن تناسب مكانتي الاجتماعية والاقتصادية، وكنت أريد الزوجة الكاملة، خريجة الجامعة، الجميلة؛ حتى أفاخر بها أقراني، وأقول: لقد تزوجت الجمال والمعرفة والكمال.

وبحثت طويلاً، وكانت والدتي تعرض عليّ كلَّ يوم واحدةً من بنات الأسر الراقية، أو من يسمونهم بنات الدّوات، أكثرهنَّ شريفاتٌ من أمّهاتٍ شريفاتٍ، وغنيّاتٌ من أسرٍ قد يفضل بعضها أسرتي، لكنني لم آبه لكلامها، كنت أريدها جامعيّةً أوّلاً، ثمّ أبحث عن باقي شروطي بعد ذلك.

وجدت من ظننتها ضالّتي المنشودة، وظننت أنها ستحقّق ما حلمت به طويلاً، وأنها ستكون شريكة الحياة.

كانت شابّةً جميلةً جامعيّةً خريجةً في كليّة التجارة، وتلك هي أمنيّتي التي كنت أتمنّاها؛ لأنّها ستساعدني بعلمها ومعرفتها في شؤوني التجاريّة، وتراقب أعمالي وتحفظ سجلّاتي.

رأتها أمّي، ولم تُرضها حركاتها، وتحدّثت إليها طويلاً، فلم تعجب بأحاديثها؛ بل عابتها، ثمّ عادت إليّ مقطّبة الجبين تقول لي: ابعدها؛ إنّها خفيفةٌ، كأنّها بنت أنذالٍ.

وقالت: يا بنيّ! إنّك قليل الخبرة، لا تعرف النّساء جيّداً، فلا تعرّنك المظاهر، إنّني لم أرتح لجمال هذه، فقد أحسست أنّها تخفي تحت ثوبها البراق نفساً مريضةً ضعيفةً، والإسلام - يا بنيّ - يقول: «إياكم وخضراء



الدِّمن»^(١)، فلا تتهور.

فسكّتُ، وأطلت السُّكوت، وكأنَّ أمِّي رأّت في سكوتي إعراضًا عن نصيحتها، أو إصرارًا على رأيي، فقالت: إنني لا أريد أن أظلمها، ولكنني أحسّ - وإحساس الأمّ لا يخيب - أنّها ليست من ثوبك، ولن تسعدك؛ بل ربّما تشقيك، إن سمعة أسرتها ليست فوق مستوى الشُّبهات، والمثل يقول: باب الرِّيح سدّه واسترح.

ولم أقتنع بكلامها؛ بل زادني كلامها تصميمًا على الزّواج بها، إنّها جميلة، ثمّ إنّها جامعيّة، والعلم يهدي إلى الحقّ وحسن الخلق، فماذا أريد أكثر من هذا؟!!

وتزوّجت، تزوّجت الجامعيّة العالمة بالشّهادة التي حصلت عليها من الجامعة، الجاهلة بكلّ شؤون الحياة، إنّها لا تعرف كيف تصنع كوب شاي، أو كيف تخيط زرًا، أو تغسل إناءً، إنّها لا تعرف كيف تشعل عود كبريت، وتعيش كالضيّفة في بيتي، تأكل ممّا يطبخ لها، وتلبس ممّا يُغسل لها، وصدّقني إذا قلت لك: إنّها لا تعرف كيف تضع الثّوب في مكانه، ولا كيف تعلقه التعلّيق الصّحيح على مشجبه.

وفعلت ما فعلته والدتي: رضيت بقدري، وسكّتُ وقلت في نفسي: صدق المثل القائل: من لا يُطع يَضع، وضعتُ حقيقةً، خالفت أمر أمّي، وتزوّجت خضراء الدِّمن، والله يسترنا من العواقب.

ومرّت أيّامي، وكنت أكتشف في كلّ يومٍ جديدًا في زوجتي؛ لكنّه - مع الأسف - الجديد المنفّر المقزّز القبيح.

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمّال، رقم: (٤٤٥٨٧).

وبعد شهرين أو ثلاثة بدأت الزوجة تتأخر في الخارج، وتعود في آخر الليل، فسألتها: لماذا تتأخرين؟!

قالت: إنني أقدم رسالةً، وتأخري هذا في المكتبة، ولتعلم يا زوجي العزيز أن هذا التأخر سيطول أحياناً، فلا تقلق عليّ، فأنا امرأة رشيدة، وأعرف كيف أتدبر شؤوني، فلا تظنّ بي سوءاً.

كلمة: لا تظنّ بي سوءاً جعلتني أشكُّ في الأمر، وتذكّرت المثل القائل: كاد المريب يقول: خذوني^(١).

وتكرّر التأخر، وعادت ذات ليلة في ساعة متأخرة، وفي حالة غير طبيعية عززت شكوكي، فقررت أن أراقبها لأعرف سرّها، وراقبتها في الليلة التالية، وعثرت عليها لا في المكتبة، ولكن خلف إحدى السينمات في سيارة فارهة مع خليل لها، متلبسةً معه بجريمة الخلوة، عرفت ذلك من وجود سيارتها هناك، فبحثت حتّى رأيت بعيني ما رأيت، وسكّنت لا أدري ماذا أفعل.

سيدي! أكتب إليك خطابي هذا بعد أسبوعين من ضبطي لها في ذلك الوضع الشائن، أخشى أن أكشف سرّي لأمي، فتشمت بي، علماً أنّها بعيدة منّي، وأنا بعيدٌ منها.

زوجتي العزيزة أحسّت بجفائي في معاملتها، والتغيّر الذي طرأ على تصرّفاتني معها، فأحسّت أنّي علمت بأمرها، لكنّها - ويا للعجب - لم تتأثّر، ولم يظرف لها جفنٌ، ولم تستح؛ لأنّ البيئة التي عاشت فيها لا

(١) انظر: مثالب الوزيرين، للتوحيديّ (١/١١٩).



ترى في مثل هذه الجريمة بأسًا، وصدق المثل الشَّعْبِيُّ القائل: طب الجرَّة على فمها تطلع البنت لأمها.

السُّؤال:

بماذا تشير عليّ؟! هل أطلقها، أم أكشف سرَّها لذويها ولأمِّي، أم أسكت خوف الفضيحة؟! علمًا أنَّها ما تزال خالية الحُضن، فلم يثمر زواجنا حتَّى الآن.

أنقذني! جزاك الله خيرًا.

الجواب:

قَصَّتْكَ عَجَبِيَّةٌ، وأمرُك أعجب، وجوابي لك في كلمتين فقط: باب الرِّيح سدَّه واسترح.

قلت في رسالتك: من لا يُطْعَم يَضَعُ، وأمُّك امرأةٌ جرَّبت تجربة الخبير، وأشارت عليك بالخير، ومن أولى بسماع مشورتها منك؟! عرضت عليك بنات الدَّوات فلم ترض بواحدةٍ منهنَّ، وغرَّتكَ خضراء الدَّمْن التي عاشت في الماء الآسن^(١) والمحيط الدَّنَس، وقد جنيت ثمار تسرُّعك وإعراضك عن نصيحة أمِّك.

والآن قد رأيت الخطيئة بنفسك، وشاهدت الفعلة بعينك، فطلِّق وأنت ساكئ بلا فضيحةٍ أو إشهارٍ أو عنادٍ أو صراخٍ، حتَّى ولو كان هناك مؤخَّر

(١) ماءٌ آسنٌ: هو الذي لا يشربه أحدٌ من ننته. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٦/١٣).

صداقٍ فادفعه وأنت ساكئٌ .

وإيَّاك والمحاكم وما أشبهها، ونصيحتي لك: لا تطلق إلا بعد
حيضٍ، وبطهرٍ لم توقعها فيه؛ حتى تأمن من تهمة الحمل بجنينٍ .



٦٦ - أعاشقُ أم مخدوعٌ

لا أدري بماذا أشعر، أنا عاشقٌ ولهانٌ، أم مخدوعٌ ضالٌّ، أم مغفَّلٌ
يعيش في حلمٍ؟! لا أدري من أنا على وجه التَّحديد، ولا أستطيع تحديد
شعوري .

وأستميحك عذراً يا سيّدي في أن أعرض عليك مشكلةً سمّيتها
اجتماعيّةً، علماً أنّي على يقينٍ أنّك لست طبيبِ قلوبٍ، إنّني أعلم أنّك
رجل دينٍ، لكنني مع ذلك - ومن واقع مطالعاتي لردودك على القراء في
مجلة اليقظة وغيرها - أحسست أنّك تملك الخبرة الطويلة، والنظرة
الموضوعيّة، والقدرة على الحكم وحلّ المشكلات بصبرٍ وحكمةٍ؛ لهذا
كلّه قرّرت أن أغامر بالكتابة لك عن مشكلتي، عسى أن يتّسع وقتك
وصدرك لقراءتها والردّ عليها .

وقد تبدو مشكلتي سهلةً وهيئةً، لكنّها استحوذت على عقلي تماماً،
فأضاعتني، ولم أستطع اتّخاذ موقفٍ معيّنٍ منها، فكلُّ جوانبها مغلقةٌ
أمامي، وكلُّ نواحيها مظلمةٌ في عيني .

أنا شابٌّ في السّادسة والعشرين من عمري، أعمل بائعاً للألبسة
الجاهزة، وقد وفّقني الله في سعبي، وشاركت شخصاً آخر يعمل عملي،



واففتحنا محلًّا يناسب عملنا ورأس مالنا في بلدٍ عربيٍّ مجاورٍ.

وذاث يومٍ دخلت المحلَّ فتاةٌ كانت هادئةً مؤدَّبةً، لم تكن جميلةً، لكنَّها كانت رقيقةً، وفوجئت بأنَّها ابنة شريكي، وتوطَّدت صداقتنا، واكتشفت أنَّها ضعيفة الشخصية، وأنَّ الصَّغير والكبير في الأسرة يملي إرادته عليها، حتَّى والدها؛ شريكي يعاملها بالقسوة، ويكيل لها السُّباب والشَّائم التي لا تليق بفتاةٍ مثلها.

وأشفقت عليها، لكنِّي لم أستطع أن أفعل أيَّ شيءٍ أنقذها به ممَّا تقاسيه، ولا سلطة لي على والدها، ولا يباح لي أن أتدخَّل في خصوصيات أسرته.

لم أستطع فعل أيَّ شيءٍ إلَّا أن أسرِّي عنها، وأشدَّ من قوَّة صبرها بقولي لها: إنَّ فرج الله قريبٌ، وإنَّ من صبر ظفر، والصَّبر مفتاح الفرج.

ورأيتني أتقرَّب إليها لأخفِّف من آلامها، وأسمع من أخبارها ما يسرِّي عنها، حتَّى حصلت على مخطوطٍ بخطِّ يدها دوَّنت فيه مذكَّراتها بعباراتٍ كلُّها حزنٌ وأسى، وقرأتها خلسةً، وكانت مفاجأةً لي أن أكتشف أنَّها حاولت الانتحار غير مرَّةٍ، كأنَّها ترى في الموت خلاصًا لها من آلامها، أحزنني الأمر أوَّلاً، ثمَّ وجدتني أفكِّر فيها بصورةٍ مستمرَّةٍ، كأنني أخاف عليها من أن تحاول الانتحار مرَّةً أخرى.

لهذا رأيت من واجبي إنقاذها ممَّا هي فيه، وأحسست بمسؤوليةٍ كبيرةٍ تلقى على عاتقي، وكنت أخشى عليها من يأسها الشَّديد، وأفكارها القاتمة، ونظرتها الحزينة للحياة، وحبِّها للخلاص منها، كأنَّها ترى في الموت نجاةً لها ممَّا هي فيه من حزنٍ وقنوطٍ.



وقرّرت في لحظة جنونٍ أن أخطبها، لست أدري كيف فاتحتها بالأمر.

صدّقني يا سيّدي! لقد كنت كالمَنوم مغناطيسيًّا، كنت كمن تحرّكه قوّة أخرى خارجة عن إرادته.

قلت لها: لقد قرّرت أن أخطبك من والدك فهل توافقين؟!

قالت: وما الذي أعجبك فيّ؟ هل أعجبتك دمامتي؟! ألا ترى أنّي لست جميلة؟!

قلت: إنّ الجمال ليس كلّ شيءٍ لمن عقل، ونظرةٌ إلى الشّارع تريك أنّ الجمال ملقى على الأرصفة، إنّ الجمال جمال الأخلاق والرّوح، والأخلاق هي الأهمّ عند كلّ ذي عقلٍ ودين، وأنت مؤدّبةٌ ورقيقةٌ.

واقنعت الفتاة، وكانت كالغريق ينتظر القشة ليتشبّث بها، لكنّ فتاتي لم تجد قشةً، بل رأت مركبًا فيه من سينقذها من يأسٍ ونكدٍ ووبالٍ.

وتمّت الخطوبة، ووافق أهلها بلا تردّدٍ، وأصبحت في لحظةٍ خاطبًا، خاطبًا لفتاةٍ لم أحلم بحبّها، وذهبت السّكرة كما يقولون، وبدأت أسمع همسات المعارف والأصدقاء والأقارب ولومهم، والكلُّ يعني قوله: لقد أسأت الاختيار، ما الذي ربطك بهذه الفتاة؟! ما الذي أعجبك فيها؟! إنّها عديمة الإرادة، ضعيفة الشخصية، وليست جميلةً.

وكنّت أهاجم من يلومني على خطبتها، وأدافع عن سمعتها، وأنّني على كرم أخلاقها، لكن كثر اللّوم، وكما يقول المثل: كثرة الدقّ تفكّ اللّحم. وبدأت أصغي لهذه الهمسات وألوم نفسي، لا أدري كيف اندفعت بهذه الطّريقة؟! إنّ مسألة الزّواج تحتاج إلى التّروي وحسن



الاختيار، فكيف سمحت لنفسي بهذا؟!!

وسافرت بعد الخطبة بشهرين إلى بلدٍ عربيٍّ شقيقٍ في عملٍ، وهناك اكتشفت مدى فداحة الخطأ الذي وقعت فيه، إنَّها لم تخطر ببالي مرَّةً؛ بل كلَّما جاءت صورتها في خيالي نفرت منها وأبعدتها بخشونةٍ، ولا أبالغ إذا قلت: أشمئزُّ من خيالها إذا تصوَّرتَه، هناك وأنا بعيدٌ رأيت الأمور بوضوح، ورأيت أنني تسرَّعت، وها قد مضى عليَّ ثلاثة أشهرٍ وأنا بعيدٌ منها، أحسُّ بفراغ الحبِّ الذي كنت أكنُّه لها، حتَّى الرِّسائل التي تصل منها قد لا أقرؤها.

وقد تقول يا سيدي: إنَّ من السَّهل عليَّ أن أتركها، ولكنَّ المشكلة ليست هنا، المشكلة في الفتاة نفسها، لقد أحبَّبتني حبًّا طغى على كلِّ شيءٍ فيها، وأصبحت كلَّ شيءٍ بالنسبة إليها، إنَّها تحلم بأيامها معي، وتحلم بزواجنا والأمومة والأطفال الذين ستنجبهم والبيت الذي سترعاه، لقد أحبَّبتني الفتاة حبًّا جنونيًّا، وأخشى إن تركتها أن تنهار وتعاودها فكرة الانتحار ثمَّ تنفَّذها.

إنَّها مشكلة المشكلات بالنسبة إليها يا سيدي، فأنا من ناحيتي لا أريدها زوجةً، ومن ناحيةٍ أخرى أخشى إن تركتها أن تهوَّز، وتقتل نفسها، لا بدَّ أنني سأعيش حياتي وأنا أشعر أنني قاتلها عمدًا، ولن أستطيع أن أسامح نفسي بعدئذٍ.

السؤال:

ما ذنب الفتاة؟ ولماذا تتحمَّل نتيجة خطئي وتسرعني وقصر نظري؟!!

هل أتزوَّجها وأضحِّي بسعادتي ونفسي وحياتي؟! أم أتركها لتضحِّي



هي بحياتها ونفسها وسعادتها؟!!

دلّني بالله عليك، ماذا أفعل؟!!

الجواب:

هل الفتاة صادقةٌ فيما حكاها عنها المعذب؟! أم إنَّ دمايتها دفعتها إلى تمثيل الدور معه؛ حتّى تستغلّ طيبة قلبه، ثمّ سلّطته على قراءة مذكّراتها؟! وكثيراتٌ مثلها دميماتٌ أتقنن التّمثيل فنجحن، لم يستقرّ رأبي على جوابٍ، وأنا في حيرةٍ من أمري، وأخشى أن يكون حدسي صادقاً ثمّ ينكشف المظنون وتسوء العاقبة.

١- هل أشير على الأخ المعذب بالزّواج ممّن لا يحبُّ رحمةً بها؟
أخشى عليه عدم الاستقرار.

٢- هل أشير عليه بالامتناع من الزّواج خوفاً على مستقبل الاثنين؟
أخشى عليها أن تكون صادقةً فتنتحر.

٣- هل الزّواج وطيب العشرة يخلق الحبّ؟! نعم؛ وهذا ما رأيناه كثيراً
إذا كان عند الأنثى خلقٌ حسنٌ ودينٌ، وكانت أنثى بمعنى الكلمة.

٤- وهل كلُّ من تزوّج وأحبَّ أحبَّ جمالاً؟ لا طبعاً؛ فالجمال مع
الغرور يقتل الحبّ.

٥- وهل الجمال عند حسن الخلقة أو حسن الخلق؟ إنّه في مكارم
الأخلاق عند من يعقل.

أشيروا عليّ يا قرّاء اليقظة.

وأرجو أن يصلني الجواب خلال أسبوعٍ بعد نشر هذا السّؤال في «من



غريب ما سألوني»، وأن يكون على العنوان التّالي: (ص. ب ١١٤٥) الكويت، عبد الله النُّوريُّ، وشكرًا.

وقد جاءتنا سبع رسائل فقط من السّادة القراء، اخترنا منها رسالتين: أولاهما للأخ عليّ ضيف الله العمّوش من الرّياض (ص. ب ٣٥٨٦). والثّانية من الأخ إبراهيم عبد الله من بنغازي ليبيا (ص. ب ٤٧). وكلا الرّسالتين في معنى واحدٍ مع تباعد المسافات.

تقول الرّسالتان: حقيقةً أدركناها في وصف شخصيّة المعذب المهاجر هي ضعف شخصيّته أو اهتزازها.

انفعل أمام البنت ورقّ لها وأحبّها رحمةً بها، وأعجب بكرم أخلاقها وصفاتها ومزاياها، وحين قالت له: ماذا أعجبك منّي، دماستي أم قبح منظري؟! فكان معنى جوابه لها: أعجبنى منك خُلقك لا خِلقك. فلم يعجبه منها جمال الوجه ولا حسن الصُّورة، والبنت لم تخذعه بل صارحته بأنّها قبيحة المظهر والصُّورة.

ويقولان له: إنَّك تحبُّ الفتاة وما زلت تحبُّها، تحبُّ منها لينها ولطف خلقها ومسكنتها وعفّتها.

إنَّك لم تسيء الاختيار كما كتبت في رسالتك، ولكنك استمعت لكلام المرجفين الذين يسعون في الأرض فسادًا، والذين يعجبك قول أحدهم، وإنه كما قال الله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

[البقرة: ٢٠٤].

ثمّ يقولان: الفتاة أحببتك، ونحن نشهد الله على حبك لها، فلا تضعف إرادتك أمام قول هذا أو ذاك، وتوكل على الله، وتقدّم، واطفر

بها، وستحمد العاقبة .

ويقول الأخ عليُّ ضيف الله: وأقول لك ألف مباركٍ، وبالرفاء والبنين .

ويقول الأخ إبراهيم عبد الله: أحسن النيّة، «إنّما الأعمال بالنيّات»^(١)، ولا تخيّب ظنّ الفتاة بك، فكن عند حسن ظنّها، وسيجزيك الله خيرًا، فإلى شهر غسلٍ صافٍ من كلِّ كدرٍ، وأرجو أن تقرّ عيني بزواجك، فقد تأثرت برسالتك. ويقول: كن رجلاً، ولا تصغ لكلام المفسدين، واقرا قول الله لي ولك ولكلّ مسلم: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:

• [١١٤

هذا هو مجمل كلام الأخوين؛ عليُّ ضيف الله من الرياض في المملكة العربيّة السّعوديّة، وإبراهيم عبد الله من بنغازي في ليبيا، وإنّي أضمُّ صوتي لصوتيهما، وأرجو للسائل التّوفيق وسعادة المستقبل .



٦٧ - ما هي لقيطة

إنّه صعبٌ جدًّا أن يرى الإنسان نفسه مظلومًا، ثمّ لا يحاول لهذا الظلم دفعًا؛ لأنّه يعلم أنّه لا يستطيع، فظالمه أقرب النّاس إليه وأحبّهم إلى نفسه؛ إنّه أبوه .

(١) رواه البخاريُّ، رقم (١)، ومسلم، رقم: (١٩٠٧)



أبي يظلمنا، ويعلم أنه ظالمٌ، ويصرُّ على هذا الظلم، ويمضي فيه،
ويجد في إنزاله علينا حلاوةً، ثم يفرض علينا أن نستسيغ هذه الحلاوة
التي هي أمرٌ مذاقًا من الصبر، وأشدُّ حرارةً من الجمر.

إنه يحاول أن يسلبنا حقًا أعطاه الله لنا ليعطيه من لا يستحقُّه، لا
لشيءٍ إلا لحبِّ وجدته في نفسه، وعطف على من لا يستحقُّ، وأنا لا أنكر
أنَّ الحبَّ شيءٌ جميلٌ، والعطف رحمةٌ، لقول رسول الله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ
يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ»^(١)، ولكنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «الظُّلْمُ ظِلْمَاتُ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ»^(٢)، فهل يباح لي أن أظلم أقرب النَّاسِ من غير ما جريمةٍ
أجرموها لأرحم البعيد؟!!

وإليكم القصة كاملةً مختصرةً دون تحريف، أرجو التَّفضُّل بإبداء
رأيكم فيها، وسأرضى بما تقولون، وسيرضى إخوتي أيضًا:

تزوَّج أبونا كما تقول أمِّي سنة افتتاح المستشفى الأميري (١٩٤٩م)،
وعاشا زوجين عشر سنواتٍ لم تلد حتى قيل: إنها عاقرةٌ.

وحاول أبواه أن يزوّجاه أخرى؛ ليفرحا بذريّته فرفض، وقال لهما: هذا
نصيبي وقسمتي، والله أمرني بالزَّواج وتزوَّجت، وكانت زوجتي نعمةً من
الله عليّ، أحببتها وأحبَّتني، ويشهد لي على حبِّها لي أمانتها على مالي
ونفسي وسهرها على راحتي، وامثالها لأوامري، أمّا عقرها فليس لها فيه
ذنبٌ، ولا تملك من أمر الله فيه شيئًا، وما شاء الله كان، ولن أنكِّد لها
عيشًا، ولن أكدر لها صفوًا، ولن أشقي سعادتي معها.

(١) رواه الترمذِيُّ، رقم: (١٩٢٤)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) رواه البخاريُّ، رقم: (٢٤٤٧)، ومسلم رقم: (٢٥٧٨).



وَأَلْحًا عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ، فَلَمْ يَصْغُ لِإِلْحَاحِهِمَا، وَهَدَّاهُ بِالْهَجْرَانِ فَقَبِلَ تَهْدِيدَهُمَا حُبًّا بِزَوْجَتِهِ الَّتِي مَا زَالَ يَعِيشُ مَعَهَا شَهْرَ الْعَسَلِ كَمَا يَقُولُ.

وَأَخِيرًا رَضِخَ الْأَبْوَانَ لِلْأَمْرِ الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَةَ كَانَتْ لِهَمَا بِمَنْزِلَةِ كَنَّةٍ وَبِنْتٍ، وَكَانَتْ تَسْتَرْضِيهِمَا بِفِعْلِ كُلِّ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ حُبًّا بِزَوْجِهَا؛ أَيْنَا.

وَكَانَ الْوَالِدُ حَفِظَهُ اللَّهُ مَحَافِظًا عَلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ جَمَاعَةً فِي مَسْجِدِ الْمَنْطِقَةِ وَمَا زَالَ، وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ أَيْلُولِ سَنَةِ (١٩٥٧م) عَادَ بَعْدَ الصَّلَاةِ يَحْمِلُ مَعَهُ مَوْلُودَةً أَنْثَى لَفَّتْ فِي قِطْعَةٍ قِمَاشٍ بَالِيَةٍ، قَالَ: إِنَّهُ سَمِعَ صَوْتَهَا عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ تَحْتَ جِدَارِ الْبَيْتِ الْمَقَابِلِ، فَالْتَقَطَهَا وَعَادَ بِهَا مَعَهُ.

قَالَتْ أُمِّي وَهِيَ تَحْكِي لَنَا الْقِصَّةَ: وَكُنْتُ نَائِمَةً فَأَيْقَظَنِي، وَجَلَسَتْ مَذْعُورَةً مَدْهُوشَةً لِأَرَى أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي طِفْلًا فِي حَجْرِي مَا زَالَ مَلُوثًا بِدَمِ النَّفَاسِ.

قَالَتْ: وَالْحَقُّ أَنِّي سَرَرْتُ بِهَا وَفَرِحْتُ، وَلَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ لَقِيْطَةً، خَشِيتُ مِنْ هَذَا الْاسْمِ، إِنَّهَا بِنْتُ حَرَامٍ، وَإِنِّي أَحْبَبْتُهَا؛ لِأَنَّهَا سَتْرُوي عَطْشِي لِلطِّفْلِ، وَسَرَرْتُ كَثِيرًا عِنْدَمَا أَصَرَ أَبُوكُمْ عَلَيَّ تَرْبِيَّتَهَا وَتَبْنِيَّتَهَا.

وَبَلَغَ تَصْمِيمَهُ مَدَاهِ حِينَ أَشْرَقَ النَّهَارُ وَعَلِمَ أَهْلُ الْمَنْزِلِ الَّذِينَ هُمْ أَبْوَاهُ وَأَخْتَهُ وَعَمَّتَهُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَثَارُوا فِي وَجْهِهِ، وَأَنْبَوهُ عَلَى التَّقَاطِهِ بِنْتُ الْحَرَامِ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْمَوْتَ أَوْلَى بِهَا مِنَ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهَا سَتَعِيشُ مَعَ الْعَارِ كَمَا قَالُوا.

وَحَاوَلَ إِقْنَاعَهُمْ بِأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ نَفْسٍ بَشَرِيَّةٍ، وَإِنْقَاذِهَا مِنْ هَلَاكِ وَضِيَاعٍ، وَالتَّمَاَسًا لِثَوَابِ بَشَرِ اللَّهِ بِهِ مِنْ فَعْلِ ذَلِكَ



بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، فضلاً عن أن يربي إنساناً يتيم الأبوين.

لكنّ الكثرة غلبت بلاغة أبي وقوة حجّته، فلم يستطع إقناعهم، وأخيراً خيرّه والداه بين طرده من البيت والتخلّي عن البنت.

وقرّر الاحتفاظ بالبنت، وفضّل بقاءها معه على بقائه مع أبويه، ولم تغب شمس ذلك اليوم إلّا وهو مستأجرٌ منزلاً لسكنائه، ثمّ فتح الله عليه فاشترى منزلاً.

و شاء الله أن تنحلّ عقدة عقر أمّنا، فتحمل وتلد أختنا الكبرى بعد سنةٍ كاملةٍ في أيلول عام (١٩٥٨م)، ثمّ تلد الإخوة والأخوات. وهذه مقدّمةٌ لما سأسالكم عنه.

عندما بدأ العمل بقانون الجنسية سجّل أبي تلك البنت باسمه، وكان قد أدخلها المدارس باسمه حتّى أنهت مراحل التّعليم الابتدائيّ والمتوسّط والثّانوي، ثمّ دخلت الجامعة باسمه.

والدنا لا يرضى أن يمسه أحدٌ منّا بسوءٍ، حتّى أصبحت مدلّعةً، وقد يفضّلها في كلّ شيءٍ علينا أحياناً، ومن يسيء إليها منّا يؤنّب، ثمّ يقال له: هذه أختكم.

أمّنا تحبّها كذلك، وتراها بيننا كأحدنا، ومن يراها معنا بين أبويننا لا يشكُّ بكونها واحدةً منّا.

وقد علمت أنّ شابّاً تقدّم بطلب يدها، فرضي والدي به، لكنّ الخطيب انسحب عندما علم أنّها لقيطة، وفسخ الخطبة.

وهذا ما دفع والدي ليذهب إلى الدائرة الرّسمية ليعلن كذب هذه



الإشاعة، ويسجّل قرارًا بأنّها بنته حقيقةً، لها مثل ما لنا بعد موته .

وعندما علمت هي أنّ الشَّابَّ الخاطب فسخ الخطبة حزنت، فجلس والدانا معها حتّى أرضياها، ثمّ خرجا معها إلى السُّوق، واشتريا لها غرفة نومٍ ممتازةً .

ولم تغب شمس ذلك اليوم إلّا وهي معهما تنظّم الغرفة باسمّةٍ مسرورةٍ .

السُّؤال:

سيّدي! إنّ البنت تعرف من هي، إنّها تعرف حقيقتها، فهل يباح لها أن ترضى بما فعل أبونا؟!

وهل يباح لأبي أن يفعل ما فعل؟

الجواب:

وبالله التّوفيق، أبوكم فعل خيرًا، فأحيا نفسًا من موتٍ، وأنقذها من جهلٍ، وضمّها إليه من تشريدٍ، وأمّمكم وافقت أباكم وأعانتة على فعل الخير .

وكانت هذه البنت يمينًا على أمّمكم حين وضعتها في حجرها، فأنحلت عنها عقدة عقرها، وكانت فاتحة خيرٍ على أبيكم حين أيسر بعد عسرٍ، وربح بعد خسرٍ .

لكنّي أظنّ - وأعوذ بالله من سوء الظنّ؛ ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْرٌ﴾ [الحجرات: ١٢] - أنّ لأبيكم علاقةً بهذه البنت عرفتها أمّمكم، فرضخت للأمر الواقع، أظنّ أنّ في القصة أمورًا مريبةً:



١- لماذا يترك أبوكم بيت أبيه عندما خيّرهُ أبوه بين رضاه واختيار البنت، فاختارها مفضلاً بقاءها معه على رضا أبيه، وهو الرجل المتدين المحافظ على صلاة الفجر مع الجماعة، ويعرف أنّ رضا الوالدين من رضا الله، ويعلم أنّ البنت لن تضيع، فهناك ملجأ حكوميّ للقطاء سنة (١٩٥٧م) يستطيع دفعها إليه؟!!

٢- وعندما عمل بقانون الجنسية سنة (١٩٦١م) بادر ليسجّلها بنتاً حقيقيةً له، ويكتب لها شهادة ميلادٍ باسمه، ورضيت أمّكم بذلك مع وجود أولادٍ لها منه.

٣- وإذا مسّها أحدٌ منكم بسوءٍ غضب وأنّب وقال لكم: هذه أختكم.
٥- وأخيراً عندما بلغته إشاعاتٌ أشارت إلى أنّها لقيطةٌ بادر ليكذب تلك الإشاعات، ويسجّل إقراراً بأنّها بنته، لها مثل ما لكم، ولم تعارض أمّكم ذلك.

إذن فهي أختكم، وليست لقيطةً، ولا تكرهوا ذلك، لا سيّما أنّ دخولها عليكم كان يمناً وبركةً.

أمّا إن لم تكن بنته، ثمّ سجّلها باسمه، وجعلها وارثةً له فهذا مخالفٌ لقول الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فالتبني في الإسلام محرّمٌ، وحرمة التبني يعرفها كلُّ مسلمٍ.

ولو سجّل لها بعض ما يملك في حياته، أو أوصى لها وصيةً خاصّةً بها بعد موته لكان أولى به وأبراً لذمّته لو كانت لقيطةً.

لكن سرّ الوالد - حفظه الله - انكشف، والأدلة الخمسة التي ذكرتها تثبت أنّ هذه البنت أختكم لا سيّما أنّكم شهدتم على أنّ من رآها بينكم

لا يشكُّ بكونها واحدةً منكم، وهذه شهادةٌ واضحةٌ منكم لها .
 أخيراً أقول للإخوة أصحاب الرسالة: قال العربيُّ فيما مضى: إِنَّ
 البعرة تدلُّ على البعير، وإنَّ آثار الأقدام تدلُّ على المسير^(١).
 وإنَّها أختكم بنت أبيكم، فكونوا مطمئنِّين، ولا تجزعوا، وليجهر
 أبوكم بالسُّرِّ، وإنَّ الله مع الصَّادقين، وليسمع قول الشَّاعر:
 ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ وإنَّ خالها تخفى على النَّاسِ تُعلم^(٢)



٦٨ - احذر الغيور فإنه حقودٌ

كثيراً ما يخدعنا بريق المظاهر، فنفرح بهذا البريق، ثمَّ نجري ركضاً
 وراءه؛ لنظفر به، وما كنَّا ندري أنَّنا نجري وراء سرابٍ حتَّى إذا وصلناه
 لم نجده شيئاً .

ومقاييس الإنسان عندنا - نحن العرب - خاطئةٌ غالباً، فالأصل
 والفصل شرف الإنسان، وحسبه ونسبه وعزَّته ومكانته، ونسبنا أو تناسبنا
 قول القائل:

لا تقلُّ أصلي وفصلي أبداً إنَّما أصلُ الفتى ما قد حصل^(٣)
 فمتى جاءنا من يطلب مصاهرتنا ويخطب إلينا سألنا عن عمومته

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للقاضي (١/٦٩).

(٢) انظر: شرح المعلقات السبع، للزَّوزنيِّ (١/١٥١).

(٣) انظر: نفحة اليمن فيما يزولُ بذكره الشَّجن، للشَّروانيِّ (١/١٥٦).



وخؤولته، وربّما سألنا عن ماله وشهادته، حتّى إذا أخفقنا أو أخطأنا التّقدير قلنا نعزّي أنفسنا: الحظُّ على الله، والزّواج قسمةٌ ونصيبٌ.

وما تلك المآسي التي تحدث بين الأسر، وما تلك الكوارث التي تحلُّ عقد الزّواج إلّا حصاد اندفاعنا وراء المظاهر، وإهمالنا للقيم الحقيقيّة التي أمرنا الإسلام أن نقيّم الإنسان بها، وهي كما أعلم أربع صفاتٍ جمعت الدّين والدّنيا ومكارم الأخلاق؛ صدقًا في الحديث، وحفظًا للأمانة، ووفاءً بالوعد، ورعايةً للعهد.

والزّواج أمانةٌ وعقدٌ، والعقد وعدٌ وعهدٌ، والشّابُّ يرى الفتاة برّاقة الصّورة، رقيقة الصّوت، غضيضة البصر أو الطّرف، فيجري وراءها ظانًّا أنّه ظفر بشريكة الحياة، وإذا به يصبح المخدوع، فلا حقيقة للصّورة، ولا رقةً، ولا حياءً.

وهي تراه محاطًا بهالةٍ من المظاهر الخادعة، فتجري وراءه ظانّةً أنّها ظفرت بفارس أحلامها، ثمّ ما تلبث أن ترى نفسها جرت وراء سرابٍ لا ريّ فيه لظمان.

تغيّرت المقاييس، وأصبح النّاس يسخرون من القيم المعنويّة والخلقيّة حتّى قالوا: إنّها لا تغني ولا تُقني^(١)، ولا تطعم من جوعٍ.

وإنني يا سيّدي ممّن خدع، نعم والله؛ خدعت بالمظاهر البرّاقة.

تعلمّ فنال شهادةً تخوّله أن ينال المناصب العالية لدى الدّولة أو المكانة الرّفيعة في المجتمع، وإنّها شهادةٌ له بالامتياز في التّحصيل وبحسن الخلق مدّة الدّراسة.

(١) أفتى: أَرْضَى. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩/٣٥٧).



إنَّهَا شَهَادَةٌ ظَوَاهِرٌ أَوْ مَظَاهِرٌ كَمَا نَسَمَّيْهَا، أَمَّا السَّرَائِرُ فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا
عَلَّامُ الْغُيُوبِ سَبْحَانَهُ؛ ﴿يَعْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [١٩] [عَافِرُ:

٠[١٩

وَرَبِّمَا انطوت هذه المظاهر أو الظواهر على باطنٍ خبيثٍ، أو خلقٍ
سَيِّئٍ، أو صفةٍ شاذَّةٍ، أو فنٍّ من الجنون، وقديماً قالوا: الجنونُ فنونٌ^(١).

سيدي! إنني من سگان لبنان، من بلدٍ مسلمٍ قريبٍ من بيروت، وهو
من المنطقة نفسها أيضاً، جاءني يخطب مني ابنتي الوحيدة؛ ودود.

كان أنيقاً في ملبسه، جميلاً في صورته، انتسب لي أباً فعرفت أسرة
أبيه، ونعم الأسرة هي في نسبها وسمعتها، وانتسب لي خالاً، ونعم
الخال خاله، وأنعم بهما من أسرّتين.

ثم أراني شهادته الجامعيَّة، وكانت بدرجة ممتازٍ، وقال: إنَّه يسعى
لینال شهادةً أعلى.

وتكرَّرت زيارته؛ لتكون وسيلةً للاجتماع مع وحيدتي الودود، وهي
جامعيَّةٌ أيضاً، وأخيراً رضيت له زوجاً لها، وتمَّ الزَّواج، ثمَّ سافر في رحلة
شهر العسل.

سافر الزَّوجان إلى قرية الزَّوج، ثمَّ إلى بيروت؛ مكان العمل، ثمَّ
رجعا إلى القرية بعد الحوادث.

كانت زيارتهما لنا قليلةً جدًّا، وربَّما كانت في السنَّة مرَّتين أو ثلاث،
والزَّيارة لا تتجاوز ليلةً واحدةً ونهاراً أو نهارين.

(١) انظر: معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/٤٠٨).



وبعد عامين من الزواج عادت لنا الودود هاربةً مجنونةً، ولم نعرف سبباً لهذا الجنون.

وبعد ساعاتٍ جاء الزوج يطلب زوجته، وحين سمعتُ صوته صرختُ وهجمتُ عليه كاللبوة، وهدفتها وجهه، ولم تهدأ حتى قالت أمها له: اتركها حتى تبرأ.

وخرجت معه لأسمع منه كلام البريء المظلوم، وقال: إن ابنتك قد حصل لها ما يسمونه المس، وأخذت تهذي بما لا تعي، ثم هجمت عليّ تمزق وجهي وجيدي بأظافرهما، ثم هربت من البيت لا أدري إلى أين، غير أنني علمت أنها ذهبت إليكم، وقد منعني حماتي من زيارتها كما رأيت، وعليك يا عم أن تلتمس لها الشفاء من الشيوخ، فإنه لا يفيد معها علاج طبيب. قلت: عجيبٌ أن تقول هذا وأنت تحمل تلك الشهادة العالية وكأنك تستغفني، لكن؟!!

قال: لكن ماذا؟!!

قلت: أخشى أن يكون في الأمر سرٌّ، واعلم يا ولدي أنني لست من أسرى الدجالين، ولا ممن يستعبده الكذّابون، والحمد لله الذي فتح بصائرنا على الحق، والأطباء - والحمد لله - كثيرون، فإن لم يفدها الطبيب الجسماني أفادها الطبيب النفساني.

بعد ذلك رجعنا سوياً إلى البيت، ولما سمعت البنت صوته صرخت صرخاتٍ جنونيةً، أمّا الأم فقد حملت عليه بحديدةٍ في يدها وهي تصرخ بأعلى صوتها: يا مجرم! ولولا أنني وقفت بينهما لقتلته.

وأخيراً اكتشفنا السرّ بعد علاجٍ نفسيٍّ دام شهرين تقريباً، وبعد أن



هدأت البنت علمنا منها أن زوجها أحبها حباً شديداً، وكان غيوراً شديد الغيرة، ثم بدأ الوسواس يستولي عليه، فأغلق النوافذ، ثم لم يكفه إغلاقها، حتى سمرها بالمسامير، ثم أغلق باب غرفة الهاتف ومعه المفتاح؛ حتى لا يفتحها إلا هو.

قالت: وكان منذ تزوجنا يغلق عليّ الباب، ويأخذ معه المفتاح، فأبقى في سجنني حتى يعود، وكنت راضيةً بهذه الحياة، وأقول: لولا حبُّ زوجي لي ما فعل هذا معي، ولم أسئ به الظنّ.

وكان إذا عاد من عمله ظهرًا أو مساءً عاد بالبسمة الحلوة العريضة، والكلمة الحسنة الطيبة الممزوجة بالحبّ، كأنه يريد أن يدخلني إلى صدره، وكان إذا خرجنا سويًا في السيّارة لنزهة أو قضاء حاجة كانت نظراته إلى وجهي أكثر ممّا ينظر إلى الطريق، وأنا أعلم أنه ينظر إلى عيني ليرى إلى أين تتوجّه، ولمن تنظر.

وأخيرًا، خرج في يوم ما من البيت ولم يعد إلا بعد خمسة أيّام، وأنا وحيدة في البيت ليلاً نهارًا، بلا ماءٍ ولا غذاءٍ ولا هواءٍ، مغلقةً عليّ النوافذ، موصدّ عليّ الباب، ولا أستطيع الاتصال بأحد؛ لأنّ غرفة الهاتف مغلقةٌ أيضًا.

وسألنا الصّهر المحترم: لماذا فعلت هذا؟!

فأجاب: كلُّ ما قالته صدق، وأنا لم أفعل شيئًا ممّا حدّثتكم به إلا وهي راضيةٌ، إنّ زوجتي جميلةٌ، بل على قدر كبيرٍ من الجمال، وأخشى عليها من النظرات النّهمة المحرومة، والحقيقة أنّني غرت عليها، ففعلت ما فعلت وهي راضيةٌ به، لا أطيل الغياب عنها، فغيايبي عن البيت يوميًا بين ثلاث إلى خمس ساعاتٍ، ولم أغب أكثر من خمس ساعاتٍ.



ولا أخرج من البيت ليلاً، ولا في أيام العطل الرّسميّة أو الأسبوعيّة،
وإذا خرجت لحاجةٍ أو فسحةٍ أو سببٍ ما فهيّ معي دائماً.

أمّا ما حدث أخيراً فلم يكن باختيارى، بل كان رغماً عنّي، وبسبب
الحوادث التي أرغمتني على البقاء في بيروت.

سيّدي! إنّ ابنتي دخلت علينا مجنونةً، يوم دخلت هاربةً من بيت
زوجها كانت شعناء الشّعير، سوداء الوجه، وحين وصلت البيت أغمي
عليها، ولم تعرف أمّها السّبب، فاستدعت الطّبيب الذي قرّر أنّها خائفةٌ
جائعةٌ عطشى، وهذا ما دعا الأمّ لتحمل عليه الحديدة لتضربه بها.

الزّوجان لم ينجبا على الرّغم من مرور عامين على زواجهما، والزّوج
يطلب زوجته، والأُمّ والزّوجة ترفضان، وأنا بينهم حائرٌ.

لكنّي أقول: إنّ حياة الغيور قاتمةٌ، والغيور سيّئ الظّنّ دائماً، فمهما
أظهر من حلاوةٍ في القول فداخلة مرّ، والبنت وكّلت محامياً ليرفع ضدّ
زوجها دعوى طلاقٍ ولم أمنعها، ولعلّ الدّعوى أقيمت بتحريضٍ من أمّها.

السؤال:

أرجوك أجبني؛ ماذا أفعل؟!!

الجواب:

كان الله في عون هذه البنت، الإسلام عندما قيّم الإنسان لم يقيّمه
بعموميةٍ وخوولةٍ، ولم يقيّمه بمالٍ ومنصبٍ وشهادةٍ، بل قيّمه بدينه وأمانته،
وقال لنا: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه»^(١).

(١) سبق تخريجه .



وأقول في جوابي: كان الله في عون هذه البنت التي عاشت في
السَّجْنِ الْأَسْوَدِ عَامِينَ صَابِرَةً مُحْتَسِبَةً، ولولا الجوع لما علمتم بها، لكنَّ
الجوع هو الَّذِي فَضَحَهَا، وسيط الجوع قاسيةٌ، والجوع كافرٌ لا يرحم.
أرجو أن يوفِّقَ اللهُ الْقَاضِي لِيَحْكُمَ بِالطَّلَاقِ، فإن لم يحكم بالطَّلَاقِ
فَاسْتَأْنَفِ الدَّعْوَى، أو ارفع دعوى فسخ أو خلع، وافند بنتك الودود بأيِّ
ثَمَنِ مِنَ التُّقُودِ، قبل أن تفقدها ثمَّ لا تعود؛ لأنَّ كُلَّ غَيُورٍ حَقُودٌ،
والحقود بعد أن كان ما كان أصبح العدوَّ واللِّدودَ، فاشترِ ابنتك الودود
قبل أن تودع اللُّحود.





جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله

من غريب ما بين الوني الجزء الثاني

اعتق به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير الدكتور عبد العزيز المنصور

يعدُّ التُّراث الَّذِي خَلَّفَهُ الْمَغْفُورُ لَهُ الشَّيْخُ عَبْدِ اللَّهِ النَّوْرِيُّ مِنَ التُّرَاثِ الْوَطْنِيِّ فِي الْكُوَيْتِ وَمِنْطَقَةِ الْخَلِيجِ وَالْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، حَيْثُ كَانَ هَذَا التُّرَاثُ مَعِينًا لَا يَنْضَبُ مِنْ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ، مِنْذُ كَانَ الشَّيْخُ ﷺ يَلْتَقِي الْمُرِيدِينَ وَالْقُرَّاءَ، وَيَكَلِّمُ مَسْتَمْعِيهِ عِبْرَ أَجْهَازَةِ الْإِعْلَامِ الْمَخْتَلِفَةِ، كَالْإِذَاعَةِ وَالتَّلْفَازِ وَالصَّحَافَةِ.

وَلَقَدْ كَانَتْ «ذَاتُ السَّلَاسِلِ» أَكْثَرَ مِنْ اِهْتِمَامٍ بِهَذَا التُّرَاثِ، حَيْثُ خَصَّصَهَا ﷺ بِطَبْعِ كُتُبِهِ الَّتِي صَدَرَ كَثِيرٌ مِنْهَا، وَهِيَ تَعْتَرُ الْيَوْمَ بِتَقْدِيمِ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ «مَنْ غَرِيبٌ مَا سَأَلُونِي» فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَى، بَعْدَ أَنْ لَقِيَ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْهُ إِقْبَالًا شَدِيدًا، وَقَدْ حَرَصَتْ «ذَاتُ السَّلَاسِلِ» عَلَى جَمْعِ هَذَا التُّرَاثِ وَمِرَاجَعَتِهِ؛ لِیَخْرُجَ مُتَقَنَّأً فِي أَبْهَى صُورَةٍ، وَحَرَصَتْ عَلَى أَنْ يَتَضَمَّنَ آخِرُ الْكِتَابِ عَدَدًا مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي كَتَبَهَا ﷺ وَهُوَ طَرِيحُ الْفَرَاشِ فِي الْمَسْتَشْفَى، وَبَعْضُهَا لَمْ يَتَسَنَّ لَهُ الْإِجَابَةُ عَنْهَا، وَقَدْ كَانَتْ آخِرَ كَلِمَاتٍ قَالَهَا ﷺ لِمَدِيرِ أَعْمَالِهِ فِي هَذَا الشَّانِ: يَا وَلَدِي، إِذَا بَقِيَ مِنَ الْعَمْرِ بَقِيَّةٌ فَسَوْفَ نَجِيبُ عَنْهَا، غَيْرَ أَنَّ يَدَ الْمُنُونِ كَانَتْ أَطْوَلَ، فَلَمْ يَمَهْلُهُ الْقَدْرُ لِلرَّدِّ عَلَيْهَا.



وإنَّ في هذه الأسئلة وإجابات الشيخ عنها رَحِمَهُ اللهُ كثيراً من العِبَرِ الَّتِي تنير الطَّرِيقَ لأفرادِ المجتمع، فتجنَّبُهُمُ الوقوعَ في الأخطاء الَّتِي وقعَ فيها غيرهم، وقد حَرَصَ رَحِمَهُ اللهُ في رَدِّهِ أَنْ تَصِلَ العِبْرَةُ المتوخَّاةَ من ذلك إلى كلِّ فردٍ، وأن توضحَ تعاليمَ الإسلامِ السَّميحِ.

رحمَ اللهُ الشَّيْخَ عبدَ اللهِ النُّورِيَّ، وجزاه عَنَّا وعنِ المسلمين أحسنَ الجزاءِ.



مَالُ الْيَتَامَى نَارٌ

إنَّ خير ما يوصف به الإنسان حُسْنُ الخلق، وعنوان حسنِ الخلقِ
الإحسانُ، وحين ينتفي الإحسان بين النَّاسِ تستحيل الدُّنيا مسرحَ وحوشٍ
لا مكان فيه للإنسانيَّة، ولا معاشَ فيه للبشريَّة.

والمحسنُ في المجتمعات سيِّدٌ محبوب، لا يضرُّه مَنْ قَابَلَ إِحْسَانَهُ
بالجحود، فهذا إنسانٌ لثيمٌ، ومن قابله بالتُّكران فهو كافرٌ.

والإحسانُ في الإسلام أمرٌ جليلٌ قضى به الله في آياتٍ كثيرةٍ من كتابه
العزیز، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [التَّحَلُّ: ٩٠]،
ويقول أيضًا: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]، وما أجملَ
قول الشَّاعر:

أَحْسِنَ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ فَطالما استعبدَ الإنسانَ إِحْسَانٌ^(١)
وهذه مقدِّمةٌ مهَّدتُ بها لرسالةٍ وصلتني ممَّن وصفتُ نفسَها بأنَّها
مكلومةٌ مظلومةٌ؛ إذ قالت: أقسى ما في الحياة أن يُقابَلَ الوفاءُ بالجحود،
والإحسانُ بالإساءة، والإيثارُ بالأنايَّة.

ولقد صُدِّمْتُ فيمَنْ تَوَقَّعْتُ منه الخيرَ فتخلَّى عني، مَنْ ظننتُ أنَّه
سيكونُ الوليَّ المخلصَ البارَّ بأولادي القاصرين، ولكنَّ أتتِ الرِّياحُ بما
لا تشتهي السُّفنُ.

(١) انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشمي (٢) /
(٤٣٠).



سيدي، منذ بلغت سنَّ التَّمييز لم أعرف لأسرتنا جذراً سوى جدي، وقد كان له ابنان: أبي وعمِّي، عاشا كما التَّوعم، ولم يكن لأبي من الذُّرِّيَّة غيري، وكان لعمِّي ثلاثة أبناء.

كان أبي وعمِّي تاجرين يشتركان في أملاكهما كلُّهما، حتَّى البيت عاشا فيه سوِيَّةً، وكان أبي المشرف على العمل الَّذي لم يقتصر على أمرٍ واحدٍ. ومنذ انتقلنا إلى مدينتنا في محافظة الأنبار - إحدى محافظات العراق - اتَّسع عمل الشَّقِيقَيْن، وكَثُرَ خيرُهُما، وصدقَ اللهُ وعده لهما إذ قال على لسان نبيِّه: «أنا ثالث الشَّرِيكَيْن ما لم يَخُنْ أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجتُ من بينهما»^(١).

ولمَّا تجاوزتُ العشرين لَحَظْتُ أولاد عمِّي الثلاثة يتقَرَّبون إليَّ ويتودَّدون لي، فأدركتُ إدراكَ الفتاةِ البالغةِ أنَّ كلاً منهم يريدني زوجةً له، حتَّى كبيرهم الَّذي كان يكبرني بسبع سنواتٍ.

ومرَّت حياتنا في رغدٍ من العيش هنيئةً لا يعكِّرُ صفوها نكدٌ، يملؤها الحبُّ والتَّفاهم، إلى أن فُجِعْنَا ذاتَ يومٍ بفاجعةٍ زلزلت أركان هِناءِنا وقوَّضت سعادتنا، فاجعةٌ موتِ الأخِ والعمِّ والشَّرِيكِ في الحلوةِ والمرَّةِ.

كان الحزنُ والألمُ يعتصر قلب أبي ويقول: مات شقيقي وصديقي وشريكي، غابتِ البسمة عن وجهه.

وأظلمت قَسَمَاتُه، واشتعل رأسه شيباً، وكان يجلس في مكتب أخيه الَّذي لم يغيِّر فيه شيئاً، ويتأمَّل كرسِيَّه طويلاً، ثمَّ ينظر إلى أعلاه ويتحدَّث إليه كأنه موجودٌ، فلم يستطع نسيانه حتَّى انتقل إلى جوار ربِّه، والحقُّ أنَّ

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣٣٨٣).



وفاة أخيه كانت مصيبةً له بكلِّ ما للكلمة من معنَى، وكأنَّه عَظَمَ عليه أن يذهب أخوه ويترُكُه وحيداً.

وبعد سنةٍ من وفاة المرحوم عمِّي تقدَّم أبناؤه الثلاثة يطلبونني للزَّواج، وسرَّ أبي لهذا جدًّا؛ فقد أراد لهذه الأسرة أن تبقى متماسكةً، وهذا الأمر سيعطيني فرصةَ المفاضلةِ بينهم وهو حيٌّ، وقد قال لهم: ليتني كنت أباً لثلاث، ولكنَّها وحيدتي، ولن تكونَ لغيركم، وتعلمون أنكم عندي سواءً، وليس لي إلا أن أضع الخيار في يد صاحبتِه، فهي تعرفكم جميعاً، والقرار لها فيمن ستختار.

وجلس أبي إليَّ طويلاً على غير عادته، ليخبرني أن الزَّواج سنَّة الحياة ونصفُ الدِّين، وأنَّ أبناء عمِّي أولى بي من غيرهم، فقد طلبوني للزَّواج، ولا بُدَّ من أن أكون لأحدِهم، ثمَّ قال لي: اختاري، ففي اختيارك مستقبلُك، وتعلمين أن أكبرهم يكبرك بسبع سنوات، وأصغرهم في مثل عمرك، وكلُّهم بين يديك ينتظرون الإجابة، فقلت له: أنا طوع أمرك يا والدي، وقد جرَّبَني فلم أعصِ لك أمراً، ولا رفضتُ لك اختياراً، فاختر لي من تشاء منهم، فكلُّهم عندي سواءً، فدعا لي بالبركة والتَّوفيق، ثمَّ قال: يا ابنتي، إنَّها حياتك الخاصَّة بك، ورغبتك محقَّقةٌ.

كان يحدثني أبي وهو مُقَطَّبُ الحاجبين كعادته في أحاديثه كلِّها منذ مات أخوه، فقلتُ له: إذا كان الأمر كذلك فأذن لي أن أختار الأكبر؛ لأنَّه أكبر منِّي سنًّا، وفيه صفاتٌ أُفضِّلُه بها على أخويهِ، فيه الرِّزانة والهدوء والتَّواضع والإخلاص في العمل.

وهنا رأيت ابتسامَةً على شفطي أبي، واستبشر وجهه وقال: أحسنت الاختيارَ يا ابنتي، ولمَّا فوَّضتِ الأمر لي كدتُ أختاره.

لم أَلْحِظْ تَغْيِيرًا مِنْ وَلَدِي عَمِّي، فَكَانَ الْأَمْرُ طَبِيعِيًّا، وَتَزَوَّجْنَا وَكَانَ نِعَمَ الزَّوْجِ وَالْأَخِ وَالصَّدِيقِ؛ عَطُوفًا رَحِيمًا مُخْلِصًا، وَكَانَ نِعَمَ الْعَوْنِ لِأَبِي، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ لَا تَصْفُو الْأُسْرَةَ فَلَا بُدَّ مِنْ مَصَائِبٍ، لَا سِيَّمَا أَنَّ الْأُسْرَةَ قَدْ كَبُرَتْ.

وَبَعْدَ شَهْرٍ مِنْ زَوَاجِنَا تُوفِّي الْأَخُ الْأَصْغَرَ فِي حَادِثِ سَيَّارَةٍ، وَقَبْلَ مَرُورِ السَّنَتَيْنِ تُوفِّيَ وَالِدِي بِسَكْتَةٍ قَلْبِيَّةٍ، ثُمَّ تَزَوَّجَ الْأَخُ الْأَوْسَطُ بِنْتًا مِنَ الْعَشِيرَةِ نَفْسِهَا، كَرِيمَةَ الْخَلْقِ، جَمِيلَةَ الصُّورَةِ.

ثُمَّ اكْتَمَلَتْ سَعَادَتِي مَعَ زَوْجِي بِأَنْ رُزِقْتُ مِنْهُ ثَلَاثَةَ بَنِينَ وَبَنَاتَيْنِ، وَعَاشَ الْأَخْوَانُ فِي صَفَاءٍ وَهِنَاءٍ، وَكَانَ زَوْجِي يَأْخُذُ دَوْرَ أَبِي فِي الْعَمَلِ، وَيَأْخُذُ أَخُوهُ دَوْرَ أَبِيهِمَا.

وَإِذَا بِالْكَارِثَةِ الْكَبِيرَى تَحَلُّ، مَاتَ زَوْجِي الْحَبِيبَ الَّذِي كَانَ يَمَلَأُ بَيْتِي مَحَبَّةً وَمَوَدَّةً، مَاتَ الْأَبُ الْحَنُونَ، وَالرَّاعِي وَالصَّدِيقُ، وَتَسَلَّلَتْ يَوْمَهَا الْوَحْدَةُ إِلَيَّ.

كَنتُ أَظُنُّ أَنَّ أَخَاهُ سِيرَعِي شَوْوَنَنَا بِمَا يُرْضِي اللَّهَ؛ فَالشَّرْكَةُ مَا تَزَالُ قَائِمَةً، وَلَكِنْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَسْبَانِ حَدُوثُهُ أَنَّ الْعَمَّ تَنَكَّرَ لِأَبْنَاءِ أَخِيهِ وَأُمَّهُمْ، وَمَرَّتْ شَهْرٌ ثَلَاثَةٌ، لَا سَوَّالَ وَلَا مَصْرُوفَ، فَأَرْسَلْتُ ابْنِي الْأَكْبَرَ إِلَيْهِ لِيُخْبِرَهُ أَنَّنَا فِي حَاجَةِ الْمَالِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُ: لَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي شَيْءٌ، ثُمَّ صَفَعَ الْيَتِيمَ صَفْعَةً قَوِيَّةً أَرَدَفَهَا بِبَصْقَةٍ عَلَى وَجْهِهِ، مُؤَكِّدًا قَوْلَهُ مَرَّةً أُخْرَى: لَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي مَالٌ.

إِذْنًا، فَأَيْنَ مَالُ أَبِي شَرِيكَ أَبِيهِ؟ وَأَيْنَ مَالُ زَوْجِي شَرِيكَهِ؟ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الشَّرْكَةِ مَلِكِي، نَصْفُهَا لِي وَالنَّصْفُ الْبَاقِي لِأَوْلَادِي، بِكُلِّ هَذِهِ الْبَسَاطَةِ تَقُولُ: لَا مَالٌ لَكُمْ عِنْدِي؟!!



قلت ذلك لَمَّا عاتبته، فحاول الاعتذار والمراوغة، ثم قلت له: لِيَكُنْ بحسبانك أنها ليست صدقةً، وإن لم يكن بدُّ فحاسبني بكلِّ ما آخُذُ؛ فأنا الوصيَّة على أولادي، فأجابني مُتَوَدِّدًا: لا تتسرَّعي وانتظري إلى حين انتهاء العدة، ولي معك حديثٌ خاصٌّ، قلتُ له: أفصح، فليس بيننا أمورٌ خاصَّةٌ، ولا سرٌّ في الأمر، فقال: أتمنَّى أن تقبليني زوجًا بعد انتهاء العدة.

صدَّقني يا سيِّدي أنني كذبتُ أذني فيما سمعتُ، فقلتُ مستغرِبةً: ماذا؟! فأعاد كلماته، قلتُ: اسمح لي وأنا أصغر منك سنًّا أن أقول لك: ما كنتُ أظنُّ أن تبلغُ بك الوقاحةُ هذا المبلغ، وأنا متيقِّنةُ أنك تريد الزَّواج منِّي لتستولي على التَّركة وليس حُبًّا بي، واعلم أن لي قلبًا واحدًا دفتته مع أخيك، وإن كان فيه حُبٌّ لأحدٍ فلن يكون لغير أولادي، وإنَّ ما فعلته مع ابن أخيك لا يصدر عن كريم، بل هو فعلٌ لئيم حاقِدٍ، وهل تراني سأستبدل لئيمًا بكريم؟! أو حقوقًا بوفِّي؟! واعلم أن لك حدودًا يجب أن تقف عندها، ومن يتعدَّ الحدودَ يُلاقِ الإهانة.

وغضب صاحبنا غضبًا شديدًا، ثم وقف رافعًا صوته ليتردني قائلاً: اذهبي، ولتعلمي أنه لا شيء لك عندي، فالمال مالي ولا شريك لي فيه. وبعد انتهاء العدة بسنةٍ أشهرٍ أرسل إليَّ من تخبرني بأنه سيتنكَّر لحصَّتينا في المال إن لم أتزوَّجه.

نعم، لقد ضرب ذلك الحاقِدُ اللئيمُ بالقيم كلَّها عرضَ الحائط، وتبرَّأ منِّي وأنا ابنةُ عمِّه وزوجةُ أخيه وأمُّ أولاد أخيه، ولم يُراعِ الأيتامَ الخمسة، وهو عازمٌ على أكل مالهم ومالي.

ما زلت أعيشُ وأولادي بلا موردٍ إلَّا الَّذي أجنيه من عمل يدي، ماذا



أفعل؟ أشِر عليّ، انصحنى جزاك الله خيرًا.

الجواب:

قال المثلُّ العربيُّ: خلا لكِ الجوّ فيضي واصفري^(١).

هذا العمُّ قد ظنَّ أنّ الجوّ خلا له، وأنّه الأمر النَّاهي؛ فلا رادًّا لأمره، ولا مُبدِّلَ لحكمه، ونسيَّ أنّ يد الله فوقَّ يده وأنه للظالمين بالمرصاد يزيدهم خسرًا وبوارًا وضلالًا وتبارًا^(٢).

وكان عليكِ عندما رَجَعَ ابْنُكَ مصفوعًا مبصوقًا في وجهه أن توكّلي أمرَك إلى مُحامٍ يُنذِرُه أوَّلًا بالدَّعوى، ثمَّ يرفعها ضده، ويطلبُ إليه المحاسبة والتَّصفية.

وأنصحكِ ألاّ تدعني لطلبه، فمثلُ هذا غدارٌ لا يُؤمّن جانبُه، وعندنا مثلٌ في الكويت يقول: فلانٌ سَقَطَ أجوادٍ؛ أي: حثالةُ أسرةٍ شريفةٍ، وإنّه - كما تقولين - من عائلةٍ كريمةٍ لم يتنكّر فيها أحدٌ لأحدٍ، وما تنكّرُ هذا لأبناء أخيه الضّعاف إلاّ خِسَّةٌ وانحطاطٌ ظَهَرَ في فردٍ شَدَّ عن هذه الأسرة الكريمة.

فتمسّكي بأولادك لئلاّ تكونَ له عليهم سلطنةٌ، سواءً تزوّجك أم لا، والجبني إلى المحاكم وتُعطيكِ العدالةُ حقَّك كاملاً وبلا مماطلةٍ، ولعلّه يذلُّ - والخائن دائماً ذليلٌ - عندما يرى منك العزمَ على المطالبة بحقِّك، فيذهب للصُّلح، فإذا فعل فأطيعي الله بتفضيل الصُّلح على المرافعة؛ فالله

(١) قولهم: خلا لكِ الجوّ فيضي واصفري، يُضربُ مثلاً للرجل يُخلى بينه وبين حاجته. انظر: جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (١/٤٢٢).

(٢) التُّبار: الهلاك. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/٢٧٧).



ﷺ قال لعباده: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].



عقدة أب

كثيراً ما تكلمتُ على تربية الأولاد؛ بأنّها لا تكون بالقسوة ولا اللين ولا الإهمال، وأنّ الأولاد ذكورهم وإناثهم تختلف طبائعهم بين واحدٍ وآخر، فمنهم الغضوب ومنهم اللذي يرضى بأقلّ الأشياء، ومنهم اللين ومنهم الشّدِيد، وعلى الوالد أو المسؤول أن يكون حكيماً ليعامل كلّ واحدٍ حسب طبيعته لئلا يخسر الولد؛ فبعضهم تفيد معه القسوة، وبعضهم لا يأتي إلا باللين، ولربّما زادت القسوة شرّاً إلى شرّه، ولعلّ الأقبح من القسوة إهمال الرّاعي ولده؛ إذ قلّما نرى نجاحاً لدى الأولاد المُهمَلين.

والقسوة والحرمان لا تثمر خيراً في الأولاد أبداً؛ فمن نشأ في القسوة نشأ ذليلاً، ومن حُرِمَ الحنان والنّعمة عاش محروماً ما بقي حياً.

ودائمًا ما يطالبُ الأولادُ ببرّ آبائهم، وأذكر أنّي قلتُ مرارًا: البرُّ مقابلة إحسانٍ بإحسان، ومعروفٍ بمعروف، والله ﷻ عندما أوجب علينا البرّ بأبائنا قال: ﴿إِذَا يَبُغْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

إذن إن كان البرُّ مقابلة الإحسان بالإحسان فهل يجب على أولادٍ تركهم أبوهم دون إنفاقٍ ولا رعاية أو جعلهم وسيلةً تعذيبٍ ليظهر أمام الناس مظهر الكائن القوي، أو أهملهم فلا علمهم ولا ثقّفهم، أو حبسهم



في الظُّلمات لا يرون شمسًا ولا قمرًا ولا يخالطون بشرًا؟ أظنُّ أنَّ
الجواب: لا .

إلَّا أنَّ كثيرًا من النَّاسِ قد فهم الآية على غير هذا المعنى، فأوجب
على الأبناء البرَّ بأبائهم ولو أساءوا، إنَّني لا أنكرُ المعروف، ولا أُمْنَعُ
مقابلةَ الإساءة بالإحسان؛ إيمانًا بقوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
[المؤمنون: ٩٦]، وقوله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾
[التَّوْر: ٢٢] .

وأما أولادُ قد أساء إليهم والدهم فلا أفرض عليهم البرَّ به، إنَّه أبٌ
لئيمٌ كما وصفه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «كفى بالمرء
إثمًا أن يُضَيِّعَ من يعول»^(١)، وأيُّ لؤمٍ أشدُّ من إهمالِ أطفالٍ قاصرين
وتَرْكِهِم بلا نفقةٍ ولا غذاءٍ ولا رعايةٍ ولا عطفٍ ولا تعليمٍ .

هذا ما قدَّمت به لرسالةٍ جاءني من فتاةٍ وقَّعتها بكلمتي: مظلومةٌ
مكلومةٌ .

قالت: إنَّني فتاةٌ تركيَّةٌ الأصلِ، سوريَّةٌ المولد والجنسيَّة، من أسرةٍ
ميسورةِ الحال، حسنةِ السُّمعة، ذاتِ مركزٍ اجتماعيٍّ محترم، أعيش
وإخوتي بين أبوينَا، بعضنا في سنِّ الصِّبا، وبعضنا في سنِّ المراهقة .

لكنَّ والدنا كان نقمةً علينا، إنَّنا لا ندري أعاقلٌ هو أم مجنون؟! عندما
يكون في السُّوق تراه يبيع ويشترى كما الرِّجال الرّاشدين، وبين النَّاسِ
يعيشُ على أحسن ما يكون، يستشيرونه لحكمته ويثقون به، لولا أنَّه سريع
الغضب عندما يرى الخطأ حتَّى إن كان في غير محيط أسرته .

(١) رواه النسائي، رقم: (٩١٣١) .



إنَّه يَحِبُّنَا لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ، لَكِنْ لَا نَرَى هَذَا الْحَبَّ فِي أَعْمَالِهِ، يَحِبُّنَا
بِدَلِيلِ إِتْفَاقِهِ عَلَيْنَا بِسَخَاءٍ لَا بَخْلَ بَعْدَهُ، وَرَبِّمَا لَبَّيْ طَلِبَاتِنَا دُونَ أَنْ نَبَاشِرَهُ
بِهَا، إِنَّا جَمِيعًا مَوْقِنُونَ بِهَذَا، لَكِنَّا لَا نَرَى فِي هَذَا الْحَبِّ حِلَاوَةً، بَلْ لَا
نَشْعُرُ بِأَيِّ لَذَّةٍ.

إنَّه كَثِيرًا مَا يَجْلِسُ إِلَيْنَا يَحْدِثُنَا شَيْئًا عَنِ تَارِيخِ حَيَاتِهِ، وَإِذَا مَا أَطَالَ
الْحَدِيثَ أَنْهَاهُ بِتَوْبِيخِنَا عَلَى سَوْءِ تَصَرُّفَاتِنَا وَعَدَمِ تَقْلِيدِنَا لِأَعْمَالِهِ، فَيَقُولُ:
أَوْلَادِ آخِرِ زَمَنِ.

يَرِيدُنَا أَنْ نَعِيشَ كَمَا عَاشَ هُوَ فِي شِبَابِهِ، وَيَضْرِبُ بِاهْتِمَامَاتِ جِيلِنَا
عَرَضَ الْحَائِطِ، وَيُعْرِضُ عَنِ قَوْلِ سَيِّدِنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): «خَلِّقُوا
أَوْلَادَكُمْ بِغَيْرِ أَخْلَاقِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وُلِدُوا لِزَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِكُمْ»^(١)، يَرِيدُ لَنَا حَيَاةً
خَالِيَةً مِنَ الْمَشْكَلَاتِ، وَهَلْ فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا أَسْرَةٌ تَعِيشُ بِهَا مَشْكَلَاتٌ؟!

تَرَاهُ حِينَ يَرْفَعُ أَحَدُنَا صَوْتَهُ سَائِلًا عَنِ شَيْءٍ مَا، يَخْرُجُ مِنْ غُرْفَتِهِ أَوْ
مَكْتَبِهِ غَاضِبًا لِيُتَحَفَّنَا بِكَلَامِ جَارِحٍ مَلُؤُهُ السَّبُّ وَالشَّتْمُ وَالتَّعْنِيفُ وَالْإِهَانَةُ،
وَرَبِّمَا اسْتَمَرَّ ذَلِكَ طَوَالَ النَّهَارِ، وَقَدْ يَأْخُذُ جِزَاءً مِنَ اللَّيْلِ أَيْضًا!

وَقَدْ يَسْأَلُنَا عَنِ دُرُوسِنَا لِيَطْمَئِنَّ إِلَى مَسْتَوَانَا الْعِلْمِيِّ، وَلَعَلَّكَ تَقُولُ: إِنَّ
هَذَا شَيْءٌ طَيِّبٌ. لَكِنَّهُ إِذَا رَأَى مِنْ أَحَدِنَا تَقْصِيرًا حَدَثَتِ الْكَارِثَةُ الَّتِي تَنْزِلُ
عَلَيْنَا جَمِيعًا لَا عَلَى الْمَقْصُرِ وَحْدَهُ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّهُ سَيِّئُ الظَّنِّ لَا سِيَّمَا مَعَ
الْإِنَاثِ، تَرَاهُ يَرِاقِبُنَا مُتَلَصِّصًا، وَقَدْ يُوْهَمُنَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ
الْبَيْتِ، ثُمَّ يَعُودُ سِرًّا مِنْ بَابِ خَلْفِيٍّ لِيَتَجَسَّسَ عَلَيْنَا، يَعُدُّ حَرَكَاتِنَا وَسَكَنَاتِنَا،
ثُمَّ يَحْكِيهَا لَنَا وَكَأَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ.

(١) انظر: إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، لابن القيم الجوزية (٢/٢٦٥).



والله يشهد أننا أولادُ بررةٍ مجتهدون، نحبُّ أسرتنا ونفخر بها، ونؤدِّي واجباتنا، ونعرف مكانتنا في المجتمع ونحافظ عليها، ولا تخرج تصرفاتنا على حدود التقاليد والأعراف في محيطنا، ولم يرَ مناَّ أحدٌ تجاوزاً لحدود الأدب، وهذه صفات الكبير والصغير فينا، لكنَّ الغريب في الأمر أنَّ والدنا يعرف ذلك، بل يشهد لنا به!

سيدي، الويلُّ لنا حين يفكِّر والدنا أن يبقى في البيت، فإننا حينها سجناء نمشي على أطراف أصابعنا حفاةً لئلاَّ يصدر عن مشيتنا صوتٌ، ومن عادته في هذا اليوم أن يفتح نافذة غرفته، ويجلس في الظلِّمة فيرانا ولا نراه.

يصفنا أحياناً بقوله: شباب آخر زمن. يعيب علينا تفصيلات حياتنا كلها، أو يصفنا بشباب البكلة والموزلين، ونحمد الله ﷻ أن ليس لإخوتي بكلة، ولا فكَّر أحدنا في هذا، ولم نلبس الموزلين الذي لا يصلح في الشتاء لشدة برودته، ولا في الصيف لشدة حرارته، لا سيَّما في مثل صحراء بلدنا، ولا أعرف لِمَ يقرِّر أننا نلبس الموزلين وهو بذاته من يشتري لنا ملابسنا؟!!

أمَّا والدتنا فحدِّث عن حزنها الدائم ولا حرج، إنها مغلوبٌ على أمرها، لا تستطيع أن تغيِّر من واقعنا شيئاً، من يراها المرَّة الأولى يظنُّها مسلوبة الإرادة، ليس لها إلاَّ أن تنفَّذ أوامر ذلك الوالد المستبدِّ.

ومن ذا الذي يصدِّقنا إن وَّصفنا أبانا بهذا الوصف؟ إنه خارج البيت إنسانٌ عاقلٌ رزينٌ واعٍ مدبِّرٌ يسعى في الصُّلح بين النَّاس، فكما قلتُ: إنه رجلٌ يستشير النَّاس فينصح بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنه علينا وحدنا طاغيةٌ مستبدٌّ شرسٌ، كما يصفه المثل: لا يرحم ولا يترك للرحمة



طريقًا إلينا .

ولقد أُصِيبَ بعضُنَا بعُقْدِ نَفْسِيَّةٍ، تَحْتَاجُ عِلاجًا مِنْ أَطبَّاءِ مَخْتَصِّينَ، هَذَا مَا أَرَاهُ فِي إِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي، وَإِنِّي أَخْشَى عَلَى نَفْسِي مِنَ الْكَبْتِ الَّذِي أَعِيشُهُ، فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ نَتائِجَ الْكَبْتِ وَخِيْمَةٌ لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهَا .

بِاللَّهِ عَلَيْكَ قَلِّ لِي مَاذَا أَفْعَلُ؟ إِنِّي وَإِخْوَتِي الثَّمَانِيَّةُ نَشْعُرُ بِالْحَرَمَانِ مِنْ كُلِّ نَعِيمٍ وَسَعَادَةٍ، حَتَّى الْهَوَاءَ الَّذِي نَتَنَفَّسُهُ يَخْنُقُنَا .

بَعْضُ إِخْوَتِي الذُّكُورِ الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ وَالسَّادِسَةِ عَشْرَةَ يَفَكِّرُونَ فِي الْهَرَبِ مِنْ هَذَا السَّجْنِ، وَلَكِنِّي أَبْذِلُ جَهْدِي فِي مَوَاسَاتِهِمْ، فَهُمْ أَبْرِيَاءُ طَيِّبُونَ .

أَكْرُرُ سْؤَالَي : هَلْ مِنْ حَلٍّ؟

يَا سَيِّدِي، إِنَّ الْمَجْتَمَعَ يُوْجِبُ عَلَيْنَا طَاعَةَ الْآبَاءِ وَاحْتِرَامَهُمْ، وَعَدَّهُمُ الْمِثْلَ الْأَعْلَى فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهَلْ مِثْلُ هَذَا الْوَالِدِ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ هَذَا الْكَلَامُ؟

لَقَدْ قَرَأْتُ كَثِيرًا مِنْ كَلَامِكَ يَا سَيِّدِي، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلِكَ : إِنَّ الْآبَ النَّاجِحَ مِنْ يَحِبُّ أَنْ يَرَى فِي نَفْسِهِ الصَّدِيقَ لِأَبْنَائِهِ، وَالرَّاعِي لَهُمْ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ، يَحْكِي لَهُمُ الْأَمْثَالَ، وَيَحْلُلُ لَهُمُ الْمَشْكَالَاتِ، وَيَلْعَبُ مَعَهُمْ فِي أَمَاكِنِ التَّنَزُّهِ، وَيَسَامِرُهُمْ فِي اللَّيَالِي، وَيَذَاكِرُهُمْ دَرُوسَهُمْ إِذَا لَزِمَ الْأَمْرَ، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِمَحَبَّةٍ وَعَطْفٍ، أَمَّا نَحْنُ فَمَحْرُومُونَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ فِيمَا عَدَا الْإِنْفَاقَ بَيْسَرًا .

أَمَّا الْبَسْمَةُ فَلَا نَعْرِفُ لَهَا صِفَةً فِي وَجْهِ أَيْبِنَا، وَأَمَّا الْحَنُوتُ فَقَدْ قَرَأْنَا عَنْهُ مَرَّةً فِي أَحَدِ الْكُتُبِ، وَبَحِثْنَا عَنْهُ عَلْنَا نَجِدُهُ عِنْدَ أَيْبِنَا .

بِاللَّهِ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي فَرَّجْ عَنَّا بِحَلِّ مَشْكَالَتِنَا .



الجواب:

يستطيع القارئ أن يستشف رأيي من مقدمة كلامي، فما أكثر هؤلاء الآباء الذين يعيشون أيام النصف الأول من هذا القرن، ويرون في سجن الولد تأديباً له وثقيفاً!

ولقد ذكرت السائلة في رسالتها قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «خلقوا أولادكم بغير أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم». وأوافقها عليه، لكنني لا أريد أن يكون هذا التخلق خارجاً على حدود الدين.

أمّا الجواب للسائلة المكلمة فأرجو من القراء الكرام مساعدتي فيه، وأملي فيهم أن يكون ردّاً سريعاً شافياً.



ادعُوهم لِآبَائهم

زوجان غنيان تجاوزا سنّ الكهولة ولم يسعدا بمولود فتبنيا لقيطاً. وقبل وفاة الأب بسنتين سجّل هذا اللقيط في الدائرة الرّسميّة على أنه ابنه، ووافقت الزّوجة على هذا القرار، وطلبت منه أن يهبه كلّ ما يملك، فسجّل ذلك رسمياً؛ لأنّ هذا الطّلب قد وافق رغبته. رسمياً واجتماعياً يُنسب الولد إلى هذا الرّجل وزوجته، علماً أنّ كلّ من يعرف هذه الأسرة يعرف حقيقة هذا الولد.

السؤال:

قال الله عز وجل: ﴿ادْعُوهم لِآبَائهم﴾ [الأحزاب: ٥]، فكيف نوفق بين قرار



ذلك الرَّجُل وأمر الله ﷻ؟ وهل نأثم إذا نسبناه إلى من ادَّعى أَنَّهُ والده مخالفين بذلك أمر الله أم إِنَّ الآية الكريمة جاءت أمراً على الآباء وحدهم؟

أمينة نصر

الجواب:

هذا السُّؤال قد أُحيل إلى لجنة الفتوى بوزارة الأوقاف، وكان جوابها كما يأتي:

إِنَّ تَبْنِيَّ أَيِّ وُلْدٍ - ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى - يَعْذُّ بِاطِّلَا شَرْعًا، وَيَأْتِمُّ الْمَتَّبِنِيَّ إِذَا نَسَبَهُ لِاسْمِهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَوْلُودًا بِعَقْدٍ مُعْتَرَفٍ عَلَيْهِ شَرْعًا، أَوْ جَاءَ مِنْ وَطْءِ شَبَهَةٍ، أَوْ بِعَقْدٍ فَاسِدٍ.

وقد وصف الله ﷻ التَّبْنِيَّ بِأَنَّهُ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ لَا يَسْتَنْدِ إِلَى وَاقِعٍ شَرْعِيٍّ، وَأَنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ الْوَلَدَ لَيْسَ مِمَّنْ تَبَّنَاهُ لَا يَدْعُوهُ بِاسْمِ مَنْ تَبَّنَاهُ؛ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

على أَنَّهُ يَنْبَغِي فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ أَنْ تَعْلَمَ السَّائِلَةُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا الْوَلَدُ مِمَّنْ يُؤَلَّدُ مِثْلَهُ لِمِثْلِ مَنْ تَبَّنَاهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ نَسَبٌ مُعْرُوفٌ أَنَّهُ يَثْبِتُ نَسَبُهُ قِضَاءً وَحُكْمًا لِمَنْ تَبَّنَاهُ، أَمَّا دِيَانَةٌ فَلَا.

وعلى زوجة المتبني وأخواته وبناته أن يعاملنه كما الرجل الغريب،

ولا يختلين به، وعليهنَّ أنْ يَلْسَنَ حجابهنَّ عند حضوره؛ لأنَّه في الحقيقة أجنبيٌّ عنهنَّ، وزوجة المتبني لا يُباح لها ادِّعاء أمومته.

أمَّا رأيي في الموضوع فأقول: لا بأس على الغريب أنْ يناديه باسم مدَّعيه، أو يكتب له أو عنه أو عليه.

فمثلاً: زيدٌ تبنيَّ سعدًا، الآثم هو زيدٌ، ولو استلف منِّي سعدٌ مبلغًا من المال، فعلى مَنْ أكتب هذا المبلغ في جاري الحساب بيني وبين سعد؟ ولا يعرف إلا أن سعدًا ابن زيد، أمَّا أنا فأعرف خلاف المشهور، وهل أكون آثمًا إذا كتبت المبلغ في دفترتي على سعد بن زيد حفظًا لحقِّي؟ ولو فرضنا أن سعدًا مات فمن الذي يصدِّقني إذا قلت: إنِّي أدين سعدًا دعويَّ زيدٍ؟!

ولو كانت بيني وبين سعدٍ معاملاتٌ - ولا بدَّ للمعاملات من مكاتبات - فكيف أكتب إلى سعد والكتاب لا يصل إلا إذا قلت: إلى سعد بن زيد؛ لأنَّه عُرِفَ بهذا الاسم واشتُهرَ به؟ وهذا لو نقلت عنه.

ثمَّ لنقرأ الآية الكريمة التي أنزلها الله بلسانٍ عربيٍّ مبين: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] ثمَّ يقول: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

فبذلك نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى نهى المسلم أن يصف زوجته بأمِّه، أو أن يصف دعيَّه بابنه، فما ذنبي أنا الغريب البعيد؟! فلو وصفت زوجة فلان التي هي أكبر منِّي سنًّا بأمِّي هل أكون آثمًا؟ ولو وصفت من هي في مثل سنِّي بأختي أو ابنتي هل أكون آثمًا؟ لا شكَّ في أنَّ الجواب: لا.



ثم يأمر ذلك المدّعي أن يناديه باسم أبيه، فإن لم يعلم أباه فيصفه بالمولى، وسعد بن زيد ليس مولى لي.

إذن، لا إثم عليّ إذا دعوتُ هذا الرَّجُل بكونه ابن فلان، ولكنّ الإثم على من ادّعاه فقط؛ لأنّ الذي ادّعاه هو من سجّل بعد أن فكّر وقدر، وفعل كلّ ما يخالف الأمر الإلهيّ، وأصبح هذا الدّاعي معروفاً باسم من ادّعاه، مشهوراً به رسمياً واجتماعياً، فما ذنبي أنا؟

على كلّ حالٍ إنني أحترم رأي الجماعة؛ لأنّهم استندوا إلى وجهٍ شرعيّ، وهذا رأيي أنا وحدي^(١).



مُسْتَمَع سَائِل يَسْأَلُ

يقول: هل يجوز أن يُبنى المسجد على نحوٍ يُستفاد منه من جهاتٍ اجتماعيّةٍ عدّة، أو غير ذلك؛ كأن تُبنى قاعةٌ للمحاضرات أو لاستقبال الوفود الإسلاميّة، وتُقام مكتبةٌ تضمّ كتباً علميّةً ودينيّةً، ويُخصّص مكانٌ لصلاة النّساء، أو أن نستثمر مساحةً معيّنة لبناء دكاكينٍ ونحوها للإيجار، تعود منافعها على المسجد وعلى ما يفيد تلك الإنشاءات.

الجواب:

إنّ أوّل مسجد بُني في الإسلام مسجدُ قباء الذي ذكره الله في كتابه

(١) لا شك أن هذا الموقف الطيب من الشيخ رحمته الله يدل على حسن تصرف واحترام للآخرين.



العزیز بقوله: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾

[التوبة: ١٠٨] .

ثم بُني بعده مسجدُ المدينة، ثاني حرم في الإسلام، وكان المركزَ الدِّينِيَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ وصحابته، فكان مصلىً ومدرسةً تعلَّم فيها أطفالُ المسلمين القراءة والكتابة من بعض أسرى بدر، وخرج من هذا المسجدِ أعظمُ رجالِ الصِّدر الإسلاميِّ الأوَّل؛ كأبي بكرٍ، وعمرَ، وعثمانَ، وعليٍّ، وأبي عبيدةَ، وأبي هريرةَ، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وأبي بن كعبٍ، وغيرهم كُثُر.

وبعد غزوة الخندق نُصِبَت فيه خيمةٌ لعلاج الجرحى والمرضى المصابين في تلك الغزوة، وعُقدت فيه الألويةُ، وبُعِثت منه الوفود، فكان مصلىً ومدرسةً وجامعةً، وديواناً لتسيير أمور الحروب، ونادي مشورة، وديوان حكومة.

ومن السنَّة أن تكون مساجدنا على هذا النَّحو، كما كانت في القرون الإسلامية الأولى.

وأودُّ أن أقول للمستمعين كلَّهم: لقد فقدنا مجدَّ الإسلام يومَ أضاع المسلمون شأن المسجد وفصلوه عن شؤون الدنيا التي لم ينحها الإسلام جانباً، إنما كانت محوراً من محاور اهتماماته، فلا خيرَ في المسلمين إذا هم لم يؤلّفوا بين دينهم ودنياهم.

إنَّ دينَ الإسلام دينٌ يحثُّ على العمل؛ لئلا يكون المرءُ عالَةً على غيره، وليس هذا فحسب، بل إنَّه يثيبُ المرءَ أيضاً على كَسْبِ قوته وقوت عياله، ففي يومٍ كان النَّبِيُّ ﷺ جالساً بين أصحابه، وكأنَّه يتجهَّز لسريَّةٍ أو غزوةٍ، وإذا بشابٍّ ذي جلدٍ وقوَّةٍ بَكَرَ يسعى، فنظر إليه الصَّحابة وقال



بعضهم لبعض يريدون بكلامهم هذا أن يلفتوا إليه نظر النَّبِيِّ ﷺ: ويح هذا! لو كان شبابه وجلده في سبيل الله! فقال ﷺ: «إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صَغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبِيَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيَعْفَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخِرًا وَتَكَائُرًا فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ»^(١).

ويخبرنا أيضًا بمكانة التَّاجِرِ الْأَمِينِ فيقول: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصُّدِّيِّينَ، وَالشُّهَدَاءِ»^(٢)، وقال أيضًا: «أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ سَمَّحٌ الْبَيْعِ، سَمَّحٌ الشُّرَاءِ، سَمَّحٌ الْقَضَاءِ، سَمَّحٌ الْاِقْتِضَاءِ»^(٣).

وإنَّ تَرْبِيَةَ الْأَوْلَادِ وَحَسْنَ الْجَوَارِ وَصَلَةَ الرَّحْمِ وَمَعَاشِرَةَ الزَّوْجَةِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِنْفَاقَ عَلَيْهَا، وَابْتِسَامَ الرَّجُلِ فِي وَجْهِ أَخِيهِ وَلِيْنَ الْقَوْلِ كُلِّهَا مَكَارِمٌ أَخْلَاقٌ، وَمَنْ اجْتَهَدَ لِيَجْعَلَ أَخْلَاقَهُ حَسَنَةً فَهُوَ بِذَلِكَ يَسِيرٌ عَلَى أَوْامِرِ الْإِسْلَامِ مُتَّبِعًا قَوْلَ الْمُصْطَفَى ﷺ: «أَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا»^(٤).

فإذا كان الإسلام قد مزج بين الدِّينِ والدُّنْيَا، جاعلاً تنظيم الحياة من أُسُسِ الدِّينِ، فلماذا لا نجعل من المسجد مدرسةً وقاعةً محاضراتٍ ومكاناً لصلاة النساء؟ إذ إنَّ اجْتِمَاعَ النِّسَاءِ فِي الْمَسْجِدِ خَيْرٌ مِنْ اجْتِمَاعِهِنَّ فِي غَيْرِهِ، فَرَبَّمَا يَأْمُرُنَّ بَعْضُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَيْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

(١) رواه الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الصَّغِيرِ، رَقْمٌ: (٩٤٠).

(٢) رواه التِّرْمِذِيُّ، رَقْمٌ: (١٢٠٩).

(٣) رواه الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ، رَقْمٌ: (٧٥٤٤).

(٤) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رَقْمٌ: (٥١٧٨).



ولماذا لا يكون في المسجد منزلاً للوفود؟! أما عَلِمْنَا أَنَّ دَارَ الصُّفَّةِ كَانَتْ عَلَى جِهَةٍ مِنْ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟! كَانِ يَجْتَمِعُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، حَتَّى إِنَّهُ بَلَغَ عَدْدَهُمْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ثَمَانِينَ صَحَابِيًّا، كُلُّهُمْ ضَيْوْفُ رَسُولِ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَكَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَنَامُونَ، وَيَنْتَظِرُونَ الْفَرَجَ الَّذِي جَاءَهُمْ عَاجِلًا أَوْ آجَلًا، فَكَانُوا مِنْ مَوَاطِنِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَكَانُوا عِدَّةَ الْإِسْلَامِ وَعِتَادَهُ.

وَأَمَّا الْمَكْتَبَةُ فَهِيَ أَمْرٌ فِي غَايَةِ النَّفْعِ، فَالْإِسْلَامُ لَا يُحْرَمُ تَعَلُّمَ الْعِلْمِ أَيًّا كَانَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْعِلْمِ ضَرَرٌ فِي عَقِيدَةٍ أَوْ خَلْقٍ.

وَرَبَّمَا كَانَ تَعَلُّمُ بَعْضِ الْعُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَاجِبًا أَوْ فَرْضًا كِفَايَةً.

أَمَّا الدَّكَائِنُ فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ تُبْنَى حَوْلَ الْمَسْجِدِ لِتُسْتَثْمَرَ لِصَالِحِ الْمَسْجِدِ، وَلِصَالِحِ غَيْرِ الْمَسْجِدِ أَيْضًا مِنْ مَنَفْعَةٍ عَامَّةٍ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ وَقْفًا عَلَى الْمَسْجِدِ.

وهنا أودُّ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً: إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ يُنْشَأُ حَدِيثًا جَازَ أَنْ تُبْنَى حَوْلَهُ الدَّكَائِنُ، أَمَّا إِذَا كَانَ قَدْ أَنْشِئَ ثُمَّ هُدِمَ لِيُبْنَى مِنْ جَدِيدٍ، فَالْأَرْضُ الَّتِي كَانَتْ مَصَلِّيٍّ مِنْ قَبْلُ لَا تُحَوَّلُ لِتَكُونَ مَكَانًا آخَرَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُنْشَأَ عَلَيْهَا شَيْءٌ آخَرَ، وَأَرْضُ الْمَسْجِدِ وَهَوَاؤُهُ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، وَمَعْنَى الْهَوَاءِ فِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ مَا عَلَا الْمَسْجِدَ.

فَلَوْ فَرَضْنَا أَنْ أَرْضَ الْمَسْجِدِ كَانَتْ مَصَلِّيٍّ وَأُرِيدُ أَنْ يُسْتَثْمَرَ سَقْفُهُ بِإِنْشَاءَاتٍ عَلَيْهِ حَرَمَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَكَانَ أَنْشِئَ بَادِيٍّ ذِي بَدَأٍ مَسْجِدًا، وَعَرَفَ النَّاسُ جَمِيعًا أَنَّهُ مَسْجِدٌ.





حَلَاوَةُ الثُّوبِ رَقْعَتَهُ مَن لَوْنُهُ

كثيرٌ منَّا مصابٌ بعقدة التَّقْلِيدِ الغَرِيبِيِّ، يرى الكمالَ في كلِّ ما يأتي من أوروبَّة، تأسره حضارة أمريكا، ويهوى مظاهر التَّقَدُّمِ عندهم، يراهم متقدِّمين عنَّا مدنيًّا، وخبراتهم أوسعُ من خبراتنا، ويعتقد أنَّ كلَّ أجنبيٍّ خبيرٌ، وحتَّى إن ذهب ذاهبٌ إلى الغربِ ترانا معجبين بكلامه، منجذبين إلى تصرُّفاته وأفكاره وأفعاله، حتَّى تلك الأفعال التي تقوم بها الكائنات البشريَّة كلُّها.

وقد نذهب إلى الغربِ للاصطياف أو التَّعلُّمِ، فنعود حاملين عقدة التَّعالي والغرور، نروي ما شاهدناه كأنَّه العجائب، ونحكي القصص التي سمعناها، والتَّمثيلات التي شاهدناها في السِّينما أو المسارح.

أكتب لك هذا وقلمي يتعثَّر؛ إذ لم أجد حلًّا لمشكلة صديقي رفيق الحياة، فقرَّرتُ أن أكتبَ إليكم وكُلِّي أملٌ أن أصل إلى ما عجزت عن الحصول عليه عند غيركم.

لي صديقٌ قديمٌ منذ عهد الصِّبا، يُفرِّحني فرحه، ويحزِّني حُزُّه، تُسعِدني سعادتُه، ويُسقِّيني شقاؤه، أشعر بصدقه في صداقته، وأؤمن بأمانته في حبِّه.

وما أقربه من وَصَفِ الشَّاعرِ العَرَبِيِّ:

إِنَّ أَخَاكَ الْحَقُّ مَنْ كَانَ مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ



ومن إذا رَيْبُ الزَّمانِ صَدَّعَكَ شَتَّتَ فَيْكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ^(١)

كان يفضِّلني على نفسه في كثيرٍ من حاجاتنا المدرسيَّة يوم كُنَّا في الابتدائيَّة؛ إذ كان يعرف أنَّ أباه أيسرُ حالًا من أبي، ودامت صداقتنا حتَّى أنهينا المرحلة الثَّانويَّة ثمَّ فرَّقنا الزَّمان.

ذهبت إلى القاهرة لأواصل دراستي في كليَّتها، وذهب هو إلى أوروْبَة لدراسة الكيمياء والصَّيدلة في جامعات إنكلترا، وانقطعت الصَّلات فيما بيننا إلَّا إذا جمعتنا الطُّروف في الوطن أيَّام العطلِ الدَّراسيَّة.

وفي يوم من أيَّام أبريل سنة (١٩٧٣م) في سنَّتي الجامعيَّة الثَّالثة، استلمتُ رسالةً من أبي يخبرني أنَّ أخي داود رفيق الصُّبا قد تزوَّج أجنبيَّة.

في بادئ الأمر لم أصدِّق الخبر؛ إنِّي أعرف داود ورزانته ورجاحة عقله وترويه في الأمور، لكن لم أكذب الخبر أيضًا؛ لأنَّ داود بشرٌّ، ولعلَّه فُتِنَ بجمال من تزوَّجها وغلبته على أمره، ولم أشأ أن أحكم عليه حتَّى ألقاه، فقد أعذره، ثمَّ تصوَّرتُ نفسي مكانه، لعلِّي في موقفٍ ما أفعل ما فعله، ووجدتُني أوجسُ خيفةً من شرِّ هذا الزَّواج، وأشفق على صاحبي من تبعاتِهِ، ولكنني أخيرًا رجوتُ له السَّعادة معها.

تزوَّج أخونا داود من امرأة إنجليزيَّة، بعد أن نال الشَّهادة الجامعيَّة ثمَّ عاد إلى الوطن يصطحبها فرحًا بها وبولديه منها، وكأنَّه الملكُ المتوَّج لا يَعْْبُطُ^(٢) أحدًا على سعادة؛ فهي حتمًا دون سعادته، ولا يحسد أحدًا على

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لعبد الحميد عز الدين (١١٣/١٨).

(٢) العَبُطُ: أن يرى المَغْبُوط في حال حسنة فيتمنَّى لنفسه مثل تلك الحال الحسنة من غير أن يتمنَّى زوالها عنه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٠٥/١٩).



نعمة؛ لأنَّ كلَّ نعمةٍ دونَ نعمته .

وفرِح الأبوان لفرح ولديهما الوحيد، وأحاطا الزَّوجة بالعناية التَّامة والتَّكريم، لا سيَّما أنَّ داود قد سُلِّم مسؤوليَّةً كبيرةً في الحكومة تناسب شهادته العالِية، وابتهجها أيضًا لوجود الحفيد بينهما، فقد حُرِّمًا من عطر الطَّفولة الزَّمن الطَّويل .

وذاث يوم دعاني إلى منزله ليريني عِظَم السَّعادة التي يعيشها، والحقُّ أنَّني لم أطمئنُّ إلى ما رأيتُ، فقد شاهدت امرأةً عابسةً الوجه، متكبرةً مغرورة، تحاول أن تظهر أمامي متعالِيةً على زوجها وأبويه، لم أكن مخدوعًا بما رأيتُ، وقد قلت في نفسي: حماك الله يا داود من عواقب خطئك .

وفي يوم من أيَّام رمضان الموافق آب سنة (١٩٧٨م) عاد داود من عمله فرأى أبويه في حالة أسى وحزنٍ وبكاء، فاستقبلاه وكأنتهما يعزِّيانه بمصابٍ أليمٍ قائلين له: ذهبت زوجتك مصطحبةً الولدين، ثمَّ اتَّصلت بنا وهي في المطار تخبرنا بعودتها والولدين إلى بلدها لندن .

دخل الرَّجل غرفته في حالةٍ بين التَّكذيب والتَّصديق، فوجد رسالةً من زوجته تقول فيها: إنَّني لا أستطيع العيش في بلدكم بين وحوشٍ لا يعرفون كيف يلبسون، ولا كيف يأكلون، ولا سيَّما أبويك اللَّذين يأكلان باليد كما تأكل القردة، ويربَّيان ولدينا تربية الوحوش؛ يُجلِّسانهما على الأرض ويأكلان باليد، ولا أرضى لهما أن يتربَّيا هذه التَّربية. ثمَّ تختمها: إذا أردت أن تنعم بقربي وبحبِّ ولديك فهلمَّ واتبعني إلى بريطانيا .

سيِّدي، صديقي لا يريد ذلك، إنَّه سعيدٌ جدًّا بخدمة وطنه، وقُرْبِهِ من والديه، ووجود طفليه بين الجدِّ والجدَّة، فقد كانا قرَّة عينٍ لهما .



إنَّه يريد لهما أن يتربَّيا على حبِّ الوطن والدين؛ ليكونا ذخرًا له،
ولقد حاول معها كثيرًا لتعود مع الولدين فلم يفلح.

فهل نجد لديكم حلًّا لهذه المشكلة؛ لنستردَّ الطَّفلين ونحفظَ العجوزين
من الهلاك إن لم يعودا؟

الجواب:

يقول المثل الكويتي: ما باليد حيلةٌ، ويقول المثل العربي: سبق
السيف العذل^(١)، ولا ينفع الندم الآن؛ فقد نفذ القضاء.

ولم تكن قارورتك أوَّلَ قارورةٍ كُسِرَت، إنَّها قواريرٌ تُكسِرُ كلَّ يومٍ على
رؤوسٍ لا تفكّر في المستقبل.

أيُّها الشَّباب: الزَّواج ليس متعةً فحسب؛ إنَّ لكلِّ زوجٍ ثمرةً، يجب
أن تفكّرَ بها قبل أن تجعل المتعةَ غايتك الأولى.

الزَّوجة الأجنبية تخالفك في أكثر الأمور، أهمُّها الجنسيَّة والدين
والوطن والعادات والتقاليد، فإن وافقتك في بعضها فلن توافقتك في
كلِّها.

والحبُّ - مهما عَظُمَ -، مصيره إلى زوالٍ إن لم تؤيِّده أمورٌ محوريَّةٌ
في حياة الزوجين.

إنَّ الدين والعادات والوطنية لا تشيخ، لكنَّ زوجة صديقك قد شاخ
حبُّها له فتحولت وجهته للولدين، ولو كان حبُّها شابًّا لضحت بكلِّ شيء

(١) من أمثالهم: سبق السيف العذل، ويضرب لما قد فات. انظر: تاج العروس،
للزبيدي (٤٥٩/٢٩).



في سبيله .

هذه الأجنبية تشعر أنّها دخيلةٌ بين شيخين عربيين مسلمين هما أمك وأبوك، شاركاها حبّ ولديها، وتخشى أن تخسرها متى كُبرا وعرفا أصلهما ودينهما .

إنّ صديقك قد خسِر ولديه ولن يظفر بهما أبداً وإن ماتت الأمّ، فالقضاء لن يكون معه؛ لأنّ أحكام البلاد العربيّة لا تُنفذ هناك، والقضاء سيكون مع الأمّ .

وعندما يكبر الولدان فلن يكون مرّدهما إلى الأب؛ لأنّهما سيشبان مسيحيين ولن يقبلوا به أباً؛ فلا عار إن رفضا والدهما الحقيقيّ .

على كلّ حالٍ هذا رأيي، وأقول لكلّ من تسرّع فتزوَّج أجنبيّةً عنه في دينه ووطنه: قد ينفع الإقناع مع زوجة هذا الشابّ، لكن بعد قبوله الشُّروط كلّها مهما كانت قاسيةً، ولعلّ أوّل شرط سيُطرح: أن تبعد من أبويك وتقاليديك وربّما من دينك .

والله الهادي .



لا رهبانية في الإسلام

كثيراً ما نسمع هذه الجملة: لا رهبانية في الإسلام .

فهل هي حديث نبويٌّ أو قدسيٌّ، أم كلمةٌ حكميّة، أم أثرٌ من آثار الصّالحين؟



أرجو منكم الإفادة مع ذكر المعنى المقصود من هذه الكلمة.

الجواب:

الجملة التي سأل السائل عنها لم أعر عليها في فهارس الأحاديث، ولا أدري أهى حديث نبوي أم لا؟! ولكنها شاعت على ألسنة الناس بأنها حديث، على أن معناها صحيح قد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده» إذ قال الرسول ﷺ لعثمان بن مظعون: «يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا، إنما لك في أسوة»^(١)، وما ورد أيضاً في الحديث الذي رواه الدارمي في «سننه» قوله ﷺ: «إني لم أوامر بالرهبانية»^(٢).

إن الإسلام دين وسط يوازن بين الماديات والروحانيات، فلا يفرض عبادة على المسلم تعذب جسمه وتذله وتحرمه من المتع جميعها، وتجمد ما أودع الله فيه من حواس بشرية وقوى بدنية، وكذلك لا تطلق له العنان لينطلق مع شهواته، فيحطم بذلك القيم، وينشر الفساد.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧]، وقال أيضاً: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [التحل: ١١٤]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال أيضاً: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٥٨٩٢).

(٢) رواه الدارمي في السنن، رقم: (٢٢١٥).



وصفات التَّقْوَى والْوَرَع والزُّهْد ليست حرماناً كما يظنُّها بعض النَّاسِ،
إِنَّمَا هِيَ ابْتِعَادٌ مِنَ الْحَرَامِ واجْتِنَابُ النَّوَهِىِ وَالْمُنْكَرَاتِ .

والتَّقَشُّفُ^(١) ليس من الإسلام كما يتوهَّم كثيرٌ من النَّاسِ، فقد وردنا
عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ
مِنْ كِبَرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً،
قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ^(٢)، وَغَمَطُ^(٣)
النَّاسِ»^(٤).

ولقد افترى على الله كذباً من قال: إِنَّ الْإِسْلَامَ حَرْمَانٌ مِنْ نَعْمِ اللَّهِ .
لَا! إِنَّ الْإِسْلَامَ يَأْمُرُ بِالنِّظَافَةِ وَيَجْعَلُهَا مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامُ جَمَالٌ وَاللَّهُ
يَحِبُّ الْجَمَالَ، إِنَّهُ طَهُورٌ وَالطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامُ إِنْسَانِيَّةٌ وَاللَّهُ
يَقُولُ: ﴿لَا يُكْفِرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وَالْإِسْلَامُ مَحَبَّةٌ
وَاحْتِرَامٌ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ
يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ»^(٥)، وَالْإِسْلَامُ تَعَاوُنٌ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى
الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، وَالْإِسْلَامُ تَضَامُنٌ وَكُلُّكُمْ قَرَأٌ: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا
بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣]، وَالْإِسْلَامُ لَا يَفْصِلُ الْحَيَاةَ عَنِ الْأَخْلَاقِ؛ إِذْ

(١) يقصد بالتقشف هنا: ألا يكون المرء نظيفاً، وألا يعتني بجسمه أو ثوبه .

(٢) بطر الحق: هو أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده وعبادته باطلاً . انظر: النّهاية
في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/١٣٥).

(٣) الغمط: الاستهانة والاستحقار . انظر: النّهاية في غريب الحديث والأثر،
لابن الأثير (٣/٣٨٧).

(٤) رواه مسلم، رقم: (٩١).

(٥) رواه الترمذي، رقم: (٢٣٩٠)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

قال رسول هذا الإسلام: «لا إيمان لمن لا أمانة له»^(١).

والشريعة الإسلامية لا تهتمُّ بالمجتمع دون الفرد، ولا بالفرد دون المجتمع، فالفرد جزءٌ من المجتمع، والمجتمع لا يكتمل إلا بالفرد، ولا رجحان لكفةٍ على أخرى، ويمثّل لهذا قول النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢).

والإسلام لا يأمر إلا بالخير والمحبة والسعي لما ينفع الناس، قال تعالى: «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ» [النساء: ١١٤].

والمسلمون جماعةٌ يحبُّ بعضهم بعضاً، والنبي ﷺ يقول: «المؤمنُ مألُفٌ، ولا خيرَ فيمن لا يألف ولا يؤلف»^(٣)، فقد عدَّ عليه أفضل الصلاة والسلام من صفات المؤمن أنه لا يحسد، ولا يطعن، ولا يلعن، ولا يرده الشُّخ عن معروفٍ يبغيه، وأنه يخالط الناس ويتحدّث إليهم ليتعلّم ويستفيد من خبراتهم.

إنَّ الإسلام قد مزج بين الدِّين والدُّنيا جاعلاً إعمار الدُّنيا بالخير والسَّلام والإحسان من الدِّين، فلم يصرف المسلم إلى الناحية الرُّوحية؛ لئلا يفقد قوّته التي تصلُّه بالحياة، ولم يصرفه إلى الدُّنيا؛ لئلا يغرق في ملذّاتها وتنقطع صلّته بدينه قال تعالى: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ

(١) رواه أحمد، رقم: (١٣٢٠٠).

(٢) رواه مسلم، رقم: (٦٦).

(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٢٨٤٠).



الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسِكْ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» [الفَصَص: ٧٧]، ويفسّر قوله تعالى حديثُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ، وَلَا تُبْغِضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا سَفْرًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى، فاعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ أَبَدًا، واحذر حذرَ امْرِئٍ يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ غَدًا»^(١)، وقد شاع هذا المعنى على ألسنة النَّاسِ؛ إذ يقولون: اعمل لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، واعمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا.

وَلْيَعْلَمِ السَّائِلُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مَصَانِعٌ فِي الْإِسْلَامِ وَلَهَا حَرَمَتُهَا، وَلَا مَلَائِكَةَ مَعَ رَهْبَانِيَّةٍ، وَلِلْمَالِكِ حَرِيَّةَ التَّصَرُّفِ بِهَا فِي حُدُودِ الرُّشْدِ، وَهَذَا مَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِهِ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: «فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» [النِّسَاء: ٦]؛ لِأَنَّ لِلْمَالِ حَرَمَتَهُ فَلَا يُبَدَّرُ، وَالْمَسْرُفُ مُهَانٌ لِدُنْيَاكَ؛ إِذَا الْمُسْلِمُ مَكْرَمٌ لَا يُبَدَّرُ وَلَا يَسْرِفُ؛ قَالَ تَعَالَى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا» [النِّسَاء: ٥].

وَحَرِيَّةَ الْإِنْسَانِ مُحْتَرَمَةٌ فِي حُدُودِ الشَّرِيعَةِ، فَالْإِسَاءَةُ إِلَى الشَّرِيعَةِ إِسَاءَةٌ إِلَى الْمَجْتَمَعِ، وَمَنْ لَا يُكْرَمُ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمُ^(٢).

وَالْإِسْلَامُ يَأْمُرُ الْمُسْلِمَ أَنْ يَعِيشَ مُتَوَازِنًا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، أُمُورِ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»^(٣).

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٤٧٤٤).

(٢) اقتباس من قول زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ يَغْتَرِبُ يَحْسَبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ وَمَنْ لَا يَكْرَمُ نَفْسَهُ لَا يَكْرَمُ

انظر: جمهرة أشعار العرب، للقرشي (١/١٧٤).

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٢٤١٣)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.



والله سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده تعذيب أجسادهم، وهلاك أنفسهم في العبادة، وحرمانها ممَّا أباحه لها؛ يقول تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة: ١٩٥]، فمن أين للرهبانية أن تجد طريقاً إلى دين هذه أوامره، وهذه نواهيها؟! وعلى هذه الحال يجب أن يعيش المسلمون.

وإنَّ خير ما يُختتم به قول النَّبِيِّ ﷺ في رواية البخاريِّ ومسلم عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ ثَلَاثَةَ رَهْطٍ^(١) جَاءُوا إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوبُهَا - أَي: وَجَدُوهَا بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ قَلِيلَةً - فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا»، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قَلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمَ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمَ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢)، فالزَّوْجُ عِبَادَةٌ إِذَا قَصِدَ الْمَتَزَوِّجُ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ وَغَضَّ الْبَصَرَ وَسَتَرَ النَّفْسَ، وَالتَّجَارَةُ عِبَادَةٌ؛ إِذَا أَحْسَنَ الْإِنْسَانُ الْمَعَامَلَةَ، وَالْعَمَلُ الْمُتَّقِنُ عِبَادَةٌ إِذْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقَنَهُ»^(٣)، وَقَالَ ﷺ: «إِنْ

(١) الرَّهْطُ: مَا دُونَ الْعَشْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَمَا فِيهِمْ امْرَأَةٌ، انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١٢/١٩).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٠٣٦)، ومسلم، رقم: (١٤٠١).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٩٢٩).



كان خرج يسعى على أبويه أو على ولده صغاراً أو على نفسه ليعفها فهو في سبيل الله^(١).

أخي المسلم، إنَّ الله سبحانه وتعالى إذا أنعم على عبده فإنه يحبُّ أن يرى أثر هذه النعمة عليه، لا أن يُرى النَّاسَ غير ذلك؛ أنه مسكينٌ لا حيلة له ولا طاقة، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً، فَإِنَّ اللهُ يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ»^(٢)، ويحبُّ أن يشاهد النَّاسَ أثرَ هذه النِّعمِ بالأقوال والأفعال.

أيها المسلم، هذا هو دينك، فهنيئاً لك بدينٍ جَمَعَ الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ بدينٍ لا يجردك من دنياك في سبيل آخرتك، ولا من آخرتك في سبيل دنياك.



حُبُّ مُصْطَنَعٍ وَضَمِيرٌ نَائِمٌ

سيدي المحترم، أرجو أن تقرأ رسالتي بلا ملل؛ لأنها طويلة.

ولدت في القاهرة من أبٍ مصريٍّ وأمٍّ صينيَّةٍ من مدينة كاشغر، لا تعجب يا سيدي؛ فالزَّوْجُ نصيب، وبعد ولادتي بعامين انتحرت أمِّي مُتَّبِعَةً عَادَةَ الصِّينِيَّاتِ اللَّائِي يَفْشَلْنَ فِي الْحَبِّ، ولعلي أذكر أنني رأيتها على المشرحة^(٣).

(١) رواه الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ، رَقْم (٢٨٢).

(٢) رواه أحمد، رَقْم: (١٩٩٣٤).

(٣) مَشْرَحَةٌ: ج مشارح، وهي منضدةٌ نُهَيَّاٌ لِلتَّشْرِيحِ، وَغُرْفَةٌ كَبِيرَةٌ تُعَدُّ لِتَشْرِيحِ الْأَجْسَامِ =



تزوَّج أبي بعد ذلك، وعشت مع زوجته كما يعيش ولد الزَّوج مع زوجة أبيه، فكان من يراني يظنُّني غريبةً عن البلاد؛ فأنا صورة طبق الأصل عن أمِّي الصَّيْنِيَّةِ، وسامني^(١) أبي وزوجته سوء العذاب والإهانة، وعشت حياة المرارة والضَّرب والاستعباد، ولا تعجب، فذاك شأن المرأة إذا كانت زوجةً أبٍ، حتَّى هربتُ من منزل أبي في الخامسة عشرة من عمري.

هل تصدِّق - يا سيِّدي - أنَّ أبي اقتلع خصلة شعرٍ معَ جلدها من رأسي تاركًا لها أثرًا بيِّنًا؟! وكانت عيني هدفه الدَّائم عند تعذيبي، وكأنَّه يريد لي العمى، ولكنَّ الله سلَّم.

ذهبت إلى صديقتي في مكانٍ بعيدٍ من الحيِّ الذي يسكنه أبي، وهناك حصلت على شهادة الثَّانويَّة العامَّة، ولا تعجب، فقد كنتُ - رغم العذاب كلِّه الذي لقيته - من الخمسة الأوائل دائماً، فالله - يا سيِّدي كريمٌ لا يظلم عبده إذا علم منه حسن النِّيَّة، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٢).

في السَّابعة عشرة من عمري تزوَّجت رجلاً غنيًّا، تعمل شقيقته في التَّمثيل، ثمَّ دخلت بيتهم فوجدتهم غارقين في الرَّذائل، الزَّوج والأُمَّ والأخوات لا يأبهون لرذيلةٍ، ولا يأنفون من فعل المنكرات، وحاولوا استجراري إليهم، لكنني هربت واحتميت بالسلطات طالبة الطَّلاق،

= بعد موتها. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١١٨٣/٢).
 (١) أصل السَّوْم: الدَّهاب في ابتغاء الشَّيء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَدَابِ﴾. انظر: تاج العروس، الزَّبيدي (٤٢٩/٣٢).
 (٢) رواه البخاري، رقم: (١).



فحصل ما أردتُ، وكان الطَّلَاق بعد اليوم العشرين من زواجنا، وبقيت أجوب الشَّوارع لا مأوى لي حتَّى وجدتُ وظيفةً في فندقٍ صغيرٍ آكل وأنا فقط، ولقد كرهت الزَّواج وكنت أخافُه، وعشتُ عامينِ أعمل في هذا الفندق الصَّغير، تعلَّمتُ في هذه المدَّة اللُّغة الفرنسيَّة والإنجليزيَّة، وكتبت في المجلَّات والصحف باسم مستعار؛ لأنِّي كنت أبيع ما أكتبه لأجني بعضَ الأموال، إلى أن تعرَّفتُ شخصًا عربيًّا أعطاني يومًا بعض المال منحةً لأعمل في الفندق، فرفضتها، وبعد أسبوعٍ جاءني بكتاب وقال: إنِّي علمت أنك تحتاجين إليه، فقبلته منه هديَّةً، ثمَّ بعد ذلك تقدَّم إليَّ خاطبًا فقبلته وتزوَّجنا.

نعم يا سيدي، لا تعجب من زواجي به، وقد كان طالبًا جامعياً يدرس الأدب الإنجليزي، وكنت أسهر معه نتذاكر دروسه، وأساعده، فقد كنت أتقن اللُّغة الإنجليزيَّة.

نسيت أن أذكر لكم أن هذا الرَّجُلَ حين تزوَّجني على كتاب الله وسنة رسوله اشترط عليَّ ألا أخبر أحدًا بزواجي منه، لماذا؟ لا أدري.

ولم تكن حياتي هنيئةً، فقد كنت أذهب للعمل في بعض الشَّرَكَات عندما يكون في الجامعة صباحًا، وعملت نادلةً في المطاعم أيضًا، وكنت أساعده في كسب قوتنا حتَّى في أيَّام حملي؛ لأنِّي كنت أجني أكثر ممَّا يجني، وما طلبت إليه شيئًا قطُّ مدَّة عيشنا في القاهرة.

وبعد أن نال الشَّهادة الجامعيَّة حاول الهرب وتركني في القاهرة وابنه وحيدين، لكنَّ والده علم بزواجنا فلم يسمح له أن يسافر، ولمَّا لم يستطع فعل ما أراد أخذ ينتقم منِّي ويعذبني ويهينني.

سافرت معه إلى بلاد عدَّة في الجزيرة العربيَّة بصفة خادمة، وعملت



في وظائف عدّة، وكنت أضع بين يديه كلّ ما أكتسب، كان يهجرني ويضربني دومًا، وما كرهته يومًا، ولم يأتِ على قلبي كرههُ.

وفي يوم ما تذكّرني أبي حين علم أنّي زوجةٌ وأمُّ أطفالٍ وربّة بيتٍ وعاملة، وأراد أن يستميلني إليه، فرفضتُ، الآن وأنا أمُّ لأولادٍ أكبرهم شابٌّ في الخامسة عشر من عمره؟! الآن وأنا زوجةٌ معلقةٌ مهجورةٌ مريضةٌ بداءٍ في رأسي إثر ضربه؟!!

لقد تحكّمتُ بي الأقدار لكنني ما عرفتُ اليأس ولو مرّةً واحدةً، وقست عليّ الأيام وما جَبُنْتُ أمامها قطُّ.

إنني اليومَ بلغتُ الخامسة والثلاثين من عمري، أحبُّ الله وأحبُّ ديني، وأحافظ على طَهْرِي وَعِفَّتِي، وأعمل بِمُرْتَبٍ لا بأس به، وزوجي يعيش في البلد الذي أعيش فيه، لكنني ما فكّرتُ يومًا أن أسأله نفقةً لي أو لأولادي، وأعلم أنه يكرهني، ولم يتزوجني حبًّا بي، ولكن حبًّا بالكسب الذي كنت أجنيه من عملي وقلمي، وكان في حاجةٍ إليه يومها.

أرى أن الطّلاق هو الحلُّ الوحيد الذي سيريحني، لكن أخشى على أولادي من أيِّ مكروه قد يصيبهم، فهم أولادي وإخوتي وأصدقائي، تحمّلتُ هذا الكرة كلّها من أجلهم، وعملت من أجلهم وحافظت على عِفَّتِي من أجلهم.

هل أطلب الطّلاق؟

أرشدني إلى الطّريق الصّحيح، جزاك الله خيرًا.

الجواب:

وماذا عَسَاي أن أجيب فتاةً تزوّجت شابًّا قاسمته الحياة حلّوها ومرّها،



فلم يكن منه إلا أن أهانها بعد أن أكرمته، وأذلّها بعد أن أعزّته، ناسياً أنّها شاركته ربيع العمر بأجمل أيّامه كيف ينسى تلك اللّحظات التي كانت تساعده فيها ليؤدّي أموره كلّها، كبيرها وصغيرها؟! حتّى دروسه لم تتركه فيها وحيداً، إنّما سهّلت عليه ما صعّبَ منها إلى أن تخرّج في جامعته، ذلكت له الطّريق وأعانته على نوائب الحياة، ولم تكن يوماً عبئاً عليه، إنّما كانت سنداً وأمناً وأماناً.

كيف له أن ينسى هذا كلّهُ؟! إنّ من الوفاء أن يتذكّر الزّوجان في آخر رحلة العمر أيّام الصّبا والشّباب.

أمّا جوابي للسّئلة فأقول فيه: أنتِ الآن أمٌّ لخمسة أولاد، فإنّ أمنت على أولادك من عقْدٍ نفسيّةٍ تؤثّر فيهم نتيجةً بعدهم من أبيهم، فلا شيء يمنعك من الطّلاق.

ولكن هل تربحين الدّعوى؟ لا أدري! فهذا بيد القاضي الذي يسمع كلا الخصمين، وأقوامها حجّةٌ أربحهما للدّعوى.

توكّلي على الله، وتأكّدي من أنّك عازمةٌ على ذلك، واختبري أولادك قبل أن تُقدّمي على أمرٍ لستِ تعلمين عواقبه ولا نتيجته.



أمكريمة أم مدلّة!

سيّدي، قل لي برّبك، سألت كثيرين وكثيرات عن الحجاب: أمدمّةٌ هو أم محمّدةٌ؟ سيّئةٌ أم حسنةٌ؟ فلم يجبني أحدٌ بما يشفي علّتي.

بدأت قصّتي يوم رأيت وأنا في حرم جامعتي كتاباً مع إحدى زميلاتي

جميل الغلاف، فسألتها أن تُرنيه، فقالت: إنه القرآن أهدانيه أبي، والأعجب من غلافه الجميل الخطُّ الَّذِي كتب به، إنه الخطُّ المغربي.

فأخذت المصحف من يدها، وفتحته فلم أستطع أن أقرأ أيَّ شيءٍ منه، فطلبت إلى زميلتي أن تقرأ لي، فقالت: هذا الخطُّ واحدٌ من الخطوط العربيَّة، ولا ضيرَ إن لم تستطعي قراءته، فأنا أيضًا لم أكن أحسنُ ذلك في البداية، ولكن بعد التمرين سهَّلَ عليَّ الأمر.

وقرأت عليَّ قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّكَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فلم أدرِ أسمعُ هذه الآية من قبلُ أم لا؟ إنه أمرٌ من الله سبحانه وتعالى لنساء نبيِّه ونساء المؤمنين أيضًا.

سألتها بالله أن تعيد ما قرأت، فأعادت، ثم رفعت رأسها، لترى دموعي المنهمرة، فقالت مستغربةً: ما بكِ؟!!

قلت: بالله عليكِ هل سمعتِ هذه الآية من قبلُ؟

قالت: سمعتها وقرأتها كثيرًا.

سألتها: هل فهمت معناها؟

قالت: إنها آيةٌ تأمر بالحجاب، قلتُ: فقط؟! قالت: نعم؛ فقط.

قلت: وما معنى ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]؟

فسكتت رفيقتي وهي تحدِّق بملامي كلها وأنا أكرِّرُ السؤال.

قالت: ما معناها؟ أَلها معنى خفيٌّ؟

قلت: ليس كذلك، فهي كلماتٌ عربيَّةٌ واضحة، إنها تعني أن



المحجبة محترمة لا يستطيع أحد أن يشير إليها بسوء.

قالت: هو ذاك.

قلت: إنني أريد هذا، وغداً لن أكون على حالي اليوم، سأكون - إن شاء الله - من نساء المؤمنين.

قالت رفيقتي: وأنا كذلك إن شاء الله.

جئنا في اليوم التالي إلى الجامعة لنصبح أضحوكةً لزملائنا وزميلاتنا، لم يوجَّهوا لنا أي كلمة، ولكن رأينا الغمز واللمز.

والأمر المفجع أكثر أن كثيراً من أفراد الأسرتين أسمعونا كلمات السخرية والاستهزاء.

سيدي، إنها والله توبة نصوح إن شاء الله.

إنني وزميلتي اتفقنا أن نقرأ من كتاب الله كل يوم ربعاً معيناً، نتذاكر معانيه صباح كل يوم في الجامعة، وأن نؤدّي ما علينا من واجبات نحو ربنا حسب الاستطاعة، وأن نتفق في ديننا مع صديقة لنا طلبنا مساعدتها في ذلك.

السؤال:

أطال الله بقاءك: هل الحجاب مذمة أو عار؟ هل هو ذنب أو طاعة؟ وهل من المعقول أن يصبح المستجيب لنداء القرآن أضحوكة؟

وأخيراً: لا حول ولا قوة إلا بالله.

الجواب:

هو مكرمة لا مدلة.



لقد كثرَ الحديثُ عنِ الحجابِ، وازداد اللُّغْطُ فيه، وانقسم النَّاسُ بين مؤيِّدٍ ومعارضٍ، وهذا إن دَلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على أهميَّةِ هذا الأمرِ اجتماعيًّا عند بعض النَّاسِ، ودينيًّا عند بعضهم الآخر.

الحجابُ ليس اجتهادًا بشريًّا، إنَّما أمرٌ إلهيٌّ نزلت به آياتٌ تُتلى ما دامت السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ، ومن هنا وجب أن يقتصرَ نقاشنا على الحكمة من وجوبه، لا أن نناقش أمرَ تركه أو التَّفَيُّدَ به.

ومن المقدمات المهمَّة لهذا الحديث معرفةُ مكانةِ المرأةِ في هذا المجتمع الَّذي بُنيَ على أكتاف جنسين فقط لا ثالث لهما.

إنَّ المرأةَ نصفُ المجتمعِ، بل هي النِّصف الَّذي إذا صَلَحَ صَلَحَ المجتمعُ كُلُّه، وإذا فَسَدَ فَسَدَ المجتمعُ كُلُّه.

المرأةُ هي الأُمُّ والزَّوْجَةُ والأختُ والعمَّةُ والخالَةُ؛ الأُمُّ قاعدةُ الأسرةِ وأساسُها، والزَّوْجَةُ السَّكْنُ والرَّعايَةُ، والمجتمعُ بناءٌ لِبِنْتِهِ الأولى والأساسيَّةُ الأسرةُ، ولا بناءٌ يقومُ إلَّا على قواعدٍ وأسسٍ متينةٍ، ولا راحةٌ للمرءِ إلَّا في سكنٍ تحفُّهُ الرَّعايَةُ ويسوده الأمانُ والاطمئنانُ، فمن هنا جعل الإسلامُ الجَنَّةَ تحت أقدام الأمَّهات؛ فقال الرَّسولُ ﷺ لِجَاهِمَةَ: «هل لك من أمٍّ؟» قال: نعم، قال: «فألزمها فإنَّ الجَنَّةَ عند رجليها»^(١).

وجعل أعظمَ نِعَمِ اللهِ على المؤمنِ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ، فقال الرَّسولُ ﷺ: «ما استفاد المؤمنُ بعد تقوى الله خيرًا له من زوجةٍ صالحَةٍ، إنَّ أمرَها أطاعته، وإنَّ نظرَ إليها سرَّتُهُ، وإنَّ أقسمَ عليها أبرَّتته، وإنَّ غاب

(١) رواه النَّسَائِيُّ، رقم: (٤٢٩٧).



عنها نصحته في نفسها وماله»^(١).

ومع هذه المكانة العظيمة التي أولاها الإسلام للمرأة لم يُرد لها أيضاً إلا أن تكون عزيزة عفيفة مصونة محترمة؛ فهي جنس رقيق ضعيف يحتاج بشدة إلى الحماية والرعاية، فلا بد من أن تكون في مأمن من الأشرار مهابةً مُحَصَّنَةً، فوكل الإسلام الرجل بهذه المهمة، جاعلاً منه الحارس القوي الذي لا يمكن مع وجوده اختراق حُرْمَاتِ المرأة للنيل منها.

ورغم أن حال المرأة في الإسلام على هذا النحو من الاحترام لكن لا يخلو الأمر من متبجح ينادي بتحرر المرأة الذي لا يتحقق إلا بنزع الحجاب، مدعياً أنه أوّل من حطّم التّقاليد والأفكار البالية، وأوّل من قاوم الرّجعيّة والتّخلّف، وأوّل أوّل وأوّل؛ إلى ما لا نهاية له من الكلمات الطّنانة والرّنانة التي لا تدلّ إلا على محاربة الدّين والتّقاليد، وكره الصّون والعفاف.

ونسي هؤلاء أن الحجاب أمر ديني، وكلّ الأمور يباح النّقاش فيها إلا أمور الدّين؛ لأنّ النّقاش في أوامر الدّين شكّ، ومن شكّ في أوامر دينه فلا دين له.

وتسرّني انتشار ظاهرة التّمسك بالدّين بين شبابنا وشوابنا في هذه السّنين الأخيرة، إيماناً منهم بأنّ الدّين خلاصنا الوحيد، وملاذنا الأوّل والأخير، وتصديقاً بأنّ الدّين رحمة، وفي تنفيذ أوامره حُبور العيش ورغده.

ومع انتشار هذه الظّاهرة رأينا فتياتنا شابّات في ربيع العمر يرتدين

(١) رواه ابن ماجه. رقم: (١٨٥٧).



الحجاب، ساترين أنفسهن من العيون الفاسقة، طائعين أمر الله خائفين من غضبه، يملأ الإيمان سرائرهن، وتبدو سيماهن على وجوههن.

وفي معرض هذا الحديث وددت أن أقدم للقارئ الكريم بعض آراء من عارضوا الحجاب وانتقدوه؛ إذ قال بعضهم: إن العفة أو عدمها خلق في المرأة سرٌّ من أسرارها، واللباس لا يغيّر في هذا الخلق شيئاً، والمسألة ليست مسألة مظهر طيبٍ وسرٍّ خبيث، وإن العفيفة عفيفة مهما لبست، والخبيثة خبيثة كيفما اكتست.

إنني لا أنكر هذا، إنما أقول: إن ضمير الإنسان كونه مغلق لا يمكن التفوذ إليه، ولكننا سمعنا المثل القائل: المال السائب عرضةٌ للسرقة، فالمرأة حين تتبرج تلفت أنظار الرجال إليها، سواء كانت في الطريق أم المعمل أم الدائرة أم السوق، فيطمع فيها كلُّ راءٍ؛ لينال منها نظرةً أو لمسة، وقد تتمتع مرةً وأخرى وثالثة، ولكن لا ننسى أن كثرة الدقّ تفكّ اللحام.

ثم ما الذي يعيق المرأة أن ترتدي الثياب الساترة فتكون محترمةً في هيبتها، مصونةً في سترها؟! أليس هذا أولى بالأمر الرؤوف والزوجة الحنون، وأقرب إلى الصّون وكمال الخلق؟!!

وقالوا: إن الفتاة تتحجّب لتصطاد زوجاً أو تخفي عيباً، أو ليقال عنها: مسلمةٌ مؤمنةٌ. وأراهم يتحدثون عنها وإنها لمغالطةٌ؛ فالسّرائر لا يعلمها إلا الله.

وأما قولهم: إن الفتاة تلجأ إلى الحجاب لتصطاد به زوجاً فهذه شهادةٌ منهم بفضل الحجاب، لا طعن فيه؛ وهذا يعني أن الرجل يحترم من ترتدي الحجاب، ويفضّلها زوجةً على من سواها من الخليعات السّافرات.



وقولهم: إِنَّ الفتاة تخفي بالحجاب عيباً عندها. إِنَّ صَحَّ فهو شهادة أيضاً بفضل الحجاب، فالعيب الَّذي يخفيه الحجابُ خيرٌ من العيب الَّذي تخفيه مساحيق التَّجميل وأصباغه، فالمرأة دوماً تحبُّ أَنْ تبدو بمظهرٍ جميلٍ محبوبٍ لا ينفِّرُ النَّاطِرَ إليها، وتبتعد من كلِّ ما يسيء إلى سمعتها.

وقالوا: إِنَّ النَّظَرَ إلى الجميل شيءٌ جميل، والمرأة زهرة يجب أَنْ تظهر بأبهى شكلٍ وأجمل لون، وألَّا تبخلَ بحُسنها على النَّاطرين، وأقول: إِنَّ الزَّهْرَةَ سريعةُ الذُّبول والتَّلف، والمرأة ليست كذلك، إِنَّمَا هي جوهرةٌ غاليةُ الثَّمَنِ عندما تُصان، عزيزةٌ عندما تُكُنُّ^(١)، مرغوبٌ فيها عندما تُحفظ، ولم نرَ يوماً من الأيَّام جوهرةً حقيقيَّةً معروضةً على الرُّفوف، بل هو المزيَّف من الرُّجاج والأصداف، إِنَّ الجوهرة المكنونة غاليةُ الثَّمَنِ، والذرَّة المصونة عزيزةُ المنال.

وأودُّ أَنْ أسأل أنصار السُّفور: هل كرم السُّفور المرأة؟ هل رفع من مكانتها في أعين الرِّجال، أم أصبحت مبتذلةً؟ سؤال يجيب عنه واقع المرأة في زمننا هذا.

الحجاب أمرٌ دينيٌّ، أوجبه الله على نساء المؤمنين؛ تكريمًا ورفعًا لقدرهنَّ، وكما قالت صاحبة الرِّسالة: ليفرض احترامهنَّ على الرِّجال فلا يطمعون بهنَّ، وليزيد من تكريم المسلمة جعل الرِّجل مسؤولاً عنها قائماً بأمرها، قوامة رعاية وإنفاق لا قوامة استبداد وتسلُّط، فالزَّوج ينفق على زوجته وإن كانت ذا غنى، ويحرِّم عليه مالها، فإنَّ أخذ منه شيئاً وجب عليه أَنْ يرده إليها، وإلَّا كان دينيًّا.

(١) الكِنُّ: وقاء كلِّ شيءٍ وستره. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٦٣/٣٦).

إِنَّ التَّقْلِيدَ الْأَعْمَى قَدْ كَشَفَ سِتْرَ الْمَرْأَةِ، وَمَنْ كَشَفَ سِتْرَهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ،
يقول الشاعرُ صالحُ بنُ عبدِ القدُّوسِ:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَاءُوه^(١)

تبرَّجتِ المرأةُ وخرجتِ تمشي في الأسواقِ وتسمع كلماتِ الغزل
وتطرب لها، وربَّما داعبتُ من يداعبها بلا حياءٍ، أو ردَّتْ بالمثل.

إنَّهم لم يجعلوا من المرأة راعيةَ بيتٍ ولا أمَّ طفلٍ ولا سكنَ زوجٍ،
إنَّما جعلوها معرضًا متنقلاً للأزياءِ ومساحيقِ التَّجميلِ والإعلاناتِ في
الأسواقِ وعلى الجدرانِ وفي قنواتِ التِّلْفَازِ.

ليت شعري إلى أيِّ متهاةٍ من متهاتِ الخلاعةِ، أو إلى أيِّ غيابةٍ من
غياباتها سيقذف هؤلاءُ بالمرأة أمَّ المجتمعِ وسكَّنِ الرَّجُلِ وراعيةَ البيتِ
والأمانةِ على الولد؟! فالويل لتلك الأمِّ والزَّوجةِ من رحمةِ هؤلاءِ
المزيفين.

وأخيرًا:

أشكر للسَّائلة تنبيهي إلى معنى الآية الكريمة الذي كنت غافلاً عنه،
وكان أقرب للحقيقة ممَّا قرأناه في التَّفاسيرِ قديمها وحديثها؛ إذ فسَّرت
قول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنُ﴾ [الأحراب: ٥٩] بأنَّ الحجاب
وسيلة تضيئي على المرأة الاحترام والوقار والهيبة، فلا يجروء أحدٌ من
الرجال على التَّعَرُّضِ لها.



(١) انظر: أدب الدُّنيا والدِّين، لأبي الحسن بن حبيب المصري (١/٢٤٧).



هَلْ لِلسُّحْرِ تَأْثِيرٌ؟

قرأنا عن السُّحْرِ كثيرًا، وأَظَلَعْنَا على بعض كتبه، وقيل: إِنَّ اليَهُودَ سَحَرُوا النَّبِيَّ ﷺ، وَإِنَّ سَحَرَهُمْ أَثَّرَ فِيهِ، فَمَا قَوْلُكُمْ فِيمَا قَرَأْنَا وَمَا قِيلَ فِي هَذَا وَذَلِكَ؟

الجواب:

السُّحْرُ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ تَعْنِي خِدَاعٌ إِحْدَى الْحَوَاسِّ فَمَثَلًا:

سَحَرْتَهُ بِجَمَالِهَا؛ أَي: سَلَبْتَ لُبَّهُ فَلَا يَفَكِّرُ إِلَّا بِهَا، وَسَحَرَ عَيْنِيهِ؛ أَي: حَيَّلَ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ فِي الْوَاقِعِ، كَمَا فَعَلَ سَحْرَةُ فِرْعَوْنَ بِمُوسَى، إِذْ حَيَّلُوا إِلَيْهِ مِنْ سَحَرِهِمْ أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّتَهُمْ تَسْعَى، وَسَحَرَهُ بِكَلَامِهِ أَوْ بِيَانِهِ: اسْتَمَالَهُ أَوْ أَفْسَدَهُ، وَالرَّسُولُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسَحْرًا»^(١).

وَالسُّحْرُ بَيْنَ الشُّعُوبِ الْبَدَائِيَّةِ شَائِعٌ مُنْتَشِرٌ، وَيَدَّعِي السَّاحِرُ أَنَّ تَأْثِيرَهَا يَحْصُلُ بِمُعِينٍ مِنَ الْكُوَاكِبِ أَوْ الشَّيَاطِينِ أَوْ الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ الْخَبِيثَةِ، وَكُلُّهُ شَعُودَةٌ وَخَيَالَاتٌ لَا تَتَوَثَّرُ إِلَّا فِي الْوَهْمِ^(٢).

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَقَفَ مَوْقِفَ الْعَدَاءِ مِنَ السُّحْرِ وَالسَّحْرَةِ، وَأَخْبَرَنَا فِي آيَاتِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ وَهْمٌ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا بُصُرُونَ﴾ [الطُّور: ١٥]، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ

(١) رواه البخاري، رقم: (٥١٤٦).

(٢) للشيخ النوري رَحِمَهُ اللهُ رَأْيٌ خَاصٌّ فِي مَوْضُوعِ السُّحْرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ بِأَنَّ السُّحْرَ لَا يُؤَثِّرُ إِلَّا فِي الْوَهْمِ. بَيْنَمَا قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِأَنَّ السُّحْرَ يُؤَثِّرُ فِي عَقْلِ الْمَسْحُورِ وَبَدَنِهِ.

السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَى ﴿طه: ٦٩﴾، ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس: ٨١] إلى آخر هذه الآيات التي لا تؤيد مفعول السحر ولا صدق فاعله، وإنما هو خداعٌ حسٌّ بمعونة أرواح خبيثة.

أمَّا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوْتَ وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فيزعم اليهود أن سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان ساحرًا، فسحر الجن والشياطين ليعملوا له ما يشاء من محاريب وتمائيل، وسحر الريح بسحره تجري رخاء حيث أصاب.

وقد نفَتِ الآية الكريمة عن سليمان ذلك، مثبتة أن السحر كفرٌ، وأن سليمان لم يكفر ولكن الشياطين هم الذين كفروا إذ يعلمون الناس السحر، وأنكرت أيضًا نزول السحر على الملكين، مبيِّنة أنه لا يضرُّ أحدًا إلا بإذن الله، ومن اشترى السحر واستعان به فليس له في الآخرة من خلاق^(١).

أمَّا قصَّة هاروت وماروت فقد نفَتِ الآية الكريمة نزول شيءٍ عليهما، وأخبرت أنهما فتنةٌ، وأنهما يحذران من السحر إذ هو فتنةٌ وكفر.

وعلوم الطبِّعة أنكرت السحر، ونفَتَه أصلًا ومادَّةً، فلا يؤيِّده دليلٌ عقليٌّ ولا نظريٌّ، والإسلام أيضًا أنكره؛ لأنَّ السَّاحِرَ يستعين بغير الله،

(١) الخلاق: النَّصيب من الخير. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢٩/١٠).



ولا عونٌ لمن استعان بغير الله .

فإذا كان السُّحر وهمًّا، ولا يؤثّر إلّا بإعانة الأرواح الخبيثة أو الكواكب، فكيف يباح لنا أن نعتقد بصحّة رواية تأثير السُّحر بالرَّسول ﷺ؟ وهل للشَّياطين قدرةٌ على رسول الله ﷺ وهو الموعود من ربّه بالعصمة والكفاية؟ هل كان لسحر اليهود تأثيرٌ بالمصطفى ﷺ؟

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَعصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ثمّ قال في كتابه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشُّعْرَاء: ١٩٥] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، ونحن نعتقد أنّ السَّاحِرَ كافرٌ مشعوذٌ، يستعين بالشَّياطين وأرواحهم الخبيثة الشريرة ليؤثّر سحره في المسحور.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رجلٌ من بني زُرَيْقٍ يُقال له: لَبِيدُ بن الأَعصم، حتّى كان رسول الله ﷺ يُخَيَّلُ إليه أنّه كان يفعل الشَّيءَ وما فعله»^(١)، ونؤكّد هذا الاعتقاد بأنّ هذه الرواية جاءت في كتاب كذا وكتاب كذا!^(٢)

أستغفرُكَ اللَّهُمَّ رَبِّي، وأعوذُ بِكَ من بصيرةٍ عمياءَ، وعلمٍ لا ينفع .

إنّ القرآن وعد نبيّه محمّداً ﷺ أن يعصمه من أذى النَّاسِ، أفلا يعصمه من أذى الشَّياطين وأعوانهم؟! ومن هم هؤلاء الأعوان؟! إنَّهم الَّذِينَ

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٥٧٦٣)، ومسلمٌ، رقم (٢١٨٩).

(٢) هذا رأي الشيخ كما أسلفت قبل قليل، وأما حادثة سحره ﷺ فقد وردت في صحيحي البخاري ومسلم كما في الحاشية السابقة.

لُعِنُوا عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ .

إِنَّهَا لَدَيْسِيَّةٌ زَرَعَهَا الْيَهُودُ فِيمَا زَرَعُوا مِنْ إِسْرَائِيلِيَّاتٍ ، فَدَسَّتِ السُّمَّ بِالْعَسَلِ ، وَزَرَعَتِ الشُّوكَ فِي الْوَرُودِ ، فَأَدَّى ذَلِكَ أَنْ أَقْرَبَ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ حَسَنِ نَبِيَّةٍ مِنْهُمْ بَرَايَتَهَا ، وَوَثَقُوا بِرَوَاتِهَا ، فَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا حَقَائِقُ .

وَمِنْ هَذِهِ السُّمُومِ وَالْأَشْوَاكِ حِكَايَةُ تَأْثِيرِ سِحْرِ الْيَهُودِيِّ لَبِيدِ بْنِ الْأَعْصَمِ بِشَخْصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١) .

وَأَقُولُ : لَقَدْ فَعَلَ الْحَاقِدُونَ هَذَا لِانْتِقَاصِ قَدْرِ نَبِيِّنَا الْمَعْصُومِ مِنْ أَدَى الْمُسْتَهْزِئِينَ وَمِنَ النَّاسِ ، مُحَاوَلِينَ التَّشْكِيكَ فِي هَذِهِ الْعِصْمَةِ بِمَا كَتَبَهُ مُؤَرِّخُونَا ، وَاتَّخَذُوا مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَيْضًا تَكْذِيبًا لِلْأَيْتِينَ الْكَرِيمَتَيْنِ ، وَجَعَلُوا مِنْ هَذَا التَّكْذِيبِ وَسِيلَةً لِإِفْسَادِ الْعَقِيدَةِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَهْزُوزِينَ ، كُلٌّ حَسَبَ اسْتِعْدَادِهِ .

إِنَّا نَحْمَدُ اللَّهَ ﷻ بِأَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ نَفْهَمُهُ وَنَعْبُدُهُ ، وَقَرَأْنَا فِيهِ أَنَّهُ أَنْزَلَ إِلَى قَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَيَفْقَهُونَ وَيَتَدَبَّرُونَ وَيَعْلَمُونَ وَيَعْمَلُونَ ، وَخَاطَبَ قُرَّاءَهُ قَائِلًا : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤)

[مَحْمَدٌ : ٢٤] .

فَقَلِيلًا مِنَ التَّدَبُّرِ - أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ - لِنَقِفِ أَمَامَ الْحَاقِدِينَ عَلَى نَبِيِّنَا وَكِتَابِنَا وَإِسْلَامِنَا ، وَنَكْشِفِ غَشَّهْمُ ، وَنَتَّخِذَ الْحَيْطَةَ وَالْحَذَرَ مِنْ كَيْدِهِمْ .

إِنَّ أَعْدَاءَ دِينِنَا قَدْ خَسَرُوا فِي مُحَارَبَتِنَا بِالسَّلَاحِ ، فَأَخَذُوا يَحَارِبُونَنَا بِالْعَقِيدَةِ وَالذُّسِّ فِي دِينِنَا وَالتَّشْكِيكِ بِهِ ، لِهَذَا أَرَى - وَكُلُّكُمْ يَرَى - أَنَّ

(١) سبق تخريجه .



بحاجة إلى تنقية الإسلام من كل ما لصق به من شُبّه، وبحاجة إلى دعوة سليمة، فالإسلام سلامةٌ عقلٍ وسلامٌ مجتمع^(١).



لَا تَقْبَحْ

إِنِّي - يا سيّدي - طالبةٌ في المدرسة، أشكو إليك جهل أمّي وبذاءة لسانها، فكلّما غضبت منّي وسَمّنتني بالقبح، والحقيقة أنّي لستُ كذلك، كلامها يدفعني إلى أن أنظر في المرأة وأوهم نفسي أنّي قبيحة، كلامها عقّدي وجعل الدنيا سوداء في عيني.

ولئن كنتُ قبيحةً فعلاً فما ذنبي؟!!

أرجوك، هل لي من ذنبٍ في كوني خُلقتُ قبيحةً؟ وهل لمن هم أقبح مني ذنبٌ أيضاً؟

ميساء محمّد مساعد

الجواب:

أذكر أنّي كتبتُ من زمنٍ قريبٍ عن الطّفولة؛ وإنّ كلّ مَنْ عاش طفولةً هادئةً هانئةً بين أبويه شبَّ مسروراً مطمئنّ البال، ومن عاش طفولةً تملؤها المشكلاتُ شبَّ خائفاً قلقاً مضطرباً أودى به هذا الاضطراب إلى الإخفاق في حياته مستقبلاً، ولا فرق في ذلك بين أنثى وذكر؛ إذ ليس في

(١) لا ننسى أنّ حديث سحر النبي ﷺ رواه البخاري وغيره من أصحاب الكتب الصحاح وللعلماء فيه كلام نفيس فليراجع.



الكائناتِ كُلِّها من يملك إحساسًا عاليًا ومشاعرَ صادقةً تتأثر من أبسط الكلمات سوى الطِّفلِ .

ولكلِّ أمرٍ آثاره ونتائجُه، فمتى تظهر نتائج طفولة الإنسان؟

إنَّها سرعان ما تظهر عندما يشبُّ المرء عن الطُّوق، فإمَّا أن يكون شابًّا لطيفًا بشوشًا أخلاقه هيئَةٌ لَيِّنَةٌ، وإمَّا أن يكون معقدًا قلقًا يعيش حياته كُلِّها في المشكلات، وربَّما اختلقها من حيث يعلم أو لا يعلم، أقول ذلك عن الأغليبيَّة، ولا أحكم على كلِّ الأطفال، فالمُسْتَنُونَ كَثُرُ .

والولدُ هبةٌ من الله ونعمة، ابنًا كان أو بنتًا، والنُّعمة يجب أن تشكر، ولكن كيف؟

كيف يكون الشُّكر إن لم نرَع هذه النُّعمة؟! فالرَّعاية لا تكون بالضُّرب أو الإهانة أو القمع أو الشَّتْم، إنَّما بالفضيلة والمحبة التي تُزْرَع في قلب الابنِ أو البنتِ، وكيف بالأب أو الأمُّ أن يصفوا ولدهما بالغباء أو الضَّعف أو القُبْح؟! أو أن يشعراه أنَّ فلانًا أو فلانةً من النَّاس أحسن منه؟!

إنَّ مثل هذه التَّصرُّفات تؤثِّر في الطِّفل أيَّما تأثير، فتستهدف عقله الباطن متحوِّلةً إلى علَّةٍ، فيشعر بالتَّقصُّص أمام غيره، وقد يذلُّ ويستوحش .

وشتان بين طفلٍ عاش في جوٍّ من الألفة والسَّكينة يسمع كلمات الحبِّ دون تفريطٍ يؤثِّر سلبيًّا في شخصيَّته، وبين طفلٍ عاش محرومًا من هذا كلِّه حتَّى في أبسط أشكاله .

ولا مبالغة إن قلتُ: هذا شقيٌّ وذاك سعيدٌ، هذا ينام قَلْبًا وذاك ينام هادئًا، فإلى الآباء والأمَّهات أوجِّه هذه الكلمة المختصرة، وأقول للنَّاس



جميعاً ناصحاً:

اختاروا لأولادكم طريق السَّلامة، فالأولاد ذكورهم وإنائهم نعمة،
قال الشاعر:

إذا كنت في نعمة فارعها فإنَّ الخطايا تزيل النعم^(١)
وأىُّ خطيئة أكبر من إذلال طفلٍ بريءٍ رفع الله عنه قلمَ الحساب، وأىُّ
خسارةٍ أعظم من خسارة الولد إذا عاش معقداً ذليلاً مُهاناً مستوحشاً.
لا أظنُّ أن هناك نقمةً أشدَّ من هذه النَّقمة، أسأل الله أن يسلك بنا
سبيل الرَّشاد فهو الهادي إليه.



الإسلام رمز العقل

قرأت قوله تعالى: ﴿يُذِبرُ الأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
لَأَمَنَّ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩]، فالمشركون لم يهتدوا؛
لأنَّ الله أراد لهم ذلك.

وإذا كان الأمرُ على هذه الحال فما الفائدة من الثَّواب والعقاب
والجنَّة والنَّار، وما دامت إرادته تعالى قضت على هذا بالإيمان وعلى
ذلك بالشُّرك فَلِمَ الحسابُ؟

هيفاء عبد الرَّحمن

(١) انظر: أدب الدُّنيا والدِّين، لأبي الحسن البصري (١/٢٤٥).



الجواب:

سؤال مغالطةٍ وتشكيك، وأعوذ بالله من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وأعوذ بالله من الشَّكِّ والشَّرْكِ، ومن شرِّ الوسواس الخَنَّاسِ.

ولتعلم السَّائِلة وغيرُها أنَّ الله خلق الخلق أصنافاً كثيرةً جدًّا، قد تتجاوز الآلاف، كالملائكة الَّذِينَ أَخْبَرْنَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ووصفهم بأنَّهم خلقٌ لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزاوجون، وأنَّهم يسبِّحون اللَّيْلَ والنَّهَارَ لا يفترون.

ومن هذه الأصناف أيضًا الحيوانات والطُّيور والحشرات، ولكلِّ منها هُداة، فمتى جاع سعى يطلب الغذاء، ومتى عطش بحث عن الماء، ومتى احتاج إلى الرَّاحَةِ أوى يحتضن صغاره، فإذا اكتفوا تركهم فلا يحنُّ إليهم ولا يسعى عليهم.

أمَّا الإنسان فهو صنفٌ آخرٌ لا يشبهها البتَّة، إنَّما يخالفها في عاداتها كلِّها؛ لأنَّه مخلوقٌ مفضَّلٌ بالعقل على سائر المخلوقات الأخرى، حتَّى إنه سحَّر بعقله الوحوشَ السَّائرةَ والجوارحَ الطَّائرةَ، إلَّا أنَّه بابتعاده من منهج الله سبحانه وتعالى ينقلُ نفسه إلى مصافِّ الحيوانات، بل يصبح أكثر ضلالًا واعوجاجًا منها، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ لأنَّ للحيوان فطرةً تهديه في الحياة، أمَّا الإنسان فلا بدَّ له أن يتعلَّم أبسط الأمور، حتَّى الأكل والشُّرب والمشى والجلوس، انظروا كيف تربَّى الأمُّ أطفالها!

ولكنَّ الإنسان بعلمه سحَّر البحر فغاص في أعماقه، وسحَّر الأجواء فاخترقها وغلب الطُّيور، والإنسان يدَّخر من غناه لفقره، ومن يسره لعسره، ومن شبابه لعجزه، إنَّه بيني ليسكن، ويسعى ليسعد، ويجدُّ لينال



حُظوةَ المجد ويرقى إلى مكانة العزِّ، وهو يفرح ويحزن، ويبكي ويضحك، ويحقد ويعفو، ويعادي ويصادق، فهل الحيوان كالإنسان؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هُود: ١١٨]، ولكنَّ الله أراد للإنسان أن يكون على غير ذلك.

ولعلَّ سؤالاً يطرح نفسه على كلِّ عاقلٍ يتأمَّل ويتفكَّر في علَّة وجوده في الحياة، وعلَّة أنَّ الله وهبَه هذا العقل وميَّزه به على كائنات البسيطة جمعاء، إنَّها خلافة الله للإنسان على وجه الخصوص، خلافةٌ ميَّزته بالعقل ليعمِّر الأرضَ بالخير والسَّلام.

ثمَّ إنَّه تعالى أبانَ له طريق الخير والشرِّ، أمراً إيَّاه أن يستعمل ذاك العقل ليسلك الطَّريق التي يختارها بحريَّة مطلقة، لا إكراه فيها ولا إرغام، فهناك النُّور والظُّلمة، والعلم والجهل، والضَّلال والهدى، والخير والشرِّ، والسَّلامة والهلاك، فاختر ما تريد واسلك الطَّريق التي تبغي، وبعد كلِّ هذا جنةٌ ونارٌ، رحمةٌ وعذاب، فاختر لنفسك، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البند: ١٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمَّد: ١٧]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشُّورى: ٢٠].

والله ﷻ لا يُكرِه أحداً على الإيمان ولا على الكفر، ولكنه أخبرنا أنَّ النَّاسَ لم يزالوا مختلفين إلا من رحم ربِّك، ولذلك خلقهم.

والإنسان يشعر بالمسؤولية، فإذا أخطأ ندم، وإذا أحسن اطمأنَّ، وقدیمًا سمعنا القول المأثور: الإنسان مخيَّر فيما يعلم ومسيَّر فيما لا يعلم، فمن عرف السيِّئة والحسنة فهو محاسبٌ على السيِّئة إذا فعلها، ومن عرف الخير والشرِّ كان مسؤولاً عن الشرِّ إذا فعله، أمَّا ما لا علم فيه؛



الْيَتِيمَةُ

يقول العلماء: إِنَّ أَسْمَى عَاطِفَةٍ فِي الْوُجُودِ عَاطِفَةُ الْأُمُومَةِ. وَآمَنَ بِهَذَا الْقَوْلِ وَصَدَّقَهُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ فَقَالُوا: إِنَّ الْأُمُومَةَ عِنْدَ أَنْثَى الْحَيَوَانَ تَنْتَهِي بِاشْتِدَادِ الصَّغِيرِ وَعِنْدَ سَعْيِهِ وَرَاءَ رِزْقِهِ، لَكِنَّ أُمُومَةَ أَنْثَى آدَمَ تَبْقَى تَنْظُرُ بَعِينَ الرَّحْمَةِ إِلَى وَلَدِهَا وَإِنْ بَلَغَ مَا بَلَغَ مِنَ السِّنِّ، أَيْدِ هَذَا الْقَوْلِ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ﷺ عِنْدَمَا أَمَرَ مَعَاوِيَةَ بْنَ جَاهِمَةَ أَنْ يَعُودَ إِلَى أُمِّهِ لِيَبْرِّهَا، مُقَدِّمًا هَذَا عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَائِلًا لَهُ: «وَيَحْكُ، الزَّمِ رِجْلَهَا، فَثَمَّ الْجَنَّةُ»^(١).

ولمسننا من تجارِينا في الحياة حبَّ الوالد لأولاده، فالوالد يشقى ليسعد أولاده، ويسهرُ ليناوما، وما أصدق قولَ الشَّاعر العربيِّ أُمِّةَ بن أبي الصَّلْتِ عِنْدَمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِ كُلِّ وَالِدٍ قَائِلًا:

غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وَعِلْتُكَ يَافِعًا تَعَلُّ بِمَا أَحْنُو عَلَيْكَ وَتَنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ ضَامَتِكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبْتِ لَسَقْمِكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمْلَمَلُ
كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طَرَقْتُ بِهِ دُونِي فَعَيْنِي تَهْمَلُ^(٢)

فالوالد هو وحده الَّذِي يَرْجُو لَوْلَدَهُ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى مِنْهُ مَقَامًا، وَأَكْبَرَ مَنْصَبًا، وَأَوْسَعَ عِلْمًا، وَأَعَزَّ جَاهًا، وَأَكْثَرَ مَالًا، وَأَفْضَلَ نَجَاحًا؛ لِأَنَّ الْأَبُوَّةَ وَالْأُمُومَةَ طَبِيعَةٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مَلَأَهَا خَالِقُهَا بِالْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَالتَّضْحِيحَةِ.

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٧٨١).

(٢) انظر: ديوان الحماسة، لأبي علي الأصفهاني (١/٥٣٥).



لكن يا سيدي، رأيتُ وعجبتُ كلَّ العجب لمبالاةٍ متجذرةٍ في أبوين إلى حدٍّ جعلَ الأمَّ لا تحنُّ إلى طفلتها ولا ترعاها، ولا تتألم لما يجري لها، وجعل الأب يتَّصف بالأنانيَّة حاملاً في صدره قلباً لو شبَّهناه بالحجارة لظلمناها، وبراءة الطُّفولة بين هذا وتلك حائرة، إنَّها لا تفهم ولكنَّها تشعر وتتألم.

سيدي، أكتب لكم قصَّة طفلةٍ عايشتُ حوادثها أسبوعاً أو أكثر، وأحبتُ أن تطلِّعوا عليها؛ لتروا حدَّ الضلال الذي وصل إليه النَّاس ففقدوا به رحمة الأمومة والأبوة، ونعمة شعور الاعتزاز بهما.

كانت في روضة الأطفال طفلةً بين المئات، جاوزتِ الرَّابعة من عمرها بشهرين أو ثلاثة، تأتي بها سيَّارة في الصُّباح تليقها عند باب المدرسة، فتدخلُ هذه الطُّفلة لتختلط مع الأطفال إلى انتهاء الدَّوام، ثم تأتي سيَّارة لتأخذها، ربَّما لم تكن هناك سيَّارة معيَّنة تأتي كلَّ يوم، قد تكون لأحد الوالدين أو للجيران أو غيرهم، فالبنت لا خوفَ عليها كما يعتقد وليُّها الذي لم يعرف أهوَ أبوها، أم أمُّها، أم أخوها، أم مدَّع، إنَّه لا شأنَ لنا بذلك.

وذات يوم انتهى دوام الرُّوضة ولم يأت أحدٌ ليأخذ البنت، ومن عادة وزارة التَّربية في الكويت أن تبقى إحدى مُدرِّسات الرِّياض مناوبةً كلَّ يومٍ من أيَّام الدَّوام المدرسيِّ؛ لتتفقَّد من يتأخَّر من الأطفال ساعةً أو أكثرٍ وتنتبه إليه حتَّى يحضرَ مَنْ يأخُذه، وهذا نادر الحصول، وإن حصل فلا يطول.

ولكنَّ هذه البنت لم يحضر أحدٌ ليأخذها ولم يسألوا عنها حتَّى غربت شمس ذاك اليوم، فقالت المُدرِّسة للحارس: سأخذ البنت معي إلى



المنزل، وإن سأل عنها أحدٌ فاتَّصل بي .

ولم تكن هذه المُدرِّسةُ زوجةً ولا أمًّا، لكن فتحت قلبها للطفلة تلك الليلة آخذةً دور أمِّها، تطعمها وتسقيها وتغيِّر لها ثيابها، حتَّى إنَّها جعلتها شريكةً لها في الفراش، وفي الصُّباح أطعمتها، ومشَّطت لها شعرها، وألبستها ثيابها النَّظيفة، ثمَّ جاءت بها إلى المدرسة، وأخبرت النَّاظرةَ بما حصل، فاتَّصلتُ بوالد البنت الذي قال: إنَّ أمَّ البنتِ مطلقَّةٌ، وقد تنازلتُ لها عن الحضانة، فأنا لستُ مسؤولاً عنها ما دامت الحضانة بيدها، فسألوا عن الأمِّ الحاضنة فلم يُعرف لها مكانٌ إلاَّ بعد ثلاثة أيَّامٍ كانت البنتُ الصَّغيرة تعود فيها إلى بيت المُدرِّسةِ صاحبةِ الدَّور في المراقبة، في اليوم الثالث علمتُ إدارةَ المدرسة أنَّ الأمَّ ذهبت مع رفيقاتها في رحلةٍ ترفيهيةٍ خارج البلاد مدَّةَ أسبوعٍ .

كانتِ الطُّفلةُ ترى في المُدرِّسةِ أمًّا تعوِّضها عن أمِّها التي لا يُعرفُ مكانها، وجاءتِ الأمُّ الحاضنة بعد أسبوعٍ، لِتُسأل: كيف طاب لك أن تتركي ابنتك كلَّ هذه المدَّة؟! فأجابت: إنِّي سلَّمْتُها لعمَّتها وأخبرتها أنَّني مسافرةٌ مدَّةَ أسبوعٍ، والبنتُ أمانةٌ عندها، فأنكرتِ العمَّةُ ذلك وحلفت يميناً بالله إنَّها لم ترَ أمَّ البنتِ منذ أشهرٍ وقالت: دخلتُ علينا البنتُ منذ أيَّامٍ، وطلبتُ إليَّ أن أوصلها إلى المدرسة ولم تقلُّ أكثر من ذلك، فأخذتها ولا علم لي بسفرها، فقالتِ الأمُّ دونما خجلٍ أو حياءٍ: إنِّي أخبرتِ البنتَ أن تُعلِّمَ عمَّتها بسفري، وأنَّها ستقيم عندها أسبوعاً كاملاً أو أكثر، والغريب في الأمر أنَّ الأمَّ لم تتأثَّر بما حصل للبنتِ، وأنَّ الأبَّ لم يبال بما جرى لها، ولم يهتمَّ بتشرُّدها من مكانٍ إلى مكانٍ، تأكل صدقةً، وتُرعى بإحسانٍ، وكأنَّ شيئاً لم يكن .

إنَّها حقيقةٌ جَرَتْ فعلاً في إحدى رياض الأطفال، ويحدث كثيرٌ من أمثالها للمطلقات أمهاتهم، فكم من ابنٍ في سنِّ المراهقة ضاع لتفرُّق والديه! أبٌ لا يرعى، وأمٌّ لا تقوى، وكم من بنتٍ ضلَّت فسقطت والذئاب بالمرصاد تفترس كلَّ من ليس له راعٍ.

وقديماً سمعنا أنَّ اليتيمَ من فقد أبويه أو أحدهما، لكنَّ اليتيمَ اليوم هو مَنْ فَرَّقَ الطَّلَاقُ بين أبويه وهما حيَّان.

سيِّدي، إنِّي أعلم أنَّ العواطف النَّبيلةَ هبةٌ من الله لمن يختارُ من عباده، بها يفضِّلُ الإنسانُ على غيره من المخلوقات.

سيِّدي، كتبت لك ما جرى أمامي في إحدى رياض الأطفال، وليست هذه أوَّلُ مأساةٍ ولا آخرها، فقد تجري كلَّ عام بل كلَّ يوم عشرات الحوادث من مثل هذه، فأرجو أن توجَّه كلمةً ذكرى إلى كلِّ والدٍ ووالدةٍ علَّهم يشعرون بفداحة الإهمال.

الولدُ ليس لوالديه فقط، إنَّه للوطن وشعبه ودينه، فإذا صلَحَ فللوطن من صلاحه أكبرُ نصيب، وللوالدان الذَّكرُ بالخير والرحمةُ والدُّعاء، وإذا سقط فعلى الوطن من سقوطه حظُّ كبير، وعلى والديه اللَّعنةُ والسُّتمُ وسوءُ الذَّكرِ والمنقلب، فالنَّاجح عند نجاح الولد والداه، والخاسر عند خسرانه والداه.

سيِّدي، أرجو من فضلك كلمةً؛ فإنِّي أعرف أنَّ كلمتك مقروءةٌ ومسموعةٌ.

الجواب:

النَّصيحة قالتها صاحبة الرِّسالة وأفادت، وخير الكلام ما قلَّ ودلَّ،



وإني أهيب بالأهل آباءً وأمّهاتٍ أن يراعوا الله فيما وكل إليهما من أمانات، فما الأولاد إلا أمانة بأيديهم.

والله ﷻ حذرنا من إهمال الأمانة بأيّتين كريمتين، قال فيهما: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فإلى كلِّ أمٍّ وأبٍ أوجه كلمتي هذه قائلاً: في الولد لكما الذكري، فإن ربّيّتما وأصلحتما نلتما أجراً من الله وذكرًا في النَّاسِ، وإنْ أهملتما فلا أجراً ولا ذكرًا، وإنّما لعنةٌ ووزرٌ. والله الهادي.



المسيح عيسى بن مريم ﷺ

كتاب جاء من خارج الكويت إلى لجنة الفتوى في وزارة الأوقاف، يتضمن هذه الأسئلة الثلاثة:

الأول: نريد أن نتعرّف ولادة المسيح عيسى بن مريم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - وفق ما جاء في الكتاب والسنة.

الثاني: ما حكم من قال: إنّ المسيح قد مات؟

الثالث: أين كانت دعوته؟ وهل هناك معلومات أو أخبار تاريخية تذكر أنّ عيسى ﷺ وصل الهند والسند والأفغان لينشر دعوته فيها؟

وكان جواب لجنة الفتوى الآتي:

ذكر القرآن الكريم عيسى عليه السلام في إحدى عشرة سورةً منه، مكرراً اسمه خمسةً وعشرين مرةً في عددٍ من السُّور، لا سيَّما في سورتي آل عمران، ومريم التي ذُكرت فيهما قصَّة ولادته مفصَّلةً كما يأتي.

وما جاء في السنَّة المطهَّرة عن عيسى عليه السلام كان موافقاً لما في القرآن الكريم الذي ذكر لنا هذا الأمر مُفصَّلاً.

إنَّ ميلاد المسيح عيسى بن مريم جاء على غير المألوف في عالم البشر، إنَّها صورةٌ عجيبةٌ وفريدةٌ لا مثل لها.

وقد جعل الله الخالق المبدع جلَّ شأنه مريمَ المصطفاة المباركة معرضاً لقدرته، ومجلىً من مجالي صنعته وإبداعه، وجعلها شاهداً من شهود تلك القدرة التي أقامها فوق السنن والأسباب.

لا إله إلا هو القادر جلَّ شأنه، يُخرجُ الحيَّ من الميت ويخرجُ الميت من الحيِّ، بدأ خلق الإنسان من غير ذكرٍ وأنثى، خلق آدم من تراب، ثمَّ قال له: كن، فكان بشراً سوياً، وعلى هذه الحال قد خلق عيسى عليه السلام من نفخةٍ من روحه، وجعله آيةً للنَّاس ورحمةً منه، فكان أمراً مقضياً، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وأُمُّه المطهَّرة مريمُ المصطفاة على نساء العالمين حين أحسَّت أمُّها امرأةً عمران أنَّها حبلى بها توجَّهت إلى الله جلَّ شأنه بكيانها ودعائها الخاشع تدعوه بشأن هذا الطِّفل، وقد نقل القرآن دعاءها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

نذرتها لله تعالى ظانَّةً أنَّها ستلد ذكراً يصلح للخدمة في بيت الله ﴿فَلَمَّا



وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴿٤١﴾ [آل عمران: ٣٦]، والنذر للمعابد خدمة له لم يكن إلا للذكور، لهذا ليس الذكر كالأنثى.

لكن الله - جل شأنه - رضي من امرأة عمران إخلاصها، وتقبل نذرها، ونشأت مريم مباركة بكفالة زكريا رئيس المعبد، وشيخ سدنته وزوج خالة مريم، وظلت مريم في بيت الله خادمة، تتعبد في محرابها، وتتلقى من المعبود - جل جلاله - فيوض الرحمات، وهو اطل الخيرات.

وإذا بالملائكة المكرمين ينادون هذه السيدة البتول، ونقل تعالى لنا هذا في كتابه العزيز قائلاً: ﴿يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيْمُ اقْنَبِي لِرَبِّكِ وَاَسْجُدِي وَاَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣]، إنها البشارة الأولى، والاصطفاء، والاختيار.

أجل، إن الله اصطفى مريم لتكون آية للناس، وتتلقى النفخة المباشرة، وتلد الكلمة، اصطفاها للأمر المفرد في تاريخ البشرية كلها، فضّلها على نساء العالمين تفضيلاً مطلقاً يرفعها إلى الآفاق العالية، والمكانة الخالدة الأبدية.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيْهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقْرَبِيْنَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]، بشارة كاملة صريحة، وإفصاح عن الأمر كله، بشارة بكلمة من الله اسمه المسيح، واسمه عيسى بن مريم، فاتجهت مريم إلى ربها، تناجيه وتتطلع إلى كشف هذه الغمة، كيف سيكون ذلك وهي فتاة طاهرة عذراء؟! إنه أمر يتيه فيه العقل، ويحار فيه القلب، نقل لنا سبحانه في كتابه العزيز مناجاتها إياه: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُوْنُ لِيْ وَكَلْدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِيْ بَشْرًا﴾ [آل عمران: ٤٧]، فجاءتها الإجابة: ﴿كَذٰلِكَ اَللّٰهُ يَخْلُقُ مَا

يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٤٧]، ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْبٍ
وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٢١].

وهكذا تزول الحيرة، ويطمئن القلب، وتحصل المعجزة، قال تعالى:
﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٣﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ
يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ
جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزِيءَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِّي وَأَشْرِي وَفَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا
فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ
شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾
[مَرْيَمَ: ٢٢-٢٨]، كيف تلد البنت البكر طفلاً من غير زوج؟! أمر لم تأت به
امرأة، ولم يعرف في سابق العهود.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مَرْيَمَ: ٢٩]،
وجاءت المعجزة، معجزة البراءة، معجزة شاهدة لمريم البتول بالاصطفاء
والطهر والعفاف.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مَرْيَمَ: ٣٠] كَلَّمَهُمْ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ حَيَاتِهِ
كَلِمًا وَاضِحًا مَفْهُومًا مَفْهُومًا كَالْكَهُولِ وَالشَّبَابِ، كَلَّمَهُمْ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ
وَاضِحٍ مَفْهُومٍ، وَبِاللُّغَةِ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا السَّامِعُونَ، قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي عَبْدُ
اللَّهِ﴾ [مَرْيَمَ: ٣٠].

كَلَّمَهُمْ؛ لِيَكُونَ شَاهِدًا عَلَى طَهْرِ أُمَّهِ وَعَفَافِهَا، وَلِيَبْرِيءَ سَاحَةَ عَرْضِهَا
مَنْ أَنْ يَعْلَقَ بِهَا شَيْءٌ مِمَّا تَلُوْكَهَ الْأَلْسُنُ، وَتَوَسَّوسَ بِهِ الطُّنُونُ فِي حَالِ
كَحَالَتِهَا.

وَالنُّطْقُ فِي الْمَهْدِ أَمْرٌ غَيْرٌ مَأْلُوفٍ وَخَارِجٌ عَلَى طَبِيعَةِ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّ هَذَا



الوليد المختار الذي جعله الله آية للناس بدأ حياته ناطقًا منذ مولده، إذن فهو سيسلك في الحياة مسلكًا غير مسلّكهم، ويسير في سبيلٍ غير سبيلهم.

صحّت البشارة، بشارة الملائكة لمريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم، سيكون وجهًا في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصّالحين.

وعلمت مريم بإلهام من الله أنّ هذا الوليد الذي تكلم في المهد لا يخرج هذا الأمر على أن يكون واحدًا من البشر شأنه كشأنهم، ولا تخرجه آية مولده على طبيعة البشر لَمَّا كان عبد الله، وسيكون مختارًا من لدن خالقه رب العالمين، وما كان هذا الكلام الذي نطق به في المهد إلا دفاعًا عن التُّهمة التي رُميت بها أمّه من لدن قومها، فقد نقل سبحانه في كتابه الكريم هذا الاتِّهام فقال: ﴿يَمْرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوْكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧-٢٨]، ثم عاش المسيح ﷺ حياته على ما أُلّف عند البشر جميعهم.

والقرآن الكريم لم يذكر فيما قصّه لنا شيئًا عن مولد عيسى بن مريم ﷺ - عن صمته أو كلامه - بعد تلك الوقفة التي وقفها في المهد دفاعًا عن شرف مولده، وطهر أمّه وعفافها.

ونحن مع ذلك نحترم وقوف القرآن عند هذا الحدّ، ونقف من هذه القصّة حيث وقف، ونقول: إنّ المسيح عيسى بن مريم ﷺ تكلم في المهد تلك الكلمات الواضحة المحدودة، فأرى قومه معجزة من الله، مثل المعجزة التي ولد بها.

والمسيح ﷺ أخبر قومه بما تكلم به في المهد؛ أنّ الله قدّر في الأزل أنّه نبيّ، وجعله مباركًا أينما كان، وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيًّا،

وأوصاه أن يكون براً بوالدته، ولم يجعله جباراً شقيماً، وجعله ينفع
النَّاسَ، ويشفي مرضاهم، ويباركهم، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله،
وقدَّرَ أَنَّهُ سَيَعِيشُ فِي سَلامِ يَوْمِ مَوْلَدِهِ، وَيَوْمِ مَوْتِهِ، وَيَوْمِ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٠﴾ قَالَ
إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِنْبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٢﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٣﴾
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٤﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

وعاش المسيح مع أشقى شعب عرفه التاريخ ما يقارب ثلاثاً وثلاثين
سنة حتى رفعه الله إليه طاهراً مطهراً سليماً.

وهذا القرآن الكريم يشهد على ذلك بما يقوله في هؤلاء اليهود: ﴿فَمَا
نَقَضَهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بَيَّاتٍ اللَّهُ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغِيْرٍ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ
بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيْلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ
بُهْتَانًا عَظِيْمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيْحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُوْلَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا
صَلَبُوهُ وَلَكِنْ سُبُّهُ هُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا
أَنْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيْنًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيْزًا حَكِيْمًا ﴿١٥٨﴾﴾

[النساء: ١٥٥-١٥٨].

وتختتم هذه الآيات الكريمة المنزلة في ذكر مولد المسيح عيسى بن
مريم ﷺ بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ
﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
﴿٣٥﴾ وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيْمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٤-٣٦].

أمَّا الجواب عن السؤال الثاني القائل: ما حكم من قال: إنَّ عيسى
مات؟ فأقول:

إنَّ الله ﷻ قال لنا في كتابه العزيز: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَسَىٰ إِنَّي مُتَوَفِّيكَ



وَرَأْفَعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهَّرَكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿آلِ عِمْرَانَ: ٥٥﴾.

وقال جلَّ شأنه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، إنَّ مصدرَ كَلِمَتِي تَوَفَّيْتَنِي ومتوفيك هو وفاة، وتعني الموت، ووردت كلمة وفاة في القرآن كثيراً، وكلُّها تعني الموت، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]، ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [التحل: ٧٠]، ﴿رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

والقرآن نزل بلسان عربي مبين، والمبين: الواضح الذي لا تلتبس الألسنة بلفظه، ولا تتبلبل الأفكار في معناه، وهو نعمة الله التي أنعم بها على عباده إذ أنزله بلسان عربي مبين.

وعيسى عليه السلام كان معجزةً في حمله وولادته وطفولته، ولا يمنع أن يكون معجزة في بعثه مرتين أي: عند نزوله قبل اليوم الآخر، ثم بعثه لليوم الآخر، والله على كلِّ شيءٍ قدير.

وأحاديثُ نزوله كثيرةٌ لا يتطرق إليها الشكُّ، ونزوله في آخر الزمان أيضاً من علامات الساعة كما أكدت ذلك السنة المطهَّرة.

وجواباً عن سؤال السائل لا بأس أن نقول: إنَّ عيسى بن مريم عليه السلام مات^(١)؛ فالله سبحانه قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٥]، ونقل القرآن

(١) يُلاحظُ أنَّ هذا خلافُ رأي جمهور العلماء الذين قالوا: إنَّ عيسى حيٌّ قد رفعه الله إلى السماء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَرَأْفَعَكَ إِلَيَّ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٥].

أيضاً قول عيسى نفسه: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:

١١٧].

أمّا الجواب عن سؤاله الثالث:

لم يبلغ عيسى ﷺ الشَّرقَ، وإنَّما كان وجوده محصوراً في فلسطين فقط، وفي حدود معيَّنةٍ منها، ولكنَّ دعوته انتشرت في حدود القرن الثالث الميلاديِّ كما تحكي لنا كتب التَّاريخ، والله أعلم.



العَيْنُ الحَاسِدَةُ

سُئِلْتُ كثيراً عن العين وتأثيرها في الإنسان، وقصَّ السَّائلون عليَّ قصصاً عن الحاسدين أقرب ما تكون للخيال، فإنَّ أحدهم متى شاء أصاب عدوّه بالعين، وإنَّ بعضهم يخير من يطلب إليه أن يصيب أحداً بالعين أين يريد أن تكون الإصابة قبل أن تنطلق، وكأنَّها قذيفة مدفعٍ أو طلقة بندقيَّة.

وقالوا: إنَّ بعضهم يستطيع إيقاف السيَّارة في المكان الذي يريد، فلا تستطيع حراكاً متى وصلت إليه.

وسمعتُ كثيراً من الحكايات التي لا يصدِّقها العاقل، وكأنَّها المعجزات، وأنا وكلُّ مسلمٍ يعلم أنَّ المعجزات قد انتهى عهدُها بانتقال خاتم الأنبياء المصطفى المعصوم إلى الرِّفيق الأعلى.

وانتقد شبابٌ من صالحِي شبابنا إنكاري موضوع الإصابة بالعين، مستدلِّين بأحاديث رواها أصحاب السنن منها:



١- «لا رقية إلا من عين أو حُمَّة أو دم»، رواه البخاريُّ ومسلم في «صحيحه»، وأحمد في «مسنده»، وغيرهما^(١).

٢- «العينُ حقٌّ، العينُ حقٌّ، تستنزل الحَالِقَ»^(٢).

٣- «العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابقَ القدرِ سبقتهُ العينُ، وإذا استغسلتم فَاغسلوا»^(٣).

وذكروا أحاديث كثيرةً تشتمل على رقى من العين، وأنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يعوِّذ الحسن والحسين، ويقول: «إنَّ أباكما كان يعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التَّامَّة، من كلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ، ومن كلِّ عينٍ لائمةٍ»^(٤).

ورَوَا حديثاً عن أسماء بنتِ عميس أنها قالت لرسول الله ﷺ: إنَّ بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقى لهم؟ قال ﷺ: «نعم، فلو كان شيءٌ سابقُ القدرِ لسبقتهُ العينُ»^(٥).

وأحبُّ أنْ أبدي رأيي في شرح الأحاديث الثلاثة، فأقول وبالله التَّوفيق:

العين التي يعتقد النَّاس أنَّها تُدخِلُ الرَّجُلَ القبرَ، والجملَ القِدرَ، وتُوقِفُ السَّيَّارةَ في الطَّرِيقِ، وتُسْقِطُ الطَّائرَ من السَّماءِ لا وجود لها؛ لأنَّ

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٧٠٥)، ومسلم، رقم: (٣٧٤)، وأحمد، رقم: (١٩٩٠٨).

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٦٨١).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٤٢).

(٤) رواه البخاريُّ، رقم: (٣٣٧١).

(٥) رواه أحمد، رقم: (٢٧٤٧٠).

الَّتِي تُسْقِطُ الطَّائِرَ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تُسْقِطَ الطَّائِرَةَ، وَالَّتِي تُسْقِطُ الْجَمَلَ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَكْسِرَ الْمَدْرَعَةَ وَالذَّبَابَةَ.

وَلَكِنَّ الْعَيْنَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَسْتَعِيدَ مِنْهَا هِيَ عَيْنُ الْحَاسِدِ الَّذِي يَتَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ عَمَّنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَبَنُو جَعْفَرٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ الَّذِينَ كَانُوا يَصَابُونَ بِالْعَيْنِ لَعَلَّهُمْ كَانُوا مَوْضِعَ أَنْظَارِ النَّاطِرِينَ؛ لَجَمَالِهِمْ وَنِظَافَتِهِمْ، فَطَلَبْتُ أَسْمَاءَ أَنْ تَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ لَهُمْ مِنْ ﴿شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الْفَلَقِ: ٥].

وَالْحَاسِدُ لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَنْظُرَ بِحَقْدٍ، بَلْ رَبَّمَا سَعَى لِيُضِرَّ الْمُحْسُودَ، وَلِهَذَا نَسَمِعُ كَلِمَةَ الْحِكْمَةِ الْقَائِلَةَ: اللَّهُ دَرُّ الْحَسَدِ مَا أَعْدَلَهُ، بَدَأُ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ، وَالْحِكْمَةُ الْقَائِلَةُ: مَنْ حَفَرَ حَفْرَةً لِأَخِيهِ أَوْقَعَهُ اللَّهُ فِيهَا.

فَالْعَيْنُ هِيَ عَيْنُ الْحَاسِدِ وَحَدَهُ، وَهِيَ الَّتِي أَمَرْنَا اللَّهُ ﷻ أَنْ نَسْتَعِيدَ بِهَا مِنْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾ [الْفَلَقِ: ١-٥].

فَاللَّيْلِ إِذَا غَسَقَ أَوْ أَطْبَقَ وَاشْتَدَّ ظِلَامُهُ، أَخَافَ الْإِنْسَانَ؛ لِانْطَوَائِهِ عَلَى الشُّرُورِ، وَالنَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ: الَّذِينَ يَمْشُونَ بِالسُّوءِ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا يَلْقَوْنَهُ فِي أَسْمَاعِهِمْ مِنْ نَمَائِمٍ وَفَتَنِ، فَيُفْسِدُونَ بَيْنَ الصَّدِيقِينَ وَالشَّرِيكِينَ وَالزَّوْجِينَ وَالْأَوْلَادِ وَالْوَالِدِينَ.

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ بَعْضَ أَوْلِيَاءِكَ الْإِخْوَةَ بِالْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَزَلُّوكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾ [الْقَلَمِ: ٥١-٥٢]، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَيَّ دَلِيلٍ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ



على العين، فتفسيرهما واضح، إنهما تتحدّثان عن نظرة الحقد والكره التي نظر بها المشركون إلى رسول الله ﷺ عندما قرأ عليهم القرآن، إنهم عندما كانوا يسمعون الذكر يشعرون بالصَّغر أمامَ عظمة كلماته، فينظرون إلى رسول الله ﷺ نظرة الغيظ المسمومة، متمنين أن يسقط من وقفته الشَّامخة، أو أن تندثر عظمتُه المفروضة عليهم من تأثير قوله تعالى الذي يتلوه، وحين لا يملكون شيئاً من أمرهم، ولا تؤثر فيه نظراتهم يقولون: إنَّه لمجنون، فكان الأولى - وتفسير الآيات هكذا - أن تُقرأ من أولها، فهي واضحة المعنى لا تشير إلى موضوع الإصابة بالعين.

إنَّ الله جلَّ شأنه يقول لنبيِّه الكريم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن نَّدَرَكُوهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِّذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨-٥٠]، فمن قرأ هذه الآيات فهم أنَّ الله ﷻ يأمر نبيِّه ﷺ أن يصبر ولا يضجر كما ضجر صاحب الحوت يونس ﷺ، ويقول له: إنَّ المكذِّبين سيجتهدون في عداوتك، فمهما لاقيت منهم فاصبر ولا تضجر، فهذا سيقضي عليهم وعلى كيدهم، ولا تهتمَّ إلى نظراتهم المسمومة الحاقدة، الحاسدة الكارهة، إنَّها نظراتُ عيون قلوبٍ اشتعلت حسداً وحنقاً^(١).

فإنَّ القومَ لما سمعوا الذكر غاظهم بيانه الذي لم يسمعوا له مثلاً، بيانٌ أحرَسَ الألسنة، وتضاءلت أمامه البلاغات كلها، بيانٌ جاء فوق كلِّ بيان، فما كان منهم إلا أن قالوا: إنَّه شعرٌ. وما هو شعر، وقالوا: إنَّه سحر. وما هو بسحر، وإنَّما هو بيانٌ ذلَّ أمامه كلُّ بيانٍ وكلُّ سحرٍ.

(١) الحنقُ: الغيظ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٥/٢٠٧).

إِنَّهُمْ اسْتَكْثَرُوا عَلَى مُحَمَّدٍ الْفَقِيرِ الْيَتِيمِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ الرَّافِعِ شَأْنَهُ، فَأَصَابَهُمُ الْحَقْدُ وَالْحَسَدُ؛ لِأَنَّهَمْ كَانُوا يَتَمَنُّونَ أَنْ تَنْزَلَ هَذِهِ الرَّسَالَةُ عَلَى أَشْخَاصٍ مِنْ عَلِيَّةِ الْقَوْمِ، وَقَدْ نَقَلَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَوْلَهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ قَائِلًا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيْبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الرَّحْرُفُ: ٣١]، فَتَرَاهُمْ يَقُولُونَ كُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ عِنْدَمَا عَجَزُوا عَنِ إِيْذَانِهِ بِالنَّظَرَاتِ، مُحَاوِلِينَ إِيْذَاءَهُ بِالْكَلِمَاتِ.

إِنَّ الْحَسَدَ يَعْمِي الْقُلُوبَ، وَإِذَا عَمِيَتْ الْقُلُوبُ عَمِيَتْ الْعْيُونَ أَنْ تَرَى الْحَقِيقَةَ الْوَاضِحَةَ وَضَحَ النَّهَارِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ يَعْقُوبَ قَالَ لِبَنِيهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يُوسُفُ: ٦٧]؛ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَصَابُوا بِالْعَيْنِ.

وَلَكِنِّي أَقُولُ فِي هَذَا: كَانَ يَعْقُوبُ ﷺ كَمَا وَصَفَهُ رَبُّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ذَا عِلْمٍ، بَصِيرًا بِالْأُمُورِ، عَارِفًا بِأَحْوَالِهَا، وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَيَّامُ أَيَّامَ مَجَاعَةٍ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ كَانَ فِي مِصْرَ، وَالنَّاسُ فِي تِلْكَ الْمَنْطِقَةِ يَنْظُرُونَ إِلَى مِصْرَ وَحُكُومَتِهَا نَظْرَةَ الْمُسْتَعِينِ الْمُسْتَعِيثِ، وَبَعْضُهُمْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظْرَةَ الْحَاسِدِ الْحَاقِدِ، وَكَانَ أَوْلَادُ سَيِّدِنَا يَعْقُوبَ كَثِيرِينَ، وَلَا بَدَّ لَهُمْ مِنْ تَابِعٍ، فَإِذَا دَخَلُوا كُلُّهُمْ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ لَفَتُوا نَظَرَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ يَظُنُّونَ فِيهِمْ الشَّرَّ، أَوْ يَظُنُّونَ أَنَّهَمْ جَاءُوا لِأَمْرِ سِيَاسِيٍّ يُخْشَى مِنْهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ، وَقَتِ الْمَجَاعَةِ وَالشَّدَّةِ وَالْحَاجَةِ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ لِيُبْعَدُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ.

وَكَانَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ قَدْ دَخَلُوا مِصْرَ مِنْ قَبْلِ أَكْثَرِ مِنْ مَرَّةٍ، وَلَمْ يُوْصِهِمْ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ، فَهَلْ كَانَتْ الْعَيْنُ بِالْمَرْصَادِ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فَقَطْ؟!!



بالطَّبع لا ، لكنَّ يعقوبَ صاحبَ الرَّأي السَّديد كانَ ذا علمٍ بالأُمور ،
فلعلَّ هناك حركةٌ سياسيَّةٌ داخليَّةٌ أو خارجيَّةٌ علمها يعقوبُ فخافَ على
أولاده أن يُتَّهَمُوا بها .

وقال أيضًا من يعتقد بالعين : إنَّ سورة الفلق والنَّاس نزلتا تعويذةً أو
رقيةً يستعاذُ بهما من شرِّ الحسد . وقالوا : إنَّ الحسدَ هو الإصابة بالعين .

ولو راجعنا كتبَ اللُّغة لوجدنا أنَّ الحسدَ حقدٌ في قلب الحاسد ،
يتمنَّى به زوالَ النِّعمة عن المحسود ، وحرمانه منها ، فأين هذا من ذاك؟!!

ثم إنِّي أتساءل عن هذه العين التي لا تصيب بقذائفها إلا الضُّعفاءَ
والمساكين ، إنِّي لا أراها تصيب إلا العاملَ الَّذي لا يجدُ قوتَ يومه ، أو
ابنَ المُقلِّة الفقيرة الَّذي لا يلفت النَّظرَ ثوبه ولا شكَّله ، أو سيَّارة الأجرة
التي يملكها الضَّعيف العاجز .

أتساءل : لِمَ لا تصيب هذه العينُ الغنيَّ صاحبَ الأموال الطَّائلة؟
أليس أولى بالعين من ذلك العامل البسيط؟! لم لا تصيب ابن الغنيِّ
المُترَف؟ أليس أولى بها لنظافته وأناقته وغناه؟! لِمَ لا تصيبُ تلك السيَّارة
الفارهة؟ أليست أولى بالعين من سيَّارة الأجرة ملك المسكين؟!!

إنِّي بصفتي الحاليَّة خبيرٌ بمجتمعاتنا في الكويت وغيرها ، لا أرى
العينَ تصيب إلا أولادَ المُعدمين والمُعدِّمات ، ولا تُسلَّطُ إلا على أسباب
رزقهم ، فترى الأحبة والتَّمام معلقةً على صدور هؤلاء النَّاس وعلى
رؤوسهم ، وعلى أبواب رزقهم كالذَّكاكين أو السيَّارات .

ولو سألت أحدهم : لِمَ هذه التَّميمة؟ لأجابتك : لتحميني من العين! أو
قال : من شرِّ حاسدٍ إذا حسد . ولو سألته : ولماذا تُحسدُ أو تُصابُ

بالعين؟ أليس فلان الغنيُّ وذاك الجميل أولى بهذا؟ لما استطاع جوابًا .
 أيُّهَا النَّاسُ، آمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، فَإِنَّهُ لَا نَافِعَ لِمَنْ أَضَرَّهُ اللَّهُ، وَلَا مُضِرَّ
 لِمَنْ نَفَعَهُ اللَّهُ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، يُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ
 يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيَعَزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَذُلُّ مَنْ يَشَاءُ، يُمْرِضُ
 وَيَشْفِي، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .
 حَكِّمُوا عُقُولَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَطَهِّرُوهَا مِنَ الشُّعُودَةِ وَالْخِرَافَاتِ،
 وَاتْرَكُوا الدَّجَاجِلَةَ، وَقُولُوا لَهُمْ: مَاتُوا بِغِيظِكُمْ، فَلَنَا عَقُولٌ مَطَهَّرَةٌ
 بِالتَّوْحِيدِ، إِنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

وأخيرًا:

لي رجاءٌ أقدمه إلى كلِّ من له القدرة التَّامَّةُ على الإصابة بالعين، أو
 يعرف أحدًا يملك هذه القدرة أن يقدم يد العون لنا، إننا بحاجة ماسَّةٍ
 لأمثال هؤلاء؛ ليقذفوا بأعينهم أعداء ديننا وأوطاننا وحرِّياتنا وأممتنا،
 فيكفونا بها شرَّهم، ويحمونا بها من ضرِّهم^(١) .

وفي الختام:

أَسْأَلُ الْكَرِيمَ أَنْ يَحْمِي بَصَائِرَنَا مِنَ الْعَمَى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
 وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الْحَجَّ: ٤٦] .



(١) وهذه المسألة من المسائل التي كان للشيخ رحمه الله فيها رأي خاص، فجمهور
 أهل العلم على أن العينَ حقٌّ، ولها تأثير بتقدير الله ومشيئته مُستدلين على ذلك
 بأحاديث في الصحيحين وغيرهما .



يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَّاءَ

الله يمهل ولا يهمل، وكم قلتها من قبل، لكنني الآن عرفتُ معنى هذه الكلمات الثلاث، رددتها آلاف المرّات، وسمعتها طيلة عمري من أولئك الذين ظلمتهم، لكنني رددتها مثل بَعَاءٍ لا يفقه شيئاً، واليوم عرفتُ المعنى فأمنتُ وصدّقتُ.

أكتب إليك قصّتي ليعلم كلُّ من غرّته الدُّنيا بإقبالها أنّ يوم الانتقام آتٍ لا ريبَ فيه، عاجلاً أم آجلاً، والظّالم سيَعَضُّ بنانه ندمًا، وأنَّ يوم الحساب عسير، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَجِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبَسَ: ٣٤-٣٦].

كنت ذليلاً فأعرّني الله، فقيراً فأغناني الله، مُحتاجاً فكفاني الله، ولكنني لم أحمّد ولم أشكر، إنّما قلت كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القَصَص: ٧٨].

تجبرّتُ وافتريت وظلمت فحاق بي غضب الله، ولتكن الحوادث التي عشتها عبرةً لغيري وذكرى لأولي الألباب.

كنتُ أعمى البصر والبصيرة، صوّرت لي عمّاي أنّ الدُّنيا طوعٌ أمري، وأنها ستظلُّ فاتحةً ذراعيها لي أفعل ما أريد دون رقيبٍ ولا عتيد، ولم أدرك أنّي كنتُ واهماً.

أعترف - يا سيّدي - أنّني أستحقُّ كلَّ ما حدث لي بل أكثر، إنّني أجني ما زرعْتُ، لقد كنتُ كابن نوح الذي قال: ﴿سَكَاوِيءَ إِلَىٰ جَبَلٍ

يَعِصُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿مُود: ٤٣﴾، فلم يعصمه من غضب الله جبلٌ ولا ارتفاعٌ، إذ لا عاصم في ذلك اليوم من أمر الله إلا من رحم.

إنها صرخة أُطْلِقُهَا من قلبي؛ ليسمعها كلُّ مغترٍّ جاهلٍ مستغلٍّ: اعْلَمْ أَنَّ عَيْنَ اللَّهِ سَاهِرَةٌ تحصي كلَّ حركةٍ وسكونٍ، واعلم أَنَّكَ مهما علوت بالباطل فلا بدَّ من أن تقع، قال تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

والآن إليكم حكايتي:

أنا عُمانِيُّ المولد والمنشأ والمسكن، عشتُ فقيرًا بين أب عامل بسيط وأم خادمة، أكل السُّور^(١) من الطَّعام، وألبس السَّمَل^(٢) مِنَ الثِّيَاب، ولمَّا بلغت سنَّ الاحتلام طردني والِدِيَّ، قال لي أبي: اذهب واكسب رزقك، واعتمد على نفسك، كفاك اتِّكالا علينا، فتركتهما وسافرتُ إلى بلدٍ لا أعرفه أبدًا، وغيَّرت اسمي فقط، دون اسم أبي، وشاء الله أن أكون فَرَّاشًا في مدرسة، فتعلَّمتُ من المتعلِّمين القراءة والكتابة، وكنت أترقَّب فراغي لأقفَ أمام باب الصَّفِّ حتَّى أستوعبَ ما يقوله المُدرِّسُ للطلَّاب، واشتركت في الامتحان الابتدائيِّ ونجحت، وسافرتُ وعملتُ وتعلَّمتُ ونجحت في الامتحان الثَّانويِّ، وكان ذلك كلُّه أيَّام الحرب الثَّانية فما قبلها.

وبعدها استقرتُ بي الأمور في بلدي، وكان والدي قد ماتا، ولم أعرف أحدًا من إخوتي؛ وحصلت على وظيفةٍ، وعاشتُ الشَّفاء من

(١) السُّورُ: البَقِيَّةُ من كلِّ شيءٍ، والفَضْلَةُ، انظر: تاج العروس، للزبيدي (١١/٤٨٣).

(٢) السَّمَلُ: الخَلْقُ من الثِّيَاب، انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/٣٤٥).



الزُّملاء، وتعلّمتُ منهم كلَّ رذيلةٍ وشائنة، وصرتُ مُسرفاً مبدراً من إخوان الشياطين، حتّى اضطررت أن أستدين بالرّبا وبفائدةٍ فاحشةٍ قد تصل سنويّاً إلى ضعف المبلغ الذي أقبضه أوّل العام.

وأخيراً أكرهني الدّائنون على بيع مسكني الذي أقطن فيه أنا وزوجتي الحُبلى، وقد دفعت الدّينَ وفوائده وفوائده، وبقي معي شيءٌ قليل لا يكفي مصروفَ شهرين.

وبعد طول تفكيرٍ وتقديرٍ قلتَ لنفسِي: لم لا تصبح يا هذا مرابياً؟ تُقرضُ المحتاجين بدلاً من أن تقترض من المرابين، وتبلورتِ الفكرةُ في ذهني فبدأتُ بمالٍ قليلٍ كان بحوزتي، وكنتُ أقرضُ المحتاجين مقابل رهونٍ عينيّةٍ تضمن لي السّداد، وفي مدّةٍ لا تزيد عن السّنتين تنامى المالُ أضعافاً كثيرةً، فاشتريتُ داراً خيراً من داري، وتزوّجتُ الثّانية؛ لأنّ زوجتي الأولى لم تلد بعدَ ولدنا الأوّل، والطّبيب أخبرنا بعدم قدرتها على الحمل ثانيةً.

وأتّسع نطاق عملي، فافتتحتُ محلّ صرافةٍ في الشّوق، ثمّ محلّ استيرادٍ وتصدير، ولكنّ عملي الأساسيّ كان الإقراضَ بالرّبا.

وزادت ثروتِي، وتبدّلت أحوالي من الفقر إلى الغنى، ورُزقتُ بأبناءٍ وبناتٍ استطعت أن أحييهم حياةً كريمةً.

وذات يوم طلب إليّ أحدُ عملائي بضاعةً أرسلتها إليه في إحدى ناقلاتي البحريّة، وصمّم ابني البكرُ على أن يوصلَ البضاعةَ بنفسه إلى العميل، وكان انتقام الله، إذ حصل حادثٌ هلك فيه ابني غرقاً، وذهبتِ البضاعة، ونجا السّائق بأعجوبةٍ لم يمسه سوء، وماتت أمُّ الولد حزناً وكمدًا على وحيدها.



ولم يقف الانتقام عند هذا الحدّ، فما لبثتُ ملياً أنْ شبَّ حريقُ في مخازنَ لي، ذهب فيه أكثرُ من نصفِ مالي وابنُ آخرُ من أبنائي.

أمّا ابنتي الشَّابَّةُ الَّتِي عُقِدَ قِرَانُهَا فَقَدْ انفجر موقدُ زيتِ حرقها، ثمَّ بعد ذلك أصيبت بالشلل.

والحوادث تترى تنهالُ عليّ، وشُلَّ عقلي أمامها لا أدري كيف أدفعها، ولا أدري ماذا أصنع بحالي هذه.

لقد علمتُ علمَ اليقينِ أنّها ضرائبُ قد سُجِّلت عليّ ويجب أنْ أدفعها، إنّها دعوات أولئك المظلومين الَّذِينَ اغتصبتُ أموالهم.

والآن ماذا أفعل؟ إنّني أقف عاجزاً أمام هذه الأهوال كلّها.

أكتب قصّتي هذه ليقراها كلُّ إنسانٍ ويأخذ منها عبرةً، وليعلموا أنّ الله بالمرصاد لكلِّ ظالمٍ، وأنَّ بيت المرابي الظالم خرابٌ ولو بعد حين.

السُّؤال:

دلّني - جزاك الله خيراً - على الطّريق، إنّني أخذت عبرةً وعِظَةً يا سيّدي، فدلّني على ما ينجيني من غضب الله ويحفظ عليّ مستقبلي.

الجواب:

المرابي امرؤٌ قد حارب الله ورسوله ظانّاً أنّ يد الله لن تطاله، فهل تقدر يا هذا بعملك بالرّبِّ أن تحارب الله؟!!

إنَّ الله عندما أراد أن يحذّر المؤمنين وينبّههم إلى خطورة هذا الأمر نعتهم بأحبِّ الأوصاف إليهم ناسباً إليّهم إلى الإيمان فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا



الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ [البقرة: ٢٧٨]، ثُمَّ قَالَ مَهْدِدًا مَحْذَرًا: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مَنْ حَارَبَ اللَّهَ ذَلَّ.

إِنَّ كُلَّ مَنْ يَسْتَدِينُ مِنْ مَرَابٍ لَا بَدَّ مِنْ أَنَّ الْحَاجَةَ وَالْفَاقَةَ هِيَ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى التَّعَامُلِ مَعَ هَذَا الْإِنْسَانِ، فَأَخَذَ مِنْهُ الْفَوَائِدَ الْكَبِيرَةَ، ثُمَّ أَكْرَهَهُ عَلَى بَيْعِ مَا رَهْنَهُ بِأَقْلٍ مِنْ ثَمَنِهِ، فَاعْتَصَبَهُ لِمَصْلَحَةِ الرَّبَا وَسَلَبِهِ الرَّائِدَ مِنْ ثَمَنِ رَهْنِهِ.

وهذا ما قد فعلته أيها المرسل، إنه لأمر عظيم كبير، ولكن بتوبتك وعودتك إلى الطريق المستقيم تكون قد أنجيت نفسك من المهالك، وباب التوبة مفتوح لا يُغلق، فأبشر بقبول توبتك إن كنت نادمًا راجعًا إلى الله بصدق، واقرأ الآيات العشرة الأخيرة من سورة الفرقان تجد الفوز كله بإذن الله.

واعلم - وليعلم غيرك - أَنَّ اللَّهَ عَفْوٌ غَفُورٌ، يَحِبُّ التَّائِبِينَ، وَلِهَذَا نَادَى عِبَادَهُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَائِلًا: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤].

تُبُّ إِلَى اللَّهِ حَقَّ التَّوْبَةِ بِتَتَبُعِكَ مِنْ تَعْرِفِ مَنْ أَوْلَيْكَ الضُّعْفَاءَ الَّذِينَ ظَلَمْتَهُمْ، أَعْطَاهُمْ مَا تَشْتَرِي بِهِ عَفْوَهُمْ وَرِضَاهُمْ عَنْكَ، وَمَنْ تَعْرِفَهُ مِنْ وَرَثَتِهِمْ إِنْ كَانُوا؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

أَمَّا مَنْ لَمْ تَعْرِفْ فَتَصَدَّقْ عَنْ رُوحِهِ بِمَا يُشْعِرُكَ بِالطَّمَأْنِينَةِ أَنَّهُ رَضِيَ

عنك، وشارك في أعمال الخير النَّافعة للمجتمع، كالمدارس والملاجئ ودور الأيتام، وأعين المنظمات التي يحارب أهلها أعداء الله والحرية والإنسانية.

واعلم أن ذلك لن يُنقص منك شيئاً؛ لأن الله ﷻ قال وهو أصدق القائلين: ﴿يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]؛ أي: إنه يضاعف الصدقة.

والرسول ﷺ يشرح لنا ذلك فيقول: «ثلاثة أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، فتصدقوا»^(١).

وأقم الصلاة لتقيم الدليل الحق أنك تبت إلى الله توبةً نصوحاً، وأدّ الزكاة بطيب نفس، واتخذ من ماضيك عبرة لمستقبلك، والله يهديك.



إِيَّاكُمْ وَخَضَاءِ الدَّمَنِ

منذ مدة وأنا أود الكتابة لكم لأطرح مشكلتي، علي أجد عندكم بلسماً لجرحي الذي عسر عليّ علاجه.

سيدي، أشعر أنني مُقدّم على خطرٍ ما، وأنتني أجافي الحكمة والمنطق، ومع هذا أصم أذني عمّا يمليه العقل وينصح به الدين.

جرت بين الناس حكمة تقول: عين المحب عمياء، وأنا أقول: قلبه الأعمى لا عينه؛ لأن عيني كانتا تريان العيوب كلها، وعقلي يعي كل ما

(١) رواه البزار في مسنده، رقم: (١٠٣٢).



يدور حولي، لكنّ قلبي ينكرُ كلَّ شيءٍ.

إنّني - يا سيّدي - في حَيْرَةٍ من أمري، أحاول التّوفيق بين دقّات القلب وصوت العقل فلا أستطيع.

تُحدّثني نفسي فتقول: إنّ لحظة سعادةٍ تعيشها مع مَنْ تحبُّ تساوي الدُّنيا وما فيها، فالعمر واحدٌ لا يتكرّر، ثمّ ما يلبث أن يقول العقلُ: وما مصير السُّمعةِ والشَّرَفِ؟ وكيف ستكون حياتي ضمن مجتمعي؟ فيقول القلب: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، إنّهُ صراع لا نهاية له.

سيّدي، كلُّ ما يمكنني فعله وحالتي هذه أن أضع مشكلتي بين أيديكم، وإنّي أعدكم وعدًا موكّدًا أنّي سألتزم بما تشيرون به عليّ.

إنّني طوع أمركم، خالفتُ أبي وأمّي وأصدقائي، مستهزئًا برأي الجميع، لكن أخيرًا أقول: أنت وليّ أمري، وليس لي وليّ سواك.

وإليكم مشكلتي وقصّتي:

قابلتها مصادفةً منذ تسع سنوات، ولمّا أبلغ الخامسة عشرة من عمري، وأظنّها كانت متجاوزةً العاشرة من عمرها، فأحببتها، وحينها لم أكلمها ولم تكلمني، وإنّما ربطتني بها عاطفتي فقط، كانت بين عشرات الطّالبات الخارجات من المدرسة المتوسّطة، فأعجبني عندما تخطّت باب المدرسة بهدوءٍ وسكينة، ثمّ سلكت طريقها إلى بيتها الذي عرفته فيما بعد، وعرفت اسمها واسم أبيها أسرتها دون أن أكلمها أو تكلمني.

ومضتُ خمسُ سنواتٍ انتقلتُ في أثنائها من المتوسّطة إلى الثّانويّة، وكنتُ أقفُ في الشّهر مرّتين أو ثلاثًا أمام بابِ المدرسة أشير إليها بالسّلام إذا خرجت؛ لأشعرها بحبّي لها.

خمس سنوات كنت أشعر أنها دائماً في قلبي ، على أنه لم يحدث لقاء بيننا ، حتى صوتها لم أسمعه .

و ذات يوم اقتربتُ منها ثم مددت يدي لها مصافحاً فمدت يدها ، وقلت لها : إنني مسافراً إلى الكويت لأكون نفسي ، فقالت : في حفظ الله ، وأعانك الله ، ومع السلامة ، وأحسستُ من كلمة أعانك الله حباً وقر في قلبي ، وشممت من كلامها عبق الإخلاص .

وفي بداية سنة (١٩٧٤م) كنتُ في الكويت ، ووفَّقني الله وعملتُ عملاً درّ عليّ أرباحاً جيّدة ، وفي أوائل سنة (١٩٧٧م) كتبتُ إلى أهلي أطلب إليهم أن يتقدّموا لخطبة الحبيبة ، فجاء الرّفْض مع الرّدّ القاسي ، واللوم شديد اللّهجة ، ثم أتبعوها برسالةٍ أخرى يتوسّلون إليّ أن آتي إليهم ؛ خشيةً أن أخطبَ دون علمهم ، هذا ما فهمته .

فلبّيت طلبهم وسافرتُ إليهم ، ثم كرّرتُ ما أريده ، وكان رفضهم شديداً ، فقد ذكروا عيوباً أخلاقيةً لدى أسرتها ، لم أكن أعرفها ولم أسمع بها ، ولا يخفى عليك قول الشاعر العربيّ المتنبيّ :

وعين الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلَةٌ كما أنّ عين السُّخط تبدي المساويا^(١)

ثمّ حدّثوني عن علاقاتٍ تربط ذكور الأسرة بإنائها يندى لها الجبين ، قلت : لم أسمع بهذا من قبل ، وقد عرفتُ البنت منذ تسع سنين .

قالوا : أسألت؟

قلت : لم أسأل .

(١) انظر : عيون الأخبار ، لابن قتيبة (١٦/٣) .



ولمَّا سألتُ كثيرًا من أصدقائي عرفت الحقيقة؛ حقيقة أنَّ الأسرة ذاتُ سمعةٍ سيئةٍ، ورثتها أبا عند جدِّ، وعرفت منهم أنَّ والد الفتاة غريبٌ عن المنطقة، وأنَّه طلقَ أمَّها وهي حبلى بها، وهاجر بلا عودة، ولا يُعرفُ له مكانٌ، وأنَّ أمَّها تزوجتُ مرَّةً أخرى ثمَّ طلقتُ بعد شهرين، لهذا فهي وحيدة أمَّها.

أسألك بالله يا سيدي ما ذنب تلك المسكينة؟! وإذا تقدَّم لها شابٌ غيري ليتزوَّجها فهل يرفض أهلُّه كما رفض أهلي؟! وهل تُبعده تلك السيئاتُ من خطبتِها؟!!

رَجَعْتُ إلى الكويت بعد شهرين والألم يعتصر قلبي، وجوارحي كلُّها تبكي كمدًا وحزنًا، ولولا ثقتي بالله لأقدمت على قتل نفسي، غفرانك اللهم.

ومنذ رجوعي وأنا أعيش في دوامة، بل في محنة، أفكِّر في المحبوبة، تلك الفتاة التي يتمنَّاها كلُّ شابٍّ طموح، تلك الفتاة التي لمست فيها الصِّفاتِ الحسنة كلَّها، ورأيتُ فيها كلَّ ما تتمنَّع به الفتاة الشريفة.

إنني الآن بلغت الثامنة والعشرين من عمري، وهي في الثالثة والعشرين، أشر عليَّ ماذا أفعل؟ إنني أو من بالحبِّ قبل الزواج، ويخيِّلُ إليَّ أنَّ مستقبلي لن يكون سعيدًا إلاَّ معها.

هل أصرُّ على رأيي، وأتناسى أمِّي وأبي وأسرتي كلَّها؟

أشر عليَّ جزاك الله خيرًا.



الجواب:

كتابك يناقض بعضه بعضاً، قلت في البداية: إِنَّ حَبَّكَ لِلْفَتَاةِ كَانَ حَبَّ عَاطِفِيَّةٍ، لَمْ تَكَلِّمْهَا، وَلَمْ تَكَلِّمْكَ إِلَّا عِنْدَمَا عَزَمْتَ عَلَى السَّفَرِ، وَمَدَدْتَ يَدَكَ لَهَا مُوَدِّعًا، ثُمَّ غَبْتَ عَنْهَا مِنْذُ سَنَةِ (١٩٧٤م)، وَتَقُولُ: إِنَّكَ لَمَسْتَ فِيهَا كُلَّ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ، وَرَأَيْتَ فِيهَا كُلَّ مَا تَتَمَتَّعُ بِهِ الْفَتَاةُ الشَّرِيفَةُ. ثُمَّ قَلْتَ وَاصِفًا نَفْسَكَ بِأَنَّكَ عَاطِفِيٌّ؛ إِذْ اسْتَشْهَدْتَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليله
وأود أن أسالك أربعة أسئلة:

- ١- لماذا تزوجت أمها رجلاً غريباً، ولم تنزّج من أهل منطقتها؟
 - ٢- لماذا طلقت هذه الأم مرتين؟
 - ٣- لماذا هاجر أبو البنت، ولم يسأل عنها منذ هاجر؟
 - ٤- لماذا لم يتقدم أحدٌ لخطبتها، وقد بلغت (٢٣) سنة؟ وهي كما تقول تتمتع بالصفات كلها التي يتمناها كلُّ رجل.
- بالطبع سيكون جوابك مخالفاً الواقع، ستتكلّم بعاطفتك؛ لأنك تصاممت عن كلام والديك وكثيرٍ من أصدقائك.
- وسأجيبك عن هذه الأسئلة:

لم يتقدم للأُمّ أحدٌ؛ لأنَّ الأسرةَ معروفةٌ بسوء الخلق، والمنبوذ ينفر منه كلُّ كريم، وطلّقت أمها مرتين لسببٍ أخلاقيٍّ، أمّا الأب الذي لم

(١) سبق تخريجه.



يسأل عن ابنته فَلِشَّكِّهِ أَصْلًا فِي أَنَّهَا ابْنَتُهُ، وَلَمْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ يَخْطُبُ هَذِهِ الْبِنْتَ؛ لِأَنَّهَا نَبَتٌ فِي مَنْبَتِ سُوءٍ، وَجِرَائِمِ السُّوءِ لَا يَرِيدُهَا أَحَدٌ، وَمَنْ لَمْ يَتَحَصَّنْ مِنْهَا أَصِيبَ بَعْدُهَا.

إِذْنًا أَقُولُ لَكَ يَا أَخِي مِثْلًا يُحْكِي عِنْدَنَا فِي الْكُوَيْتِ يَقُولُ: ابْتَعِدْ عَنِ الشَّرِّ تَسْلَمَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

وَالرَّسُولُ الْمُصْطَفَى ﷺ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ» قِيلَ: وَمَا خَضِرَاءَ الدَّمَنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمَرْأَةُ الْحَسَنَى فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ»^(١).

دَعِ تِلْكَ الْفَتَاةَ الْجَمِيلَةَ لِنَصِيبِهَا، وَاخْتَرِ لِأَوْلَادِكَ أُمًَّّا تَرَعَاهُمْ بِأَمَانَةٍ، وَيَعْتَزُّونَ بِذِكْرَاهَا، وَيَسْعُدُونَ عِنْدَمَا يُنْسَبُونَ إِلَيْهَا، وَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ زَوْجَةً تَطِيعُكَ إِذَا أَمَرْتَ، وَتَحْفَظُكَ إِذَا غَبْتَ، وَتُسَرُّ بِكَ إِذَا حَضَرْتَ، وَتَسْرُكُ إِذَا نَظَرْتَ.

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: وَلِمَ هَذِهِ الشَّدَّةُ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ هَيِّنٌ لَيِّنٌ»^(٢) فَأَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَفَ الْمُؤْمِنَ بِأَنَّهُ ذُو حِزْمٍ فِي لَيِّنٍ، وَأَنَّهُ لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يَبْغِضُ، وَلَا يَأْتِمُ فِيمَنْ يَحِبُّ.

خَتَامًا أَقُولُ لِصَاحِبِ السُّؤَالِ: اخْتَرِ لِأَوْلَادِكَ نِعَمَ الْأُمَّ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «النَّاسُ مَعَادِنُ وَالْعَرَقُ دَسَاسٌ»^(٣).



(١) أوردته المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٦٢٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٧٧٧٥).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٠٤٦٩).

مَا مَدَى حُرِّيَّةِ الزَّوْجَةِ؟

قصيرة هي الأيام التي تبتسم لنا فيها الدنيا ما عشناها، وقليلة هي الساعات التي نهنا فيها، ولو كثرت، ثم لا تلبث الابتسامة والهناء أن تنقلبا عبوسًا وكدرًا، وتبقى لنا من البسمة الذكريات وحسب.

ولو كان تحوُّل حياة المرء من السعادة إلى التّعاسة نتيجة ذنب اقترفه لقلنا: "على أهلها جنت براقش"^(١)، ولو كان هناك مجال للندم أو الشفقة عليه لأعطيناه هذا، لكن لا فرصة للندم أعطيت له، ولم يُشفق عليه، بل كلُّ ما كان يقال له: بُؤْ بجرمك، وعُدْ بحصاد إثمك.

أمّا أن تتحوَّل البسمة إلى عبوسٍ، والنور إلى ظلام دون ذنب جناه أو إثم اقترفه ولا يدري السبب، ثمَّ يسأل: ما ذنبي؟! فلا يسمع جوابًا ممَّن يسأله، فهذه هي المصيبة.

والأعظم من المصيبة أنَّ سببَ التَّحوُّل يبلغ من التَّفاهة مكانًا لا يجب الالتفات إليه، أو يُحسب له حساب، ولست أدري كيف يتحوَّل المحبُّ المُخلِصُ العاقل الحنون إلى إنسان يثير الشُّكوك، ويختلق المشكلات، وإذا سئل عنها متى؟ وأين؟ ولم؟ سكت؛ لأنَّه لا يدري عنها شيئًا؛ لأنَّها مَحْضُ ظنونٍ أو مخلقةٌ، وقديمًا قال النَّاسُ في الكذَّاب:

من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة^(٢)

(١) يُضرب مثلًا للرجل يهلك قومه بسببه. انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، للقيرواني (١/٢٨٥).

(٢) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشهي (١/٢٥٨).



فكيف بمن يَخْلِقُ ظَنُونًا ثُمَّ يَصَدِّقُهَا وَحْدَهُ وَإِذَا سُئِلَ عَنْهَا سَكَتَ؛ لِأَنَّهَا خِيَالٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا؟!!

أَمَّا قِصَّتِي فَهِيَ كَمَا سَأَكْتُبُهَا لِسَيَادَتِكُمْ:

نشأت في عائلة عربية شريفة الأصل عزيزة في المجتمع، ميسورة الحال، متألّفة يؤثّر أفرادها بعضهم على بعض متى رأوا خصاصة^(١) في غيرهم، يرفرف الحبُّ عليهم حيثما كانوا، وترى على وجوههم الرضا أينما حلُّوا، لا يعاتب بعضهم بعضًا إن قصّر، ولا يلومه إن أخطأ، وكان الصّفْحُ طبعًا فيهم، وكانت الشّفقةُ غالبَةً عليهم، تعاونوا فكانوا كالجسد الواحد، يعين كلُّه بعضُهُ، وتآزرُوا فكانوا «كالبنيان يشدُّ بعضُهُ بعضًا»^(٢)، كما قال رسول الله ﷺ.

ولا تعجب إذا قلتُ: حتّى الأَصهار الذين تزوّجوا من بناتنا كانوا على أحسن حالٍ يمكن أن تُرْجَى، ولم نبتل بحمد الله بصهرٍ معاندٍ ولا لئيم، ولا خاصمت أمٍّ من أمّهاتنا كَنَّةً، ولا أختٌ من أخواتنا أمٍّ زوجها، ولم يكن أبى وأعمامى شركاء في عملٍ أو مالٍ بل كان لكلٍّ واحدٍ منهم عمله الخاصُّ، وكان غنيًّا بذات يده، لكنّهم كانوا شركاء في محبّتهم وتعاونهم على البرِّ والتّقوى، يجتمعون في الأفراح للتّهاني، كما يجتمعون في المصائب للتّعازي.

بلغتُ السنَّ التي أميّزُ بها بين الخيرِ والشرِّ، وأعرف بها الحسن من

(١) الخصاصة: الفقر وسوء الحال والخلة والحاجة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥٥٢/١٧).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٠٢٦).

السَّيِّئِ، ودخلت المدرسة وخالطت البنات، ورأيتُ على وجوه بعضهنَّ الكآبة، فشعرت للمرة الأولى بالسَّعادة والسُّرور الذي أعيشه في بيتي وأراه باديًا على وجه إخوتي وأخواتي، حدّثت أمِّي بما رأيت في المدرسة على وجوه زميلاتي من حزنٍ فقالت لي: احمدي الله يا ابنتي، فإننا نعيش في جنَّة ظلّالها المحبَّة، وثمارها الرِّضا.

وفي سنة (١٩٦٨م) بلغت العشرين من عمري، وكان أبي وأعمامي لا يرضون أن يتزوَّج بعضنا من بعض، متمسِّكين بالحكمة القائلة: تباعدوا تُنجبوا؛ لهذا يرى فينا أولاد العمِّ إخوةً فلا يتقدَّم أحدٌ منهم لخطبتنا.

تقدَّم لخطبتي شابُّ كريمُ العائلة، حسنُ الذِّكر، يضاھينا مكانةً في المجتمع، فرضي به أبي وأعمامي على شرط رضاي، فاستأمرني أبي، فوَكَّلت أمري إليه، واجتمعنا كما يجتمع الخاطبان، ورأى كلُّ منَّا في الآخر صاحبه وأملَ أحلامه، وتمَّت الخطوبةُ وبعدها تمَّ الزَّواج في موعده المحدد له.

عشتُ مع زوجي كما عاشت الزَّوجات من عائلتي في بيوت أزواجهنَّ في وفاءٍ خالطه الهناء فأثمرَ صفاءً جعل من عُشنا جنَّةً، ومرَّت خمس سنواتٍ عشناها كما عشنا أوَّل شهر من زواجنا، رزقنا فيها ابنًا وابنتين، كانوا كالحور العين في جنَّتنا.

منذ أن بلغتُ الثانية عشرة من عمري كان أبي يشركني مع إخوتي الثلاثة في عمله؛ ليشعرنا أننا كبار أكفَاء له في العمل، وكان لا يردُّ بيعًا ولا شراءً، فيبيع أحدها ويشتري دون أن يلقي لومًا أو تأنيبًا.

اتَّسعَ عمل والدي تجاريًّا وعقاريًّا في السَّنوات الخمس الأولى من زواجي، فأشركنا - نحن أولاده الأربعة - في إدارة التَّجارة وماليَّتها،



وكنْتُ مستشارةً للجميع في مجلس الإدارة، ومتى أشكل عليهم أمرٌ طلب والدي وإخوتي حضوري، فكان رأيي يفتح الباب لهم، وكان زوجي يعلم ذلك كلّه ولا يخالف أو يعترض، لكن ذلك لم يدم طويلاً، فبعد سنواتٍ زواجي الخمس توفّي والدي وبدأت المشكلات تكثر بيني وبين زوجي.

إنّني أعلم أنّ زوجي لا يطمعُ في مالي، ولا يحسدني على ثروتي، لكنّه أصبح يشكُّ في حبيّ له، - أو هكذا أتصوّرُ -، وإخوتي لا يريدون قسمة المال، ويريدون أن أكون رئيسة الإدارة والمستشار الأول فيها، وهذا يضطّرني لأن أقضي أكثر نهارٍ خارج بيتي، وقد كُثِرَ كلام زوجي عني وعن الأطفال، وكُثِرَ لومه لي، ولكن متى سألته عن السبب الذي أثار اللوم قال: لا أدري، حاول أهلي وإخوتي وأصهارنا إصلاحه، لكنّه لا يلبث أن يعود كما كان، حتّى أصبح بيتنا أشبه بالجحيم لا سكن لنا فيه، ولا رحمةً ولا مودّةً، قلت له: أتذكّر أنّك تزوّجتني تاجرةً أم قعيدةً بيتٍ؟ قال: تزوّجتك تاجرةً بنت تاجرٍ أخت تجارٍ.

قلت له: هل أترك العمل في الشركة؟ فإذا أردت ذلك فقل: نعم، فسكّت ولم يجب.

قلت: أتعلم أنّ هذا المال الضخم الذي هو سهمي في الشركة لأولادنا؟ قال: نعم.

قلت: أتعلم أنّه لن يرثني أحد من إخوتي، ما دام ابننا حيّاً؟ قال: نعم.

قلت: أتشكُّ في ذهابي إلى أماكن أخرى غير الشركة؟ قال: أعود بالله من ذلك وأستغفره، أيُّ شيطانٍ ألقى على لسانك هذه الكلمة؟!



قلت: أتشكُّ في حبِّي لك يا أبا أولادي؟ قال: معاذ الله.

قلت: هل تريد أن تكون شريكًا في الشركة أو تعملَ موظفًا أو مراقبًا فيها؟ قال: لا، إنَّ عملي يكفيني.

قلت: هل ترى خللاً في البيت أو تقصيراً في رعاية الأولاد؟ قال: لا.

قلت: ما بالك بالله عليك؟! فسكت، ولم يجب.

سيّدي: زوجي لا يريد أن أعمل، على أنه تزوّجني تاجرًا، فقد كنت شريكةً لأبي وإخوتي في تجارةٍ نعمل بها سوياً، وعشت معه سنوات زواجنا الخمس والحال هذه كما ذكرت في رسالتي، تاجرٌ بنتٌ تاجرٍ وشريكةٌ لإخوة تجار.

واليوم لي أموالٌ موروثةٌ وخاصّةٌ، وعملي يضطرُّني أن أديرها باستمرار، وأقسم لك يا سيّدي بأن لا ذنبَ لي فيما حدّثت ممّا ذكرت، فلا أذكر أنّي غيرتُ عادةً عشناها، أو سيرةً اعتدناها أو أنّي فعلت شيئاً يخالف رأي زوجي في الأمور المتعلقة به، علماً أنّي ربّةٌ بيتٍ وزوجةٌ وأمٌّ قبل أن أكون تاجرًا، وقد أعطيتُ بيتي أضعافَ ما كنتُ أعطيه من رعايةٍ زوج وأولادٍ، ولا فخرَ لي في ذلك؛ لأنّه واجبٌ عليّ، لكنني اليوم أعيش وضعًا جديدًا محتمًا عليّ حتّى لا يضيعَ منّا ما وصلنا إليه؛ لذلك قرّرت أن أعرض مشكلتي عليكم لعلّ زوجي يقرأ جوابكم، فيعودُ إلى رشده، ويرجع ظلًّا وارفًا نديًا، وزوجًا محبًّا مخلصًا وفيًا.

إنّ مالي كثيرٌ، وخيري وفيرٌ، ونعمةُ الله عليّ كبيرةٌ، ولا وارثَ لي إلّا زوجي وأولادي.



أرشدني أرشدك الله ماذا أفعل؟

الجواب:

إذا كان الرَّجُلُ قد تزوّجك تاجرَةً فعليه أن يرضى ويوافق على قيامك بأعمال التّجارة، أمّا إذا تزوّجك ربّة بيتٍ ثمّ جاءتك الثّروة من ميراثٍ، وأردت أن تعملي تاجرَةً فله الحقُّ في منعك؛ لأنّه يريدك ربّة بيتٍ.

هذا جوابي، وليس عندي جوابٌ غيره، لكن لا بُدَّ من الاستعانة برأي القراء من الإخوة والأخوات؛ لأنّ هذا السُّؤال اجتماعيٌّ أكثر من كونه فقهياً، علماً أنّ الإسلام دينٌ لا يعجزُ عن حلِّ أيِّ مشكلةٍ من المشكلات ما لم تكن فيها مخالفة له، فإنّه يأمر بملازمة الحدود.



لَا جَرِيمَةَ فِي خَطَا

عشت حياتي مؤمناً، وكلُّ مسلم يعلم أنّ القَدَرَ خيرُه وشرُّه من الله، وأنّه ركنٌ من أركان الإيمان السّتّة كما أخبرنا رسول الله ﷺ^(١).

كنت أحمدُ الله تعالى في أوقات الضّيق حتّى قبل إتيان الفرج، وأعلم يقيناً أنّ دوام الحال من المحال، وأنّ الإنسان في نعمةٍ حتّى لو حلّت به النّعمة، فإذا رأى مصائب النّاس من حوله هانت عليه مصيبته.

وما القدر إلاّ حوادث تحيط بحياة الإنسان، لا حول له ولا قوّة في

(١) رواه مسلم، رقم: (٨)، بلفظ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».



دفعها أو جلبها، وقد تكون خيراً أو شراً، وهي اختبارٌ يمتحنُ الله بها عبده المؤمن، وما كان له في دفعها حولٌ وجب عليه دفعها.

سيدي - وأستغفر الله تعالى - إنني ضقت ذرعاً بحادثٍ جرى لي، لا يد لي فيه على أن الناس يعلمون هذا الحادث إلا أن بعضهم يريد أن يلصق بي الإثم، فيخالف العرف والقانون والشريعة.

وإنني - والله يعلم - لا أَرْضَى أَنْ أَسْلِكَ طَرِيقاً صَعَباً أَوْ مَلْتَوِيّاً لِأَبْرِي نَفْسِي، أَوْ أَسْتَرِ ذَنْبِي، أَوْ أَحِلَّ مَشْكَلَتِي بِطَرِيقَةٍ لَا يَرْضَى عَنْهَا ضَمِيرِي، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْخِيَارَ لَا يَضُرُّ أَحَدًا، وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الْحَقَّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، وَأَنَّهُ يَعْلُو وَلَا يُعَلَى عَلَيْهِ، وَأَنَّ الْخَطَأَ لَا يَكُونُ عَمْدًا.

وإليكم قصتي من البداية.

ولدت لأبوين معروفين في مجتمعهما، المذكورين فيه بالخير بعد زواجٍ دام خمسة عشر عاماً، ولولا الشَّبه الكبير بيني وبين أبي في الصُّورة والحركة التي كان أبي يذكرها في طفولته لَطَعَنَ بأمِّي وشكَّك في نسبي، فقد كان أبي يشكُّ أنه عقيمٌ، وكانت أمِّي تؤمن بأنها عاقرة.

عشت السَّنَاتِ العَشْرَ الأُولَى مِنْ عَمْرِي مُدَلِّلاً مُعَزَّزاً مُطَاعاً مُطَلَقَ الحَرِيَّةِ، وَكَانَتْ طَلِبَاتِي فَرَائِضَ يَجِبُ أَنْ تَطَاعَ، وَامْتِنَاعِي نَوَاهٍ يَجِبُ أَنْ تُنْفَذَ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَقَدْ كُنْتُ فِي طِفْولَتِي - كَمَا يُقَالُ عَنِّي - خَفِيفَ الظِّلِّ؛ لِاعْتِدَالِ تَرْبِيَّتِي وَحَسَنِهَا، وَقَدْ كَانَتْ حِكْمَةُ أَبِي وَتَعَاوُنُ أُمِّي مَعَهُ فِي تَرْبِيَّتِي مَصْدَرِ ذَلِكَ الْإِعْتِدَالِ، لَكِنَّ سَعَادَتِي بِتِلْكَ الرَّعَايَةِ لَمْ تَكْتَمَلْ، فَبَعْدَ بَلُوغِي الْعَاشِرَةَ مِنَ الْعَمْرِ تَوَفَّيَ أَبِي وَكَانَ قَدْ قَارَبَ السِّتِينَ، أَمَّا أُمِّي فَقَدْ تَوَفَّيَتْ بَعْدَهُ بِعَامَيْنِ وَهِيَ فِي السَّابِعَةِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمْرِهَا، لَمْ أَجِدْ مِنْ أَوْيَ إِلَيْهِ إِلَّا قَرِيباً لَوَالِدِي حَضَرَ جِنَازَةَ أُمِّي، فَأَوَانِي إِلَيْهِ خَمْسَ



سنواتٍ، لم أسمع منه ولا من زوجته وأولاده ما يُكَدِّرُ خاطري، أو يشعرني بأنِّي بينهم غريبٌ، فقد كنتُ - كما قلتُ - خفيفَ الظلِّ، وكلمة الشُّكر لا تُفَارِقُ قولي، والوفاء والاعتراف بالجميل من طبعي.

نَلْتُ شهادةَ الثَّانَوِيَّةِ، وقرَّرت مغادرةَ بلدي إلى الكويت، فاستأذنت من آواني فتلكاً^(١) عن الإذن، ولكنه أذنَ أمامَ إصراري، وزوَّدني - جزاه الله خيراً - بالنَّصِيحةِ والمال، ووَدَّعَنِي بقوله: إِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدِي غَدًا كما كانت في الأمسِ، ولا تنسَ أَنَّ هذه أُمَّكَ - وأشار إلى زوجته - وهؤلاء إخوتك - وأشار إلى أولاده - والأبُ - يا بنيَّ - لا يريد من ولده جزاءً ولا شكورًا، ولا تفكِّرْ أَنِّي أحسنتُ إليك ولكنِّي أحسنتُ إلى نفسي.

شكرتُه ودعوتُ الله أنْ يجزيه عني خيراً، فقد كان - والله - خيرَ والدٍ، وكانت زوجته خيرَ أمٍّ حتَّى بعد بلوغي، فلم أشعر معهم بذلَّةِ اليَتيمِ.

عزمت على السَّفَرِ حين شعرتُ أَنِّي أصبحتُ عالَّةً على قوم لا تربطني بهم رابطة نسب، فللرَّجل بنات وزوجته غريبة عني، وقد شعرتُ أَنِّي أصبحتُ ثقيلَ الظلِّ عليهم.

ولمَّا وطئت أرض الكويت لم أكن أدري لِمَ أتيت، ولم أعلم إلى أين أذهب، وأين آوي! لكن بعد وصولي شاءَ الله أنْ أرى في المطار رجلاً عليه سِيَمًا^(٢) حسنة لا أدري أكان يودِّع أم يستقبل! لأنَّه لم يكن يحمل متاعًا، فتبعته إلى سيَّارته، وقلتُ له: يا عمُّ، اسمح لي، قال: نعم، قلت: هل أجد عندك مأوى يؤوي ابن سبيلٍ ليلةً واحدةً حتَّى أعرف

(١) تلكاً عن الأمر: أبطأ وتوقَّف وامتنع. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/٤٢٥).

(٢) السِيما: العلامة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٢/٤٣١).

جماعتي؟ قال: تفضّل، وركبت معه إلى داره، وفي الطّريق سألتني عن جماعتي، فسَمّيت له بلدي، وقلتُ: لا أعرف أحدًا بعينه، لكنّهم كُثُرٌ هنا، فلعلّي أتعرّف أحدًا منهم، فقال: في شركتنا موظّفون من بلدك، لعلّك تعرف أحدًا منهم غدًا، وسارت السيّارة، والصّمت قد خيم علينا.

وفي الصّباح رافقت الرّجل إلى شركته، وهناك امتحنني بنفسه، وضمّني إلى العاملين لديه، وأوصى بي رجلًا من أهل بلدي قال: إنّه يعرف أبي، وبعد حصولي على عملٍ أردت متابعة دراستي فالتحقت بجامعة بيروت ودرست بالمراسلة، وكنّت أذهب في نهاية كلّ سنةٍ لتقديم الامتحان، وأعود ناجحًا موفّقًا حائرًا درجاتٍ تتفاوت بين الجيدة والجيدة جدًا.

ولمّا بلغت السادسة والعشرين من عمري رشّحتني صاحب الشركة إلى عمل كبير، وتعرّفت مصادفةً فتاةً في الثانية والعشرين من العمر، كان أبوها يعمل في إحدى ضواحي الكويت، فتقدّمت لخطبتها وحددنا موعدًا لذلك، وقبل الموعد المحدّد بيومين حصلَ معي حادث سيّارة مات على إثره إنسانٌ، فأدخلت السّجن.

وعندما علم والد الفتاة بما جرى وبدخولي السّجن فسّخَ الخطبة ورفضني، لكنّ الفتاة مصمّمةٌ ألا تكون لغيري، وأبوها يقول: لا أصاهر رجلًا دخل السّجن بجريمة قتل، والله يعلم أنّي لم أقتل عمدًا، وإنّما كان القتلُ خطأً، وقد دفعت الدّيّة، وقضيت الحقّ العامّ، ومع ذلك بقي والد الفتاة مصرًّا على الرّفص.

قال لي رئيس الشركة: قد بلغت البنت سنًّا لا يمكن معه إجبارها على الزّواج بمن لا تريد، فاصبر فإنّ لم تكن زوجةً لك اليوم فستكون غدًا،



لكِنِّي لا أريد فضيحةً لأهل الفتاة، ولا خلقَ حقدٍ بين الأب وابنته.
هي وأمُّها راضيتان بي، لكنَّ الرِّفْضَ من أبيها وابن عمِّها الَّذي يريدُها
زوجةً له، وهي تكرهه، فانصحنى بالله عليك ماذا أفعل؟

الجواب:

متى تجاوزت البنتُ العشرين لا تُجبرُ على الزَّواجِ ممَّن لا تريد،
وتستطيعُ أن تقيمَ دعوىً ضدَّ وليِّ أمرها، أو من يريدُ إكراهها، وسيزوِّجها
القاضي بعد ذلك.

لكِنِّي لا أنصحك بمثلِ هذا الزَّواجِ، وبما أنَّ مديرِك رجلٌ كريمٌ،
يحبُّ الخيرَ ويفعله، وفي الشَّرْكةِ رجالٌ يحبُّون الخيرَ ويفعلونه تطوُّعاً،
فحاول حلَّ القضيةِ بالصُّلحِ أوَّلاً، واجعلِ آخرَ الدَّواءِ الكيِّ، وإن كنت
فيما كتبت صادقاً فالحكم في القضيةِ لك، وليعلم هذا الجاهلُ وغيره أنَّ
دخولك السِّجْنَ لا يضرُّ مستقبلَكَ، ولا يمنع زواجك.

وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ

وصلتني رسالةٌ موقَّعةٌ باسم القارئة حياة، تُعلِّقُ فيها على ما نُشرَ في
العدد (٥٦٠) من مجلَّةِ «اليقظة» في صحيفة من غريب ما سألوني بعنوان
«الأعمى المخدوع».

تقول في رسالتها: النَّاسُ عندما يسألونك يريدون رأيَ الدِّينِ وحُكْمَ
القرآنِ لا آراءَكَ الشَّخصيَّةَ واجتهاداتِكَ، ثمَّ تقول معلقةً: وإنَّ ما فعلته
الزَّوجةُ يجب فيه الحدُّ، وهو الرِّجْمُ حتَّى الموت لا العفو، وذلك حكم
الإسلام وحكم الرِّسول.

وإنَّ أَمْرَكَ الزَّوْجِ أَنْ يَكْظِمَ غَيْظَهُ وَيَعْفُوَ يَجْعَلُ مِنْهُ دِيُوثًا^(١) شَاهِدَ
مَحَارِمَهُ تُنْتَهَكُ فَسَكَتَ سَكَوتَ رِضًا، وَذَلِكَ يَعْنِي أَنْ تُطَوَى الْجَرِيْمَةُ كَأَنَّهَا
لَمْ تَكُنْ بِسَكَوتِ الزَّوْجِ وَرِضَاهِ عَنِ الْخِيَانَةِ وَرَائِحَتِهَا الْعَفْنَةُ.

نحن لا نرضى منك أن تُفْتِيَ له بقولك: لا تُطَلِّقْهَا؛ خَوْفًا عَلَى
سَمْعَتِكَ وَعَلَى عِيَالِكَ؛ إِلَى آخِرِ مَا جَاءَ فِي رِسَالَتِهَا الَّتِي تَسْتَطْرِدُ فِيهَا
قَائِلَةً: فَكَيْفَ يَكْظِمُ الزَّوْجُ غَيْظَهُ وَيَعْفُو، وَأَنْتَ تَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ
خَنْزِيرًا، فَالْخَنْزِيرُ هُوَ الْحَيْوَانُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَرْضَى لِأَنْثَاهُ أَنْ تُعَاشَرَ أَمَامَهُ.

الجواب:

أشكر القارئة حياة على غَيْرَتِهَا الدِّينِيَّةِ، وَاهْتِمَامِهَا بِالْقَضَايَا الْإِسْلَامِيَّةِ
وَمَحَاوَلَتِهَا فَهَمَّ أُمُورِ دِينِنَا الْحَنِيفِ.

لَكِنِّي أَقُولُ لَهَا: إِنَّ الْغَيْرَةَ عَلَى الدِّينِ إِذَا لَمْ تَكُنْ عَنِ مَعْرِفَةٍ بِأَمُورِهِ
وَأَحْكَامِهِ قَدْ تَقُودُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْخَطَا، وَإِصْدَارِ حُكْمٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ، وَقَدْ
تَنْقَلِبُ هَذِهِ الْغَيْرَةُ إِلَى تَعْصَبٍ أَعْمَى ضَرُرُهُ أَكْثَرُ مِنْ فَائِدَتِهِ.

وَمَا أَكْثَرَ الْقَضَايَا الَّتِي جَانَبَ فِيهَا جَهْلَةُ الْمُتَحَمِّسِينَ لِلدِّينِ الصَّوَابِ؛
لَأَنَّهُمْ اعْتَمَدُوا غَيْرَتَهُمْ وَإِخْلَاصَهُمْ، دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا طَرِيقَ السَّلَامَةِ مِنْ هَذَا
الْحِمَاسِ، وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَالسُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ هُمَا الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الْمُوَصِّلُ
إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ عَثْرَةٍ، وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ
بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢)، فَرَأَى الدِّينَ هُوَ الْأَرْجَحُ.

(١) الديوث: الذي يُدْخَلُ الرِّجَالُ عَلَى حَرَمَتِهِ بِحَيْثُ يَرَاهُمْ، كَأَنَّهُ لَيْنَ نَفْسِهِ عَلَى ذَلِكَ،
وَيُطْلَقُ عَلَى مَنْ لَا غَيْرَةَ لَهُ عَلَى أَهْلِهِ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/٢٥٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٧١)، ومسلم، رقم: (١٠٣٧).



وقصّة الأعمى المخدوع من أخطر القضايا وأصعبها، والحكم فيها يحتاج إلى كثيرٍ من التّروي والتّأني وإلى مراعاة كلِّ الظروف المحيطة بها؛ لذلك يجب أن ننظر في الأمور الآتية:

١- الحدّ - أيُّ حدٍّ كان - لا يقيمه إلاّ وليُّ الأمر، فلا يُقيم الحدَّ أبٌ ولا زوجٌ ولا رئيس قبيلةٍ ولا نائب سلطان كالمحافظ مثلاً، وإذا لم يوافق وليُّ الأمر على إقامة الحدِّ لا يُقام أبداً، ولا يُقام حدُّ الزّنا على الزّاني والزّانية إلاّ إذا شهد أربعة شهودٍ أنّهم رأوا حقيقة الفعل.

٢- هذا الأعمى لم يرَ الفعل الشّائن، وقوله: إنّه رآه، لن يصدّقه فيه أحد أبداً؛ لأنّ زوجته لم تكن ذات مظهرٍ شائنٍ، إنّما كانت رقيقةً عطوفاً وفتيةً؛ إذن لماذا يُعرض نفسه للتّكذيب، ويصبح كذاباً في المجتمع؟!

٣- لو أصرَّ على ما رآه، ورفَعَ دعوى ضدّ زوجته لكذبته الزّوجة، ورفعت عليه دعوى حماية شرفٍ، وحينئذ تجبُّ عليه الملاعنة، أو حدُّ القذف، وفي كلتا الحالتين فضيحةٌ.

٤- إنّ الفضيحة ستقع على أبرياء لم يرتكبوا جرماً ولا اقترفوا خطيئةً، ستقع على الأولادٍ وخدمهم، ويكون الجنّة في ذلك الأب أو الأمّ.

إذن؛ فليس هناك إلاّ السّتر، والله يحبُّ السّتر، و«مَنْ سَتَرَ عورةَ مسلمٍ وستر الله عورته يوم القيامة»^(١)، وقضية الأعمى المخدوع لا تخصُّ زوجاً وزوجةً، وإنّما فيها مستقبل بنين وبنات.

ثمّ إنك وصفت هذا الرّجل بالدّيوث، ويؤسفني أن أقول لك: إنّه ليس كذلك، فإنّ الدّيوث هو من نسّميه القواد الذي يجلبُ الخنا إلى بيته،

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (١٧٨).

ويقودُ الرِّجالَ إلى أهله، أمَّا هذا الرِّوَجُ فقد رأى الفضيحةَ وسَتَرَهَا، وَمَنْ سَتَرَ سَتَرَهُ اللهُ.

أرجو من الأخت حياة ألا تتسرَّعَ، فالإسلام دينٌ سترٌ لا يرضى الفضيحةَ.

ولا ننسى ما حصلَ زمنَ سيِّدنا عمر رضي الله عنه حين جاءه رجلٌ وقال له: يا أمير المؤمنين، جاءني من يخطبُ ابنتي، وهي ليست عذراء؛ لأنَّها أخطأت، فأخبره بالخطيئة؟ فأجابه سيِّدنا عمر: «لو قلت ذلك لأقمتُ عليك الحدَّ، قل: إنَّها ثيبٌ»^(١).

على كلِّ حالٍ أشكر لك رسالتك، وأرجو أن يغفر الله لك ويسامحك.

كلمةٌ أخيرةٌ أقولها لك وللقرَّاء: قد اتَّهم المرَّجفون^(٢) ديننا بأنَّه في وادٍ، والحياة في وادٍ آخر، وممَّا يؤسف له أن كثيرًا ممَّن يعطون لأنفسهم حقَّ إبداء الرأْي في المسائل الدِّينية قد عمَّقوا هذا الرأْي؛ لأنَّهم ينظرون إلى الأمر من زاويةٍ واحدةٍ، ولكنِّي أقول: إنَّ في القضاء ما يسمَّى (نصَّ القانون)، وما يسمَّى (روح القانون) والفرقُ بين الاثنين بعيدٌ، مع أنَّ الأمرَ كلَّه يتعلَّق بتطبيق العدالة، فروح القانون يعني الإمامَ بملاساتِ القضيةِ كلِّها من جوانبها الإنسانيَّة ودوافعها والظُّروف المحيطة بها، أمَّا نصَّ القانون فلا يأخذ هذا كلَّه في الحساب.

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٨٦٠٧).

(٢) المرَّجفون: الذين يولدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب في الناس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٢٥/٢٣).



ومن الواجب أن ينظر الإنسان للأمر من جوانبه جميعها، ويحيط به حتى يكون في موقفٍ يستطيع معه أن يُصدِرَ أحكامه أو فتاويه بعين الإنصاف، ولا يتعجل.

واعتقد أن هذا ما حاولته، فهذه الأسرة ليس بالأمر السهل، وتشتت السمل لا يرضى به الله، فليبق الأولد بين أمهم وأبيهم، ولتعش الأُم في عذاب الضمير.



صَبْرٌ جَمِيلٌ

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله على كلِّ حالٍ، وفي السَّراءِ والضَّراءِ، والشُّدَّةِ والرَّخاءِ، والسَّعادةِ والشَّقَاءِ، والنَّعمةِ والنَّقمةِ، الحمد لله على كلِّ حالٍ.

سيدي: أكتبُ لك رسالتي هذه غيرَ راجٍ فيها حلَّ مشكلةٍ، فما تعرَّضتُ طوال حياتي لمشكلةٍ؛ لأنِّي عشت أفاضي نفسي قبل أن يشعر صاحبي بمشكلتي، ولا كتبتها أشكو قضاءً وقدراً فأنا مؤمن بالله تعالى، مؤمن بقضائه وقدره، خيره وشره، وحلوه ومره.

قرأت كتاب الله وفهمت كثيراً من معانيه، وقرأت فيه أحسن القصص؛ قصص رسله الكرام، وما تعرَّضوا له من أذى، صبروا وصابروا فأحبهم الله حتى كانوا أقرب البشر إليه، فزادني ذلك إيماناً بمن أنزله جلَّ جلاله؛ إيماناً جعلني أواجه المصائب بقلبٍ صابرٍ ويقينٍ ثابتٍ وعقلٍ رزينٍ.

أنا إنسانٌ مبتلى - وأستغفر الله تعالى أن أقولها جزعاً، ولكنني أقولها

مُخْبِرًا - بأعز ما عندي؛ بفِلذات كبدي الَّذِينَ لم نَكِدْ نفرح بولادةِ أحدهم حتَّى نحزن لمرضه ثمَّ نفجع بموته، ومع ذلك كلُّه لم أجزع من قضاء الله، بل كلُّما زاد الاختبار صعوبةً زدت إيمانًا، ولجأت إلى كتاب الله أتلوهُ، وأقف عند آيات الصَّبْرِ أتلوها مطمئنًا، حامدًا سائلًا المولى جلَّ شأنه وفاءً وعده لعباده الصَّابرين إذ قال: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الرُّم: ١٠]، موقنًا أنَّ ما يُصَاب به العبد المؤمن في هذه الحياة اختبار، وجزاءً من نجاح فيه وعدُّ الله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٤٦]، وحبُّ الله جزاءً لا يعدله جزاء.

وبعد:

فإني من بلدٍ عربيٍّ، تزوّجت وعشت مع زوجتي الجميلة الخَلْق والحُلق عامًّا في هناءٍ ووفاءٍ ومودَّةٍ متبادلةٍ، وفي خير من الله كثير، فالبدن صحيح معافى، والمال ميسور، والعمل مثمرٌ، ولا ينقصنا إلَّا ولدٌ يكون ثمرَةً لهذا الزَّواج ورابطةً له.

وبعد العام بشَّرتني زوجتي بأنَّ زهرة الثَّمرة قد بانت، وكان الحملُ، ومرَّت أشهرُهُ سريعةً، وجاء المخاض وتمَّت الولادة، وكان المولود ذكرًا، فحمدنا الله تعالى وشكرناه على هذه النِّعم، فهذا الولد سيكون حلقةً جديدةً في سلسلة حياتنا السَّعيدة، ورابطة الرَّحمة، وميثاق المودَّة، وريحانة البيت، والنَّعمة الكبرى.

لم تَطُل فرحتنا يا سيِّدي، فالولد مريضٌ بمرضٍ غريبٍ لا أدري ما هو، فلا ينمو منه إلَّا بطنه الَّذي كان ينتفخُ، وأعضاؤه تضمر بشكلٍ غير عاديٍّ، وكان جلدًا على عظمٍ، ووجهه ليس فيه أثرٌ للحياة.

عرضته على أطباءٍ كُثُرٍ فلم يستطيعوا أن يُشخِّصوا مرضه ومات قبل أنْ



يبلغ عامه الأول، فاحتسبنا فقدانَه بالصَّبْر والأمل بأن يعوّضنا اللهُ خيراً منه، ثم رزقنا مولوداً ذكراً آخرَ يحمل المرض نفسه ولم يلبث أن لاقى مصير أخيه ذاته فتوفّي دون أن يشخّص الأطباء مرضه، فحمدتُ اللهُ الَّذي أعطى وأخذ، وصبرتُ، أمّا زوجتي فجزعت، ولا ألومها ولا يلومها عاقلٌ في ذلك، لكنني استطعت أن أعزّبها وأسليها، وجاء المولود الثالث بنتاً فسألت اللهُ تعالى أن يقيها شرَّ مرضِ أخويها، لكنَّ المرضَ أصابها وكانت أعراضه خفيفةً استطاعت معه أن تعيشَ بطنٍ ضخمٍ وجسمٍ ضامرٍ، ووجهٍ شاحبٍ، ولمّا بلغت السادسة من عمرها ولدت أختها، لتستقبل بعد عامها الأول المرضَ نفسه.

تدهورت الحالة الصّحيّة لابنتي الكبرى في سنتها الثامنة، وكنا نراها تموتُ كلَّ يوم، فاضطررني ذلك أن أدخلها المستشفى، وكان تشخيصُ الأطباء أن الطّحال يستوعب الدّم كلّهُ فلا يعطي للجسم منه شيئاً، وأنّ هذا الانتفاخ سببه تضخُّم الطّحال، وأنّ ضمور الجسم سببه عدم الانتفاع بالغذاء، وأنّ العاقبة فيه الموتُ.

فاقترحوا استئصال الطّحال، وقالوا: قد تنجح العمليّة، لكنّ أملنا بالنّجاح ضعيف، فوافقت، وماتت البنت في أثناء العمليّة، وكان وقع الصّدمة كبير الأثر على الأمّ، ولمّا بلغت ابنتي الأخرى الرّابعة من العمر أصابتها أعراض المرض ذاتها، وعرف صديق من الكويتيين مشكلتي، فاقترح عرض الفتاة على طبيب ماهر في هذا الاختصاص ففعلنا وقرّر الطّبيب عقدَ جلسةٍ طبيّةٍ؛ لتشخيص المرض بفحصٍ عامٍّ، قرّروا بعد هذا التّشخيص أن المرض سببه الطّحال، وأنّه يجب استئصاله، فوافقت وأبت زوجتي؛ لأنّها آمنت أن النّتيجة هي ذاتها التي كانت عليها عمليّة أختها،



وَأُجْرِيَتِ الْجِرَاحَةُ، وَنَجَحَتِ الْعَمَلِيَّةُ، وَخَرَجَتِ الْبِنْتُ مِنَ الْمَسْتَشْفَى، لَكِنَّهَا مَاتَتْ بَعْدَ أَيَّامٍ.

سَيِّدِي: دَفَنْتَ ابْنَيْنِ وَبَنَتَيْنِ بِيَدَيَّ لَمْ أَرْضَ أَنْ يَلْحَدَهُمْ أَحَدٌ غَيْرِي، احْتَسَبْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَوْلَا أُمَّهُمْ لَنَسَيْتَهُمْ، فَهِيَ شَقَائِي؛ لِأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَيَّ نَظْرَةَ الْقَاتِلِ، وَتَعِيدُ عَلَيَّ مَسَامِعِي الْكَلِمَةَ ذَاتَهَا كُلَّ يَوْمٍ: أَنْتَ قَاتِلٌ. فَأَجِيبْهَا: وَمَنْ قَتَلْتُ يَا هَذِهِ؟! فَتَقُولُ: قَتَلْتُ بِنْتَيْنَا، وَلَوْلَا الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي وَافَقْتِ عَلَيْهَا لَعَاشَتَا. هَكَذَا تَعْتَقِدُ.

سَيِّدِي: إِنِّي الْآنَ أَبُ لَوْلَدَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَعَاْفَى بِفَضْلِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ، أَمَّا الثَّانِي فَمَرِيضٌ بِمَرَضِ إِخْوَتِهِ ذَاتِهِ، وَالْأَطْبَاءُ يَنْصَحُونَنِي بِإِجْرَاءِ الْعَمَلِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَفْحَلَ الْمَرَضُ، وَيَقُولُونَ: جِرَاحَةُ الْيَوْمِ غَيْرُ جِرَاحَةِ الْأَمْسِ، فَالْنَّجَاحُ الْيَوْمَ مَضْمُونٌ، وَالْأَجَلُ إِذَا جَاءَ لَنْ تَقْدِّمَهُ الْجِرَاحَةُ وَلَنْ تَوَخَّرَهُ، وَالْجِرَاحَةُ لَا تَقْتُلُ مَرِيضَكَ، لَكِنَّ الضَّعْفَ هُوَ الدَّاءُ.

وَقَدْ قَالَ الْأَطْبَاءُ: إِنَّ الْبِنْتَ الثَّانِيَةَ لَمْ تَمُتْ بِسَبَبِ الْعَمَلِيَّةِ، بَلْ مَاتَتْ بِمَرَضٍ غَيْرِ الْعَمَلِيَّةِ.

أُمُّ الْأَوْلَادِ تَحْذَرُنِي مِنَ الْمَوْافَقَةِ عَلَى إِجْرَاءِ الْعَمَلِيَّةِ، وَمَا تَزَالُ تَتَّهَمُنِي بِأَنِّي قَاتِلٌ، وَمَطْلُوبٌ مِنِّي أَنْ أَتَّخِذَ الْقَرَارَ السَّرِيعَ قَبْلَ أَنْ تَزْدَادَ حَالَةَ الطِّفْلِ سَوْءًا.

ماذا أفعل؟ وهل أنا قاتل كما تدَّعي زوجتي؟

الجواب:

رسالة بعثت في نفسي كثيراً من الحزن والأسى، وأسأل الله أن يُلهم هذين الوالدين الصَّبرَ.



صاحب الرسالة عليّ أعطى عنوانه فبعثت له الجواب، وكان جوابي له :

قال الله تعالى في كتابه العزيز في الآيتين: (٤٩، ٥٠) من سورة الشورى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]، ومما نفهمه من هذه الآيات أنّ الذريّة هبةٌ من الله ﷻ يهبها لمن يشاء ذكورا أو إناثا أو ذكورا وإناثا، وقد يكون الأب عقيما أو الأم عاقرا فلا يعطيها.

أمّا أنتما فقد رزقكما الله الذريّة، ولكنّها ذريّة موبوءة بمرض، لا ندري أهو من جهة الأمّ وأصولها، أو من جهة الأب وأصوله، أو من كليهما؟!!

ولست أفهم لماذا لم تعرضا نفسيكما على الأطباء ليقرّروا ما هو الداء ومن أين أتى! لا سيّما بعد أن تكرّرت ظاهرة المرض نفسه في أكثر من مولود لكما، فنحن نعلم أنّ تكرّار الإصابة بالمرض نفسه فيه احتمال أنّ يكون وراثيا، فلعلّه في الجدّ الأقرب، أو الجدّ الأعلى لأحد الأبوين، فالرسول ﷺ أخبرنا أنّ «العرق دساس»^(١)، وإنّي أعرف كثيرا من الناس ورثوا مرضا أو عادة أو صفة من جدّ بعيد، لكن مع تقدّم الطبّ ووسائل العلاج باتت معرفة الأسباب ممكنة، وبالتالي وصف العلاج اللازم.

ولست أفهم أيضا لماذا لم تُوقفا الإنجاب؟! وقد شعرت من رسالتك أنّك متعلّم أو نلت قسطا من التعلّم، وكان الواجب في هذه الحالة أن

(١) سبق تخريجه.



تحاول معرفة أفضل السبل لمواجهة مشكلة خطيرة كهذه.

أرجو وأكرر الرجاء أن تبحثا عن العلاج إن كنتما في حاجة للأولاد،
وَأَلَّا تَعْرَضَا وَلَدًا لِلْهَلَاكِ بَعْدَ ذَلِكَ، ابحثا عن العلاج أو أوقفا الإنجاب.

أَمَّا سؤالك عَمَّا تَفْعَلُهُ مَعَ ابْنِكَ الْمَرِيضِ فَالطَّرِيقُ أَمَامَكَ وَاضِحٌ، وَلَا
بُدَّ مِنْ عَرْضِهِ عَلَى الْأَطْبَاءِ، فَهَذَا هُوَ السَّبِيلُ الْوَحِيدُ؛ لِأَنَّ رُؤْيَيْتَهُ أَمَامَكُمْ
بِهَذِهِ الْحَالِ تُسَبِّبُ لَكُمْ الْأَلَمَ وَالْإِزْعَاجَ، وَمَهْمَا حَدَّثَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَلَاقِي
قَدْرَهُ الْمَكْتُوبَ لَهُ، فِيمَا حَيَاةٍ بِصِحَّةٍ، وَإِمَّا مَوْتَ وَرَاحَةَ لَكُمْ جَمِيعًا.

أَمَّا سؤالك عَنِ مَسْئُولِيَّتِكَ عَنِ مَوْتِ الطِّفْلَتَيْنِ فَأَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ:
الطِّفْلَتَانِ مَاتَتَا بِأَجْلِهِمَا، وَقَدْ فَعَلْتَ مَا عَلَيْكَ كَأَبٍ، وَلَمْ تَقْصُرْ تَجَاهَهُمَا،
وَكَنتَ تَرِيدُ لَهُمَا الْخَيْرَ وَالصَّحَّةَ، لَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ لَهُمَا مَا قَدَّرَهُ فِي الْأَزْلِ،
فَلَا تَدْعُ هَذَا الْأَمْرَ يُورِّقُكَ، وَهُوَ عَلَى الْأُمِّ الْمَسْكِينَةِ، وَلَا تَقْسُ عَلَيْهَا،
فَقَدْ عَاشَتْ أَيَّامًا صَعْبَةً، أَسَأَلَ اللَّهَ لَهَا الصَّبْرَ.

بقيت كلمة أخيرة أقولها: أعجبني في رسالتك إيمانك العميق بالله،
وقضائه وقدره، وصبرك، واحتسابك فلذات كبدك عند خالقهم، وإني
أحبي فيك هذا الإيمان والصبر، وأسأل الله أن يعوّضك عن صبرك خيرًا،
وقلبي معك.



شَخِصِيَّةٌ ضَعِيفَةٌ

كنت في شبابي أقرأ قول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّكَ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] متعجبًا كيف يكون



المال عدوًّا لصاحبه! وكيف يكون الولد عدوًّا لأبيه! لكنَّ الله شاء أن يكون ذلك .

تزوَّجت امرأةً من أسرة عسرة الحال، رزقني الله منها طفلين، وبعد ولادة الطُّفل الثَّاني أصاب زوجتي مرضٌ في القلب، عَجَزَ أطباءُ بلدنا عن شفائها، ولمَّا كنتُ شابًّا اضطررت أن أتزوَّج زوجةً ثانيةً تُحصِّني من الوقوع في الخطيئة، فتزوَّجتُ وجعلتُ لكلِّ واحدةٍ منهنَّ دارها الخاصَّة، ولكن الضَّرَّةَ ضارَّةً، كما يقول المثل العراقيُّ، فكانتا تتحايلان في الاتِّصال ليتخاصمن، فأكون الضَّحيَّةَ بينهما .

وظننتُ أنَّ زواجي من الثَّانية سيكون لي راحة، ولكن خابَ الظَّنُّ، ولم أربح من زواجي إلَّا تضاعف الدُّرِّيَّة، فحتَّى سنة (١٩٧٤م) بَلَغَ عدد الدُّرِّيَّة أربعة عشر ولدًا؛ من الأولى ستَّة، ومن الثَّانية ثمانية، وتوفيت الأولى بمرضها، وتركت أصغر أطفالها ابن ثلاث سنواتٍ، وأكبرهم بنتًا في العشرين من عمرها، والحقُّ أنَّها ارتاحت من العذاب الَّذي كانت تقاسيه بسبب مرضها .

أمَّا الثَّانية فكان لها من الدُّرِّيَّة ثمانية، ولمَّا ماتت ضَرَّتْها قلتُ: لعلنا استرحنا، ولكن من اعتادَ الشَّيءَ لزمه، فلا يمرُّ علينا أسبوعٌ إلَّا ومشاجرةٌ قائمةٌ بيني وبينها وبين أولادها، وقد تتشاجر مع طفلها الصَّغير الَّذي لم يبلغ الخامسة من عمره .

وكان الأمرُ من ذلك أن أحدَ أبنائها قد اتَّصف بكلِّ صفاتها وأنَّه يبلغ من عمره السَّابعة عشر رَسَبَ في الصَّفِّ السَّادس الابتدائيِّ ثلاث سنواتٍ، وبعد ذلك طُرِدَ من المدرسة، لكنَّه لم يترك ذلك الخُلُقَ، بل ظلَّ يشاكس

أهله وأباه وإخوته، كأنه صورة من أمه، فلا عمل ولا دراسة، وقد قطعت عنه مصروفه اليومي ولباسه، لكنه يدخل البيت كل يوم ليأكل ويشرب، والأم تعطيه وكأن شيئاً لم يكن، وتكسوه من ملابس أو ملابس إخوانه، وتطعمه ممّا يصنع في البيت من طعام، وقد تقتصد من مصروف إخوته لتعطيه ما يكفيه أو يزيد، كأنني لم أفعل شيئاً.

و ذات صباح خرجت من غرفتي لأراه جالساً على مائدة الإفطار، وقد أُعِدَّ له أكثر ممّا يُعَدُّ لي ولإخوته، فسألت زوجتي: ما هذا؟! أهي إهانة لي يا أم أولادي؟! فأسمعني وأمه كلمات أعوذ بالله من شرها وقولها.

وتعوذت بالله من شر الشيطان الرجيم أن يقع مني ما لا تُحمد عقباه، فسلمت أمري لله وتذكرت قوله ﷺ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التَّغَابُن: ١٤].

وقد طُلبَ للجندیة بعد ذلك فهرب منها مرتين؛ لأنَّ الشَّقِيَّ شَقِيٌّ، ولا يُصْلِحُ العَطَارُ ما أفسد الدهر^(١)، لكنني ضقت ذرعاً به وبأمه، فقلت لها: ربّما استطعت الصبر معك؛ لأنك زوجتي ولك مني أطفال صغار، لكن بالله عليك خلصيني من هذا وأبعديه عن وجهي، فكان جوابها لي: هو ابنك، قلت لها: صحيح، إنه ابني، ولكن لي أولادٌ غيره ليسوا مثله، ولم يتعبوني، أمّا هذا فأشقاني بأفعاله وأقواله، وهو الآن رجلٌ يستطيع الكسب، وإنَّ بقاءه في داري يؤذيني، فاطلبي منه الخروج والعمل.

قالت: إن كان الأمر لا يرضيك فاترك الدار لأهلها، وخرجت من

(١) انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة (٤/٤٥).



الدار، ولي فيها طفلان في السابعة والتاسعة، وذهبت إلى دار أولادي من زوجتي الأولى، وبعثت أطلب ولدي الصغيرين فرفضت.

السؤال:

- ١- هل أتركها وأولادها نهائيًا وأقطع المصروف عنهم؟
- ٢- هل أقيم دعوى ضد الولد العاق ليخرج من البيت فأعود إلى بيتي؟ أرجو إيضاح الطريق السليم النافع لي في مستقبلي علمًا أنني قد بلغت الستين من العمر.

الجواب:

قرأت رسالتك المكوّنة من (٥) صحائف، وقد ظهر لي منها أنك رجل ضعيف الشخصية، لا سيما إذا خاطبك المخاطب بصوت عالٍ ونبرة حادة حتى لو كان ولدك؛ لهذا أقول لك: لا فائدة من النصيحة بعد أن عرفت فيك صفة الهرب والضعف أمام من يرفع صوته عليك، فقد هربت من زوجتك عندما رفعت صوتها عليك، وانهارت قواك وجبنت، ثم رفع ابنك صوته عليك فنكصت على عقبيك^(١).

وجوابي عن سؤالك: إن شئت أن ترفع دعوى ضد ولدك العاق فلك ذلك، وقد فهمت أنه يباح لك ذلك من رسالتك، وستأخذ حكمًا ضده بإخراجه.

لكن هل ستأمن شرّ أمه التي هي ضدك؟! وأقول لك مقدّمًا: إنّ المرأة ستدخله البيت وستطعمه الطعام وستكسوه وأنت لا تدري وستقول لك:

(١) نكص على عقبيه: رجع عمًا كان عليه من خير. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٩٠/١٨).



إنَّه ابنك، كما قالتها من قبلُ رافعةً صوتها عليك؛ لأنَّها تعرف ضعفك أمام الصَّوت العالِي.

أمَّا الهجر فخيرٌ لك، ولكنِّي أخشى أنْ تسبقك بإقامة الدَّعوى؛ لكي تأخذ منك النَّفقة لتصرفها على الابنِ العاقِّ، وتحرم منها مَنْ تُحِبُّ من أولادك.

على كلِّ حالٍ أنت جنيت على نفسك بضعفك، وأقول لك أخيراً: دع المقادير تجري في أعنتها^(١)، والله مع مَنْ أحسن.



لَيْم تَمَرَّد

زارني بعد ظهر يوم الاثنين (٢٦ / ٥ / ١٩٨٠م) أبٌ وأمٌّ وابنتهما، وكانت الأمُّ تتكلَّم بهدوء، وكنت أصغي لها بالهدوء ذاته، وأنظر إلى وجهي الأب والبنْت فأرى فيهما صدق ما تقوله الأمُّ، ثمَّ تكلم الأبُّ، ولم أشعر أنَّه كان يبالي بما يقول، بل كنت مطمئناً أنَّ الأمَّ والأبَّ قالا الحقَّ.

قالت الأمُّ: نحن من بلدٍ عربيٍّ، وفدنا منذ سنواتٍ عدَّةٍ إلى هذا البلد؛ حبًّا في الاستقرار، والتماساً للمعاش، وكانت بنتنا هذه يافعةً تعلَّمت في مدارس الكويتِ حتَّى وصلت الجامعة وما تزال في سنتها الدَّراسية الأولى، وفي العام الماضي تعرَّفنا عائلةً عربيَّةً من بلدٍ غيرِ بلدنا،

(١) جرت الأمور في أعنتها: أخذت مجراها الطبيعي وسيرها العادي. انظر: معجم اللغة العربية المعاصر، لأحمد مختار عمر (١٥٦٥/٢).



لها ابنٌ شابٌّ، ولكنني لا أدري هل كانت المعرفة هذه مقصودة أم كانت مصادفة؟! لأنَّ المعرفة أو الصداقة لم تكن للوالدين، وإنما كانت للبنت، وكان الابن الشاب يتردّد علينا بمناسبةٍ وبغير مناسبةٍ حتّى تعلق الشابان ببعضهما ببعض، وطلبت البنت أن نعقد قرانها عليه، حتّى يُتاح لهما الجلوس مع بعضهما فلا يكون الشيطان ثالثهما؛ ولأنّها بنتنا الوحيدة لم نُرد كسرَ خاطرهما، فنقّذنا طلبها، وتمَّ العقد، وصار الشاب يتردّد علينا؛ ليجتمعا في البيت، علمًا أنّ العقد جرى على مهرٍ مسمّى، لم نقبض منه فلسًا؛ لأنّه مؤجّل.

وقد يقال لنا: ربّما دفعَ شبكةً، أو أهدى هديّةً، فأقول: لا، حتّى إنّهُ لم يحضر باقةً وردٍ، بل كان يأتي فنكرمه ونحسن ضيافته على أتم وجهٍ نقدّم له الطّعام والشّراب، فيدخل علينا فارغ اليدين والمعدة ويخرج مملوء المعدة.

وفي الجلسة الثالثة بعد العقد ساءَ خُلُقُ هذا الشابِّ، فأخذ يأمر وينهى، وكأنّه يأمر في سلطانه، وفي الجلسة الرابعة شتم من سمّاها زوجته، وفي الجلسة الخامسة ضربها وأهانها، وأهان أباهما عندما قال له: ماذا جرى يا ابني؟

الشابُّ لم يدفع مهرًا - كما قلت - والبنتُ كرهته بقدرٍ ما أحبّته ولم تُطق مقابله؛ لسوء خُلُقِهِ، علمًا أنّه لم تحصل بينهما خلوةٌ.

أردنا أن نفهم أسباب هذا التّغيير فذهبنا إلى أهله فوجدناه هناك، ولمّا سألناه عن السّبب وتداولنا^(١) الحديث معه ردّ علينا بقوله: ابتكم طالقٌ،

(١) تداولنا الأمر بيننا: تعاورناه، فعمل هذا مرة وهذا مرة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/٢٥٣).



ففرحنا بما حَصَلَ؛ لأننا خرجنا من المعركة برأس مالنا، فقال الأب: لكننا فوجئنا بدعوى مرفوعةٍ ضدنا تُطلَبُ فيها البنتُ لبیتِ الطَّاعة، فلم نصدِّق ما حَصَلَ، وذهبنا في الموعد المحدد إلى المحكمة، لنفاجأ بإنكاره الطَّلَاقِ وكلِّ إِساءَةٍ فَعَلَهَا مع ابنتنا أو معنا، ولا نملك دليلاً أو شهوداً وليس لنا حيلة، وصدِّق القاضي قوله، ولم يلتفت إلى دفاعنا.

الرَّجُلُ الآن يريد أن ينتقم، وليس لدينا أيُّ قدرةٍ على صدِّه إلا طلاق ابنتنا، ونحن نعلم أن الشريعة الإسلامية لا تُكره الأنثى على معاشره رجلٍ تُكرهه، وقد سمعنا «أن بعض الصحابيات قد جاءت إلى رسول الله ﷺ، تسأله في أنها تُكره زوجها، فقال لها: تردِّين عليه حديقته؟! فقالت: نعم، فردتها عليه، وأمره فطلَّقها»^(١)، وكانت الحديقة هي مهر تلك المرأة، فقالت البنت: إنه لم يعطني شيئاً، وإنما جرى العقد على مهر مؤجَّل، ولم أقبض منه فلساً واحداً، ولم أزل حتى الآن أشعرُ بألمِ ضربته التي أصبحتُ بسببها أكره كل ما هو مرتبط به، حتى خياله.

السؤال:

كيف أتخلص من هذا الرجل؟

الجواب:

ليس فيما قاله الأبوان غرابة، فقد عرفنا كثيراً ممن أُكْرِمُوا فتمردوا؛ لأنَّ اللُّؤْمَ غَلَبَ على حُلُقِهِمْ، والمنتبي قال قديماً:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا^(٢)

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٢٧٦).

(٢) انظر: أمالي ابن الشجري (٣/٢٦١).



لكنني أوم الوالدين اللذين تسرعاً فعقدًا قبل أن يعرفا طبيعة هذا الإنسان، وخلقته ودينه ومعاملته، بل إنهما لم يسألا عن نسبه وأصله، وقد اقتطفا ثمرة هذا التسرع، وكان الواجب عليهما قبل ذلك أن يعرفا كل شيء عنه.

وعليهما ألا يستجيبا لحكم المحكمة إن كان الحكم ضدّ البنت المعقود عليها؛ لأنّ اللئيم سينتقم فيشقي الزوجة ويشقي أهلها معها، ونصيحتي لوالد البنت أن يرفع دعوى خلع ضدّ دعوى الرجل، ويختار لها محامياً قديراً ليخلص ابنته من لؤم اللئيم وانتقام الحاقد، وليعلم والد البنت أنّ الذي يضرب قبل الدخول بلا جرح، سيضرب ويجرح بعد الدخول.

أقول أخيراً: كان الله في عونكم جميعاً.



مَحْرُوم حَنَان

ماتت أمي وأنا في السنة الأولى من العمر، ولي أخ وأختان يكبروني سنًا، فتفرغ والدي لرعايتنا، وبقي يعتني بنا ثلاث سنوات، ثم تزوج خالتي التي كشرت لنا عن أنيابها، ونسيت برّ أختها وحنانها عليها، فأخذت تعاملنا بالقسوة والشدة، تزوجت أختي الكبيرة، وكنت أذهب إليها، فأرى منها حنانًا ولطفًا وعطفًا أستشعره بكلّ حواسي، فإذا خرجت منها إلى بيت أبي، وسمعت أمًا تنادي ابنها في طريقي، أو تحمّل طفلها أو تقبله شعرت أنني محروم من حنان الأمومة، فلا أستطيع أن أذكر



دروسي في ذلك اليوم لشدة حزني وفقدي، وسامحني إذا قلتُ: إنني أغار من كلِّ طفلٍ تحنو عليه أمُّه.

وقد نسيت أن أقول لك: إنني في السَّابعة عشر من عمري، وفي الصَّفِّ الأخير من المرحلة الإعدادية، وإنه منذ تزوج أبي لم تمرَّ سنة دون أن يكون لي دور ثانٍ.

السُّؤال:

هل أنا يتيم، وأبي على قيد الحياة؟ وهل سيعوّضني الله من حنان أمِّي حناناً آخر في الدنيا أو الآخرة؟ أنا فقير من الحنان، ونفسي تحدّثني بأشياء أعوذ بالله منها.

(المحروم)

الجواب:

ذكَرْتَنِي حكايتك هذه بحكايتين، لا أقول: إنني قرأتها، ولكنني لمستهما لمس اليد.

الأولى لرجل كانت له زوجتان، ولدت الأولى ابناً، ولم تلِدِ الثانية، فحاولت الثانية القضاء على الابن وبذلت مجهوداً في ذلك.

وفي يوم من الأيام رأت عجلاً لها يقترب من مهدِ الصَّبِيِّ، ثم يأكلُ من قماطه - والقماط هو اللِّفائف التي يلقون بها الصَّبِيُّ - فصادفت أسنان العجل أصابع اليد اليمنى للصَّبِيِّ، فأكلتها، وبعد زمن غير يسير ماتت أمُّ الصَّبِيِّ فعاش في رعاية أبيه حتّى مات، والصَّبِيُّ قد بلغ سنَّ الرُّشد.

و شاء الله أن ينتقم من تلك المرأة، فقد ولدت أطفالاً ثلاثة ماتوا



جميعهم في المهد، ولم يبقَ لها راع يرعاها ويحنو عليها إلا ذلك الصَّبِيُّ الأَعْضَبُ^(١) الَّذِي أَكَلَ العَجْلُ أَصَابِعَهُ، فعاشت معه تحت رعايته وحنانه وعطفه وإنفاقه، تجتُرُّ مصائبها بعد استيقاظ ضميرها حتَّى رأته رجلاً كاملاً مرموقاً في عشيرته جالساً في ديوانه، يتناول فنجان القهوة بإبهام وكفِّ بلا أصابع، فتدخل عليه مجلسه صارخةً لتحدِّثه بما فعلت، وتطلب منه السَّمَّاح والعفو، ثمَّ بعد ثلاثة أيَّامٍ تموت.

أما القِصَّةُ الثَّانِيَةُ فكانت لرجلٍ ماتت زوجته، وله منها ابن في السَّابعة من عمره، فتزوَّج الأبُّ امرأةً قاسيةً لا رحمةً في قلبها وليس لها طريق له، فاشترت هذه المرأةً أغناماً؛ لتشغلَّ بها ابن زوجها حتَّى لا يذهب إلى المدرسة، وجعلته راعياً تحاسبه على كلِّ أمرٍ دقيقٍ وجليلٍ يخصُّ الأغنام، حتَّى العوسجة^(٢) إذا رأتها في صوفةٍ أحدِ الأغنام حاسبته عليها، ثمَّ ولدت هذه المرأةً ابناً وجعلت من دلالها له إغاطةً لهذا البائس، لكنَّه تعوَّد وماتت نفسه نتيجة هذه المعاملة السيِّئة.

ويبلِّغ الولد البائس الخامسة عشر من العمر، وبلِّغ أخوه الثَّامنة وأصيب بالنُّكاف، وهو مرضٌ يصيب اللُّوزتين، وتمكَّن المرضُ من الحبال الصَّوتية ففقدتها الصَّبِيُّ، وفي الثَّانية عشر من عمره مات.

وفقد الابن البائس بعد ذلك ولم يُعرف له مكان، وكان قد بلغ التاسعة عشر من عمره، وحاول الأبُّ أن يعثرَ على ابنه الوحيد فلم يستطع، وبعد فقد ولديه انطوى على حزنه، ومات بعد ثلاثة أعوامٍ وهو

(١) العضب: القطع. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/٣٨٩).

(٢) العوسجة: شجر من شجر الشوك، له ثمر أحمر مدور كأنه خرز العقيق. انظر:

تاج العروس، للزبيدي (٦/١٠١).

لا يعرف عن مكان ابنه الكبير شيئاً .

هذه الحادثة كانت في سوريا أيام الاستعمار الفرنسي، الذي استولى على أموال الرّجلِ المُتَوَقِّي، وسلّمت للمرأة ما نابها من الميراث، وهو الثّمَن، ثمّ باشرت الحكومةُ السُّؤال عن ذلك الابن بوصفه الوارث الوحيد، ثمّ لم يلبث أن أرسلَ للدّولة جواباً يقول فيه: إنّه موجود في إحدى دول أمريكا اللّاتينيّة، وقد أغناه الله ووسّع عليه ورزقه، وقد أرسل إلى زوجة أبيه يعزيها بوفاة والده، ويوكّلها بإدارة أملاكه الموروثة من أبيه، ويسمح لها أن تأكل ما تشاء، وتحفظ ما تشاء، ويخبرها أنّه سيزورها حين تسمح الفرصة بذلك .

وكانت هذه الرّسالة أشدّ من طعنة خنجرٍ لو طعنها بها .

عاشت هذه المرأة تجتُرُ آلامها وأحزانها، وفي يوم من الأيام زارها ابن زوجها، فرآها متعبّةً لا تملك من الصّحة شيئاً، لكنّه الضّميرُ الموبّخ، والدّمعة البائسة، والحزن الطّويل، ومن حُسنِ حَظّها أن تكون هذه الزّيارة في آخر أيّامها؛ لتستغفرَ من هذا المحسن الكريم عمّا أذنبت تجاهه .

وقد ذكرت هاتين القصّتين؛ تطيباً لخاطر السّائل المحروم، وأرجو أن يعلم أنّ الله يُمهّلُ الظّالم ولا يهمله، وأنّه المنتقم إن عاجلاً أو آجلاً .

ثمّ يسأل المحروم هل أنا يتيم، وأبي على قيد الحياة؟

الجواب:

قرّرت الشّريعة الإسلاميّة والشّرائع كلّها أنّ اليتم من فقد أباه، وأنّه لا يُتمّ بعد احتلام، والاحتلام هو البلوغ، لكنّ الشّعْر العربيّ قال في اليتم قولاً مغايراً للشّرع، فيقول أحمد شوقي:



ليس اليتيم هو الذي أبواه قد تركا الحياة وخلفاه ذليلاً
 إنَّ اليتيم هو الذي تلقى له أمًّا تخلَّت أو أبًا مشغولاً^(١)
 أمَّا سؤالك عن التعويض وهل سيعوّضك الله من حنان أمك حناناً؟
 فأقول لك: نعم، إنَّ فضلَ الله واسعٌ جدًّا، فإذا صبرت محتسباً فصبرك
 لله، وإذا أحسنت الظنَّ بالله، وأحسنت أخلاقك، وكرمت سيرتك،
 وحسنت سريرتك فسيعوّضك الله من حنان أمك خيراً كثيراً، وزوجة
 صالحة ترعى وحدتك، وأصحاباً مخلصين يدرؤون عنك ويدارون
 خاطرك.

والخلق الحسن خيره كثير، لا سيِّماً أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إنَّ من أحبِّكم
 إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»^(٢).



مَنْ أختار؟

سيدي: أرفع إليك مشكلتي بعد أن مسني الضُّرُّ، وأستغفر الله أن
 أشكو من الضُّرِّ يائسةً من رحمة الله، ولكن امتثالاً لأمر الله حيث قال:
 ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أنا الآن في الثلاثين من عمري، وما زلتُ بكراً لم أتزوج، وكان
 جمالي واعتزازي بنفسي وحبِّي لوالديَّ أقوى الأسباب التي منعتني
 الزواج، فقد كنت وحيدتَهُما، ولم أكن أستطيع أن أفارقهما، ولم يكرها

(١) انظر: شعر شوقي في ميزان النقد، لمحمد مصطفى المجذوب (١/٨٢).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٠١٨)، وقال: حديث حسن غريب.



مَنِّي ذلك؛ فهما أيضاً لا يبغيان فراقِي، بل كانا يباركان امتناعي عن الزَّواج.

أنا متعلِّمة أحملُ الشَّهادة الثَّانويَّة، أحبُّ القراءة وأفهم ما أقرأ وأحدِّث به غيري.

خطبني كثيرون لكنِّي رفضت، ولم يلحَّ عليَّ أحدٌ من أبويِّ بالزَّواج، حتَّى ماتا العامَ الماضي وبقيت وحيدةً بعدهما أشعر بالفراغ وأنِّي عانس.

أملك ما لا كثيراً: عقاراً وأسهماً ورصيِّداً بنكياً خلفه والدي لي، ولم أخف أن يشاركني غاصبُ هذا المال؛ لأنَّ والديَّ سجَّلا إرثهما كلَّه باسمي.

خطبني شابٌّ في السَّابعة والعشرين من عمره، لكنَّه - كما يقولون - مدلَّلٌ لا يحملُ صفاتِ الرُّجولة، وكانَّه بكلامه وحركاته في السَّابعة عشر من العمر، على أنَّه متعلِّمٌ تعليماً عالياً، لكنَّ هذا العلم لم يزد في رزاقته، إنَّه جميلُ الخلقة، أنيقُ المظهر، لكنَّ نفسي لم تملُ إليه لفقدانه تلك الرُّجولة التي تريدها كلُّ أنثى.

وتقدَّم لخطبتي آخرٌ في الخمسين من عمره، يقرأ ويكتب، لكنَّه لا يحملُ شهادةً، له مكانته في المجتمع والسُّوق التَّجاريِّ، ومن يتعامل معه يثق به ثقة كبيرة.

أنا وحيدةٌ وحرَّةٌ في تصرُّفاتي، ليس عندي وليٌّ ولا خالَةٌ ولا عمَّةٌ ولا من أسْتشيرُهُ، ولم أختبر الحبَّ طوال حياتي، ولم يتقدَّم لخطبتي أحدٌ سوى هذين الاثنين.

إنَّني امرأةٌ، والمرأة متى فُقدَ رجلُها ترى أنَّها في حاجةٍ ماسَّةٍ لأنَّ



تعيش في حماية رجلٍ مهما كان هذا الرجل .

الشَّابُّ الَّذِي تقدَّم لخطبتي نشيطٌ جميلٌ، لكنِّي أخاف دلاله وميوعته،
أمَّا الخاطب الثاني فطيِّبُ النَّفسِ والسَّيرة والسُّمعة، لكنَّه أكبرُ من أنْ
يكون لي زوجًا، فهو في سنِّ يقارب سنَّ أبي، ولا أدري من أختار؟

قلبي لم يَمِلْ إلى أحدٍ منهما، الرَّجُلُ الخمسينيُّ أحترمه، والشَّابُّ
يُحَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي ألعب مع طفل .

كُتبتُ إِلَيْكَ أطلب مشورتك، فأشر عليَّ بالله عليك، وأسرع .

الجواب :

سؤال وجيه يُجيب عنه النَّبِيُّ ﷺ حيث قال : «إذا جاءكم من ترضون
دينه وخلقَه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفسادٌ عريض»^(١)،
وجمال الرَّجُل في خلقه ومكانته في مجتمعه، ليس في شكِّه وجماله،
ولا في شهادته وثروته .

والسَّائلة تقدَّم لخطبتها شخصان وصفتهما فقالت عن الثاني : إنَّه في
الخمسين من عمره، وله مكانته في المجتمع، رزينٌ في حديثه، صاحبٌ
علمٍ في شؤون الحياة، ولهذا احترمته، والاحترام حبٌّ .

فهمها وفهمته على أنَّه لا يحملُ شهادةً، ومعنى ذلك أنَّها أعلم منه
كما ترى، فهي تحمل شهادة الثانويَّة، لكنَّه مجرَّب، والمجرَّب ناجحٌ
دائمًا؛ لذلك هو أعلم منها بشؤون الحياة، والسُّنُّ لا يفرِّق بينهما، فهو
لم يدرك الشَّيخوخة بعدُ، ومن رسالة السَّائلة وثنائها عليه تبين أنَّها مالت
إليه، وقديمًا قال الشَّاعر العربيُّ :

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ .



وعينُ الرُّضا عن كلِّ عيبٍ كليلَةٌ ولكنَّ عينَ السُّخطِ تبدي المساويا^(١)
وإني أرى أنَّ زواجَ السَّائلةِ من الخاطبِ الثَّاني سيسعدها إن شاء الله
إن صدقت فيما وصفت، وأقولُ لها مقدِّمًا: مبارك لك، وبالرفاء والبنين .



إِخْلَاصٌ

أبدأُ رسالتي لك بحمد الله؛ لأنَّ المصطفى ﷺ أخبرنا أنَّ «كلَّ أمرٍ
ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيه بحمد الله أقطع»^(٢).

وبعد:

فأنا فتاةٌ مؤمنةٌ، والمؤمن يعلم يقينًا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه
ليس عنده أمرٌ عسيرٌ.

مشكلتي أنني منذُ كنتُ طفلةً فتحتُ عينيَّ على ابنِ عمِّي الَّذي عشتُ
معهُ في بيتِ جدِّي، كان يكبرني بثلاثِ سنواتٍ، ورافقني في مراحلِ
حياتي كُلِّها، طفلةً ويافعةً وشابَّةً.

لم أتحدَّثْ مع غيره، ولم أحبَّ سواه، إنَّه ابنُ عمِّي وأخي، وبعد أنْ
بلغتُ سنَّ الأنوثةِ كان حبيبي وأملي وكنتُ له بالمنزلةِ ذاتها، ولم يشكَّ
أحدٌ من أهله أو أهلي في طهارةِ حبِّنا، فتركونا، وكنا عند حُسنِ ظنِّ
الجميعِ، لكنْ فاجأني الحظُّ السيِّئُ بقسوته المعهودةِ ليمزقَ قلبي، ويتركني

(١) انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة (١٦/٣).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٩٤).



حطامًا ، وقد يقودني إلى الهلاك إذا لم تتداركني رحمة الله ، فقد أُصِيبَ ابنُ عمِّي بمرضٍ أصبح تنفُّسه بسببه عسيرًا ، ونُقِلَ إلى المستشفى ، وكنتُ قد درستُ التَّمريضَ فأبى وأبَيْتُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُمَرِّضَتَهُ ، وقد شَخَّصَ الأطباءُ المرضَ وقالوا : إنَّه مصابٌ بضعفٍ في القلب ، ويحتاج عمليَّةً شديدةَ الخطورة ، ولو نجحت هذه العمليَّة فالزَّواج عليه ممنوع ؛ لأنَّه يُشكِّلُ خطرًا على حياته .

وعاد بعد العلاج بأيَّام إلى البيت يتعجَّل زواجنا ، لكنَّه لم يكن يعلمُ خطورة مرضه ، وأنَّ الزَّواج قد يزيد من هذه الخطورة ، وكنتُ أعلِّله بالآمال حتَّى جاء أبواه مع أبي ، وسمعتُه يحدثُ أبي يستعجله الزَّواج ، فبكيت ، ودخلتُ غرفتي ، فلم أشعر إِلَّا وأمِّي تُمسِكُ يدي ؛ لأنِّي كنتُ أريد قتلَ نفسي .

وعَلِمَ حبيبي بما حَصَلَ ، فكاد أن يُغمَى عليه ، ثمَّ بعد ذلك لم يعد يأتي إليَّ ؛ لاعتقاده أنِّي خائنةٌ ، وأنِّي لا أحبه ، ولا أريد أن أكونَ زوجته .

إنَّ ابنَ عمِّي على أبواب الدَّار الباقية كما يقول الأطباءُ ، وأحبُّ أن أكون في استقباله هناك ، لكنِّي لست أدري كيف أموت؟! فموتي قبله أحبُّ إليَّ من رؤيته معذبًا يسير إلى الموت بِخُطَى سريعةٍ .

لا أريد أن يعيش ابن عمِّي وهو يشكُّ في حبِّي له ، فكيف أفهمُه الحقيقةَ ؛ حقيقةَ حبِّي له؟

إنِّي لا أريد جرحه بإعلامه حقيقة مرضه ، لكنِّي أريد أن يعلم أنَّ امتناعي عن الزَّواج منه ليس كرهاً له ، إنَّما سببه حبِّي له وخوفي على حياته ، ورجبتي ببقائه سالمًا .

هذه قصتي وهذه مشكلتي .

إنَّ حبيبي يموتُ وهو يشكُّ في حبيِّ له ، وأنا أعلمُ أنَّه يموت ، لكنني أريدُ أنْ يعرفَ حبيِّ له ، ولو استطعتُ أنْ أهبه قلبي ليحيا به لوهبته له .

الجواب :

قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴿الرعد: ٣٨-٣٩﴾ ، وفي الكويت مثلُ دارجُ ، يقول : (المقدر كائن ، والههم ما ينفع) ، ومعناه : الحقيقةُ الواقعةُ لا مفرَّ منها .

وكان الواجبُ على الأطباءِ أنْ يصارحوا ابنَ عمِّك بحقيقةِ مرضِهِ كما فعلوا مع كثيرين من أمثاله ؛ ليأخذَ حيطته في أكليه وشربه ، وحركاته وسكناته ، ويتعدَّ عن أسباب الغضب والأشياء التي تؤثرُ في صحته ونفسيته ، فإذا عرَفَ ذلك استطعتُ أن تبوحي له بأنَّ أمرَ الزَّواجِ مضرٌّ به ، فيبرِّرُ بذلك موقفك .

ولا بأسَ أنْ يُعقدَ بينكما عقدٌ يبيح اجتماعك به اجتماعاً عادياً لا اجتماع زوجين ، وبهذا يعرفُ أنَّك تحبِّينه ، وأنَّك صادقةٌ في ذلك ، ومخلصةٌ في كونك له لا لغيره ، ولكنك صابرةٌ من أجله ، وفيَّةٌ لحبه ، وبهذا تطولُ مقاومته للمرض .

وقد يأتي من ألطافِ الله ما لا يخطرُ على بالٍ ، فيزول الخطرُ وتكونان زوجين ، وقد رأيت من عجائب لطفِ الله شيئاً كثيراً ، وليس بعيداً أنْ يتدارك لطفُ الله ابنَ عمِّك متى عاش سعيداً بقربك ، واستطعت بلطفك أنْ تؤثري إيجاباً في نفسيته .





الإيمان أمانة

سيدي: إنني مؤمنة، وأعلم يقيناً أن الإيمان بالقضاء والقدر من أركان ديننا الحنيف، وأعوذ بالله من شك بعد يقين، ومن كُفّر بعد إيمان، ومن إلحادٍ بعد توحيد.

إنني الآن في الثلاثين من عمري، عشت حياتي في ريف العراق، فتاةً شرقيةً حرّةً، كبقية الفتيات في ذلك الريف، لم أكن مندفعةً مع تيار المدينة الجارف، ولا منطويةً على نفسي، لست جميلةً، لكنني مقبولة الشكل، خفيفةُ الظل كما يقال، من عائلةٍ محترمةٍ، معروفةٍ في الوسط الاجتماعي الذي عشت فيه.

أقرأ وأكتب، وأفهم ما أقرأ وما أسمع، وتقول زميلاتي عني: إنني ذكية، لكنني لا أحملُ شهادةً.

كُتبت لك هذه المقدمة لتفهم مشكلتي التي سأفصّلها عليك لعلك ترشدني إلى حلّها.

لقد عشتُ يتيمةً؛ فوالدي تُوفي وأنا في الرابعة من عمري، وكنت وحيدةً بين إخوتي الذكور، وعشنا في رعاية أمنا تحفُّنا المحبة والسعادة، يُخلصُ بعضنا لبعض، ونخلصُ لأمنا التي نعيش في كنفها.

ولمّا بلغت سنّ الصبأ تعرّفت شاباً من أقاربنا، كان يتردّد علينا، فأحببته وأحببني حباً شريفاً طاهراً، أخلص لي وأخلصت له، ممّا دفع أولياءنا إلى عقد قرانٍ بيننا، فكنا نتذاكر أمور حياتنا التي كنت أبني عليها



الآمال ككل فتاةٍ بلغت سنَّ الأبوثة لتصبح ربَّة بيتٍ، وأمَّ أولادٍ، وطالت مدَّة خطوبتنا، ولم نتزوَّج بعدُ.

وذاث يوم خرج الشَّابُّ الحبيب الغالي الهيمان ليعودَ إليَّ في وقتٍ حدَّده في الغدِّ، ولكن ماذا جرى؟! طرَّق البابَ غيرُه، فأسرعت ملهوفَةً لأفتح الباب لحبيبي، فلم يكن هو الطَّارِقُ بل سلَّمني الطَّارِقُ ظرفًا من الحبيب، فيه ورقة طلاقٍ، ولم أعرف السَّببَ، فلم يسمح الحبيب لأحدٍ من ذوي قرابته أو قرابتي أن يسأله عن سبب هذا الطَّلَاقِ، ولم يُجِبْ أحدٌ من أصدقائه عن هذا السُّؤال.

إنِّي مطلَّقةٌ منذ سنواتٍ على أنِّي أحبُّه، ولا شكَّ عندي في أنه يحبُّني أيضًا، هذا ما يقوله قلبي لي.

كنت شابةً كغيري من الشَّوابِّ اللواتي كنَّ في مثل سنِّي لا أبالي بالعبادة، أدَّيتها أم لم أوذَّها، في وقتها أو في غير وقتها، لكنَّ المصيبة جعلتني ألجأ إلى الله، أدعوه وأستغفره، وأطلب منه العون، وأصلي وأصوم وأقرأ القرآن، صلَّيتُ كثيرًا، وسهرت اللَّيالي أصلي وأطيل السُّجود، أدعو الله وأتوسَّل إليه أن يرده إليَّ، صاحب القلب القاسي، الَّذي ما شكَّكْتُ يومًا في حبِّه لي، والَّذي ما شكَّ في حبِّي له، لكنِّي لا أعلم ما جرى له حتَّى يتغيَّر هذا التَّغيُّرُ كلَّه، وبلغ به الأمر أن يطلقني بلا مقدِّماتٍ إعراضٍ أو جفاءٍ وبلا أسبابٍ أو مشكلاتٍ.

صدَّقني يا سيِّدي أنه خرَّج مساءً يوم الإثنين، لا أنساه ما حييت، وقد ودَّعني وداع المحبِّ لحبيبته بقبلاَّتٍ ما زلتُ طوال هذه السَّنوات أحسُّ دِفْأها، وعلى موعدٍ أكيد أننا سنلتقي غدًا قبيل الظُّهر لنطعم الغداء سوياً، وفي الموعد نفسه الَّذي كنت أنتظره فيه يطرقُ الباب من يسلمني ورقة الطَّلَاقِ.



سيدي: لا أشكو لك ممّا حَدَثَ، فقد قلت لك: إنّ أركان الإيمان ستّة؛ سادسها الإيمان بالقضاء والقدر، وأنا مؤمنة بهذا الركن الإيمان كلّهُ، ولن أقطع الأمل من رحمة الله؛ لأنّ حبيبي لم يتزوَّج حتّى الآن، وهذا دليل على أنّه يحبُّني، لكنّي أشكو إليك تذبذبي في أمري، فإنّني لا أدري أمسلمة أنا أم كافرة أم منافقة؟

إنّني أصلي الصلّاة في أوقاتها، وأحياناً أصلي النوافل، وأصوم وأقرأ القرآن، ثمّ لا أخالني أداوم على هذه الحال، وإذا بالحال ينقلب فجأة فلا صلاة ولا صيام ولا قرآن ولا حتّى حجاب، الحجاب الذي أفتخر به أمام كلّ أنثى.

تقول عنّي بعض صديقاتي: إنّني مزدوجة الشّخصيّة؛ أعيش بشخصيّتين، لكنّي لا أشعر بذلك، إنّني أذكر ما فعلته بالأمس، كما أذكر ما أفعله اليوم، لكن قد أياس وأعوذ بالله أن أياس من رحمة الله.

عندي كثيرٌ من الكُتُبِ الدّينيّة، وأحبُّ أن أستمع الأحاديث الدّينيّة التي تذاق من مختلف الإذاعات، وأفهم كلّ ما أسمع.

أرجو من سيدي الشّيخ أن يدلّني على طريق الخلاص من هذه المشكلة، فإنّي أكتب لك هذا الكتاب ومؤدّن الظهر يؤدّن، وليس لديّ نيّة القيام إلى الصلّاة، ولكنّي أشعر أنّي مقصّرة، وأنّ الله غاضب عليّ، ومع ذلك فصوت الحقّ يناديني: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقد دعوته أن يحبّ لي الآخرة، أو يخرجني من الدّنيا وأنا مؤمنة.

سيدي: أفكاري مذبذبة، وأشعر أنّي أعيش حياة غير طبيعيّة.

انصحنى، ولكن شرط ألا تقول لي: انسي خطيبك، أو تزوّجي.



الجواب:

قلت في أول رسالتك: إنك مؤمنة بالقضاء والقدر، ثم تعوّذت بالله من شك بعد يقين.

وقلت: إنك لجأت إلى الله بعد وقوع الطلاق، فصلّيت الفرض والنفل، وصمت الواجب والمندوب، وقرأت القرآن، وفي آخر رسالتك كتبت ما معناه: إنك سمعت أذان الظهر وليس في نيتك أن تقومي للصلاة، ولكنك سمعت صوت الحق يناديك بقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فدعوته أن يحبب لك الآخرة، فما هذا التناقض؟!!

إنك - لا شك - مؤمنة إن صدقت فيما كتبت، ولن أقول لك: انسي حبيبك، ومهما بلغ الحب من طغيان فلن يبلغ عند المؤمن حب الله ورسوله، تقولين: إنك مؤمنة، والرسول ﷺ يقول لنا: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»^(١)، ويقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فأنكحوه»^(٢)، وطاعة الرسول واجبة.

تزوجي إذا جاءك من يليق بك، فإنك ما زلت في سن ستكونين فيه أمّا متى تزوّجت، وفي الأمومة سلوة وسلوان، فمتى رأيت الطفل في حرك ستضحكينه، ومتى رأيت بسمته لك ستنسين هموم الدنيا كلّها.

أمّا الذبذبة التي تشكين منها فإنها من الشيطان، فاستعيذي بالله من وسوسته، وعودي إلى رشدك واعبدي ربك، واستجيب للحق إذا سمعت

(١) رواه البخاري، رقم: (١٦)، ومسلم، رقم: (٤٣).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥)، وقال: حديث حسن غريب.



هتافه يدعوك ويقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولا تتكاسلي عن تلبية النداء، ولا تيأسي من روح الله.



توبيخ الضمير

سيدي: تحية إعجاب وإكبار لما قرأته في كتابك «من غريب ما سألوني» والذي فهمت من خلال مواضيعه أن الإسلام لا يعجز عن حل أي مشكلة، مهما تعسر الحل عند غير المسلمين.

بدأت مشكلتي منذ عشر سنوات عندما كنت في التاسعة من عمري، أعيش طفلة بين أبوين وأخت وإخوة خمسة، وفي يوم من الأيام رأيت كل من حولي ينظر إليّ وابتسم، ولم أدر لِمَ هذا الابتسام، ألبستني أمي أجمل الثياب واهتمت بي وجمّلتني؛ لتدفع بي إلى رجل كبير السن في الأربعين من عمره، قائلة: مبارك، قد أصبحت عروسًا.

عاملني زوجي من الليلة الأولى معاملة الزوجات، ولم يرحم طفولتي، فجعلني ذلك أكرهه وأتمنى هلاكه وموته.

وبعد خمس سنوات من هذا الزواج بلغت سنّ الأنوثة، وبدأت أصادق هذه وتلك من النساء المتزوجات، فتعرّفت شابًا كان زوجًا لإحدى الصديقات، وبدأت علاقتنا بمكالمة هاتفية، ثم تحوّلت إلى لقاءات واتّصالٍ محرّم، وكانت كارثة خلّفت حملاً، فطلبت السفر للعلاج، لا لمرض بل لما تعانیه المرأة أوّل الحمل من الوحم^(١)، وأذن

(١) الوحم: شدة شهوة الحبلى لمأكل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤/٣٢).

لي زوجي بالسَّفر، وفي بلاد الغربة أُسْقِطَ الجنين، فتخلَّصت من الفضيحة والعار أمام مجتمعنا، ولكن كما قال الشاعر:

مهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ولو خالها تخفى على النَّاسِ تعلم^(١)
فقد انكشف السَّتر وأفشى السَّرُّ، وأصبحتِ السَّيِّدات يتحدثن بما كان، وتضاعف الحديث بما لم يكن، فلم يحدث شيء بعد الإجهاض.
وعَلِمَ زوجي العجوز بالأمر، وداخله الشُّكُّ بي فطلَّقني، وإنَّني الآن في العشرين من عمري مطلقَّةٌ منذ أشهر، تلطَّخت سمعتي بالسُّوء، إلا أنني عدتُ إلى صوابي بعد ما جنيت على نفسي، فأنا نادمةٌ على ما مضى، لكنني لا أستطيع نسيانه، إنه النَّدمُ في غير وقته.

أنا الآن أمُّ لبنتين، كبراهما في الرَّابعة، ومحيطنا يدنسُ البنت بدنس أمِّها، فأخشى أن تسمعا بما حدث لي فتحتقراني، وقد حاولت أن أقتل نفسي ولكنَّ الانتحار قتل نفسٍ، وقاتل النَّفس مخلدٌ في النَّار، وأنا أخاف النَّارَ، ولا أستطيع أن أترك البلد التي عشت بها؛ لأنني لست متعلِّمة، وليس هناك من يقبلني في وظيفة.

لا أدري ماذا أفعل؟

أنقِدي، أرشدني، فقد يئست من الحياة.

الجواب:

توبيخ ضميرك هو ما جعلك تسمعين كلام النَّاس، فالنَّاس لا يعلمون الغيب، ومن الذي قال لك: إنَّ طلاق زوجك لك كان بسبب الشُّكِّ؟! إذ لو كان الأمر كذلك لأخذ منك ابنتيه، فثقي أن زوجك علم بعظم

(١) انظر: الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (٢/٢٢٨).



جريمته، فهو الآن في الخمسين من عمره - كما قلت - وقد كان يكبرك بثلاثين سنة؛ لذلك أراد أن يُطْلَقَ سراحك، لعلك تسعدين بقيّة حياتك.

عليك أن تنسي الماضي، وأن تصدّقي التّوبة مع الله، وأن تثقي برحمته وعفوه عمّن تاب، واقرئي دائماً الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

والنّاس لا يعلمون الغيب، فهم يتكلّمون، ويقذفون، ويأفكون، لكنهم لا يضرّون، ولا ينفعون، فكوني مع الله يكن الله معك.

أنت الآن أمّ لطفلتين ترك أبوهما الرّعاية لك ثقةً بك، فربّيهما تربيةً صالحَةً، وارعيهما خير الرّعاية لتكونا صالحتين في المجتمع.

أقولها لك نصيحة والدٍ لابنته: كوني صمّاء عن كلام النّاس إذا قيل، وأنا على يقين أن أحداً لم يقل شيئاً، لكنّ ذلك ضميرك الذي يوبّخك.

قد زللت ثمّ تبت إلى الله، والله ﷻ قال في أمثالك: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النّساء: ١١٠].



مَن أَنَا؟

سيّدي: لا أدري كيف أفتتح قصّتي، التي تبدأ من طفولتي.

ولدت في قرية عراقية قبيل (١٩٤٧م) وكنت أستطيع تمييز الخير الذي يطمئن له قلبي من الشرّ الذي ينفر منه.



كانت أمي تعمل قابلةً، وتمرضُ بنات القرية ونساءها في الوقت نفسه، ولم يكن من المستنكر أن يكون بيتنا عيادةً، والوالدة تصفُ الدواء لإحدى المراجعات، وتعطيه لأخرى، وقد تستعمل في علاجها الإبر.

بدأت قصتي من دخولي السنة التاسعة من عمري، وكنت يومها في الصفِّ الثالث الابتدائي، وكنت أستعدُّ للذهاب إلى المدرسة، وإذا بي أرى أمي تكلم فتاةً شابةً قائلةً: انتظري حتى يخرج ابني فلان، وذكرت اسمي، ممَّا جعلني أختفي لأعرف ماذا سيجري، ولماذا كان الأمر سرًّا؟! ولماذا تنتظر هذه الفتاة المراجعة حتى أخرج؟! خرجت أمامهما لكنني اختفيت بحيث أرى كلَّ ما سيجري، ولا يراني أحدٌ.

ورأيتُ أمي تعطي تلك الفتاة إبرةً طبيَّةً، وبعد ساعة أجهضت هذه الفتاة طفلًا لا أدري جنسه، فأخذته أمي، وألقته في المرحاض الذي كان حفرةً بعيدة القعر، لا أدري ماذا جرى لي بعد ذلك، وقد رأيت تلك الفتاة تعطي أمي مبلغًا كبيرًا من المال، فعرفت أن أمي مجرمةٌ يجب أن تُعَدَمَ وتموت.

وتكرَّر الأمر ثانيةً وثالثةً، فقرَّرت قتلَ هذه الأمِّ، وقتلتها وكتبتُ ورقةً إلى والدي أخبره أنني قتلت أمي، ولم أذكر سبب قتلها.

وبقيتُ في البساتين هائمًا لا أدري أين أذهب، تغيَّر شكلي، حتى أصبحت معرفتي صعبةً على أهلي، وبقيت على هذه الحال ستة أشهرٍ، أختفي نهارًا وأظهر ليلاً إلى أن قرَّرت أخيرًا أن أتجه شمالًا فكنت أسير على قدمي تارةً وأخرى أتعلَّق بوسائل النُّقل، حتى وصلت بعد أسبوعين شمال العراق، ونزلت بلدًا أهله مسيحيُّو الديانة لا يتكلَّمون العربية، وقد رأني بعض الأطفال أسير في الطريق فطلبوا إليَّ أن ألعب معهم فلم أفهم



ذلك لاختلاف اللُّغة، ثمَّ طلب إليَّ أحدهم أن أصحابه إلى منزله فلم أمانع؛ لأنني كنت جائعًا تعبًا، فالتقيت والد الطُّفل، وكان يتكلَّم العربيَّة، فسألني: من تكون؟ فقلت: لا أعرف من أنا، أنا يتيم الأب والأمِّ، فقال لي: ما الَّذي أتى بك إلى هنا؟ فقلت: لا أعرف، فقال: من أيِّ بلدٍ أنت؟ فقلت: ليس لي بلدٌ ولا أهلٌ.

فقال لي: لتكن أخًا لابني هذا، فلم يكن منِّي جوابٌ إلاَّ دموعٌ تسيل من عينيَّ، وبكاءٌ جعل الجميع حولي يبكون.

أحبَّتني تلك العائلة دون أن تعرف عنيَّ شيئًا؛ لأنني - كما قلت أوَّل كلامي - طفل جميل الصُّورة والصُّوت، خفيف الحركة، لبق المعاملة، فضمُّوني إليهم لأصير رابعهم، ودخلت المدرسة، وكنت مجتهدًا كما كنت في مدرستي؛ لأنني عرَفْتُ لغةَ وطني الجديد بسرعة، ثمَّ يسَّرَ اللهُ جُلَّ شأنه أن أكون ابنًا شرعيًّا لعائلي الجديدة في مدَّةٍ وجيزةٍ، ثمَّ حصلتُ على جنسيَّةٍ تشهدُ أنني ابنها وحملتُ اسمًا جديدًا يؤيِّدُ هذه البنوَّة.

بعد اجتيازي المرحلة الثَّانويَّة دخلت الكليَّة العسكريَّة للطَّيران، وتخرَّجت فيها ضابطًا طيارًا برتبة ملازمٍ ثانٍ بدرجة امتيازٍ، علمًا أنَّ أخي لم يحالفه الحظُّ، لكنَّه لم يحسدني على نجاحي بل سرَّ له.

أمَّا الأقدار فلم تغفل عنيَّ، فقد مرضتُ بعد عامٍ من تخرُّجي، وطال مرضي، وكان تقرير الفحوص الطَّبيَّة أنني لا أصلح أن أكون طيارًا؛ لذا نُقلْتُ من وزارة الدِّفاع إلى وزارة المعارف، وبقيت أتنقَّلُ من منطقةٍ إلى منطقةٍ، وفي الصَّيف أذهبُ إلى بلدي لزيارة أبي وأمِّي وأخي الَّذين ضحَّوا في سبيلي بكلِّ غالٍ ورخيصٍ، حتَّى صنعوا منِّي رجلًا، ولولاهم لكنت مشردًّا مطرودًا لا يُعرَفُ لي مصيرٌ، ثمَّ تزوَّج أخي الَّذي أحبه وأحبُّ أولاده.



و شاء القدر قبل سنةٍ واحدةٍ من تاريخ رسالتي أن أكون مدرِّسًا في وطني الأوَّل، وقبيل الامتحانِ طَلَبَ إليَّ بعضُ الطَّلَبَةِ دروسًا إضافيَّةً في المساءِ مقابل أجرٍ معيَّن، فذهبتُ إلى بيتِ هذينِ الطَّالِبِينَ الشَّابِّينِ وعلمتُ وقتها أنَّهما ابنا أخي من النَّسَبِ.

دخلتُ البيتَ - بيتَ أبي - فلم أجدهُ تغيَّر، ورأيتُ المكانَ الَّذي قتلْتُ فيه أمِّي ففقدتُ وعيي، وكنتُ أعرفُ سببَ ذلك، كان لي أخٌ وأختٌ، وصار لأخي أولادٌ وزوجةٌ، وأبي مات بعد غيابتي، وأنا في بيتي الَّذي وُلِدْتُ فيه، لكنِّي أحملُ اسمًا غيرَ اسمي ونسبًا غيرَ نسبي.

لم أشعرُ إلَّا وأنا ممدَّدٌ في فراشٍ، والكلُّ حولي متردِّدون في دعوة الطَّبيب، ولا يعرفُ سببَ هذه الغيبوبةِ أو الإغماءِ سواي.

أنا منذ ذلك اليوم مصابٌّ بمرضٍ لا أدري ما هو، إنَّه توبيخُ الضَّمير الَّذي جعلني أصلَ إلى مرحلةٍ لا أدري فيها من أنا!

هل أنا المسلم ابن المسلم العربيُّ؟ أم أنا المسيحيُّ ابنُ المسيحيِّ غير العربيِّ؟

ليس لديَّ دليلٌ يثبتُ عروبتي وإسلامي، ولو قلتُ لأخي وأختي وأولادهما: إنَّني منكم فلن يصدِّقني أحدٌ، حتَّى شهادة الميلادِ ضدِّي، ولو كانت في جسدي علامةٌ مميزةٌ فلن يعرفها أحدٌ من الموجودين؛ لأنَّ أبي وأمِّي ماتا.

إنَّني حائرٌ ضائعٌ لا أدري من أنا، والأدهى من ذلك أنَّني لم أتزوِّج حتَّى الآن، فكَلِّمًا هممتُ بالزَّواجِ أحسستُ بقشعريرةٍ؛ لأنَّني أظنُّ أن كلَّ فتاةٍ خائنةٌ، بل أصبحتُ أظنُّ الشرَّ بكلِّ من حولي.



سيدي: لا أدري ما هو سؤالِي، ولكنني أقول: ارحمني، وأرشدني.

الجواب:

قصة لا أدري هل هي حقيقة أم خيال؟! وإن كانت حقيقة فهي مؤلمة حقاً؛ لهذا أوكلتُ إلى القراء الإجابة عن هذه القصة، وبخاصة أخي العزيز مستشار اليقظة.

سأغيب في شهر رمضان وسأعود في الأسبوع الأول من سؤال؛ لآخذ من القراء الكرام الأجوبة التي أختار منها الرد في الأسبوع الأول من شهر أكتوبر، سائلاً المولى ﷺ أن يعيد أمثال هذا الشهر الكريم على الجميع بالخير والعافية، وأقول لهم الكلمة الكويتية المحبوبة: من العائدين بخير.



مَظْلُومَة

قرأتُ هذا البيت في درس المحفوظات بالمدرسة، ولم أدر حقيقة معناه حتى حصل لي ما حصل، وكان هذا البيت من الشعر يقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود^(١)
بلغت الثامنة عشر من عمري، أعيش مع أمي وأبي معززةً مكرمةً؛
لأنني كنت الفتاة الوحيدة بين ستة إخوة.

في العام الماضي استأذنت أمي أبي أن تعمل في إحدى دوائر الدولة؛
لأنها - كما تقول - متعلمة وتحمل شهادة معهد، وما تزال في عمر

(١) انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة (٢/٢٠٧)، وهو بيت للشاعر طرفة بن العبد.

الشَّباب الغَضُّ، فهي تكبرني بسِتَّةِ عشر سنة، فأذِنَ لها الوالد، لكنَّها تغيَّرت فجأة بعد استلام الوظيفة، وأخذت تظهر كلَّ يوم بمظهر يلفت النَّظْرَ، تخرج متزيَّنةً متعطرَّةً واضعةً كلَّ ما يخطر بالبال من مساحيق التَّجْمِيلِ، مع أنَّ هذا كلُّه لم تكن تفعله لزوجها.

وأهملت شؤون بيتها ورعاية أولادها السَّتَّةِ، وأخيراً عَلِمْتُ أَنَّ أُمَّيْ لم تطلب الوظيفة للمادَّةِ، بل لعلاقةٍ تربطها بموظَّفٍ في تلك الدَّائِرَةِ.

وقلت لها: سمعت من أفواه النَّاسِ كلامٍ سوءٍ عنك، وكنت أظنُّ أَنَّ الوالدة ستعتذر وتبرِّئ نفسها، لكنَّ الوالدة العزيزة لم تبال بما قيل لها، بل زاد تعلُّقها بذلك الشَّخصِ، وكان يأتي كلَّ يوم ليأخذها من بيتها ثمَّ يعيدها إلى البيت.

وفي يوم من الأيام أَمَرَ رَبُّ الْعَمَلِ هذا الشَّخصَ أَنْ يسافر في عملٍ رسميٍّ، وطالت غيبته، فطلبت أُمَّيْ إِلَيَّ أَنْ أكتب له رسالةً من إملائها بخَطِّي، ولَمَّا امتنعتُ ضربتني ضرباً شديداً، فقلت: لماذا لا تكتبين أنت؟ قالت: لَأَنَّ خَطَّكَ أَجْمَلُ من خَطِّي، فبدأت الكتابة مكرهَةً، وبعد أن كتبت بضعة أسطرٍ إذا بأبي يدخل الغرفة، ويأخذ الورقة منِّي، ليقرأ فيها الفضائح التي تبرَّأت منها الوالدة، فأصبحُ وحدي المذنبة فاعلة الجرم.

ضُرِبْتُ، وَأُهِنْتُ، وصبرتُ على ذلك كلُّه؛ لأنِّي لا أملك دليلاً يبرِّئني، فالقلم والورقة بيدي والكتابة بخَطِّي، وأنا وحدي في الغرفة، فالوالدة ذهبت لتفتح الباب للدَّاخل.

فكَّرت وفكَّرت ماذا أفعل؟ لا أدري.

إنَّ كلام النَّاسِ لا يرحم، وأعيش مع أمِّ لا ترحم، وأبٍ ليس له إرادةٌ



ينفِّذُ أوامرَها .

أمِّي تكرهني لأنِّي اَظَلَعْتُ على سِرِّها، وأبي يكرهني لأنِّي أصبحت في نظره مخطئةً، ولو أخبرتُ والدي بما تفعل أمِّي لانهدمَ البيتُ الَّذي يعيش به سبعةُ أولادٍ أكبرهم أنا .

أستطيع أن أقول للوالد: راقب زوجتك، وسيفعل، لكنِّي أعرف أنَّ النتيجة ستكون خراب بيتٍ، فأبي ما زال دون الأربعين من عمره، وإذا تزوج بعد طلاق أمِّي تشتت الشَّمْل .

قل لي ربِّك يا سيِّدي ما العمل؟ إنني أشعر بالحيرة والضَّياع وأريدُ الخلاصَ من هذه الحياة، لكنني أخافُ الله، فماذا أفعل؟ أرشدني .

الجواب:

المعروف أنَّ الأمَّ مصدرُ الحبِّ والحنان لأولادها، تبنى في سبيل تربيتهم، وتشقى في سبيل راحتهم، وتضحى بسعادتها لهنائهم، هكذا عرفت الأمَّ .

ومن شدَّ فهو في النَّار، وهذه الأمُّ شدَّت، فأساءت إلى مستقبلها ولطَّخته بالعار، وأساءت إلى زوجها فخانته، وأساءت إلى أبنائها فأهملتهم، وأساءت إلى ابنتها فقذفتها بالذنب الَّذي جنته بنفسها، وأساءت إلى دينها فخالفت أمر الله القائل: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَهْلِيَّةِ﴾

[الأحراب: ٣٣] .

أنا لا أشكُّ أنَّ البنت تقرأ، ونصيحتي لها أن تُطَلِّعَ أمَّها على ما تقرؤه من نصائح وكلماتٍ طيِّبةٍ، وأحاديثٍ حسنةٍ لعلَّها تهتدي إلى الصِّراط السَّويِّ، فإنَّ لم تفعل، ولم تتعظ فعليها أن تصارح أباهما بما تعرفه من

حقيقة أمها، ولأبيها بعد ذلك القول الفصل.



الْوَلَدُ أُمَّ الْوَالِدَانِ؟

سألني أحد المواطنين الكويتيين هذا السؤال الغريب بطريق الهاتف، وكان السائل مُحسناً في سؤاله، حكيماً في تعبيره، لطيفاً في قوله.

تمنيت لو أنه أطال القول، فقد تلذذت أذني بكلامه، ونعمت جوارحي بطيب الإصغاء إليه.

قال: أنا مواطن أبلغ من العمر السّتين، ولي من الأولاد ابنٌ وبنْتُ متزوَّجان، ولديهما أولاد.

ماتت أمهما ولمّا تبلغ البنتُ الصُّغرى العاشرة من العمر، وأراد الله لي أن أتبتل فتبتلتُ لا حباً في التبتُّل^(١)، ولا عجزاً عن الزَّوجيّة، لكنّ رحمةً بالطفلين خشيةً أن يذوقا قسوة زوجة الأب، وكنت يوم ماتت أمهما قد قاربت الأربعين من العمر، فنصحني أقربائي وأصدقائي بالزَّواج وقالوا: إنك عاقل، وإنك قويُّ الإرادة، وسيعيش ولدك في كنفك ورعايتك عزيزين مكرّمين، ولن تُسيءَ زوجتك إليهما، ولن تستطيع أن تفعل شيئاً لهما ما دمت قويّ الإرادة، فلا تحرم نفسك متعة الحياة، ولا تُقسُ عليها، فالله ﷻ لم يحرم علينا نعمةً ما دمنا نعرف كيفية استعمالها.

وكنت أستمع قول المتكلّم في النَّهار، فأتذكّره ليلاً، فإذا بي أجد قول

(١) التبتل: ترك النكاح والزهد فيه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥٣/٢٨).



القائل حقًا، لكنني أخشى أن يغلبني الباطل، فأحيد عن الطريق وأظلم ابني وابنتي.

وبمرور الأيام اعتدت التَّبُّلَ واستسغتُ العزوبة، وكلَّما رأيت ولديَّ ينعمان بعطفي وحبِّي تطيب نفسي بما أعيشه، حتَّى مضت عشرون سنة، تزوَّج في العشر الثاني منها الابن، فكان أبا، وتزوَّجت البنت، فكانت أمًّا.

وإنَّ ما تحدَّثت به هو مقدِّمة، لها بقيَّة، فقد اشترطت على ابني عندما طلب الزَّواج أن يعيش في داري، وأن يرعاني كبيرًا كما رعيتُه صغيرًا، وأن أعيش في كنفه كما عاش هو في كنفِي وحبِّي، فوعدني خيرًا، ولكنَّه لم يفِ بوعدِه، ولم ينفذ هذا الطَّلَب ولم يرعه.

ولم تمضِ سنتان على زواجه حتَّى علمت أنه تقدَّم بطلبٍ إلى الحكومة يريد سكنًا له، فأخبرته بما سمعت، وقلت له: هذه دار أبيك تتسع لك ولأختك، فهي دارٌ واسعة المساحة، كثيرة المرافق، قويَّة البناء، ولن يستطيع أحدٌ مهما أنفق أن يبني مثلها، علمًا أنها إذا قسمت فستكون أكثر من دارين من دور الحكومة، فاترك الفراغ لغيرك يا ولدي، واتق الله في نفسك.

لكنَّ ابني أصرَّ على أخذ الدَّار من الدَّولة، متذرِّعًا بأنَّها حقُّ له بحكم القانون، وما إن استلم الدَّار حتَّى بدأ يؤثُّثها وهو الغنيُّ بمركزه، ووظيفته، وعمله الحرِّ، وانتقل إلى داره الجديدة دون الاستجابة لرجائي وسماع قولي، وقال: يا أبتِ، هذا شأن الدُّنيا، تَجْمَعُ ثمَّ تفرِّقُ.

وقبل أن أختم كلامي عن هذا الابن أحبُّ أن تسمعَ هذا الخبر عنه.

إِنِّي سافرتُ معه إلى بلدٍ عربيٍّ قريبٍ، وفي اللَّيلةِ الثالثةِ من وصولنا لذلك البلدِ، اتَّصلَ بزوجته يسألُ عنها وعن صحَّةِ طفليه، فأخبرته أنَّ ابنهما مريضٌ ولا بأسَ عليه، لكنَّ الابنَ البارَّ لم يلبث أن ذهب إلى المطار عائداً إلى الكويتِ دون خبرٍ أو استئذانٍ تاركاً أباه وحيداً محتاجاً إلى الرِّعاية، على أنَّ ابنه في الكويتِ برعاية أمِّه.

أمَّا ابنتي فقد جاءها من رَضِيَّتِهِ لها خاطباً وزوجاً، واشترطت عليهما أنْ يعيشا معي في بيتي، ورضيا بذلك، وبيَّنتُ لهما حدودَ قسمةِ البيت - وكان البيت واسعاً جداً - لو أرادت وأخوها قسمة الميراث بعد موتي، وقلت لهما: ارعيا شيخوختي وسيكون هذا البيت في النِّهاية لكما، واغتنما الثَّوابَ من الله، فوافقا ووعداني، لكنَّ الوعد لم يُنفَّذ، وحَصَلَ بيني وبين بنتي ما حصل من أمورٍ تُؤكِّدُ أنَّ ابنها أغلى على قلبها مِنِّي.

إِنِّي الآن محتاجٌ إلى مَنْ يرعاني ويساعدني في قضاء حاجتي وإصلاح شأني، وتنظيف ملبسي، وتهيئة مبيتي، وإعداد طعامي وشرابي، والأهمُّ من ذلك كلُّه أنَّني في أشدِّ الحاجةِ إلى من يعينني على طاعة ربِّي.

وأخيراً تركني ولداي، أمَّا الأوَّل فقد أراه في الأسبوع مرَّةً، وأمَّا الثَّانية فإنَّها أوصل منه، على أنَّني متيقِّن أنَّ وصلها ما كان في طاعة الله بل استغلال أشعر به على بساطته.

يقول الله ﷻ: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، فأين حالي من قوله تعالى!؟



السُّؤال:

هل الولد أعزُّ من الوالدين؟ هل أتزوِّج؟ وإذا عارضنا هل أخضع لما يريدان؟ وهل لهما حقٌّ في منعي من الزَّواج؟

الجواب:

أقول - وبالله التَّوفيق - : شكراً للأخ علي حسن ظنه بي ، وليسمح لي إذا بسطت القول في شرح سؤاله ، علماً أنني لم أزد على معنى ما قاله شيئاً .

وجوابي على قوله : إنَّ الله ﷻ أوجب على الأولاد برَّ الوالدين ومقابلة الإحسان بالإحسان ، ذلك هو معنى الآية الكريمة : ﴿وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] ، ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) [الإسراء: ٢٣-٢٤] أنَّ البرَّ مكافأة معروفٍ بمعروفٍ .

أمَّا كون الوالد سبب وجود الولد فهذا أمرٌ لا أقف عنده ، ولا أُعيره اهتماماً البتَّة ؛ لأنَّ اللدَّة هي سبب وجود الولد ، واللدَّة يطلبها الذكر والأنثى على حدِّ سواء ، وكثيرٌ من النَّاس يتزوِّجون طلباً للذَّة ، لا سترًا للنفس ، ولا صوتاً للدين .

سرُّ البرِّ هو مقابلة الإحسان بالإحسان ، فهل نوجب البرَّ على أولادٍ عقَّهم أبوهم وهجرهم صغاراً يتكفَّفون الشَّوارع ، مُهمَّلين يشحذون اللُّقمة ، ويسألون شربة الماء؟

هل نوجبُ عليهم برَّ والدهم القاسي هذا أو والدتهم تلك؟



لا ، فالإسلام في تشريعاته كلّها لا يخالفُ العقلَ البشريَّ، وهذا السرُّ الَّذي يميّز الإسلام من غيره من التّشريعات الوضعيّة .

أمّا أنتَ فقد أحسنتَ إحساناً عظيماً حينما تمنّعتَ عن الزّواج لتربّي ولدك خوفاً عليهما من أن يُذلَّ أو يُهانَا، فكان الواجب عليهما أن ينزلا عند إرادتك وأن يكونا أبرّ ولدين لأبرّ والد.

أمّا الجواب عن السُّؤال الثّاني : ألا تعلم أن من الطّبيعة أن يُنسى الوالد ويُرعَى الولدُ.

وقد أيّد القرآن ذلك في آياتٍ كثيرةٍ عرفنا منها أن الولد أعزُّ من الوالدين ، من ذلك قوله ﷺ : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عَبَسَ : ٣٤-٣٦] ، فلَمَّا يرى الإنسان من الهول يوم القيامة ينسى أصدقاءه وأقرباءه أوّلاً ثمّ ينسى والديه ويتمسّك بزوجه ثمّ إذا اشتدّ الهول ترك الزّوجة وتمسّك بالأولاد ، فإذا بلغت الأزيمة شدّتها ترك الأولاد ، وهذه طبيعة لا يمكن التّخلّي عنها ، فأنت نسيت نفسك في رعاية أولادك ، فجزاك الله خيراً .

أمّا الجواب عن السُّؤال الثّالث : فالزّواج شأنٌ يخصُّك ، وأنت أعلم النّاس به ، ولا أحدٌ - مهما كان قوياً - يستطيع منعك من الزّواج ، فمتى وفّقك الله إلى الحصول على من ترضاها زوجةً لك ، مُتّصِفَةً بالصّفات الّتي ذكرتها في سؤالك فتزوّج ، والله معك .





الزَّوْجُ قِسْمَةٌ وَنَصِيبٌ

إذا أراد الله أمراً فلا رادَّ لقضائه، ولكنْ نسأل الله اللُّطْفَ في هذا القضاء.

أكتب رسالتي إليك وأنا زوجةٌ شابةٌ لزوجٍ مستهترٍ غيرِ مبالٍ، كانت له علاقةٌ سابقةٌ مع فتاةٍ أجنبيَّةٍ، فتزوَّجني لينتقم بهذا الزَّوْجِ منها، ولم أكن أعرف ذلك.

أحببته وأخلصتُ له، وحاولت ترك العمل لأجله، لكنَّه رفض تركي العمل؛ ليأخذ راتبي كلَّه، وتمَّ له ما أراد وقبض الرَّاتب كلَّه، لكنني في هذه المدَّة كنت أشعر بأنَّه يعيشُ معي كالمغصوب، وبعد أن رزقني الله طفلةً منه أصبحت أجامله أكثرَ من الأوَّل؛ لأنَّه أصبح أباً لابنتي، ولمَّا علم بحملي الثَّاني تبدَّل حاله وأصبح يهتمُّ بي اهتماماً كبيراً، ولا يرفض لي طلباً، حتَّى مضت ثلاث سنوات عشنا فيها سعادةً أيَّما سعادةٍ، زوجين تجمع بينهما الألفة والمحبةُ والهناءُ والصَّلاحُ مكلَّلين بالتَّقوى.

كان زوجي يعمل في إحدى وزارات الدَّولة، وقد اختارته في العام الماضي ليذهب في دورةٍ تدريبيَّةٍ إلى بريطانيا، وكان بعد ذهابه يتَّصل بي يومياً، ثمَّ طلب مني أن أذهب إليه ليعيش الأليفُ مع أليفه، وبعد شهرٍ من وصولي إلى بريطانيا شعرتُ بصعوبة الحياة هناك، فرجعت إلى بلدي، ولمَّا عاد إلى بلده بعد أن أنهى دورته رجع كما كان عندما تزوَّجنا لا كما كنت أظنُّ أنَّه سيكون.

كان شارداً الذَّهن، دائمَ التَّفكير، وأراد أن يسافر إلى لندن مرَّةً أخرى،

فلم أمانع ذلك، وبعد شهرٍ عادَ بحالٍ أسوأ ممَّا كانَ عليها عند عودته من سفره الأوَّل، ولم ألبث أن علمت بحبِّ زوجي لامرأةٍ أجنبيَّة من فنزويلا التقى بها في لندن منذ زمنٍ طويلٍ، وفي سفره الثَّاني التقى بها مرَّةً أخرى، فانبعث الغرام، وتجدَّدَ الحبُّ، وزاد التَّفكير، واشتدَّ الهيام، حتَّى أصبحت أشعر بأنِّي غريبةٌ عنه.

كان أحياناً يعتذر منِّي ويقول: سامحيني لا أدري ماذا جرى لي، اعذريني أرجوك.

وفي يوم من الأيام وجدت في جيبه عنوانَ تلك المعشوقة، وبذلك عرفت العلة، إنَّها حبيبته الأولى التي انتقم منها بتزوُّجه لي.

وقبل أيَّام طلبَ إليَّ أن أرتبَ حقيبة سفره؛ ليسافر إلى الشَّرق مدَّة أسبوعين، فامتثلتُ الأمر، لكنَّ الرَّجل لم يكتفِ بحقيبةٍ واحدة، بل أخذ ملبسه كلَّها، إضافةً إلى الأوراق التي تحمل جنسيَّته وشهادة ميلاده وصورة عقدِ الزَّواج، وكتب ورقةً يقول فيها: إنَّه يأسف لِمَا حَصَلَ وسيسافر إلى أمريكا، ولم يحدِّد مدَّة السَّفَر.

والآن فهمت كلَّ شيء، ونفسي تأمرني بالانتقام لكرامتي وإخلاصي وأولادي، وأمِّي تأمرني بالصَّبْر والبقاء في بيتي إلى جانب أولادي، فإنَّ رجوع فأهلاً وسهلاً به، و﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أمَّا أبي فيقول لي: هذا شأنك، لكنَّ المسلم يسامح؛ لأنَّ دين المسلم دين سماحةٍ ويسرٍ.

أكتب لك هذا لأسألك: هل أنا مظلومة؟ وإن كنت كذلك فهل يُباح للمظلوم أن ينتقم من ظالمه إذا قدَّر على الانتقام؟



الجواب:

أولاً: نسأل: هل سيعود الرجل إلى بيته؟ هل سيبقى على طبيعته التي كان عليها أم أنه سيتغير ويصبح عربيداً^(١) في الليل حاملاً في النهار؟! لا أدري، فإنه ذهب ليعيش مع بائعة لذّة متجوّلة، لها في كل يوم مكان وفي كل ليلة مبيت، ثم ما مكانة زوجك بالنسبة لها؟

فأمّا إن عاد ولم تتغير صفة من صفاته، وكان كما عهدته، وقدرت على الانتقام فاعلمي أنّ القرآن الكريم - وهو كتاب الإسلام - أوصانا بأن نقابل الإساءة بالإحسان فقال: ﴿ادْفَع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وأمرنا بالعفو فقال: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ووعده من عفا جزيل الثواب فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وأمك كانت أقرب إلى النصيحة في قولها، وإلى الطيبة في إرشادها.

أقول هذا إذا عاد زوجك، ولم تتغير من خصاله خصلة، ولا من صفاته التي عايشتها صفة، أمّا إذا تغير فابتعدي عنه.



الإسلام يسر والإسلام خلق ودين

إنني فتاة من سوربة، في الثانية والعشرين من عمري، في السنة الجامعية الثانية في جامعة دمشق، نشأت في عائلة بعيدة عن الدين

(١) رجل عرييد، ومعربد: شريير مُشارًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٧٦/٨).

والحجاب، ومع ذلك كنت محافظةً على أركان ديني وحجابي والتزامي
وكنت والحال هذه موضع استهزائهم، لكنهم عندما رأوني محافظةً على
هداي قويّة الإيمان لا أبالي باستهزائهم احترمني أبي وأمّي وإخوتي.

خطبني كثيرون، لكنني لم أجد الشَّابَّ المحافظ على دينه الَّذِي أَثِقُ
به، وأجد فيه المعين لي في حياتي المستقبلية.

وقد وجدت ذلك ذات يوم في رجلٍ فرحت به كثيرًا، وبنيت آمالَ
المستقبل عليه، واتَّفَقْنَا على الزَّوْج، وتواعدنا على الوفاء بالعهد، وأننا
لن نكون إلا لبعضنا، لكنَّ الأمل ضاع، فالشَّابُّ الوحيدُ لأبويه خَطَبَ
وتزوَّج، ولم يحصل ذلك بإرادته وإنما كانت إرادة والديه.

مرَّت سنتان كنت فيهما محطَّ أنظار الشَّباب، فقد خطبني كثيرون من
والديّ اللَّذين كانا رقيقين بي، إلا أنني رفضت كلَّ من تقدَّم لي؛ لأنني لم
أجد في هؤلاء كلَّهم المحافظَ على دينه وأخلاقه، ومن يخاف الله
وعقابه، وقد جعلني ذلك أشكُّ في نفسي، وإيماني، ووسوس لي
الشَّيْطَانُ بأنَّ هذا عقاب، لكنني تذكَّرتُ أنَّ المؤمنَ ديدنه التَّعَوُّدُ على
الابتلاءات والامتحانات من الله ﷻ، وأنَّ ما يحدث لي هو امتحان
يحتاج الصَّبْر، و﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الرُّم: ١٠].

تقدَّم لخطبتي شابٌّ يعمل في الكويت، كان أقلَّ منِّي ثقافةً ومادَّةً
وتديناً فرفضت بداية الأمر، لكنَّ الطُّروف المحيطة بنا اضطرَّتني إلى أن
أقبل به، وتذكَّرت قول الله ﷻ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾
[البَقَرَة: ٢١٦]، فقبلت الزَّوْجَ منه على ألا يمنعني من مواصلة دراستي،
والالتفات لعبادتي، وارتداء حجابي، وأنَّ يترك الكثير من عاداته، فقبلت
تلك الشُّروط وتمَّ الزَّوْج.



وفوجئت بأن مدير الشركة التي يعمل بها زوجي مسيحي، يحب زوجي ويحترمه، لزمالة في العمل بينهما عاشت قبل زواجي ثمانية أعوام، عدّه المدير فيها ابناً له، وقد يعيش معه الأيام أكلاً شارباً متنزّها وعاملاً.

والآن يا سيدي تزوّجت هذا الإنسان، لكنني فوجئت بهذه الصداقة التي لا أدنسها، ولا أتّهمها بشيء ينافي الخلق، ولكن أحب أن أقول: شتان ما بين الإسلام والمسيحية، إنهما كفر وإيمان.

إنني منذ جئت إلى الكويت أجمال زوجي وهذه العائلة، ولا أريد أن أظهر أمامها بمظهر المتمرّطة، لكن شعوراً داخلي يقول: إنني منافقة.

سيدي: إن تلك العائلة المسيحية تعاملني باحترام ممزوج بالحب، فأشعر أن أفرادها يحبونني لمحبة زوجي، ولكن أشعر - ولا أدري هل أنا متوهمة أم لا - أنهم ينتقدون حجابي، وزوجي يوافق على هذا، فقد رأيت رغبة منه في أن أتخلّى عن الحجاب، ولا أعلم حقيقة ما أشعر به، أهو صواب أم وهم فقط؟

هل كان انتقاد الجماعة دسيسة من زوجي، أم أن انتقادهم وافق هوّي في زوجي؟

ولم تطل الأيام حتى أعلن ذلك قائلاً: إن الإسلام خلق ومعاملة فقط، وليس صلاة ولا صوماً ولا حجاباً، وإن كلّ هذه أمور لا أساس لها في واقع الحال، فالدين المعاملة.

فهمت من هذا أن زوجي قد كفر، أو أنه كان كافراً أسلم؛ لينال وطره، ثم ارتدّ كافراً.



مضى على زواجنا سنةً أو أكثر يهددني فيها بالضرب إن لم أترك الحجاب وأتبرج، وأترك الصلاة وكلّ الأركان والواجبات.

إنّ حياتي كلّها الآن صراعٌ في صراع، فهي دموعٌ في الوحدة، وابتهاؤٌ إلى الله في الخلوة.

أفدني جزاك الله خيرًا، وأرجو أن أقرأ الجواب في اليقظة، أو في القبس.

الجواب:

أنتِ - كما قلت - مؤمنة، نشأت محافظةً على صلاتك وحجابك بين أهلك الذين كانوا يستهزئون بك، وعندما رأوا ثباتك على المبدأ، ومحافظتك على الدين تبدّل استهزاؤهم تقديرًا، واستخفافهم بك احترامًا، أمّا زوجك الآن فيأمرك بما يخالف أمر الله.

إنّ الله يقول لك: يا مؤمنة، غضي من بصرك، واضربي بخمارك على جبينك، ولا تبدي من زينتك شيئًا إلّا لمحارمك، وأدني عليك من جلبابك، وزوجك يقول: خالفي هذه الأوامر كلّها وتبرّجي، وأنت مسلمة، إنّ أطعت أمرَ زوجك وخالفت أمر الله وقعت في المحذور، وكنت على وشك السقوط، وإنّ أطعت أمر الله وكنت صادقةً في إيمانك، ثابتةً على دينك كان الله معك.

واسمعي قول الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌ لِّأَزْوَاجِكِ وَبَنَاتِكِ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ آدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَاللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

﴿٥٩﴾ [الأحزاب: ٥٩].

إنّ هذا الزوج لا يستطيع أن يفعل معك شيئًا؛ لأنّه يأمرك بالمعصية



وأنت تريدین الطَّاعة، ونبیُّک المصطفى ﷺ يقول: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق»^(١)، ولأنَّک مع الله، وهو مع الشَّيطان، ومن كان مع الله كان الله معه، هكذا قال الله لنا في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [التَّحَلُّ: ١٢٨].

ونصيحتي لك في الختام: أخلصي لله يُخلص لك، فمن كان مع الله كان الله معه.



إغراء بزواج

عشتُ يتيماً الأبوين في كفالة خالتي الأرملة الجميلة، التي كُثِرَ خُطابها بعد وفاة زوجها، فأبت إلا أن تعيشَ لتربية ابنتها الوحيدة.

أنفقت عليَّ هذه الخالة وجادات ولم تقصِّر؛ لأنَّها كانت ذات سعةٍ، وتعلّمت حتّى نلتُ الشَّهادة الجامعيّة.

لم تُسئ بي خالتي الظنَّ فكانت ابنتها التي تصغرني بخمس سنوات تدخلُ عليَّ غرفتي لتسألني عن بعض ما يُشكِّلُ عليها في مذاكرتها، ولم أفكّر يوماً من الأيام أن هذه البنت ستكون زوجة لي؛ لأنَّها كانت بمنزلة أختي، كما أنّي لم أعرف لي أمّاً سوى خالتي التي ضمّنتني إليها طفلاً، ورعتني عاجزاً، وأنفقت عليَّ فقيراً.

لم تكن الفتاة على قدرٍ من الجمال بل كان بها عيبٌ بارز في أعلى

(١) رواه أحمد، رقم: (١٠٩٥).



أنفها دون الجبهة يلفت النَّظْرَ، وفي يوم من الأيام فوجئت بطلب من خالتي تريدني فيه زوجًا لابنتها الوحيدة؛ حفاظًا على ثروتها من أن تذهب إلى شخص آخر، ووعدتني أن ثروتها ستكون مناصفةً بيني وبين ابنتها؛ فهي ستعيش في رعايتنا بعد ذلك، ثمَّ ذكَّرتني بأنَّها رعنتني منذ ماتت أمِّي وأنا ابن ستِّ سنوات، وأخبرتني أنَّها كانت تتمنَّى أن أكون زوجًا لابنتها منذ ولدتها، وقالت لي: مثلك يردُّ الجميل بأكثر منه، وليكن وفاؤك لي كإحساني إليك.

خالتي لم تقصِّر، فقد كفلتني، وتولَّت الإنفاق عليَّ بسخاء أكثر ممَّا لو كنت في رعاية والديِّ، وتعليمي الجامعيِّ كان خارج وطني فلم أذكر وقتها أنَّني احتجت شيئًا؛ لأنَّ إنفاقها يسَّرَ لي حاجاتي كلَّها، ولا أبالغ إذا قلت: إنَّني كوَّنت رصيْدًا شخصيًّا من إنفاقها عليَّ.

عشت عشرين عامًا مع ابنة خالتي ولم يخطر ببالي يومًا أنَّني سأتزوَّجها، ولم أشعر في حياتي أنَّني كرهتها، لكنَّ عندما فاتحتني خالتي بموضوع الزَّواج كرهتها؛ لقبح وجهها بالتشَّوه البارز الظَّاهر، اللَّافت للنَّظر.

فهل أتزوَّج هذه الفتاة وفاءً لفضل خالتي عليَّ وللثَّروة الضَّخمة الَّتِي ستؤول إليَّ؟!

أخشى أن أكون عاصيًّا لله؛ لأنَّني لن أتزوَّج الله، وأن أكون لئيمًا؛ لأنَّني طمعت بالمال.

لا أدري، إنَّني أخاف سوء العاقبة، فأرشدني.

خالتي تحبُّني كحبِّها لابنتها، وأنا متيقِّن من ذلك، حبُّها لم يكن لأنَّها



ترغب أن أتزوج ابنتها، ولكنها تحبني؛ لأنها ربّنتني، ورأت مني الحنان والعطف وحسن المعاملة لبنتها، لكن أخشى من عواقب هذا الزواج الذي سيبني على غير حبّ.

مرّة أخرى: أرجوك أرشدني.

الجواب:

ليس فيما تقدّم به السائل مشكلة؛ لأنه عاش في بيت من أحبّته كولدها، ولا غرابة في ذلك، فالخالة تحبّ أولاد أختها.

وقد قال في رسالته: إنه يحبّ بنت خالته كما يحبّ أخته، ولم تُسئ خالته به أو بابنتها الظنّ مدّة إقامته في بيتها، أمّا التّشوّه الذي ذكره فلا يُعيب ما دام الطّبّ موجودًا، وقد رأينا وجوهًا كثيرة مشوّهة زالت عنها التّشوّهات بعمليّاتٍ بسيطةٍ جدًّا، أو رثت حسنًا وجمالًا.

وخالتك أحبّتك، ورعتك، وأنفقت عليك بسخاء، فلم تطمع بمال تصيبه منك، ولعلّها لم تفكّر حتّى في زواجك من ابنتها، لكن لما رأتك رجلًا كاملًا ذا خلقٍ كريمٍ رغبت بك زوجًا لابنتها؛ لأنّ الأمّ دائمًا تريد لابنتها الخير، وأيّ خيرٍ لها أكثر من زوجٍ كفّ جَمَعَ صفات الرّجولة كلّها.

إنّ الثّروة التي ستعطيها لك خالتك ليست ثمنًا لهذا الزّواج، وإنّما وفاءٌ للوفاء، فتوكّل على الله، وتزوّج ابنة خالتك، واجعل زواجك منها وفاءً للمعروف لا طمعًا في المال، وأحسن النّيّة «فإنّما الأعمال بالنّيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى»^(١)، واعلم أنّ نيّة المرء خيرٌ من عمله، ثمّ اتّكل

(١) رواه البخاري، رقم: (١).



على الله في إجراء العمليّة بعد زواجك منها، فالتشوّه سيزول، واعلم أنّ جمال الخُلُقَة يمحوه سوء الخُلُق، ونعوذ بالله من سوء الخلق، أمّا جمال الخُلُق فسيبقى جمالاً دائماً، والرّسول ﷺ أمرنا أن نتخير ذات الخُلُق فقال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدّين، تربت يداك»^(١)، والدّين هو الخُلُق، وذات الخُلُق تعرف الطّريقة التي تستميل بها قلب زوجها، وكيف تبني أسرتها على أساس متين من الإخلاص والحبّ؛ لأنّ بناء الأسرة لا يقوم على وجه جميل، وطرفٍ كحيل، وخذّ أسيل، وخصرٍ نحيل، وإنّما يقوم على حبّ متبادلٍ بين زوجين، وخالتك حكيمة وفيّة، وستكون بنتها مثلها، فقد رأينا دائماً سرّ الأمّهات في بناتهنّ وندر أنّ تشدّ بنتٌ عن طبيعة أمّها.

إنّ خالتك وابنتها تُحبّانك، فاكسب هذا الحبّ، ولا تفرط فيه، وستحبّ بنت خالتك متى تزوّجتها.

وأرجو متى أخلصت النّيّة لله أنّ تسعد بهذه الزّيجة سعادةً يكون فيها بيتك جنّةً محاطةً بالحبّ من جهاتها السّتّ، والله الموقّق.



هل ظلمتهما؟

أحببتها حبّاً كبيراً، وكان هذا الحبّ مصدر سعادتي وهنائي، أعجبتني فيها براءتها وعفّتها وطهارتها وحشمتها، فلم أكن أرى قبل زواجي منها سوى وجهها وكفّيتها، ولا أبالغ إذا قلت: إنّها أجمل فتاة في بلدتي خلُقاً

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٠٩٠)، ومسلم، رقم: (١٤٦٦).



وُخِلِّقًا وَأَدْبًا .

كانت تقطن في حِينَا، أراها حين تأتي لزيارة أختي الصَّغيرة فلم أكن أكلمها أو تكلمني، لكنَّ قلبي كان دليلي، فقد شعرت في قرارة نفسي بأنَّها تبادلني المحبَّة والشُّعور ذاتهما، على أنه لم يكن بيننا سوى كلمة التَّحِيَّة والسَّلَام، تتخلَّلها ابتسامَةٌ من كِلَا الطَّرْفَيْنِ .

كنت الولد الذَّكر الوحيد لأبويَّ، فلمَّا ذكرت لهما رغبتني في الزَّواج بها سُرًّا كثيرًا ووافقا على خطبتها، وتمَّ الزَّواج، وعشنا سنينَ طويلةً، كانت فيها الزَّوجة المثاليَّة الرَّاعية الوفيَّة لي ولوالديَّ، وكنت أشعر أنَّني أسعد زوجٍ على وجه هذه الأرض .

مرَّت الأعوام الخمس الأولى من زواجنا لم يعكِّر صفوَّ عشِّ الزَّوجيَّة شيءٌ، وبعد مرور هذه المدَّة طلبت منها مرافقتي إلى طبيب مختصٍّ في الأمراض التَّناسليَّة؛ لنقوم بالكشف والمعالجة لعلَّ الله يرزقنا بابن أو بنتٍ، ولا سيَّما أنَّ والدتي بدأت تلحُّ عليَّ لأتعالج، فهي تبغي أن ترى أبناء ولدها، وتقرَّ عينها بهم قبل وفاتها، وبالطَّبع ذهبت وزوجتي للطَّبيب، تلبيةً لرغبة أمِّي، وبعد أن اقتنعنا بالموضوع، وبعد إصرار والدتي ورغبتني زُرنا الطَّبيب، وبعد الكشف وإجراء الفحوص اللَّازمة طمأننا، فشفانا خيرًا، وأخذنا العلاج اللَّازم، ومرَّت أشهرٌ لكن دون جدوى، راجعنا بعدها أطباء عدَّة إلى أن مضى على زواجنا عشر سنوات، عندها يئسَّ والداي من إنجابنا، وبخاصَّة بعد أن علموا من الطَّبيب في المراجعة الأخيرة أنَّ زوجتي ميؤوس من أمرها، وليس هناك أمل في أن تنجب .

وهنا يا سيِّدي أبدأ بسرد قصَّتي :



طلب منِّي والداي الزَّوْجَ بِأُخْرَى؛ لِيَنعَمُوا بِرُؤْيَا أَحْفَادِهِمْ قَبْلَ وَفَاتِهِمْ، فَكَمَا يَقُولُ الْمِثْلُ عِنْدَنَا: لَيْسَ هُنَاكَ أَغْلَى مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا وَوَلَدُ الْوَلَدِ، وَالْجَدِيرُ ذَكَرَهُ أَنَّ أَخَوَاتِي الثَّلَاثَ الْكُبْرَىاتِ تَزَوَّجْنَ وَأَنْجِبْنَ أَوْلَادًا، أَمَّا أُخْتِي الصُّغْرَى فَيُنَّهَا تَعِيشَ مَعَنَا.

صَارَحْتُ زَوْجَتِي بِرَغْبَةِ الْوَالِدَايِ، فَوَافَقَتْ بِصَدْرٍ رَحِبٍ، وَأَلْحَتْ بِضُرُورَةِ زَوَاجِي مِنْ أُخْرَى قَائِلَةً: إِنْ كُنْتَ تَحِبُّنِي فَتَزَوَّجِي، وَسَوْفَ أَكُونُ رَاعِيَةً لِأَوْلَادِكِ مِنْهَا، وَسَيَكُونُونَ بِمَنْزِلَةِ أَوْلَادِي، وَزَوْجَتِكَ الْجَدِيدَةِ سَتَكُونُ أُخْتًا لِي، وَسَتَزِدَادُ مَحَبَّتِكَ فِي قَلْبِي إِنْ أَنْتِ قَبِلْتِ بِهَذَا، لَكِنِّي لَمْ أُسْتَجِبْ لَطَلْبِ أَبِي وَأُمِّي وَزَوْجَتِي، وَقُلْتُ: إِنِّي فِي أَتَمِّ السَّعَادَةِ عِنْدَمَا أَكُونُ أَنَا وَأَنْتِ فَقَطْ، وَلَنْ آتِي لَكَ بِصُرَّةٍ تُنْغِصُ عَلَيْنَا حَيَاتِنَا الزَّوْجِيَّةَ، فَاسْتَدَعَتْ أَبَاهَا لِإِقْنَاعِي بِالزَّوْاجِ وَهُوَ أَحَدُ رِجَالِ الْبَلَدِ الْمَعْرُوفِينَ بِالكَرَمِ وَالْأَخْلَاقِ، فَحَضَرَ وَالِدَاهَا، وَلَكِنْ كَانَ الرَّفْضُ رَدِّي.

أَشَارَ بَعْضُ أَهَالِي بَلَدِنَا عَلَى أَبِي أَنْ يَكُونَ صَارِمًا مَعِي، وَكَانَ لِذَلِكَ بِالْفِعْلِ تَأْثِيرُهُ فِي أَبِي، فَفَاتَحَنِي مَرَّةً أُخْرَى بِأَمْرِ الزَّوْاجِ، وَطَلَبَ إِلَيَّ الْقَبُولَ وَإِلَّا غَضِبَ عَلَيَّ، وَحَرَمَنِي مِنْ إِرْثِهِ كُلِّهِ، عَلِمًا أَنَّ الْوَالِدِي لَمْ يَغْضَبْ عَلَيَّ يَوْمًا، بَلْ كُنْتُ أُسْتَنِيرُ بِرِضَاهِ وَدَعَائِهِ لِي بِالتَّوْفِيقِ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِذَلِكَ فَقَطْ، بَلْ جَمَعَ أَقَارِبِي؛ لِإِقْنَاعِي بِهَذَا الزَّوْاجِ، وَأَنِّي إِنْ كُنْتُ قَوِيَّ الْإِرَادَةَ وَوَفِيًّا لِزَوْجَتِي فَلَنْ يَغَيِّرَ ذَلِكَ زَوَاجِي بِأُخْرَى فَاسْتَجَبْتُ لَطَلْبِهِمْ أَحْيَرًا، وَقُلْتُ: مَا دَامَ الْأَمْرُ هَكَذَا فَلَا دَاعِي لِلْقَلْقِ أَوْ التَّرَدُّدِ، وَقَبِلْتُ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ ذَهَبْتُ بِرِفْقَةِ الْوَالِدِيَّ وَزَوْجَتِي لِخُطْبَةِ إِحْدَى بَنَاتِ الْبَلَدَةِ، وَكَانَتْ الْمَوَافِقَةُ، وَاتَّفَقْنَا عَلَى الْمَهْرِ وَالزَّوْاجِ، وَكَانَ شَرْطِي أَنْ يُعْقَدَ الْقِرَانُ بَعْدَ مَوْسَمِ قَطْفِ الزَّيْتُونِ؛ أَي: بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَانْتَهَى



الموسم، وأتفقت مع أهلي أن يكون عقد القران بعد أسبوع عند قدوم والد الفتاة من سفره، لكنني شعرت في تلك الليلة بأن زوجتي مريضة؛ لأنها كانت تتقيأ، وقد مرّت بهذه الحال قبل مدّة، لكن في تلك الليلة زاد إعيائها وتعبها واصفرار وجهها، وبعد إلحاح شديد منّي ورفض منها وادّعائها أن صحتّها ستكون أفضل في الصّباح، أخذتها إلى الطّبيب وكانت عيادته تبعد عن بلدتنا (٣٢) كيلومتراً، وبعد إجراء الفحوص الطّبيّة اللّازمة وصدور نتائجها كانت المفاجأة، زوجتي حامل، فلم أصدّق ذلك، لكنّ الطّبيب أقسم على صحّة الخبر، والنتائج تبين ذلك وتؤكّده، فلم أشعر إلاّ أنا وزوجتي في غيبوبة أفقنا بعدها لنجد أنفسنا لا شعورياً يحتضن بعضنا بعضاً ودموع الفرح تنساب على وجنتينا، هنأنا الطّبيب بالخبر وبارك لنا، ثمّ سألته: كيف يكون ذلك يا دكتور وقد أعلمنا الأطباء أنّ زوجتي لا تُنجب، ومضى على زواجنا سنين طويلة؟! فكان ردّه: لا يا ولدي، لا تياس من رحمة الله، فالله قادرٌ على كلّ شيء، وإرادة الله أقوى من علم الأطباء، والله وعد الصّابرين خيراً، وليس هذا غريب، فالله قادر، والحمد لله على ذلك.

عدنا بعدها للبلد فوجدنا الأهل في انتظارنا، وقد استعدّوا للذهاب إلى بيت الفتاة التي سأتزوّجها؛ لكتابة عقد القران، وكانت مفاجأة ما بعدها مفاجأة عندما علموا بالخبر السّعيد، فأصابتهم الغشية، ولمّا أفاقوا نهض والدي وطلب من الجميع أن يتوضّؤوا، ووقف ليُصلّي بنا إماماً حمداً لنعمة الله على عطائه.

في اليوم التّالي ذهبَ أبي لإخبار أهل الفتاة وألغى زواجي منها؛ لأنّ زوجتي حامل، فسُرّوا بذلك الخبر.



وعاد الوالد ليعلمني بموافقة أهل البنت دون أي حرج، ومرّت الشهور الباقية، ووضعت زوجتي بنتاً ملأت علينا البيت بهجةً وسروراً، ثم جاء المولود الثاني، وكان الفرح الكبير من الجميع بقدمه.

لكن سيدي، الفتاة التي كنت سأتزوّجها لم يتقدّم أحدٌ لخطبتها بخاصّة عندما علموا أنني الذي كنت سأتزوّجها، وكنت كثيراً ما أسمع من الناس في المجالس والدّواوين أنني السبب في ذلك، وأناي قد جنيت عليها؛ لأنّ العادة في بلدتنا جرت بأنّ البنت التي يتقدّم لها زوج ثمّ يعدل عنها، تصبح غير مرغوب بها، لا لسببٍ وإنما هي عادة اعتقد أنّها في وقتنا الحاضر بدأت تتقلّص وتزول، ويمكنني القول: إنّها غير موجودة حالياً.

لكن هذا الكلام الكثير طرّق مسامع أهلها وأهلي أيضاً، وعلمت زوجتي بذلك وطلبت مني أن أتزوّجها حفاظاً على سمعتها وكرامتها؛ لأنّها قبلت هذا الزّواج على ضرّة، ولكنّي رفضت ذلك، وبدأت أضحك لقولها، فقالت: لا تجنّ على البنت، تزوّجها لتعيش معنا، وإلا سينتقم الله منّا، ولن تكمل سعادتنا.

فقلت لها: دعيني أفكّر في الموضوع، وقرّرتُ أن أذهب لابن عمّي وأطلب منه أن يتزوّجها، فرفض في البداية قائلاً: كيف يكون ذلك وكنت قد طلبتها أنت؟! فقلت له: لم يحصل فيما بيننا شيءٌ أبداً، وأقنعتة بكلّ الوسائل والطّرق إلى أن خضع لطلبي، فوافق وأقنع أهله، وتقدّم للزّواج من الفتاة وتزوّجا.

وبدأت المشكلات فيما بينهما من السنّة الأولى، حيث بدأ يعيّرُها بأنّها تكبره بسنة، وأنّها طلّبت للزّواج ولكنّها لم تجد أحداً، حتّى انتهى بهم الأمر إلى الطّلاق، علماً أنّ الكثير تدخّل في الأمر مصلحاً له، لكن



دون جدوى، فذهبت برفقة والدي لمقابلة ابن عمِّي فما كان منه إلا أن قال مخاطبًا أبي: إنَّ ولدك هو السَّبب، أسأل الله أن ينتقم منه كما أوقعني في هذه المصيبة، وعلمنا أيضًا أنَّ الزَّوجة المطلَّقة تدعو الله دائمًا أن يُنزل علينا اللعنة، ويدمِّر حياتنا.

وحَصَلَ ما حَصَلَ، لكن ابن عمِّي أبا دخول بيتي، على أنني ذهبت إليه مرَّاتٍ عدَّة، وتدخَّل الأقرابُ ليصلحاً فيما بيننا، لكنَّه مع هذا تبَيَّن لي أنَّه يشعر بحزنٍ كبيرٍ عليَّ.

ومرَّت أيامٌ وأيامٌ دون أن نتكلَّم حتَّى في الأعياد، وإنَّ شاهدَ أحدنا الآخرَ في الطَّريق لا يكلمه البتَّة، مع أنني التقيته مرَّةً فسَلَّمْتُ عليه، فما كان منه إلا أن ردَّ عليَّ بالألَّا أكلمه أبدًا ما دام حيًّا؛ أي: بمعنى أن لا يراني ولا أراه حتَّى الممات.

سيِّدي: أرجوكم معذرتي؛ لأنِّي أطلت عليكم، لكنِّي أحببت أن أسردَ لكم القِصَّة من بدايتها؛ لأنَّها مكملَّة لسؤالِي الآتي:

ضميري ما زال يؤنِّبني حتَّى الآن، والليل يؤرِّقني لِمَا صنعتَه مع ابن عمِّي.

هل أنا يا سيِّدي آثم على ما فعلته نحو ابن عمِّي؟! ربَّما تقول لي: الزَّواج قسمة ونصيب، أنا معك في ذلك، ولكنِّي أنا السَّبب وأخاف أن يعاقبني الله على فعلتي هذه، ولا أخفيكم أنَّ زوجتي قد ألحَّت عليَّ بالكتابة لكم، فاستجبت لها؛ لأنَّنا حقيقةً نعيشُ في دوامةٍ؛ لِمَا نسمعه من دعواتٍ بحقِّنا من الطَّرفين، وقد طرق مسامعنا أن هذه الفتاة تبتهل إلى الله أن يحطِّمنا كما حطَّمنا حياتها، وأن يجعل أيَّامنا كلَّها سواد، إنَّنا في عذابٍ دائمٍ لِمَا نسمع، وأخشى نعمة الله وغضبه، ودعوة المظلوم

مستجابة، فهل أنا ظالم؟ ربّما أكون ساذجًا في توجيه مثل هذه الأسئلة لكنّ الخوف والتّفكير يؤرّقاني، وإذا كنت ظالمًا جنيت على هذين الشّابّين، فما هي كفّارتي؟ وماذا عليّ أن أفعل؟

أرجوك سيّدي أن تُطمئنّي حتّى يهدأ بالي وبال زوجتي، أرجوك هل أنا على حقّ أم على باطل؟ وأرجو أن أجد عندكم ما يهدّي من قلقي وتفكيري؛ لأنّ سعادتني لن تكتمل ما دام ضميري يؤنّبني، وصفو الحياة متكدّر بسبب الدّعوات التي نسمعها من هنا وهناك، عليّ وعلى زوجتي.

هل أنا مخطئ في حقّ هذين الزّوجين؟ وهل أنا السّبب في تعاستهما؟ هل أنا أنانيّ؟ علمًا أنّي أشعر أنّ فعلتي هذه سببها الأنانيّة.

سيّدي: أرجوك الإفادة، وجزاكم الله خيرًا.

الجواب:

عرضت الرّسالة على فضيلته في المستشفى، واطّلع عليها قائلًا لي: من الذي عاش هذه القصّة؟ فأجبتّه قائلًا: كتبتها نقلًا عن أحد أقربائي، وقد طلب منّي أن أصوغها بعد أن وعدته بعرضها على فضيلة الأستاذ النّوريّ.

فقال لي الشّيخ: يا ولدي، إذا كان في العمر بقية فسوف نجيب عنها، وشكّر لي ذلك.





لِمَاذَا الطَّلَاق؟!

سيدي الوالد: واسمح لي أن أصفك بالوالد؛ لأننا لا نستطيع أن نشكو مصائبنا إلا عن طريقك، كتابياً أو إذاعياً.

لماذا لم تحدّد حكومة الكويت قضية الزواج؟ لماذا تركت حبل الرجل على غاربه؟

أنا كويتية، وأفتخر بهذه الصّفة والجنسيّة كما يسمونها.

صبرت على مصائب الزوج، وكنت أخاف، لكن عندما طَفَحَ الكيل تساوى عندي الأمن والخوف.

لماذا تُطَلِّقُ الحرّية للرجل فيتزوج - كيفما شاء - اثنتين وثلاثاً وأربعاً؟!

إنَّ الرجلَ القادرَ الغنيَّ يستطيع الإنفاق على هذه وتلك، وإذا امتنع أخذت منه الحقوق بالقوّة، لكن ما بال هذا الذي لا يملك غير راتبه، غير أنه مدين أيضاً؟!

لماذا يُطَلِّقُ الغنيُّ امرأته إذا تزوّج بأخرى؟ هل الزواج للتلدُّذ أم لبناء أسرة وإنشاء أجيال؟

أنا أعرف أنّ الطَّلَاقَ مباحٌ، لكنّه أبغض الحلال إلى الله، والله عَزَّ وَجَلَّ كرهه الطَّلَاقَ، وحذّر منه بقوله: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعُطُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُمْ فَإِنَّ أَطْعَمَكُمْ فَلَا تُبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَكِينًا﴾ [النساء: ٣٤].

إنَّ المطلّقات كُثُرَ لا حصرَ لهنَّ ولا عدد، وأبناء المطلّقات أكثر،



واسمح لي إذا سميت أولاد المطلقات بالمشردين؛ لأنهم كذلك حقاً،
فاليتيم له من يرعاه، أمّا ابنُ المطلقة فهو منبوذٌ مشردٌ.

لماذا يا سيدي عندما يأتي الرجل إلى المحكمة ويقول: طَلَّقت، أو
يريد أن يُطَلَّق يستجاب له؟! هل الطَّلَاق كلمة بسيطة؟! إنه معولٌ يهدم
أسرةً ويشتتُ شملاً.

الأسرة عندنا في الكويت ضعيفة؛ لذا أناشد الناس والقضاة والآباء
وأولي الأمر أن يرحموا الأسرة، ويقوُّوها حتَّى يقوى المجتمع بها، فإنَّها
أوَّلُ لبنة في لبنات بناء المجتمع، فإذا قَوِيَت قَوِيَ البناء.

أقول ختاماً: أنا أعرف أن المرأة تُطَلَّق إذا أهانت كرامتها أو كرامة
زوجها، أو كان هناك سببٌ يبيحه الشرع؛ كالمرض المعدي - مثلاً -
ولكننا نرى الرجل استغلَّ هذا الحلال، فأباحه لنفسه بلا حدٍّ ولا كمٍّ ولا
كيفٍ.

فلانة بنت فلان

الجواب:

ليس لي جوابٌ ولا تعليقٌ على رسالة من وصفتني بوالدها أو وصفت
نفسها بابنتي وأخفت اسمها، لكنني أضمتُ صوتي لصوتها، وأقول للجميع:
تداركوا الأسرة، تداركوا الأسرة، فالأسرة أقوى لبِنَاتِ المجتمع، ولا
يقوى البناء إلاَّ بقوة لبِناته.

وأقول أيضاً زيادةً على وصفها أبناء المطلقات بالمشردين: إنَّ هؤلاء
هم اليتامى بحق، وهم الذين وصفهم الشاعر بقوله:

ليس اليتيم هو الذي أبواه قد تركا الحياة وخلفاه ذليلاً



إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلْقَى لَهُ أُمَّا تَخَلَّتْ أَوْ أَبًا مَشغُولًا^(١)
 وَقَدْ بَلَغَ عَدَدَ هَؤُلَاءِ الْيَتَامَى الْمَشَرَّدِينَ الضَّالِّينَ بَيْنَ أَبْوَيْنَ لَا إِنْسَانِيَّينَ
 الْآلَافَ؛ لِأَنَّ الطَّلَاقَ صَارَ بِالْآلَافِ.

وتعليقًا على ما جاء آخر رسالة فلانة، أقول: من واجب المجتمع
 والرِّجال الأزواج أن يحفظوا كرامة من كَرَّمَتِ نَفْسَهَا، وصانت عرضها،
 وحفظت زوجها في ماله وولده، وأن يعضُّوا بالنَّواجذ على مثل هذه
 الزَّوجة، ويصونوها كما صانتهم، ويكرِّموها كما كَرَّمَتَهُمْ، وألَّا يخاطبونها
 إِلَّا بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، أُمَّا من لا تَكْرُمُ نَفْسَهَا فليس علينا - نحن الرِّجال - أن
 نَكْرُمَهَا، وقديمًا قال الشَّاعر زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ يَغْتَرِبَ يَحْسَبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ وَمَنْ لَا يُكْرِمُ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمُ^(٢)
 وَأُمَّا مَنْ لَمْ تَحْفَظْ بَيْتَهَا فَهِيَ لِنَفْسِهَا وَأَوْلَادِهَا أَضِيعُ.



طَلَّاقٌ أَوْفَادٌ

اختلف مع زوجته التي يحبُّها ولا تحبُّه، وله منها خمسة أبناء، وطلَّقها
 دون حضور قاضٍ شرعيٍّ أو مأذون، وإنَّما حَضَرَ الطَّلَاقَ إِمَامٌ مَسْجِدِ
 المَحَلَّةِ، وبعد الطَّلَاقِ تزوَّجَ إِمَامُ المَسْجِدِ هذه المرأة، فهل هذا الطَّلَاقُ
 جائز؟ وما حكم هذه المرأة التي تركت أبناءها الخمسة وزوجها الذي
 يحبُّها؟

جمال سهيل - من الأنبار

(١) انظر: شعر شوقي في ميزان النقد، لمحمد مصطفى المجذوب (١/٨٢).

(٢) سبق تخريجه.

الجواب:

لستُ أدري أيَّ الثلاثة ألوم! هل ألوم ذاك الزَّوجَ الَّذِي يَعْلَمُ بِكَرِهِ زَوْجَتِهِ لَهُ، وَيَعْلَمُ أَيْضًا أَنْ لَا دِينَ لَهَا، ثُمَّ يَأْمَنُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَبَيْتِهِ؟! أم تلك الزَّوْجَةَ الَّتِي لَا دِينَ لَهَا، وَتَعْلَمُ بِحُبِّ زَوْجِهَا لَهَا، وَتَتَطَلَّعُ إِلَى غَيْرِهِ؟! أم ذلك الإمام المؤمن على صلاة الجماعة الَّذِي يُحِبُّ^(١) الزَّوْجَةَ عَلَى زَوْجِهَا!؟

ألوم الثلاثة، وأروي لهم هذين الحديثين الشريفيين: الأول: رواه الترمذي عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(٢).

وهذه سألت زوجها طلاقها، وأضاعت أطفالها الخمسة، وعرضتهم لزوجة أب لا ترعى، ولا ترحم.

الحديث الثاني: رواه الإمام أحمد بن حنبل عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ مَنًّا مِنْ حَلْفٍ بِالْأَمَانَةِ، وَمَنْ حَبَّبَ عَلَى امْرِئٍ زَوْجَتَهُ أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ مَنًّا»^(٣)، ومعنى حَبَّبَ: خدع أو أفسد.

على كلِّ حالٍ شرُّ الثلاثة ذلك الإمام الَّذِي تَظَاهَرَ بِالطَّيْبَةِ وَأَبْطَنَ الْخَبْثَ، وَأَبْدَى الْأَمَانَةَ وَأَسَرَّ الْخِيَانَةَ، ثُمَّ قَالَ لِلزَّوْجِ الْمَغْفَلِ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ: لَا تَلْمِني وَلَمْ نَفْسِكْ، وَلَوْ كُنْتَ مَالِكًا لِحُبِّكَ لَمَّا اسْتَجَبْتَ لِي. نسأل الله العافية.



(١) الحَبُّ: الحَدَّاعُ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/٣٢٧).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١١٨٧)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ، وأبو داود، رقم: (٢٢٢٦).

(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٢٩٨٠).



الخُرَافَاتُ فَسَادُ أَخْلَاقٍ

كُنَّا أُسْرَةً سَعِيدَةً هَانِئَةً نَعِيشُ فِي وِثَامِ أَنَا وَإِخْوَتِي الْأَرْبَعَةَ وَزَوْجَاتِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَوَالِدَتِي تَعِيشُ مَعَنَا، لَمْ نَتَشَاكِرْ مَرَّةً، وَيَحْتَرَمُ الصَّغِيرَ مِنَّا الْكَبِيرَ، وَفَجْأَةً انْقَلَبَ الْبَيْتُ إِلَى جَحِيمٍ، وَالسَّبَبُ أَنَّ أُمَّي تَعَرَّفَتْ إِحْدَى الدَّجَالَاتِ، وَأَقْنَعَتْهَا هَذِهِ الدَّجَالَةُ أَنَّ زَوْجَةَ أَحَدِ أَبْنَائِهَا صَنَعَتْ لَهَا سِحْرًا، وَانْسَاقَتْ أُمَّي وَرَاءَ هَذِهِ الدَّجَالَةِ تَصَدِّقُ كُلَّ مَا يَقُولُهُ، فَإِذَا مَرِضَ أَحَدُنَا فَسَبَبَ السِّحْرَ، وَإِذَا حَدَّثَ أَيُّ شَيْءٍ فَسَبَبَهُ السِّحْرَ، وَهَكَذَا حَتَّى أَصْبَحَتْ حَيَاتُنَا لَا تَطَاقُ.

أَنَا لَا أَصَدِّقُ هَذِهِ الْخُرَافَاتِ، وَلَكِنْ مَاذَا أَفْعَلُ وَبَيْتُنَا أَصْبَحَ مَهْدَدًا بِالْخُرَابِ؟!

أَرْجُوكِ يَا وَالِدِي أَنْ تُوَجِّهَ كَلِمَةً لِأُمَّي، وَلِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهَذِهِ الْخُرَافَاتِ عَلَيْهِمْ يَعُودُونَ إِلَى عَقُولِهِمْ.

أُمُّ مُحَمَّدٍ - النَّقْرَةُ

الجواب:

رسالتك واحدة من رسائل عدّة تصلني حاملة المعنى نفسه، وإنّ اختلاف الألفاظ، علماً أنّي تكلمت في هذا الموضوع كثيراً، وفي أوقاتٍ غير متباعدة.

لكنني في هذه المرّة سأتبسّط في الموضوع وأتوسّع فيه، فإنّ هذه الظاهرة منتشرة في بلادنا، وهي في الأوساط الجاهلة أكثر انتشاراً، ولا

أَخْصُ بِذَلِكَ بَلَدًا دُونَ آخَرَ.

أقول للإخوة المشاهدين؛ رجالهم ونسائهم: نحن بحمد الله مسلمون، نؤمن بأن الله واحد أحد، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ونؤمن برسالة محمد بن عبد الله، وبالقرآن الذي جاء به من عند ربه والذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٢]، والذي يقول لقارئيه ومتبعية وللمسلمين جميعهم: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يُونُس: ١٠٧].

وأقول لهؤلاء الذين يؤمنون بالدجالين، ويؤمنون بما يقولونه لهم: يا أيها المؤمنون بالله! أيها الإخوة، حذار من الشرك، فإن رسول الله ﷺ قال: «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»^(١).

ثم أقول: أين هؤلاء الدجالون من جرهم المصلحة لأنفسهم، فإني أراهم هلكى جوعى فقراء، أراهم قذرين، لا يملكون إلا لباساً رديئاً تملؤه الأوساخ، ولحية دنسة، وشعرًا شعثًا، ووجوهًا باسرة^(٢)، وعيونًا بارزة، فلماذا لا يحققون المصلحة لأنفسهم؟! إنهم عجزة، ولكن ماذا أقول للعقول الفارغة التي تُصدِّقهم بما يقولون.

التمسوا أيها الإخوة النفع من الله وحسب، فإنه وحده النافع والضرار لا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.



(١) رواه أحمد، رقم: (٩٥٣٦).

(٢) وجوه باسرة، أي: مُتَكَرِّهَةٌ مُتَقَطَّبَةٌ أَيْقَنْتَ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهَا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧٨/١٠).



لا تقنطوا من رحمة الله

كواكب من بغداد تقول: أنا امرأة جاوزت سنَّ الشباب، مصابةٌ بتشوُّهٍ في جسمي، كان سببه سقوطي من سلم البيت، وهذا التشوُّه وقَفَ حجرَ عشرةٍ في طريق زواجي، وأصبت بحالةٍ نفسيةٍ زادها وفاة والدي، ممَّا اضطرَّني إلى البحث عن وسيلةٍ لأهرب بها من همومي، فشربت الخمر، وأدمنت حتَّى مرضت مرضًا شديدًا، وعرفت أنَّ الله غاضب عليّ فتبت بعد ذلك، ولكنَّ توبتي كانت بعد فوات الأوان فقد ساءت صحَّتي، وذهبت قوَّتي.

أريدُ أن أحجَّ بيتَ الله لكسب رضا ربِّي، فقد قرأت حديثًا عن رسول الله ﷺ يقول: «الحجَّاج والعمَّار وفدُ الله، إن دَعَوْهُ أجابهم، وإن استغفروه غفرَ لهم»^(١)، وأريد أن أستغفر الله عند عتبة بيته، ولكنَّ حالتي الصَّحيَّة لا تسمح لي بذلك، فماذا أفعل؟ دلَّني عليك على الطَّريق.

الجواب:

لا قول لي بعد قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الرُّم: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النِّسَاء: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٨٩٢).

فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان: ٧٠].

أما قولك: إنني أريد أن أستغفر الله عند عتبة بيته، فاعلمي يا أختي أن الله موجود بعلمه في كل مكان، فيقول جلَّ شأنه في كتابه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، ويقول: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾

[المجادلة: ٧].

الله معك أينما كنت، وهو يعلم صدق توبتك وإخلاصك في نيّتك، فإن كنت في صحّة وعافية والسّفر سهل عليك فلا مانع يمنعك من أن تذهبي وفدًا مع الحجّاج، وتقضي في رحاب حرمه، وتسأليه العفو والمغفرة، وإلا فاسأليه العفو والمغفرة في كل مكان، واعلمي أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ، فأكثرُوا من الدّعاء»^(١).

استغفري الله وأنت ساجدة، إن الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ.



لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ

شابُّ مسلم في الثّانية والعشرين من عمري، هنديّ الجنسيّة أدرس في الهند، تعرّفت مسلمًا مثلي، له أختٌ صالحة مثله، لم أحبّها لجمال وجهها وأناقتها بل لدينها وخُلُقها وعفّتها فتزوَّجتها.

(١) رواه مسلم، رقم: (٤٨٢)، وأبو داود، رقم: (٨٧٥).



وَعَلِمَ وَالِدِيَّ بِذَلِكَ فَطَلَبُوا مِنِّي صُورَةَ الزَّوْجَةِ، فَأَرْسَلْتُهَا لَهُمَا، وَعِنْدَمَا شَاهَدَاهَا ثَارَتْ عَلَيَّ ثَائِرَتُهُمَا، وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ، فَهَمَا يَرِيدَانِ لِي زَوْجَةً صَبِيحَةَ الْوَجْهِ، جَمِيلَةَ الْخَلْقَةِ، أَنْيَقَةَ الثَّوْبِ، عَصْرِيَّةً مَتْحَضَّرَةً، حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ لَا تَبَالِي بِتَرْبِيَةِ وَاكِدٍ، أَوْ رِعَايَةِ زَوْجٍ، أَوْ أَمَانَةِ بَيْتٍ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ مَا يَبْغُونَ، إِنَّنِي أُرِيدُ امْرَأَةً تَعِينُنِي عَلَى دِينِي وَطَاعَةِ رَبِّي.

إِنَّ كُلَّ مَا يَرِيدَانَهُ فَقَطْ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ عَنْ اخْتِيَارِهِمُ الْحَسَنَ، وَعَنْ جَمَالِ كُنْتُهُمَا، أَمَّا أَنَا فَلَا أَبْغِي إِلَّا امْرَأَةً تُرَبِّي أَوْلَادِي عَلَى الدِّينِ الصَّحِيحِ لِيَصْبَحُوا مِنَ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ، وَتَعُوْدَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِمْ، وَتَشُدُّ مِنْ أَرْزِهِمْ لِيَتَمَسَّكُوا بِدِينِهِمْ، وَهَمَا يَرِيدَانِ أَنْ يَزُوْجَانِي مَنْ لَا تَعْرِفُ اسْمَ نَبِيِّهَا حَتَّى، فَمَاذَا أَفْعَلُ؟!

هَلْ أَطِيعُهُمَا وَفِي طَاعَتِهِمَا اللَّعْنَةُ لِأَوْلَادِي إِذَا قَسَمَ اللَّهُ لِي ذُرِّيَّةً؟! بِاللَّهِ عَلَيْكَ، دُلَّنِي عَلَى الطَّرِيقِ.

يعقوب محمّد صالح - عليكرة - الهند

الجواب:

قال الله تعالى في سورة العنكبوت آية (٨): ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال تعالى في الآية (١٤-١٥) من سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُ الْهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

والرَّسُولُ الْمُصْطَفَى ﷺ الَّذِي أَمَرْنَا اللَّهَ بِطَاعَتِهِ وَجَعَلَهُ لَنَا أُسُوةً حَسَنَةً

قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١).

إنَّكَ تريد زوجة تعينك على طاعة ربِّك كما قلت، والرَّسول ﷺ قال لنا: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٢)، إنَّكَ تريد زوجةً تُنْجِبُ لَكَ الدُّرِّيَّةَ الصَّالِحَةَ كما قلت، والرَّسول ﷺ قال لنا: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِئِكُمْ»^(٣)، وقال: «إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ، قيل: يا رسول الله، وما ذاك؟ قال: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمَنْبِتِ السُّوءِ»^(٤).

وأنت يا ولدي تريد زوجة تعينك على دينك، وتحفظ بها مستقبل أولادك، وتأمينها على مالك وعرضها في غيبتك، تريدها عفيفةً تقيَّةً، إن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالك وولدك وفي نفسها، لا تلهيها المرأة ولا موادَّ التَّجْمِيلِ عن واجباتها تجاه ربِّها وزوجها وولدها.

فاعلم يا ولدي أَنَّ الرَّوْجَةَ لَكَ لَا لِأَبِيكَ، فَإِنْ صَدَقْتَ فِيمَا قُلْتَ فَأَطِعْ نَبِيَّكَ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٣١-٣٢]، وَإِنَّ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ قَالَ لِأُمَّتِهِ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٥).

أَطِعِ الرَّسُولَ ﷺ وَاخْتَرِ لِنُطْفَتِكَ وَلِمُسْتَقْبَلِكَ، وَلِمُسْتَقْبَلِ أَوْلَادِكَ مَا يَنَاسِبُهُ، وَلَا تُطِعْ مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣٨١).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧).

(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (١٩٦٨).

(٤) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٦١٥).

(٥) سبق تخريجه.



﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

وهذا كتابٌ مشابهٌ لكتاب يعقوب يقولُ صاحبه:

أبي مريض نفسيًّا، أبيتنا أن ندخله مستشفى الأمراض النفسيَّة؛ لأننا لا نرغب بإعلان مرضه، تصرفاته كلها تبينُ مرضه، إن ضربَ أوجعَ وأدمى، وإن شتمَ أفحشَ في القول، وأهدرَ الكرامة، وحطَّمَ الكبرياء، فماذا نفعل معه وهو يأمرنا بما يضرُّ أو يُشِين؟

الجواب:

أنت قلت: إنَّ أباك مريضٌ نفسيًّا، والأمراض النفسيَّة صعبةُ العلاج، بل ربَّما لا يفيدُ معها علاج.

داروا خاطرَ أبيكم، وامثلوا أوامره متى كانت في حدودِ طاعةِ الله تعالى وعدمِ مخالفةِ أمره، أمَّا إذا كانت أوامره مخالفةً فإنَّه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١) كما قلتُ لصاحبكم يعقوب محمد صالح من قبل.

صاحبوا أباكم بالمعروف، ولا تتركوه، وعاملوه بالحسنى، وتملِّقوه بالتي هي أحسن، وأطيعوا الله فيه إذ أمركم فقال: ﴿إِنَّمَا يَبُلِّغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].



(١) سبق تخريجه.



الْوَرَاثَةُ وَالْعِرْقُ دَسَّاسٌ

أنا في الصَّفِّ الرَّابِعِ العِلْمِيِّ، ونحن ندرس الوراثة في علم الأحياء .
وقد توصل العلماء إلى صفةٍ وراثيةٍ إن وجدت في مولودٍ فإنه يكون
مجرماً، فما مدى صحَّة هذا الكلام من النَّاحِيَةِ الدِّينِيَّةِ، ونحن نعلم أنَّ الله
فَطَرَ الْإِنْسَانَ عَلَى الْخَيْرِ؟

عصام عبد اللطيف

الجواب:

قرأنا حديثاً شريفاً للرَّسُولِ ﷺ يقول فيه: «تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ»^(١)، وقرأنا
حديثاً آخر يقول فيه: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُؤَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانَهُ أَوْ
يَنْصَرَانَهُ أَوْ يُمَجَّسَانَهُ»^(٢).

وَالْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا هِيَ التَّوْحِيدُ، تَوْحِيدُ اللَّهِ بِالْعِبُودِيَّةِ،
وَاللُّجُوءُ إِلَيْهِ بِقَضَاءِ الْحَاجَةِ، وَأَنْ يَظْهَرَ الْإِنْسَانُ أَمَامَهُ بِالضَّعْفِ وَالْفَقْرِ
وَالْحَاجَةِ وَالذَّلَّةِ، أَمَّا مَا قَرَّرَهُ عُلَمَاءُ الْوَرَاثَةِ فَقَدْ يَكُونُ فِي الْإِنْسَانِ اسْتِعْدَادٌ
لِتَقَبُّلِ الْخَيْرِ بِسُرْعَةٍ وَقَدْ يَكُونُ عَكْسُ ذَلِكَ، لَكِنْ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَجْرَماً
بِالطَّبِيعَةِ فَهَذَا مَا لَمْ يُعْرَفْ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُكْتَسِبٌ مُتَعَلِّمٌ.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَجَدْنَا أَنَّ فِيهِمَا اخْتِلَافاً، فَالْحَيَوَانَاتُ
يُؤَلَّدُ وَيَنْهَضُ حَالَ وِلَادَتِهِ، وَيَلْتَقِمُ ثَدْيَ أُمِّهِ، دُونَ أَنْ يَرشُدَهُ إِلَى الثَّدْيِ

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٣٨٥)، ومسلم، رقم: (٢٦٥٨).



مرشدٌ، والطَّيْرُ يلتقط الحَبَّ دون أن يرشده إلى ذلك مرشد، أمَّا الإنسان فيولد دون معرفة شيء ولولا أن أمه ترشده إلى الثدي ما عرفه ولا عَرَفَ طريقه، ولولا أن والديه يعلمانه الحبو والمشى لم يحب ولم يمش، فالإنسان مُكْتَسِبٌ، وليس مفطورٌ كالحيوان، فالخُلُقُ في الإنسان مُكْتَسَبٌ، ولكنَّ الإنسان لفعل الخير أحبُّ، وقليلٌ مِنَ البَشَرِ مَنْ يُسَرُّ لفعل الشَّرِّ، وهذا شاذٌّ، والشَّاذُّ لا حُكْمَ له.

لكنني بدأت جوابي عن سؤال السائل بالحديث الشريف «تخيروا لِنُظْفِكُمْ»^(١).

نعم، وقد يعتاد المرء فعلَ الشَّرِّ حتَّى تكون العادة عنده طبيعةً تختلط بدمه، فتندسُّ إلى ذُرِّيَّته، ولا ننسى أن «العِرْقَ دَسَّاسٌ»^(٢)، كما لا ننسى أن للتربية تأثيرها في حياة النَّشءِ، وقد تمحو هذه التربية كثيرًا من السيئات، أو تخفي كثيرًا من الحسنات، والمعروف أن عدوى السيئات يظهر أثرها في الاختلاط بين النَّاشئة وحتَّى الكبار، فكم أصابت عدوى سوء الخُلُقِ الكثيرين حتَّى أساءت خاتمهم، ونسأل الله العافية.



إكراه البنت على الزواج

أخي العزيز الأستاذ الفاضل مستشار اليقظة المحترم سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٠٤٦٩).



تحية طيبة مباركة، وبعد:

قرأت رسالة المعذبة (ن) من بنغازي في ليبيا المنشورة في العدد (٥٨٥) في مجلّتنا؛ مجلّة اليقظة تاريخ (١/١/١٩٧٩م).

وإنّي أعجب أن يعيش أبٌ بهذه العقليّة الجامدة في هذا العصر؛ عصر الذرّة والكمبيوتر، ونحن نعلم أنّ الزّواج سكن ومودّة ورحمة، وكلّها مقاصد سامية لا بدّ وأن تُبنى على الرّضا، ولا تتحقّق إلّا به.

ولتعلم هذه المعذبة أنّ العقد الذي أجراه أبوها عقد باطل بنصّ الشريعة الإسلاميّة في أشهر الأقوال عند المذاهب جميعها، وفي كلّ القوانين المعمول بها اليوم في البلاد الإسلاميّة إلّا إذا أجازته هي؛ لأنّ أكثر الفقهاء قالوا: إنّ حقّ المرأة البالغة في نفسها أقوى من حقّ وليّها، فأمرُ زواجها لها، بكرًا كانت أم ثيبًا، واستدلّوا بالحديث الشريف الذي رواه أئمة الحديث: البخاريّ ومسلم وأبو داود والترمذيّ والنسائيّ بلفظ: «لا تُنكحُ الأيّم حتّى تُستأمر، ولا تنكحُ البكرُ حتّى تُستأذن»^(١)، وفي لفظ آخر: «الثيب أحقّ بنفسها من وليّها، والبكرُ تُستأمر، وإذنها سكوتها»^(٢).

وقد مارس الأولياء الجبريّة الجاهليّة في عهد النبيّ ﷺ حتّى شكت

(١) رواه البخاري، رقم: (٥١٣٦)، ومسلم، رقم: (١٤١٩)، والترمذي، رقم: (١١٠٧)، وأبو داود، رقم: (٢٠٩٢)، والنسائي، رقم: (٥٣٥٨)، وابن ماجه، رقم: (١٨٧١).

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٤٢١)، وأبو داود، رقم: (٢٠٩٩)، واللفظ لمسلم.



إليه امرأة أن والدها قد زوّجها كرهاً من ابن أخيه، وقالت: يا رسول الله زوّجني أبي من ابن أخيه، وأنا له كارهة، فقال لها ﷺ: «هَلَّا أَجَزْتَ مَا صَنَعَ أَبُوكَ؟»، قالت يا رسول الله: ما لي رغبة فيما صنع أبي، فقال ﷺ: «أذهبِي فلا نكاحَ له، وتزوّجِي من شئت»، فقالت المرأة: الآن أجزيتُ ما صنعَ أبي، ولكنِّي أردتُ أن يعلمَ النَّاسُ أن ليسَ للآباءِ في أمورِ بناتهم شيءٌ^(١).

من هذا الحديث ومن غيره استنتج علماء الشريعة الإسلامية أن ليس هناك وليٌّ مُجْبَرٌ، إذا كانت البنت قد بلغت سنَّ الرُّشد.

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: لا تُجْبَرُ البِكْرُ البالغ على النِّكاح، ولا تزوّج إلا برضاها^(٢).

وهذا القول هو الحقُّ الموافق لحكم رسول الله ﷺ وهو العقل، وهو الدين الذي نتعبدُ به ربَّنَا، ونعتقد أنه الأصلح للمجتمع ولل فرد، وأنه الأذوم للعلاقة الزوجية التي أرادها الله أن تكون للزوجين سكناً ومودةً ورحمةً.

أمَّا جوابي على المسألة التي سألت عنها الفتاة فأقول:

إنَّ العقد باطلٌ، والزَّوج الجديد الَّذِي طَلَبَ يدكِ حِلُّ لكِ، ولا بدُّ للعقد بينك وبينه من وليٍّ، ووليُّك الَّذِي هو أبوك عاضلٌ^(٣)، وقد قال

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٥٠٤٣).

(٢) انظر: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية (٨٨/٥).

(٣) العاضل: المنع والشدة، وعضل المرأة: إذا منعها الزوج ظلماً. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/١).



الرَّسُولُ ﷺ: «القاضي وليٌّ من لا وليٍّ لها»^(١)، فلتذهب السَّائلة إلى
القاضي ليعقد زواجها ممَّن تشاء.
والله وليُّ التَّوفيق.



(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٠٢)، بلفظ: «... فالسلطان ولي من لا ولي له»،
وقال: هذا حديث حسن، وأبو داود، رقم: (٢٠٨٣)، وابن ماجه، رقم:
(١٨٨٠).



جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله

سبأ الوفي في أخبار أئمة العقيدة

اعتق إليه

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذا إصدارٌ جديدٌ من سلسلة «سألوني» لفضيلة الشيخ المرحوم عبد الله النوري، تضيفه شركة «ذات السلاسل» إلى ما سبق إصداره، وتعتزُّ بهذا الإصدار أيما اعتزاز؛ ذلك أنَّ المرحوم الشيخ عبد الله النوري غنيٌّ عن التعريف، ويكفيه ما جاهد به في ميدان العلم باللسان والقلم، فقد وقف حياته ﷺ على خدمة النَّاس، والإجابة عن أسئلتهم، وإرشادهم إلى سُبُل الصَّواب، وهدايتهم إلى صراط الحقِّ ونور الإيمان، وقد كان ﷺ في سعيه الدَّائب وراء هذا الهدف يسلكُ طريقَ الإعلام المسموع «الإذاعة» والمرئي «التلفاز» ليُجيبَ عن أسئلة المُستمعين والمشاهدين بما يُرضي الله وينفع النَّاس، دون أن يضعَ في حُسابِه أنَّ هذه المشكلة تَمَسُّ شخصًا بعينه، بل كان ﷺ يعدُّها مشكلةً إنسانيةً عامَّةً قد يتعرَّض لها أيُّ إنسانٍ، فيجيب بما يأمر به شرعُ الله في حدودٍ لا يمكنُ لمخلوقٍ أن يتعدَّها؛ لأنَّها من صلب الدِّين والعقيدة.

وهذه المجموعة من الأسئلة وأجوبتها اخترناها من بين كثيرٍ من الأسئلة الأخرى التي وُجِّهت إليه، وحصرتها فيما يتعلَّق بالعبادات والعقيدة، وهما شأنان يهَمَّان كلَّ مسلمٍ مؤمنٍ بالله واليوم الآخر، ونرجو أن يجدَ المسلمون بها ما ينفعهم ويفيدهم ويجنبهم مواطنَ الزَّلل والخطأ، ويدلُّهم على سبيل الحقِّ والصَّواب، ولعلَّ في هذه الفائدة والمنفعة ما



يكونُ رحمةً ورضواناً لروحِ عالِمنا الجليل عند ربِّه، وثواباً في الآخرة^(١).

(١) المقدمة للدكتور عبد العزيز المنصور.



ردود حَوَل العقيدة





تسمية سور القرآن

السؤال:

«عبد الرضا من البصرة» يسأل: لماذا سُميت سورة البقرة بهذا الاسم؟ ومن الذي سمى سور القرآن بأسمائها؟ هل هو الله ﷻ أم رسولنا محمد أم الصحابة؟ أرجو الإفادة.

الجواب:

المشهور أن الذي سمى السور هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وسُميت سورة البقرة بهذا الاسم لقول الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْجِدْنَا هُرُوطًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وسُميت سورة آل عمران بهذا الاسم لذكرها قصة آل عمران في السورة، وكلُّ سورة سُميت بسبب ما ذُكر فيها، ولبعض السور اسمان مثل: سورة غافر تُسمى المؤمن، وسورة التوبة تُسمى براءة، وسورة فصلت تُسمى السجدة، فالأسماء من أثر النبي ﷺ.



المعراج

السؤال:

قرأنا سورة الإسراء كاملة فلم نر فيها إشارة إلى معراج الرسول إلى السماء، ونحن نؤمن بالمعراج إيماننا بالإسراء، فهل جاء ذكر المعراج في كتاب الله؟ وأين ذُكر؟

المسلمون الثلاثة

«عقيل ويوسف وعلي»

الجواب:

نعم، جاء ذكر المعراج في كتاب الله تعالى، في سورة النجم من الآية (١٣) إلى الآية (١٨) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٣-١٨]، ومعنى ذلك: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل مرةً أخرى في السماء عند سدرة المنتهى، وسدرة المنتهى: مكان في السماء لا يعلمه إلا الله، ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٥]؛ أي: الجنة التي تأوي إليها أرواح المؤمنين عندما يغشاها ما يغشى.

وما زاغ بصره ﷺ أبداً، وما تجاوز حده المرسوم، وقد كان ذلك ليلة المعراج، ولقد رأى النبي ﷺ في ذلك الوقت وفي ذلك المكان من آيات



ربّه الكبرى، وآياتُ الله لا تُحصَى، والرّسول ﷺ رأى منها؛ أي: رأى بعضها.

من هذه الآيات يظهر لنا - والله أعلم - أنّ النّبِيَّ ﷺ رأى من الدُّنُوِّ والقرب وهو بالأفق الأعلى - وكان جبريلُ ﷺ معه - ما لم يبلغه نبيٌّ من قبله، كيف لا، وهو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين، وبدينه خُتِمَتِ الأديانُ، وبالكتابِ الَّذِي أُنزلَ عليه خُتِمَتِ الكُتُبُ؟! وكتابه باقٍ لا يعتريه تحريفٌ ولا تبديلٌ، قال تعالى في ذلك: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

﴿٩﴾ [الحجر: ٩].



مكر اليهود

السؤال:

من هم المخاطبون بالآية الكريمة: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، وما معنى كلمة تلبسوا؟

الجواب:

هذه الآية هي الآية الثانية والأربعون من سورة البقرة، والمخاطب بها بنو إسرائيل، إذ كان اليهود منذ عهدهم الأولى يزاولون^(١) إغواء الناس وإضلالهم وكتمان الحق في كل مناسبة تعرض لهم، وقد فصل القرآن ذلك في كثير من سورته، ففي سورة البقرة وحدها قرابة مئة آية أو يزيد

(١) يزاولون: يحاولون. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤٨/٢٩).

شَنَعَتْ بأوصاف اليهود، وفي غيرها من السُّورِ مئآتُ الآياتِ كَشَفَتْ عن سيئاتهم، وذكُرَتْ أَنَّهُمْ كانوا عامِلَ فتنَةٍ وبلبلَةٍ في المجتمع الإسلاميّ وفي غيره من المجتمعات، وكانوا عامِلَ اضطرابٍ وخلخلَةٍ وإرجافٍ في الصُّفوفِ الآمنة المطمئنّة، فالآيةُ السَّابِقَةُ تدعوهم إلى الاندماج في موكب الإيمان، والدُّخولِ في الصَّفِّ، وأداء ما وجبَ عليهم، حيثُ كانوا أهلَ كتابٍ يعلمون وغيرهم لا يعلم، وتدعوهم الآية إلى تركِ التَّعَصُّبِ الدَّمِيمِ، ويقول اللهُ في سورة آل عمران: ﴿يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِكَيْتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]، ويقول: ﴿يَتَّأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، ذلك أَنَّهُمْ لَبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وكتَمَوْهُ وضيعَوْهُ عن عمدٍ وقصدٍ، وما يزالون يدسُّون ويلبسُّون في التَّاريخ الإسلاميِّ وأحداثه ورجاله والأحداث النبويَّة والتفسير القرآنيِّ والرِّوايات التَّاريخيَّة والتَّمثيليَّات.

لقد دَسُّوا ولَبَسُوا وما يزالون يدسُّون ويلبسُّون، يأتوننا في صورةِ المستشرقين أو تلاميذهم أو مُدَّعي الإسلامِ أو أبطالٍ مصنوعين على أعين الصُّهيوينيَّة، جاؤوا بكيدٍ قائمٍ على صورةِ أمانٍ ونجاةٍ وخدمةٍ للتُّراثِ الإسلاميِّ والتُّراثِ العربيِّ أو نحو ذلك من الأسماء المعسولة، والعرب والمسلمون غافلون مع الأسفِ، فالدَّسَّاسون مُصدِّقون فيما يقولون وفيما يكتبون؛ لأننا نجعلُ الحقيقة، ومن جهلِ حقيقة الخبر صدَّق قول المُخبر، وهكذا فعلَ الكيدُ فعَلَهُ في صفوفِ أبنائنا ونسائنا ورجالنا، فردَّهم عن الهدى إلى طريقِ الضَّلالِ الأثيم^(١).



(١) الأثيم: كثرة ركوب الإثم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٨٧/٣١).



القردة الخاسئون / ومرج البحرين

السؤال:

«أبو شليبي من الحرس الوطني» يسأل سؤالين:

الأول: من الذين قال لهم الله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، وهل يعيشون إلى زمننا هذا؟

الجواب:

هم اليهود الذين خالفوا أمر الله، وقد جاء ذكرهم في ثلاث سور من القرآن:

في سورة البقرة، في الآية (٦٥): ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وفي سورة المائدة، في الآية (٦٠): ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وفي سورة الأعراف في الآية (١٦٦): ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

والمسوخ الذي ذكره الله تعالى هو مسوخ أخلاق، لا مسوخ خلقه^(١)،

(١) على قول عند بعض أهل العلم، والقول الثاني: هو المسوخ الحقيقي.

يعني كونوا في أخلاق القردة، فانتكسوا بمجرد الانحراف الخُلقي الذي يجعل الإنسان أقرب من عالم البهيمة، فلا غيرة على العرض، مع الانهماك في جمع المال والشح به.

السؤال:

الثاني: عن قوله تعالى: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرَّحْمَنُ: ١٩-٢٠] أين هذان البحران؟

الجواب:

البحران: الأول هو الماء العذب، ويعني به الأنهار، والثاني هو الماء المالح، ويعني به البحار، والله جل شأنه قدّر ذلك فجعل مصب الأنهار في البحار، وجعل بين الأنهار والبحار فاصلاً واحداً، حتى لا يعتدي المالح على الحلو، ولا الحلو على المالح، والبحران في كل مكان من الأرض، ولا اعتداءً من بحرٍ على نهرٍ، ولا من نهرٍ على بحرٍ.



المسح (١)

السؤال:

قال الله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مُثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ

(١) مسخه: حوّل صورته إلى صورة أخرى أفبح منها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤٣/٧).



عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴿[المائدة: ٦٠]﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥]، وكنا نسمع من آبائنا وأمهاتنا أن القردة والخنازير أمم مسخها الله بعد أن عصت واعتدت، وأن المسخ كان عقابها فهل هذا صحيح؟ وهل المسخ بالصورة أم بالأخلاق؟

«محمود عبد الله»

الجواب:

جاء ذكر المسخ في القرآن مرة واحدة في الآية (٦٧) من سورة يس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يس: ٦٧]، أما الآيات الواردة في السؤال فقد جاءت في ذكر اليهود عند مخالفتهم أوامر الباري ﷻ، وهي آيات ثلاث:

الآية (٦٥) في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: ٦٥].

والآية (٦٠) في سورة المائدة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: ٦٠].

والآية (١٦٦) في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٦] وليس في الآيات الثلاث ذكر المسخ.

لكنني أقول - والله أعلم - : إن هذا التحوُّل من البشرية إلى غيرها كان تحوُّل أخلاق، أو مسخ أخلاقٍ وليس تحوُّل خَلْقَة^(١)؛ لأنَّ الأخلاق هي التي تعلق بالإنسان إلى مدارج العظمة والسيادة والرِّفعة، أو تهبط به

(١) وهذا قول لبعض أهل العلم، والقول الثاني: هو المسخ الحقيقي.

إلى مدارك الذلّة والخيبة والانحطاط كما يقول الشّاعر أحمد شوقي:

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا^(١)

وجاء في آية المائدة ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، ولعنة الله طرد من رحمته، ﴿وَعَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وغضبه تسليط الأقياء بالظلم عليهم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ﴾ [المائدة: ٦٠] الذين لا يميّزون ويقلّدون، وجعل منهم ﴿وَالْحَنَازِيرَ﴾ الذين يعيشون في الأوساخ يأكلونها ويستطعمونها، وأيُّ قذارة أوسخ من قذارة الأخلاق السيئة الرديئة! ﴿وَعَبَدَ الظُّغُوتَ﴾ والظّاغوت: كلُّ حكم لا يقوم على شريعة، وكلُّ عدوان يتجاوز الحقّ، والظّاغوت هو المسيطر والمستبدّ والحاكم بأمره، وهو ما نسمّيه في زماننا هذا: الدكتاتور.



عمّ سئل موسى؟

السؤال:

ما معنى قول الله تعالى في الآية (١٠٨) من سورة البقرة: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وعن أيّ شيءٍ سئل موسى ﷺ؟

«خولة الجيماز»

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للقاضي (١/٦٨٨).



الجواب:

سُئِلَ موسى ﷺ أن يأتي بمعجزاتٍ خارقة، فقد سأله قومه قائلين له: «أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً» [النِّسَاء: ١٥٣] تَبْرُمًا^(١) وَتَعْنَتًا^(٢) مِنْهُمْ، وَحِينَ أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا: «يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» [الأعراف: ١٣٨]، يريدون بذلك أن يجعل لهم صنمًا.

ومعنى الآية: لا تكونوا أيُّها المسلمون فيما أنزل إليكم من القرآن مثل اليهود الذين تركوا الثقة بآيات الله البيِّنات، واقترحوا على نبيِّهم موسى ضدها فضلوا وكفروا.



لا إكراه في الدين

السؤال:

أرجو إيضاح الآية الكريمة من سورة البقرة وتفسيرها، قال تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [البقرة: ٢٥٦].
«أبو أحمد من النُّقْرة»

(١) تَبْرَمٌ: تَضَجَّر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨٣/١٢).

(٢) تَعْنَتٌ: أَدخَلَ عَلَيْهِ الْأَذَى. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥/٥).

الجواب:

قيل - والله أعلم - في سبب نزول هذه الآية: إن رجلاً من الأنصار يدعى أبا الحصين من بني سالم بن عوف، كان له ابنان تنصّرا قبل الهجرة أو قبل البعثة، فلمّا هاجر النبيّ عليه الصّلاة والسّلام قدّما إلى المدينة، فلزمهما أبوهما وقال: «والله لا أدعكما حتّى تُسلما» فاختصما إلى النبيّ ﷺ وقال أبوهما له: «أيدخلُ بعضي النّار وأنا أنظر» فنزلت الآية الكريمة^(١).

والآية هذه جاءت بعد آية الكرسيّ المتضمّنة تلك الصّفات الجليلة الّتي لا تكون إلّا لله الواحد الأحد، فلا إكراه في الدّين ولا إجبار، يقول تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ ﴿٣١﴾ [الغاشية: ٢٢]، ويقول: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ويقول: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ويقول: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ومن قال: إنّ الإسلام قام بالسّيف فقد افتري على الله كذباً، فالمسلمون قبل الهجرة كانوا يُحْفُونَ صلاتهم، ولا يقدرّون على ردّ أذى الكفّار، والآية هذه نزلت بعد الهجرة وبعد أن شرع القتال دفاعاً عن الدّعوة، وهي تتضمّن نفياً مطلقاً لكلّ صور الإكراه المادّيّة والمعنويّة، لا فرق بين الأحرار والعبيد، ولا بين إنسانٍ وآخر؛ ولكن علينا أن نفتح الطّريق للدّعوة بالّتي هي أحسن لا بالإكراه، فمن ردّنا عن الدّعوة باللّطف جادلناه باللّطف امتثالاً لأمر الله في قوله: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [التحل: ١٢٥]، ومن ردّنا بالعنف دفعنا عنفه بالّتي هي أحسن، ومن قاتلنا

(١) أورده البغويّ في تفسيره (٣١٤/١).



قاتلناه، ومن خضع لنا خَيْرناه بين الإسلام أو دفع الجزية، والجزية شيءٌ بسيطٌ يدفعها غيرُ المسلم للدولة، يحمي بها نفسه وماله وأهله، ولا يُكَلَّف ما لا يطيق، ولا يُكَلَّف حملَ سلاح، ولا مقاتلةَ عدوٍّ، ولا ما توجبه الدولة على أبنائها المسلمين، وإن شاركنا في كلِّ شيءٍ قبلنا مشاركته، ولا نُكرهه على أن يحمّل نفسه ما لا يطيقه، ولا ننسى قول الله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

والطَّاغوت: كلمةٌ تُطلق على الشَّيطان، وتطلق أيضًا على كلِّ ما يُعبَد من دون الله، وقد تُطلق على الشَّيء المخيف، وعلى كلِّ رأسٍ في الضلال كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

والعروة الوثقى: الحبلُ يكون في رأسه كُرَّةً معقودةً يتمسك بها الإنسان، أو حبلٌ يُعقَد على الدلو فلا ينقطع.

أمَّا من بدَّل دينه من إسلامٍ إلى كفرٍ فهذا يقتل حدًّا، فكلُّ مسلمٍ عاقلٍ بالغٍ كفرَ بالإسلام بعدَ إيمانه، فأنكرَ كتابًا من كتبِ الله، أو صفةً من صفاته، أو استباحَ محرَّمًا أو أحلَّ حلالًا، أو سبَّ الدِّين، أو ادَّعى أنَّ الوحي نزل عليه، فهذا يُقتل حدًّا؛ لما روى البخاريُّ عن رسول الله ﷺ: «من بدَّل دينه فاقتلوه»^(١).



(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٣٠١٧).

الرِّبَا وَالصَّدَقَات

السُّؤال:

«س . منشد الخالدي» يسأل عن معنى الآية الكريمة: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

الجواب:

الرِّبَا معناه: الزيادة، ومفهومه عند المسلمين: معاملة محرمة شرعاً، وهي: زيادة يأخذها الدائن من المدين بلا مقابل، كأن يستلف منه، أو يستدين مبلغاً من المال لمدة معينة، فيضع عليها فائدة نسبية تُضاف إلى الأصل، ويلزم بها المدين.

هذه الزيادة حرمها الإسلام، وجعلها أكل مالٍ بالباطل، وجعل آكلها محارباً لله بالمعصية، وقد توعد الله ﷻ آكل الربا بالمحوق، والمحقوق معناه: إذهاب البركة أو إنقاص الشيء، ونحن نرى صدق وعيد الله ﷻ، فنرى المرابي محروماً من نعمة الله عليه، ونرى المجتمع الذي يتعامل بالربا محروماً من البركة والرخاء والأمن والطمأنينة، وقد نرى في هذا المجتمع ثراءً ومثريين وغزارة مواردٍ وضخامة أرصدةٍ واستيرادٍ وتصديرٍ؛ ولكننا لا نرى الاستمتاع بهذه النعمة، ولا السعادة على وجوه أهلها، ولا الرضا عندهم، إننا نرى بينهم التنافر والتحاسد وسوء الظن والشقاء، والقلق النفسي، والدُّعر والاضطراب والخوف، وأعصاباً متوترةً، وحياةً ثقيلةً، وقلةً بركةً في الصِّحة، وعدم رضاً بالمقسوم، وعدم راحةٍ.



أَمَّا الصَّدَقَات فَإِنَّهَا تَرْبُو بِكُلِّ مَا يَمْحَقُهُ الرَّبَا، وَبِالْمَوْدَّةِ وَالْحَبِّ بَيْنَ الْمَعْطِيِّ وَالْأَخْذِ؛ فَفِي نَفْسِ الْمُتَصَدِّقِ حِينَ يَعْطِي وَهُوَ يَطْلُبُ ثَوَابَ اللَّهِ، وَفِي نَفْسِ الْآخِذِ حِينَ يَخْلُصُ فِي الدُّعَاءِ لِلْمُتَصَدِّقِ، وَالِدَّفَاعِ عَنْهُ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَحُبِّهِ.

وَالْمَجْتَمِعُ الَّذِي يَتَعَوَّدُ الصَّدَقَةَ يَبَارِكُ اللَّهُ لَهُ فِي كَسْبِهِ وَتَنْعُمِهِ بِكَسْبِهِ وَصِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ وَطُمَأْنِينَتِهِ وَأَمْنِهِ وَرَاحَتِهِ وَالْمَحَبَّةَ الَّتِي يَكُونُهَا أَفْرَادُ الْمَجْتَمِعِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

وَكُلُّ مَرَابٍ يَحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ آثِمٌ، وَإِنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَسَبَقَ أَنْ قُلْنَا: إِنَّ الْإِسْلَامَ نِظَامُ حَيَاةٍ وَمَنْهَجُ عَمَلٍ، وَالدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ لَيْسَ دِينَ صَوْمِعَةٍ، إِنَّمَا هُوَ دِينُ حَيَاةٍ، كَمَا قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إِنَّ مَنْ أَنْكَرَ جِزَاءً مِنَ الْإِسْلَامِ أَوْ أَمْرًا مِنْ أَوْامِرِهِ أَوْ نَهْيًا مِنْ نَوَاهِيهِ أَوْ أَحَلَّ مُحَرَّمًا مِنْ مُحَرَّمَاتِهِ، فَكَأَنَّهُ أَنْكَرَهُ كُلَّهُ، وَالرِّبَا حَرَامٌ بِنَصِّ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ كِتَابُ الْإِسْلَامِ، وَلَيْسَ فِي عَدِّهِ حَلَالًا إِلَّا الْكُفْرَ وَالْإِثْمَ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ.



علم التأويل

السؤال:

«سلمان عيسى من الفاو» يقول: قرأت قول الله تعالى في أول سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]، فهل يعلم أحد التأويل غير الله؟

الجواب:

أولاً: أذكر أنني سُئِلت عن معنى هذه الآية من قبل، إن الآية الكريمة تبين لنا أن الله ﷻ أنزل هذا الكتاب على رسوله ﷺ وأن من آياته آياتٍ محكماتٍ ظاهراتٍ المعنى والدلالة، لا خلاف في معناها، وأن من آياته آياتٍ متشابهاتٍ، قد يلتبس معناها على بعض، ويتضح لبعض، هذه الآيات المتشابهات تحمل معاني عدّة، والمعنى الحقيقي لا يعلمه إلا الله وحده، وقد يظهر المعنى فيما بعد، والراسخون في العلم يسلمون الأمر إلى الله في معنى هذه الآيات، ويجتهدون في تفهّمها.

والصحيح لقراءة هذه الآية أن يقف القارئ على كلمة الله، فيقرأها هكذا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] ثم يستأنف الكلام فيقول: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فكأنه يقرأ جملةً أخرى؛ لأن الكلام انتهى وبدأ بكلمة ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ [آل عمران: ٧].



وهذا المتشابه من القرآن يلتبسُ به الفتن أولئك الَّذِينَ في قلوبهم زيغٌ وميلٌ عن الحقِّ إلى الباطل، فيؤوّلونه كما يشاؤون تأويلاً غيرَ سائغٍ في العقل، ولكنه يوافق أوهامهم وضلالهم، ليضلُّوا به الجاهلين والغافلين الَّذِينَ خبثت أفهامهم، ووقع الرّين^(١) على قلوبهم، وغشي على عقولهم.



وفاة عيسى عليه السلام

السؤال:

«أم العبد من الثُّقرة» تسأل: أقرأ في كتاب الله قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَاذْفَعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، فكيف تُوفي عيسى عليه الصَّلَاة والسلام؟ وكيف يقول بعضهم: إنّه حيٌّ، وإنّه سينزل من السَّمَاء في آخر الزَّمان؟

الجواب:

الَّذي نعلمه يقيناً أنّ عيسى عليه الصَّلَاة والسلام في عالم الغيب، كغيره من إخوانه الأنبياء عليهم أفضل الصَّلَاة والتَّسليم، ولا نعلم شيئاً تفصيلاً عن حاله، كما هو شأنُ كلِّ مَنْ في عالم الغيب؛ لأنّه لا مجال للعقل فيه، وإنّما الواجب أن نقف عند نصوص القرآن، وعند الصَّحيح من أحاديث الرّسول ﷺ وليس عندنا نصٌّ في ذلك إلاّ قوله تعالى حكايةً على لسان عيسى ﷺ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي

(١) الرّين: أنْ يَسْوَدَّ القَلْبُ مِنَ الذُّنُوبِ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٣٠/٣٥).

وَرَبُّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ [المائدة: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿يَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] والذي نفهمه من كلمة ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: ١١٧] وكلمة ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] أن المقصود هو الموت.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبُّهُ لَمْ يَكُنْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ بل رفعه اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [التيساء: ١٥٧-١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [التيساء: ١٥٩].

كان الخلاف في رفعه إلى السماء، هل كان بجسده وروحه أم بروحه فقط؟ هذا خلاف كبير بين العلماء، وقد ثبت في حديث المعراج رؤية النبي ﷺ لابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام علماً أن موت يحيى مؤكَّد ولا خلاف فيه، كما وردت أحاديث كثيرة بنزول عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان^(١)، وأنه سيقتل الدجال في فلسطين في بلد يسمَّى اللد^(٢).

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٢٢٢)، بلفظ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»، ومسلم، رقم: (١٥٥).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٠٧٧)، بلفظ: «يقول عيسى ﷺ: إن لي فيك ضربة، لن تسبقني بها، فيدرکه عند باب اللد الشرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود...».



على أيِّ حالٍ هذه أمورٌ غيبيةٌ يجب علينا أن نؤمن بها، فقول الله حقٌّ، وقول الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام حقٌّ، والله أعلم بمراده في قوله وقول رسوله .



من أهل الكتاب؟

السُّؤال:

ما معنى الآية رقم (١٠٠) من سورة آل عمران: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، ومَن المقصود في كلمة أهل الكتاب؟ أهم اليهود أم النَّصارى؟

«ابتك تلميذة»

الجواب:

وددت من ابنتي التلميذة لو أنَّها قرأت الآيتين رقم: (٩٨) و (٩٩) من سورة آل عمران قبل الآية (١٠٠) وتدبَّرت معنهما، ثمَّ قرأت بعدهما الآية رقم (١٠٠)، إذن لا تُضح لها المعنى .

لنفهم الآية في سياقها نقرأ قول الله ﷻ في الآيات الأربع:

﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٨] قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ

شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠١﴾

عمران: ٩٨-١٠١.

وأظنُّ أنَّ المعنى اتَّضح لها الآن بعد أن قرأت الآيات الأربع.

الآيات الكريمة تقول لأهل الكتاب: على أيِّ أساسٍ تسيرون في تضليلكم من آمن بمحمد ورسالته بعد أن وضح لكم صدق ما جاء به؟! فالبرهان أمامكم واضح، فهاتوا برهانكم إن كان عندكم برهان، وإن لم يكن عندكم فالله شهيدٌ على ما تعملون.

أم أنكم تصدُّون من آمن بالإسلام بقولكم: إنَّ الشريعة الإسلامية لا تنفع، وإنَّها سبيل متاهة لا تُوصِل إلى قصدٍ، وطريقةٌ معوجةٌ ملتوية تُضِلُّ سالكيها، إنَّكم تقولون ذلك ولكم عقولٌ تعتقدُ غيرَ ما تقولون، وتشهد على صدق محمدٍ وصدق ما جاء به، وتؤمن بالقرآن بوصفه كتابٌ خيرٌ يهدي للتي هي أقوم، فاحذروا أيُّها المؤمنون ضلالَ أهل الكتاب الذين إن تطيعوهم يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين، إنَّهم يكيِّدون لكم ليقوعوا بينكم العداوة والبغضاء بعد أن يئسوا من الكيد في عقيدتكم.

وكيف تكفرون وكتاب الله بين أيديكم، وفي كتاب الله روح الهداية وجماعُ الخيرِ وحفاظُ الإيمان؟! وأنتم تقرؤون آياته دائماً غصّةً لا تبلى، جديدةً لا تخلُقُ^(١) من كثرة الردِّ، وتسمعونها تتلى عليكم دائماً نديّةً لا تمَلُّ

(١) تخلق: تبلى. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٥/٢٦٣).



من كثرة السَّماع، هذا هو القرآن الكريم الَّذِي أَلَّفَ اللهُ به بين القلوب على المحبَّة والخير، وجمع به الشَّتات على الهداية والرَّشاد، فالحذرَ الحذرَ من الدَّعايات المضلَّة، دعاياتِ أهل الكتاب ومن على شاكلتهم، اعتصموا بكتابكم تُعصموا، وتمسَّكوا به تهتدوا، وتعلَّموا علمه تهتدوا وترشَّدوا.



التَّقْوَى

السُّؤال:

قرأت في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقرأت قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦]، فكيف نؤلف بين معنى الآيتين؟

«علي . م»

الجواب:

لا خلاف بين معنى الآيتين ولا فرق، ففي الآية الأولى رقم (١٠٢) يقول الله ﷻ في سورة آل عمران: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، والمعنى: يجب عليكم أن تتَّقوا الله حَقَّ التَّقْوَى، فتؤدُّوا الواجبات، وتجتنبوا المنهيات، «وأن تطيعوه فلا تعصوه، وتذكروه فلا تنسوه، وتشكروه فلا تكفروه»^(١) كما قال

(١) أورده المراغي في تفسيره (٤/١٦).

ذلك ابن مسعود رضي الله عنه.

والآية الثانية رقم (١٦) من سورة التَّغَابُنِ قال تعالى: ﴿فَأَنْفُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغَابُنِ: ١٦]؛ أي: ابدلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم، وهذا ما يفسره الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»، قال رضي الله عنه: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(١)؛ لأن الاجتناب سهل، فهو ترك، والترك لا مشقة فيه.

ويظهر لي من الآية الثانية في قوله تعالى: ﴿فَأَنْفُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغَابُنِ: ١٦] أن يتقي الإنسان ربه، ويتعهده فيما وهبه له؛ فمن وهبه الغنى يتقرب إلى الله بالبذل والعطاء فيما يرضي الله، ومن وهبه العلم يتقرب إلى الله بإرشاد الناس إلى ما ينفعهم، أو يوصل النفع إليهم بعلمه الذي يعلمه، وكل علم نافع، لا أقول علم الدين فقط، بل كل علم يستطيع العالم أن ينفع الناس به فهو نافع.

والقوي في جسمه يستطيع أن يتقرب إلى الله بقوته، فيجاهد في سبيله بنفسه، أو يتقرب إلى الله بطاعته البدنية، وهي كثيرة وخيرها ما نفع الناس.

ولا ننسى أن النبي رضي الله عنه قال: «إن على كل نفسٍ كل يوم طلعت فيه الشمس صدقةً منه على نفسه» وتابع فقال: «أوليس من أبواب الصدقة التكبير، والحمد لله، وسبحان الله، وتستغفر الله، وتأمراً بالمعروف، وتنهياً عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق المسلمين والعظم والحجر،

(١) رواه مسلم، رقم: (١٣٣٧)، وأحمد، رقم: (٧٥٠١).



وتهدي الأعمى، وتدللُّ المستدلَّ على حاجةٍ له قد علمت مكانها، وترفع بشدة ذراعيك مع الضَّعيف»^(١).

وفي حديثٍ آخر قال النَّبِيُّ ﷺ: «تَكْفُ شَرِّكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

وصنائع المعروف كثيرةٌ، وفعلها يحبُّ فاعلها للنَّاسِ، فلطالما استعبد الإحسانُ الإنسانَ، وفضل الله كبيرٌ وخيره كثيرٌ، وهو القائلُ جلَّ شأنه: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].



كنتم خير أمة

السُّؤال:

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] جاءت كلمة كنتم بصيغة الماضي، والآية نزلت بعد الهجرة، نفهم من هذا أننا كنا قبل الهجرة خير أمة، أو كنا في الجاهلية خير أمة، وليس في زمن الإسلام، أطلب توضيح ذلك، وشكراً.

«ابن عيَّاد من الأحواز»

الجواب:

معنى كنتم هنا تأتي بمعنى صيرتم أو أصبحتم، وكان تغلب أخواتها

(١) رواه النَّسَائِيُّ، رقم: (١٩٧٨).

(٢) رواه البخاريُّ، رقم: (٢٥١٨)، ومسلم، رقم: (٨٤).



بأنها تأخذ معاني كثيرة في اصطلاح أهل اللغة، علماً أن الفعل الماضي في القرآن يدل على المستقبل؛ لتأكيد وقوع الفعل، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الرؤم: ٧٣]، وقوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، وقوله: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وهذه أمثلة لا تعني ما نحن فيه، إنما أحب أن أقول لك: إن معنى كنتم: صرتم، ولا ننسى أن الكينونة معناها الصيرورة، والكون هو الوجود، وإذا كان الأمر كما تظن في تفسيرك كلمة كنتم فما قولك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وقوله: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩]؟! أرجو أن يعيدك الله من وساوس الشيطان ومن وساوس النفس.

ثم إن الجاهلية ما كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولا كانت تؤمن بالله؛ إنما هذه الأوصاف أوصاف الأمة التي أراد الله لها أن تكون خير أمة، تأمر بالخير، وتنهى عن الشر، وتخضع للواحد الأحد دون سواه حتى تعرف أنها أخرجت لتكون قائدة للخير لا للشر، صفتها إيمان بالله باعتماد صحيح وتصوّر صحيح، تأمر بالمعروف بخلق ونظام صحيحين على طريق صحيح، وتنهى عن المنكر حتى تُصان الحياة من الشر والفساد والفوضى والخلاف، حتى يعيش الناس آمنين مطمئنين كما أراد لهم الخالق، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ أي: حتى يحيوا الحياة



المطمئنة، فالعاملُ والتَّاجرُ والمعلِّمُ كلُّ آمن، والزَّوجُ آمنٌ في بيته،
والزَّوجةُ آمنةٌ في أسرتها، وكلُّ فردٍ آمنٌ في حياته، وهذا ما يُرجى؛ لأنَّ
الموتَ خيرٌ من الحياةِ بلا آمن، فالميتُ آمنٌ في قبره.



عرض الجنة

السُّؤال:

ما المقصود بالآية الكريمة: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل
عمران: ١٣٣]؟ وإذا كان عرض الجنة السَّموات والأرض فأين النَّارُ؟

«ر. خلف. ع»

الجواب:

هذا الوصف لجنة الله ﷻ التي أعدّها لعباده الصَّالحين، وقد جاء ذكرُ
ذلك في آيتين: الأولى في سورة آل عمران في الآية (١٣٣) عند قوله
تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾

[آل عمران: ١٣٣].

والثَّانية في سورة الحديد في الآية (٢١) عند قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى
مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، والجنة
ملكٌ عريضٌ واسعٌ يسعُ كلَّ من يستحقُّها من الصَّالحين من عباد الله، منذ
خلق الله الأرض ومن عليها حتَّى تقوم السَّاعة، كما جاء ذلك في كثيرٍ من
آيات كتاب الله العزيز ومن الأحاديث الشَّريفة.

وقوله ﷺ: ﴿عَرَضَهَا كَعَرَضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] وصفٌ عربيٌّ كأقوال العرب في ماضي الزَّمن وحاضرِهِ إذا بالغوا في الثَّناء على الشَّيء أو ذمِّه، وكأنَّكَ تقرأ معي قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وسَمُّ الخياط: هو خرقُ الإبرة كنايةً عن شدَّة الضَّيق، وكذلك قول الشَّاعر إبراهيم الغزيِّ حين بالغ في السَّعة وفي الضَّيق بقوله:

خيرُ المواطنِ ما للنَّفْسِ فيه هوى سَمُّ الخياطِ مع الأحبابِ ميدان^(١)

فأين الميدان من خرق الإبرة؟! وهل يجتمع حبيبان في خرق إبرة؟!!

هذا كلام العرب، والقرآن نزل بكلام العرب ولم يدرك العرب في زمن نزول القرآن إلا ما تدركه أبصارهم من النَّظرِ إلى الأعلى أو إلى الجهات الأربع.

أمَّا سؤالك عن مكان النَّار فالجواب عنه: الجنَّة في علم الله، والنَّار في علم الله.



يَمَحِّصُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

السُّؤال:

ما معنى الآية الكريمة: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للقاضي، (١) / (٣٠٠).



﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٤١] والآية (١٤٠) من سورة الأعراف، وشكرًا.

«علي عبد العزيز من البحرين»

الجواب:

الآية في سورة آل عمران وليست في الأعراف، ورقمها (١٤١)، والسائل ترك الآيات التي قبلها وبعدها، مع أن الآية قد تكون متعلقة بما قبلها وبعدها، وكان الأولى به أن يبدأ بأول الموضوع، وأوله بعيد، ولا بد من قراءة الآيات من رقم (١٣٧) حتى نصل الى سؤال السائل، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَجْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَجْحٌ مِّثْلَهُ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤١] وكأنه يقول للمسلمين: انظروا إلى من تقدمكم من الأمم، وإلى السنن التي ساروا عليها، ثم انظروا إلى أين وصلت هذه العواقب بأهلها؟ وأنتم أمة، فما وقع فيمن كان قبلكم من الأمم سيقع مثله فيكم إن خالفتهم؛ إن سرتهم سير الطائعين وصلتم إلى ما وصلوا إليه، وإن سرتهم سير المخالفين كانت عاقبتكم خسرًا، فسيروا في الأرض فانظروا كيف أخذ الله المخالفين بظلمهم أخذ عزيز مقتدر، وآثارهم تشهد عليهم في هذه الأرض التي كانت مسرح حياتهم.

هذا بيان للناس ليتذكروا، والذكرى تنفع أولي البصائر المتفتحة؛ لأنه لا تعمي الأبصار ولكن تعمي البصائر، وهذا الذي أنزل عليكم من ربكم هدى لمن عرف الله فاتقاه، ولمن اتبع الهدى واتعظ بالموعظة.

ولا تهنوا عندما تقابلون الكثرة، فليست القوّة بالكثرة؛ ولكنّ القوّة لمن اعتزّ بالله، ولا تحزنوا لما أصابكم من مشقّة، ولما فاتكم من كسبٍ إن كنتم مؤمنين بوعد الله، وكيف تهنون وتحزنون وأنتم الهداة المهتدون والأعلون بمقتضى سنّة الله تعالى، والعاقبة للمتّقين؟!

إن يمَسَّكُمْ قرْحٌ يومَ أُحُدٍ فقد مسَّ القومَ قرْحٌ مثله يومَ بدرٍ، والقرْحُ: أثرُ السِّلاحِ أو انتصارُ العدوِّ.

ولا تحزنوا من انتصار عدوكم يوم أُحُدٍ وما فعله سلاحه فيكم، فقد مسَّ القومَ مثله يومَ بدرٍ، وتلك الأيّام نداؤها بين النَّاسِ، يومٌ لك ويومٌ عليك.

وليعلم الله الَّذِينَ آمَنُوا منكم فلم يفرّوا من المعركة، عندما انتصر الأعداء، ويتّخذ منكم شهداء اختارهم الله برحمته فقرّبهم إليه واختصّهم بجواره، ورزقهم الشّهادة، إذ قُتِلَ من المسلمين سبعون، منهم حمزة بن عبد المطلب عمّ النَّبِيِّ، ومنهم مصعبُ بن عمير، والله لا يحبُّ الظّالمين الَّذِينَ تركوا الميدانَ وفرّوا وتركوا علَمَ الإسلامِ ساقطًا في الميدانِ حتّى جاءتِ امرأةٌ من المؤمناتِ فرفعتَه ليجتمع المؤمنون عليه.

وليمحصّ الله الَّذِينَ آمَنُوا فيمميزهم من غيرهم في مجتمعهم حتّى يطهّر أخلاقهم، أو بمعنى آخر محا عنهم ذنوبهم حين علِمَ صدق إيمانهم، أو رفع درجاتهم حين نصرهم، والتّمحيص: الاختيار بكلِّ ما فيه من معاني النّصرِ أو الرّفعة أو النّجاح، ويمحقُّ الكافرين فيذلّهم أو يمحو أثر مكانتهم ودولتهم، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].





التَّوْبَةُ فِي آيَةٍ وَحَدِيثٍ

السُّؤال:

«جنان سعد يونس من العراق» تقول: في أثناء قراءة المصحف الشريف قرأت الآية الكريمة: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ [التَّيْسَاء: ١٨].

وأنا أعلم أن هناك حديثاً شريفاً نصّه: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ»^(١) (٢). فما سبب التناقض في معنى الآية والحديث؟

الجواب:

لا تناقض في الآية والحديث، والمعنى واحد؛ فحضور الموت هو الغرغرة، والآية ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ [التَّيْسَاء: ١٨] معناها أن التَّوْبَةَ مردودة؛ لأنه أيسس^(٣) من الحياة، فتاب توبة فرعون المذكورة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يُونُس: ٩٠] فكان إيمانه مردوداً، ومات كافراً.

(١) ما لم يغرغ: أي: ما لم تبلغ رُوحه حلقومه، والغرغرة: أن تجعل المشروب في الفم ويردّد إلى أصل الحلق ولا يُبلع. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/٣٦٠).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٥٣٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أيسس: قَطَطٌ، لغة في ييسس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥/٤٢٧).

أما الحديثُ فمعناه أنَّ الإنسانَ في مهلةٍ ما دام صحيحًا ذا أملٍ في الحياة، فإذا أدركته الغرغرة؛ أي: غرغرة الموت فلا توبة له.



حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

السُّؤال:

قرأت الآية (٦٥) من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أرجو شرح الآية الكريمة، وكيف يحكم الرسول ﷺ في خصومتنا وهو غائبٌ عنا؟

«أبو زكي»

الجواب:

الآية التي ذكرتها مسبوقةً بالآية (٦٤)، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤-٦٥]. وتحكيم الرسول معناه تحكيم كتاب الله وسنة رسوله؛ أي: إنَّ سنة الله في خاتم أنبيائه كسنته في الأنبياء الذين قبله، أرسلهم ليُطاعوا، وطاعتهم هي طاعة الله؛ لأنهم رسله، فمن خرج عن طاعتهم خرج عن طاعة الله، وهذه الطاعة واجبةٌ بإذن الله، وإذن الله



تعالى إيجابه وأمره .

وسبب نزول هذه الآيات من (٦٠) إلى (٦٥) أن يهودياً ومنافقاً
تخاصما، فطلب اليهودي المحاكمة إلى النبي ﷺ؛ لأنه علم أنه يقول
الحق، وطلب المنافق المحاكمة عند كعب بن الأشرف اليهودي أو
عند أي كاهن من العرب غير المسلمين؛ فأنزل الله تعالى على نبيه: ﴿أَلَمْ
تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ
أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] (١) .

فالذي يزعم أنه آمن هو المنافق، والطاغوت هو كل حكم غير
حكم الله في القرآن، فلو أن هذا المنافق الذي ظلم نفسه يطلب التَّحَاكَمَ
إلى الطَّاغُوتِ رجع إلى الرسول، واستغفر الله تعالى من ذنبه الذي ارتكبه
برفضه التَّحَاكَمَ إلى الرسول، واستغفر له الرسول، لوجد أن الله تعالى
يتوب على من تاب .

وكل إنسان لا يرضى بحكم الله ورسوله لا يكون مؤمناً صحيحاً
الإيمان مستحقاً الفوز بالثواب والنَّجاة من العقاب .
وأما الإيمان الصحيح ألا يجد ضيقاً وحرَجاً من حكم الله ورسوله،
وأن ينقاد له انقياداً كاملاً بلا تمردٍ أو عنادٍ .

أرجو أن يكون الأخ السائل قد سمع هذا الشرح الموجز واستفاد،
وإذا أراد جواباً أكثر وضوحاً فليراجع «تفسير المراغي» في أي مكتبة من
مكتبات المعارف .

إن كتاب الله بين أيدينا، ومن لم يحكم بما أنزل الله لم يحكم

(١) أورده البغوي في تفسيره (٢/٢٤٢) .

الرَّسُولَ، وَمَنْ حَكَمَ كِتَابَ اللَّهِ فَقَدْ رَضِيَ بِحُكْمِ الرَّسُولِ ﷺ.



الذَّبَائِحُ النَّسُكُ

السُّؤَالُ:

«علي عبد الكريم من العراق» يسأل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]؟

الجواب:

الذَّبَائِحُ الَّتِي تَذْبَحُ لِلَّهِ عِبَادَةٌ تَسْمَى نُسُكًا، وَإِنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ فِي صَلَاتِهِ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ»^(١)، فَالصَّلَاةُ عِبَادَةٌ بَدَنِيَّةٌ وَقَوْلِيَّةٌ، كَذَكَرِ اللَّهِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ.

أَمَّا النَّسُكُ فَهُوَ مَا يَقْدِّمُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ طَعَامٍ وَذَبَائِحَ وَصَدَقَاتٍ، وَمَا يَقْدِّمُهُ فِي الْحَجِّ مِنْ أَعْمَالٍ تَتَعَلَّقُ بِهِ، وَكُلُّهَا إِذَا قُدِّمَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ تَكُونُ بَاطِلَةً.

وَالذَّبَائِحُ الَّتِي تُذْبَحُ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ مُرَدُودَةٌ عَلَى صَاحِبِهَا لَا يَقْبَلُهَا اللَّهُ، وَيُحَرِّمُ أَكْلَهَا؛ لِأَنَّهَا كَالْفُطْسَاءِ^(٢).

(١) رواه مسلم، رقم: (٧٧١).

(٢) فطس: مات. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦/٣٣٧).



فلو ذَبَحَ الإنسانُ ولم يقل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ متعمِّدًا، أو ذَكَرَ اسْمًا غير اسم الله على ذبيحته، فالذَّبِيحَةُ فطسَاءٌ يَحْرَمُ أَكْلُهَا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]، وكذلك لو ذَكَرَ على ذبيحته اسمَ الله، وذكر معه اسمًا غيره، فهذه الذَّبِيحَةُ يُحْرَمُ أَكْلُهَا أيضًا، وهي بِحُكْمِ المَيْتَةِ.



الحسدُ حقدٌ والحقدُ يوُلِّدُ الجرائم

السُّؤال:

قال الله تعالى في الآيات من (٢٧) إلى (٣٠) من سورة المائدة: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧] إلى آخر الآيات، فمن هما الأخوان اللذان ذكرتهما الآية الكريمة؟

«حسين الوزان»

الجواب:

الآية التي ذكرتها من سورة المائدة أوضحت لنا أن الحسد هو السبب الذي دعا أحد ولدي آدم ليقتل الآخر، كما قال جل شأنه: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ [المائدة: ٢٧]؛ أي: تُقْبَلُ قربان أحدهما ورُدَّ الآخر؛ فحسد المردود قربانه الذي تُقْبَلُ منه القربان وقال: لَأَقْتُلَنَّكَ.



والرسول ﷺ أخبرنا «أن هذه أوّل جريمة قتل وقعت من الإنسان في الأرض، وأنه ما من جريمة قتل تحدث في الأرض إلا كان على ابن آدم الأوّل كفلٌ منها»^(١)؛ لأنه أوّل من سنّ جريمة القتل، يفسّر هذا قوله ﷺ: «ومن سنّ سنّة سيئة فعمل بها، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئاً»^(٢).

أمّا سؤالك عن اسم هذين الإنسانين من ولد آدم، فالقرآن لم يفصح لنا عن اسميهما، ولا صحّ في السنّة الشريفة شيء من ذلك؛ ولكنّ الكتب الإسرائيلية ومن نقل عنها قالت: إنّ اسميهما قابيل وهابيل، وقد حسد أحدهما الآخر فحقد عليه من أجل نعمة القبول فقتله.



الميسر وأنواعه

السؤال:

«ع. ع. ع من الصليخات» يقول: يقول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُرْمُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

سؤالي: ما الميسر؟ وما أنواعه؟ وهل يحرم اللعّب بلا مال؟ لقد

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٨٦٧)، بلفظ: «لا تُقتل نفسٌ إلا كان على ابن آدم الأوّل كفلٌ منها».

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٠٣).



سمعنا أحد الخطباء يقول: إنَّ بعض الألعاب ليست حراماً مثل لعبتي الورق «كوت بوسته والهند»، فهل هذا صحيح؟

الجواب:

الميسر: معناه القمار، وهو كلُّ عملٍ يعملُهُ اثنان يكون أحدهما رابحاً والثاني خاسراً، وهذا الرِّبْحُ أو الخسارة مادَّةٌ مدفوعةٌ مقبوضةٌ، سواءً كانت نقداً أم بضاعةً منقولةً أو غير منقولة، وسواءً كان هذا اللُّعْبُ بالورق أو الشُّطرنج أو الدُّومنا أو السِّباق أو على أيِّ شيءٍ كان ممَّا تراه العين، كالمباراة أو غيرها، أمَّا اللُّعْبُ بلا مالٍ ففيه تضييعُ وقتٍ، والوقتُ ثمينٌ؛ لأنَّه أئمن ما يملكه الإنسان، فهو عمره، والله ﻋَﻠَﻴْكَ أودعنا هذا العمر لننفقه فيما ينفعنا في حياتنا وآخرتنا، فإذا أنفقناه بما لا يفيد فقد خننا الأمانة.

أمَّا جوابي عن سؤال السائل: هل يحرم اللُّعْبُ بلا مالٍ؟

لا، ليس حراماً؛ ولكنَّه تضييعُ وقتٍ بلا فائدة، لا سيَّما أنَّ الرِّسُولَ ﷺ قال: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»^(١).



معنى الولاية

«عبد الله الفهد من البصرة» يقول: تناول القرآن كتابُ الله المجيد

(١) رواه النَّسَائِيُّ، رقم: (١١٨٣٢).

مختلف الأحداث التي مرَّ بها الرسول ﷺ والمسلمون، قال الله فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [التَّجْم: ٣]، وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٢].

أرجو الإجابة الوافية عن معنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، أفدنا أفادنا الله وإياكم، وهدانا وإياكم كما هو أوفى وأرضى.

الجواب:

شكراً، واستجاب الله دعاءك.

وأرجو لو أن الأخ عبد الله قرأ الآيات من أولها؛ فالآية التي أشار إليها رقمها (٥٥) من سورة المائدة، ولو أنه قرأ قبلها الآية (٥١) وما بعدها لا تضح له المعنى، يقول ﷺ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥١] فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسرعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرةً فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين [٥٢] ويقول الذين ءَامَنُوا أَهْتُوا الَّذِينَ اقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ [٥٣] يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [٥٤] إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [٥٥] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [٥٦] [المائدة: ٥١-٥٦].

أرجو من الأخ «عبد الله الفهد من البصرة» أن يقرأ هذه الآيات الستة المرتبطة معني بحكاية أو حدثٍ من الأحداث المهمة التي مرَّت



بالمسلمين في عهد الرّسالة، إذ وجب على المسلمين في كلّ عهدٍ أن يتّخذوا من هذه الآيات درساً ليقْتدوا بتعاليمها بأيّ حدثٍ مشابهٍ.

وكنا فيما مضى من دروسٍ بيّنا معنى الولاية باللّغة العربيّة، فالوليّ معناه: السيّد والمولى والعبد والعتيق والحليف وابن العمّ والصّديق، ومعنى الولاية هنا في هذه الآيات: ولاية الحلف أو التّناصر، إذ معنى قول الله هنا: لا تتّخذوا من اليهود والنّصارى حلفاء، ولكن بعضهم حلفاء بعض، والّذين يتولّاهم منكم يكون مثلهم منهم.

وأسبابُ نزول هذه الآية: أنّه عندما خان بنو قينقاع اليهود عهدهم مع رسول الله ﷺ، وكانوا في الجاهليّة حلفاء الخزرج، جاء عبد الله بن أبيّ المنافق إلى رسول الله وقال: إنّي رجلٌ أخافُ الدّوائر، ولا أبرأ من ولاية مواليّ؛ يعني: بني قينقاع، فكلمته هذه أشارت إليها الآية الكريمة ﴿نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقال عبادة بن الصّامت: إنّي أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولّى الله ورسوله^(١)، وأشارت الآية الكريمة إلى ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ الْقَائِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

فالآيات السّتّة التي ذُكرت بعدها تُشيدُ^(٢) بذكر المخلصين أصحاب النّبِيِّ ﷺ الذين تبرّؤوا إلّا من حبّ الله ورسوله والمؤمنين، فلم يرضوا له بديلاً، أمّا من ارتدّ عن دين الله فليس من الله في شيءٍ، ولا عبرة له ما دام هناك مخلصون؛ فالله وليّ المؤمنين وناصرهم، ومن كان الله معه فلا

(١) أورده البيضاويّ في تفسيره (٢/١٣١).

(٢) يشيدُه ويشيدُ به: يُشيعُه ويرفَعُ ذكرَه. انظر: تاج العروس، للزبيديّ (٨/٢٦٤).

خوف عليه، ورسول الله وليُّ المؤمنين، ومن أطاع رسول الله فقد أطاع الله، ومن أطاع الله كان الله معه، ومن يتَّقِ الله يجعلُ له مخرجًا وفرجًا من كلِّ ضيقٍ.

والَّذِينَ آمَنُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَوْلِيَاءُ وَأَنْصَارٌ وَأَحِبَابٌ، «وَالْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(١)، كما وصفهم رسول الله ﷺ.

أيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ: القرآن كتاب الله، أنزله قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عوجٍ، ووصفه بقوله: ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]. القرآن كتاب الله الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، أنزله الله بلسانٍ عربيٍّ مُبِينٍ، لا ريبَ فيه؛ لهذا أرجو من الأخ السَّائل عبد الله أن يتدبَّرَ معنى الآيات الكريمة من الآية (٥١) إلى الآية (٥٦)، ولا يقرأ الآية وحدها مقطوعةً دون قراءة ما قبلها وبعدها.

وإن شاء أن يسأل عن معنى آيةٍ فليقرأ ما قبلها وما بعدها فقد يُدرِكُ معناها في ذهنه، فإن لم يدرِكْه فليسأل، وأسأل الله الهدايةَ للجميع.



كَالَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ

السُّؤال:

قرأتُ في سورة الأنعامِ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٠٢٦)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٥).



لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٩] أرجو التفسير.

«أحمد نوفل»

الجواب:

الشَّيْعُ: الأحزاب، فالله ﷻ أراد لأمّة محمّد أن تكون أمّة واحدة، لا أن تكون أحزاباً متفرقة أو جماعاتٍ مشتتة لها أهواءٌ مختلفة.

ومعنى الآية: يقول الله لنبيه محمّد ﷺ: الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا تَبَاعًا لِدَعَاةٍ تَخْتَلَفُ مَذَاهِبُهُمْ، أو أحزاباً يناقض بعضهم أهواء بعض لست منهم في شيء، فابتعد عنهم، ودعهم وفرقتهم؛ لأنّ الفرقة وشتات الشمل واختلاف الآراء والمبادئ تُضعف الأمّة وتنهك قواها، والدليل على ذلك أنّ فرعون عندما علا في الأرض واستبدّ بمصر جعل أهلها شيعاً يسلّط بعضهم على بعض، ويستضعف طائفة منهم، فيسلّط عليها القويّ حتّى يضعف، ثمّ يسلّط عليه من هو أقوى وهكذا، وهذا مذهب المستعمرين الَّذِينَ قَالُوا: فَرَّقْ تَسُدْ.

وفي سورة الأنعام أيضاً آية تحذير من هذه الفرقة يقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

فالشَّيْعُ والفرق إذا سلّط بعضها على بعض ذهب الأمن والاستقرار في البلاد، وحلّ محلّهما الخوف، وضعف الجميع.

والله جلّ شأنه أراد لهذه الأمّة أن تكون أمّة واحدة فقال في سورة آل عمران: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣١)

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١٠٢-١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

وفي سورة الحج: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

كما أراد الله لهذه الأمة أن تكون أمةً واحدةً، لا يختلفُ أبنائها، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

ختامًا نسأل الله النجاة من الفرقة، وأن يُنعم علينا بالألفة والاستقرار والطمأنينة وإصلاح المسؤولين.



ترتيبُ الرُّسل وإرم ذات العماد

السُّؤال:

«ج. ع. ف» يسأل هذين السُّؤالين: قرأت في كتاب الله تعالى في سورة الأعراف آية (٦٨) عن سيدنا هود وهو يخاطبُ قومه: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وفي السُّورة نفسها في الآية (٧٤) قوله تعالى على لسان صالح وهو يخاطبُ قومه: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤] فهل معنى ذلك أن إرسال نوح وهود وصالح جاء على الترتيب في زمنٍ قريب؟ وكيف بُنيت إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد؟ ولماذا لم يُخلق مثلها في البلاد ونحن في عصرٍ طغت فيه المدينة على كلِّ شيءٍ؟ وهل كانت إرم تشبهُ جنَّة الخلد كما يقولون: فيها «ما لا عينُ رأت، ولا أذنُ سمعت، ولا خطرَ



على قلب بشرٍ؟»^(١) أرجو الجواب .

الجواب:

قال الله تعالى في ذكر رسوله: ﴿مَنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] ومعنى ذلك أن هناك أنبياء ورسلاً كثيرين لم يقصص الله علينا أخبارهم ولا أخبار أممهم ولا بلادهم .

أمَّا الأنبياء الذين سألت عنهم فنوح كان في العراق، وهوذ في الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، في المكان الذي يُسمى الآن الربع الخالي، وكان يومئذٍ عامراً بالسُّكَّان، وصالح في الديار المعروفة الآن بالبتراء، وقديماً كنا نسميها ديارَ ثمود، وفي وسط الطريق بئرٌ عريضةٌ يستقي منها النَّاس والقوافل تسمى بئر النَّاقَة، وهي بئرٌ غنيَّةٌ بالماء، وقد كانت رسالاتهم مرتبةً، كما جاء في كتاب الله ﷻ، لكن لا ندري مدى الأزمان الفاصلة بين رسالة نبيٍّ ونبيٍّ .

أمَّا سؤالك عن إرم فقد حاكت الأساطير الإسرائيلية - كعادتها - عن إرم خرافاتٍ، منها: أنها مدينةٌ عظيمةٌ، وأنها كانت مبنيةً من ذهبٍ وفضةٍ، وأن أرضها كانت من الزعفران، وثمارها من اللآلئ، إلى غير ذلك من حكاياتٍ لا يقبلها عقلٌ ولا يهضمها تفكيرٌ؛ ولكن ذكر بعضُ المفسرين^(٢) - والله أعلم - أن قبيلةً عادٍ كانت في دَورين: دور النبيِّ هود، وكان النَّاس الذين بُعث إليهم يُعرفون بعادِ إرم، وهم الذين يسميهم التَّاريخ عادًا الأولى، وكانوا طوال الأجسام ذوي قوَّةٍ بدنيَّةٍ وشجاعةٍ

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٢٤٤)، ومسلم، رقم: (٢٨٢٤).

(٢) انظر:

وجلد، فلم يكن في زمنهم من الناس من كان متمتعا بمثل ما تمتعوا به من قوّة وعافية، فمن الله عليهم بقوله: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ [الفجر: ٨]؛ أي: في مثل قوتهم وصحتهم، وألفت نظر المشاهدين إلى أن كلمة ﴿لَمْ يُخْلَقْ﴾ [الفجر: ٨] تدلُّ على الماضي الذي كان قبل عادٍ الأولى فقط، ولا تتعداه إلى ما بعدها، فكلُّ ما بعدها بالنسبة لها مستقبلٌ.

أمّا قصّة المدينة فلا أساس لها من الصّحة، ولا حقيقة لها بالوجود، والعماد المذكور إمّا أن يكون عماد القوّة التي لا تُقهر ولا تُغلب، أو عماد السّيطة، أو عماد البيوت التي كانوا يبنونها يومئذٍ موافقةً لطول أجسامهم وسعة رزقهم، وهذا ما ظهر لي من تفسير الآيات الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾﴾

[الفجر: ٦-٨]•



العقاب والقضاء والقدر

السؤال:

«رضوان» يقول: قدّر الله على الإنسان، وكتب له ما سيحدث معه في مستقبل حياته، وهذا ما نسمّيه القضاء والقدر، فلماذا يعاقب الله الإنسان على ما كتبه عليه؟

الجواب:

القضاء والقدر والكتاب هو علم الله، والله ليس بظالمٍ، ولكنّ الناس



ساء فهمهم، وفسّروا القول بغير معناه.

إنَّ اللهَ خلقَ للإنسانَ عقلاً وإرادةً، والعقل يوجِّهه هذه الإرادة، إمَّا إلى خيرٍ وإمَّا إلى شرٍّ، وبالعقل يميِّز بين الخيرِ والشرِّ، وجعلَ اللهُ للعقل سلطاناً على الجسمِ كلِّه، وجعلَ العقلَ مؤاخذاً، فإنَّ وجَّهَ إلى خيرٍ وصلَّ بصاحبه إلى خيرٍ في الدنيا والآخرة، وإلَّا كانت العاقبة سوءاً للإنسان في دنياه بعدم الاستقرار، وفي آخرته بالعذاب الطويل الأليم.

خُلِقَ الإنسانُ كما خُلِقَ الحيوان من المادَّةِ نفسِها، فهو كالحيوان لحمًا وعظمًا ودمًا وعصبًا؛ ولكنَّه مميِّزٌ بالعقل الَّذي لم يميِّز به الحيوان، فالحيوان مفطورٌ على صفةٍ لا يتعدَّها في حياته، فهو مثلاً: إذا شبع سكنَ، وإذا جاعَ طلبَ قوته، فلا يدَّخر ولا يبني ولا يفكر في مستقبلٍ؛ وإنَّما يتوالد بالفطرة، وكذلك الجنس يطلبه بالفطرة.

الحيوانُ يولد فيبحثُ عن ثدي أمِّه حالَ ولادته، أمَّا الإنسانُ فلا، إذ لا بدَّ له من إرشادٍ وتمرين، والإنسانُ غير مفطورٍ، إنَّما هو عاقلٌ، وعقله ينمو ويضعف كما وصفه اللهُ في كتابه العزيز ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فهو يتعلَّم فيكبر عقله، وإذا ترك كان كالحيوانِ بل أضلَّ منه؛ لأنَّه خالٍ من العلم والفطرة.

والإنسانُ العاقل يفكر في مستقبله، قبل تفكيره بيومه، فكلَّمَا كان العقل كبيراً مُدرِّكاً بعدَ التَّفكير؛ لهذا بعثَ اللهُ الرُّسلَ للإنسان، وأنزل معهم الكتبَ للإنسان، وقال في هذا العقلِ كثيراً، منها أنَّ المجنون لا يُعاقب، والطفل ليس عليه حسابٌ، والَّذي لم يستمع الدَّعوة أو لم تصلُ إليه دعوةُ الأنبياء لا حسابَ عليه، وذمَّ أولئك الَّذين لا يفقهون ولا

يعقلون ولا يتدبرون، وذمَّ عُمَيِّ البصائر، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ
وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وأثنى على قوم يعقلون
ويعلمون ويتدبرون ويتفكرون، فالإنسان مؤاخذ بما يعمل، وعلم الله فوق
ذلك، والله يعلم بمستقبل الإنسان أنه سيكون صالحاً أو طالحاً أو مصلحاً
أو مفسداً، وذلك هو الكتاب، وعلمه عند الله كما قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] وهو القضاء.

من هنا ندرك أن الله ﷻ لا يظلم أحداً، وأن الإنسان مؤاخذ بعمله،
يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].



المهدي

السؤال:

«علوي مبارك من الكويت» يسأل عن المهدي، هل هو من ذرية النبي
ﷺ؟ وهل ينزل الوحي على أحد بعد رسول الله ﷺ؟

الجواب:

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه أبو داود عن أم سلمة: «المهدي من
عترتي، من ولد فاطمة»^(١)، وإسناده جيّد، والعتره: هم أخص أقارب

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٢٨٤).



الرَّجُلِ، وَلَمَّا كَانَ وَصْفَهُ أَنَّهُ مِنْ أَوْلَادِ فَاطِمَةَ فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَذُرِّيَّةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ انْحَصَرَتْ فِي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ابْنَيْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ مِنْ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْمَهْدِيُّ مَنِّي، أَجْلَى الْجَبْهَةِ، أَقْنَى الْأَنْفِ، يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ»^(١)، وَأَجْلَى الْجَبْهَةِ؛ أَي: وَاسِعَ الْجَبْهَةِ، فِي جَبْهَتِهِ نَوْرٌ يَرْتَاحُ لِرُؤْيَتِهِ النَّاطِرُونَ، وَأَقْنَى الْأَنْفِ؛ أَي: طَوِيلَ الْأَنْفِ بِلَا تَشْوِيهِ.

وَهُنَاكَ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ تَثْبُتُ نَزُولَ الْمَهْدِيِّ وَتَوْيِّدُهُ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ مِنْ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمَ النَّبِيِّ وَصِفَتَهُ، وَإِنَّهُ يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، يَصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ»^(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ.

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «الْمَهْدِيُّ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِي، وَجْهُهُ كَالْكُوكَبِ الدُّرِّيِّ»^(٣)، رُوِيَ عَنْ حَزِيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ.

وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ وَلَا أُدْرِي صَحَّةَ إِسْنَادِهَا أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَرَّمَ وَجْهَهُ نَظَرَ إِلَى ابْنِهِ الْحَسَنِ وَقَالَ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ كَمَا سَمَّاهُ النَّبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَسَيُخْرِجُ مِنْ صُلْبِهِ رَجُلٌ يُسَمَّى بِاسْمِ نَبِيِّكُمْ، يَشْبَهُهُ فِي الْخُلُقِ، وَلَا يَشْبَهُهُ

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، رَقْمٌ: (٤٢٨٥).

(٢) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ، رَقْمٌ: (٤٠٨٥)، وَأَحْمَدُ، رَقْمٌ: (٦٤٥).

(٣) أَوْرَدَهُ الْمُتَّقِي الْهِنْدِيُّ فِي كَنْزِ الْعَمَالِ، رَقْمٌ: (٣٨٦٦٦).

في الخَلْقِ، يَمَلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا^(١)، وهذه الرواية الأشهر، وفي رواية أخرى أنه من ولد الحسين، ولعلَّ راوي الحديث توهم في الاسمين، أمَّا الجواب عن السؤال الثاني: فلن ينزل وحيٌّ على أحدٍ بعد رسول الله ﷺ؛ لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خاتم النبيين، والوحي لا ينزل إلا على الأنبياء، ومن ادَّعى خلاف ذلك فهو كافرٌ، ومن صدَّقه فهو مثله؛ لأنَّه كفرَ بالآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].



استخدام الجنِّ

السُّؤال:

أخذتني إحدى صديقتي إلى امرأةٍ قالوا: إنها تقرأ الكفِّ، وفتحتُ كَفِّي لها فقالت لي: إن نساءً يعادونك عملوا لك سحرًا، فأعطيني خمسة دنانير لأعمل لك ضده، لكنَّ صديقتي قالت: لا، إن شيخًا يفتحُ الكتاب ويستخدم الجنَّ ويكتب حُجُبًا، وهو ماهرٌ في إبطال كلِّ عملٍ وسحرٍ.

وقد سمعتُك في إحدى حلقاتك الإذاعيَّة تقول: إنَّ السَّحر خرافةٌ، فكيف نوفِّق بين ما يعملُه هؤلاء المشايخ وبين قولك؟

«سائلة من الفيحاء»

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٢٩٠).



الجواب:

قال الله ﷻ وهو أصدق القائلين: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] ويقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال جلَّ جلاله على لسان نبيِّه: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقال: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى رسول الله وأصحابه فأبي شيخ هذا الذي يعلم الغيب؟ وأي كتاب فيه علم الغيب؟ ومن ذلك الذي يكتب الحجاب ليدفع القدر؟

إذا كان الله جلَّ جلاله منع أحب خلقه إليه عن علم الغيب، ولم يعطه كتابة الحجاب وهو من هو مكانة ومنزلة عند الله، فكيف يمنح إنساناً بعده من البشر هذا الفضل الكبير في علم الغيب وكتابة الحجب.

فالله ﷻ لم يجعل بينه وبين عبده واسطة في دعائه أو عبادته، فهو أقرب إلى العبد من نفسه، قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمُ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وقال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا الدعاء»، رواه الإمام مسلم^(١) وأبو داود^(٢) والنسائي^(٣)، وروى

(١) رواه مسلم، رقم: (٤٨٢).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٨٧٥).

(٣) رواه النسائي، رقم: (٧٢٧).

نحوه البزار عن ابن مسعود^(١).

فالوساطة بين العبد وربّه لا أثر لها في الإسلام، وهذا الوسيط إنسانٌ مثلك، وربّما يكون فاسقًا في الخفاء، والحُجُب لا تحقّق الاستجابة لمن يُدعى له؛ إنّما يستجيب الله لمن دعاه، فهو القائل جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦]، فالإيمان والعمل الصالح خير وسيلة يتقربُ العبد بها إلى الله فيدعو لنفسه وغيره، أو يُرقي نفسه وغيره.

ولا ننسى قول الله جلّ شأنه: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

أمّا كتابة الحجاب وأخذ الأجرة عليه فهو معصية وليس طاعةً، وخذاعٌ وأخذ مالٍ بغير حقٍّ، واستغلال لسداجة بعض الناس من ضعف العقول الذين يصدّقون الخرافة تحت تأثير الرّغبة في تحقيق شيءٍ معيّن يتمنّونه.

والأجرة على كتابة الحجاب وفتح الكتاب ليست من الكسبِ الحلال، بل كسبٌ فيه إيذاء الناس والاعتداء على حقوق الآخرين، ومن صدّق بالكتاب وفتح الحجاب وكتابه فقد أشرك بالله، وعصى الله ورسوله، وقد ذكرنا في حلقات ماضية أحاديث على مثل ذلك، منها قوله ﷺ: «من علّق تميمة فقد أشرك»^(٢).

وقوله ﷺ: «من علّق ودعة»^(٣) فلا أودع الله له، ومن علّق تميمة فلا

(١) رواه البزار في المسند، رقم: (١٥٢٤).

(٢) رواه أحمد، رقم: (١٧٤٢٢).

(٣) الودعة: خرزٌ بيضٌ تخرج من البحر تتفاوت في الصغر والكبر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/٢٩٤).



أتمَّ الله له»^(١).

فمن السَّلامة اتِّباع نبيِّ الإسلام، ومن تمامها أن نذهب في طريقها، وأن نتَّجه إلى الله وحده في الدُّعاء دون وسيطٍ بيننا، وأن نستشيرَ الأطباء ذوي الاختصاص؛ فإنَّ عملهم يمثِّلُ إرادة الله في كونه، فقد قال رسول الله ﷺ ما معناه: «الدَّاء من الله والدَّواء من الله»^(٢)، وقال أيضًا ما معناه: «لكلِّ داءٍ دواءٌ إلاَّ الموت»^(٣). ولمَّا سُئِلَ عليه الصَّلَاة والسَّلَام عن الطَّبيب قال عنه: «رجلٌ يبعثُ الله الدَّواء على يديه»^(٤).

أمَّا ادِّعاء استخدام الجنِّ فهذا كذبٌ أيضًا؛ لأنَّ الله ﷻ سَخَّرَ الجنَّ لواحدٍ من خلقه من أنبيائه، وهو سليمان عليه الصَّلَاة والسَّلَام، ولو سُخِّرُوا لأحدٍ من خلقِ الله بعد سليمان ﷺ لسُخِّرُوا لخير خلقه محمَّد وأصحابه.

لا أظنُّ أن أحدًا من النَّاس يستطيع استخدامهم؛ ولكنَّ الصَّالحين من عبادِ الله ﷻ يستطيعون إبعادَ الشَّياطين ووساوسهم، ودفع شرِّهم عنهم

(١) رواه أحمد، رقم: (١٧٤٠٤)، بلفظ: «من تعلق تميمه فلا أتمَّ الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودعَ الله له».

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٣٨٧٤)، بلفظ: «إنَّ الله أنزلَ الدَّاء والدَّواء، وجعل لكلِّ داءٍ دواءً، فتداووا، ولا تداووا بحرام».

(٣) رواه أحمد، رقم: (٤٢٣٦)، بلفظ: «إنَّ الله ﷻ لم ينزل داءً إلاَّ أنزلَ له شفاءً، علمه من علمه، وجهله من جهله».

(٤) لم أقف عليه، وذكره ابن القيم في الطَّبِّ النَّبويِّ (١/١٥)، بروايةٍ أخرى وهي: «وقد روي في أثر إسرائيليٍّ: أن إبراهيم الخليل قال: يا ربِّ ممَّن الدَّاء؟ قال: منِّي، قال: فممَّن الدَّواء؟ قال: منِّي، قال: فما بال الطَّبيب؟ قال: رجلٌ أرسلَ الدَّواء على يديه».

بعملهم الصّالح، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقوله تعالى حكايةً عن إبليس: ﴿قَالَ فِعْرَنُكَ لَأُعْوِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨١] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٢﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، فلماذا لا يستخدم هذا الدّجال جنّه ويسخرهم في كسب المصلحة له ليجلب المال ويكسب الجاه؟ ولماذا يرضى بالذّلة والمسكنة والانعزال وعنده الجنود من الجنّ الذين يستطيعون فعل ما لا يستطيعه غيرهم كما قال جلّ شأنه في سورة سبأ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، وكما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغُوضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]، ولكن من يضلّل الله فلا هادي له، نسأل الله تعالى أن يحفظ عقولنا حتّى نلقى الله بها مسلمين.



الحذر من الأخطار

السؤال:

لماذا يحثنا الدّين على الحذر من الأخطار ما دام أمرُ الحياة والموت بيد الله الذي يحيي ويميت؟ ولماذا نخاف الحيوانات الضّارة والسّيّارات والقطارات وغيرها؟ وهل الخوف من هذه الأشياء حرام؟

«سلمان شياع من العراق»



الجواب:

إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَخْبَرَنَا أَنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا، وَأَنَّ الْأَعْمَارَ مَعْدُودَةٌ، وَأَنَّ
الْأَجَالَ مَحْدُودَةٌ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ حَرَّمَ عَلَيْنَا أَنْ نُعَرِّضَ أَنْفُسَنَا لِلْمَهَالِكِ،
وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَأَمَرْنَا
أَنْ نَحَافِظَ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهَا أَمَانَةٌ بِأَيْدِينَا، فَقَالَ لَنَا: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَأَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَبْتَعدَ عَنِ الْأَخْطَارِ
بِقَوْلِهِ: «فِرٌّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفَرُّ مِنَ الْأَسَدِ»^(١).

وَكَذَلِكَ أَمَرْنَا بِالتَّداوِي مِنَ الْأَمْرَاضِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:
«تَدَاوُوا فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ:
الْهَرَمُ»^(٢).

مِنْ هَذَا نَفْهَمُ أَنَّ الْحَيَاةَ بِيَدِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ وَضَعَهَا بِيَدِ مَنْ وَهَبَهَا لَهُ
أَمَانَةً، فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَحَافِظَ عَلَى الْأَمَانَةِ حَتَّى يَسْتَرِدَّهَا صَاحِبُهَا فِي
أَجْلِهَا الْمَحْتَمِ.



المسيّر والمخيّر

السؤال:

«نادرة» تقول: هل الإنسان مسير أم مخير؟

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٧٠٧).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٨٥٥).

الجواب:

المخلوقات تنقسم إلى قسمين: أولها العاقل وهو الإنسان فقط، وهو مخيرٌ، ومن لا عقل له فهو شرٌّ من البهائم، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

أما الحيوان غير العاقل فهو سائر الحيوان، لكلِّ صنفٍ من هذه الحيوانات هدى يسيِّره؛ فهدى الحيوانات الأليفة غير هدى الوحشيَّة، وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها مخلوقاته.

فالحيوان - كلِّ حيوانٍ - إذا شبع استقرَّ، وإذا جاع طلبَ رزقه، وإذا طلبَ الرَّاحة أوى إلى مكانٍ يحميه ممَّا يضرُّه، وإذا أحسَّ برغبةٍ لأليفٍ طلبه، وإذا فرغَ منه ابتعدَ عنه، والأُمَّ ترعى صغارها حتَّى إذا عرفت استغناءهم عنها تركتهم وهكذا، فالحيوانُ مسيرٌ بهذه الفطرة، ولهذا لم يكتب الله عليه حسابًا ولا عقابًا، ولا كتبه على من فقدَ عقله من بني الإنسان.

أما العاقلُ فمسؤولٌ بعقله الذي هو أعظمُ نعمةٍ منَّ بها الله على بني البشر، يفسرُ ذلك قولُ الله ﷻ عندما عدَّدَ نعمته على الإنسان بالعقل والبصر واللِّسان والإدراك: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البَد: ٨-١٠]، ثمَّ فرَّقَ بين الصَّالحين بأنَّهم أصحابُ المرحمة، وهم الذين استعملوا وسائلَ العقل؛ أي: البصر واللِّسان والإدراك في طريق الخير، والفريق الثاني هم أصحابُ المشأمة الذين استعملوها في سبيل الشرِّ.

البحث في هذا الموضوع طويلٌ جدًّا وشائكٌ، وكلُّ ما هنالك أنَّ العاقل مسؤولٌ عن نعمةِ العقل، وأنَّ قدرَ الله كائن، ولهذا كان على



المسلم دائماً أن يقول: اللَّهُمَّ أعني على طاعتك واهدني سواء السبيل.



حفظ القرآن من الخطأ

السؤال:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] هل تعني هذه الآية وعداً من الله تعالى لحفظ القرآن من التحريف والتزييف والتبديل؟ وهل معنى ذلك أن الأيدي الجائرة لن تتمكن من التلاعب فيه؟

«علي حسن شريف»

الجواب:

نعم؛ ذلك إن القرآن تنزيلٌ من حكيم حميدٍ، كتبه أقلام الصَّحابة إملاءً من النبي ﷺ عليهم، وحُفِظَ مكتوباً حتى انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، ثم جُمِعَ في نسخةٍ واحدةٍ في عهد أبي بكر الصديق، وحُفِظَ تأكيداً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وتأكيداً لوعده ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وكان الصَّحابة يتناقلونه حفظاً فيما بينهم، ثم اتَّسَعَتِ الفتوحات وامتدَّت، ودخلت العجمة بلاد العرب فبدأ اللحن، وسُمِعَ في قراءة بعض الأعاجم، وذلك في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ أي: بعد مرور ستة عشر سنة أو نحوها على وفاة النبي ﷺ، عند ذلك أمر الخليفة عثمان بكتابة

نسخ من القرآن من تلك النسخة التي كتبت في عهد الصديق، وتوزيعها على البلاد الإسلامية تأكيداً لوعده الله بحفظ هذا الذكر، وقد مرت قرون بعد قرون والقرآن كما أنزل، لا تحريف فيه ولا تبديل.

القرآن في أقصى المغرب هو ذاته في أقصى المشرق، والقرآن الذي كتب في عهد الصحابة ما زال بحرفه وتعبيره الذي كتبت به اليوم، والقرآن الذي كتب بالخط المغربي والخط الكوفي لا يختلف عن المكتوب بخط النسخ أو خط الرقعة، والقرآن الذي طبع في بلاد الإسلام لا يختلف عن النسخ المطبوعة في غيرها من البلاد، وصدق الله العظيم بوعدِهِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].



معجزة الرسول

السؤال:

نحن نعلم أن لكل نبي معجزة، فموسى عليه السلام علمه الله السحر، وعيسى عليه السلام كان يشفي الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، فما هي معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ لقد سمعت أن معجزة الرسول هي القرآن الكريم كتاب الله، لكن موسى أيضاً أوتي التوراة كتاب الله، وعيسى أوتي الإنجيل كتاب الله، فما قولكم؟

«كريمة حمد علي حسن»



الجواب:

لم تكن معجزة موسى السحر، ولا كان موسى ساحراً، والسحر من كبائر الذنوب، فكيف يكون معجزة نبي؟! والسحر إفك وكذب وبهتان، والنبوّة صدق وفرقان، والنبي لا يكون كذاباً؛ وإنما جاء موسى بتسع آيات كانت دلائل على صحّة نبوته وهي:

١- العصا التي انقلبت حيّة.

٢- اليد التي تبيض من غير سوء.

٣- السنين.

٤- نقص الثمرات.

٥- الطوفان.

٦- الجراد.

٧- القمل.

٨- الضفادع.

٩- الدّم.

وكانت العصا هي أقواها؛ لأنه ضرب بها الحجر فانفجرت عيون الماء، وضرب بها البحر فانفلق وكان كلُّ فرقٍ كالطّود العظيم، وألقاها أمام السّحرة فأبطلت سحرهم، وكانت كلُّها معجزاتٍ وقتية ذهب بذهاب موسى.

وعيسى عليه الصّلاة والسّلام كان يخلق من الطّين كهيئة الطّير فيكون طيراً بعد أن ينفخ فيه بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى،

وكلُّ ذلك بإذن الله .

وكانت لنبينا معجزات وقتية ذكرَ علماء السيرة كثيراً منها، ومن أهمّها: ما ذكره القرآن من نزول الملائكة يوم بدرٍ لنصر العزّل القلّة على الجماعة الكثيرة المجهّزين بالعدد والعدّة، ومنها تكثيرُ الطّعام القليل الذي أشبع العدد الكبير، ومنها نبع الماء في غزوة تبوك عندما كاد المسلمون يهلكون عطشاً، وكثيرٌ غيرها ذكرها كُتّابُ السير، وكانت معجزاتٍ وقتيةً .

والمعجزة الباقية بقاء الحياة على هذه الأرض هي القرآن، إنّه الدُّستور الباقي للمسلمين، الذي فيه عزُّهم إذا تمسَّكوا به، وهوانهم إذا عرضوا عنه، هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الكتاب الذي نظّم حياة المسلم منذ ولادته حتّى نهايته، ونظّم لدولة الإسلام نظاماً بيّن فيه واجبَ المسؤول وغير المسؤول .

أمّا التّوراة التي أنزلت على سيّدنا موسى ﷺ فقد حرّفها اليهود، بدليل ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [التيساء: ٤٦] .

وأما الإنجيل فقد كتبه الحواريّون وتلاميذهم بعد سنين طويلةٍ من غيبة عيسى ﷺ، والأنجيل كثيرة، فأيتها الإنجيل الصّحيح؟ لا ندري، فالإنجيل واحد، وما بين أيدينا يزيد على واحد، وهذا ما نعتقده، وما من معجزة باقية ودائمة ومستمرّة ومستقرّة سوى القرآن الكريم، معجزة محمّد





التَّنْزِيلُ الْمُحْفُوظُ

السُّؤال:

ما هو الكتاب المنزَّل من السَّماء الَّذي لم يحدث به تغيُّرٌ مطلقاً، ولماذا؟

«أم صالح»

الجواب:

الكتب المنزَّلة من السَّماء الَّتِي أخبرنا الله بها أربع: التَّوراة أُنزِلت على موسى، والزَّبُور أُنزِل على داود، والإنجيلُ أُنزِل على عيسى، والقرآنُ أُنزِل على مُحَمَّدٍ ﷺ.

فالتَّوراة نزلت في عهد موسى، ثم مرَّ عليها زمنٌ حُفِظت هذه الألواح المكتوبة في بيت المقدس، وجاء زمنٌ احتلال بيت المقدس وإحراقه، فقتلَ أكثرُ حَفَاطِهَا، ثم بعد ذلك بدأ النَّاس يكتبونها من محفوظاتهم، حتَّى اتَّفَق الأَحبارُ على هذا المكتوب في العهد القديم، والقرآنُ يقول لنا: إنَّهم يكتبون الكتاب بأيديهم، ويقولون هذا من عند الله.

والزَّبُور: كتابٌ فيه أدعيةٌ وصلواتٌ وليس فيه أحكام، أنزله الله على داود، ولم يذكر القرآنُ عنه إلاَّ أنَّ الزَّبُور أُنزِل على داود، في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [التِّيسَاء: ١٦٣].

والإنجيلُ: كتابٌ أُنزِل على عيسى، ذكر القرآنُ أنَّ فيه أحكاماً، كما

جاء في سورة المائدة قال تعالى: ﴿وَلِيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]، معنى هذا أن في الإنجيل أحكاماً، لكن الإنجيل لم يكتب إلا في القرن الثاني بعد المسيح ﷺ، ولهذا جاءت الروايات فيه كثيرة.

وأخيراً اتفق القسيسون والرهبان على الأناجيل الأربعة المتداولة الآن وهي: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا.



حفظ الذكر

السؤال:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فهل حفظ الله خاص بالقرآن؟ أم بكل الكتب السماوية؟

«ولد علي من المشرق»

الجواب:

حفظ الله خاص بالقرآن، بدليل الآيات الكريمة السابقة للآية التي سألت عنها؛ لأن الآيات الكريمة جاءت هكذا: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُزِّلَ الْمَلَكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) [الحجر: ٦-٩].

حكى القرآن كلاماً قاله المشركون إنكاراً على النبي، ووقفوا فيه



موقفَ سفهٍ وسوءِ أخلاقٍ واحتقارٍ، حيث قالوا له: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦] مُعرضين عن ذكر اسمه ﷺ فقالوا له: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] بادِّعائك هذا الذكر الذي تدَّعيه، لماذا يُنزلُ الذكرُ عليك وحدك من بيننا؟ ولماذا تنزل الملائكةُ عليك وحدك دوننا؟ ولماذا لا نراهم حين يتنزلون عليك؟ ما الذي يمنع تنزل الملائكة علينا، وأن تشهد لك بصدق نبوتك؟

والله ﷻ أجاب اقتراحهم هذا بقوله تعالى: ﴿مَا نُنزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]، والحقُّ معناه: الحكمة والفائدة، في حين أنهم زعموا أنَّ الملائكة لا تنزل إلا ببلاءٍ وشرٍّ وهلاك، ثم بشرَّ الباري ﷻ نبيه بحفظ هذا التنزيل بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وحفظ الذكر من الزيادة والتقصص، والتغيير والتبديل، والمعارضة والإفساد، هذا الحفظ بحياة النبي ﷺ حين كان يمليه على الكتبة يكتبونه أمامه، ثم جمع في مصحفٍ واحدٍ في زمن الصديق، ثم كتبت ووزع في زمن عثمان، ثم سُكِّلَ في زمن الوليد عندما بدأ الناس يلحنون ولا يعربون، فوضعت الفتحة والضمة والكسرة والسكون، ولا يزال الناس حتى اليوم يتعاهدون القرآن، فمتى طبع مصحفٌ وأنكروا فيه غلطاً أو تقديم آية أو تغيير تشكيل أو تقديم سورة على سورة، قامت قيامة الحفظة ونشروا في ذلك منشوراتٍ يحذرون الناس في جميع البلاد المسلمة، وسيأتي في مستقبل الأزمان من يتولون حفظ القرآن والدفاع عنه ما بقيت في المسلمين بقيته.

ويقول السائل في رسالته: لماذا لم تكتب الكتب المنزلة على موسى

وعيسى؟

والجواب:

الكتب المنزلة على موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء أرادها الله لغايةٍ ووقتٍ ومكانٍ وأمةٍ محدودين، أمّا القرآن فهو رسالةُ السَّماءِ إلى الإنسانيَّةِ كلّها في جميع أوطانها وأزمانها وأممها، ولو أنّ الكتب السماويَّةَ السَّابِقةَ كان لها من الله ما كان للقرآن من حفظٍ لَمَا دخلها التَّحريف، ولا كان القرآن ناسخًا لها.



ذريّة إبليس

السؤال:

نسمع من بعض النَّاسِ من يقول: أعود بالله من الشَّيْطانِ وعياله، فهل للشَّيْطانِ أولادٌ؟ إنِّي أعرف من بعض النَّاسِ أنّ الشَّيْطانِ روحٌ خبيثٌ ولا يلدُ كالبشرِ.

«ابن حرب»

الجواب:

الَّذي نعرفه أنّ آدمَ عليه السلام أبو البشر، وأنَّه خُلِقَ من طينٍ، وذريّته جاءت من المادّةِ نفسِها التي خلق منها، وإذا ماتوا عادوا إلى المادّةِ التي بدأوا منها، وأنَّ إبليسَ أبو الجنِّ، وأنَّه خُلِقَ من مارجٍ من نارٍ، والجنُّ خلقوا من المادّةِ نفسِها فهو أبوهم، والدليل على أنّ لإبليسَ ذريّةً قوله تعالى في سورة الكهف في الآية (٥٠): ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا



إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَأْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠] وَإِنَّهُ يَرَانَا هُوَ وَقَبِيلُهُ
وَنَحْنُ لَا نَرَاهُمْ، فيقول جلَّ شأنه في كتابه العزيز، في الآية (٢٧) من
الأعراف: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ
عَنْهُمَا لِباسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُونَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا
الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧]، من هنا نفهم أن لابليس
ذرية كما أن لآدم ذرية.



صفة المكر

السؤال:

«ص. ك من العراق» يسأل: يقول الله تعالى: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ^ط
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فما معنى صفة المكر لله هنا؟ وهل هو
المكر الذي نعرفه نحن البشر؟

الجواب:

الآية الكريمة تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ
يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال:
٣٠]، معنى ذلك أن قريشاً كانت تمكر برسول الله ﷺ، ومعنى المكر
المؤامرة كما نفهمها الآن، أو تدبير المكيدة أو الخديعة، وكانوا
يجتمعون في ندوتهم، ويتآمرون ويدبّون ليشبثوا رسول الله؛ أي: يحبسونه
حتى يموت، أو يقتلونه ويتخلصون منه، أو يخرجونه من مكة مطروداً من

وبلاده، وقد ائتمروا بهذا كله، ولكنهم في نهاية المطاف اختاروا قتله، وكان الله من ورائهم محيطًا يمكر بهم بإبطال كيدهم وجعل الدائرة تدور عليهم وهم لا يشعرون، حتى صار تأمرهم مهزلةً، وصار مكرهم مسخرةً، وكانوا بعد ذلك كله في فزعٍ مِمَّا حصل، فخرج الرسول وهم نائمون، ومرُّوا بالغار فأروا على بابه نسيجَ العنكبوت وبيضَ الحمام، وقال الله جلَّ شأنه: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] إنها لصورةٌ مخزيةٌ، وهي في الوقت نفسه مفرعةٌ، فذلك مكرهم وهذا مكر الله.

وكما حكى القرآن الكريم عن ثمود قوم صالح حين تأمروا ضده وتقاسموا فيما بينهم لبيئته وأهله، أي: يغتالونه، قال الله عنهم: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٠-٥٢].



الأعراب

السؤال:

«منيف مطلق» يسأل عن تفسير الآية الكريمة: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ ﴿٩٧﴾ [التوبة: ٩٧]، ويقول: من هم الأعراب؟ وأين يسكنون؟



الجواب:

إنِّي فهمت من سؤال السائل أنه لم يميِّز بين كلمة عربٍ وأعرابٍ، إذ أن المقصود بالأعراب هم البدو العرب.

وهذه الآية التي سألت عنها من سورة التَّوْبَةِ، ورقمها (٩٧)، وقد قال المفسِّرون: إنَّهم كانوا أعرابًا حول المدينة، وكان منهم جماعاتٌ من قبائلِ غطفانٍ وأسدٍ، وكانوا جفافةً قساةً، لا يميِّزون بين الخير والشرِّ، وكان منهم منافقون يعدُّون الزَّكَاةَ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهُمْ غرامَةً، ولهذا يقول الله ﷻ في الآية الثَّانِيَةِ: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَعْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُودِ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَةِ: ٩٨]، ثمَّ يقول جَلَّ جلاله بعدها: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التَّوْبَةِ: ٩٩]، وهم أعرابٌ كانوا يسكنون قرب المدينة، ومنهم جهينةٌ وأسلمٌ وغفارٌ وغيرهم، فليس كلُّ الأعراب أشدُّ كفرًا ونفاقًا، ولكن منهم من هو جديرٌ بهذا الوصف، ومنهم من هو جدير الإيمان^(١).



بِسْمَلَةُ سُورَةِ التَّوْبَةِ

السؤال:

«محمد علي صالح من وزارة الدَّاخِلِيَّةِ» يقول: المعروف عند قراءة سورة التَّوْبَةِ لا يذكر القارئ البسملة؛ لأنَّها غير موجودة، ولكنِّي في أحد

(١) أورده البغويُّ في تفسيره (٤/٨٦).

الأيام شاهدت من خلال التلّفاز أحدَ القرّاء يقرؤها مبتدئًا بالبسملة، فهل لذلك تفسيرٌ؟

الجواب:

سورة التّوبة من سور القرآن لم تبدأ بالبسملة؛ لأنّ الرّسول ﷺ لم يأمر بذلك، وكتب القرآن في عهد أبي بكر ولم تكتب البسملة في أوّل سورة براءة اقتداءً بما كتّب في عهد الرّسول ﷺ، ولما أمر عثمان رضي الله عنه بكتابة النّسخ من كتاب الله وتوزيعها على الأقطار الإسلاميّة يومئذٍ لم تُكتب البسملة في هذه النّسخ في أوّل سورة براءة، ولا كتبها التّابعون لهم بإحسانٍ، ولا كتبها من بعدهم، ولم تكتب إلى يومنا هذا.

وقال علماء الإسلام في ذلك كثيرًا، وأرجعوا الأمور كلّها إلى واحدٍ من ثلاثة:

١- سورة التّوبة براءة من الله ورسوله من المشركين، وهذا إنذارٌ لا يناسبه أن يقترن بذكر الرّحمة الموجودة في بسم الله الرّحمن الرّحيم، فهي أمانٌ، وسورة براءة سيفٌ وقتالٌ لا أمانَ فيه.

٢- سورة براءة نزلت بإلغاء النّسب والمحبّة بين المؤمنين والمشركين، وإلغاء هذه المحبّة والولاية برغم القرابة والنّسب لا يتناسب مع ذكر الرّحمة الموجودة في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

٣- سورة التّوبة امتدادٌ لسورة الأنفال؛ لتقاربهما في موضوعهما؛ لأنّهما تحدّثتا عن الجهاد والقتال والتّفير في سبيل الله وتنظيم الحروب، فكأنّهما سورة واحدةٌ تكمّل الثانيةُ منهما الأولى في معظم ما فيها من أوامر ونواهٍ وأصولٍ وفروعٍ، فالبسملة التي بدأت بها سورة الأنفال أغنت



عنها في أوّل سورة التّوبة، وهذا هو القول الذي أعتقده أنّه الأقرب للواقع.

ويقول السّائل: إنّهُ سمع القارئ بدأ السّورة بكلمة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، فأقول له: يحتمل للقارئ ثلاثة أحوال:

- ١- إن كانت قراءته من الأنفال ثمّ واصل القراءة فلا يسمّي.
- ٢- إن بدأ قراءته من أوّل براءة فلا مانع له أن يسمّي، ولا ينسى أنّه خلاف لما أجمع المسلمون عليه من ترك التّسمية.
- ٣- إن كانت قراءته من أواسط سورة براءة فلا مانع له أن يسمّي أيضاً كما يقرأ من سائر السّور.



شاهد يوسف عليه السلام

السؤال:

سمعت من بعض المحدثين القصّاصين أنّ الذي برأ يوسف عليه السلام من تهمة امرأة العزيز كان طفلاً في المهد، أنطقه الله ببراءة يوسف كرامةً له، فهل هذا صحيح؟

«مسلم»

الجواب:

قال الله تعالى في سورة يوسف في الموضوع الذي تسأل عنه: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِيَّ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يُوسُف: ٢٥-٢٦].

والشاهد معناه: الحاضر، ومعنى شهد شاهد: حضر حاضر، والطفل في المهد لا يحضر، بل يُحْضَرُ بضم الياء، ولا حاجة للطفل في المهد؛ لأنَّ امرأة العزيز لم تلد، والمكان الذي كانت فيه مع يوسف كان خلوةً ليس فيه أحد؛ لأنَّ امرأة العزيز عندما أحسَّت نفسها وحيدةً مع يوسف غلَّقت الأبواب، فمن أين جاء الطفل في المهد؟ ومن الذي أحضره؟

والشاهد الذي حضر من أهلها حضر عندما سمع الأصوات بين الزوج السَّيِّد وزوجته والغلام المملوك يوسف، والقول بلا دليلٍ مثل الكذب، وواجبٌ على المسلم أن يقف في تفسير كتاب الله عند حدود المعنى، فإذا تعدَّى المعنى فقد كذب، وليس من السَّهل أن يكذب الإنسان على الله، فاتَّقوا الله يا عباد الله.

إنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «من كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النَّار»^(١)، هذا بالنسبة إلى رسول الله، فكيف بمن كذب على الله؟! أولئك الذين توعدَّهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التَّحَلُّ: ١١٦-١١٧].



(١) رواه البخاريُّ، رقم: (١١٠)، ومسلم، رقم: (٣).



العين والحسد

السؤال:

ما المقصود بقول الله تعالى حكايةً عن سيدنا يعقوب عليه السلام: «وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾» [يوسف: ٦٧]، وهل صحيح أن يعقوب عليه السلام كان يخشى على أولاده العين؟

«خولة»

الجواب:

لم يرد في القرآن ذكر العين قبل هذه الآية ولا بعدها، ولا ذكر الحاجة التي كانت في نفس يعقوب، فقد جاء بعدها قوله تعالى: «وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾» [يوسف: ٦٨].

وقد قرأت تفاسير كثيرة للآية الكريمة، أشار بعضهم فيها إلى الحسد، وبعضهم إلى العين، ولكن الذي يطمئن له خاطري أن مصر كانت مخزن تموين للمجاعة التي عمّتها وما حولها من البلاد، وأن دخول اثني عشر شاباً بهيئة واحدة وصورة واحدة مما يثير شكوك الناس حولهم؛ لذلك أمر يعقوب عليه السلام أبناءه ألا يدخلوا جملةً واحدةً بصورتهم وهيئتهم، فيلفتوا أنظار الناس إليهم، فيظنوا بهم شرّاً، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة،

فذلك أبعَدُ عن سوء الظَّنِّ، ولعلَّه أراد أيضًا دخولهم في أوقاتٍ مختلفةٍ، ولا ننسى قول الله ﷻ في آخر الآية الثانية: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمَنَّهُ﴾ [يُوسُف: ٦٨]، وقد أشار القرآن الكريم إلى السياسة بالعلم، فقال عن سليمان ﷺ: ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، وأشار إلى الحكم بالعلم، وقال عن داود وسليمان: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وأشار إلى العقل والتدبير بالعلم، فقال عن طالوت: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فالعلم واسعٌ، وأبوابه كثيرةٌ، وليس من علمٍ كمن جهلٍ، ويعقوب ﷺ عندما أمر أولاده ألا يدخلوا من بابٍ واحدٍ كانت في نفسه حاجةٌ، وكان عليماً بأمره الذي أمر به أولاده، لكنَّ حاجته وعلمه لا تُغني من قضاء الله وقدره شيئاً، ولو كان في هذه الحاجة نفعٌ لنا لبيَّنها الله، والله أعلم بمراده.



شرح آيتين

السؤال:

«سلوى حمدان من جنوب البصرة» تقول: أرجو شرح الآيتين الكريمتين: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].



الجواب:

إنَّ هاتين الآيتين من سورة إبراهيم، رقمهما: (٢٤) و(٢٥)، وقد ضربَ اللهُ فيهما مثلاً للكلمة الطَّيِّبة، وفي الآية (٢٦) ضربَ مثلاً للكلمة الخبيثة، ثمَّ في الآية (٢٧) بيَّن أنَّ الله ﷻ وَفَّقَ من شاء التَّوفيقَ إلى قولِ الكلمة الطَّيِّبة التي هي القول الثَّابت في الحياة الدُّنيا والآخرة، وأضلَّ من شاء الضَّلالَ عن قولِها، وهذا كائنٌ في سابقِ علمه جلَّ شأنه.

فالكلمة الطَّيِّبة مثلُ الشَّجرة المثمرة، الثَّابتةُ عروقها في الأرض، العالِيَةُ غصونها في السَّماء، إذا قيلت في مكانٍ فاضَ نورُها على قلوب سامعيها؛ ولهذا يقول اللهُ ﷻ لعباده المؤمنين: ﴿أَقُولُوا لِلَّهِ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، ويقول أيضاً: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فالكلمة الطَّيِّبة تفيض بخيرٍ كثيرٍ، وثمرتها دائمةٌ، تغسلُ الأحقادَ، وتمحو البغضاء، ويجني المجتمعُ منها النِّفعَ، والكلام الطَّيِّب كثيرٌ لا يكاد يُحصَر، تختلف صورُه وتتعدَّد، وتكثر منافعُه وقد تقلُّ، وهو كالشَّجر الطَّيِّب، فُضِّلَ بعضُه على بعضٍ بالنِّفعِ كما فُضِّلَ بعضُ الشَّجرِ على بعضه في الأكل.

يقول اللهُ ﷻ في كتابه العزيز: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، ولا يكون هذا إلا بالكلمات الطَّيِّبة التي يتلفَّظ بها الإنسان، فإذا صادفتُ أذنًا واعيةً، وقلبًا حافظًا، وعقلًا ذاكرًا، ومشاعرَ مستجيبةً متجاوبةً مع النَّافع أثمرتُ ثمرًا نافعًا مفيدًا، وأعطتُ أكلاً مباركًا طيبًا.

يترفَّع الإنسانُ عن حيوانيته بالكلمة الطَّيِّبة المباركة متى قالها، فإذا هو مكرَّمٌ في مجتمعه، ومقدَّرٌ بين سامعيه، ومحترمٌ عند أهل المشاعر النَّبيلة

الَّتِي تَهَشُّ^(١) لَلْقَوْلِ الطَّيِّبِ وَتَتَجَاوَبُ مَعَهُ .

قد تصادف الكلمة الطيبة قلبًا خبيثًا، ونفسًا كزرة^(٢) لا تُثمر ولا تُعطي، كالبدرة تكون في سبخة^(٣)، أو تكون على صوان^(٤)، وقد تتقبلها فتزكو فُتُنِبِت .

وقد جاء رسل الله بكلماتٍ طيبة، تحمل في كيانها معاني الحق والخير، فمن لم يُقِم لها وزنًا، ولم يرفع لها رأسًا، ولم يمدد نحوها يدًا خاب وخسر، ومن قبلها واستمع لها وقدرها حق قدرها فاز في أولاه وأخراه .

أمَّا الكلمة الخبيثة فإنها لا تبيض ولا تُفرِّخ حتى تلقى النفس الخبيثة ذات المشاهد الفاسدة، وشاهدٌ هذا وذاك واقِع الحياة التي نعيشها، فالخبيث والطيب في كلِّ زمانٍ كالحسن والسيئ، والخير والشر، والهدى والضلال، والظلمات والنور .

والقرآن ضرب لنا مثلًا: لو كان الرسول ﷺ فظًا غليظ القلب لانفصَّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ، لكنَّه كان يدعو إلى دين الله بالكلمة الطيبة، يقولها بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، وأوصاه ربُّه أن يأمر أمته أن يقولوا التي هي أحسن، وألا يقابلوا الشرَّ بالشرِّ، في قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦] .

(١) رجلٌ هَشٌّ: سهل الجانب إذا سُئِلَ . انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٦٣/١٧) .

(٢) كزرة: يابسة . انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠٠/١٥) .

(٣) السبخة: الأرض التي تعلوها الملوحة . انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦٩/٧) .

(٤) الصوان: حجارة صلبة إذا مسَّته النار ففَعَّ تفقيعًا وتشقَّق . انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣١٩/٣٥) .



وأختتم جوابي هذا بقول الله ﷻ لعباده المؤمنين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].



وإنّا له لحافظون

السؤال:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وحين أكتب لكم هذا لا أشك بصدق وعد الله، فقوله الحقّ المبين، وكتابه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكننا نسمع كثيراً عن مصاحف مزوّرة في أمريكا وإفريقية وغيرها من البلاد، وهي دسائس أعداء الله وأعداء الدين الحقّ، أرجو شرح قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ﴾ [فصّلت: ٤٢]، وشكراً.

«م. ب. من الزبير»

الجواب:

هذه الآية التي سألت عنها السائل هي الآية التاسعة من سورة الحجر، وفيها سمى الباري ﷻ القرآن بالكتاب والقرآن والذكر. والقرآن هو القول الحقّ الصادر من الحقّ جلّ جلاله، وكان أهل مكة قد احتجّوا على تنزيل هذا القرآن، وقالوا: لماذا نزل على محمدٍ وحده؟

ولماذا لا ينزل على رجلٍ من القريتين عظيمٍ؟ ولماذا لم تنزل به الملائكة علينا؟

ثمَّ يقول الباري ﷻ: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا﴾ [الحجر: ٣]؛ أي: دعهم ليأكلوا كما تأكل الأنعام ولا يُهَمَّنَكَ أمرهم، ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣]؛ أي: بالعرض الزائل، ﴿وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٣] أنا لا نُنزِّلُ الملائكة كما يريدون، ولا حاجة لِأَنْ تشهدَ الملائكةُ بصدقك أمامهم، إِنَّ الملائكةَ لا تنزل إلا بالعذاب، وليس في نزول الملائكةِ بشرى للمجرمين.

ها هو الذكر الَّذي نزل به الروح الأمين على قلبك، ولست أوَّل من يُكذَّب من الرُّسل، فقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين، وما يأتيهم من رسولٍ إلاَّ كان قومه به يستهزئون.

ولكن معك ذكرٌ نزلناه عليك وإنا له لحافظون أبد الدهر، فلا يبلى ولا ينتهي، وتلك خصوصيةٌ للقرآن، تكفل الله وحده بحفظه ورعايته ما دامت السموات والأرض.

فالقرآن الَّذي كُتِبَ في أيام الصحابة هو القرآن الَّذي كُتِبَ في عصرنا هذا، والَّذي سيُكْتَبُ في قرونٍ مُقبلةٍ، لا تحريف فيه ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان، والقرآن الَّذي كُتِبَ في الشرق هو القرآن الَّذي كُتِبَ في الغرب وفي أيِّ مكانٍ وأيِّ زمانٍ، لا تبديل فيه ولا تحريف.

وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، لا يناله بشرٌ، وممنوعٌ من التَّحريف، لا يُمَسُّ بسوءٍ على الرِّغم من كثرة أعدائه وقوتهم وتعاونهم مع الباطل ضده، ولكنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إِنَّه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.



أَمَّا قَوْلُ السَّائِلِ: إِنَّا نَسْمَعُ بَيْنَ يَوْمٍ وَيَوْمٍ عَنِ مَصَاحِفٍ مَزُورَةٍ فِي
 أَمْرِيكَ وَإِفْرِيْقِيَّةٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ، فَهُوَ صَدَقٌ، لَكِنْ أَيْنَ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ؟
 إِنَّهُ مَتَى خَرَجَ شَيْءٌ مِنْهَا قَامَتِ الدُّنْيَا وَقَعَدَتْ لِهَذَا الْمَصْحَفِ، عَلِمَّا أَنَّ لَا
 نَدْرِي هَلْ كَانَ التَّرْوِيرُ مُتَعَمِّدًا أَوْ إِنَّهُ خَطَأٌ مُطْبَعِيٌّ؟! عِنْدَنَا فِي الْكُوَيْتِ فِي
 وَزَارَةِ الْأَوْقَافِ هَيْئَةٌ مُوَظَّفَةٌ لِمَتَابَعَةِ الْمَصَاحِفِ الَّتِي تَأْتِي لِلْكُوَيْتِ، لَوْ
 وَجَدُوا ضَمَّةً مَكَانَ فَتْحَةٍ أَوْ كَسْرَةً مَكَانَ ضَمَّةٍ مَنَعُوا تَدَاوُلَ هَذَا الْمَصْحَفِ،
 فَكَيْفَ بِتَحْرِيفِ يَغْيِرُ مَعْنَى أَوْ يَبْدُلُ لَفْظًا؟! فَاطْمَئِنِّ يَا أُخِي وَآمِنْ بِوَعْدِ اللَّهِ
 وَبِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الْمَصْحَفُ الَّذِي بِيَدِكَ الْيَوْمَ هُوَ الْمَصْحَفُ الَّذِي كُتِبَ فِي أَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ،
 وَالَّذِي وُزِعَتْ نُسخُهُ عَلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي أَيَّامِ عَثْمَانَ، وَالَّذِي تَدَاوَلَتْهُ
 الْعُصُورُ خِلَالَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا، لَمْ يَأْتِ الْبَاطِلُ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ؛ لِأَنَّهُ كِتَابٌ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِ
 الرَّسُولِ الْمَصْطَفِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ قَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
 الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].



الَّتِي هِيَ أَقَوْمٌ

السُّؤَالُ:

«فَوَازٌ» يَسْأَلُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي
 لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ [الإسراء: ٩].

مَا الْمَقْصُودُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ [الإسراء: ٩]؟



الجواب:

التي هي أقوم: هي الطريق السهلة المُعبّدة لا اعوجاج فيها ولا خطر. والقرآن كتابُ الله الَّذي وصفه ربُّ العزّة جلَّ شأنه بأنّه هدى للنّاس وضياءٌ وذكرٌ للمتّقين، وشفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، أنزله الله لِقوم يعلمون ويسمعون ويعقلون ويتذكّرون ويتفكّرون، ولمن كان له قلبٌ، إنّه هدى وذكرى لأولي الألباب والأبصار.

إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم بالعقيدة الواضحة المبسّطة التي يقبلها العقل، لا تعقيد فيها ولا غموض، ولا وهم ولا خرافة، تربط بين ما قدره الله في هذا الكون من سننٍ ومقادير، وبين الفطرة البشريّة والعقل البشريّ.

ويهدي للتي هي أقوم بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين عقيدته وعمله، فالعمل عبادةٌ، ومتى توجّه الإنسان بعمله إلى الله - مهما كان هذا العمل سواءً كان مادّيّاً أو سياسيّاً أو متاعاً أو استمتاعاً بالحياة - جُزي به، فالجزاء بالعمل كما قال عنه رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمالُ بالنيّات وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى»^(١).

ويهدي للتي هي أقوم في العلاقات بين النّاس، فيقيمها على أسسٍ وطيدةٍ ثابتةٍ، لا تتأثر بالرأي والهوى ولا تميلُ مع المحبّة والعداء، إنّها أسسٌ أقامها الله العليم الخبير، وهو أعلمُ بمن خلق في علاقات النّاس بعضهم ببعض أفراداً وأزواجاً وحكوماتٍ وشعوباً ودولاً وأجناساً، أقامها جلَّ شأنه علاقاتٍ ثابتةً، يهدي بها عباده في نظام الحكم والمعاملات والاجتماع، وفي كلّ نظامٍ يحتاجه الإنسان حيثُ كان.

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (١)، ومسلم، رقم: (١٩٠٧).



ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة التي تربط الإنسان بربه، فلا تكليف إلا في حدود الطاقة، ولا تسهيل حتى لا يكون استهتار؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم يخبرنا أن الديانات السماوية كلها من منبع واحد يجمع عقائدها توحيد الله؛ ليكون البشر كلهم إخوة، ولتعيش البشرية كلها في سلام ووثام في ظل توحيد الخالق.

هذا القرآن هدى في حقيقته وطبيعته وكيانه وماهيته، فهو دليل واضح ومبين للمؤمنين، كما قال جل شأنه في افتتاح سورة البقرة: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١-٢]؛ لأن التقوى تفتح مغاليق قلوبهم فتؤهلهم للانتفاع بهذا الكتاب.

ولقد جاء القرآن لقوم كانوا في جاهلية جهلاء، رانت الخرافات على قلوبهم، وأعمت الأوهام أبصارهم، يعبدون الأصنام والأوثان، لا جامعة تجمعهم، ولا ألفة تؤلف بينهم، والعداء بينهم شديد، والحرب بينهم قائمة، يقتل بعضهم بعضاً، ويسلب بعضهم بعضاً، فغيّر القرآن حياتهم تغييراً جذرياً شاملاً في عقائدهم وعاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم وأعرافهم ونظرتهم للحياة، ووضع بين أيديهم قيماً جديدة لم يعهدوها من قبل، ونصب لهم في آفاق الحياة مثلاً أعلى عرفوا به الغاية من الحياة، وأنشأهم أمةً فتيةً جديدةً في كل شيء، ما أتاح لهم أن يدركوا أن للحياة معنى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، من أجل ذلك قام سلف المسلمين الصالح، وشمروا عن ساعدهم لنشر تعاليم الإسلام وتنفيذ شرائعه ووصاياه، وأقاموا على أساس منهجه أعظم دولة عرفها الإنسان،

ترعى العدل، وتحفظُ العهدَ، وتنشرُ الأمنَ، وتأمُرُ بالمعروفِ، وتزيلُ المنكرَ، وتمحي الجهالةَ، وتُرسي قواعدَ المعرفةِ، وصدق الله العظيم في وصف هذه الأمة حيث قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أيها الإخوة المستمعون: القرآن كتابُ الله الفارقُ بين الحقِّ والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين المعرفة والجهل، وبين العدالة والظلم، وبين عهدِ جاهليِّ مظلم وعهدِ راشدٍ مضيءٍ، وبين متاهةٍ وهدى، وقد سوَّى سبيلاً واضحاً للحياة كلها في صورتها المُمثلة في الواقع، فهو فرقانٌ ينتهي به عهدُ الغيِّ، ويبدأ به عهدُ الرُّشدِ، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال رسول الله ﷺ: «كتابُ الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصلُ ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو جبلُ الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تلتبسُ به الألسنةُ، ولا يشبعُ منه العلماءُ، ولا يخلق على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجنُّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قَوْلًا نَبِيًّا عَجَبًا﴾ [الجن: ١-٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراطٍ مستقيم»^(١).



(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٩٠٦).



يوم ندعو كل أناسٍ بإمامهم

السؤال:

ما معنى الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]؟
وما معنى كلمة الإمام فيها؟

«بشير الحبيب من البصرة، وعقاب من المقوع»

الجواب:

الآية الكريمة في سورة الإسراء، ورقمها (٧١)، وتام الآية: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١] والآية الثانية رقمها: (٧٢): ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، وإذا قرأنا الآيتين وضح المعنى، فالدعوة ليوم الآخرة، والمُعَوَّل عليه في ذلك اليوم هو المحاسبة على الأعمال والعقائد، فهي الباقية ولا شيء غيرها.

وقد تأكد لي أنَّ السائل إمامي المذهب؛ لهذا راجعتُ تفسير العلامة الفضل بن الحسن الطبرسي رحمته الله، فذكر في تفسير هذه الآية أنَّ كلمة إمامهم مُفسَّرة في خمسة أقوال، وهي:

١- بنيهم.

٢- بكتابهم.

٣- بمن كانوا يأتون به من علمائهم وأئمتهم .

٤- بكتابهم الذي فيه أعمالهم .

٥- بأمهاتهم اللاتي ولدنهم، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا قولٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ الأنساب يومئذٍ لا تُعدُّ ولا يُؤخذُ بها، إلى أن قال: ولأنَّ الأعمال والعقيدة هي الباقية يومئذٍ وما سواها فان^(١).

والاعتقاد بالإمام المهديِّ ثابتٌ عند المسلمين، فأما عند أهل السُّنَّة ففي اعتقادهم أنه يأتي في آخر الزَّمان رجلٌ من أهل بيت النَّبوَّة، اسمه كاسم النَّبيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واسم أبيه كاسم أبيه، يملأُ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورًا، أجلي الجبهة، أقنى^(٢) الأنف، وجهه كالكوكب الدُّريِّ^(٣).

وأما الإمامية فقد عيَّنوا الإمام محمَّد المهديَّ بن الحسن العسكريَّ بن عليِّ الهادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أهل بيت النَّبوَّة أجمعين، وهو المعروف بالحُجَّة، والقائمُ والمنتظرُ والمهديُّ.



(١) أورده القرطبيُّ في تفسيره (٢٩٦/١٠)، ولم أجد تفسير الطُّبرسيِّ بين الكتب المعتمدة للتفسير .

(٢) القنا في الأنف: طوله ودقَّة أرنبته مع حدبٍ في وسطه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣٧٦١/٥).

(٣) سبق تخريجه .



مغيب الشمس

السؤال:

السائل «نهاد المير من الخبر» يقول: قال الله ﷻ في كتابه العزيز، في سورة الكهف، في الآية (٨٦): ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف: ٨٦].

وأذكر أنني كنتُ في كندا واتصلت بأحدهم في السَّعُودِيَّة السَّاعَةَ الواحدة ظهراً، فقال لي: نحن الآن في العاشرة ليلاً، معنى ذلك أن الشمس لا تغيب، فكيف نربط بين الواقع وبين هذه الآية؟

الجواب:

الآية لا تخالف الواقع أبداً، واعلم أنَّ ذا القرنين بلغ ساحل بحرٍ من جهة الغرب، فوجد الشمس تغرب في عين حمئة؛ أي: سوداء من شدة الظلمة وعمق الماء، وقال المفسِّرون: لعلَّه بلغ المحيط الأطلسيَّ أو ساحل بحرٍ لا يعرف ما وراءه^(١)، وكانت الأرض المعمورة في ذلك اليوم محدودةً، ووسائل السَّير كذلك، والنَّاس لا يعرفون الجغرافيا، والقرآن يحكي لنا عن الماضين، ولم يحدِّد لنا المكان، ونحن يتعذَّر علينا تحديد المكان ما دام النَّصُّ لم يحدِّده، وإنَّما نقول للسَّائل: إنَّ أمريكا الشماليَّة وأمريكا الجنوبيَّة لم تُعرف إلَّا في زمننا الحاضر، ولهذا سُمِّيت بالعالم

(١) أورده المراغي في تفسيره (١٦/١٦).

الجديد، والقرآن الكريم يحكي لنا عن الغابرين، وذو القرنين عندما سار إلى الغرب رأى الشمس كما نراها اليوم، تغرب وراء الأفق، فلم يعرف إن كان ما وراء الأفق مسكوناً أم لا .

وهنا وددتُ أن أذكر القائد العظيم عقبة بن نافع الذي وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي، وقال: «والله لو علمت أن وراء هذا البحر أرضاً لخضته بفرسي هذه»^(١).

ولعلَّ في سؤال السائل شكاً أن القرآن الكريم لم يذكر أن الشمس لا تغيب، وأقول له: لا، فإنَّ القرآن ذكر ذلك بقوله تعالى: ﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ أَلَيْسَ عَلَى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ دَائِمِينَ عَلَى الْأَرْضِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَلْحَقُ الْآخَرَ فَلَا يَدْرِكُهُ، وَاللَّيْلُ دَلِيلٌ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَالنَّهَارُ دَلِيلٌ طُلُوعِهَا، وَكِلَاهُمَا بَاقِيَانِ بَقَاءِ الْأَرْضِ.



المسيح ابن مريم

السؤال:

سائلٌ يقول: أرجو تفسير الآية الكريمة من سورة مريم حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، وهل عيسى حيٌّ أم ميتٌ؟ وهل ينزل من السماء في آخر الدنيا

(١) انظر: الحلة السيرة، لابن الأبار (٢/٣٢٩)، وردَ بلفظ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَلَا مَجَازٌ وَكَوْ وَجَدْتُ مَجَازًا لَجَزَتْ».



فيقتلُ الدَّجَّالُ كما نسمع من بعض المحدثين؟

الجواب:

هذا هو سؤال السائل الذي لم يذكر اسمه في رسالته، ولم يرمز إليه بحرف، أخرت الإجابة عنه لهذا اليوم للمناسبة، والسؤال ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: تفسير الآية الكريمة (٣٣) من سورة مريم: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، والسلام معناه الاطمئنان والسلامة والحفظ والأمان له ﷺ يوم وُلِدَ، ويوم يموت، ويوم يُبعث بعد الموت، وقد اجتمعت هذه كلها لعيسى عليه الصلاة والسلام فكان محاطًا بعناية الله آمنًا من المخافات يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه إن شاء الله.

أمَّا السؤال الثاني: الذي يسأل فيه السائل هل عيسى حيٌّ أم ميِّتٌ فالجواب عنه: قال الله في كتابه العزيز في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَفِثْتُ فِيكَ رَأْفَعُكَ وَإِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال أيضًا في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنَّكَ عَلَىٰ أَنْ تُقَلِّتَ لِلنَّاسِ خِطَابًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحْتَ لِلَّهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَشْيَةً وَأَنْتَ تَكُونُ مِنَ السُّبِّحِينَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال أيضًا في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ نَفِثْتُ فِيكَ رَأْفَعُكَ وَإِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ١١٧]، وكلمة تُوَفِّي وما تصرف منها وردت في القرآن كثيرًا بمعنى الموت.

من ذلك في سورة النساء في الآية (٩٧): ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُم مَّا كَانُوا فِي سُبْحَانَكَ﴾

[النِّسَاء: ٩٧]، وفي سورة الأنعام في الآية (٦١): ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وفي سورة محمد في الآية (٢٧): ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، وفي سورة الزمر في الآية (٤٢): ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وفي سورة النحل في الآية (٧٠): ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل: ٧٠]، وفي سورة السجدة في الآية (١١): ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

ومن حق كلمتي ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: ١١٧] و﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] أن تُحمَلا على هذا المعنى المتبادر إلى الذهن، وهو الإماتة العادية التي يدركها السامع من اللفظ، لا سيما أنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن معنى كلمة ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فقال رضي الله عنهما: «معناه إني مُميتك»^(١).

والقرآن نزل بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ ليس فيه التباسٌ ولا تعقيدٌ، فهو كما وصفه مُنزلهُ جلَّ جلاله: مُبينٌ غير ذي عوج.

أما قول الله ﷻ: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، أو قوله: ﴿وَرَأْفَعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، فقد ورد الرفع لإدريس عليه السلام بقوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [٥٧] [مريم: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فالرفع معناه التكريم والرضا.

أما نزوله عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان، فوردت فيه أحاديثٌ كثيرةٌ منها ما رواه البخاري ومسلم لا ننكرها - ونعوذ بالله أن ننكرها -

(١) أورده البغوي في تفسيره (٤٦/٢).



بل نؤمنُ بها ونصدّق قائلها صلوات الله عليه وسلامه، لكنّ عيسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصّلاة والسّلام كان آيةً في حمله وولادته ونجاته من شرّ اليهود يوم شُبّه لهم، فالسّلام عليه يوم وُلِدَ ويوم يموتُ ويوم يُبعثُ حيًّا وفي وفاته، وسيكونُ آيةً كذلك في نزوله وقتله الدّجالَ اليهوديّ الَّذي يدّعي أنّه المسيحُ الَّذي تنتظره اليهود، فيفتنُّ به خلقٌ كثيرٌ لما يظهره من الغرائبِ والعجائبِ حتّى يأتي المسيحُ الصّادق ﷺ فيقتله.

المسيحُ الصّادق عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمتهُ يقتل عدوّ الله اليهوديّ المسيحُ الدّجال، بعد حربٍ طويلةٍ تكون بين المؤمنين من جهةٍ واليهودِ وأعاونهم من جهةٍ أخرى، فلا غرابةً لمن كان آيةً للنّاس في حمله وحياته أن يكون آيةً للنّاس قبل نهايةِ حياةِ النّاس، وقد ذكر علماء الحديث نزول المسيح والدّجال في أشراطِ السّاعة.

«تكون قبل خروج المسيح الدجال سنوات خادعة . . .» عن أبي هريرة^(١).



أين هو الضنك (٢)

السؤال:

نقرأ في القرآن قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٨٥١٨).

(٢) الضنك: الضيق. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/٢٥٨).

ضَنَكًا ﴿طه: ١٢٤﴾، ولكننا إذا نظرنا إلى العالم رأينا معيشة من أعرض عن ذكر الله هي الرأضية المرضية، هم الذين يعيشون مرتاحين مستأنسين في لذة من الحياة، كأمریکا وفرنسا واليابان وغيرها من البلاد، فما رأيكم؟

«علي حيدروس»

الجواب:

قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَيْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

ويقول جل جلاله في آية أخرى في سورة النحل رقم (٩٧): ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

أرجو من الأخ السائل علي حيدروس أن ينظر نظرة المؤمن المفكر في حياة الشعوب التي ذكرها، في أوروبا وأميركا وآسيا، والتي يقول إنها تعيش مرتاحة مستأنسة في لذة من الحياة الدنيا، هل هم يعيشون في هذه اللذة حقيقة أم إنهم يفرُّون إليها من نكد الحياة؟

نسمع أخبار الانتحارات وأخبار القلق النفسي الذي تعيشه تلك البلاد، وعدم الاستقرار، والموت من الجوع، وأخبار المخدرات والمهلوسات التي يفرُّ إليها المجتمع ليستريح من شقاء الحياة.

نستمع إلى أخبار الموت المبكر، فهل هذه حياة سعيدة؟

وهل الحياة السعيدة عند المؤمن بالله وكلماته وقدره، يعمل بما أمر الله،



وينتهي عمّا نهى عنه، ويعيش حياته سعيداً بما قسم الله له، ويحيا حياة طيبة آمناً على نفسه من نفسه ومن غيرها، «إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

بالله عليك يا علي: أخبرني أين هي المعيشة الضنك؟ هل هي عند من يعيش آمناً مطمئناً صبوراً، أم عند ذلك الذي يفرُّ إلى اللدّة من القلق، وإلى السكر من العذاب لكي ينسى العذاب، إن كنت مؤمناً فستقول عند الثاني.

ختاماً: أرجو من السائل علي ومن غيره من المشاهدين ألا يغتروا بالمظاهر والرّتوش والديكورات، إن الجوهر هو الجوهر لا يحتاج إلى زينة.



لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى؟

السؤال:

دار بيننا نقاشٌ حول تفسير الآية الكريمة: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾ [طه: ١٢٥-١٢٦]، وأخيراً قرّرنا أن نكتب لكم هذا راجين من فضلكم شرح معنى هذه الآية.

«عصام ورفاقه من ثانوية الفحاحيل للبنين»

(١) رواه مسلم، رقم: (٤/٢٢٩٥).

الجواب:

الإنسان مطالب بالتعلم ولا عذر له في الجهل، واجب عليه وجوباً حتمياً عينياً أن يتعلم أمور دينه، حتى يعرف كيف يتعبّد ربّه، فإذا أراد الحجّ وجب عليه قبل السفر إلى الحجّ أن يتعلم مناسك الحجّ.

وإذا كان تاجراً وجب عليه أن يتعلم فقه التجارة، وأحكام البيع والشراء، وأحكام الدّين والمداينة والعمل، وما يتعلّق بكلّ صنوف العمل حتى يبني عمله على النّظام الذي يريده الله للمسلمين.

أمّا ذلك الذي يتخبّط في عبادته فلا يعرف أحكام الوضوء وشروطه وأركانه ومبطلاته، ولا يعرف أحكام الصّلاة والصّيام والحجّ، ولا شروطها وأركانها ومبطلاتها، ولا يعرف أحكام المعاملات وما يحلّ منها وما يحرم، بل يتخبّط فيها تخبّط الأعمى، هذا الإنسان يُحشّر يوم القيامة أعمى، فيقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]، فيأتيه الجواب من الله ﷻ: ﴿أَنْتَ كَءَايَاتِنَا فَانْسِينَهَا ۖ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦]، وتعاميت عن التّعلم فلم تتعلم، وأمرناك بالعبادة فلم تتعلم أحكامها وأمرناك بالمعاملة مع النّاس فلم تُحسن المعاملة، فأباحت الحرام وتخبّطت في معاملاتك عن جهل، ونسيت أحكام الله، فكذلك اليوم تُنسى، قد عشت في حياتك أعمى البصيرة فحشرت أعمى البصر.





من هو ذو النون في القرآن الكريم؟

السؤال:

قرأت في سورة الأنبياء في الآية (٨٧) قول الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْرِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فمن هو ذو النون؟ وما هي المعصية التي اعترف بها حين كان من الظالمين؟

«مواطن»

الجواب:

ذو النون هو سيدنا يونس نبيُّ الله عليه الصَّلَاة والسَّلَام، وسُمِّي ذا النون؛ أي: صاحب الحوت، وقد ذكره الله بهذا الاسم في سورة القلم: ﴿ت﴾، وبقوله: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وذكره باسمه في أربعة مواضع أو خمسة عند تعداد الأنبياء، كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ [الأنعام: ٨٦]، وكان يونس قد بُعث إلى قومه، فدعا إلى توحيد الله ونبذ عبادة ما يُعبد من دونه، فلم يستجيبوا له، واستعصوا عليه فضاقت بهم صدرًا، وجزع ولم يصبر على معاناة الدعوة، ولهذا يقول الله تعالى لنبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ في سورة القلم: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] كما ذكرنا.

وظنَّ يونس أنَّ الأرضَ لن تضيقَ به، وأنَّه لا بدَّ أن يجدَ في هذه الدُّنيا
الفسيحةَ من يستجيبُ لدعوته فخرج مغاضباً^(١)، وقاده غضبه هذا إلى
شاطئِ البحر، فركب سفينةً كانت ستبحر، وكانت مشحونةً، فما إن
توسَّطت اللَّجَّة^(٢) حتَّى هبَّت عواصفُ أثقلتِ السَّفينةَ وعرضتها للخطر،
وكان لا بدَّ من إلقاء أحدِ رُكَّابها في البحر، فاقترعوا فكانت القرعة على
يونس، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة من سورة الصَّافات رقم
(١٣٩) إلى (١٤٨): ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَمُ الْخُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّدَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾
وَأَبْلَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَأَمَّنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصَّافات: ١٣٩-١٤٨]، وكلمة ﴿فَسَاهَمَ﴾ تشيرُ
إلى القرعة التي كانت عليه، إنَّه لم يصبر على تكاليف الرِّسالة، وضاق
صدرًا بقومه الذين لم يؤمنوا، فأوقعه الله في ضيقٍ أشدَّ وأحلك، إذ التقمه
الحوث وهو نادٍ على ما فعل، وحينها رجع إلى ربِّه قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فاستجاب الله له،
وألغاه الحوث برًّا بأمر الله وإرادته، وبعد ذلك رجع إلى قومه فأمنوا به،
ومتَّعه الله معهم إلى حينٍ كما جاء في سورة الصَّافات.



(١) مغاضباً: مراغماً لقومه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٨٦/٣).
(٢) اللَّجَّة: الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه، ولجَّة البحر: عرضه. انظر: تاج
العروس، للزبيدي (١٨٠/٦).



حَصَبُ جَهَنَّمَ

السُّؤال:

قرأت في القرآن الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]^(١)، علماً أن بعض الناس يعبدون أنبياء، وبعض الناس يعبدون أولياء، فكيف يكون هؤلاء الأنبياء والأولياء في النار؟

«أبو صلاح من البصرة»

الجواب:

نقرأ الآية كاملة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [٩٨] لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءَ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ [٩٩] لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ [١٠٠] إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ [١٠١] لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ [١٠٢] [الأنبياء: ٩٨-١٠٢]، ومعنى ذلك أن عبدة الأوثان والأصنام وما يعبدون من دون الله من أوثانٍ وأصنامٍ وقودٌ جهنم، هذه الآية تؤيدها الآية الكريمة من سورة البقرة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فهم وآلهتهم في جهنم.

(١) الحصب: الحجارة، وقال الأزهري: الحصب: هو الحطب الذي يُلقى في تنورٍ أو في وقودٍ، فأما ما دام غير مستعمل للسجور فلا يُسمى حصبًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/٢٨٣).

١- كَلَّمَا رَأَوْهُمْ أَزْدَادُوا غَمًّا وَحَسْرَةً؛ لِأَنَّهُمْ عَبْدُوا آلِهَةً لَنْ تَنْفَعَهُمْ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ سَيُشْفَعُونَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَإِذَا اسْتَبَانَ لَهُمْ خِلَافَ مَا ظَنُّوا أَزْدَادُوا حَسْرَةً وَعَذَابًا.

٢- إلقاءهم في النار استهزاءً بهم وبما يعبدون.

فالأصنام التي كانت لا تنفع أنفسها، ولا تدفع الضرر عنها أبعد من أن تدفع الضرر عن غيرها، فهي مع عابديها خالدة مخلدة في النار، لهم فيها زفير من شدة العذاب، وهم فيها لا يسمعون من شدة الهول.

أما الذين سبقت لهم من الحسنی، كالمسيح ﷺ وعزير وغيره من الصالحين من الأنبياء والأولياء الذين سبق لهم التوفيق للطاعة، وأخبتوا لله^(١)، وأخلصوا العمل له فهو لاء لا يدخلون النار، ولا يقربونها، ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾^(٢) [الأنبياء: ١٠٢]، ولا يرون اضطرابها وحركتها وشدة توهجها.

وهم فيما اشتهدت أنفسهم خالدون في نعيم لا ينقطع، وسرور دائم، لا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا يخيفهم هول القيامة يوم يُنفخ في الصور، ويفزع من في السموات والأرض، ولكنهم في هذا اليوم تتلقاهم الملائكة بالبشرى جزاء إيمانهم بالله وطاعتهم له.

فالأنبياء لا ذنب لهم؛ لأنهم لم يطلبوا من الناس أن يعبدوهم، والقرآن يقص علينا في آخر سورة المائدة قصة عيسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعِينِي أَبْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ

(١) أخبتوا لله: خشعوا وتواضعوا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/٥٠٣).

(٢) الحسن والحسيس: الصوت الخفي. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢/٨٧٠).



اللَّهُ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧]،
وكهذا كان سائر الأنبياء، أمروا النَّاس بتوحيد الله، ولم يدعوا أحداً لعبادتهم أو تأليههم، وكذلك الصَّالِحون من عباد الله من أُمَّة محمَّدٍ وغيرها من الأمم، فما ذنب هؤلاء حتَّى يُحشروا إلى جهنم، والله ليس بظلام للعبيد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].



ميراث الأرض لمن؟

السؤال:

وردت في القرآن آية: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فما معناها؟

«خلود»

الجواب:

هذه الآية في آخر سورة الأنبياء، ورقمها (١٠٥) الجزء (١٩).

معناها: أن الله جلَّ شأنه قدَّر في الأزل أن الرِّفعة والجاه في الأرض وعلوَّ الشَّان بين الأمم لا يكون إلا للأُمَّة تمسَّكت بالأخلاق الكريمة

والمثل العالية والعادات الطيبة، وهذا ما وعد الله به هذه الأمة حين قال لها في سورة النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

والإيمان والعمل الصالح صفتان لا تفترقان، والمستمعون الكرام يجدون في القرآن الكريم دائماً اقتران الإيمان بالعمل الصالح، مثل ذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقوله تعالى في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

نفهم من هذه الآيات ومن غيرها في القرآن الكريم: أن النجاح والفوز والعلو والرفعة وسمو المكانة لا تكون إلا لقوم آمنوا بدينهم، وتمسكوا بمكارم أخلاقهم.

أما أولئك الذين تنكروا لدينهم وأخلاقهم فما أقربهم من الموت المعنوي، موت الذلة، علماً أن الأمم تحتضر ولا تموت، وقد حذرنا القرآن الكريم من التنكير لديننا وأخلاقنا فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩]، وقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾



[الحديد: ١٦]، وآيات كثيرة غيرها، والرَّسول ﷺ يحذّر أصحابه من فساد الأخلاق وانتشارها والمهاجرة بها، فيقول: «يا معشر المهاجرين: خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذُ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ، حتَّى يعلنوا بها، إلَّا فشا فيهم الطَّاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلَّا أخذوا بالسَّنين، وشدَّة المؤونة، وجور السُّلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلَّا مُنعوا القطرَ من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلَّا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمَّتهم بكتاب الله، ويتخيروا ممَّا أنزل الله، إلَّا جعل الله بأسهم بينهم»^(١)، ولعلَّه يقصدُ بالأمراض الخَلقيَّة منها؛ لأنَّ الأوجاع هي الأمراض بالمعنى اللَّفظيِّ، والقطر هو المطر.

على كلِّ حالٍ أقول للسَّائلة: إنَّ الله لا يظلم النَّاس شيئًا، ولكنَّ النَّاس أنفسهم يظلمون، وإنَّ الإيمان والعمل الصَّالح في الأُمَّة يرفعُ مكانة الأُمَّة، والفساد يُضعفها ويسلِّط عليها عدوَّها.



تبارك الله أحسن الخالقين

السُّؤال:

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٠١٩).

قال الله ﷻ في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، فما معنى قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؟ [التين: ٤].

«العلاوي»

الجواب:

ليس هناك من يخلق إلا الله، وكلمة «أَحْسَنٍ» لا يُقصد بها تفضيلٌ، وإنما جاءت هنا للحُسن المطلق في خلق الله لبني آدم، الذي خلقه الله في أحسن تقويم، منذ بداية النشأة وهو نطفة، حتى جعله خلقاً آخر متكاملًا، خلقه أولاً من سلالَةٍ من طينٍ، ثم قلبه في أدوار الخلقِ وأدوار الفطرة، فكان هذا الطين نطفةً في صلب الأب، أنزله في قرارٍ مكينٍ، في كيس المشيمة والرحم المغلق والحوض وهذا هو القرار المكين، يتغذى ويتنفس إلى قدرٍ معلوم من الزمن، فكيف يتغذى ويتنفس؟ لا يعلم ذلك إلا الله، ثم تحوَّلت النطفة - ذلك الحيوان المنوي الذي لا يرى بالعين المجردة - إلى علقَةٍ اتَّحدت مع بويضة الأنثى فتكوَّنتا مُضْغَةً؛ أي: قطعة لحم بقدرٍ ما يمضغه الإنسان، ثم كانت هذه المضغَةُ عظامًا، والعظام لها طابعٌ خاصٌ تتكوَّن من موادَّ تختلف عن موادَّ اللحم، فكيف تكوَّنت تلك المضغَةُ عظامًا؟! أمرٌ لا يعلمه إلا الخالق جلَّ شأنه، ثم بعد ذلك كسا الخالق جلَّ جلاله العظام لحمًا، إنَّه نظامٌ دقيقٌ وصنعةٌ محكمةٌ لا يعلمها إلا من يهبُ الرُّوح، إنَّه الله جلَّ جلاله أحسن الخالقين، خالق الإنسان والخيرات والبركات، المستحقُّ للثناء والتَّعظيم والعبادة جلَّ



جلاله، لا معبودَ سواه، ولا إله غيره.

النَّحَّاتُونَ وَالْمَصُورُونَ كَثُرُوا، وَكُلُّهُمْ يَبْدَعُ وَيَتَفَنَّيْنَ فِي إِبْدَاعِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهَبَ حَرَكَةً لَمَّا يَنْحَتُ، وَلَا أَنْ يُودِعَ رُوحًا فِيمَا يَصْنَعُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، فَهُوَ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.



يمشون هوناً

السُّؤال:

قرأتُ ما معناه: أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه رأى شاباً يمشون الهوينى، ويتكاسلون في مشيتهم، فأمرهم رضي الله عنه أن يمشوا بقوة وأن يسرعوا في المشية، فكيف يتفق هذا مع قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؟

«سهام»

الجواب:

شَتَانٌ بَيْنَ مَعْنَى هَوْنٍ بِفَتْحِ الْهَاءِ وَسُكُونِ الْوَاوِ، وَهُوَ بَضْمُ الْهَاءِ، وَهُوَ هَوْنٌ؛ فَالْهُونُ الْبَطْءُ فِي الْمَشْيِ وَالتَّكَاثُلُ فِيهِ، وَالْهُونُ مِشْيَةٌ طَبِيعِيَّةٌ سَهْلَةٌ لَا تَلْفِتُ النَّظْرَ، لَيْسَ فِيهَا خِيَلَاءٌ وَتَكَلُّفٌ وَتَصْنَعٌ وَتَصْغِيرٌ خَدٌّ وَتَخْلُوعٌ وَتَرْهَلٌ، بَلْ فِيهَا اطمئنانٌ لِنَفْسِ الرَّائِي، فَلَا مَرَحَ وَلَا تَبَخَّرَ وَلَا اخْتِيَالَ.

أَمَّا الْهُونُ فَهُوَ الدَّلَّةُ، كَمَا قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَالْيَوْمَ نُجْزُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾

وخيرُ مشيةٍ نعرف بها صفة الهون مشية رسول الله ﷺ، فقد كان عليه الصلاة والسلام أسرع الناس مشيةً، وكأنه مُنحدرٌ من علوٍّ، يقول واصفٌ مشيته عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه: «إذا مشى تكفأً»^(١) تكفؤًا كأنما ينحطُّ من صيبٍ»^(٢)، ويقول ابن قيم الجوزية حين وصف مشية الرسول ﷺ: «وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة»^(٣).

والهونا التي تسأل عنها السائلة هي المشية المائعة التي لا تليقُ بالشباب المسلم ولا بالكهول، وأسأل الله أن يهدي الجميع إلى التحلي بصفات عباد الرحمن الذي قال تعالى فيهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].



لون سيدنا موسى

السؤال:

المُدْرَسَةُ «ط» تقول: قال تعالى في الآية (١٢) من سورة النمل حكايةً عن سيدنا موسى ﷺ: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]، أفهم من هذه الآية أن لون سيدنا موسى لم يكن أبيض، فهل كان لونه أسمر أم أسود؟

- (١) تكفأ: أي تمايل إلى قدام. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/١٨٣).
 (٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٦٣٧)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح.
 (٣) انظر: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية (١/١٦١).



الجواب:

جاء ذكر اليد في القرآن خمس مرات:

١ - في سورة الأعراف في الآية (١٠٨): ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨].

٢ - في سورة النمل في الآية (١٢): ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢].

٣ - في سورة الشعراء في الآية (٣٣): ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٣].

٤ - في سورة طه في الآية (٢٢): ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٢٢].

٥ - في سورة القصص في الآية (٣٢): ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص: ٣٢].

وكان البياض المشار إليه أنه بياض يخالف لون بشرة سيدنا موسى عليه السلام، فقد كان كما يُقال عنه: إنه آدمُ البشرية؛ أي: أسمرٌ شديد السُمرة، والأدمة: السُمرة.

وأصل إبراهيم من العراق، ثم نزع إلى فلسطين، فعاش فيها ولده إسحاق وذريته، وعاش إسماعيل في الحجاز ثم انتقلت ذريته يعقوب إلى مصر، وفيها ولد موسى وأخوه هارون، فلا مانع أن يكون موسى أسمرَ البشرية، والبياض المشار إليه في الآيات كان من غير سوء؛ أي: ليس بياض برص يشمئز منه الناظر، بل كان بياضاً من غير سوء يسيء إلى اليد أو صاحبها أو الناظر إليها، وإن استنتاج الأخت السائلة «ط» كان موقفاً.



ميراث الأنبياء

السؤال:

هناك حديثٌ للرَّسولِ ﷺ يقول فيه: «لا نُورَثُ، ما تركنا صدقةً»^(١)، وفي القرآن الكريم آياتٌ تناقضُ هذا الحديثُ مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦]، فما سبب هذا التناقض؟

«فؤاد عبد الحميد جواد»

الجواب:

الحديث صحيحٌ، والأنبياءُ لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظِّ وافِرٍ، وورث سليمانُ داودَ في العلمِ والنبوةِ والملكِ والحكمِ لا في المالِ، يفسرُ هذا ما حكاه الله على لسانِ سليمانَ: ﴿عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، ومنطقُ الطَّيْرِ علمٌ، وقد قالها سليمانُ ثناءً على الله سبحانه وتعالى، وتحدثًا بنعمه، أمَّا قولُ زكريَّا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦] فلم يُقصد به المالُ؛ لأنَّ آلَ يعقوبَ لم يتركوا مالًا، وإنما تركوا نبوةً وعلماً ومحافظةً على الدينِ، وعلى الدَّعوةِ إليه؛ وقد قال في آخرِ دعائه: ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، ومعنى رَضِيًّا: أنَّه يعمل ما

(١) رواه البخاريُّ، رقم: (٦٧٢٧)، ومسلم، رقم: (١٧٦١).



يرضيك فلا تغضب عليه، لهذا لَمَّا وُلِدَ يحيى عليه السلام وقد بُعِثَ شابًّا قال الله تعالى: ﴿يَجِيئُ حُذِيَ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَيْنَتُهُ الْحُكْمُ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، والحكم معناه: الفهم والإدراك، وآتاه الله حنانًا يتحنن به على الناس، ويتعطف به عليهم، وآتاه زكاةً وبركةً، وأعطاه طهرًا ونماءً، وقال الله تعالى عنه: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

أذكرُ السَّائل: أنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظِّ وافر، فداود كان ملكًا، ولكنَّه لم يورث دينارًا، وإنَّما ورث حكمًا وعلماً وفقهاً، ورثها كلُّها سليمان من أبيه داود، وزكريَّا لم يورث دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورث نبوةً وحكمةً وعلماً، ورثها منه يحيى.

والعلماء ورثة الأنبياء؛ لأنَّهم أخذوا الحظَّ الوافر من العلم الذي صاروا به ورثة الأنبياء.

وقبل أن أختتم جوابي للسَّائل فؤاد، أحبُّ أن أذكر له حديثًا يثبت أنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وأنَّ الأنبياء لم يتركوا فضةً ولا ذهبًا ولا دولارًا ولا عقارًا، وإنَّما تركوا العلم، في حديثٍ رواه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من سلك طريقًا بيتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا، ولا درهمًا، إنَّما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظِّ وافر»^(١).



(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٨٢).

موسى في مدين

السؤال:

أرجو تفسير الآية الكريمة: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ [القصص: ٢٧]، من الذي يريد أن يزوج موسى ﷺ إحدى ابنتيه؟

«ساطي محمد يوسف»

الجواب:

الآية التي يسأل عنها الأخ السائل هي من سورة القصص، ورقمها (٢٧)، ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام بعد خروجه من مصر هارباً، ذهب إلى مدين، وهي مدينة من مدن فلسطين معروفة، كانت في الضفة الغربية، وزرتها قبل سنة (١٩٦٧م)، وتعرف الآن باسم مدينة شعيب.

وقبل دخوله المدينة مرَّ على المورد، وهو بئر ماء يسقي منه الناس أغنامهم، ولحظ موسى ﷺ امرأتين تزدودان؛ أي: تسوقان غنماً أو إبلاً، والأولى أنهما كانتا تدفعان غنمهما عن مزاحمة الرعاة الذين يسقون أنعامهم، ورأى عليهما آثار التعب والحياء، فسألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: ٢٣]؛ أي: حتى ينتهي الرعاة من سقي حيواناتهم، ولكن موسى عليه الصلاة والسلام - وهو الأريحي الشاب ذو النخوة - شمر عن ساعديه وسقى لهما، ثم جلس في ظل شجرة تعبان جائعاً، ورفع يديه إلى السماء، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ



مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿[الْقَصَص: ٢٤]﴾، فهو في خيرٍ من الشباب والصحة والقوة، ولكنه محتاجٌ إلى لقمةٍ يسدُّ بها جوعته، وذهبت الفتاتان إلى أبيهما فقال: ما لكما أتيتما سريعاً؟، فقصتنا عليه قصة الشاب، وهو الرجل الذي لا ابن له، والشيخ الكبير العاجز الذي لا يستطيع أن يباشر عمله في رعاية حيواناته، فأرسل إحدى البنتين لتناديه، لعله يستطيع أن يكافئه على حسن معونته، يصورُ الله ذلك الموقف بقوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [الْقَصَص: ٢٥]، فجاء موسى معها، ولقي الرجل، وعرف أنه رجلٌ صالحٌ، وقصَّ عليه قصته مع فرعون، وأنه قتل منهم شخصاً، ويخاف أن يُقتل، وأنه فرَّ من مصر، فأنس به الرجل وقال له: لا بأس عليك ولا تخف، لأنك نجوت من القوم الظالمين، وأنا رجلٌ لا ابن لي، وأريد أن أزوجه إحدى ابنتي هاتين، على أن تعمل عندي ثماني سنواتٍ في رعاية غنمي أو حيواناتي، وإذا أتممت العشر فهذا فضلٌ منك.

وكلمة ﴿أُنكِحَكَ﴾ [الْقَصَص: ٢٧] تعني: أزوجه، والنكاح يُطلق على عقد الزواج، وقد يُطلق على الخطبة والجنس، أمَّا الرجل الذي زوج ابنته لموسى فهو النبيُّ شُعَيْبٌ ؑ على أرجح الأقوال، وهناك قولٌ أنه رجلٌ صالحٌ غير النبيِّ المعروف، ولعله تشابهه في الأسماء^(١).



(١) أورده المراغي في تفسيره (٥٠/٢٠).

الغابرون والرّجز

السؤال:

«مواطن» يسأل عن معنى الآيتين من سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ ۗ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [٣٤] [العنكبوت: ٣٤]، ويسأل عن معنى الكلمتين: ﴿الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] و ﴿رِجْزًا﴾ [العنكبوت: ٣٤]، وأين كانت مساكن قوم لوط؟

الجواب:

وجوابي للأخ المواطن عن مساكن قوم لوط: لا علم لنا إلا ما علّمنا القرآن، وقد علّمنا هذا الكتاب الذي نؤمن أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن مساكن قوم لوط عند مصبّ نهر الأردن، فقد جاء في سورة العنكبوت في الآيات التي سألت عنها المواطن قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٣٥] [العنكبوت: ٣٥]، والآية البيّنة هي البحر الميت، أو بحيرة لوط التي تُسمّى بهذين الاسمين، وجاء في سورة الصافات قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَنُؤْمِنُ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ [٣٧] [الصافات: ٣٧]، وبالليل أفلا تعقلون ﴿١٧٨﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، يمرّون عليهم في طريق تجارتهم إلى الشام، معنى هذا أن ديار قوم لوط في البقعة المسماة اليوم البحر الميت، في مصبّ نهر الأردن جنوب الغور.

و ﴿الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]: جمع غابر أو أغبر، وهو الذاهب بالذکر



السَّيِّئِ، ومعنى ﴿رَجَزًا﴾ [العنكبوت: ٣٤]: العذاب، فامرأة لوطٍ كانت من الغابرين، وهلكت مع الكافرين بذكرٍ ليس فيه حمدٌ ولا ثناءً، وقوم لوطٍ هلكوا بعذابٍ من السَّماء، وبرجفةٍ قلبت عليهم ديارهم، وأبقت هذه البحيرة مكانها، لا ينتفع منها ظمآنٌ ولا يعيش فيها حيوانٌ.



الحيوان

السُّؤال:

يقول الله ﷻ في سورة العنكبوت: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، في أيِّ سورةٍ من القرآن هي؟ وما معناها؟

«عبد الباقي صالح من العراق»

الجواب:

الآية من سورة العنكبوت، ورقمها: (٦٤)، يوجّه الباري ﷻ بها المسلمين لإدراك أنّ هذه الحياة فانيةٌ، وأنّ كلّ نفسٍ ذائقةُ الموت، والمرجع بعد ذلك إلى الله، فالَّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لهم حياةٌ خالدةٌ في جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، والَّذين أساءوا لهم حياةٌ خالدةٌ في عذابٍ دائمٍ، والحياة الدُّنيا لعبٌ وعبثٌ ولهوٌ واشتغالٌ بما يفنى ولا ينفعُ ولا يفيدُ، أمّا الحيوان- ومعناه الحياة الدّائمة الخالدة - فهي الآخرة.

الحياة الدنيا حياة يتكالب عليها الناس وهم يعلمون أنها سريعة الزوال والانقضاء، وأن الإنسان مهما بلغ فيها من عمرٍ فهو إلى فناء، وأمّا الدار الآخرة فهي حياة الخلود، لا زوال فيها ولا انقضاء، يقول الله ﷻ ذلك ترغيباً في العمل الصالح والتربية السليمة والخلق الطيب، ففي أول الآيات ينادي جلّ جلاله عباده: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦-٥٧]، وفي آخر الآيات يقول الله جلّ شأنه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].



غُلِبَتِ الرُّومُ

السُّؤال:

ما معنى الآية الكريمة: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرُّوم: ٢-٣] وما مناسبة نزولها؟ وهل تحقّق ذلك في العصر القديم؟

«محمدّ العنزي»

الجواب:

كان الفرس والرُّوم أعظم دولتين في الأرض أيام البعثة النبويّة، وكانت إحداهما في الشرق وهي فارس، والأخرى في الغرب وهي الرُّوم، وكانت الحروب قائمةً بين الدولتين، وقبل الهجرة بخمس سنين غلّبت جيوشُ



الفرس جيشَ الروم، فاحتلُّوا جميع الأناضول، ووقفوا على ساحل البحر المعروف ببحر مرمرة الفاصل ما بين البحر الأسود والأبيض المتوسط.

كان ذلك سنة (٦١٧م)، وقد فرح المشركون بهذا الانتصار فرحاً شديداً؛ لأنَّ الفرس وثنيون عبدة نارٍ وأصنام، والروم كانوا نصارى كتابيين، ومشركو مكة فرحوا بانتصار الفرس - لأنَّهم مشركون - على الروم لأنَّهم نصارى وأهل كتابٍ وأتباع نبيٍّ، وأعلنوا شماتتهم بمحمد ﷺ وأصحابه، لكنَّ الله جلَّ جلاله أنزل على عبده محمد أن الروم بعد هذه الهزيمة سيغلبون، وحدد الأجل لذلك ببضع سنين، والبضع ما بين (٣) و(٩)، وفي سنة (٦٢٢م) وفي عام الهجرة جهَّز الروم جيشاً قوياً لمحاربة الفرس من جديد، وفي سنة (٦٢٨م) تقلَّصت مملكة الفرس بعد أن استردَّ الروم جميع أملاكهم التي كانت تحت سلطان الفرس، وصدق الله العظيم وعده لرسوله ﷺ بقوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٢-٤]، علماً بأنَّ هذه الحرب أضعفت الدولتين، فخرَّبت الديار، وأفقرت النَّاسَ، وأشاعتِ الفتنَ، وهياً الله بهذه الحرب السَّبيلَ إلى نصر المسلمين على الدولتين، والآية الكريمة هي أوَّل سورة الروم، السُّورة الثلاثين في كتاب الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الرُّوم: ١-٦].



ما قبل وبعد الآية

السؤال:

ما معنى الآية الكريمة من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؟

«ابتسام العيثاوي»

الجواب:

قلتها مراراً عدّة: من يسأل عن تفسير آية لا يقطعها ويسأل عن جزء منها، إنه لا بدّ للآية الكريمة أن تكون لها علاقة بالآيات التي تكون قبلها أو بعدها، هذه الآية التي سألت عنها ابتسام كان لا بدّ أن تُقرأ كاملة مع ما قبلها وما بعدها، وهي مرتبطة بستّ آياتٍ كريماتٍ، من الآية (٤٠) إلى الآية (٤٥) هي:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِثَّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، وهنا يخبرهم جلّ شأنه أنّ وجودهم ورزقهم وموتهم وبعثهم بيد الله وحده، فهل هذه الأصنام التي يعبدونها تعطيهم مثل ما يعطيهم الله؟

ثمّ تأتي الآية التي بعدها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ومعناها: إذا كان فسادٌ جوّ، أو فسادٌ إنتاج، أو زوابع، أو قلةٌ بركة، أو اختلالٌ آمن، أو أمراضاً وأوبئةٌ في البرّ والبحر، فإنّ هذه الأشياء كلّها نتيجةٌ



لفسادٍ في طبيعة النَّاسِ، وسوءِ أعمالِهِم، والله لا يظلم النَّاسَ، ولكنَّ النَّاسَ أنفسهم يظلمون.

ثم تأتي الآية الثالثة وهي: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٢]، إنَّهم كَذَّبُوا رسولَ الله، وطغوا في الأرض وأفسدوا، فسَلَّطَ اللهُ عليهم الأمراضَ والفقَرَ وسوءَ الإنتاجِ وظلمَ المسيطرينَ الَّذِينَ استعبدوهم وسلبوهم حرَّيتهم، أو أنَّ الله سلَّطَ عليهم زلزالًا كما سلَّطه على ثمود، أو خسفًا كما سلَّطه على قوم لوط، أو ريحًا صرصرًا دفنتِ المدنَ والقرى كما سلَّطها على قوم عاد، أو غرقًا بفيضانٍ طاغٍ كما سلَّطه على قوم نوح، والله ﷻ لا يُعجزُه شيءٌ.

ثم تأتي الآيات الثلاث نصيحةً لمحمدٍ ﷺ وأُمَّته، وهي:

﴿فَاقْرَأْ وَجَاهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [٤٣] مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٣-٤٥]، ومعناها تمسكُ أيُّها المسلم بدينك قبل أن يأتِكَ اليوم الأخير من حياتك، فالعمل الصَّالح نافعٌ لك في حياتك وآخرتك؛ لأنَّ الله وعد من عمل صالحًا بالحياة الطَّيِّبة في دنياه وآخرته.



أعرف النَّاسَ بِاللَّهِ الْعُلَمَاءَ

السُّؤال:

ما معنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]؟ من هم هؤلاء العلماء؟ هل هم علماء الدين؟ أم علماء العلوم الدُّنيويَّة؟

الجواب:

السَّائل لم يفهم معنى الآية، المعنى أيُّها الأخ السَّائل:

إنَّ العلماء هم الَّذِينَ يَخْشُونَ اللَّهَ وَيَخَافُونَهُ؛ لِأَنَّهُمْ عُلَمَاءُ، وَرَأْسُ الْعِلْمِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ، وَالْعَالِمُ أَيًّا كَانَ عِلْمُهُ إِذَا كَانَ عَقْلُهُ مَدْرَكًا عَرَفَ اللَّهَ مِنْ خِلَالِ عِلْمِهِ، فَالطَّيِّبُ مَثَلًا، لَا سَيِّمًا الَّذِي شَرَّحَ الْجِسْمَ الْبَشَرِيَّ، وَعَرَفَ تَرْكِيْبِيَهُ، أَدْرَكَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الْمَصُوِّرُ، وَوَصَلَ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْعِلْمِ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذَّارِيَّاتِ: ٢١]، وَكَذَا عَالِمُ الْجِيُولُوجِيَا وَالْكِيْمِيَاءِ وَالذَّارِسِ لِعِلْمِ الْحَيَوَانَ، كُلُّهُمْ يُوْصَلُهُمُ الْعِلْمُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، وَلَا نَنْسَى ذَلِكَ الْأَعْرَابِيَّ الَّذِي نَظَرَ إِلَى الزَّهْرَةِ الَّتِي تَنْبَتُ فِي الْبَرِّ، فَأَبْصَرَ وَرِيْقَاتِيْهَا، ثُمَّ أَبْصَرَ لَبَّهَا وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ تَشْهَدِينَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ رَأَى رِقَّةً فِي الْمَخْلُوقِ، وَقُدْرَةً وَعِظْمَةً فِي الْخَالِقِ، مَجْتَمِعَةً كُلَّهَا فِي زَهْرَةٍ، فَشْهَدَ أَنَّ لِهَذِهِ الزَّهْرَةَ خَالِقًا، وَأَنَّ لِسَانَ حَالِيهَا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

جوابي للسَّائل: إنَّ الْعُلَمَاءَ عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، لَا كَمَا يَعْرِفُهُ



الجُهَّال، وعرفوا عظمته وقدرته وإبداعه، وأنه أوجد من العدم شيئاً،
 فلهذا كانوا أكثر النَّاسِ معرفةً به، فخافوه أكثرَ ممَّا يخافه الجُهَّال، فالعالم
 أشدُّ خشيةً لله من غيره؛ لهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
 الْعُلَمَاءُ﴾ [فَاطِر: ٢٨].



حركة الأرض والشمس

السُّؤال:

«مستمعٌ من ولاية قسنطينة بالجمهورية الجزائرية» يسأل: ما تفسير
 الآية الكريمة من سورة «يس»: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ
 الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]؟ وما موقف هذه الآية من النظرية العلمية
 التي تقول: إنَّ الأرضَ هي التي تدور حول الشمس؟

الجواب:

لا خلاف بين منطوق الآية وبين النظرية العلمية التي تقول: إنَّ
 الأرضَ هي التي تدور حول الشمس، فالشمس تجري سابحةً في الفضاء
 في علم الله حتى تنطفئ جذوتها، وتوابعها تابعة لها، وتوابع التوابع تابعة
 للتوابع، والكلُّ يجري إلى مسمى، كما قال ﷻ في آية بعدها: ﴿وَكُلٌّ فِي
 فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، واسمع الآيات الأربع من سورة يس: ﴿وَأَيُّهُ
 لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [٣٧] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا
 ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [٣٨] وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ
 [٣٩] لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس: ٣٧-٤٠]، فالشمس تجري في هذا الفضاء الهائل الذي لا نهاية له بقدرة ربها الخبير بجريانها ومصيرها، والأرض تجري خلف الشمس إلى مصيرها، والقمر يجري خلف الأرض إلى مصيره، ولكل نجم أو كوكب مجرّى لا يتجاوز في جريانه أو دورانه تتبعه توابعه، والمسافات بين الكواكب والنجوم لا تُقَدَّر بالأميال ولا بملايين الأميال، والله جلّ شأنه خالق هذا الكون العظيم قدّر هذه المسافات بحكمته، فلا تصادم ولا تصدّع، فلا يدرك نجمٌ نجماً، بل كلٌّ يسبح في فلكه ويجري في مساره، فسبحان الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى.



وضرب لنا مثلاً

السؤال:

«علي مصري من سوهاج» يسأل: ما معنى الآية الكريمة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) [يس: ٧٨-٧٩].

الجواب:

أقول لعلي: إن هذه الآية في سورة «يس»، ويحسن بالسائل أن يقرأ الآية التي قبلها، قبل أن يسأل عن معناها، فاقراً أولاً: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنْآ خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) [يس: ٧٧-٧٩].



ومعناها: ألا يرى هذا الجاحد الكافر الذي ينكر البعث يوم القيامة من أي شيء خُلِقَ؟! ألا يعلم أنه خُلِقَ من أحسّ شيءٍ وأحقره، إنه خلق من ماء مهين، ثم هو بعد ذلك يُفَرِّط في خصومته لله، ويعرب عمّا في نفسه من كفرٍ به وجحودٍ بنعمته، حيث أوجده بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وأنعم عليه بالسَّمع والبصر والعقل والإدراك، ثم يأخذ العظم البالي ويقول بأعلى صوته: من يحيي العظام وهي رميم؟ وكان هذا الكافر الذي قال هذا القول أخذ بيده عظماً بالياً وفته، ثم التفت إلى النَّبِيِّ ﷺ، وقال له: أترى أن ربك يحيي هذا بعد أن رمّم؟^(١) وقد أجابه الله ﷻ بقوله: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]؛ أي: يحييها الذي خلقها من العدم، وجعلها شيئاً مذكوراً، وبعثها كما أنشأها وبدأها، وذلك أهون عليه، فالبعث أسهل من الإنشاء، والله الذي خلق من العدم شيئاً، وخلق من النُّطفة بشراً، وخلق من التُّراب شجراً، ومن الشَّجر الأخضر ناراً، قادرٌ على أن يحيي العظام وهي رميمٌ.



قَطْنَا: نصيبنا

السُّؤال:

«مواطن» يسأل عن معنى الآية: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، ثم يقول: هل هي صحيحة أم خطأ مطبعي؟

(١) رمّم: بلي. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨١/٣٢).

الجواب:

خيرٌ للأخ السائل المواطن لو قرأ الآيات التي قبلها من الآية (١٢)، يقول تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ [ص: ١٢-١٧].

وقبل أن أشرح لك مختصراً معنى الآيات أقول: إن معنى كلمة قِطْنَا نصيبنا أو حسابنا أو جزاؤنا أو أجرنا، وهؤلاء الأقسام الكفرة: قوم نوح وعاد وفرعون وثمود ولوط وشعيب كلهم كذبوا رسلهم واستحقوا العذاب؛ ولأنهم استهزؤوا برسولهم الذين أنذروهم ليوم الحساب هددهم هؤلاء الرسل بالعذاب الذي سينالونه في الدنيا والآخرة، ولكن ركبهم الغرور، فقالوا: ربنا عجل لنا قِطْنَا في الدنيا قبل الآخرة؛ أي: عجل هذا الحساب أو الجزاء الذي يندرنا به الرسل إن كانوا صادقين.

ثم يسأل المواطن عن معنى قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، ولا فاصل بين كلمة ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وكلمة ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ [الزمر: ٤٢]، فالكلام متصل، والوقف عند كلمة ﴿مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، والنائم كالميت لا يشعر بما يجري عنده، فهو حاضرٌ بجسمه، وغائبٌ بروحه، توفى الله نفسه إلى أجلٍ قصيرٍ، فمتى انتبه من نومه عادت إليه نفسه، أمّا إذا قضى عليه الموت فلا، وكم من إنسانٍ نام ولم يستيقظ! نعرف منهم كثيراً من أصدقائنا وأهلينا.





لو وليت

السؤال:

أرجو التَّفَضُّل بتفسير الآيات (٥٦) و (٥٧) و (٥٨) من سورة الزُّمَر: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٦-٥٨].

«ساطي محمد»

الجواب:

قبل أن أجيب، أحبُّ أن أقول للسائل الكريم: هناك جوابٌ بعد هذا التَّمَنِّي وهو: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزُّمَر: ٥٩].

والمعنى: يحذّر الباري ﷻ عباده من الانجراف خلف دعاة الباطل، وهو الذي أطعمهم بعفوه وسقاهم، ووهب لهم عقلاً يدركون به، وهياً لهم الفرصة في هذه الحياة؛ ليدوقوا لذة الهدى قبل أن يأتيهم الموت، وقبل أن يفجأهم العذاب من غير إنذارٍ ولا مقدمات، حتّى لا يقول أحدهم: يا حسرتي على ما فرّطت في جنب الله، حين كنت أسخر من الذي يهديني، أو يقول: يا ليتني أرجع إلى الحياة حتّى أفعل الخير أو أهتدي، فإذا قال هذه الكلمات، قيل له: اسكت، فقد كنت في فرصة، ولكنك ضيعتها، كما يُقال لأهل النار: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨].



وراثه الأرض والجنة

السؤال:

«محمد» يقول: يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ [الرُّمَر: ٧٤]، ما معنى هذه الآية؟ وما الصلة بين وراثه الأرض والجنة؟ وهل يعني ذلك أن الغلبة ستكون للمؤمنين في النهاية بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ﴾ [الرُّمَر: ٧٤]؟ وهل هي أرضنا هذه التي نعيش عليها؟

الجواب:

على السائل محمد أن يقرأ الآيات المتعلقة بهذه الآية، فالمقصودُ فيها: سير المتقين مسرعين إلى الجنة، يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الرُّمَر: ٧٣] وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ [الرُّمَر: ٧٤]، والمعنى أن المتقين يساقون يوم القيامة إلى الجنة جماعاتٍ جماعاتٍ، كما قال الله ﷻ: ﴿زُمَرًا﴾ [الرُّمَر: ٧١]، بحسب رتبهم في الفضل والشرف سراعًا؛ ليفوزوا بالإكرام الذي أعدَّ لهم.

حتى إذا جاؤوا الجنة وجدوا أبوابها مفتحة، كما قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]، فتستقبلهم الملائكة



بِالْتَّرْحِيبِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ، يَقُولُونَ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ نَفْسًا، وَقَرَّتْ أَعْيُنُكُمْ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ الْمُقِيمِ لَكُمْ، فَادْخُلُوا الْجَنَّةَ خَالِدِينَ، وَنَعْمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ.

فَإِذَا رَأَوْا النَّعِيمَ قَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ، وَمَعْنَى الْأَرْضِ: الْمَكَانُ الْمُعَدُّ لِلْإِسْتِقْرَارِ، اسْتَقَرَّ فِي الْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ، وَالْأَرْضُ أَيْضًا: الْمَكَانُ الزَّاهِي كَثِيرُ الْعَشْبِ وَالْخَضْرَاءِ، وَحَسُنُ الْمَنْظَرِ، وَفِي الْقَامُوسِ: أَرْضٌ أَرِيضَةٌ: خَلِيقَةٌ لِلْخَيْرِ وَاللِّبَاتِ^(١)، فَاللَّهُ ﷻ أَعْطَى لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَكَانًا يَتَأَرَّضُونَ^(٢)، وَيُقِيمُونَ بِهِ بِلَا إِزْعَاجٍ، وَهَذَا الْمَكَانُ أَرِيضٌ^(٣) زَاهٍ لَا يَذْبُلُ وَلَا يُمَلُّ.

أَرْجُو أَنْ يَكُونَ السَّأَلُ مُحَمَّدًا قَدْ اسْتَمَعَ إِلَى الْجَوَابِ.



أُمَّتُنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتُنَا اثْنَتَيْنِ

السُّؤَالُ:

مَا مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي سُورَةِ غَافِرٍ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أُمَّتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أُمَّتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [غَافِرٍ: ١١]، مَا مَعْنَى الْإِمَاتَةِ مَرَّتَيْنِ وَالْإِحْيَاءَ مَرَّتَيْنِ؟ أَخْبِرْنِي مَنْ سَأَلْتَهُ أَنَّ الْإِمَاتَةَ الْأُولَى

(١) انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢٨/١٨).

(٢) تَأَرَّضَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦١/١).

(٣) أَرِيضٌ: كَثِيرُ الْعَشْبِ وَالْكَأَلِ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣٧/٦).

هي إماتة النوم، والإماتة الثانية هي الموت المعروف، فهل هذا تفسيرٌ صحيحٌ؟

«تلميذ»

الجواب:

لا بدَّ أنك قرأت سورة الإنسان، وفي أولها يقول الباري ﷻ: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ومعنى هذا: أنَّ الإنسانَ والموتَ كانا عدماً، ومعنى الآية التي سألت عنها: أنَّ النَّاسَ كانوا عدماً، ثمَّ بعد هذا العدم أحياهم الله وعمَّر بهم هذه الأرض، ثمَّ أماتهم، ثمَّ يحييهم ليوم القيامة حياةً البعث بعد الموت.

وفي الآية العاشرة من سورة غافر يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠-١١]، فهم في النَّار يتألَّمون من عذابها، ويطول صبرهم، ويطول جزعهم ثمَّ يرجعون إلى أنفسهم فيلعنونها؛ لأنَّها أطاعت إغواءات الغاوين، فيسمعهم خزنة النَّار، فيقولون لهم: إنَّ مقت الله أكبرُ من مقتكم أنفسكم، ومعناه: إنَّ غضبَ الله عليكم أشدُّ من غضبكم على أنفسكم، ثمَّ يتَّجهون إلى الله ويسألونه فيقولون له: كُنَّا عدماً فأحييتنا ثمَّ أمَّتنا ثمَّ أحييتنا فردَّنا إلى الحياة الدُّنيا بقدرتك؛ لنؤمن بك ونوحِّدك، فيقال لهم: لا، لقد دُعيتم في الحياة الدُّنيا إلى الهدى فكفرتم، ولمَّا دُعيتم إلى الشُّرك صدَّقتم به، وأراكم الله آياته في الحياة الدُّنيا، فلم تتذكروا ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [١١] هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ



رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [غافر: ١٢-١٣].

وأقول للسائل التلميذ: في سورة البقرة الآية (٢٨)، ومعناها يشبه المعنى الذي سألت عنه في الآية (١١) من سورة غافر، وهي قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ [البقرة: ٢٨].



فبصرك اليوم حديد

السؤال:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢]، أرجو تفسير هذه الآية.

«مسلم»

الجواب:

كان الواجب على السائل أن يقرأ ما أنزله الله بلسان عربي مبين، ليفهم قبل أن يسأل.

هذه الآية التي يسأل عنها السائل، ورقمها (٢٢) من سورة «ق»، وهي تتعلق بالآيات التي قبلها، ابتداءً من الآية (١٦) فما بعدها.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَّمْنَا عَلَيْهِ مَا تُمَسَّسُ بِهِ فَسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَنْتَقِي الْمَتَلَقِينَ عَنِ الْبَيْنِ وَعَنِ السَّمَاءِ فَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

وُنْفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢١﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٣﴾ [ق: ١٦-٢٢].

تقول هذه الآيات: إِنَّ الله خلق الإنسان، وعلم فيه كل شيء، فلا تخفى عليه خافية، حتى ما يتحدث به بينه وبين نفسه، والله ﷻ الذي خلقه أقرب إلى قلبه من مجرى دمه فيه، يعلم كل ما يفعله ظاهراً أو خفياً، وما تُوسوس به نفسه، ثم ماذا يعمل هذا الإنسان والملكان المتلقيان اللآزمان له عن يمينه وشماله، إنهما يكتبان سيئاته وحسناته من قولٍ وفعلٍ، يُحصيان عليه كل شيءٍ صَغُرَ أو كَبُرَ، وَعَظُمَ أو حَقُرَ من خيرٍ وشرٍ.

والموت بعد ذلك آتٍ لا بد منه، سيلقى الإنسان سكرات الموت وقسوة نزع الروح، فينتبه إلى ما كان عنه غافلاً، ثم بعد ذلك يأتي يوم القيامة، وهو اليوم الذي وعد الله به البشر بالبعث والحساب، ولا مفر لهم من هذين الأمرين، فالعاصي مبعوثٌ ومُحاسبٌ، والطَّائع مبعوثٌ ومُحاسبٌ، ومعه الملكان بعد البعث: سائقٌ وشهيدٌ يشهدان على ما فعله في الدنيا، فلا يستطيع نكراناً، ولا يُقبل منه نقاشٌ؛ لأنه سيأخذ السَّجَلَّ الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

ويرى العاصي ما ينتظره من حسابٍ فيرى الصَّغيرة والكبيرة أمامه، وينكشف بصره، فلا زخارفَ دنيا ولا إغراءَ شهواتٍ ولا مالٍ ولا جاهٍ ولا سلطان، وينكشف الغطاء عن الأعين فيكون البصر يومئذٍ حاداً، لا يحتاج إلى نظارةٍ ولا إلى مكبراتٍ، ويقول له القائل: لقد كنت في غفلةٍ من هذا، وألهتك زخارف الدنيا وشهواتها، وغرتك الثروة والجاه والخدم والولد، واتَّبع الهوى والشيطان، وخالفت الأوامر، وعصيت الرحمن،



أمّا الآن فلا غطاءً يَحُجِّبُ عنكَ النَّظْرَ إلى الحقيقة، انظرْ لترى ما أنكرتَه بالأمس، إنَّه لا حجابَ على بصرك، فبصرك اليوم حديدٌ؛ أي: قويٌّ، وانظرْ رأيت الحقيقة؟! إنَّ ما أنكرتَه أمس هو حقيقةُ اليوم.



وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون

السُّؤال:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦] الذَّارِيَات: [٥٦]، هل نزلت هذه الآية أمراً قاضياً على الجن والإنس بالعبادة؟ علماً أنَّ إبليس من الجنِّ، وقد عصى الله فطرده من رحمته وسمَّاه إبليس، وسؤالِي: هل إبليس من الجنِّ، وهل هو الشَّيطان الرَّجيم؟

«عبد الحميد فارغ من اليمن»

الجواب:

قال الله تعالى بعد أن بيَّن قدرته وعظمته ببناء السَّماء وخلق الخلق، وعجزَ المعبودات التي يعبدها المشركون عن النَّفع أو الضَّرِّ، وأمر نبيِّه ﷺ أن يذكر؛ فإنَّ الذِّكْرَى تنفع المؤمنين، ثمَّ يقول جلَّ جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦] الذَّارِيَات: [٥٦].

أطلب من السَّائل عبد الحميد أن يقرأ الآيات الكريمة من سورة الذَّارِيَات، يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [٤٧] وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ [٤٨] وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [٤٩] فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ

﴿٥٥﴾ وَإِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ [الذَّارِيَات: ٤٧-٥١] إِلَى أَنْ يَقُولَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦]، وَخَصَّ جَلَّ جَلَالُهُ بِهَذَا الذِّكْرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ.

ومعنى العبادة: الخضوعُ لله ﷻ اعترافًا بنعمته عليه، ولا يعترف بنعمة الله إِلَّا عاقلٌ، والله جَلَّ جَلَالُهُ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ بِعَقُولٍ، وَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَاصِرٌ وَعَاجِزٌ عَنِ جَلْبِ أَيِّ نَفْعٍ، وَدَفْعِ أَيِّ ضَرٍّ، وَأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ الْمَنْعَمَ بِعِبَادَتِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ خُلِقَ لِتَبَيِّنِ مِنْ آيَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ مَا يَجْعَلُهُ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَعْبُدُهُ.

إِنَّ الدَّلَائِلَ الْوَاضِحَةَ فِي هَذَا الْكُونِ تَأْمُرُنَا - نَحْنُ الْعُقَلَاءُ - بِعِبَادَةِ اللَّهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٣١].

وَلَيْسَ شَأْنُ هَذَا الرَّبِّ مَعَ عِبَادِهِ كَشَأْنِ الْعَبِيدِ مَعَ أَسْيَادِهِمْ، أَوْ الْمُسْتَأْجِرِينَ مَعَ مَأْجُورِيهِمْ؛ لِأَنَّ الْمَالِكَ يَسْتَعِينُ بِمَمْلُوكِهِ، وَالْمُسْتَأْجِرَ يَسْتَعِينُ بِمَأْجُورِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الرَّزَاقُ الْمَتَفَضِّلُ، وَهُوَ الْقَوِيُّ شَدِيدُ الْقُوَّةِ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَيَلْتَزِمُوا طَاعَتَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، وَالْقَائِلُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴿٥٨﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦-٥٨].

أَمَّا سؤَالُكَ الْأَوَّلُ: فَإِنَّ إِبْلِيسَ هُوَ أَبُو الْجِنَّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَبُو الْإِنْسِ، وَالشَّيْطَانَ هُوَ إِبْلِيسُ نَفْسُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٤].



[٦٢]، فكان قول الله ﷻ له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وإذا جاء يوم القيامة وقال القائل من الإنس: إِنَّ الشَّيْطَانَ أَضَلَّنِي وَأَغْوَانِي، قال الشَّيْطَان: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

بقي أن نذكر شيئاً لا بدَّ من ذكره إتماماً للجواب، وهو أنَّ في الجنِّ كفره ومؤمنين، كما أنَّ في الإنس كفره ومؤمنين، والحساب والعقاب يوم القيامة لا يكون إلاَّ للعقلاء، والعقل لم يُخلَق إلاَّ في الإنس والجنِّ.



الإثم والفواحش واللمم

السؤال:

«ابن محارب من الفنطاس» يسأل عن معنى الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [التَّجْم: ٣٢]، ثمَّ يسأل عن

معنى اللمم؟

الجواب:

يقول الله تعالى في الآيتين: (٣١) و (٣٢) من سورة النَّجْم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا عَلِمُوا وَبِحُجْرَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ

أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْفَقَ ﴿٣٢﴾ [النجم: ٣١-٣٢].

ومعنى الآيتين: تقريرٌ لملكيّة الله وحده لما في السّموات والأرض من عوالم وأبعادٍ ومخلوقاتٍ، عَلِمَهَا الإنسانُ أم لا، فهو وحده الَّذي قَدَرَ الآخرة، وقَدَرَ جزاءها وعقابها، وأنّه وحده هو القادر على تحقيق الجزاء الكامل العادل، فحدّد للَّذين أحسنوا جزاءهم بالحسنى؛ لأنّهم اجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، فلم يقترفوا ما عَظُمَ من الذُّنُوبِ وكَبُرَ إلا اللّمم، وهي الخطايا الصّغيرة التي لا يتقصّدونها ولا يتعمّدونها.

أمّا الَّذين أسأؤوا فيجزئهم بما عملوا، ومع ذلك فإنّه جلّ جلاله واسع المغفرة لمن أساء؛ لأنّه يغفر الذُّنُوبَ كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:

١٣٥].

نفهم ممّا تقدّم أنّ اللّمم هي صغائرُ الذُّنُوبِ التي يفعلها الإنسان دون سابق إصرارٍ، ثمّ يستغفرُ الله.



رُبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ

السُّؤال:

قال الله ﷻ في كتابه المجيد: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرَّحْمَن: ١٧]، ونحن لا نعرف إلا مشرقاً واحداً، ومغرباً واحداً، فأين هما



المشرقان والمغربان؟

«عقاب عبد المحسن»

الجواب:

جاء في سورة الرَّحْمَنِ قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧) وجاء في سورة المَعَارِج قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

والمشرقان والمغربان هما مشرقا الشَّمْسِ مختلفا الموضع في الصَّيْفِ والشتاء، والمغربان كذلك، ألا ترى الشَّمْسِ في أَيَّامِ الشَّتَاءِ تشرقُ من مشرقٍ غير مشرقِ الصَّيْفِ وتغيبُ في مغيبٍ غير مغيبه؟!

أمَّا المشارق والمغارب فإنَّها مشارق النُّجُوم ومغاربها، ومشارق النُّجُوم التي يهتدي بها السَّارُونَ والسَّائِرُونَ في ظلماتِ البرِّ والبحر، فلكلِّ نجمٍ مَشْرِقٌ يسمِّيه أهلُ البحرِ عندنا في الكويتِ مطلقاً، ومغربٌ يسمِّيه أهلُ البحرِ عندنا مغيباً.

والمشارقُ والمغاربُ بالنِّسبةِ إلى الشَّمْسِ متواليَّةٌ على وجه الأرض، فهي في كلِّ لحظةٍ تغربُ عن بقعةٍ لتشرقَ على بقعةٍ أخرى ما دامت الأرض والشَّمْسُ ممَّا يدلُّ على عظمة الخالق لهذا الوجود، وصدق الشاعر أبو العتاهية حين قال:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ^(١)

تعالى الله وتقدَّس اسمه، فهو كما وصف نفسه ربُّ المشارق

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للقاظمي (١/١٤٢).

والمغارب .

ويسأل الأخ عقاب عن الميِّت يموتُ وهو جُنُبٌ، هل يكفيه غسلٌ واحدٌ أو يغسل غسلين؟

والجواب :

يغسل غسلين : غسلٌ عن الموت، وغسلٌ عن الجنابة، أو إن كان الغاسل فقيهاً نوى له غسلًا واحدًا عن الموت وغيره كما ينوي الحيُّ باغتساله عن الحدثين أو عن الجمعة والجنابة، ويكفيه ذلك .



مرج البحرين

السُّؤال :

ما معنى قول الله ﷻ في سورة الرَّحْمَنِ : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبِينَمَا بَرَزَخُ لَا يَتَّعِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرَّحْمَنِ : ١٩-٢٠] .

«سائل من الشرق»

الجواب :

كلمة البحرين معناها : البحر المالح والبحر الحلو، والعرب يقولون عن النَّهْرِ إِنَّهُ بَحْرٌ، ونسمع من العرب في عصرنا هذا كلمة «بحر النيل» .

والله جلَّ جلاله مرج البحرين؛ أي : أرسلهما بقدرته، وأجراهما بلطفه، وتركهما يلتقيان، فيصبُّ النَّهْرُ العذب في البحر المالح، لا يتجاوز كلُّ منهما حدَّه المقدَّر ووظيفته المقسومة، وبينهما برزخٌ، والبرزخ



معناه: الحاجز المانع، فلا ينبغي أحدهما على الآخر، فالمالح يبقى مالِحًا، والنَّهر يبقى عذبًا، ولولا رحمته لاختلط فضاعت فوائد الملح وعذوبة الماء العذب؛ لأنَّ منفعة النَّاس في بقاء المالح على ملحه، وبقاء العذب على عذوبته، فالبرزخ بين البحرين من صنع الله وليس من صنع أحدٍ غيره.



تنزيل القرآن على جبل

السؤال:

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، ما معنى تنزيل القرآن على جبل؟ ونعلم أنه ما من شيء في الأرض ولا في السماء إلاَّ ويُسَبِّحُ باسم الله، فإذا كانت الجبال تعلم بنزول القرآن وتسبِّح، فلماذا لم تصدِّع؟

«حقي إسماعيل»

الجواب:

الآية الكريمة بدأت بحرف لو، سمّاها النّحويّون حرف امتناع لامتناع، ومعناها هنا: لا نزل القرآن على جبلٍ، ولا تصدِّع الجبل.

يقول السّائل: نحن نعلم أنه ما من شيء في الأرض ولا في السماء إلاَّ يُسَبِّحُ بحمد الله، وأقول له: نعم صدقت، لكنّ القرآن لم يُنزل عليها،

فهي تُسَبِّح بحمد الله بفطرة لا بتكليف، فالجبال لم تُكَلَّف باتِّباع أوامر القرآن، ولا لحيوانات ولا النِّبَاتَات؛ لأنَّ القرآن نزل للبشر المخلوق المُمَيِّز على سائر المخلوقات بعقله وإدراكه.

فقد أنزل الله القرآن على أكرم مخلوق خلقه: إنَّه الإنسان؛ لَعَلَّ يَرَعُوِي^(١) فلا يطغى به عقله، ويتَّقِي الله فلا يضلُّ به عقله عن الهدى، أنزله لقوم يعقلون، ويتفكِّرون، ويتدبِّرون، ويهتدون، ويرشدون.

أمَّا بقية الحيوانات فلا عقول لها، وكذلك النِّبَاتَات والجماد فهي لم تُكَلَّف بما في القرآن من أوامر ونواهٍ وترغيبٍ وترهيبٍ.

وأعظم المخلوقات - التي نراها أمامنا بلا تكليف - وأضخمها وأقساها: الجبال المخلوقة من الحجارة الصَّلبة، لو أُعْطِيَتْ هذه الجبال ما أُعْطِيَهُ الإنسان من تمييزٍ وعقل، ثُمَّ نزل عليها القرآن لانقادت لمواعظه وخشعت، ولرأيت أيُّها الإنسان صلابتها وقد لانت، وتماسكها وقد خضعت لأمر خالقها؛ خوفًا من أن تكون قد قصَّرت في أداء الحقِّ المفروض عليها في هذا القرآن.

فالإنسان على ضعفه وضآلته أمام المخلوقات الأخرى خلق الله له عقلاً، وسخَّر له ما في السَّمَوَات وما في الأَرْض: برَّها، وبحارها، وهوائها، جعله به خليفته في الأرض وفي كلِّ محيط الأرض، وكلفه بما لم يُكَلَّف به خلقًا من هذه المخلوقات، وبعث له رسلاً مبشِّرين ومنذرين، وقد ختم رسالاتهم برسالة مُحَمَّد ﷺ الَّذِي سَمَّاه: خاتم النَّبِيِّين، وختم كتبهم وتعاليمهم بالقرآن الَّذِي حوى الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب

(١) يَرَعُوِي: ينكفُّ وينزجر. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣٢٨/١٤).



والحِكْمَ والعِظَاتِ، كُلُّهَا جَاءَتْ بِآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ تَرَسُّمٌ لِلإِنْسَانِ سَبِيلَ الخَيْرِ
وَالشَّرِّ، وتوضَّحَ له طريق الهداية والضلال، بما لو خوطبَ بها جبلٌ
لخشع وتصدَّع من خشية الله .

مثلُ ضربه الله للناس لعلَّهم يتفكِّرون، ولا يُفكِّرُ إلا من له عقل، ولا
عقل ولا تفكير إلا لبني الإنسان .



لمن أُرسِلَ عيسى؟

السُّؤال:

«مرسل خلف دواس من ثانوية الرابية للبنين» يقول في رسالته:

في الآية الخامسة من سورة الصَّفِّ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي
مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٦﴾ [الصَّفِّ: ٦]، ثُمَّ
يقول السائل: الذي نعرفه أنَّ الرسولَ الذي جاء إلى بني إسرائيل هو
سيدنا موسى ﷺ بالديانة اليهودية، وأنَّ الكتابَ الذي جاء به موسى هو
التَّوراة، فهل نستطيع أن نعرف معنى هذه الآية؟ وكيف يقول عيسى ﷺ
هذا لبني إسرائيل، في حين أنَّ النَّبِيَّ الذي أُرسِلَ لهم هو موسى! ثُمَّ يقول
في آخر رسالته: إنني سألت كثيرا ولم ألقَ ردًّا شافيا .

الجواب:

قبل أن أُجيبَ السائلَ مرسل خلف دواس: أريد أن أسأله مَنْ هم

الَّذِينَ سَأَلْتَهُمْ وَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُم الْجَوَابَ الشَّافِي؟ أَجِبْنِي بِاللَّهِ عَلَيْكَ .

المعروف أَنَّ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ قِصَصَهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَفْخَرُونَ بِذَلِكَ ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ شَعْبُ اللَّهِ الْمُخْتَارِ ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْهُمْ ، فَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَالْيَسَعَ وَأَيُّوبَ وَعَزِيزَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَإِلْيَاسَ وَعِيسَى كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ الَّذِي هُوَ إِسْرَائِيلُ ؛ أَيُّ : كُلُّ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَكْثَرَ اللَّهِ فِيهِمُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ لِكثْرَةِ مَا تَفَشَّى فِيهِمْ مِنْ انْحِرَافٍ نَحْنُ فِي غَنَى عَنْ ذِكْرِهِ فِي هَذَا الْجَوَابِ .

وعيسى ابن مريم بنت عمران من بني إسرائيل جاء مُصَدِّقًا لِلتَّوْرَةِ ، لَمْ يَأْتِ بِدِينٍ جَدِيدٍ غَيْرِ دِينِ مُوسَى ، بِدَلِيلِ الْآيَةِ الَّتِي ذَكَرْتَهَا فِي سُورَةِ الصَّفِّ ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفَقِينَا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: ٤٦] .

ولهذا نرى الكتاب المُقَدَّسَ الْمَوْجُودَ الْآنَ بِيَدِ الْمَسِيحِيِّينَ مَقْسُومًا إِلَى عَهْدَيْنِ ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا : الْعَهْدُ الْقَدِيمُ وَهُوَ التَّوْرَةُ ، وَهِيَ التَّوْرَةُ نَفْسُهَا الَّتِي بِيَدِ الْيَهُودِ ، وَالَّتِي أَهْمَلُوهَا وَتَمَسَّكُوا بِالتَّلْمُودِ بَدَلًا مِنْهَا ، وَالْعَهْدُ الْجَدِيدُ وَهُوَ الْأَنْجِيلُ الْأَرْبَعَةُ : مَتَّى ، وَلُوقَا ، وَيُوحَنَّا ، وَمَرْقَسَ .

فعيسى من بني إسرائيل وليس من غيرهم ، جاء رسولًا من عند الله مُؤَيَّدًا لِلتَّوْرَةِ ، وَمُبَشِّرًا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ كَعَادَتِهِمْ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ، فَقَتَلُوا كَثِيرًا مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَقْصِصْ الْقُرْآنُ عَلَيْنَا قِصَصَهُمْ ، فَقَتَلُوا مِنْ أَنْبِيَائِهِمُ الَّذِينَ نَعْرِفُهُمْ : زَكَرِيَّا وَيَحْيَى .



وكلمة يهودية لم يأت بها موسى ﷺ، وإنما هي حديثه عهد جاءت بعد موسى بسنين طويلة بل بقرون، وإن أُصدق كتاب عند المسلمين هو القرآن، وقد أخبرنا القرآن أن الدين عند الله الإسلام، فإبراهيم ﷺ قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وبعده يعقوب ﷺ وصَّى بنيه بالمحافظة على الإسلام، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وموسى قال لقومه عندما خافوا من بطش فرعون: ﴿يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وفرعون عندما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلو لم يكن دين موسى الإسلام فمن أين جاء فرعون بهذه الكلمة؟!

وسليمان ﷺ قال في كتابه لبلقيس ملكة سبأ: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، وعندما جاءت طائفة منقادة لسليمان قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

ولوط وقومه قال عنهم الملائكة ضيوف إبراهيم: ﴿فَمَا وَحَدَّثْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

وأخيراً عيسى عليه وعلى كل الأنبياء الصلوة والسلام قال له الحواريون: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] دليل على أن دين عيسى ومن قبله من جميع الأنبياء هو الإسلام.

يُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النِّسَاءُ: ١٦٣-١٦٤].

وكلمة يهود اتخذتها اليهود جنسيةً عندما تشكَّلت مملكة يهوذا، ثمَّ صارت فيما بعد دينًا، كما أنَّ كلمة نصاري جاءت من كلمة نصاري، التَّسمية البلديَّة التي كان اليهود يذكرون بها سيِّدنا عيسى ﷺ فقد كان من بلدة لا تزال موجودة في فلسطين تسمَّى: النَّاصِرة، والحديث في هذا الموضوع طويلٌ، والأجوبة تحتاج إلى وقت ونكتفي بما ذكرنا، وأرجو أن تكون الإجابة كافيةً لولدنا السَّائل.



ثلاثة أسئلة

السؤال:

«أبو شبيلي من الحرس الوطني» يسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

الجواب:

معناها أنَّ الذي يعلم العلم ولا يعمل بعلمه مثل الحمار الذي يحمل على ظهره كتابًا، وهذا مثل اليهود؛ لأنَّهم يعلمون العلم ولكنَّهم ينكرونه.



السؤال:

ويسأل أيضًا: عن معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَنَا أَتْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَتْنَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

الجواب:

معنى ذلك الموتة الأولى قبل الولادة، والموتة الثانية بعد الحياة، والحياة التي بعد الولادة، والحياة التي بعد الموت حياة القيامة، التي ينكشف لهم فيها كل ما علموه في الحياة الدنيا، فيتمنون حينئذ الموتة الثالثة، فيخرجون من هذا العذاب، ولكن ليس هناك موت.

السؤال:

ويسأل «أبو شبيلي» عن اسم النبي: يقول: سمعت أن من أسمائه الماحي، فما معناه؟

الجواب:

إذا صحَّ هذا الاسم فمعناه: ماحي ظلام الشرك بالتوحيد، وماحي ظلام الجهل بالعلم، وماحي ظلام الضلال بالهدى، كما يمحو النهار ظلام الليل، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].



﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾

السُّؤال:

قرأت في كتاب «مروج الذهب» للمؤرخ المسعودي قوله: أيقن أهل العلم جميعاً أنّ الله خلق الأشياء على غير مثال، وابتدعها من غير أصل، وكتب المسعودي أيضاً في هذا الكتاب: إنّ الله فتق الأرض من ماء كان دخاناً، وإنه خلق الأرض على حوت، والحوت في ماء، والماء على صفاة، إلى آخر ما جاء في كتابه^(١)، وكلمة ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [الْقَلَم: ١] أنّ نون هو الحوت، فما رأيكم؟ أرجوكم مراجعة كتاب المسعودي وقراءة ما ذكرته في رسالتي.

«طارق جبر بغداد»

الجواب:

قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿قُلْ أَيَّتَكُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَى مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٨﴾ فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظاً ذَلِكَ

(١) لم أقف عليه ولم أجده في كتاب مروج الذهب، وأورده الطبري في تفسيره (١/٤٦٢)، بلفظ: فَخَلَقَ الْأَرْضَ عَلَى حُوتٍ، وَالْحُوتُ هُوَ التُّونُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿تَّ وَالْقَلَمِ﴾ [الْقَلَم: ١] والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان، ليست في السماء ولا في الأرض.



تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٣﴾ [فُصِّلَتْ: ٩-١٢].

والكلام في هذه الآيات الكريمة عربيٌّ أوضح أنَّ الدُّنيا كلُّها فيما مضى كانت غازاً، وهو ما يسمُّونه الآن الأثير أو نحو ذلك، وكان عرش الله فوق كلِّ هذا الغاز، فكيف كان؟ لا نعلم ولا نستطيع أن نتصوَّر ذلك، فقال الله لهذا الغاز: كن سماءً وأرضاً فكان سماءً وأرضاً، سبع سموات وأرضين.

وجاء في سورة الطَّلَاق في الآية الأخيرة منها قوله جلَّ جلاله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ١٢] ليس في ذلك إنكاراً، فالسَّموات السَّبْع لا ندري حقيقتها، ولا نعرف شيئاً إلاَّ عن هذه السَّماء الَّتِي نعرف بعضها منها، وفي حدودٍ ضيقةٍ جدًّا، والَّتِي نقول عنها أن لا نهاية لها، لما فيها من مجرَّاتٍ وكواكب وندجوم.

أمَّا الأراضِي الَّتِي يقول عنها الباري ﷻ: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ١٢] فقد تكون هي توابع شمسنا، أو تكون القارَّات الَّتِي هي أرضنا.

أمَّا حرف ﴿تَّ﴾ الَّذِي افتتحت به سورة القلم ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القَلَم: ١] فالله ﷻ افتتح كثيراً من سور القرآن بالحروف مثل ﴿الْم﴾ [الرُّم: ٢١] ومثل ﴿الرَّ﴾ [يُونس: ١] و﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مَرِيَم: ١]، وافتتح بعض السُّور بحرف واحد مثل: ﴿صَّ﴾ [ص: ١] و﴿تَّ﴾ [القَلَم: ١].

ثمَّ لنقرأ أوَّل السُّورة فنجد كلمة ﴿تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القَلَم: ١]، و﴿تَّ﴾ حرف يكتب، والقلم آلة تكتب، وما يسطرون هو المكتوب، والمكتوب لا يكون إلاَّ من حروف كُتِبَتْ بقلم، فما دخل الحوت في هذا الكلام؟ وما دخل الماء والصفاء؟ ونحن نعلم أنَّ القرآن

نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين، والمبين معناه: الواضح الذي لا التباس في معناه حيث يفهمه الكلُّ.

لقد راجعت تفسير القرطبي^(١)، وذكر ما كتبه المسعودي وغيره من خرافات وضحك لها، وقال: إنَّ نون حرف من حروف الهجاء، وقرأت تفسير الألويسي^(٢)، وذكر ما كتبه المسعودي وغيره وضحك عليها، وقال: إنَّ حرف نون كغيره من الحروف التي تكتب منها الكلمات.

على كلِّ حال، المسعوديُّ كتب فهل كتب بحسن نيَّة؟ لا ندري، لكننا نقول: عفا الله عنه، وهل كتب ونقَّح؟ أم كتب صحائف سوَّدها بالحرير؟ لا أدري، ولا أملك الكتاب حتَّى أطلع على ما فيه، لكن ما كلُّ ما يُكْتَبُ يُقرأ، ولا كلُّ ما يُعَلَّمُ يُقال، والله الموفِّق.



كيف سُطِّحَتِ الْأَرْضُ

السُّؤال:

أثبت العلماء كروية الأرض، واستدلُّوا أنَّ الشَّمْسَ تشرق فيها بثمان دقائق، فكيف نوفِّق بين هذا وقول الله تعالى: ﴿وَالِإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِّحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠] فما هو جوابكم سيِّدي؟

«عبد الكريم»

(١) انظر: القرطبيُّ في تفسيره (١٨/٢٢٣).

(٢) انظر: الألويسيُّ في تفسيره (١٥/٢٧).



الجواب:

نور الشَّمْسِ مشرقٌ على الأرض في كلِّ وقتٍ وحين، فهو إذا امَّحَى في مكانٍ أضاء فيما بعده من مكان، والليل والنَّهار على الأرض لا ينفكَّان منها، فليست المسألة مسألة دقائق أو ساعاتٍ أو أيَّام، بل هي الحياة كُلُّها حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا هو دليل كروية الأرض، كما قال الخالق المبدع جلَّ جلاله في سورة يس: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقَ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧-٤٠]، وكما قال جلَّ شأنه في سورة الزُّمَر: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ أَيْلًا عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى أَيْلٍ﴾ [الزُّمَر: ٥]؛ أي: إننا يا بني الإنسان على هذه الأرض نرى كأنَّ الليل يهجم على النَّهار في المساء فيطرده، أو أنَّ النَّهار يهجم في الصُّباح على الليل فيطرده، ولكنَّ الحقيقة أنَّ الليل والنَّهار على الأرض باقيان.

أمَّا الآية التي ذكرها السَّائل: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ٢٠] فهي إحدى أربع آيات في سورة الغاشية، يُعَدِّدُ اللهُ تعالى فيها بعض معجزات خلقه، فيقول جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

يوجِّهُ الباري أنظار النَّاسِ - خاصَّةً العرب - إلى الإبل، التي هي مراكبهم، ومن لحومها وألبانها غذاؤهم، ومن أوبارها وجلودها لباسهم ودثارهم، وهي رفيق العربيِّ في الصَّحراء، أفلا ينظرون إليها كيف خُلِقَتْ

ضخمة وذليلة، والعربي لم يرَ حيواناً ذليلاً أضخم من البعير، أفلا ينظرون إلى السماء بنهارها ومسائها وشمسها وقمرها ونجومها وسعتها وامتدادها، بما فيها من خيرات يرجونها في الشتاء والرَّبيع وكيف رُفِعَتْ، والجبل للعربي ملاذٌ وملجأٌ، حيث يأوي إليه في كثير من أوقاته، أفلا ينظر إليه كيف نُصِبَ، وهذه الأرض الكروية كيف أصبحت ممهّدة للحياة، وصالحة للسكن، مسطوحة أمام النَّظر، فمن الذي سطّحها ومهّدها وجعلها صالحة للسكن؟

الذي خلق الإبل، ورفع السماء، ونصب الجبال، وسطح الأرض، هو الله الخالق المبدع، لا إله إلا هو تعالى عما يشركون.



ما هي الأوتاد المذكورة في سورة الفجر؟

السؤال:

أسألكم عن فرعون ذي الأوتاد، ما هي الأوتاد؟ ومن ثمود الذين جابوا الصخر بالواد؟ ومن إرم ذات العماد؟

«أخوكم خير الله»

الجواب:

التَّرتيب هكذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر: ٦-١٢].



ذكر المفسِّرون أنَّ عادًا كانت عادَيْنِ: عادًا الأولى وهي عاد إرم التي كانت تسكن الأحقاف، وكانت بادية، وكانت قويَّة، شديدة البطش امتازت بأجسام وأبدان صلبة، وكانت لهم مدينة لم يُخلَق مثلها في البلاد يأوون إليها، ومن العجب أن تُبنى مدينة في صحراء رملية، ثمَّ لا تدفنها الرِّمال ولا تؤثر فيها العواصف.

أمَّا ثمود فكانوا يسكنون في وادي ثمود، المعروف الآن بالحجر، في شمالي الجزيرة العربيَّة في طريق الشَّام، ولا يزال حتَّى الآن قائمًا بآثاره، قد نُحِتَتْ بيوتُه من الصَّخر، كما قال ﷺ في موضع آخر: ﴿وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشُّعْرَاء: ١٤٩] ومعنى جابوا الصَّخر: قطعوه ونحتوه، فالوادي موجود وبيوته موجودة، والصُّخور المقطَّعة التي شيَّدت قصورًا قائمة تشهد على قدرة أولئك القوم الذين صبَّ عليهم ربُّك سوط عذاب.

وأمَّا ﴿وَفَرَعُونَ ذِي الْأُوتَادِ﴾ [الفجر: ١٠]: الأوتاد؛ الأبنية الصَّخمة القائمة التي يبلى الدَّهر ولا تبلى، مثل الأهرامات أو الهياكل وقد طغى الفراعنة في البلاد، وأيُّ طغيانٍ أكبر من دعوى الرُّبوبيَّة حين كذَّب فرعون وعصى، ثمَّ أدبر يسعى، فقال: أنا ربُّكم الأعلى، هؤلاء القوم أكثروا الفساد، وحاربوا الله بالمعاصي فصبَّ عليهم سوط العذاب، ومن حارب الله كان الله له بالمرصاد.



قد أفلح من زكّأها

السؤال:

قرأت الآيات الأربع الكريمة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠]، هذه الآيات الكريمة من سورة الشمس بالي كثيراً، وظهر لي من معناها: أَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ الَّتِي سَوَّاهَا اللهُ بِمَا أَرَادَ لَهَا أَنْ تَكُونَ، إِمَّا فَاجِرَةٌ أَوْ تَقِيَّةٌ، وَفَقَّ لِإِلَهَامِهِ تَعَالَى جَلَّتْ قَدْرَتُهُ، أَسْأَلُ: هَلْ هُنَاكَ تَفْسِيرٌ خَفِيٌّ عَلَيَّ فَهَمُّهُ؟

«طالب حقيقة»

الجواب:

خلق الله الإنسان من المادّة نفسها الّتي خلق منها الحيوان، فهو مثله لحمٌ وعظمٌ ودمٌ وعصبٌ وعروقٌ ومخٌّ، لكن ليس في مخّ الحيوان عقلٌ؛ إنّما هو هديٌّ وغريزةٌ لا يتعدّأها إلى ما وجّه له، فالحيوان إذا جاع أكل، وإذا شبع كفّ، لا يدّخر من يومه لغده، ولا يبني ليأوي، يسعى وراء قوته، فإذا احتاج إلى الرّاحة استراح، وإذا احتاج إلى السّعي سعى.

أمّا الإنسان فعاقلٌ مُدْرِكٌ، جعله الله خليفته بعقله في هذا الكون، وسخّر له جميع ما فيه، فيحاسبه إذا قصّر، ويثيبه إذا أحسن، وكلّ نفسٍ بما كسبت رهينة، زوّده الله بالعقل ليستعدّ إمّا للخير أو الشرّ، فهو قادر



على التَّمييز، يعلم الخير من الشرِّ، ويعرف النُّور من الظُّلْمَة، ويميِّز بين الهدى والضَّلال، إنَّها قدرة كامنة في كيان الإنسان، يُفسِّرُها الخالق جلَّ شأنه بقوله: ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشَّمْس: ٨].

ولهذا بعث الله للبشر أنبياء من بني البشر، ولم يبعث لغيرهم أنبياء، ووظيفة النَّبِيِّ إيقاظ هذا الاستعداد الكامن وتوجيهه إلى الخير، فمن اتَّبَع النَّبِيَّ وأصغى لدعوته استجاب للخير، وزكَّى نفسه من الفجور، واتَّقَى الله، ومن أَعْرَضَ عنه ولم يستجب لدعوته دنَّس نفسه واتَّبَع طريق الغواية، نفهم من هذا أنَّ الإنسان خُلِقَ من طينٍ كسائر الحيوان، ولكنَّه خُلِقَ مزوَّدًا بعقل، ومُهَيَّأ لقبول الخير والشرِّ، كما قال جلَّ شأنه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البَدَأ: ١٠]، ولم يتركه هملاً، وإنَّما أرسل إليه رُسلًا، وأرسل كلَّ رسولٍ بلسان قومه لِيُبَيِّنَ لهم الحقَّ من الباطل، فمن سلك سبيل الهدى والحقِّ رشد، وزكَّى نفسه من الدَّنَس، ومن أَعْرَضَ دَسَّى نفسه، وابتعد عن سبيل الرِّشَاد، ومعنى دَسَّى: أخفى وغطَّى وستر؛ لأنَّ الآثم يريد أن يستر نفسه حتَّى لا يصفه النَّاس بالآثم؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشَّمْس: ٩]؛ أي: طهَّرها من الآثام، وجنَّبها سلوك سبيل الضَّلال، وأبعدها عن المساوىء والسَّيِّئات، وقد خاب من دَسَّاهَا؛ أي: دنَّسها بفعل ما نهاه الله عنه.



الوقف في التلاوة

السؤال:

«خالد موسى مال الله» يقول: سمعت يوماً الشيخ الحصري يقرأ سورة الماعون، وقرأ قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] ووقف عليها، علماً أنه مكتوب على نهاية الآية كلمة «لا»، التي نفهم معناها: لا تقف، ومن الطبيعي أنه إذا وَقَفَ على كلمة المصلين فالمعنى يتغير، ويشمل كلَّ مصلٍّ، فما رأيكم؟ أرجو الإفادة.

الجواب:

قرأنا في قواعد التجويد أن من الإشارات الموجودة في القرآن هي: «ج» وتعني الوقف الجائز، و«لا» تعني عدم الوقف، وأن هذا الوقف جائز إذا تركه الإنسان فلا يتغير من المعنى شيئاً، وأن «لا» إذا كانت في نهاية آية ووقف عليها القارئ جاز له ذلك، وإن لم يقف عليها جاز له أيضاً، أمّا إذا كانت في وسط الآية فالأفضل له والأحسن أن يواصل قراءته، فإذا وقف عليها يجب أن يعود إلى ما قبلها، وكلمة المصلين في الآية ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] هي نهاية الآية، ويجوز للقارئ أن يقف عندها مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فيجوز له الوقف إن وقف، ويجوز له الوصل إن وصل، وكذلك ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] يجوز له الوصل أو الوقف، وكذلك ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وأرجو أن يكون



السَّائل قد سمع ، علمًا بأننا أجبناه على رسالته .



أسماء السُّور في القرآن

السُّؤال :

في بعض المصاحف المطبوعة في غير البلاد العربيَّة اختلافٌ بأسماء السُّور، مثل سورة فُصِّلَتْ واسمها: السَّجدة، وسورة الإِسراء واسمها: بنو إسرائيل، وقد سألت إمام مسجدنا لماذا سُمِّيت السُّورة بهذا الاسم؟ فقال: نحن بنو إسرائيل، وسؤالِي ينقسم إلى قسمين: من هم بنو إسرائيل؟ ولماذا سُمِّيت السُّورة باسمهم؟

«أستاذ ابتدائيَّة»

الجواب :

كثيرٌ من السُّور القرآنيَّة لها اسمان أو أكثر، فسورة التَّوْبَة تُسمَّى سورة القتال، وسورة الإِسراء تُسمَّى سورة بني إسرائيل، وسورة فُصِّلَتْ تُسمَّى سورة السَّجدة، وسورة المسد تُسمَّى سورة اللَّهَب أو التَّبِّ، وليس في ذلك بأس، فالسُّورة من القرآن تُسمَّى بما اشتهرت به، وسورة الإِسراء عُرِفَتْ بالإِسراء؛ لأنَّ الله افتتحها بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإِسراء: ١]، وسُمِّيت بسورة بني إسرائيل؛ لأنَّ ذِكْرَ بني إسرائيل جاء فيها أكثر من مرَّةٍ، وسورة فُصِّلَتْ فيها سجدة، وفيها ذكر الكتاب وآياته المُفَصَّلة، وسورة التَّوْبَة فيها تفصيلٌ للقتال، وما يجب فيه على القائد

والجندي والأمة، فهي دستور حرب، وفيها ذُكِرَ التَّوْبَةُ عَلَى النَّبِيِّ
والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ
خُلِفُوا، فَإِذَا سُمِّيَتْ بِسُورَةِ التَّوْبَةِ فَهِيَ بِهَذِهِ التَّوْبَةِ، وَإِذَا سُمِّيَتْ بِسُورَةِ
الْقِتَالِ فَدُسْتُورُ الْقِتَالِ فِيهَا وَاضِحٌ، وَالتَّبُّ وَاللَّهَبُ وَالْمَسْدُ جَاءَ ذِكْرُهَا فِي
سُورَةٍ وَاحِدَةٍ قَصِيرَةٍ هِيَ سُورَةُ تَبَّتْ، فَلَا مَانِعَ أَنْ تُسَمَّى بِوَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ
الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ.

وَأَسْمَاءُ السُّورِ مِنْهَا مَا جَاءَ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ، وَمِنْهَا مَا جَاءَ بِالْاجْتِهَادِ،
وَلِكِ الْخِيَارِ أَيُّهَا السَّائِلُ أَنْ تَسْمِيَ سُورَةَ مَرْيَمَ بِاسْمِ ﴿كَهَيْعَصَ ﴿١١﴾﴾
[مَرْيَمَ: ١] وَأَنْ تَسْمِيَ سُورَةَ التَّوْبَةِ بِسُورَةِ ﴿بَرَاءَةٌ﴾ [التَّوْبَةِ: ١]؛ لِهَذَا أَقُولُ
لِلْسَّائِلِ: فِي الْأَسْمَاءِ بَرَكَةٌ مَا دَامَتْ تَوَافَقَ الْحَقِيقَةَ.

أَمَّا السُّؤَالُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَهَمُ الْيَهُودُ، وَالْيَهُودُ مِنْ ذُرِّيَّةِ
يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ اثْنَا عَشَرَ وَلَدًا عُرِفُوا
بِالْأَسْبَاطِ، كَانُوا يَسْكُنُونَ فِلَسْطِينَ حَيْثُ وُلِدُوا فِيهَا، فَلَمَّا مَكْرُوا بِيُوسُفَ،
وَشَاءَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ يُوسُفَ عَزِيزَ مِصْرَ، طَلَبَهُمْ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ
حِكَايَةً عَنْهُ: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يُوسُفَ: ٩٣]، وَاسْتَقَامُوا فِي
مِصْرَ وَتَوَالَدُوا فِيهَا، وَبَالَغَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي عَدَدِهِمْ حَتَّى زَمَنَ مُوسَى
ﷺ، الَّذِي خَرَجَ بِهِمْ مِنْ مِصْرَ إِلَى سِينَاءَ إِلَى أَنْ عَبَرَ بِهِمْ مِنْ سِينَاءَ إِلَى
فِلَسْطِينَ فِي زَمَنٍ زَادَ عَلَى أَرْبَعِينَ سَنَةً.

أَمَّا قَوْلُ الْإِمَامِ لِكَ: بَأَنَّنا نَحْنُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّهُ قَوْلٌ جَاهِلٌ لَا يَعْرِفُ
شَيْئًا، وَأَظُنُّ حَتَّى تَلَامِيذُكَ فِي الْإِبْتِدَائِيَّةِ يَعْرِفُونَ مِنْ هَمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.





ما هو النَّسخ؟

السُّؤال:

سمعنا من بعض الشُّيوخ أنَّ في القرآن بعض آياتٍ منسوخةٍ، فما معنى منسوخ وناسخ؟ وما الحكمةُ فيهما؟

«أبو محمود من النُّقرة»

الجواب:

النَّسخُ معناه: رفعُ حُكْمٍ شرعيٍّ سابقٍ عُمِلَ به بحُكْمٍ شرعيٍّ لاحقٍ، والعادة أن يكون بين النَّاسخِ والمنسوخِ زمنٌ ثابتٌ، استقرَّ العملُ فيه بالحكمِ السَّابقِ، والنَّسخُ واقعٌ في كلِّ شريعةٍ بالنَّسبةِ إلى ما قبلها، فشريعةُ موسى نسخت ما قبلها، وشريعةُ عيسى نسخت أحكامًا كثيرةً من شريعةِ موسى، ولكنَّ النَّسخَ لم يتناول لبَّ هذه الشَّرَائِعِ فهي مُتَّحِدَةٌ على جملةٍ لا إلهَ إلاَّ الله، ومعنى ذلك: توحيد الله، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة في سورة الشُّورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشُّورى: ١٣]، فالدينُ هو توحيد الله وإفراده بالعبادة.

وفي الشَّرِيعَةِ الإسلاميَّةِ ناسخٌ ومنسوخٌ، وكانت الأحكامُ المنسوخةُ مناسبةً للمجتمع في أوقاتها، حتَّى إذا زال ما يقتضي وجودها جاءت الأحكامُ المُحكَّمةُ التي لا نسخَ فيها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البَقَرَة: ١٠٦]، والنَّسخُ لا

يقع إلا في الأوامر والنواهي، فلا يقع في الأخبار كقصص الأنبياء، ولا الوعد والوعيد، ولا العقائد، ولا غير ذلك من المبادئ الكلية الإسلامية، وإنما يقع فقط في الأحكام الفرعية التي هي أوامر ونواهٍ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [التَّسَاءُ: ٤٣] نَسِخَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَىٰ الْوَلَدِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

ومثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] نسخ بايات المواريث فلا وصية بعدها لوارث، وهكذا نجد في القرآن آيات منسوخة أحكامها بايات أخرى ثابتة أحكامها، ولو أردنا أن نتبّع هذه الآيات كلّها لاحتجنا إلى وقتٍ وكلامٍ طويلين.

والله ﷻ أراد بهذا النسخ رحمةً بالناس، وتسهيلاً وتيسيراً، إثباتاً لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].





كلمة إسرائيل

السؤال:

«حسين مصطفى الأمين من محكمة خورفكان من دولة الإمارات العربية المتحدة» يقول: أجبتكم ببرنامج «أسأل تجب» بعد عصر يوم الثلاثاء (٣) محرم (١٣٩٨هـ) على سؤالٍ وُجِّهَ إليكم عن مراد كلمة إسرائيل، وهل هي اسمٌ لنبيٍّ أو لأرضٍ؟ وقلتم: إنَّ الكلمة وردت في القرآن مرَّتين فقط، ويقول: قد داخلني الشكُّ، فرجعت إلى كتاب الله تعالى، فوجدت اسم إسرائيل في آية واحدة هي آية (٥٨) من سورة مريم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨]، أمَّا اسم بني إسرائيل فوجدته في (١٧) آية، ثمَّ يختم رسالته بالاعتذار.

الجواب:

جوابي للأخ الكريم حسين مصطفى - الذي لم يذكر لي ما هو عمله في محكمة خورفكان - إنَّ السائل سألني عن كلمة إسرائيل فقط هل هي اسم لنبيٍّ أو لأرضٍ، ولم يسألني عن بني إسرائيل وإنِّي أجبته على سؤاله فقط.

كلمة إسرائيل تطلق على سيِّدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي الأسباط، وجاء ذكرها مجردة من المضاف في موضعين من كتاب الله، في قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا

حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴿[آلِ عِمْرَانَ: ٩٣]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مَرِيَمَ: ٥٨].

أما كلمة بني إسرائيل فإنها مذكورة في نحو أربعين موضعاً منها ما ذكرتم.



نَبَأُ الْخَصْمِ

السُّؤَالُ:

سيدي: أرجو تفسير حكم داود في الآيات الكريمة من سورة صَلَّى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْنِكَ إِلَىٰ تَعَالِيهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٣-٢٤] إلى آخر الآيات.

«عمران من محلة الجمهور في البصرة»

الجواب:

الآيات الكريمة لها الموضوع ذاته، تبدأ بالآية رقم (٢١): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] وتنتهي بالآية (٢٦): ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

سيدنا داود صَلَّى كان نبياً ورسولاً وملكاً، والملك مسؤولٌ عن رعيته



في كلِّ شيءٍ حتَّى في القضاء للفصل بين المتخاصمين كما هو شأن الخلفاء الرّاشدين، وقد عيّن داود أوقاتاً للعبادة والرّاحة، وأوقاتاً للقضاء؛ للفصل في الخلافات، وقيل إنّها كانت أيّاماً؛ فيومٌ يتعبّد فيه ويوم يقضي فيه بين النّاس، ويوم لراحته، وفي يوم العبادة يلازمه الحُرّاس فلا يدخل عليه أحدٌ في محرابه، وبينما هو مطمئنٌّ ألاّ يدخل عليه أحد، إذا بأناسٍ يدخلون عليه في خلوته، فلمّا رآهم فزع وظنّ أنّهم ينوون به شرّاً، فقالوا: لا تخف نحن متخاصمان، احتكمنا إليك فاحكم بيننا بالحقّ، ولا تجرّ^(١) على أحدٍ منّا، وكأنّ لسانيهما يقولان له: إنّك ملكٌ، وراع رعيّةً ووقتك ليس ملكاً لك، فلا تخصّ نفسك بمصلحةٍ دون رعيّتك؛ لأنّ وظيفتك تُحتّم عليك أن تكون في مصلحة رعيّتك أوّلاً وآخرًا، ثمّ أخذ المعتدى عليه - وهو المدّعي - يقصُّ قصّته فقال: إنّ هذا أخي يملك تسعاً وتسعين نعجةً، وأنا أملك نعجةً واحدة، وقد طمع في نعجتي، وامتدّت به أطماعه حتّى قال: أعطنيها، فلمّا ناقشته غلبني نقاشه، وأفحمتني حُجّته وأسكتني جدله؛ لأنّه أفصح منّي لساناً، وأقوى حُجّةً وبياناً، سمع داود القِصّة وأنكر على صاحب النّعاج الكثيرة أن يظلم أخاه بأخذ النّعجة منه، وحكم عليه بأنّه ظالمٌ في طلبه، فقال له: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، فإنّ مجرد السؤال ظلمٌ فكيف بأخذها واغتصابها!

لقد تعجّل داود عليه السلام بالردّ ولم يستفهم من الخصم ولم يطلب منه بياناً، فلعلّ له حجة، وتعجّل عليه السلام بالحكم دون أن يسأل المدّعي عليه، واكتفى بما قال المدّعي، وانصرف الخصوم وندم داود بعد ذلك فقد شعر

(١) الجور: نقيض العدل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٠/٤٧٧).

أنه تسرع في الحكم فاستغفر ربه، وسجد لله توبةً من هذا التعجيل، فغفر له ربه ما حدث منه، وقال له: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] فلا تتأثر في قول الخصمين، ولا تتعجل بالحكم، بل تأمل فلعل من يدعي المسكنة ويظهرها يكون الظالم، ولا تحكم إلا بعد أن تطمئن إلى أنك مع الحق، فقد يتغير وجه المسألة كله أو بعضه، وينكشف لك أن مظهر المسكنة كان خداعًا وكاذبًا، وقد يكون مع هذا القوي حجةً وبيانًا ظاهرًا.

قال بعض المفسرين: إنَّ الخصوم كانوا ملائكة جاؤوا على صورة بشرٍ ليعلموا داود، لكنَّ القرآن لم يشر إلى شيءٍ من ذلك، وقال بعض المفسرين: إنَّ داود كان ينوي في نفسه شيئًا، ولكنَّ الله أراد أن يُطهره منه؛ لأنَّه الملك النَّبِيُّ الرَّسُولُ فيجب أن يكون معصومًا من الزَّلَل، فجاءت هذه القضية لتبعده عمَّا كان قد نواه.

هذه تفسيراتُ المفسرين لهذه القصة، ولكنني لا أطمئنُ إلى شيءٍ ممَّا يقال في حقِّ الأنبياء، فالأنبياء معصومون، وهم مبعوثون لإصلاح النَّاس وهدايتهم للتي هي أقوم، وفي هذا تعلیمٌ ربانيٌّ لمن يجلس في مجلس القضاء ألا يتعجل في الحكم، وأن يكون لطيفًا، يستمع حجة كلِّ من الخصمين برحابة صدرٍ وسعة أفقٍ، وجميلٍ صبرٍ.





يأجوج ومأجوج والسّد

السؤال:

كنا جالسين في ديوان أحد الأصدقاء وجاء ذكّر يأجوج ومأجوج فقال أحدهم: هم التتار، وقد انتهى أمرهم حين هجم هولاءكو على العراق والشّام، وقال أحدهم: إنّ بأجوج ومأجوج من علامات الساعة ولم يخرجوا بعد، سؤالي: هل يأجوج ومأجوج هم من التتار؟ وهل السور الذي بناه الإسكندر هو سور الصّين المعروف الذي يزوره السّيّاح؟

«م. العماد»

الجواب:

جاء ذكر يأجوج ومأجوج في القرآن في سورة الكهف عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْبِئَ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: ٩٢-٩٤].

وجاء ذكرهم في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦].

واختلف المفسّرون في ذكر يأجوج ومأجوج، وفي أوصافهم، ومنهم، وأين مكانهم، فمنهم من قال: إنّهم من تتار أهل الصّين، ومنهم من قال غير ذلك، والقرآن وصفهم لنا بأنّهم قومٌ مفسدون في الأرض، ونحن

لا نستطيع أن نجزم بجنسيتهم وإنما نقول: إنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أُمَّةٌ أَفْسَدَتْ فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ حَتَّى جَاءَ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَحَبَسَهُمْ وَرَاءَ السِّدِّ، وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ سَيَنْهَدُمُ السِّدُّ ثُمَّ تَخْرُجُ أُمَّةٌ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ^(١) يَنْسِلُونَ، وَذَلِكَ عِنْدَ قَرَبِ السَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا نِهَايَةُ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنِ انْهِيَارِ هَذَا السِّدِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

أَمَّا مَكَانُ السِّدِّ فَفِيهِ خِلَافٌ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ سُورَ الصِّينِ هُوَ سِدُّ ذُو الْقَرْنَيْنِ، لَكِنَّ الْقُرْآنَ أَخْبَرَنَا أَنَّ سِدَّ ذِي الْقَرْنَيْنِ بُنِيَ مِنَ الْحَدِيدِ وَمَذَابِ النُّحَاسِ، لَكِنَّ الْمُوْدُودِي ذَكَرَ أَنَّ فِي الْقَوْقَازِ سِدًّا بَيْنَ جَبَلَيْنِ لَيْسَ بِالْوَاسِعِ، مَبْنِيٌّ مِنَ الْحَدِيدِ، لَا أَذْكَرُ أَيْنَ مَكَانُهُ الَّذِي حَدَّدَهُ، وَإِنَّمَا أَذْكَرُ أَنِّي قَرَأْتُ رِسَالَةً بِهَذَا الْمَعْنَى مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ.

مَكَنَ اللَّهُ لَذِي الْقَرْنَيْنِ فِي الْأَرْضِ وَسَارَ فِي الْمَعْمُورِ مِنْهَا يَوْمَئِذٍ طَوِيلًا وَعَرَضًا حَتَّى بَلَغَ أَقْصَى الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ، ثُمَّ بَنَى السِّدَّ وَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا بِنَاءَهُ: ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥] فَإِنَّ عِنْدِي مِنَ الْمَالِ كَثِيرًا، لَكِنِّي أُرِيدُ الْعَوْنَ ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾^(٩٥) ءَأَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ [الكهف: ٩٥-٩٦] زُبَرَ الْحَدِيدِ: هِيَ الْقِطْعَةُ الْكَبِيرَةُ، ﴿حَقَّ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدْفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٦] الصَّدْفَانِ: الْجِبَلَانِ، ﴿قَالَ أَنْفُخُوا حَقًّا إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦] الْقِطْرُ: هُوَ النُّحَاسُ الْمَذَابُ، وَسُورَ الصِّينِ طَوِيلٌ، وَطَوْلُهُ مُتَبَاعِدٌ، وَالْقُرْآنُ يَخْبِرُنَا أَنَّ السِّدَّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَقَعَ بَيْنَ صَدْفَيْنِ، وَالصَّدْفَانِ: حَاجِزَانِ طَبِيعِيَّانِ تَفْصُلُ بَيْنَهُمَا فَجْوَةٌ أَوْ مَمْرٌ.

(١) الْحَدَبُ: الْغِلْظُ مِنَ الْأَرْضِ فِي ارْتِفَاعٍ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/٣٠١).



وذو القرنين الذي بنى السدَّ مختلفٌ فيه، هل هو الإسكندر المقدونيُّ اليونانيُّ أو غيره، ولكنَّ القرآن ذكر لنا ذا القرنين في سورة الكهف، على أنَّه عبدٌ صالحٌ، وأنَّه يؤمن بالله واليوم الآخر بدليل قول الله تعالى له: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] فكان جوابه: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]، والإسكندر المقدونيُّ وثنيٌّ كما تدلُّ الأخبار التاريخية، على كلِّ حال سيأتي الزمَّن إن شاء الله بما يؤيِّد معجزة القرآن التي ما تزال تفتِّح لها الأذهان جيلاً بعد جيل.



أهل الكهف

السؤال:

أين الكهف؟ ومن أيِّ الأمم كان أهل الكهف؟

«عمر سعيد وصالح مبروك»

الجواب:

أذكر أنني سئلتُ قبلُ هذا السؤال وأجبتُ عليه إجابةً طويلةً، بحثتُ عنها فلم أجدها، والسائل يسأل عن: أهل الكهف ومكانهم، ومن أيِّ الأمم هم، وأرجو أن أوفِّق إلى الصَّواب فيما أُجيب، ولكنِّي لن أخرج عمَّا جاء في كتاب الله.

إنَّ الله ﷻ ذكر قصَّة أصحاب أهل الكهف في ثماني عشرة آية، تبدأ

بالآية (٩) وتنتهي في الآية (٢٦) من سورة الكهف، ولم يذكر الباري ﷻ أسماءهم ولا من أيِّ بلدٍ أو أُمَّةٍ كانوا، ولا مكان كهفهم، وإنما ذكر المعجزة؛ معجزة نومهم ثلاثة قرون وبعثهم بعدها، وأنهم كانوا آيةً عجباً من بين آياته جلّ جلاله، إنهم كانوا فتية آمنوا بالله، وزادهم هدى ورشاداً، هربوا من الظلم وآووا إلى الكهف، وناموا سنين طويلة، كانت يد القدر تقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَلَّبَهُمْ بَسِطَ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]، والوصيد: هو الفناء الفاصل بين الباب الخارجي والباب الداخلي، الذي نسّميه الآن: الصّالة أو: فناء المنزل، وإذا رآهم الرائي وهم في حالتهم تلك حسبهم أيقاظاً وهم رقود^(١)، وبعد مئات الأعوام - التي قال الله عنها: إنها ﴿ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تَسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] والتي كانت ثلاثمئة سنة شمسيّة، و(٣٠٩) سنة قمرية - بعثوا ليتساءلوا بينهم كم لبثوا في رقدتهم؟ فقال بعضهم: لبثنا يوماً أو بعض يوم، ولمّا نظروا إلى وجوه بعضهم بعضاً قالوا: الله أعلم بما لبثنا، وكانوا قد أحسّوا بالجوع والعطش، وكانت معهم نقود فضية، فطلبوا من بعضهم النّزول إلى البلد لشراء طعام، وأوصوا هذا الذّاهب أن يتحرّى الطّعام الحلال، وقالوا له: انظر أيّها أذكى طعاماً - أي: أبعد عن الخبث - فأتينا به، ولتحذر، ولتتلطّف حتّى لا تشعر بنا أحداً، وكأنّهم عندما هربوا إلى الكهف كانوا يعلمون أنّهم مطلوبون من قبل ملكهم الطّاغوت الذي قيل عنه: إنّ اسمه كان «دقيانوس»، ودخل الرّجل المدينة وقد تغيّرت معالمها وأسواقها وطرقها، ورأى أهل المدينة هذا الرّجل وأنكروه فخاف، ولكنّه سمع من كلام النّاس ذكر الله، وبعد أخذٍ وردّ

(١) رقد: نام. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١١١/٨).



عرفوا أنه أحد الفتية الذين هربوا منذ قرون فراراً من ذلك الملك الظالم، والذين لم يُعرف لهم أثرٌ، وتناقل الناس خبرهم، وعلم الناس أن وعد الله حقٌ في بعث هؤلاء من موتٍ، أو من رقدةٍ طويلةٍ جداً، وذهب جمعٌ مع هذا الوافد ليحتفلوا بالباقيين، ولما وصل إلى هناك مع الجمع المحتشد ودخلوا الكهف وجلسوا يتحدثون مع الذين بعثهم الله؛ لم تطل الجلسة؛ لأن الله ﷻ أعادهم إلى نومتهم.

إن الله ﷻ أرى الناس يقظةً بعد نومةٍ طالت ثلاثمئة سنة، ثم أطلعهم على رقدةٍ لا قيام بعدها حتى يأتي وعدها، ليعلم الناس أن وعد الله حقٌ وأن الساعة لا ريب فيها.

وهنا وقف الناس يتنازعون أمرهم بينهم، هل يتركونهم في مكانهم وبينون عليهم مسجداً؟ أم يدفنونهم وبينون عليهم بنياناً؟ فغلب الذين قالوا بنبي المسجد وبنوا المسجد.

ويسأل السائل من أيِّ الأمم هم؟ وأين يسكنون؟ وما اسم بلدهم؟

لم يشرح لنا كتاب الله ﷻ من ذلك شيئاً، وكل ما نقول: الله أعلم، فالروايات كثيرة ولا ندري أيُّها الأصح، ولو كان في ذلك نفعٌ لنا لأخبرنا به منزل القرآن.

نستخلص من قصة أصحاب الكهف أنهم شبابٌ صالح، عاشوا في مجتمع فاسدٍ، فرُّوا بدينهم خوفاً من المجتمع الفاسد أن يفتنهم؛ فهجروا الشرَّ وهاجروا إلى الخير كما هاجر الأنبياء من قبلهم ومن بعدهم، وكانت قصتهم عجباً من آيات الله، أمّا زمنهم فالراجح أن إيواهم إلى الكهف ونومتهم فيه كانتا قبل ولادة المسيح وبعثه، وأن بعثهم كان بعد زمنه ولكن التاريخ غير معروف.



أصحاب الكهف

السؤال:

يوجد كهفٌ فيه أموات نراهم ونرى أيديهم وأرجلهم، له بابٌ صغيرٌ كأنه شبَّكٍ مقابل الشرق تقريباً، وفوق الكهف مسجدٌ قديمٌ لا يستطيع أحد أن يحدِّد تاريخه، وهو بمنزلة طابقٍ ثانٍ للكهف، وهناك نوع من الأشجار الشائكة قريبة منه، والناس يزورون هذا الكهف، ولا سيَّما بعد احتلال الضَّفة الغربيَّة، حيث كثرت زيارة الأجنب له، فمن هم أصحاب الكهف؟ وأين هم؟ وما عددهم؟ وما هو الرِّقيم؟

«أبو عبد الرَّحمن»

الجواب:

لم يذكر السيِّد السَّائل مكان الكهف من الضَّفة الغربيَّة، وكنت قد زرت الضَّفة الغربيَّة مراراً قبل احتلالها، ولم يخبرني أحدٌ عن مكان هذا الكهف الَّذي سأل عنه السَّائل، لكن بعد وصول رسالته سألت صديقاً لي من أهل نابلس عن الكهف الَّذي سأل عنه السَّائل فأجاب: عندنا بلدة صغيرة اسمها «سنيريا» تبعد نحواً من أربعين كيلو متر عن المدينة نابلس فيها كهف قالوا: إنَّه لأصحاب الكهف، وفوقه مسجد يزوره النَّاس.

وأنا بصفتي الشَّخصيَّة منذ سنتين تقريباً رأيت كهفاً في الأردن قريباً من مدينة عمَّان، يبعد عنها إلى الشَّمال نحواً من اثني عشر كيلو، قريباً من قرية أبي علندة اكتُشِف حديثاً، وقيل: إنَّه لأصحاب الكهف، لم أدخله



ولم يذكر لي أحد ممَّن دخله أنَّ فيه جثثاً أو موتى، وحول الكهف آثارٌ لأبنية ليست بالقديمة جداً، وفوق الكهف بناءٌ صغيرٌ يقال: إنَّه مسجدٌ؛ لكنَّه في الحقيقة لا يمثِّلُ بناءً مسجد ولا كنيسة أو معبد، إذ ليس فيه أثرٌ تحديدٍ قبليَّةٍ، علماً أنَّ القبلة في عهد العثور على أصحاب الكهف كانت إلى بيت المقدس؛ أي: إلى المغرب.

القرآن الكريم ذكر لنا العثور عليهم بقوله تعالى في سورة الكهف آية (٢١): ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الكهف: ٢١]، وليس المهمُّ في ذكر أصحاب الكهف المسجد ولا الكهف، بل مغزى القصة.

إنَّ قصة أهل الكهف تعرض علينا نموذجاً للإيمان القويِّ في النفوس المؤمنة، وكيف تطمئنُّ به، وتؤثره على زينة الحياة.

﴿إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آئِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، ويصفهم الباري ﷻ بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [١٣] وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣-١٤] ثُمَّ اتَّفَقُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ، يؤثرون هذا الكهف الضيق المظلم على زينة الأرض وبهجة متاعها، وعلى العيش الرغيد، يبتغون فضلاً من الله ورحمةً ورعايةً تقيهم الفتنة والانزلاق مع الضالين المضلِّين، ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] يرضون بضيق العيش في كهفٍ رطبٍ ضيقٍ خشنٍ مظلمٍ، يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم ونساءهم، يستروحون في هذا الكهف رحمة الله، ويحسُّون هذه الرحمة ظليَّةً فسيحةً

ممتدة ﴿يَشْرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف: ١٦].

أمّا الكهف فلا أدري أين محلّه، ولكنني أذكر أنّي قرأت في بعض الكتب منذ زمنٍ طويلٍ: أنّه قريب من طرطوس في الشام، وهذه المرّة وبعد أن وصلتني رسالة السائل، سألت بعض الفلسطينيين فأخبرت أنّه في هذا البلد القريب من نابلس، الذي تسمّى: «سنيريا».

أمّا أهل التّفاسير فلم يذكروا شيئاً عن موضع الكهف، وإنّما ذكروا اسم القرية بأنّها «أفسوس»، وأنّ الملك كان دقيانوس ممّا يدل على أنّهم رومان أو إغريق.

وقصص القرآن كلّها مواعظ، تبين شجاعة المؤمن أمام عقيدته، وتفانيه في الدّفاع عن إيمانه، وقد فعل أصحاب محمد ﷺ مثل ما فعله أصحاب الكهف، فهذا بلال لاقى من العذاب ما لاقى فلم يُغيّر العذاب من إيمانه شيئاً، وهذا عمّار بن ياسر وقد رأى أباه وأمّه يموتان أمامه، وليس بينه وبين الموت قيد شعرة، فلا يبالي بذلك وكأنّه يَسْتَرُوْحُ^(١) ريح الجنّة.

وهذا مصعب بن عمير يترك النّاعم من الطّعام واللّباس، والوثير^(٢) من الفراش، ويترك الغنى والنّعيم والدّلال في سبيل الإيمان، ويلبس الخشن من الثياب لا يبالي، ويقول لأخيه من أمّه: قد فرّق الإسلام بيني وبينكم. فتية كلّهم شبابٌ ونضارةٌ وقوّةٌ عاشوا في بيئة تفيض بالضّلالات والجهالات، هدّتهم فطرتهم السّليمة إلى وحدانيّة الله فإذا هم يخرجون

(١) يَسْتَرُوْحُ: يُحْيِيهِ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤٦٢/٢).

(٢) الوثير: الفراش الوطيء. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢٧٨/٥).



على ما ألفه قومهم من جهلٍ وكفرٍ وإلحادٍ، وإذا هم ينكرون على قومهم عبادة غير الله ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْزُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴿[الكهف: ١٥-١٦].

إنَّ الشَّبابَ إذا استنار بالإيمان تَفَتَّحَ، وإذا سُقِيَ بماء اليقين أثمر، وإذا تعهَّدته العناية أعطى، والإيمان قوَّةٌ تفيض بها القلوب، وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: «إنَّ في الجسد مُضْغَةً، إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسدت سائر الجسد، ألا وهي القلب»^(١).

هذا القلب إذا استنار أضاءت بنوره الجوارح، فصَلَّحت، وإذا أظلم - ونعوذ بالله من ذلك - فسد، وكلُّ عملٍ يفسد بفساده.

أمَّا عدد أهل الكهف فقد ذكر القرآن إشارةً إلى أنَّ العدد لا يعلمه إلا الله: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢].

وأمَّا مَنْ هم فلم يذكر القرآن أسماءهم، ولا مدينتهم، ولا مكان كهفهم، ولا حتَّى الإقليم الَّذي من اسمه نعرف وطنهم وجنسياتهم، وحتَّى عددهم فقد قال جلَّ شأنه: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] ثُمَّ يقول ردًّا على من أكثروا القول في تحديد عددهم: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢] فالجدل لا طائل وراءه، سواء كانوا ثلاثة، أو سبعة، فأمرهم موكولٌ إلى الله، والعبرة في خاتمة هؤلاء الفتية الَّذِينَ فرُّوا بدينهم إلى الله، وأحسنوا الظَّنَّ بالله، فنشر لهم من رحمته، وهيَّا لهم من أمرهم مرفقًا.

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٢)، ومسلم، رقم: (١٥٩٩).



أَمَّا الرَّقِيمُ الَّذِي يُسْأَلُ عَنْهُ السَّائِلُ فَهُوَ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ أَوْ لَوْحٌ عَلَيْهِ
إِشَارَاتٌ مَكْتُوبَةٌ، فَالرَّقِيمُ: مَا رُقِمَ عَلَيْهِ؛ أَي: كُتِبَ، وَالْمِرْقَمُ: هُوَ الْقَلَمُ،
وَالرَّقْمُ: هُوَ الْكِتَابَةُ، وَمِنْهُ أَخَذَتْ كَلِمَةَ الرَّقْمِ الْمَكْتُوبِ أَعْلَى الصَّفْحَةِ أَوْ
صَدْرِ الْجَنْدِيِّ أَوْ بَابِ الْمَنْزِلِ أَوْ الشَّارِعِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.





ردودٌ حول العبادات





سؤال عن القرآن الكريم

السؤال:

متى نزلت آخر آية من القرآن الكريم؟ وما هي؟ وهل كُتِبَ القرآن كاملاً في حياة الرسول ﷺ؟ وهل في العالم الإسلامي نسخة من هذا القرآن المكتوب؟ وأين هي إن وجدت؟

«محمد جاد»

الجواب:

كُتِبَ القرآن في حياة النبي، لكنه لم يُجمع كما جُمع في عهد أبي بكر الصديق، كانت الآية تنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه فيأمر بكتابتها على ما كان يكتب عليه في ذلك اليوم ثم تحفظ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «ضعوا هذه الآية في مكان كذا أو في سورة كذا»^(١) وكان الحفاظ في زمن الرسول ﷺ كثيرين، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، وخلفه أبو بكر الصديق.

وفي حروب الردة استشهد من الصحابة كثيرين، وفيهم كثير من القراء، فطلب من أبي بكر الصديق أن يجمع القرآن خوفاً من ضياع ترتيبه، فكوّنت لجنة برئاسة زيد بن ثابت رضي الله عنه ومعه خمسة من الحفاظ، فجمعوا القرآن حتى اطمأنوا إليه وحفظوا الكتاب عند أبي بكر ثم عند

(١) أورده ابن عثيمين في تفسيره (٢/٤٥٠).

عمر ثم في بيت حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولما ولي الخلافة عثمان بن عفان واتسعت الفتوح؛ بدأ اللحن يتسرّب إلى ألسنة القراء من غير العرب، فلم تكن هناك مصاحف، وإنما كان الناس يحفظون القرآن عن ظهر قلب، فاشتكى بعض العلماء إلى عثمان، ومن الذين اشتكوا إليه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وقال له: «أدرك الأمة قبل أن تختلف»^(١)، فطلب عثمان المصحف الذي في بيت حفصة، وأمر أن ينسخ منه سبع نسخ، وأرسل إلى كل قطر من الأقطار الإسلامية نسخة، وأمر أن يحرق ما عداها من الصحف^(٢) التي كتبت في تلك الأقطار، فحفظ نسخة في المدينة، وأرسل إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة، وكان مصحف الشام لمصر والشام وفلسطين، وما بيد الناس الآن من مصاحف هي طبق الأصل من الذي كتبت في عهد أبي بكر الصديق، وما نسخ في عهد عثمان، لا تغيير ولا تبديل، ويقال: إن في خزائن القسطنطينية نسخة من إحدى المصاحف التي كتبت في عهد عثمان، ولا أدري هل هذا الخبر صحيح أم لا.

أما سؤال السائل عن آخر آية نزلت من القرآن فالجواب عنه: أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وهي الآية (٢٨١) من سورة البقرة، نزلت قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بمدة وجيزة، قيل: هي ثلاثة أسابيع تقريباً، أما آخر سورة نزلت فهي سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

(١) ورد في كنز العمال بلفظ: «يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى».

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٧٧٥).



وَأَلْفَتْحُ ﴿١﴾ [التصر: ١] نزلت بعد عودة النبي ﷺ من حجة الوداع.

أمّا ما اشتهر بين المؤرّخين وكتاب السير من آخر آية نزلت من القرآن الكريم هي قول الله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فقد كانت هذه الآية خاتمة التشريع التي لم ينزل تشريع بعدها أبداً، وكان نزولها في منى أو في عرفات في حجة الوداع.



العشرة المبشرون بالجنة

السؤال:

«كمال تقي» يسأل: عن العشرة المبشرين في الجنة من أصحاب الرسول ﷺ، من هم؟ وما أسماؤهم؟

الجواب:

المبشرون بالجنة من أصحاب الرسول ﷺ كثيرون لا يحصيهم عدد، أمّا العشرة فهم:

- ١- أبو بكر الصديق.
- ٢- عمر بن الخطاب الفاروق.
- ٣- عثمان بن عفان ذو النورين.
- ٤- علي بن أبي طالب المرتضى.

٥- أبو عبيدة عامر بن الجراح .

٦- سعد بن أبي وقاص .

٧- طلحة بن عبد الله .

٨- الزبير بن العوام .

٩- سعيد بن زيد .

١٠- وعبد الرحمن بن عوف .

ومن المبشرين في الجنة الحسن والحسين اللذان سمّاهما الرسول ﷺ: سيّدا شباب أهل الجنة، وبلال بن رباح الحبشيّ حين قال للرسول ﷺ: «إنه كلما توضأ صلى ركعتين، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: بهذا سبقت إلى الجنة»^(١)، وخديجة بنت خويلد حين بشرها جبريل بيت في الجنة ليس فيه صخب ولا نصب، ولو أردنا أن نعدّ أسماء المبشرين في الجنة لضاق بنا الوقت، ولكن نكتفي بمن ذكرنا منهم .

ويكفيهم فخراً أنّهم أصحاب الرسول ﷺ، الذين فازوا بصحبته، ونعموا برؤيته، وعاشوا معه، وحاربوا الباطل تحت رايته، ويكفيهم فخراً قول الله فيهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

[الفتح: ٢٩] .



(١) رواه البخاري، رقم: (١١٤٩)، بلفظ: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام...» .



النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ

السُّؤال:

نطقت زميلة لي بالشهادتين بعد أن ألححتُ عليها، وهي ليست مسلمة، فهل نطقها بالشهادتين يضعها في عداد المسلمات؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فلماذا؟

«إشراق»

الجواب:

النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ دُونَ عَقِيدَةٍ لَا يَجْعَلُ مِنْ قَائِلِهَا مُسْلِمًا، وَسَمِعْنَا كَثِيرًا مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، دُونَ تَصْدِيقٍ بِمَعْنَاهَا أَوْ إِيمَانٍ بِهَا، فَلَا يُقَالُ لِمِثْلِ هَذَا أَوْ ذَاكَ مُسْلِمًا، وَلَا عِبْرَةٌ بِمَنْ قَالَهَا مَا دَامَ لَا يُؤْمِنُ بِهَا.

إِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ بِاللِّسَانِ، وَتَصْدِيقٌ لِمَعْنَاهَا بِالْقَلْبِ، وَالْعَمَلُ بِأَرْكَانِهَا بِالْجَوَارِحِ.

وَالرَّسُولُ ﷺ أَخْبَرَنَا أَنَّ الصَّلَاةَ عِمَادُ الدِّينِ، وَأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ، وَبَيَّنَّ لَنَا الْقُرْآنُ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ بِمَا بَعْدَ كَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ أَخْبَرَنَا عَنِ الْأَعْرَابِ بِالآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وصاحبتك هذه قالتها مجاملةً، وكم سمعنا من مجاملاتٍ، لا سيَّما

في هذا العصر الذي سَمَّينا به المسمَّيات بغير أسمائها .



الصَّلَاةُ طَاعَةٌ

السُّؤال :

«أزهار الخزرجي» تقول: أنا فتاة مسلمةٌ لكنِّي لا أوَدِّي فرائض ديني، والسَّبب أن لي أمًّا مريضةً وثمانية إخوة وأخوات أقوم على خدمتهم، فضلًا عن أعمال المنزل، ممَّا لا يُتيح لي فرصةً للصَّلاة، كما أنِّي لا آمن على نفسي من النَّجاسة؛ لأنَّ بعض إخوتي صغار أنظفُهُم وأقوم على رعايتهم، فماذا أفعل؟

الجواب :

قال أهل الأمثال فيما مضى: من كانت الصَّلاة في قلبه صلًّاها، والصَّلاة طاعةً لله ﷻ وتربيتك لإخوتك كذلك، ولا تكفي هذه عن هذه، لكنَّ التَّكاسل والتَّهاون وضعف العقيدة هو الَّذي جعلك تقولين: إنِّي مشغولةٌ عن أداء الصَّلاة.

وصلاتك ليست لك وحدك، وإنَّما إذا صلَّيت كنتِ قدوةً لأولئك الصِّغار الَّذين تربَّينهم، وستكون تربيتك لهم على طاعة الله، وستكون الصَّلاة لك حافزًا على فعل الخير أكثر، ومساعدة إخوتك وأبيك وأمك المريضة، والله معك ما دمتِ راغبةً في طاعته، فكوني في طاعة الله يعينك الله على طاعته.





خير دعاء

السؤال:

«ف» تقول: سمعت أنّ خير دعاء يدعو العبدُ به ربّه وهو ساجدٌ، لكنّي سمعت أيضًا أنّه لا يجوز الدُّعاء في كلّ ركعات الصَّلَاة، بل في ركعات معيّنة فقط، وأنّ هذا الدُّعاء يسمّى: دعاء القنوط، فهل هذا صحيح؟ وما معنى دعاء القنوط؟

الجواب:

أخبرنا الرّسول ﷺ أنّ «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجدٌ»^(١)، وأوصانا أن نكثر الدُّعاء ونلجّ عليه في السُّجود، لكن لا يكون إلّا فيما ينفعنا في آخرتنا، ويصلح لنا ديننا الذي فيه عصمة أمرنا.

أمّا الدُّعاء الذي تسأل عنه السّائلة وتسمّيه: دعاء القنوط، فأرجو أن تفهم أنّه ليس قنوطًا بالطّاء وإنّما هو قنوت بالتّاء، ومعناه: تواضع، وشتان بين القنوط والقنوت!

القنوت: التّواضع والخشوع لله ﷻ والآية تقول: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]؛ أي: قفوا في صلاتكم متواضعين لله، خاضعين له طالبين منه الرّحمة.

أمّا القنوط بالطّاء فهو اليأس، والله ﷻ نهانا أن نياس من رحمته

(١) رواه مسلم، رقم: (٤٨٢).

بقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزُّمَر: ٥٣]
 وبقوله: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].
 وبقوله: ﴿بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥].

ودعاء القنوت يكون في صلاة الوتر في الرُّكعة الأخيرة منه، وهو مكتوب في كتب الفقه الصَّغيرة التي تباع في المكتبات بعنوان «تعليم الصَّلَاة».



السُّبْحَةُ وَعَمَلُهَا

السُّؤَالُ:

يحمل بعض النَّاسِ السُّبْحَ لَلَّهِوِ بِهَا، وَالَّذِي نَعْرِفُ أَنَّ السُّبْحَةَ لِلتَّسْبِيحِ، فَهَلْ مَا يَعْمَلُهُ أَوْلَاكَ صَحِيحٌ؟

«ع . م»

الجواب:

تَكَلَّمْنَا قَبْلَ عِنْدِ الْخَرَزِيِّ الَّذِي يُسَمِّيهِ النَّاسُ الْيَوْمَ بِالسُّبْحَةِ، وَقَلْنَا إِنَّهَا بَدْعَةٌ، لَمْ يَسْتَعْمَلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ، جَاءَتْنا مِنَ الْمَسِيحِيَّةِ، فَالرُّهْبَانُ يَسْتَعْمَلُونَهَا كَالْقَلَادَةِ فِي رِقَابِهِمْ، وَهُمْ كَمَا يُرَوَى أَخَذُوهَا مِنَ الْوَثْنِيَّةِ.

الإسلام لم يستعمل السُّبْحَةَ لِلتَّسْبِيحِ، وَلَمْ يَسْتَحْسِنْهَا، وَإِنَّمَا أَمَرْنَا أَنْ نَعْقُدَ لِلتَّسْبِيحِ بِالْأَصَابِعِ.



هكذا ورد في السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، فقال عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الْأَنَامِلَ مَسْؤُولَاتٌ مُسْتَنْطِقَاتٌ»^(١). قال ذلك حين رأى نساءً يجمعن الحصى أمامهنَّ يحسبن بها، فأمرهنَّ أن يعقدن بالأنامل؛ أي: بالأصابع. والسُّبْحَةُ ليست داخلية في العبادة، ولا هي من الشُّعَارَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى العبادة، وكلُّ إنسانٍ يَتَّخِذُ السُّبْحَةَ شَعِيرَةً مِنْ شَعَائِرِ الْعِبَادَةِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ.

وهذا حديثٌ آخَرُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى امْرَأَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهَا نَوَى أَوْ حَصَى تَسْبِيحُ بِهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرْكِ بِمَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكِ مِنْ هَذَا وَأَفْضَلُ، قَوْلِي: سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَدَدَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ»^(٢). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، رَقْمٌ: (٣٥٨٣).

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، رَقْمٌ: (٣٥٦٨)، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

قراءة القرآن

السؤال:

«صبري من الفاو البصرة» يقول: أحياناً أقرأ القرآن قراءةً عاديةً بلا تعمُّقٍ في بعض الآيات، كقراءتي لأيِّ كتابٍ أو قصَّة، ولكنني أقرأ في البداية التَّعوُّذَ والبسملة، وأنتهي بالتَّصديق، فهل عليَّ ذنب؟ وهل لهذا الذَّنْبُ كَفَّارَةٌ؟

ومثل هذا السؤال ورد من الأئمة «آسيا يوسف من الخالديَّة».

الجواب:

إنَّ الله ﷻ أنزل كتابه على نبيِّه محمَّد ﷺ وأمره أن يقرأه بالتَّرتيل، والتَّرتيل معناه: القراءة الفصيحة حيث يقرأ الإنسان على مَهَلٍ^(١)، وتبيين حروف، وتدبُّر معانٍ.

وعلماء المسلمين في العصور الأولى أوجدوا علماً سمَّوه: علم التَّجويد، ومعناه: تعلُّم النُّطق بالحروف، ومعرفة الحروف المتشابهة في المخارج، كالقاف والكاف مخرجهما واحد، والميم والفاء والباء مخرجها واحد، واللام والرَّاء مخرجهما واحد، وكيف ينطق الإنسان بالطَّاء والضَّاد.

(١) المَهَلُ والمَهْلُ: السَّكينة والتُّؤدة والرَّفْق. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/٦٣٣).



وقد أوضح علم التجويد كيفية النطق بالشدة إذا جاءت بعد المد، وبالهمزة كذلك، وللنون الساكنة إدغام وإظهار وإخفاء عند تلاقيها ببعض الحروف.

وليس التغني بالقرآن تجويداً، ولا هو من محاسن القراءة، فإن الله ﷻ أمرنا أن نرتل، ونفهم، ونستمع القراءة إذا قرئت ونحن حاضرون: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقراءة القرآن سبب لنزول الرحمة؛ لقول النبي ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١) رواه مسلم.

والسكينة من رحمة الله، أمّا سؤالك عن التعمق فلا أدري ماذا تقصد به، وأظنك تقصد التغني، والغناء ليس من السنة، إنما المهم أن تبدأ القراءة بالتعوذ ثم البسمة ثم تقرأ ترتيباً.

وأحب أن أختتم جوابي بهذا الحديث الشريف الذي أثنى فيه الرسول ﷺ على قارئ القرآن بقوله: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»^(٣) رواه مسلم.

إنما على هذا الذي يتتعتع أن يتجنب الغلط المخلل المغير، ويعوذ بالله من تحريف المعاني، فقد يحرف الغلط الإيمان إلى الكفر، وعليه أن يسأل ويتعلم.



(١) رواه مسلم، رقم: (٢٦٩٩).

(٢) التتعتع: كلام الألتع. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩٥/٢٠).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٤٩٣٧)، ومسلم، رقم: (٧٩٨).

هجر المصحف وترك العمل به

السؤال:

«بنت حبيب» تسأل: لي رفيقة تلميذة، سألتها المُدرّسة لماذا لم تحضر معها المصحف؟ فقالت: إنّها أرسلت المصحف إلى المسجد؛ لأنّ المصحف في البيت مهجورٌ، وقالت: حرامٌ أن يُهجَرَ المصحف في البيت، فهل ذلك صحيح؟

الجواب:

هجر المصحف ليس ترك القراءة به، وإنّما ترك العمل به، والقرآن فيه أوامرٌ ونواهٍ، فمن امتثل أوامره فقد أحبّ القرآن؛ لأنّه اهتدى به، أمّا ذلك الذي لم ينته عن نواهيه ولم يَأتمر بأوامره فهو الذي هجر القرآن وأهانته أو كما يقولون: مزّقه، والقرآن في البيت لمن قرأ عبادةً، أمّا مَنْ هجره أو تركه في البيت كتميمةٍ فإنّه أخطأ، وقد رأيت كثيراً من النَّاس يضع القرآن في المجلس أو السيّارة أو كقلادة في الرّقبة أو يضعه حجاباً تحت الوسادة، وهو لا يدري ما فيه، ولا حتّى لون ورقه؛ لأنّه لم يفتحه في حياته، فهذا عاصٍ أو مخطئٌ في حقّ نفسه لا في حقّ القرآن؛ لأنّ القرآن كريمٌ مُكْرَمٌ، وإنّما أهان نفسه بهجره كتاب الله.

وأذكر الشّاعر القاضي عبد الوهّاب، عندما وصف نفسه في شوارع بغداد في زمن من الأزمان، جاء إلى بغداد ولم يوفّق في عمل:



أصبحت أسعى غريباً في شوارعها كأنني مصحفٌ في بيتِ زنديقٍ^(١)
 أمّا كون المصحف متروكاً في البيت دون قراءةٍ حراماً فلم يرد نصٌّ في
 ذلك، والتَّحريم والتَّحليل لا يحكم به إنسان من غير نصٍّ.



التماس الأوقات الفاضلة

السؤال:

في رمضان ليلة (٢٧) منه أقوم بإخراج صدقة لوالديّ اتَّخذتها طريقة
 لي، لا سيّما أنّي أحبُّ هذه اللّيلة، نصّحني من ألتمس نصيحتَه أن
 اتَّخذها في ليلة الجمعة، فما رأيكم؟

«سعد من وزارة الدِّفاع»

الجواب:

التماس الأوقات والأماكن الفاضلة لفعل الخير يرجى فيه الخير،
 وممّا رُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ من أخبارٍ أنّه كان «يلتمسُ ليلةَ النُّصفِ من
 شعبان»^(٢)، «ويلتمسُ رمضان»^(٣)، وكان «أجودَ ما يكون في رمضان»^(٤)

(١) انظر: شرح لامية العجم، للدميري، (٢١/١) وورد الشطر الأوّل، بلفظ: أقمْتُ
 فيها مُضاعاً بين ساكنيها.

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٣٨٨)، بلفظ: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا
 ليلها وصوموا نهارها».

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٦٨٧)، بلفظ: «أحصوا هلال شعبان لرمضان».

(٤) رواه البخاري، رقم: (٦).



«وليلة السَّابع والعشرين من رمضان»^(١) قيل: إنها ليلة القدر، وقال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

أمَّا يوم الجمعة فليس في الأيام أفضل منه إلا يوم عرفة، «وفيه ساعة لا يصادفها من يؤمن بالله واليوم الآخر يسأل الله فيها شيئاً إلا آتاه الله تعالى إياه، ما لم يسأل حراماً»^(٢).

وقد ثبت في الحديث الذي رواه الإمام أحمد أنه ذكر يوم الجمعة فقال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: «خيرُ يومٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يومَ الجمعة»^(٣).

ورأيي أن تُكرَّر الصَّدقة عن والديك، فتجعل لها سهمًا في رمضان والجمعة، والله يوفِّقك إلى طريق الصَّواب.



العمل وقراءة القرآن

السؤال:

«مرعي الحسن» يسأل: أنا شابُّ درستُ ستَّ سنواتٍ في المدرسة، ثمَّ سعت وراء رزقي أعملُ مهنيَّ سيَّاراتٍ، وأتعب من عملي فلا أستطيع قراءة القرآن كلَّ يوم، فهل يجب أن أقرأه يوميًّا، وهل يباح لي أن أقرأ

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير، رقم: (٢٨٥)، بلفظ: «التمسوا ليلة سبع وعشرين».

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٠٨٤).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٨٥٤)، وأحمد في مسنده، رقم: (٩٢٠٧).



التَّوراة والإنجيل حتَّى أفهم ما فيهما؟ أرجوك أرشدني فأنا مُتَعَبٌ، هل أترك عملي؟

الجواب:

المسلم يقرأ القرآن ويعمل بما فيه، وهو حرٌّ في قراءته، إن شاء داوم، وإن شاء قطع، فلا بدَّ للمسلم أن يتعهَّد كتاب ربِّه ما دام حيًّا، أمَّا التَّوراة والإنجيل فلا تجب قراءتهما على المسلم إلَّا أن يكون عالمًا ليستفيد ممَّا فيهما، أمَّا غير العالم فأنصح ألاَّ يقرأ منهما شيئًا.

والعمل لكسب العيش لا يُميت! ولا يتعب من العمل إلَّا الكسلان فلا تكسل، وخير الرِّزق وأفضله وأبركه ما جاء من عرق الجبين، فداوم على شغلك وازدد فيه معرفةً، فلعلَّك تصبح في يوم من الأيام رئيسًا لدائرتك، وقائدًا لعمَّالك، أو ناظرًا عليهم، وعملك هذا قد يقودك إلى أن تكون مهندسًا كبيرًا وتحت يدك من العمَّال من تأمرهم فيطيعونك، هذه نصيحتي لك توالاك الله.



الأُضحية

السؤال:

نستقبل هذه الأيام شهر ذي الحِجَّة، وهو شهر الأُضحاحي، لهذا أريد أن أسألك: قد مات جدِّي ولم يوصِّ مع أنَّه ترك خيرًا كثيرًا، وكان أبي صغيرًا حينها، وقد كان أبي وأخي وعمِّي يعملون الخير.



أيهما أفضل؟ أن يُقدِّم الإنسان الخيرات لنفسه في حياته أم ينتظر إحسان الورثة؟ وهل للأصاحي عددٌ محدَّدٌ؟

«عائشة من كيفان»

الجواب:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [التَّجْم: ٣٩]، والرَّسُولُ ﷺ قال: «إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٌ جاريةٌ أو علمٌ يُنتَفَعُ به أو ولدٌ صالحٌ يدعو له»^(١).

ومعنى ذلك أنَّ العمل النَّافع يوم القيامة هو عمل الإنسان لنفسه، أمَّا إذا بخل على نفسه في حياته، ثمَّ أوصى قبل انقضاء أجله فيقول: اعملوا لي، فهذا أمرٌ فيه نظر.

فالرَّسُولُ أخبرنا أنَّ الصَّدقة الجارية، والعلم النَّافع يبقى ثوابهما، وهما من عمل الإنسان وهو حيٌّ، وأنَّ دعاء الولد الصَّالح لوالده يُستجاب ويُنتَفَعُ به الوالد بعد موته، والوالد يشمل الأب والأُمَّ، والولد يمثل البنت والابن، والولد الصَّالح تربية الوالد الصَّالح، ومن هذا الحديث نفهم أنَّ أفضل ما يقدِّم الولد لوالديه بعد موتهما الدُّعاء الصَّالح.

ولا ننسى الحديث الشَّريف الَّذي يُروى فيه أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ قائلاً: «هل بقي عليَّ من برِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: نعم، الدُّعاء لهما، وصلة الرَّحْمِ التِّي لا توصل إلَّا بهما، وإكرام صديقهما، وإنفاذ عهدهم»^(٢).

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٣٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٥١٤٢).



أَمَّا الضَّحِيَّةُ فَسُنَّةٌ تُقَدَّمُ فِي يَوْمِ عِيدِ الْأَضْحَى بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَهِيَ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ، وَأَفْضَلُ عَمَلٍ يَقْدِّمُهُ الْمُسْلِمُ فِي يَوْمِ الْعِيدِ، وَهِيَ لِمَنْ ضَحَّى بِهَا وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ، وَنَقُولُ فِيهَا أَيْضًا: أُضْحِيَّةٌ أَوْ تَضْحِيَّةٌ أَوْ فِدَاءٌ.



الدِّينُ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

السُّؤَالُ:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. هل تشمل هذه الآية أصحاب الكتاب من النصارى واليهود؟ أم أنها أنزلت لغير الكتابيين فقط؟

«صالح عبود»

الجواب:

أولاً: يجب أن يعرف السائل أن الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ، وَالْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ بُعِثُوا مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً مِنْذُ أَوَّلِهِمْ نُوْحٌ إِلَى آخِرِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ ﷻ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَيَقُولُ أَيْضًا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْسَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

فإبراهيم كان مسلماً، كما قال الله تعالى عنه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، وَلَوْ كَانَ مُسْلِمًا، وَقَدْ

قال الله عن قومه: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذَّارِيَات: ٣٦] أشار لبيت لوط، وسليمان كان مسلماً، وحكى الله تعالى عنه في القرآن قوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النَّمْل: ٤٢]، وقال الله عن ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النَّمْل: ٤٤]، وآل يعقوب قال الله عنهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٣]، وقال الله تعالى على لسان الحواريين لعيسى: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٢]، وموسى عليه السلام قال أيضاً لقومه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يُونُس: ٨٤]، وسحرة فرعون عندما آمنوا، وهددهم فرعون بالصَّلب والتَّقْتِيل، قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٢٦]، وقال نوح أيضاً: ﴿وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يُونُس: ٧٢].

إذن؛ فالإسلام هو دين الأنبياء من قبل وليس دين محمد فقط، ولهذا يردُّ القرآن الكريم على من قال باليهوديَّة أو النَّصْرانيَّة بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٥].

فاليهوديَّة حُرِّفَتْ توراتُها، والنَّصْرانيَّة حُرِّفَتْ وتعدَّدت أُناسُها، لكنَّ القرآن ما زال هو هو، لم يُحَرَّفْ فهو الإسلام الحقُّ الباقي ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٨٥].





الولاء الأول للدين

السؤال:

أقرأ في سورة المجادلة قول الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] إلى آخر الآية .

ثم يسأل السائل فيقول: كشفت هذه الآية بوضوح أن الولاء الأول والأخير ينبغي أن يكون للعقيدة، واليوم نرى في تطبيق هذه الآية صعوبة، فما رأيك؟

«م. العباس من البصرة»

الجواب:

أولاً: علينا أن نعرف سبب نزول هذه الآية، قيل: إنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح عندما قتل أباه، أو في أبي بكرٍ عندما دعى ابنه يوم بدر إلى المبارزة، أو في عمر بن الخطاب عندما قتل خاله يوم بدر، أو في مصعب بن عمير عندما قتل أخاه عبيد بن عمير، أو في عليٍّ وحمزة عندما قتل عتبة وشيبة ابني ربيعة، أو في كثير من الصحابة الذين قتلوا أقرباءهم دفاعاً عن دين الله وإعلاءً لكلمة الحق، وأيُّ قريبٍ أقرب من أب أو ابن؟! (١)

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٣٠٧/١٧).

وَالَّذِينَ نَهَانَا الْإِسْلَامَ عَنْ حُبِّهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ هُمُ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ بِالْحَرْبِ؛ حَرْبَ النَّارِ أَوْ الْقَلَمِ، أَوْ الدَّعَايَةِ وَالْكَلَامِ، أَمَّا الَّذِينَ لَا
يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَنْهِنَا عَنْهُمْ؛ لِقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿لَا
يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفْتِنُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا
إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وإتماماً للفائدة أذكر حكاية مصعب بن عمير مع أمه التي كانت تشتم
الرَّسُولَ ﷺ وتحاول إرجاع ابنها إلى الكفر بعد الإيمان، فلمَّا قاطعها
نزلت الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] (١).

كما أذكر حكاية أبي بكر مع أبيه قحافة عندما سبَّ النَّبِيَّ ﷺ فَصَّغَهُ (٢)
صَكَّةً شَدِيدَةً سَقَطَ مِنْهَا، وَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ قَالَ
لَهُ: «أَوْ فَعَلْتَهُ؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَلَا تَعُدْ إِلَيْهِ» (٣).



الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ

السُّؤَالُ:

قرأت في كتاب التَّربِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ حَدِيثًا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ يَقُولُ فِيهِ:

(١) أوردته البغوي في تفسيره (٢٨٨/٦).

(٢) صكَّه: ضربه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤٥٦/١٠).

(٣) أوردته الثعلبي في تفسيره (٢٦٤/٩).



«أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ»^(١).

ونحن نعلم أنّ هناك بعض النساء لا يؤدّين فرائض الدّين، فكيف يدخلن الجنّة حتّى لو رضي عنهنّ أزواجهنّ؟

«ص . م . م»

الجواب:

إنّ النّبىّ ﷺ عندما يُلقِي تعاليمه الشّريفة لا يلقيها إلّا على من يقف عند حدود الدّين، فلا يترك أمرًا ولا يفعل نهياً، فقد قال النّبىّ تلك الكلمة التي ذكرتها والجالسون حوله مسلمون، امثلوا الأوامر التي جاءهم بها من عند الله، وانتهوا عن النّواهي التي نهى عنها الله.

فالرسول ﷺ عندما قال هذه الكلمة: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ»^(٢) للزّوجات الصّحابت اللواتي كنّ يأخذن التّعالم من فمه الشّريف، وقد قالها ﷺ للمسلمات المؤمنات القانتات التّائبات العابدات، ولم يقلها لخليعات متبرّجات كاسيات عاريات عاصيات.

يا ولدي رضي الله عنك، اعلم أنّ الصّلاة عماد الدّين ومن لا صلاة له لا دين له، وأيُّ عملٍ حسن بلا صلاة أمرٌ مشكوكٌ فيه، والرسول ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ مِنْ عَمَلِهِ الصَّلَاةَ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَنَجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ»^(٣). والمرأة التي تصلّي خمسها لا تعصي زوجها.

(١) رواه الترمذي، رقم: (٨٣٧٠)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٨٨٧٧).

والإسلامُ دينٌ يَحْفَظُ الحقوقَ من المعتدي، ويأمرُ بالقصاصِ وإقامة الحدود، فالحقوقُ لا تُحْفَظُ، والقصاصُ لا ينفَّذُ، والحدودُ لا تقامُ إلَّا بحكمٍ دينيٍّ.

والإسلامُ يأمرُ الَّذِينَ آمَنُوا بالوفاءِ بالعقودِ بينَ العامَّةِ، والعهودِ بينَ الدُّولِ، فكما أنَّ الإسلامَ دينُ أفرادٍ فهو دينُ دولةٍ، والقرآنُ كتابُ الإسلامِ ودستوره وقانونه، جمعُ كلِّ هذا وقاله بلسانه العربيِّ المُبينِ.

وأعداءُ الإسلامِ منذُ أوَّلِ هذا القرنِ أرادوا تجهيلنا بلغتنا لنجهل كتاب ربِّنا فلم ينجحوا، ثمَّ جهَّلونا بديننا ونشروا فكرةَ الدِّينِ لله ولا سياسةَ في الدِّينِ، وسمعناها من العامَّةِ والخاصَّةِ ومن بعضِ رجالِ الدِّينِ، ونجح العدوُّ مدَّةً من الزَّمنِ في استغلالِ هذه الكلمةِ، ولكن يَأْبَى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ نوره ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ [التَّوْبَةُ: ٣٢-٣٣] وصدق اللهُ وعده.

وها نحن نرى وجوهَ الشَّبَابِ المشرقةَ وعليها علامةُ الإيمانِ باللهِ ورسوله تُخْبِرُنَا بَأَنَّ الإسلامَ دينُ عقيدةٍ وعبادةٍ وعملٍ، دينٌ بعث اللهُ به رسوله محمَّدًا ﷺ لتصلحَ به الحياةُ والآخرةُ وتطيبا.

دينٌ بعث اللهُ به محمَّدًا ﷺ ليقولَ للنَّاسِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وليقولَ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) [التَّحَلُّ: ٩٧].





الحكمة من وجود بيت الله الحرام

السؤال:

«رجاء وزهرة» من الجامعة تسألان عن الحكمة من وجود بيت الله الحرام، وتسميته بهذا الاسم، مع العلم أن الله ﷻ مُقَدَّسٌ عن أن يحيط به مكان، فما الحكمة من وجود هذا المكان وتسميته بهذا الاسم؟

الجواب:

حكمة الله أعظم من أن يدركها عقلٌ بشرٍ مخلوقٍ، ولكن قد يشعر الإنسان بشيء يحسبه موقفاً في تفكيره، لقد زرت المسجد الحرام مرّات عدّة، وكنت في أثنائها أجلس مقابل الكعبة، وفي يوم من أيّام ذي الحجّة الأولى - وأظنه كان يوم (٧) ذو الحجّة سنة (١٣٦٨هـ) -، صعدت مساءً إلى السطح الأعلى من الحرم في بنائه الجديد، وكنت أرى سطح الكعبة، وكان هناك كثيرٌ من النَّاسِ أحاطوا بالكعبة صفوفًا وراء صفوف، وكلّما بعدوا عن الكعبة اتّسع الصّفُّ وكلّهم ينظرون إليها، إنّه منظرٌ يملأ قلب المسلم خشوعًا وتعظيمًا لله ﷻ، وقلت في نفسي: ما هي الحكمة من اجتماع النَّاسِ هنا؟ ثمّ خرجت بفكري خارج الحرم ورأيت بعقلي اتّسع الدوائر من البشر خارج الحرم.

ثمّ خرجت من مكّة بعقلي وفكري، الوقت الآن المغرب والنّاس ينتظرون الصّلاة، وكلُّ النَّاسِ في بيوتهم أو مساجدهم متوجّهين إلى الكعبة، فما هو السّرُّ يا ترى؟

جنسيات وألوان ولغات مختلفة من الناس، لكنهم يدينون بدين واحد هو الإسلام الذي يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠].

إذن؛ ما الحكمة؟ الله أعلم، ربّما كانت الحكمة توحيد الوجهة، إنّ الكعبة حَجْرٌ لا تنفع ولا تضرُّ، والذي ينفع ويضرُّ هو الله، وعلم الجيش خرقة لا تنفع ولا تضرُّ، ولكنها تجمع الجيش، ولعلّ هذا البيت هو العلم الذي يوحد المسلمين، واتّحاد الوجهة يقرب بين القلوب.

هذا ما فكّرت فيه في تلك الأمسية اللطيفة الخاشعة التي أسأل الله أن يهب لكلّ مسلم ومسلمة أمثالها، والله أعلم.



لا وسواس في الإسلام

السؤال:

رسالة موقّعة بامضاء أخيك المسلم، يقول فيها: صلّيت المغرب، وجلست في المسجد كعادتي أنتظر صلاة العشاء، وأقضي الوقت بقراءة القرآن، والحمد لله صلّيت العشاء بوضوء المغرب، ثمّ خرجت لزيارة بعض الأصدقاء، ثمّ ذهبت إلى بيتي، وأخذت أغير ثيابي للنوم، فوجدت داخل السروال دمًا كثيرًا، وهذه أوّل مرّة في حياتي أجد الدّم في ثيابي الداخليّة، فهل عليّ أن أعيد صلاة العشاء أم لا؟



الجواب:

لا وسواس في الإسلام، وقد حرّم الإسلام الشكّ، تقول: إنك جلست في المسجد بعد صلاة المغرب، ثمّ صلّيت العشاء، وبعد صلاة العشاء أمضيت وقتاً كبيراً مع أصحابك، فهل أنت على يقين أنّ الدّم حصل لك في المسجد؟ طبعاً لا، إذن؛ فالشكّ لا صحّة له حتى تتيقن أنّ الدّم كان قبل صلاة العشاء، إذن؛ فصلاتك صحيحة.



ورحمتي وسعت كل شيء

السؤال:

هل هناك ذنوب لا يغفرها الله؟ ولا تُقبلُ توبَةُ صاحبها؟

«عبد الله»

الجواب:

قال الله ﷻ في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال جلّ جلاله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

إنّ الإسلام يمحو الشرك، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنّ الإسلام يجبُ

ما قبله؛ أي: الإسلام يقطع الطَّرِيقَ على كلِّ السَّيِّئَاتِ التي فعلها الإنسان أيام شركه، فيمحوها عنه متى علم جلَّ شأنه صِدْقَ إسلامه، وعقيدته، والله ﷻ خلق النَّاسَ في هذه الحياة ليعملوا، فمن عمل صالحًا أثابه الله على حُسْنِ عمله، ومن عمل سوءًا جزاه بسوئه، ومن اهتدى فإنَّما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ فإنَّما يضلُّ عليها، ومن عمل سوءًا ثُمَّ تاب فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ، شرط ألا يكون في هذا السُّوءِ عدوان على غيرك؛ لأنَّ العدوان على غيرك لا يرضاه الله إلا برضا غيرك، والحقوق محفوظة، فمن اهتدى وجب عليه أن يطلب العفو ممَّن اعتدى عليه.

ولا ننسى أنَّ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه كان يسأل عن صاحب الجنازة إذا طُلِبَ منه أن يُصَلِّيَ عليها «هل عليه دين؟ فإذا قيل: نعم، قال: صلُّوا على صاحبكم»^(١).

رجائي من السَّائل أن يقول لصاحبه: اطمئنَّ بالألا، فإنَّ من تاب؛ تاب الله عليه، إلا أن يكون هذا الذَّنْبُ فيه اعتداء على غيرك، فاطلب السَّمَّاحَ والعفو ممَّن جنيت عليه، أو كان فيه حقٌّ لغيرك فرُدَّ عليه حَقُّه، أمَّا إذا كان هذا الذَّنْبُ بينك وبين نفسك وتبت منه فالله ﷻ غفورٌ رحيمٌ.



فعل الخير

ما رأيكم فيمن يُحِبُّ فعل الخير والإنفاق ومساعدة المحتاجين لكنَّه لا يُصَلِّي ولا يصوم، هل يفيدُه ذلك شيئًا؟

«درويش»

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٢٩٥)، ومسلم، رقم: (١٦١٩).



الجواب:

قبل الإجابة أحبُّ أن يسمع الإخوة والأخوات هذه القِصة:

في ربيعِ الأوَّل من السَّنة التَّاسعة للهجرة أرسلَ النَّبِيُّ ﷺ عليًّا بنَ أبي طالبٍ كَرَّمَ اللهُ وجهه ورضي عنه في خمسينَ فارسًا لهدمِ صنمٍ لطيءٍ يقال له: الفِلس، وَعَلِمَ عُبَادُ هذا الصَّنمِ بمسيرة الإمامِ عليٍّ، فوقفوا يدافعون عن صنمهم، وبعد أن حاربهم وهزمهم وهدمه وأحرقه واستاق نعمهم وشياهم، وكان في الأسرى سَفَّانة بنت حاتم الطَّائيِّ، وقد استعرض رسول الله ﷺ الأسرى، فكلَّمته سَفَّانة وذكرت أنَّ أباهما كان يعين على قضاء الحاجة ويكسب المعدوم، فهل يفيد ذلك شيئًا؟ فقال ﷺ: «إِنَّ أبابك كان يحبُّ مكارم الأخلاق، ولو كان مؤمنًا لترحَّمنا عليه»^(١).

وأقول للسَّائل «درويش»: الأعمال لا يعوِّض بعضها بعضًا، فالصَّلاة، والصَّيام، والزَّكاة، والحجُّ لمن استطاع إليه سبيلًا من أركانِ الإسلام، فاتَّقِ الله، وأدِّ الواجب الَّذي عليك، ولا تعتمد على أملٍ ليس لك فيه فائدة، واعمل ما يرضي الله ويُدنِّيك من رحمته.

ويجب أن تعلم أنَّ الإسلام عقيدة، وعمل، ومعاملة، فالعقيدة في القلب، والعملُ بالجوارح والأركان، والمعاملةُ مع النَّاس، وهي ثلاثةُ أسسٍ يُطالب بها المسلم، لا يغني بعضها عن بعضٍ في خلاص الإنسان، فمن أخلَّ بواحدةٍ منها فهو ناقصٌ دينٍ.



(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٨٣٩٩).

التَّوْبَةُ النَّصُوحُ

السُّؤال:

كنت عاصياً متعدياً حدودَ الله، ومخالفاً أوامر الدين، والآن بعد طول تفكير وجدت خلاصي في العودة إلى ربِّي والتَّمسُّكُ بأهداب الإسلام، لكنَّ مشكلتي أنني أشكُّ في قبول توبتي لكثرة ما ارتكبت من آثام فماذا أفعل؟ طمئني، جزاك الله خيراً.

«الرسالة بتوقيع التائب التَّادم من البصرة»

الجواب:

لا أجد جواباً لرسالة التائب من البصرة إلا أن أقول له اقرأ قول الله تعالى الَّذِي عَصَيْتَهُ وَتَعَدَّيْتَ حُدُودَهُ، ثُمَّ نَدِمْتَ وَعَدْتَ إِلَيْهِ، فاقرأ الآيات التي في آخر سورة الفرقان من قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة تجد فيها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقرأ الآية (١٧) من سورة النساء تجد فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]؛ أي: عليمًا بما سيجري منه في المستقبل، عليمًا بصدق توبته، حكيماً به وبقبول توبته الصادقة، فمن صدق ونصح في صدقه علم الله به، وهو الحكيم الذي لا يظلم.



ثُمَّ طَمِئِنُ نَفْسِكَ بِقِرَاءَةِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الْكَرِيمَةِ مِنْ سُورَةِ الزُّمَرِ، الْآيَةِ رَقْمَ (٥٣) وَمَا بَعْدَهَا تَجِدُ الْأَمَانَ وَالْإِطْمِئْنَانَ: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزُّمَرُ: ٥٣-٥٥].

اصدق توبتك يا أخي، وتصديقاً لهذه التوبة عليك أن تؤدّي ما عليك من حقوق للناس، أو أن تعتذر لهم، فحقُّ الخلق واجب أداءه، وإن كنت صادقاً في توبتك يُعِنُّكَ اللهُ، ويحسّنُ عبادته عليك، ليعينوك على التوبة بالإحسان إليك، وأدعو الله ﷻ أن يحسن قصداً ويغفر زلتك، ويحفظ عليك مستقبلك.



عرّفني بنفسك

السؤال:

درست في المعاهد الدنيّة ما عرفت به المعروف والمنكر، وعلمت به الحلال والحرام، والخير والشرّ، والآن أدرس على حسابي في أوروبة، وأنا قائم بأركان ديني، ومحافظ على الصلوات والحمد لله، لكنني في بعض الأحيان أخطئ، وأرتكب إثماً، لهذا أعتقد أنني منافق، هل أترك الصلاة؟ لا، وأعوذ بالله من ذلك، هل أترك الخطيئة؟ لا أقدر، فالشهوات أقوى مني، وأنا أمامها ضعيف، سيدي أكون مديناً لك إذا أجبتي.

هذا مختصر الرسالة التي كتبها من لم يذكر اسمه، ولا عنوانه، وإنما اكتفى بكلمة مسلم والحمد لله .

«مسلم»

الجواب:

قال الله تعالى في سورة الفرقان في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْكَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخُذُ فِيهِ مُمْهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

والصلاة عماد الدين، وركن من أركان الإسلام، والخطيئة معصية ولها وزر، وفاعلها مذنب، والذنب لا يمحو الحسنه، لكن الحسنه تمحو الذنب، فحافظ على صلواتك واسأل الله القبول، واستغفر من سيئتك، والصلاة إذا أدتها طاعة لله وحافظت عليها خشية من ضياعها لا بد أن تنهاك عن الفحشاء والمنكر؛ لأن الصلاة كما قال الله تعالى: ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] لكنك إذا ضيعت صلواتك وتركتها تهاوناً بها؛ ران على قلبك وكانت العاقبة خسرًا.

والمنافق ليس هو من يُصَلِّي وَيُحْطِي، بل هو الذي يخالف ظاهره باطنه ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [التيساء: ١٤٢]، إن المنافق يدعي حبك وهو يكرهك ﴿وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، والمنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.



وختاماً أقول لك: صلِّ لربِّك، واستغفر لذنبك، وجاهد نفسك، فإنَّما الجهاد جهاد النَّفسِ، وسلِّ الله العون على طاعته، وأحسِّن النِّيَّةَ في الدُّعاء، إنَّه سمیعٌ مجیبٌ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].



الصَّابِئَةُ

السُّؤال:

هل للصَّابئة كتابٌ سماويٌّ، وإذا كان لهم فمن هو نبيُّهم؟

لي صديقة صابئية عزيزةٌ عليّ، وقد سمعت أنّ الصَّابئة أنجاس، فهل يباح لي أن أجلس معها وأحادثها، وإذا غبت عنها زمناً طويلاً ثمَّ التقينا هل يباح لي أن أقبلها، وهي تريد أن تقبلني في العيد والمناسبات وإذا قدِّمتُ من سفرٍ، أرجو إيضاح ذلك علماً بأنَّ هذا الجواب يهمني كثيراً، وتسأل عنه كثيراتٌ من زميلاتني اللواتي يتخذن صديقات لهنَّ من غير المسلمات في الجامعة.

«خالدة درويش من العراق»

الجواب:

ذكر القرآن كلمة الصَّابئين في ثلاث آيات: في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٢] وفي سورة المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّبِئُونَ وَالنَّصْرَى﴾ [المائدة: ٦٩] وفي سورة



الحجّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّرِيَّةَ﴾ [الحجّ: ١٧].

والصَّابِئُونَ المذكورون في القرآن هم جماعة من العرب، هداهم الله فتركوا عبادة الأصنام وقالوا: ربُّنا الله، ولم يسجدوا لصنم فسَمَّاهم العرب صابئة، ويقال: صَبَأَ فلانٌ؛ أي: ترك دين آبائه إلى دينٍ لا يعرفه قومه.

أما الصَّابِئُونَ أو الصَّابِئَةُ الَّذِينَ تسأل عنهم خالدة؛ فهم طائفة دينية كانت وما زالت تعيش في العراق على نهري دجلة والفرات، دينهم التَّعبُدُ بالرُّوحانيَّات.

ويقولون: إنَّهم موحدون، وإنَّ لهم نبياً اسمه يحيى ولا يعرفون ابن من، والصَّابِئُونَ يحيطون تعاليمهم الدِّينية بشيءٍ من السَّرِيَّةِ خشية أن تتحوَّر^(١) وتتغيَّر، ويعتقدون بنبوَّةِ هرمس وشيت وإدريس، لكنَّها نبوَّة لا نعرف عنها شيئاً.

وللثوب الأبيض عندهم مكانة دينية، وقد سمعت أنه لا تجوز عندهم عبادة المتعبَّد إلا بالثوب الأبيض.

والصَّابِئُ نظيفٌ جدًّا؛ لأنَّه يتعبَّد الله بالاغتسال دائماً بالماء الجاري، إذ لا يصحُّ اغتساله إلا بالماء الجاري ويسمُّونه الماء الحيّ، إنَّهم يصلُّون (٣) صلوات بركوع وسجود، ويغتسلون من الجنابة، ومن لمس الميت، ويحرِّمون أكل الخنزير والبعير، وكلَّ ما له مخلبٌ من الطيور، وكلَّ ما له نابٌ من السباع، ولا يأكلون الحمام، والزَّواج عندهم لا بُدَّ أن يكون

(١) الحَوْرُ: الرُّجوع عن الشَّيء إلى الشَّيء. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤) / (٢١٧).



بَوْلِيَّ وشهودٍ، والطلاق لا يقع إلا بحكم حاكمٍ، ويحرمُ عندهم الجمع بين زوجتين، ويقولون: إنَّ الله ﷻ أبدع الفلك، وجمع ما فيه من الأجرام والكواكب وجعلها مدبّرات لهذا العالم، فالكواكب والأجرام آباء، والعناصر أمّهات، والحوادث التي تحدث هي مواليدُ بين تلك الآباء والأمّهات، ومن عقيدتهم أنَّ الله ﷻ لا يخلق الشرور ولا القبائح، وأنَّ ما في الكون من نجس وقبيح هي من مواليد الكواكب والعناصر.

أمَّا جوابي عن سؤال السائلة: فالإنسان لا ينجس؛ لأنَّ الله ﷻ كرم الإنسان بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيَّ آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فعرق الإنسان طاهرٌ ولعابه ودمعه كذلك، إلا ما ثبتت نجاسته كالبول والغائط والدم، ولا ينجس عندنا شيء بالشك، لهذا أقول للسائلة: عاملي صديقتك بما تحبين أن تعاملك به وتيقظي لدينك، وكوني على حذرٍ دائم، فالمؤمن لا يغفل.



ما هي الوثنيّة؟

السؤال:

إنِّي مسلمة، وإيماني بالله قويٌّ جدًّا، لي صديقة مسلمة تذهب إلى الكنيسة لتطلب من السيّدة العذراء النّجاح، ولمّا علمت بما تفعل صديقتي فعلت مثلها، فبدأت أتردّد على الكنيسة، وأوقد الشموع، وأطلب النّجاح، ووضعت بغرفتي تمثالين لها، وقد سمعت أنّ ما أقوم به حرام، وغير مقبول؛ لأنني مسلمة، لكنني يا سيّدي رأيت صورة العذراء مرّتين في فنجان القهوة، وهذا ما زادني تمسُّكًا بفعلي، فهل هو حرام؟

وما حكم الدين في هذا؟

«سوسن عزيز من بغداد»

الجواب:

كان الأولى بسوسن أن تكتب عنوانها؛ لأجيبها برسالة خيراً من إجابتها بالإذاعة.

حَرَّمَ الإسلام الوثنية بجميع أنواعها بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النِّسَاء: ٣٦] والدُّعاء عبادة، والدليل على ذلك قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ [مَرِيَم: ٤٨]

فالدُّعاء عبادة، ومن توجَّه بدعائه لغير الله فهو مشرك؛ لأنه ظنَّ أو اعتقد أنَّ غير الله قادر على معونته، وهل أحدٌ غير الله يعين؟!!

إِنَّ التَّمثال حَجْرٌ، وَالله ﷻ قَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ عَنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَوَسَّلُونَ بِالْأَحْجَارِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاهُ عَلَيْكُمْ أَدْعُونُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمْتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءِذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ﴾

[الأعراف: ١٩١-١٩٦]•

والمعنى واضح؛ لأنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ بلسانٍ عربيٍّ مُبين، فالذي لا يسمع ولا يبصر ولا يمشي ولا يبطش ولا يردُّ الأذى عن نفسه كيف ينفع غيره؟!!



يقول الشّاعر:

أرَبُّ يَبُولُ الشُّعْلَبَانَ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الشُّعَالِبُ^(١)

أمّا ادّعاء سوسن بأنّها رأت صورة العذراء في الفنجان فما هو ذاك الفنجان؟ إنّه خيالٌ ولا شكّ في ذلك، والإسلام دينٌ حقيقة لا دينَ فنجانٍ، ودينٌ عزّة، ولا تكون العزّة إلّا بالعقل، والعقل لا يؤمن إلّا بالحقيقة.

وإنّي في ختام جوابي هذا أسألکم بالله هل لفنجان القهوة حقيقة؟ ها إنّي أسمعکم جميعًا تقولون: لا.



وثنيّة في بيت مسلم

السؤال:

اكتشفنا أنّ خادمنا وثنيّة تعبد تماثيل حملتها معها، وأخفتها في غرفتها، وقد شاهدناها وهي تصلّي لها، ونحن في حاجة ماسّة إليها، ولقد فوجئنا بهذه الوثنيّة فهل نبقّيها في بيتنا أم نطردها؟ وهل علينا ذنبٌ إذا أبقيناها؟

«علي أحمد»

(١) انظر: أدب الكاتب، لابن قتيبة الدينوري (١/٢٩٠). قيل إنّه للشّاعر: راشد بن عبد الله السّلمي.

الجواب:

هذا ثاني سؤال من جنسه يصلني، وسأجيبك كما أجبت صاحبك، والذي أعرفه أنه يجب عليك أن تبعد عن بيتك الأوثان التي تعبد من دون الله، ووجودها معكم لا بأس فيه عليكم، وشركها لا يضركم منه شيء ما دتم آمنين على أنفسكم من شرها، وابن آدم لا ينجس إلا إذا لم يتورع من النجاسة، والنجاسات معروفة، أمّا مسألة الأوثان وعبادتها فهذا المنكر الذي يجب أن يُزال.

نحن مأمورون أن نطهر بلادنا من الوثنيّة وخصوصاً جزيرة العرب، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى سائر الجزيرة العربيّة فهو للمساكن أولى وأحقّ، وليعلم الأخ السائل أنه لا أمان للوثنيّة، ولا رادع يردع الوثنيّ عن المنكر، علماً بأنّ هذا الوثنيّ يعلم أنه يعبد حجراً لا ينفع ولا يضر، فاقراً في القرآن محاوراة إبراهيم مع قومه حين قال لهم: ﴿فَسَأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فكان جوابهم له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

لهذا أنصحك قائلاً: لا أمان من الوثنيّ ما دام يعبد الجماد.



مسلم عاصي

السؤال:

«أمّ إبراهيم من العراق» تقول: سمعتُ من أحدِ الوُعَاظِ أَنَّ الَّذِي لَا



يصلِّي كافر، وأنَّ زوجته تحرم عليه، وزوجي لا يصلِّي، وقد نصحته مرَّاتٍ عدَّة فلم ينتصح، وهو يستمع للبرامج الدِّينيَّة من الإذاعات والتَّلَافُز ويصغي لها ويخشع، وأحياناً أسمع منه كلمة التَّوحيد، ويا الله، والصَّلَاة على النَّبِيِّ ﷺ إذا ذُكِرَ أمامه، ويُنصِتُ إذا سَمِعَ القرآن يُتلى ويأمرنا جميعاً بالصَّمت، سيّدي: أصحِّحْ أُنِّي أعيش معه بالحرام؟ علماً بأنِّي زوجته منذ عشر سنين، ولي منه أربعة أولاد، أرشدني ماذا أفعل، أرشدك الله.

الجواب:

إذا صحَّ ما قُلْتَ فزوجك مسلمٌ عاصٍ، ما دام يعتقد بالله ربًّا وبمحمَّد نبيًّا وبالإسلام دينًا، وأنَّ أركان الإسلام واجبة التَّنفيذ، وأنَّ القرآن كلام الله، وأنَّ المسلم واجب عليه الائتثار بما أمر والانتهاز عمَّا نهى فهو مسلم، لكنَّه كما قُلْتَ مسلمٌ عاصٍ.

فادعي الله له أن يهديه، وانصحيه بأنَّتي هي أحسن، وحافظي على بيتك وأولادك، وأرجو لمثل زوجك عودةً إلى الله تعالى.



الوحي

السؤال:

قرأت قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١] آمنت بالله وصدق الله العظيم.

سؤالِي عن معنى هذه الآية؟ وعن قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [الْقَصَص: ٧]، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، فما الفرق بين الوحيين؟ بين وحي النبوة والوحي الذي أوحاه إلى أم موسى وإلى النحل؟

«أبو العبد»

الجواب:

معنى الوحي: الإشارة أو الإلهام، فالإشارة مثل قوله تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلام حين خرج على قومه من المحراب: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]؛ أي: أشار إليهم بما يفهمون من هذه الإشارة أن سبّحوا، أمّا الإلهام فمثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَن أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَاكْفِيهِ فِي آلِيمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

كانت أم موسى حين ألقته في اليمّ مطمئنّة رابطة الجأش بأنّ هذا الطفل محظوظ لن يغرق، وأنّ له مستقبلاً عظيماً.

ومن الإلهام قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] والإيحاء إلى النحل إلهامٌ وفطرةٌ.

ويطلق الوحي أيضاً على الوسواس كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومن الوحي أيضاً الرؤيا الصادقة، فقد أخبرنا المصطفى عليه الصلوة والسلام أنّ: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(١)، أمّا

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٩٨٣)، ومسلم، رقم: (٢٢٦٥).



وحي الله لأنبيائه فهو كما ذكره جلّ جلاله في آية (٥١) من سورة الشورى التي ذكرها السائل في أوّل سؤاله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فتكليم الله الخفي - الذي هو الوحي - يكون أوّلاً بالرؤيا الصالحة، فقد ثبت في الحديث أنّ «أوّل ما بُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة»^(١) فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وهذه الرؤيا أو هذا الكلام الخفي تمهيد وتقوية واستعداد ورياضة لما سيلقى عليه في المستقبل، أو أن يلقي في قلب النبيّ من المعنى ما يلقي، فيكشف للنبيّ ﷺ أنّ هذا الشيء يريد به الله مع اليقين بأنّه من قبل الله تعالى، كما يقول عليه الصلاة والسلام في بعض الأحيان: «ألقي في روعي»^(٢) فهذا الإلقاء في الرّوع هو تكليم خفيّ، أمّا التّكليم من وراء حجاب فمثل قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿يَمْسُقْ وَيْمُسِقْ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣] إلى آخر ما جاء في الآيات من سورة طه.

أمّا الوحي بإرسال الرسول فهذا في الغالب يبعث الله إلى الرسول ملكاً من ملائكته فيكلّمه ويستقرّ في نفس الرسول بيقين أنّ هذا حقّ، كما بعث الله ﷻ جبريل ﷺ إلى عبده ورسوله محمّد بالرسالة التي نعرفها، والذي تلقّيناها وعرفنا أنّ الوحي واحد، وأنّ الله أوحى لنبيه كما أوحى لسائر أنبيائه السابقين، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [النساء: ١٦٤].

(١) رواه البخاري، رقم: (٣).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٩٣١٧).

[١٦٣] إلى آخر الآية .

وكما فهمنا أيضاً أنّ واسطة الوحي واحد وهو جبريل ، ومبدأ الوحي :
لا إله إلا الله ، وحدانيّة لا يشوبها شرك ، وإن اختلفت فروع التشريع في
الشرائع الإلهية المنزلة : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .



كذلك اليوم تنسى

السؤال :

سمعت حديثاً عن رسول الله ﷺ معناه : أنّ من حفظ آيةً من القرآن
الكريم ثم نسيها يحشر يوم القيامة أعمى ، فهل هذا الحديث صحيح؟
«محمود سعيد عبد الرحمن من النُّقرة»

الجواب :

الذي سمعته ليس حديثاً لكنّه آية من كتاب الله في سورة طه ، وهي
قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١١٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١١٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ
أُنْتُكَ ءَايَتُنَا فَانصَبْ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنسِي ﴿١١٦﴾ [طه : ١٢٤-١٢٦] .

وليس المعنى : أنّه حَفِظَ آيةً فنسيها ، بل إنّ المعنى أن يقرأ الآية
ويُعرض عن تنفيذ أوامرها ، ولا ينتهي عن نواهيها ، ويتقاعس عن
معانيها ، ويتغافل عن أوامرها ، ويعرض عن واجباتها ويتناساها ، أمّا من
حَفِظَ آيةً ونسيها فلن يحشر يوم القيامة أعمى ، ما دام يعرف معناها ،



ويقف عند حدودها، ويحترم الأوامر والنواهي التي حوتها.



خواتيم سورة البقرة

السؤال:

سمعت حديثاً عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوق، فرفع رأسه فقال: هذا بابٌ من السماء فُتِحَ اليوم ولم يفتح قطُّ إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أُوتيتهما ولم يؤتهما نبيٌّ من قبلك؛ فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته».

فما هي خواتيم سورة البقرة؟

«محمود هاشم من العراق»

الجواب:

هذا الحديث من الأحاديث الصحيحة رواه مسلم^(١) والنسائي^(٢) والحاكم^(٣).

والنقيض الذي سُمِعَ هو صوتٌ كصوتِ فتح الباب، وجاء ذكره في

(١) رواه مسلم، رقم: (٨٠٦).

(٢) رواه النسائي، رقم: (٧٩٦٠).

(٣) رواه الحاكم، رقم: (٢٠٥٢).

القرآن وفي الأحاديث الشريفة، ففي كتاب الله تعالى قوله جلَّ شأنه في سورة القمر: ﴿فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القَمَر: ١١]، إشارة إلى الرَّحْمَةِ النَّازِلَةِ مَعَ الْمَطَرِ، وَفِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأَعْرَاف: ٤٠]؛ أَي: أَنَّ أَبْوَابَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَغْلَقَةٌ دُونَهُمْ.

أَمَّا الْأَحَادِيثُ فَقَدْ ذَكَرَ فِيهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ كَثِيرًا، مِنْهَا: «أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَلَّى الصَّلَاةَ فَاتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا خَرَجَتْ وَلَهَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ، فَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتَقُولُ لِمُصَلِّئِهَا: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، وَإِذَا صَلَّى لَمْ يَتَمَّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا وَلَا الطَّمَأْنِينَةَ فِيهَا خَرَجَتْ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتَنَةٌ، فَتُغْلَقُ دُونَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُلْفُ كَمَا يُلْفُ الثَّوْبُ الْخَلْقُ وَيُرْمَى بِهَا وَجْهَ مُصَلِّئِهَا، وَتَقُولُ لَهُ: ضَيَّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي»^(١).

وَسُورَةُ الْفَاتِحَةِ مَعْرُوفَةٌ، وَهَنَّاكَ حَدِيثٌ مَعْنَاهُ أَنَّ «سُورَةَ الْفَاتِحَةِ مَقْسُومَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ فَقَرَأَهَا حَتَّى إِذَا انْتَهَى مِنْهَا»^(٢).

وَمَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَةً لَهُ؛ نَهَتْهُ هَذِهِ الصَّلَاةُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ حِجَابًا قَوِيًّا، وَهَكَذَا كُلُّ طَاعَاتِ اللَّهِ، وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا.



(١) رواه أبو داود، رقم: (٥٨٦).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٩٥٣)، وقال: حديث حسن.



المساجد الثلاثة

السؤال:

سمعتك تجيب عن سؤال: أن أفضل المساجد؛ المسجد الحرام، ثم المسجد النبوي في المدينة المنورة، ثم المسجد الأقصى، فيماذا فضل المسجد الحرام على المسجد النبوي؟ وبماذا فضل هذا على المسجد الأقصى؟

«ناصر محمود»

الجواب:

سؤال وجيه، يدل على معرفة، لا سيما أن النبي قال: «حسن السؤال نصف العلم»^(١).

وجوابي للأخ السائل: أن المسجد الحرام أول مسجد وُضِعَ للناس، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وبناء إبراهيم بأمر من الله ﷻ، حيث وضع بناءه على قواعد كشفها الله جل شأنه له بدليل قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعْنَا لَهُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فهو بهذا أفضل المساجد، والمسجد النبوي بناه خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، والمسجد الأقصى بناه الأنبياء من قبل، وبارك الله حوله، ويروى في

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٥٤٣٤).



بعض الكتب أنَّ الَّذِي بناه سليمان بن داود، وقيل بل عمَّره، أمَّا الأحاديث التي وردت في هذا، فقد روى مسلم والنسائي قول الرسول ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلَّا المسجد الحرام فإنِّي آخر الأنبياء وإنَّ مسجدي آخر المساجد»^(١).



الأحرف السبعة في قراءات القرآن

السؤال:

ما معنى الحديث الشريف: «اقرأوا القرآن على سبعة أحرف»؟
«عبد اللطيف الحبيب»

الجواب:

الحديث الَّذِي سأل عنه عبد اللطيف رُوِيَ من وجهين: الوجه الأوَّل: رواه البيهقي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «اقرأوا القرآن على سبعة أحرف، فأَيُّما قرأتم أصبتم، ولا تماروا فيه فإنَّ المراء كفر»^(٢).

والحديث الثَّاني: رواه أحمد والبخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس: «أقراني جبريل القرآن على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده فيزيديني

(١) رواه البخاري، رقم: (١١٩٠)، ومسلم، رقم: (١٣٩٤)، والنسائي، رقم: (٣٨٨٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٢٠٧٠).



حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرَفٍ»^(١)، يريد بالأحرف لحن العرب وأصواتها ولهجاتها، وليس شيء غير ذلك، بحيث لا تخرج هذه اللُّحون والأصوات عمَّا كُتِبَ في القرآن، فمثلاً؛ كلمة صلاة؛ تأتي أحياناً بترقيق اللّام في لهجةٍ عربيّةٍ فصيحَةٍ، وأحياناً بتفخيمها، وفي كلمة عليهم؛ تأتي هاؤها أحياناً مضمومة وأحياناً مكسورة، وكلمة موسى؛ تأتي ألفها مفتوحة تماماً، وتُقرأ أحياناً بإمالة، هذا والله أعلم ما عناه الحديث الشريف في قول: «سبعة أحرف»^(٢).



الفرض الموقوت

السؤال:

قرأت في كتاب الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٣]، أرجو تفسير هذه الآية الكريمة، وكيف كان النَّاس يعرفون أوقات الصَّلَاة وليس عندهم ساعات؟

«أبو بدر»

الجواب:

هذه الآية في سورة النَّسَاء، ورقمها (١٠٣)، ومعناها: أَنَّ الصَّلَاةَ فرضٌ مَّوَكَّدٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يُؤَدُّونَهَا فِي أَوْقَاتٍ مَّحَدَّدَةٍ مَعْلُومَةٍ؛ لِتَذَكَّرَ

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٩٩١)، ومسلم، رقم: (٨١٩)، وأحمد، رقم: (٢٣٧٥).

(٢) سبق تخريجه.



المؤمن بربه في مختلف أوقاته، حتّى لا يغفل فيقصر في الخير أو يقع في الشرّ.

ومعنى كتاباً؛ أي: فرضاً، ومنه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ومعنى موقوتاً: محدداً بأوقات معيّنة لا تتعدّها ولا تخرج عنها، فإن صلّاها قبل الوقت لا تصحّ، وإن تماهل فصلاها بعده كانت قضاءً، وكان أثماً بهذا التأخير.

وأوقات الصّلاة جاء ذكرها في الآيتين الكريمتين من سورة الروم، رقم (١٧-١٨)، قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧-١٨].

فالمساء يدلّ على العصر، والصّبح يعني به: صلاة الفجر، وصلاة العشيّ هي صلاة المغرب والعشاء، وحين تُظهِرون تشير إلى صلاة الظُّهر.

أمّا الأوقات فقد حدّدها الرّسول ﷺ، والمسلمون بعده منذ عهد الرّسالة حتّى عهد التّدوين؛ تدوين السنّة والفقّه، فقالوا: إنّ وقت الفجر أو الصّبح يبدأ من طلوع الفجر وينتهي ببزوغ الشّمس، ووقت الظُّهر يبدأ بالزّوال وهو انتصاف النّهار، وينتهي بصيرورة ظلّ كلّ شيءٍ مثله، غير ظلّ الزّوال، ووقت العصر يبدأ بانتهاء وقت الظُّهر حتّى تمام الغروب، ووقت المغرب من تمام غروب الشّمس حتّى يغيب الشّفق الأحمر، وبه يبدأ وقت العشاء حتّى طلوع الفجر الصّادق، فهذه أوقات الصّلوات.

يدلّ على هذا ما رواه التّرمذي عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «أمّني جبريلُ عند البيت فصلّى الظُّهر في الأولى منهما، حين



كان الفيء مثل الشُّرَاك، ثُمَّ صَلَّى العَصْرَ حين كان ظلُّ كلِّ شيءٍ مثله، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِبَ حين وجبت الشَّمْسُ وأفطر الصَّائِم، ثُمَّ صَلَّى العِشَاءَ حين غاب الشَّفَق، وصَلَّى المَرَّةَ الثَّانِيَةَ الظُّهْرَ حين كان ظلُّ كلِّ شيءٍ مثله لوقت العَصْرَ بِالْأَمْسِ، ثُمَّ صَلَّى العَصْرَ حين كان ظلُّ كلِّ شيءٍ مثليه، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِبَ لوقته الأوَّل، ثُمَّ صَلَّى العِشَاءَ حين ذهب ثلث اللَّيْلِ، ثُمَّ صَلَّى الصُّبْحَ حين أسفرت الأرض، ثُمَّ التفت إليَّ جبريل فقال: يا مُحَمَّدُ هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت فيما بين هذين الوقتين»^(١).

فأنت إن صلَّيتها في أوَّل الوقت أو آخره فقد صلَّيتها في وقتها، ومتى خرج وقتها كانت قضاءً، لكنَّ صلاتها في أوَّل الوقت أفضل، والله الموفِّقُ.



ترتيل القرآن

السُّؤال:

أرجو إفادتي عن معنى قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمَل: ٤]، وما هو التَّجْوِيد؟ هل هو ما نسمعه من القُرَّاء في الحفلات؟ أظنُّ أنَّ هذا غناءً؛ لأنَّه لا خشوع فيه، لا من السَّامع ولا من القارئ!

«انتصار سلمان»

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٤٩).

الجواب:

التَّرتيل معناه: القراءة بتثبُّتٍ وتفهُمٍ وتدبُّرٍ وتأنٍّ، فإنَّ القارئ متى قرأ هكذا انجلى قلبه وخشع، وأحسَّ بالتَّقوى والورع، هذا هو التَّرتيل.

أمَّا التَّجويد فهو أن ينطق بكلمات القرآن نُطقَ العرب، بقلقلة القاف والظَّاء، وإظهار النُّون السَّاكنة عند التقائها بالعين أو بالحاء أو بالخاء، وإدغامها عند التقائها بالواو أو بالميم وهكذا.

وللتَّجويد علمٌ خاصٌّ به؛ كعلم النَّحو، أمَّا الغناء الَّذي تقصده السَّائلة «انتصار» فلا أدري عنه شيئاً، إنَّما أذكر حديثاً طلب فيه الرَّسول ﷺ من أمته أن «يجملوا أصواتهم في القرآن»^(١)، لا أن يلحنوه، ويقرؤوه على إيقاعات.

والله ﷻ قال في كتابه العزيز يصف عباده المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٢].

هذه الآيات التي أنزلت على محمَّد ﷺ إذا سمعوها أو قرأوها زادتهم إيماناً و يقيناً وخشوعاً، فلا يصرخون طرباً ولا يهزؤون رؤوساً ولا يصفقون، بل يمتثلون قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ويستمعون بإنصاتٍ وأدبٍ وقصدٍ وسكونٍ وخشوعٍ رجاءً أن تنالهم الرَّحمة التي تنزل في تلك السَّاعة التي يُتلى فيها القرآن.

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٥٢٧)، بلفظ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن».



والله إنَّه لا يستمع لكتاب الله بأدبٍ وخشوعٍ وإنصاتٍ إلاَّ المخلصون
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ نُورُ الْإِيمَانِ وَبُرْدُ الْيَقِينِ ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].



تناكحوا تناسلوا

السؤال:

سمعت كلاماً يردده النَّاسُ كثيراً من كلام الرَّسُولِ ﷺ، وهو:
«تناكحوا تناسلوا تكثروا»^(١).

ونحن كمسلمين في كلِّ أقطارنا المختلفة نشكو من أزمة الإسكان
وتنظيم الأسرة، بينما لم نسمع هذه المشكلة من غيرنا، وسمعت في إحدى
الإذاعات العربيَّة رأي عربيِّ مسلم يقول: لا بدَّ من تحديد النِّسل، وعلى
كلِّ مواطن ألاَّ ينجب أكثر من ثلاثة؛ خوفاً من أزمة التَّعليم والغذاء، فبأيِّ
القولين نتمسك؟ وما درجة الحديث الَّذي أشرت إليه أعلاه؟

«عبد العزيز إبراهيم من المرقاب»

الجواب:

الحديث الَّذي ذكره السَّائل لفظه مرسل، ولكن هناك حديثان:

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٠٢١)، بلفظ: «تناكحوا، تناسلوا؛
أباهي بكم الأمم يوم القيامة».

لفظ الأوّل: «تزوَّجوا الودود الولود فإنِّي مكاثرٌ بكم»^(١)، رواه أبو داود عن معقل بن يسار.

والثاني: «تزوَّجوا فإنِّي مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهبانيّة النّصاري»^(٢) رواه البيهقي عن أبي أمامة.

والمعنى في هذين الحديثين يتفق مع معنى الحديث الأوّل الذي ذكره السائل، والرّسول عليه الصّلاة والسّلام أراد لنا التّكاثر والمعرفة، والله جلّ شأنه أراد لنا العزّة والعلوّ والأمن بقوله: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ» [آل عمران: ١٣٩]، وبقوله: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» [المتأفقون: ٨].

وأراد لنا أيضاً أن نكون خير أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ونؤمن بالله، وتعهّد عباده بضمان الرّزق لكلّ ساع في الأرض بقوله جلّ جلاله: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا» [هؤود: ٦].

أمّا من تكاسل عن العمل، وقعد عن طلب الرّزق فقد قصّر، وقال النّبي ﷺ عمّن كان هكذا: «كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ»^(٣)، كما قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «إِنَّ السَّمَاءَ لَا تَمَطُرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً»^(٤).

والنّاس في كلّ زمانٍ ومكانٍ مطالبون بالبحث عن رزقهم في ديارهم

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢٠٥٠).

(٢) رواه البيهقي، رقم: (١٣٤٥٧).

(٣) رواه سعيد بن منصور، رقم: (٢٩١٩).

(٤) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه (٣٤٢/٢).



وأوطانهم، كما قال جلّ جلاله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وكما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [المك: ١٥]، والرزق لم يقلّ أمام العاملين، والأرض لم تبخل على أهلها الساعين، لكنّ قعود النَّاس عن العمل هو الَّذي منعهم الرِّزق، واعتمادهم على غيرهم هو الَّذي قصّر بهم، وأمّا العلم فميسور، ومن سعى إلى العلم سعى إليه العلم، والعالم لا يبخل بعلمه على طالبه أبداً، وكلمات: أزمة معيشة، وسكن، وتعليم، وأسر، كلمات غريبة! لم يعرفها الإسلام من قبل، ولا أسلافنا الصّالحون يوم كان البيت يضمّ العشرات من السُّكّان، فلم يشكّ المسؤول عنهم من أزمة المعيشة ولا ضيق السُّكّان؛ وإنّما كان يفرح بالمولود، ويبادر إلى العقيقة ينحرها شاكرًا ربّه الَّذي أنعم عليه بمولوده، مُثنيًا على هذه النعمة، طالبًا منها المزيد، يردّد قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

إنّها كلمات دخيلة ينتج من ترديدها قلة ثقة قائلها بالله، ونعوذ بالله من قلة الثقة به.

أمّا سؤال السائل عن رأيي فلا رأي لي في الموضوع؛ لأنني مسلم لا أخرج عن رأي نبيّ الإسلام الَّذي قال: «تزوَّجوا تكثروا فإنّي مكاثرٌ بكم الأمم أو أباهي بكم الأمم»^(١).

وقول الله ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هؤود: ٦]

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٤٤٢).

فالخالق هو ضامن الرِّزْق، والرَّسول يريدنا أن نكثر لياهي بنا الأمم يوم القيامة، وواجبنا بوصفنا مسلمين أن ننزل عند رغبة نبينا هذه، وواجب المسؤول ألا يترك هذا التَّكاثر للجهل والإهمال وعدم المبالاة بل من واجبه أن يعرف مسؤوليَّته، وأن يقف عند حدودها، أمَّا أولئك المسؤولون الذين يتركون ذراريهم سائبين في الطُّرقات، أو مهملين مع الأمَّهات لا يشبعونهم من جوعة، ولا يسترورنهم من عُري ولا يعلمونهم من جهلٍ، فويلٌ لهم ممَّا يكسبون من آثام وذنوب.

وليتهم سمعوا قول النَّبِيِّ ﷺ: «كلُّكم راعٍ، وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّته»^(١)، وذكر من هؤلاء المسؤولين الرَّجل؛ فهو راعٍ في بيته ومسؤول عن رعيَّته، والسَّائل هو الله ربُّ العالمين.



التَّعاون

السُّؤال:

نحن مجموعة من الموظَّفين والمستخدمين في وزارة من الوزارات، أنشأنا لجنة، نجمع فيها من الموظَّفين الأعضاء مبالغ تختلف باختلاف الرُّواتب بنسبةٍ مئويَّة، نجمعها لحاجة المحتاج ولورثته من بعده، هل يباح لنا ذلك؟

«مجموعة من الموظَّفين»

(١) رواه البيهقي، رقم: (٦٩٧٥).



الجواب:

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

والتواصي تعاون، وهذا تواصي على الحق فهو تعاون، وقد قال الله ﷻ أيضًا في سورة المائدة يأمرنا بالتعاون: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

بقي علينا أن نذكر أين تحفظ هذه الدراهم، وأين ستكون؟

وأنا أرى أن تشتغل في شركات حتى تربح فلا تخسر، أمّا أنها توضع في بنك فالفائدة من البنك ربًا، والله ﷻ نهانا عن أكل الربا، وحذّرنا من ذلك بقوله جلّ جلاله: ﴿فَآذِنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

لكننا والله الحمد وفقنا في هذه السنين الأخيرة إلى وجود بنك إسلامي يعمل ويضارب ويتاجر، ويعطي من الفوائد الحلال، فإن أودعت هذه الدراهم فيه فهي مضمونة ورابحة، وإن وضعت في شركة إسلامية تستثمر هذه الدراهم وتضمنها فذلك خير أيضًا، أمّا استثمارها في البنوك الربويّة فلا؛ لأنه لا بركة في الحرام، ولا شفاء ولا نفع ولا ثواب.



أخطأت وندمت

السؤال:

بنت البصرة تقول: سألوني مرّة عن تفسير إحدى الآيات القرآنيّة



ففسرتها، وبعد مُضيِّ مدَّة اكتشفت أنني فسرتها خطأ، وأنا الآن في حيرة من أمري، وأخشى عقاب ربِّي فماذا أفعل؟

الجواب:

كان الواجب عليك ألا تقول ما لا تعلمين، والتفسير علم واسع وله أصوله، وليس عيباً أن يقول الإنسان: لا أدري، وقد سُئِلَ مالك بن أنس عن ثمانٍ وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري^(١)، ومن قال لا أدري فقد أفتى^(٢).

أمّا أن نفتي بغير علم ودون سندٍ أو اطلاع فهذا هو الخطأ، وأرى أن تتصلي بمن سألوك وتخبريهم بخطئك، وبالتفسير الصحيح إن كنت قد أطلعت عليه في أحد الكتب المعتمدة، ويجب ألا يمنعك الحياء أو المكابرة من الاعتراف بخطئك، واستغفري ربك، ولا تعودي إلى الإفتاء بما لا تعرفين.



الأبوة

السؤال:

ما معنى الأبوة؟

«سهام من الجهراء»

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٦/١).

(٢) أورده الشعراوي في تفسيره (٢٣٠٥/٤).



الجواب:

الأبوة رحمةٌ وعطفٌ وإحسانٌ، وتربيةٌ للولد، والتربية تجمع في أحرفها كلَّ معاني الحنان، فلا قسوة، ولا إطعام، ولا نهى عن خلقٍ سيئٍ، ولا أمرٌ بفعلٍ حسنٍ إلا بالمعروف.

والأبوة حُبٌّ، وليس هو الحُبُّ المائع، إنه الحُبُّ الحقيقي الذي يجري في عروق الوالد لأولاده منذ الولادة حتى يبلغوا السنَّ الذي يميِّزون فيه بين الحسن والقبيح، والشَّرِّ والخير، والنَّافع والضَّارِّ، والإيمان والكفر، ثمَّ بعد ذلك يدعو لهم بالتَّوفيق.

فالأبوة حنانٌ وعطفٌ، كما قال الشَّاعر يحيى بن سعيد:

غذوتك مولودًا وعلتك يافعًا تعلُّ بما أحنو عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسُّقمِ لم أبت لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأنِّي أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعيني تهمل^(١)
أمَّا الإهمال، والاكتفاء بالغذاء والكساء، والابتعاد عن الجلوس مع البنات والأبناء فهذه صفات لا يتَّصف بها الآباء.

وليسمع الأخوة المشاهدون قول النَّبيِّ المَبشِّرِ النَّذيرِ الهادي ﷺ حين أمرَ بالمساواة بين الأولاد ونهَى أصحابه أن «يُفَضِّلُوا بعضَ أولادهم على بعضٍ»^(٢)، لأنَّ هذا التَّفْضيل يوغر الصُّدور ويولد الضَّغائن والأحقاد،

(١) انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة (٣/٩٩). وقيل: إنه ينسب لأمية بن أبي الصلت.

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٣٥٤٤)، بلفظ: «اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ اعْدِلُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ».

فَقَالَ: «سَوُّوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ، وَلَوْ كُنْتُ مَفْضَلًا أَحَدًا عَلَى أَحَدٍ لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ»^(١).



التَّقَالِيدُ وَالزَّوْجُ

السُّؤَالُ:

تَقَدَّمَتْ لَخُطْبَةِ فَتَاةٍ عَرَفَتْ فِيهَا كُلَّ صِفَاتِ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ، وَلَكِنَّ أَبَاهَا رَفَضَ وَقَالَ: يَا وَلَدِي حِنَّا^(٢) بَدُو، وَتَقَالِيدُنَا تَحْرِمُ عَلَيْنَا تَزْوِيجَ بَنَاتِنَا مِنْ أَوْلَادِ الْحَضَرِ.

سُؤَالِي: هَلْ هُنَاكَ تَقَالِيدٌ وَعَادَاتٌ غَيْرُ تَقَالِيدِ الْإِسْلَامِ وَعَادَاتِهِ؟ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُسْلِمِ الْبَدُوِّ وَالْحَضَرِيِّ؟ وَهَلْ إِذَا بَلَغَتِ الْفَتَاةُ سِنَّ الرُّشْدِ يَبَاحُ لَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ بِبَلَا وَوَلِيِّ؟

«عَبْدُ اللَّهِ الشَّافِي»

الْجَوَابُ:

الْمُسْلِمُونَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، «تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ»^(٣)، وَكَمَا قَالَ الْمُسْطَفِيُّ الْمَخْتَارُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ لَا فَضْلَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(٤).

(١) أوردته المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٣٥٩).

(٢) كلمة دارجة بين أبناء البادية تعني نحن.

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٢٧٥١).

(٤) رواه الطبراني، رقم: (٣٥٤٧).



والرَّسُولُ ﷺ أَخْبَرَنَا فِي خُطْبَةِ الْوُدَاعِ قَائِلًا مَا مَعْنَاهُ: «أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّكُمْ لَأَدَمَ، وَأَدَمٌ مِنْ تَرَابٍ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَيَّ أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَيَّ أَسْوَدٍ إِلَّا بِالْتَّقْوَى»^(١).

هَذَا مَعْنَى الْإِسْلَامِ، وَهَذَا هُوَ مَبْدَؤُهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

أَمَّا مِنْ جِهَةِ الزَّوْجِ فَقَدْ أَمَرْنَا الْمُسْتَفِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ نَتَخَيَّرَ أُمَّهَاتِ أَوْلَادِنَا، فَقَالَ: «فَاطْفِرُ بَدَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ»^(٢) وَأَخْبَرَنَا: «إِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ»^(٣) وَحَدَّرْنَا مِنْ خُضْرَاءِ الدَّمَنِ فِي قَوْلِهِ: «إِيَّاكُمْ وَخُضْرَاءِ الدَّمَنِ»^(٤) وَهِيَ الْبِنْتُ الْجَمِيلَةُ فِي الْعَائِلَةِ الْمُنْحَطَّةِ.

وَقَالَ لَنَا: «إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَرْضُونَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادًا كَبِيرًا»^(٥)، مَعْنَاهُ: مَتَى طَلَبَ يَدَ مَوْلِيَّتِكَ رَجُلٌ عَرَفَهُ الْمَجْتَمِعُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَحَسَنِ الْمَعَامَلَةِ، وَبَأَنَّهُ الزَّوْجُ الصَّالِحُ، ثُمَّ رَضِيَتْهُ مَوْلِيَّتِكَ زَوْجًا لَهَا، فَلَا تَمْنَعُهَا، وَلَا تَرُدَّهُ، بَلْ زَوِّجْهُ؛ لِأَنَّ فِي الْمَنْعِ إِهَانَةً، وَحِرْمَانًا لِلْبِنْتِ مِنَ الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ الَّتِي تَتَمَنَّاهَا فِي رِعَايَةِ زَوْجٍ صَالِحٍ، يَعْرِفُ حَقُوقَ اللَّهِ فِي مَعَامَلَةِ هَذِهِ الزَّوْجَةِ، وَيَعْرِفُ مَعْنَى ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وَيَعْرِفُ مَا عَلَيْهِ لِزَوْجَتِهِ مِنَ الْحَقُوقِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ هَذَا الْمَنْعَ إِثْمٌ

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ، رَقْمٌ: (٢٣٤٨٩).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، رَقْمٌ: (٥٠٩٠)، وَمُسْلِمٌ، رَقْمٌ: (١٤٦٦).

(٣) رَوَاهُ السِّيُوطِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ، رَقْمٌ: (٦١٧٧).

(٤) أَوْرَدَهُ الْعَجْلُونِيُّ فِي كَشْفِ الْخَفَاءِ، رَقْمٌ: (٨٥٥).

(٥) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، رَقْمٌ: (١٠٨٥). وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

كبيرٌ وفسادٌ؛ لأنَّ الفساد يعدي، وقديماً قال الشَّاعر:

لا تربط الجرباءَ عند صحيحةٍ خوفاً على تلك الصَّحيحةِ تجرُّبُ^(١)

أمَّا زواج البنت الرَّشيدة بلا وليٍّ فهو ممنوع، والشَّرِيعَةُ أَخْبَرَتْنَا أَنَّهُ لَا بَدَّ فِي الزَّوْاجِ مِنْ وَلِيِّ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْوَلِيُّ غَائِبًا أَوْ عَاضِلًا - سواء كان أبًا أو أختًا - وقد عضل البنت عن الزَّوْاجِ ظَلْمًا، فَإِنَّهَا تَرْفَعُ أَمْرَهَا إِلَى الْقَضَاءِ، لِيَنْظُرَ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى، وَمَعْنَى الْعَضْلِ: التَّضْيِيقُ وَالْمَنْعُ مِنَ الرَّغْبَةِ، وَالْحِيلُولَةُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ الْخَيْرِ، فَإِذَا رَأَى الْقَاضِي الْحَقَّ بِجَانِبِ الْمَرْأَةِ، حَكَمَ ضِدَّ الْعَاضِلِ، وَنَصَّبَ نَفْسَهُ وَلِيًّا لِيُزَوِّجَهَا مِنْ تَرْضَاهُ زَوْجًا لَهَا.



لماذا يطول الهجر

السُّؤال:

أعمل بالكويت منذ خمس سنوات، ولي زوجة في بلدي أرسل لها كلَّ متطلَّباتها وأكثر، فوجئت منذ مدَّةٍ بخطاب منها تطلب فيه الطَّلاق، ما رأي الإسلام في هذا؟ وهل هي على حقٍّ في طلبها؟
مع العلم بأنني تركتها وتركت بلدي لضيق ذات اليد، محاولاً تحسين حالتنا المعيشية.

«علي محمود»

(١) انظر: الاختلاط بين الرجال والنساء، للشيخ محمد بن شامي شيبه (١/١٢٦).



الجواب:

لها الحقُّ أن تطالب بالطلاق بعد هجر خمس سنوات، وهذا ما لا يرضى به الشرع.

أقول لك: لا أظنُّ أن عيشتك بعيدًا عن أهلك خمس سنوات بريئة، وماذا تفعل الزوجة بخطباتك وما ترسله لها من نقود وأنت عنها بعيد؟! إنَّ الزوجةَ زوجةٌ، وهي في حاجةٍ إليك، فإن كنت زوجًا فاذهب إليها، وإلا فأطلق سراحها، اللهمَّ إلا إذا رضيتُ بغيبتك هذه، فحينئذٍ يكون رضاها إحسانًا منها عليك.

أمَّا أن تتركها هكذا معلّقة، فليس هذا من المروءة ولا من الإنسانيَّة ولا من الإسلام.



حُقُّ الجار على الجار

السؤال:

لي جار يسكن في الطابق العلويِّ، وحمّامه فوق حمّامي، أحسست ذات يوم بماءٍ ينزل من حمّامه على حمّامنا فأتيت بمصلِّح، فطلب ما بين (٣٠ و ٤٠) دينارًا للتصليح وتغيير الأدوات، فذهبت إلى جاري وقلت: واجب عليك إزالة الضّرر الذي يصل إلينا، فقال: أصلحوه، وبعد مدّة جاءني يطلب منّي نصف الخسارة، التي هي خمسون دينارًا، فقلت: وماذا عملت بالخمسين دينارًا؟ قال: أصلحت الحمّام كلّهُ، ورأيتهُ أنّه



أصلح الحمّام بما فيه المغسلة والكاشي والموزاييك والمرحاض، وحتى البانيو نقله من مكانه؛ أي: أنه بنى الحمّام بناءً جديدًا، فرفضت أن أعطيه إلاّ عشرين دينارًا، وأرسلتها إليه فرفض أخذها، فهل له عليّ حقٌّ؟

«مرشد نايف»

الجواب:

إن صدقت في قولك فجارك هذا استغلاليّ، ولا حقّ له بأكثر ممّا أعطيته، علمًا أنّ تصليح الحمّام واجب عليه دفعًا للضرر الذي يقع على الجار، ومن حقّ الجار على الجار أن يدفع عنه الضرر الذي يأتيه من طرفه.



الهدايا

السؤال:

قرأت حديثًا شريفًا قاله النبي ﷺ: «تهادوا تحابُّوا»^(١) فما قولكم فيما يفعلُه المواطنون الآن في مناسبات ذكرى ميلاد الأولاد، أو هدايا الزّواج وما أشبهها؟ وأعتقد أنّ الهدايا في مثل هذه المناسبات محبّبة ومقرّبة ومزيلة للبغضاء، فما رأيكم في ذلك؟

«ساطي محمّد يوسف من النُّقرة»

(١) رواه البيهقي، رقم: (١١٩٤٦).



الجواب:

جوابي للسائل: الحديث «تهادوا تحابوا»^(١) جاء مرويًا عن أبي هريرة، وجاء أيضًا عن عائشة أم المؤمنين، وعن أنس بن مالك، وعن أم حكيم بنت وداع بلفظ غير ذلك اللفظ.

فمن عائشة جاء بهذا اللفظ: «تهادوا تزدادوا حُبًا»^(٢).

وجاء عن أنس: «تهادوا فإن الهدية تذهب بالسخيمة»^(٣). ومعنى السخيمة: الكره.

وعن أم حكيم: «تهادوا فإن الهدية تضاعف الحُب، وتذهب بغوائل الصِّدر»^(٤).

وإنني أشكر الأستاذ السائل على ملاحظته هذه، لكن ما نفعه الآن ليس بهديّة، وإنما هو دَيْنٌ مطلوب الوفاء به بالمناسبة التي تحصل لمن أهدى لك، ثم إن هذه الهدية ما كانت لله، ولا جاءت في حُب الله، وإنما هي رياءٌ ومباهاةٌ أو تقليدٌ.

والرسول عليه الصلاة والسلام حذرنا من هذا التقليد حين قال: «لتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى ولو سلكوا جحر ضب لسلكتموه». والحديث روي في البخاري^(٥) ومسلم^(٦) وفي «مسند» الإمام

(١) سبق تخريجه.

(٢) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٦٢٤٠).

(٣) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٦٢٤١).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣٩٣).

(٥) رواه البخاري، رقم: (٣٤٥٦).

(٦) رواه مسلم، رقم: (٢٦٦٩).

أحمد^(١) والحاكم^(٢)، ومعناه: إخبار بشرور وأساء ستقع فيه هذه الأمة.

أمّا تاريخنا اليوم فلم يذكر شيئاً من هذه الأعياد، لا عيد الميلاد ولا عيد الزّواج ولا ما أشبه ذلك، لا في عهد الصّحابة، ولا في عهد التّابعين، ولا في عهد الأمويّين والعبّاسيّين، ولم نعرفه في بلدنا هذا خاصّة إلا منذ (٢٠) أو (٢٥) سنة حين رَسَخَتْ فينا عادة التّقليد.

لهذا أقول للأخ السّائل: إنّ هذه الحفلات وما يتبعها من هدايا هو تبيذير ليس فيه نفع لفاعله، ولا لمن ساعد فيه، ولا للمجتمع، ولا للوطن.



السَّمَاءُ لَا تَمْطُرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً

مما أقرأنا مُدْرَسُنَا ونحن أطفال هذه القِصَّة: دخل أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يوماً المسجد فرأى قوماً جالسين في ركنٍ منه بعد صلاة الجمعة، فسألهم من أنتم؟ ولماذا لم تنتشروا في الأرض ابتغاء فضل الله كما انتشر غيركم؟ فقالوا: نحن المتوكّلون على الله فعلاهم عمر رضي الله عنه بدرّته وقال: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرّزق، ويقول اللّهُمَّ ارزقني، وقد علم أنّ السّماء لا تمطر ذهباً ولا فضّة»^(٣)، وإنّ الله يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

(١) رواه أحمد، رقم: (٨٣٤٠).

(٢) رواه الحاكم، رقم: (٨٤٠٤).

(٣) سبق تخريجه.



نفهم من كلامه ﷺ: أَنَّ حَيَاةَ الْمُسْلِمِ فِي كُلِّ أَيَّامِ الْأَسْبُوعِ - وَمِنْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ - عَمَلٌ وَبَيْعٌ وَتِجَارَةٌ وَاِكْتِسَابٌ حَتَّى إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلَاةِ سَعَى إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، ثُمَّ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الصَّلَاةِ انْتَشَرَ فِي الْأَرْضِ وَابْتَغَى مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَالتَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَاجِبًا، فَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ قَالَ لَنَا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

آيات كثيرة تأمرنا أن نتوكل على الله في كلِّ شأنٍ من شؤوننا، لكن ما هو التوكل؟

إنَّ معنى التَّوَكَّلِ أَنْ يَرْتَبِ الْمُسْلِمُ الْمَقْدَمَاتِ، وَيَدْعَ النَّتَائِجَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَهَيِّئِ الْأَسْبَابَ، وَيُزِيلَ عَنْ طَرِيقِهِ الْمَوَانِعَ، وَيَتْرَكَ الْبَاقِيَ لِلَّهِ، وَأَنْ يَحْرَثَ الْأَرْضَ، وَيَبْذُرَ الْحَبَّ، وَيَرْجُو الْخَيْرَ مِنَ الرَّبِّ، وَيَنْفِذَ قَوْلَ الشَّاعِرِ ابْنِ السَّنْدِيِّ:

عَلَيَّ أَنْ أَسْمَعِيَ وَلِي - س عَلَيَّ إِدْرَاكَ النَّجَاحِ^(١)
ولا ننسى قول النَّبِيِّ ﷺ الدَّارِجَ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ: «اغْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»^(٢).

والإيمان بالآخرة والتوكل على الله لا يعطل دينًا ذلك أنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ جَاءَ لِإِصْلَاحِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَيَزْعَمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْإِسْلَامَ عَمَلٌ لِلْآخِرَةِ فَقَطْ، وَأَنَّ الْقِيَامَ بِأَرْكَانِهِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهَا يُعْطِلُ الْعَمَلَ لِلدُّنْيَا،

(١) انظر: محاضرات الأدباء، للأصفهاني (١/٥٧٦).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٥١٧)، وقال: حديث غريب.



ويمنع المتعبّد أن يكافح من أجل ترقّيتها، وهذا زعمٌ باطلٌ لا أساس له من الصّحّة؛ لأنّ الدُّنيا والآخرة ككفّتي ميزان، لا ترجح إحداهما إلّا بمقدار ما ترفع الأخرى، أو كالمشرق والمغرب إذا اقتربت من أحدهما ابتعدت عن الآخر، وهكذا فكلُّ إقبالٍ على الآخرة يقابله إعراض عن الدُّنيا.

وهذا كلامٌ صحيحٌ إذا نظرنا إلى القلوب والأهداف والنيّات، ولكن من جعل الدُّنيا غايته ونيّته وهمّه ابتعد عن الآخرة بقدر ما تعلق قلبه بالدُّنيا.

والإسلام طلب من المؤمن في الدُّنيا أن يعمل ويجدّ ويجتهد ويكافح ويبنى ويعمّر ويشيّد على أن تكون الآخرة نيّته وغايته وأمله.

فالمؤمن يتخذ الدُّنيا مزرعة للآخرة، والمزرعة تحتاج إلى عمل وسعي وتعب لكي يقطف العاملُ ثمرةَ عمله كاملةً في الآخرة وإن أدرك بعضها في الدُّنيا، والمؤمن يسخر الدُّنيا لنفسه ولا يسخر نفسه للدُّنيا، ولا يكون عبداً للدّهرم والدّينار فيكون بذلك عبداً للدُّنيا، بل يجعل الدّهرم والدّينار وسيلةً للسّعادة في الآخرة.

والمؤمن عضوٌ عاملٌ في جسم الأُمَّة كما وصفه رسول الله ﷺ: «المؤمنون في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد»^(١) وهو لبنةٌ في بناء الأُمَّة كما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً»^(٢)، فهو يمدُّ هذه الأُمَّة بالقوّة والحركة والنّماء، فإذا زرع أحسن، وإذا صنع أتقن،

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٠١١).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٦)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٥).



وإذا تاجر صدق، وإذا عامل نصح.

وأصحاب النبي ﷺ كلهم كانوا يعملون، فمنهم الزَّارع والتَّاجر والصَّانع، ولم يقعد بهم إيمانهم بالآخرة عن العمل للدُّنيا، كلُّهم كان يبذر الحبَّ ويرجو التَّوفيق من الرَّبِّ، هيَّؤوا الأسباب واجتهدوا في إزالة الموانع وتوكلوا على الله فكفاهم.



نميمة وليست فتنة

السُّؤال:

نعلم أنَّ «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» [البَقَرَة: ١٩١]، أحياناً يأتي أخي الأصغر ببعض الأخطاء، فأخبر والدتي بها حتَّى لا يتكرَّر الخطأ، فيقول لي أخي: أنتِ فتانة والفتنة أشدُّ من القتل، فهل ما أفعله يعتبر فتنة وذنباً أحاسب عليه؟

«الوزان»

الجواب:

قال الله ﷻ في كتابه العزيز: «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» [البَقَرَة: ١٩١]، وقال أيضاً: «وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» [البَقَرَة: ٢١٧].

ومعنى الفتنة: هو صدُّ المسلم عن دينه بأيِّ وسيلةٍ من الوسائل؛ كالكلام المعسول أو التَّعذيب أو الإغراء أو غسل المخِّ كما يقولون في هذه الأيام.

أَمَّا الْفِتْنَةُ الَّتِي نَفَهْمَهَا الْآنَ بِاصْطِلَاحِ الْعَامَّةِ، وَالَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا السَّائِلُ فَهِيَ نَمِيمَةٌ وَليست فِتْنَةٌ، وَهِيَ نَقْلُ الْخَبْرِ السَّيِّئِ إِلَى الْآخَرِينَ، وَفَاعِلُهُ نَمَّامٌ.

وَإِذَا كَانَ نَقْلُ الْخَبْرِ السَّيِّئِ إِلَى ذِي سُلْطَةِ كَانَ جَاسُوسِيَّةً، وَكَانَ نَاقِلُهُ جَاسُوسًا، وَالتَّجَسُّسُ حَرَامٌ إِلَّا فِي سَفْكَ دَمٍ أَوْ هَتَكَ عَرَضٍ أَوْ اغْتَصَابَ مَالٍ أَوْ إِخْلَالَ أَمْنٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البُرُوجُ: ١٠]؛ أَي: صَدُّوهُمُ عَنْ دِينِهِمْ.

وَمِنْهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ نَا إِلَيْكَ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٧٣]؛ أَي: يَصُدُّونَكَ عَنِ الْقُرْآنِ بِالْإِغْرَاءِ الَّذِي بَدَّلُوهُ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]. قَالَ هَارُونُ ذَلِكَ عِنْدَمَا رَأَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَعْبُدُونَ الْعِجْلَ.



اللَّهُ تَوَّابٌ

السُّؤَالُ:

مِنذ مَدَّةِ (١٥) سَنَةٍ تَقْرِيبًا كُنْتُ لِصَا، سَرَقْتُ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَحَلَّاتِ وَالْمَنَازِلِ، وَمَجْمُوعُ مَا سَرَقْتُ يَقَارِبُ الْعِشْرَةَ آلَافِ رِيَالٍ، أَمَّا الْآنَ فَأَنَا فِي الثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِي، تَبَتُ إِلَى اللَّهِ، أَصَلِّي وَأُصُومُ وَأَتَصَدَّقُ بِسَخَاءٍ كُلَّمَا رَزَقَنِي اللَّهُ، لَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ تَوْبَتِي نَاقِصَةٌ؛ لِأَنِّي سَرَقْتُ كَثِيرًا مِنْ



النَّاسِ، أَعْرَفَ بَعْضَهُمْ وَلَا أَعْرَفَ الْبَاقِي، وَأَفْكَرَ فِي الذَّهَابِ إِلَى مَنْ أَعْرَفَهُمْ لِأَرَدَّ لَهُمْ مَا لَهُمْ، لَكُنَّي أَحْشَى أَنْ يَبْلُغُوا عَنِّي السُّلْطَاتِ فَتَقْطَعُ يَدِي، وَأَحْشَى أَنْ يَدَّعِي أَحَدُهُمْ أَنِّي أَخَذْتُ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَقُومُ بِرَدِّهِ، فَمَاذَا أَفْعَلُ؟ إِنِّي حَائِرٌ.

«صالح من السُّعُودِيَّةِ»

الجواب:

تَقُولُ إِنَّكَ سَرَقْتَ، وَتَقُولُ إِنَّكَ تَبْتَ إِلَى اللَّهِ، وَتَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْكَ بِالْهِدَايَةِ وَيَتَقَبَّلَ مِنْكَ التَّوْبَةَ، وَتَرِيدُ أَنْ تَرُدَّ الْحَقُوقَ لِأَرْبَابِهَا، وَهَذَا وَاجِبٌ عَلَيْكَ، وَلَكِنَّكَ تَخَافُ الْفُضِيحَةَ، أَوْ أَنْ يَبْلُغَ بَعْضُهُم السُّلْطَاتِ، وَيَأْخُذُوا عَلَيْكَ مِنْ اعْتِرَافِكَ دَلِيلًا عَلَى جُنَايَتِكَ.

عَلِمًا أَنَّ الْعَدْلَ الْإِلَهِيَّ لَا يَقْطَعُ يَدَ مَنْ تَابَ، اسْمَعِ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٨-٣٩].

إِنَّكَ تَرِيدُ أَنْ تَرُدَّ عَلَى مَنْ تَعْرَفَهُمْ مَا سَرَقْتَهُ مِنْهُمْ وَتَخَافُ مِنَ الْفُضِيحَةِ وَأَقُولُ لَكَ:

إِنَّ الْبَرِيدَ مَوْجُودٌ، وَالْبَرِيدَ لَا يَحْقُقُ مَعَكَ فِي رِسَالَةٍ، ضَعِ الْمَبْلُغَ فِي الرِّسَالَةِ، وَأَرْسِلْهَا مَسْجَلَةً إِلَى مَنْ سَرَقْتَهُ مِنْهُ بِتَوْقِيعِ مَجْهُولٍ أَوْ بِبَلَا تَوْقِيعِ، وَقُلْ: إِنِّي مِنْذُ كَذَا وَكَذَا سَنَةٍ سَرَقْتُ مِنْكَ هَذَا الْمَبْلُغَ، وَالْيَوْمَ تَابَ اللَّهُ عَلَيَّ، وَهَذَا هُوَ الْمَبْلُغُ وَأَرْجُو أَنْ تَقْبَلَهُ وَأَنْ تَعْفُو عَنِّي، وَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا.

فَلَا صَاحِبَ الْمَبْلُغِ يَعْرِفُكَ، وَلَا أَنْتَ فَضَحْتَ نَفْسَكَ، بَلْ أَبْرَأْتُ

ذَمَّتْكَ وَحَفِظَتْ سِرَّكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِنَيْتِكَ .

أَمَّا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَا تَعْرِفُهُمْ فَتَصَدَّقْ عَنْهُمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ السِّرَّ، وَاعْلَمْ يَا وَلَدِي أَنَّ الصَّدَقَةَ مِنَ الْمَالِ الْحَرَامِ مَرْدُودَةٌ، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَصَدَّقَ فَتَصَدَّقْ مِنْ كَدِّكَ الْحَلَالِ وَاللَّهُ الْهَادِي .



الْجِهَادُ وَبِرُّ الْوَالِدِينَ

السُّؤَالُ:

«فِدَائِي» يَقُولُ: نَعْرِفُ أَنَّ الْجِهَادَ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَأَنَّ اللَّهَ قَضَى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَى وَالِدَيْهِ عِنْدَمَا يَكْبُرَانِ عِنْدَهُ، فَكَيْفَ يَقِفُ شَابٌّ مِثْلِي يَرِيدُ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ وَيُرِيدُ بِرَّ وَالِدَيْهِ الْعَاجِزِينَ؟ وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحِلَّ هَذِهِ الْمَعَادِلَةَ الصَّعْبَةَ كَمَا وَصَفَهَا هُوَ .

الْجَوَابُ:

جَوَابِي لِلسَّائِلِ: الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى رَبِّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَفِي سَبِيلِهِ وَإِعْلَاءَ لِكَلِمَتِهِ، وَقَهْرَ أَعْدَائِهِ، وَالدَّفْعَ عَنِ دِينِهِ، وَعَنِ الْمَقَدَّسَاتِ الَّتِي قَدَّسَهَا اللَّهُ .

فَقَدْ كَانَ السَّلْفُ الصَّالِحُ يَتَسَابَقُونَ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيَفُوزُوا بِأَحَدِي الْحُسَيْنِينَ؛ إِمَّا الشَّهَادَةَ وَإِمَّا النُّصْرَ .

وَاللَّهُ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ



رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿[آلِ عِمْرَانَ: ١٦٩-١٧٠]

ويقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَحَرُّقٍ نُجِحِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٧٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَعَامُونَ ﴿١٧١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٧٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

وهنا أحبُّ أن أذكر هذا الحديث الذي طالما أسمعتمكم إيَّاه وهو: أن أحد الصَّحابة جاء يسأل رسول الله ﷺ يقول له: يا رسول الله الرَّجُلُ يقاتل شجاعة والرَّجُلُ يقاتل حميَّة، فمن هو في سبيل الله؟ فكان جوابه ﷺ ما معناه: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١).

وجواباً على سؤال الأخ الفدائيِّ أقول له: وردت أحاديث كثيرة اخترت منها هذا الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ: «أنَّ رجلاً جاء يستأذن النَّبِيَّ ﷺ في الجهاد، فقال له: أَحَيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد»^(٢).

فإن كان لوالديك أخ لك يرعاهما فلا مانع يمنعك من الجهاد في سبيل الله، وإلَّا فأقول لك كما قال رسول الله ﷺ لأحد أصحابه: «ففيهما فجاهد»^(٣).

أُمَّتُنَا غَنِيَّةٌ بِالرِّجَالِ وَالشَّبَابِ، فَلَوْ أَخْلَصَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ وَالرِّجَالِ، وَشَارَكُوا بِالْمَالِ وَالْأَنْفُسِ بِإِخْلَاصٍ، وَوَفَاقُوا وَبَذَلُوا، وَكَانُوا

(١) رواه البخاري، رقم: (١٢٣)، ومسلم، رقم: (١٩٠٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٠٠٤)، ومسلم، رقم: (٢٥٤٩).

(٣) سبق تخريجه.

سلاحهم إيمانهم بالله وبكتابه وبعونه؛ لما غلبهم غالب.

والله ﷻ قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧]، وقال: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٤١]، وقال: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَضُرَّكُمْ وَيَبْتَئِ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مَحَمَّد: ٧].

أمَّا إذا داهم العدوُّ البلادَ وجب في تلك السَّاعةِ الجهادُ على الجميع، شبابًا وشيبيًا، ذكورًا وإناثًا، لا فرق بين هذا وذاك ولا بين أنثى وذكر، ونسأل الله العافية.



لا دعاء إلا على ظالم

السُّؤال:

أمِّي تدعو على والدي بالموت، وقد مات عمِّي إثر نوبة قلبية ولم يبق في عائلتنا سوى أبي، إنني أخاف عليه من دعوات أمِّي وتنتابني أوهام كثيرة، فهل يستجيب الله مثل هذا الدُّعاء؟

«عائشة»

الجواب:

أخبرنا الرَّسولُ ﷺ أنَّ «دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب»^(١)؛ لهذا حذَرنا ﷺ من دعوة المظلوم، وحذَرنا من الظُّلم، وقال لنا: «الظُّلم

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٨)، ومسلم، رقم: (١٩).



ظلمات»^(١)، فإن كان أبوك ظالمًا فالدُّعاء قليل في حقِّه، وإن لم يكن فأُمَّك ظالمة، ودعاؤها مردودٌ عليها.

وكلُّ حيٍّ إلى فناء، ولن يموت المرء قبل أجله، والدُّعاء وغيره لا يقدِّم أجلاً ولا يؤخِّره، ونسأل الله السَّلامة.



كتب لا يؤمن جانبها

السُّؤال:

«عربيٌّ غير معروف» هكذا وُفِّع رسالته، بتاريخ (٢/١٢/١٩٧٧م)، ووضِع صندوق بريد (٢٤٣٣٩).

يقول: سؤالي ينقسم إلى شطرين: كيف نعرف ماذا يعادل العام الميلاديّ من العام العربيّ، والشَّهر الميلاديّ من الشَّهر العربيّ، واليوم الميلاديّ من اليوم العربيّ؟

وفي سؤاله الثاني يقول: لماذا لم تُؤلَّف كتابًا تشرح فيه فوائد السُّور القرآنيَّة وخواصَّ كلِّ آية قرآنيَّة، وماذا تستفيد من كلِّ سورة وكلِّ آية؟ مثل كتب «شمس المعارف الكبرى» و«الدُّرُّ النُّظيم» و«إغاثة المظلوم».

ثمَّ يقول: أرجو إرسال الجواب خطِّيًّا؛ لأنَّه ليس لي فرصة لاستماع الإذاعة.

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٧)، ومسلم، رقم: (٢٥٧٨).



الجواب:

لستُ فلكياً حتّى أجيبك عن سؤالك، وكان الواجب عليك أن تسأل الأستاذ صالح محمّد العجيريّ فلكيّ الكويت، فهو أدرى منّي، وأعرّف بالفروق بين العامين الشمسيّ والقمريّ والشّهرين الشمسيّ والقمريّ، وأرجو أن يفهم الأخ أن ليس هناك عامٌ ميلاديّ وعامٌ عربيّ، بل هناك تاريخٌ ميلاديّ وتاريخٌ هجريّ، أمّا تقدير العام وأيامه والشهر وأيامه فهي إمّا قمرية أو شمسية، أمّا الأيام والليالي فهي واحدة.

وجواباً على سؤالك الثاني فلا أردُّ عليك إلاّ بقولي: سامحك الله وغفر لك، وهداك إلى سواء السبيل!

إنّ القرآن كتاب دين وعقيدة وتربية ونظام وهداية وإصلاح، وشفاء لأعراض المجتمعات، ودواء لأسقام العقول، وضياء لظلمات الضلال، فقد جاء ليُخرجَ النَّاسَ من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة، ومن ظلمات الغواية إلى نور الرّشاد، ومن ظلمات الظلم إلى نور العدل، ومن ظلمات العبوديّة إلى نور الحرّيّة، وهو كتاب الله الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أرسل الله به محمّداً ﷺ ليُخرجَ النَّاسَ من الظُّلمات إلى النُّور.

وقال الله في كتابه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ومعناه: اعملوا في هذه الحياة كما أمركم الله لتنجوا، وتحلوا لكم الحياة، وتربحوا في الآخرة.

وفي آيةٍ أخرى يقول الله جلّ شأنه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ



فجعل النَّجَاحَ أَوَّلًا فِي الْحَيَاةِ، وَهُوَ طِيبُ الْحَيَاةِ، ثُمَّ الثَّوَابَ الْبَاقِي فِي الْآخِرَةِ، وَالذَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ جَعَلَ مِنَ الْبِدَاةِ رِعَاةَ الْغَنَمِ هِدَاةَ أُمَّمٍ، وَجَعَلَ رِعَاةَ الشَّاءِ مَلُوكًا وَأُمَّةً، وَصَدَقَ اللَّهُ لِهَؤُلَاءِ الْعَامِلِينَ بِالْقُرْآنِ وَعَدَهُ لَهُمْ؛ إِذْ قَالَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النُّور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [الْقَصَص: ٥-٦].

أَمَّا الْكُتُبُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْأَخُ الْعَرَبِيُّ غَيْرَ الْمَعْرُوفِ وَهِيَ: «شَمْسُ الْمَعَارِفِ الْكُبْرَى»، وَ«الدَّرُّ النَّظِيمُ» وَمَا عَلَى شَاكِلَتِهَا مِنَ الْكُتُبِ فَإِنِّي أَحْتَرَمُ نَفْسِي وَأُجِلُّ كُلَّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الْإِيمَانِ أَنْ يَقْرَأَهَا مُصَدِّقًا مَا فِيهَا، فَهِيَ كُتُبٌ لَا تَرِيدُ لِلْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ كِتَابَ هِدَايَةٍ وَشِفَاءٍ لِّمَا فِي الصُّدُورِ، وَإِنَّمَا تَرِيدُ أَنْ يَكُونَ خِرَافَةً، وَآلَةُ بَيْدِ الدَّجَالِينَ، يَبْتَزُونَ بِوَسْطَتِهِ أَمْوَالَ ضِعَافِ الْعُقُولِ، فَيَجْعَلُونَ مِنْ آيَاتِهِ حَجَبًا تَعَلَّقَ عَلَى الصُّدُورِ، أَوْ تَوَضَّعَ فِي الْوَسَائِدِ، أَوْ عَلَى رُؤُوسِ الصُّغَارِ، أَوْ عَلَى أَعْضَادِ الْمَعْتَوِهِينَ وَالْمُوسُوسِينَ.

وَإِنِّي لَا أُحِبُّ لِأَخِي الْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْرَأَ هَذِهِ الْكُتُبَ إِلَّا إِذَا كَانَ آمِنًا عَلَى إِيْمَانِهِ، وَيَقْرَأُهَا لِيَطَّلَعَ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ ضَلَالٍ وَإِهَانَةٍ لِّكِتَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ؟





الحجُّ وحقوق النَّاسِ

السُّؤال:

هل الحجُّ يُكفِّرُ الذُّنُوبَ والمعاصي، ويسقط ما على الإنسان من حقوق النَّاسِ؟

«علي»

الجواب:

الحجُّ لا يسقط عن الحاجِّ ما عليه من حقوق للنَّاسِ، مهما كان هذا الحجُّ، ومهما كانت هذه الحقوق صغيرة، والدليل على ذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان إذا جيء له بالجنابة سأل عن صاحبها: «هل عليه دين للنَّاسِ؟ فإذا قيل له: نعم، قال: صلُّوا على صاحبكم»^(١).

حقوق النَّاسِ مطلوبة لا يسقطها حجٌّ ولا حتَّى الجهاد! أمَّا حقوق الله فقد أخبرنا النَّبِيُّ ﷺ أنَّ: «من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق»^(٢) خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه»^(٣).

معنى ذلك: أنَّ من حجَّ وهو تائبٌ من كلِّ ذنبٍ، ونادمٌ على ما فرط فيه تجاه ربِّه غفر الله له، يؤيِّد ذلك قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾

(١) سبق تخريجه، ص؟؟؟

(٢) رواه مسلم، رقم: (١٣٥٠).

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٨١١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.



وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان: ٧٠].

والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ الصَّادِقَةُ تَقْطَعُ مَا قَبْلَهَا، وَتُخْلِي صَاحِبَهَا مِنْ كُلِّ مَا بَدَرَ مِنْهُ تَجَاهَ اللَّهِ، مَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ اعْتِدَاءً عَلَى الْآخِرِينَ.

ومعنى النَّصُوحِ: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَازِمًا عَزْمًا أَكِيدًا عَلَى الْإِقْلَاعِ عَنِ الذَّنْبِ، حَتَّىٰ وَلَوْ تيسَّرَ لَهُ الْوَصُولُ إِلَيْهِ.

أَمَّا حَقُوقُ النَّاسِ فَأَصْحَابُهَا أَوْلَىٰ بِالْغَفْرَانِ، لِهَذَا كَانَ وَاجِبًا عَلَىٰ مَنْ عَلَيْهِ حَقُوقٌ لِلنَّاسِ أَنْ يَسْتَأْذِنَ أَصْحَابَ الْحَقُوقِ إِذَا عَزَمَ عَلَىٰ الْحِجِّ.



لعن الخواص حرام

السُّؤال:

«سائلة كويتية» تقول: إنَّ الله لعن إبليس والكافرين، لكنَّه حرَّم هذه اللَّعْنَةَ عَلَىٰ عِبَادِهِ، فَهَلْ ذَلِكَ صَحِيحٌ؟

الجواب:

اللَّعْنُ مَعْنَاهُ: الْخِزْيُ، وَالْبَعْدُ عَنِ الْخَيْرِ، أَوْ الطَّرْدُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَاللَّهُ ﷻ لَعَنَ إِبْلِيسَ؛ أَي: أَخْزَاهُ وَأَبْعَدَهُ عَنِ الْخَيْرِ، وَطَرَدَهُ مِنْ نَعِيمِهِ الَّذِي كَتَبَهُ لِأَهْلِ الْخَيْرِ، وَاللَّهُ ﷻ لَعَنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَكَفَرُوا بِأَنْبِيَائِهِ وَكُتُبِهِ.

وَلَمْ يَحْرَمْ الْإِسْلَامُ عَلَى الْمَسْلُومِ لَعْنُ إِبْلِيسَ، وَلَا لَعْنَةُ الْكَافِرِينَ، وَلَا



من يحارب الله بمعاصيه ويجاهر بها، وإنما حرّم لعن الخواصّ، فلا يقول الإنسان: لعنة الله على فلان، يقصد بذلك إنساناً معيناً، فلعلّ الله أن يهديه .

وثبت في الحديث قوله ﷺ: «لا يكون اللّعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة»^(١).

وقال صلوات الله عليه وسلامه أيضاً: «لا تلعنوا بلعنة الله، ولا بغضبه، ولا بالنار»^(٢).

وقال أيضاً: «إنّ العبد إذا لعن شيئاً صعّدت اللّعنة إلى السماء، فتُغلق أبواب السماء دونها، ثمّ تهبط إلى الأرض فتُغلق أبوابها دونها، ثمّ تأخذ يميناً وشمالاً، فإن لم تجد مساعاً رجعت إلى الذي لعن، فإن كان أهلاً، وإلا رجعت إلى قائله»^(٣).



تاب من جهالة

السؤال:

سرق ديناراً ونصفاً من رجلٍ سكير، وهو فاقد وعيه، وكنت وقتها في السابعة عشرة من عمري والآن عمري خمسة وثلاثون عاماً، ووضعني

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٩٨).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٩٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٤٩٠٥).



المَادِيُّ جَيِّدٌ، وَالرَّجُلُ الَّذِي سَرَقْتَهُ مَا زَالَ حَيًّا وَبِحَالَةٍ سَيِّئَةٍ، فَمَاذَا أَفْعَلُ؟
وَهَلْ لَا بَدَّ أَنْ أَحْكِي لَهُ الْقِصَّةَ، وَأُرَدِّدَ لَهُ الْمَبْلَغَ؟

«عَبْدُ اللَّهِ»

الجواب:

أَحْيِي فِيكَ هَذِهِ الصِّفَةَ الَّتِي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ فِي ذِكْرِهَا صَادِقًا، وَأَنْ
تَنُمُوَ عِنْدَكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ الْكَمَالِ.

تَقُولُ: إِنَّ الرَّجُلَ حَيًّا يُرَزَقُ، وَإِنَّهُ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ، وَيَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرِ
مِنْ هَذَا الْمَبْلَغِ، وَنَصِيحَتِي لَكَ ضَعِ الْمَبْلَغَ وَأَضْعَافَهُ وَكُنْ كَرِيمًا بِالزِّيَادَةِ،
ضَعِهِ فِي ظَرْفٍ، وَاكْتُبْ عَلَيْهِ عِنْوَانَ الشَّخْصِ وَأَرْسَلْهُ إِلَيْهِ فِي الْبَرِيدِ، وَلَا
حَاجَةَ بِكَ لِأَنْ تَحْكِي الْحَادِثَ كَمَا هُوَ، وَلَكِنْ أَبْرَأْ ذِمَّتَكَ لِتَكُونَ أَمِينًا.



الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَحْتَاكِ أَفْضَلُ

السُّؤَالُ:

أُرِيدُ أَنْ أَتَصَدَّقَ دَائِمًا، وَيُؤَلِّمَنِي أَنْ أَرَى الْمَحْتَاكِ وَالْعَارِي وَذَا
الْمَلَابِسِ الْقَصِيرَةِ، وَالْأَوْلَادِ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمَدَارِسِ حِفَاءً، وَهُمْ أَشْبَهَ
بِالْعَرَاةِ، فَمَا رَأْيُكُمْ بِالصَّدَقَةِ عَلَى أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ؟

«أَخْتَكُم مِّنْ جَنُوبِ الْبَصْرَةِ»

الجواب:

الصَّدَقَةُ كَرَمٌ، وَالْمَتَصَدِّقُ كَرِيمٌ، وَالصَّدَقَةُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهِيَ بِيَدِ الْمَحْتَاجِ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي يَدِ غَيْرِهِ، وَكَلَّمَا كَانَتِ الْحَاجَةُ أَشَدُّ كَانَتِ الصَّدَقَةُ أَفْضَلُ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَرَى ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيْرُهُ لِلْيَسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧].

وَاللُّقْمَةُ فِي بَطْنِ جَائِعٍ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي بَطْنِ شَبْعَانَ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الشَّبْعَانَ لَا يَمْلِكُ قُوَّةَ غَدِهِ، وَالْقَمِيصُ يَتَصَدَّقُ بِهِ الْمَتَصَدِّقُ عَلَى عَرِيَانَ أَفْضَلُ مِنْهُ لَوْ تَصَدَّقَ بِهِ عَلَى نِصْفِ عَرِيَانَ، وَالْإِسْلَامُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَتَحَرَّى مَوْضِعَ صَدَقَاتِنَا لِنَرْبِحَ رِضْوَانَ رَبِّنَا، لِهَذَا أَمَرْنَا بِفَعْلِ الْخَيْرِ وَقَرْنَهُ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].
وقال الحُطَيْبَةُ:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ (١)



الحزن على الأموات

السؤال:

من عاداتنا نحن عشائر العراق: العويل عند موت الإنسان، ولطم

(١) انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة (٣/٢٠٠).



الخدود، وشقُّ الثياب، ولبس السَّواد، إلى آخر هذه العادات الَّتِي نراها
لمدَّةٍ من الزَّمن، ونرى أهل الميِّت يُقدِّمون الطَّعام للرجال والنِّساء
الحاضرين في بيت الميِّت لمدَّة أسبوعين، فهل هذا يطابق أحكام الشَّريعة
الإسلاميَّة؟ وما حكم من يفعل ذلك؟

«عبد الكريم عبيد العلي»

الجواب:

أخبرنا رسول الله ﷺ أَنَّ «الصَّبْرَ نِصْفَ الْإِيمَانِ»^(١)، وفي آية من
كتاب الله يخبرنا جلَّ جلاله أَنَّ الصَّبْرَ عَزِيمَةٌ وَكَرَامَةٌ وَشَجَاعَةٌ، فيقول جلَّ
شأنه: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

والبكاء والعيول ولطم الخدود وشقُّ الجيوب ولبس السَّواد جزعٌ،
والموت قضاء الله وقدره، والذي يجزع من قضاء الله وقدره لا إيمان له؛
لأنَّ للإيمان أركاناً ستَّة، آخرها إيمان بالقدر، والأجل قدر، والجزع منه
كفرٌ به.

والرَّسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام لعن كثيرات ممَّن سأل عنهنَّ السَّائل:
كالصَّالقة، والحالقة، والشَّاقَّة.

فالصَّالقة: الَّتِي ترفع صوتها بالنَّواح على الميِّت.

والحالقة: الَّتِي تحلق رأسها، وتنتف شعرها.

والشَّاقَّة: الَّتِي تشقُّ ثوبها.

وروى أبو داود حديثاً أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «ليس منَّا من حلق ولا

(١) رواه الطَّبْراني، رقم: (٨٥٤٤).



خرق ولا صلِق»^(١).

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ: «لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور»^(٢)»^(٣).

أمَّا لبس السَّوادِ فإنَّه حداد، ولا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على أحدٍ أكثر من ثلاثة أيَّامٍ إلاَّ امرأة مات عنها زوجها، فتحدُّ عليه أربعة أشهر وعشرة أيَّام، بدليل الحديث الذي رواه البخاريُّ^(٤) ومسلم^(٥) وغيرهما من أصحاب السنن^(٦) أن رسول الله ﷺ قال على منبره الشريف: «لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحدَّ على ميِّتٍ فوق ثلاث، إلاَّ على زوجٍ أربعة أشهرٍ وعشرًا».

أمَّا صنع الطَّعامِ وتقديمه للحاضرين فهو بدعة مخالفة للواقع؛ لأنَّ الواجب على الجيران وعلى أقرباء الميِّت وأصدقائه أن يصنعوا الطَّعام للمصابين، وهذا ما أمرت به الشريعة الإسلامية.

فحين استشهد جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة، وعلم بذلك رسول الله ﷺ قال: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا»^(٧)؛ لأنَّ أهل الميِّت

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣١٣٠).

(٢) الثبور: الهلاك. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/٢٠٦).

(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (١٥٨٥).

(٤) رواه البخاري، رقم: (١٢٨٠).

(٥) رواه مسلم، رقم: (١٤٩٠).

(٦) رواه الترمذي، رقم: (١١٩٥)، وأبو داود، رقم: (٢٢٩٩)، والنسائي، رقم:

(٥٦٨٩)، وابن ماجه، رقم: (٢٠٨٥)، والبيهقي، رقم: (١٥٥١٦).

(٧) رواه أبو داود، رقم: (٣١٣٢).



أصيبوا بما يلهيهم عن صنع الطَّعام لأنفسهم، أمَّا أنَّهم يصنعون طعامًا
للاكلين الشَّارين فهذا عكس ما جاء بالسُّنة المحمَّديَّة فهو بدعة، وكلُّ
بدعة ضلالة، أرجو أن يكون السَّائل قد سمع الجواب ووعاه.



شهادة الزور من الكبائر

السؤال:

«محمد. م. ر. من الحرس الوطني» يقول: إنسان دعي إلى الشَّهادة
لإنقاذ صاحبه من الموت أو سجن مؤبَّد، وحلف يمينًا كاذبة أمام القاضي
هل تعدُّ شهادته شهادة زور؟ علمًا أنَّه سينقذ نفسًا من هلاك؟

ومحمد هذا يطلب الجواب السَّريع ويقول في رسالته: إنَّ المحامي
ينتظر إجابتك ليكتب مذكرته، ولم يذكر عنوانًا ولا اسمًا صريحًا، ولا
أدري كيف أرسل الجواب على الاسم المرموز إليه بالحروف وبلا عنوان
واضح.

الجواب:

إنَّ الله ﷻ قرن شهادة الزور بالشُّرك فقال في كتابه العزيز: ﴿فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾

[الحج: ٣٠-٣١].

لم يحرم الإسلام شهادة الزور كما حرم الميتة ولحم الخنزير، إنَّه حرَّمها
مع الأوثان، وبالكلمة التي حرَّم بها عبادة الأوثان، وحرَّمها بكلمة اجتنبوا.



وشاهدك هذا الذي تقول: إنه بشهادته أو يمينه سينقذ إنساناً من هلكة، أحبُّ أن أسأله: أيُّ إنسان هذا الذي تريد إنقاذه بشهادتك المزورة من موتٍ محققٍ أو سجنٍ مؤبَّد؟

إنه إن كان مجرمًا فاتركه ينال أليم العذاب جزاء جريمته التي لم يرحم بها من أجرم بحقه.

وإن كان قاتلاً فالإسلام أمر بالقصاص ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩] هكذا قال الله تعالى، وهكذا قالت العدالة، وهكذا قال الناس، فهل تريد أن تغطّي سوءاً بسوء؟! وجريمةً بكذب وبشهادة الزور؟

اسمع قول نبيك ﷺ، فقد أخبرتنا السنة أنه ﷺ كان جالساً في يوم من الأيام بين أصحابه فقال لهم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وكان متكئاً فجلس وكرّر كلمته، وبدا الغضب في وجهه وتمنّى أصحابه لو أنه سكت»^(١).

ثم ما اسم هذه الشهادة؟ إنها شهادة الزور، والزور في اللغة العربية: كذب أو باطل أو بهتان أو افتراء، وعباد الرحمن لا يشهدون الزور، والحكم بشهادة الزور حكم باطل جائر؛ لأنها تأخذ الحق من صاحبه، وكم خربت شهادة الزور من بيوت عامرة، وكم هتكت من أعراض طاهرة، وكم سفكت من دماء بريئة.

وشاهد الزور نذل وقح، نزع منه الخجل والحياء وتجراً على الله

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٦٥٤)، ومسلم، رقم: (٨٧).



فكذب، وأساء إلى العدالة وأضلَّ القاضي عن طريق الهدى، وطمس عليه معالم الحقِّ، أساء إلى المجتمع الذي يعيش فيه بالظلم، والظُّلم ظلماتٌ، كما أساء إلى نفسه فباع آخرته بدنياه، وأساء إلى الأُمَّة والوطن، وزلزل الحقَّ من مكانه؛ ونشر الفوضى بين أفراد الشَّعب، وأساء إلى دينه فخالف أوامره، ورفض هديه.

وأخيرًا أساء إلى سمعته فهو حقير وما زال ينحطُّ درجةً بعد درجةٍ حتَّى في نظر من شهد له.

والشَّهادة أمانة، والمحافظة على الأمانة أدب من آداب الإسلام أوجبه الله على كلِّ مسلم، والإسلام يدعو أمَّته إلى مكارم الأخلاق وهذا كتاب الإسلام؛ القرآن الكريم يعلن للمسلمين قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

طهَّر يا أخي لسانك، وقلِّ الحقَّ سواءً كان على نفسك أو على أبويك أو على أولادك، واستمع قول ربِّك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدُوا﴾ [التَّيَّسَاء: ١٣٥].

دع الحقَّ يصل إلى صاحبه، والعدالة تمشي في طريقها المعبَّد، وقلِّ الحقَّ حيثما كنت، وابتعد بلسانك وحواسِّك وأعضائك عن شهادة الزور.







فهرس الموضوعات

من غريب ما سألوني الجزء الأول

٥	إهداء
٧	تصدير الدكتور عبد العزيز محمد المنصور
٩	المقدمة
١٢	١- لعلّه نزع به عرق
١٥	٢- عشق متباين
٢٠	٣- غنيمة اليتيمة
٢٢	٤- العاقل من لم يغترّ بإقبال الدنيا
٢٧	٥- يكرهها زوجةً ويحبّها أختًا
٣٠	٦- ومن أولى برعاية ولده من أخيه؟
٣٣	٧- النعمة لا تدوم
٣٦	٨- مأساة
٣٨	٩- تزوّج بنت أخته زواج الشبهة
٤١	١٠- وتقدرّون وتضحك الأقدار
٤٣	١١- توفيقٌ ووفاء
٤٩	١٢- من محاسن المصادفات
٥٣	١٣- كما تدين تُدان



- ١٤- الذَّنْبُ لَا يَنْسَى ٥٨
- ١٥- سَوَاءُ الظَّنِّ يَهْدِمُ السَّعَادَةَ ٦٢
- ١٦- لَا رَحْمَةَ فِي الْجَرِيمَةِ ٦٦
- ١٧- خِيَانَةٌ وَتَوْبِيخٌ ضَمِيرٍ ٦٩
- ١٨- الْمَحَبُّ الْمَسِيءُ ٧٤
- ١٩- أُمُومَةٌ شَادَّةٌ ٧٩
- ٢٠- خَطِيئَةٌ وُلِّدَتْ خَطَايَا ٨٤
- ٢١- مَرَضٌ عَجِيبٌ ٨٩
- ٢٢- أَحَبُّ أُمَّ غَيْرَةٌ؟! ٩٣
- ٢٣- مَدْمَنٌ شَكْوَى ٩٨
- ٢٤- إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمَرْصَادِ ١٠٢
- ٢٥- أَشْرِيكَ حَيَاةً، أُمَّ عَدُوٍّ لِدُودٍ؟! ١٠٧
- ٢٦- أَيُّ الطَّرِيقَيْنِ أَسْلَكَ؟ ١١٢
- ٢٧- اسْتِسْلَامٌ أُمَّ إِكْرَاهٌ؟! ١١٥
- ٢٨- قَالَ: إِنَّ ضَمِيرَهُ اسْتَيْقِظَ! ١٢٠
- ٢٩- الدُّنْيَا مَا زَالَتْ بِخَيْرٍ ١٢٤
- ٣٠- خَطَبْتُ لِنَفْسِي ١٣٠
- ٣١- لَا يَتِمُّهُ وَلَا لَقِيطَةٌ ١٣٤
- ٣٢- ادْفَعْ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنِ ١٣٨
- ٣٣- أَيُّ عَشْقٍ هَذَا؟! ١٤٦
- ٣٤- الْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ١٥٣



- ١٦٠ ٣٥- مصيبةٌ وأعظمُ بها!
- ١٦٧ ٣٦- إذا لم تَسْتَحِي فاصنع ما شئتَ
- ١٧٣ ٣٧- إِيَّاكَ وَالشَّطَطَ
- ١٧٨ ٣٨- لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الله عز وجل
- ١٨٤ ٣٩- اليتيمُ المعقَّد
- ١٩٢ ٤٠- بيتٌ مُعَقَّدٌ
- ١٩٦ ٤١- أمٌّ مثاليَّةٌ وبنْتُ مثاليَّةٌ
- ٢٠٣ ٤٢- المحسن من أتمَّ إحسانه
- ٢١١ ٤٣- كلمةٌ طيبةٌ
- ٢١٧ ٤٤- من أنا؟! ..
- ٢٢٤ ٤٥- غدرٌ لا وفاء
- ٢٣٠ ٤٦- الأعمى المخدوع
- ٢٣٧ ٤٧- أريد حياته ويريد قتلي
- ٢٤٤ ٤٨- شخصٌ بلا شخصيَّة
- ٢٤٨ ٤٩- أنت أدرى
- ٢٥٣ ٥٠- الَّذِي لا يعرف تداييره- حنطته تَأْكُل شعيره
- ٢٥٧ ٥١- يتيم الطَّلَاق
- ٢٦١ ٥٢- من كان عدوَّ نفسه فلا خير فيه
- ٢٦٥ ٥٣- عَجُوزٌ يتصايبى
- ٢٧١ ٥٤- وحلتَّ الكارثة
- ٢٧٨ ٥٥- ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤه



- ٢٨٣ ٥٦- المفتاح عند شقيقة الحبيب
- ٢٨٧ ٥٧- ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً﴾ [الهُمَزَةُ: ١]
- ٢٩١ ٥٨- خَسَّةٌ وَسَوْءٌ خُلِقِ
- ٢٩٧ ٥٩- هل أنتقم؟! ..
- ٣٠٢ ٦٠- الفضلة لا تشيع، والسُّور لا يشفي
- ٣٠٨ ٦١- لا تكنْ أَنَانِيًّا
- ٣١٥ ٦٢- هل في الإسلام طبقيَّة؟! ..
- ٣٢١ ٦٣- طلاقٌ بالإكراه
- ٣٢٥ ٦٤- صبرتُ على شيءٍ أمرَّ من الصَّبْرِ
- ٣٣٢ ٦٥- باب الرِّيحِ سدَّه تسترح
- ٣٣٨ ٦٦- أعاشقُ أم مخدوعٌ
- ٣٤٤ ٦٧- ما هي لقيطةٌ
- ٣٥٠ ٦٨- احذر الغيور فإنَّه حقودٌ



فهرس الموضوعات

من غريب ما سألوني الجزء الثاني

٣٥٩	تضدير الدكتور عبد العزيز المنصور
٣٦١	مَالُ الْيَتَامَى نَارٌ
٣٦٧	عُقْدَةُ أَبٍ
٣٧٢	ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ
٣٧٥	مُسْتَمَعٌ سَائِلٌ يَسْأَلُ
٣٧٩	حَلَاوَةُ الثَّوْبِ رَفَعَتْهُ مَن لَوْنُهُ
٣٨٣	لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ
٣٨٩	حُبُّ مُصْطَفَى وَضَمِيرٌ نَائِمٌ
٣٩٣	أَمْكْرَمَةٌ أُمَّ مَذَلَّةٌ!
٤٠١	هَلْ لِلسُّحْرِ تَأْثِيرٌ؟
٤٠٥	لَا تَقْبَحْ
٤٠٧	الْإِسْلَامُ رَمَزُ الْعَقْلِ
٤١١	الْيَتِيمَةُ
٤١٥	الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
٤٢٢	الْعَيْنُ الْحَاسِدَةُ
٤٢٩	يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَّاءَ



٤٣٤	إِيَّكُمْ وَخَضِرَاءِ الدَّمَنِ
٤٤٠	مَا مَدَى حُرِّيَّةِ الزَّوْجَةِ؟
٤٤٥	لَا جَرِيمَةَ فِي خَطَأً
٤٤٩	وَلَا تَسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ
٤٥٣	صَبْرٌ جَمِيلٌ
٤٥٨	شَخْصِيَّةٌ ضَعِيفَةٌ
٤٦٢	لَيْيْمٌ تَمَرَّدٌ
٤٦٥	مَحْرُومٌ حَنَانٌ
٤٦٩	مَنْ أَخْتَارَ؟
٤٧٢	إِخْلَاصٌ
٤٧٥	الإِيمَانُ أَمَانَةٌ
٤٧٩	تَوْبِيخُ الضَّيِّيرِ
٤٨١	مَنْ أَنَا؟
٤٨٥	مُظْلُومَةٌ
٤٨٨	الْوَالِدُ أُمُّ الْوَالِدَانِ؟
٤٩٣	الزَّوْجُ قِسْمَةٌ وَنَصِيبٌ
٤٩٥	الإِسْلَامُ يَسِرُ وَالْإِسْلَامُ خَلَقَ وَدِينٌ
٤٩٩	إِغْرَاءُ بَزَوَاجٍ
٥٠٢	هل ظلمتهما؟
٥٠٩	لِمَاذَا الطَّلَاقُ؟!
٥١١	طَّلَاقٌ أَوْفَادٌ



٥١٣	الخُرَافَاتُ فساد أخلاق
٥١٥	لا تقنطوا من رحمة الله
٥١٦	لَا طاعةَ لِْمُخْلُوقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ
٥٢٠	الوِراثَةُ وَالْعِرْقُ دَسَّاس
٥٢١	إكراه البنت على الزواج



فهرس الموضوعات

سألوني في العبادات والعقيدة

٥٢٧	تقديم
٥٣١	تسمية سور القرآن
٥٣٢	المعراج
٥٣٣	مكر اليهود
٥٣٥	القردة الخاسئون/ ومرج البحرين
٥٣٦	المسخ
٥٣٨	عمّ سُئِلَ موسى؟
٥٣٩	لا إكراه في الدين
٥٤٢	الربّا والصّدقات
٥٤٤	علم التّأويل
٥٤٥	وفاة عيسى عليه السّلام
٥٤٧	من أهل الكتاب؟
٥٤٩	التّقوى
٥٥١	كنتم خير أمةٍ
٥٥٣	عرض الجنّة
٥٥٤	يُمحّصُ الله الَّذِينَ آمَنُوا



٥٥٧ التَّوْبَةُ فِي آيَةٍ وَحَدِيثٍ
٥٥٨ حَتَّى يَحْكُمُوا فِيهَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ
٥٦٠ الذَّبَائِحُ النَّسْكَ
٥٦١ الْحَسَدُ حَقْدٌ وَالْحَقْدُ يُولِّدُ الْجَرَائِمَ
٥٦٢ الْمَيْسِرُ وَأَنْوَاعُهُ
٥٦٣ مَعْنَى الْوِلَايَةِ
٥٦٦ كَالَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
٥٦٨ تَرْتِيبُ الرُّسُلِ وَإِرم ذات العماد
٥٧٠ الْعِقَابُ وَالْقَضَاءُ وَالْقَدْرُ
٥٧٢ الْمَهْدِيُّ
٥٧٤ اسْتِخْدَامُ الْجَنِّ
٥٧٨ الْحَذْرُ مِنَ الْأَخْطَارِ
٥٧٩ الْمَسِيرُ وَالْمَخِيرُ
٥٨١ حَفْظُ الْقُرْآنِ مِنَ الْخَطَأِ
٥٨٢ مَعْجِزَةُ الرَّسُولِ
٥٨٥ التَّنْزِيلُ الْمَحْفُوظُ
٥٨٦ حَفْظُ الذِّكْرِ
٥٨٨ ذُرِّيَّةُ إِبْلِيسَ
٥٨٩ صِفَةُ الْمَكْرِ
٥٩٠ الْأَعْرَابُ
٥٩١ بِسْمَلَةُ سُورَةِ التَّوْبَةِ



٥٩٣ شاهد يوسف عليه السّلام
٥٩٥ العين والحسد
٥٩٦ شرح آيتين
٥٩٩ وإنّا له لحافظون
٦٠١ التي هي أقوم
٦٠٥ يوم ندعو كلّ أناسٍ بإمامهم
٦٠٧ مغيب الشّمس
٦٠٨ المسيح ابن مريم
٦١١ أين هو الصّنك
٦١٣ لمّ حشرتني أعمى؟
٦١٥ من هو ذو النّون في القرآن الكريم؟
٦١٧ حصّب جهنّم
٦١٩ ميراث الأرض لمن؟
٦٢١ تبارك الله أحسن الخالقين
٦٢٣ يمشون هوناً
٦٢٤ لون سيّدنا موسى
٦٢٦ ميراث الأنبياء
٦٢٨ موسى في مدين
٦٣٠ الغابرون والرّجز
٦٣١ الحيوان
٦٣٢ غلّبت الرّوم



٦٣٤	ما قبل وبعد الآية
٦٣٦	أعرف النَّاسَ بالله العلماء
٦٣٧	حركة الأرض والشمس
٦٣٨	وضرب لنا مثلاً
٦٣٩	قَطَّنَا: نصيبنا
٦٤١	لو وليت
٦٤٢	وراثة الأرض والجنة
٦٤٣	أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين
٦٤٥	فبصرك اليوم حديد
٦٤٧	وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون
٦٤٩	الإثم والفواحش واللَّمَم
٦٥٠	ربُّ المشارق والمغارب
٦٥٢	مرج البحرين
٦٥٣	تنزيل القرآن على جبل
٦٥٥	لمن أُرسِلَ عيسى؟
٦٥٨	ثلاثة أسئلة
٦٦٢	كيف سُطِّحَتِ الأرض
٦٦٤	ما هي الأوتاد المذكورة في سورة الفجر؟
٦٦٦	قد أفلح من زكَّاهَا
٦٦٨	الوقف في التلاوة
٦٦٩	أسماء السور في القرآن



٦٧١	ما هو النَّسخ؟
٦٧٣	كلمة إسرائيل
٦٧٤	نبأ الخصم
٦٧٧	يأجوج ومأجوج والسّد
٦٧٩	أهل الكهف
٦٨٢	أصحاب الكهف
٦٨٩	سؤال عن القرآن الكريم
٦٩١	العشرة المبشّرون بالجنة
٦٩٣	التُّطق بالشهادتين
٦٩٤	الصّلاة طاعة
٦٩٥	خير دعاء
٦٩٦	السُّبحة وعملها
٦٩٨	قراءة القرآن
٧٠٠	هجر المصحف وترك العمل به
٧٠١	التماس الأوقات الفاضلة
٧٠٢	العمل وقراءة القرآن
٧٠٣	الأضحية
٧٠٥	الدّين عند الله الإسلام
٧٠٧	الولاء الأوّل للدّين
٧٠٨	الصّلاة عماد الدّين
٧١١	الحكمة من وجود بيت الله الحرام



٧١٢ لا وسواس في الإسلام
٧١٣ ورحمتي وسعت كل شيء
٧١٤ فعل الخير
٧١٦ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ
٧١٧ عرّفني بنفسك
٧١٩ الصَّابِئَةُ
٧٢١ ما هي الوثنيّة؟
٧٢٣ وثنيّة في بيت مسلم
٧٢٤ مسلم عاصٍ
٧٢٥ الوحي
٧٢٨ كذلك اليوم تنسى
٧٢٩ خواتيم سورة البقرة
٧٣١ المساجد الثلاثة
٧٣٢ الأحرف السبعة في قراءات القرآن
٧٣٣ الفرض الموقوت
٧٣٥ ترتيب القرآن
٧٣٧ تناكحوا تناسلوا
٧٤٠ التَّعَاوُنُ
٧٤١ أخطأت وندمت
٧٤٢ الأبوّة
٧٤٤ التَّقَالِيدُ وَالزَّوْجُ



٧٤٦	لماذا يطول الهجر
٧٤٧	حقُّ الجار على الجار
٧٤٨	الهدايا
٧٥٠	السَّماء لا تمطر ذهبًا ولا فضَّة
٧٥٣	نميمة وليست فتنة
٧٥٤	الله تَوَّابٌ
٧٥٦	الجهادُ وبرُّ الوالدين
٧٥٨	لا دعاء إلا على ظالم
٧٥٩	كتب لا يؤمن جانبها
٧٦٢	الحجُّ وحقوق النَّاسِ
٧٦٣	لعن الخواصَّ حرام
٧٦٤	تاب من جهالة
٧٦٥	الصَّدقة على المحتاج أفضل
٧٦٦	الحزن على الأموات
٧٦٩	شهادة الزُّور من الكبائر
٧٧٣	فهرس الموضوعات

قَبَسٌ مِنْ مُقَدِّمَةِ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ

لبنةٌ مباركةٌ، تحتوي الأعمالُ الجليلةَ لعالمٍ من علماءِ النهضةِ العلميَّةِ في كويتِ الخير... الأعمالُ الكاملةُ لفضيلةِ الشَّيخِ العَلامَةِ عبدِ اللهِ النُّوريِّ رحمتهُ اللهُ، هي: نتاجُ حياةٍ مباركةٍ مليئةٍ بالجدِّ والنَّشاطِ، والاجتهادِ والمثابرةِ، وأعمالِ البرِّ والخيرِ؛ فجاءتِ الأعمالُ ثريَّةً متنوعَةً بينَ علميَّةٍ مُنمَّقةٍ، وأدبيَّةٍ مُشوِّقةٍ، وتُراثيَّةٍ مُدقَّقةٍ، واجتماعيَّةٍ مُتعمَّقةٍ، فيها خُلاصةُ الفِكرِ، ورُبدةُ المخضِرِّ، وحُليَّةُ الأدبِ، وروائعُ مِنَ التَّاريخِ.

تأتي هذه الأعمالُ المباركةُ ضمنَ سِلسلةٍ جمعِ تُراثِ علماءِ الكويتِ؛ لحفظِ تُراثِ الأجدادِ، وإثراءِ المكتبةِ الإسلاميَّةِ عموماً، والمكتبةِ الكويتيَّةِ خصوصاً؛ لتكونَ منارةً للقُراءِ والباحثينَ والدَّارسينَ على مرِّ العُصورِ، ينهلونَ مِنْ مَعِينِهَا بمختلفِ العلومِ والمعارفِ، ليُصدِّقَ فيهم قولُ الشَّاعرِ:

وَإِنِّي وَإِيَّاكُمْ لَكَالنَّحْلِ نَصْطَفِي رَحِيقَ مَجَانِيهِ لِأَلْسِنَتِنَا شَهْدًا

د. عَبْدُ الْمُحْسِنِ عَبْدُ اللهِ الْجَتَارِ اللهُ الْخِزْفِي

